

وزارة المعارف العمومية

كِتَابُ مَا خَلَفَ الْيُونَانِيَّةَ

نشرته بالانجليزية مطبعة جامعة أكسفورد
وترجمته الى العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر بالندوة
وراجع ترجمته أحمد فريد بك ناظر مدرسة المعلمين الثانوية
ومحمد علي مصطفى افندى المدرس بمدرسة
المعلمين العليا (قسم الآداب)

(حقوق الطبع محفوظة لوزارة المعارف)

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٢٩

وزارة المعارف العمومية

كِتَابُ مِاخْلَفِيَّاتِ الْيُونَانِ

نشرته بالانجليزية مطبعة جامعة أكسفورد
وترجمته الى العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة
وراجع ترجمته أحمد فريد بك ناظر مدرسة المعلمين الثانوية
ومحمد علي مصطفى افندي المدرس بمدرسة
المعلمين العليا (قسم الآداب)

(حقوق الطبع محفوظة لوزارة المعارف)

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٢٩

تمهيد

ليس بين العصور ما هو أقرب شبيها بعصر اليونان القديمة من عصرنا مع ما بين الاثنين من فروق كثيرة . فليس من العصور سواء ما جعل أساس حياته الوجدانية الى ذلك الحد البعيد قائما على المبادئ التي أظهرها اليونانيون للعالم ، ولسنا نقول ان التاريخ يعيد نفسه ولكن القرن العشرين اذا شاء أن يبحث في ثنايا القدم عن أقرب أشباهه في الروح لم يجد ذلك الا في القرن الخامس وما يليه قبل الميلاد فلا يزال (ونحن ندرس فكر اليونانيين وأدبهم) نجد وجها يلقانا فنتبين فيه وجهنا وقد حجب غشاء من نسيج الزمن وبعد الشقة . الا أن ذلك الوجه نراه أكثر فتاء وأقل تغضنا وأسارير ، ويبدو من عينه شعاع ينم عن غاية مقصودة محدودة ، ولهذا الأسباب نرى أنفسنا في هذه الأيام في مكان نقدر فيه أن نفهم اليونان القديمة . خيرا من فهم أي عصر آخر لها ، وأن نحفظ عنها ما تلقى من درس . وانا اذا بحثنا في مبادئ القوم وحياتهم وهم قوم تربطنا بهم تلك الأسباب الكثيرة كان لنا من ذلك قدرة أعظم وقوة أوفى على أن نفهم مبادئنا وحياتنا . وهذا الكتاب ، وهو أول كتاب من نوعه في اللغة الانجليزية ، يقصد الى أن يبين بعض ما لليونان على العالم من فضل في مختلف الميادين الروحية والعقلية وما لا يزال جديرا بالعالم أن يتعلم منها .

فهرس

كتاب ما خلفته اليونان

١		فضل اليونان على مستقبل العالم...
٣٢		الدين
٧٢		الفلسفة
١١٥		الرياضة والفلك
١٦٧		العلوم الطبيعة
١٩٩		البيولوجيا — أو علم الحياة
٢٤٧		الطب
٣٠٣		الأدب
٣٤٩		التاريخ
٣٨٥		الأفكار السياسية
٤٢٥		مصاييح الفن اليوناني
٤٣٩		الفصل الثاني من مصاييح الفن اليوناني
٤٤٥		» الثالث »
٤٥٣		» الرابع »
٤٥٩		» الخامس »
٤٦٧		» السادس »
٤٦٩		» السابع »
٤٧٣		» الثامن »
٤٧٩		» التاسع »
٤٨٧		» العاشر »
٤٩٣		فن البناء

فضل اليونان على مستقبل العالم

لئن كان الفضل في الحياة الانسانية في هذه الدنيا يقدر بالدرهم أو يقاس بالميل أو بمقياس مادي آخر (قوة الحصان) لما كانت بلاد اليونان القديمة سوى أرض ضيقة الرقعة أمضها الفقر فلم تكن عدتها ولا آلاتها الا أشباه الرماح والأقواس التي عند الهمج المتوحشين وليست نظائر ما نستخدمه نحن من عدة البرق والطيارات . على أننا اذا صرفنا النظر عن مثل هذه الأشياء المادية وجعلنا ميزان المفاضلة ما تبلغه الأمة من العلم وما تسلكه في تعاملها . وجدنا أن الفرد الوسط من عامة الكتّاب في يومنا ممن ينزل كل يوم الى المدينة ويتصفح جريدة الصباح فترا قد يكون في معاملته أكثر تهذبا وفي علمه مبرزا أوفر حظا اذا قسناه بأحد أوساط الاثنين ممن كانوا يجلسون الى قصص اسكيليس وكأنما أخذهم سحرها .

فالحق أن ذلك العصر العظيم عصر اليونان انما يعتبر بالغا قصارى الهمة وفذا في فضله اذا نحن جعلنا ميزان الحكم قوة الروح ذلك الميزان الذي لا يعتد بالشئ الذي يخلق اعتداده بصفات العقل الذي يتدع ذلك الشئ ولا يعبا بمقدار ما يدرك من العلم مثل ما يعبا بحب العلم والرغبة في تحصيله ولا يقدر ما يقوم به الناس من طيب الأعمال في قيامهم بواجباتهم كما يقدر عملا جليلا من أعمال البطولة يقوم به شخص طوعا واختيارا . فاذا كان ذلك الميزان ميزانا صالحا وجاز لنا أن نتخذه مقياسا أمكننا أن ندرك السبب الذي من

أجله كانت المخلفات اليونانية القديمة في الأدب أساس الثقيف طول أواخر العصور القديمة واستطعنا أن نفهم السر في أن نشورها بعد نسيانها قد بعث نشوة في أذكي عقول أوربا حتى كأنما قد أعاد في نفوسها حياة جديدة مع أن تلك المخلفات لم ينشر منها عند ذلك الا قليل مبتور ولم تفهم فهما صحيحا . وقدرنا أن ندرك أن ادمان البحث فيها والامعان في كشف مخبأتها عمل لا يزال جديرا بأن يصرف فيه الناس أعمارهم ومهما يبذلوا في سبيل ذلك يجدوا جزاءهم من علم يهدي الناس ويوحى اليهم .

ولكن هل ذلك الميزان — ميزان الروح — مما يجوز أن نتخذه مقياسا لائقا؟ اننا لا نستفيد شيئا من سوق ألفاظ مبهمه لم نحللها تحليللا ولكنا نرى مع ذلك أن هذا هو المقياس الذي يليق طبعا لأن يتخذه مؤرخ باحث في فلسفة التاريخ . ولنضرب مثلا رجلا ساق حجة قال : ان أى صانع من صناع البصریات في أيامنا هذه يعلم من علم الضوء وعدساته أكثر مما كان يعلمه (روجر بيكون) وهو مبتدع العدسات الضوئية (النظارات) وقال : ان معنى هذا أن ذلك الصانع أعظم قدرا في الرجال من روجر بيكون وأن هذا المخترع لم يخلف لنا شيئا نستطيع أن نزيد به علمنا اليوم . هب قائلا قال ذلك فماذا يكون جوابك ؟ ان جواب ذلك القول في نظرنا هو أن روجر بيكون قد تعلم عن أساتذته شيئا من العلم ولكنه كان يحمل في نفسه قوة جعلته ينتفع بذلك العلم الذي حصله فيوجهه في سبل غير مطروقة فنمى علمه وزاد أضعافا وأتى أكله جنى طيبا ، وأما صانع العدسات البصرية فاعله قد زاد شيئا على ما تعلمه ولكن ذلك الشيء ليس بالكثير وقد نسي مما تعلمه كثيرا ، واختلط

عليه مما حصله قسط عظيم . فاذا نحن درسنا تاريخ حياة روجر بيكون أو قرأنا كتبه أمكننا أن نتصل بعقله وأن نلمس قبسا من ذلك النور الذي في نفسه يهديها ويوحى اليها وكان ذلك أجدى علينا من كل ما يعلمه صانع البصريات .

ولا شك أن تلك الحقيقة التي نقررها يصعب ادراكها في مؤلفات العلوم الوضعية البحتة ، أما في الكتب الشاملة الواسعة المدى أمثال كتاب داروين فمن السهل على القارئ أن يحس أثناء القراءة أنه في حضرة عقل راجح يبعث في نفس القارئ معاني لا ينبعث مثلها عند قراءة أحدث الكتب الدراسية وأعلامها كعبا في العلم . ويلوح لنا أن الناظر في كتب الفلسفة والدين والشعر ومن تقع عينه على عمل من جليل الأعمال الفنية لا يستحوذ على التفاته في العادة سوى قوة عقل المؤلف ، حتى ليكاد يصرف النظر عن اعتبار العصر الذي كان فيه المؤلف ، وما ذلك التفريق بين هذين النوعين من الكتب إلا لأن العلوم الوضعية جل عنايتها بالحقائق المجردة والعلم المحض فصغر ذلك من شأن عناصر أخرى كالخيال والروح . وهذا هو السر في أن كتب العلوم الوضعية في عصور الحياة والتقدم لا تلبث أن تذهب جديتها فتصبح بعد قليل قديمة ، وكل (طبعة) جديدة منها تخرج سابقتها وتحل محلها وقلمما تجد مؤلفا علميا بقي مرجعا للدارسين أكثر من عشرة أعوام أو نحو من ذلك . ولا تكاد ترى مثالا يخالف ما نقرره بين المؤلفات الحديثة الا كتابا واحدا وذاك هو كتاب نيوتن (پرنسپيا) (Principia) غير أن هناك كتباً قليلة من أمثال ذلك الكتاب . فبادئ الهندسة مثلاً كانت الى نحو عام ١٩٠٠ تدرس في بلاد أوربا

جميعها في كتاب ألفه يوناني اسمه اقليدس في القرن الرابع أو القرن الثالث قبل الميلاد ^(١) أى ان ذلك الكتاب ظل يدرس نحو ألفي عام، لا جرم أن الناس قد وجدوا في كتاب اقليدس شيئاً من الخطأ في هذه الأيام ولكن ذلك الخطأ لم يتبين الا بعد ذلك الوقت الطويل . واني لأعرف رجلاً كبير السن قال لى انه كان يتعلم في أوائل القرن التاسع عشر في مدرسة لا بأس بها من المدارس الانجليزية وكان يحفظ قواعد اللغة عن كتاب من تأليف (ديونيسيوس ثراكس) أو هو (دنيس التراقي) ودنيس هذا كان يونانيا عاش في القرن الأول قبل الميلاد وهو الذى وصل الى كشف سر ذى بال أو لعله لم يكشفه بل بنى على أساس وضع من قبل . وذلك السر هو أن هناك شيئاً اسمه علم قواعد اللغة أى أن الناس في حديثهم المعتاد يتبعون بالطبع بغير تفكير قوانين دقيقة وقواعد متشابكة وان تلك القواعد يمكن استنباطها وترتيبها ودراستها . حقا ان دنيس لم يقيم بكشف كل ذلك وحده بل ان أستاذه (ارستارخوس) وسواه قد مهدوا له السبيل الى ذلك ولكن كتابه ظل يظهر مرة بعد مرة طول هذه القرون التسعة عشر حتى بلغ الأمر أن درسه ذلك السيد المسن الذى مر ذكره .

واليك مثلاً ثالثاً : فقد كان علم الطب قائماً في كل العصور القديمة المتأخرة وفي طول القرون الوسطى على أساس ما كتبه الطبيبان القديمان ابقراط وجالينوس . وقد كان جالينوس يونانيا

(١) منذ كتبت هذه الورقة في أول أمرها . قد طبع الكتاب الأول من اقليدس باللغة اليونانية — مع حاشية عليه كتبها السير توماس هيت (مطبعة كامبردج سنة ١٩٢٠) وهو يفيض فائدة ويسترعى الاقبال .

ممن سكن رومه في أوائل الدولة العاهلية (الأمبراطورية) وكان
 ايقراط يونانيا آخر من جزيرة قوص في القرن الخامس قبل
 الميلاد وما تاريخ الطب الحديث الا سلسلة جهود كان كثير من
 حلقاتها محاولات للخروج من سلطة دينك النابغين القديمين . على
 أن رسالة صغيرة من الرسائل المنسوبة الى ايقراط كانت لا تزال
 الى أيامنا القريبة في أيدي طلبة الطب من بلاد ايقوسيا ولا تزال
 تستخدم في بعض جامعات أمريكا الى اليوم وكانت تلك الرسالة
 هي اليمين الذي كان يقسمه طلبة الطب في العصور القديمة في بلاد
 اليونان عند ما كانوا يستقبلون واجبات مهنة الطب والعلاج
 في محفل رهيب فقد كان الطالب يقسم أن يحل أستاذه ويطيعه
 وأن يقوم على حاجات أولاده اذا كانوا في حاجة وأن يبذل
 قصارى جهده في اعانة مرضاه في كل حين وأن لا يستعمل
 السحر ولا يدعى استعماله وألا يستخدم التعاويذ والتائم وما شابهها
 من الوسائل السفلية غير الطبيعية وألا يعطى السم لأحد ولا يقوم
 بعمل يحرمه الشرع وألا يسىء التصرف في مكانة الثقة التي
 يحل فيها الطبيب من بيت المرضى بطبيعة عمله بل يذكر
 دائما اذا ما دخله أنه انما يدخل ذلك البيت صديقا ومعينا
 لكل من فيه . حقا لقد تركنا ذلك القسم اليوم وأكبر ظنى أننا
 لا نؤمن كثيرا بقوة الأيمان ولكن من وضع صورة ذلك اليمين
 قام بعمل جليل فقد صور صورة واضحة محدودة لواجب صناعته
 الشريفة ومعناها في ألفاظ تناقلها الأطباء بلغات غير معروفة له
 وفي بلاد لم تكن قد عرفت بعد ورأوا فيها ما يعبر عن غرضهم مدة
 تزيد على ألفى عام .

وبعد فأي شيء أقصد أن أوضح به - هذه الأمثلة الثلاثة ؟ فهل أحب أن أظهر مقدار السرعة التي نرمي بها عن أنفسنا آخرخيوط القيد الذي كانت بلاد اليونان تقيدنا به ؟ لا لست إلى هذا أقصد . وإنما أريد أن أظهر أن اليونان في عصرهم الجليل كان لهم من راحة العقل وقوة الحياة ما جعل مؤلفاتهم تبقى بقاء لم تبلغه كتب سواهم حتى في ميدان العلم الوضعي الذي لا تلبث فيه المؤلفات أن يعفيها القدم بسرعة تيار التقدم والتجديد العلمي . وانه بلحدير بنا أن نمحو من عقولنا صورة كتاب اقليدس أنه ذلك الكتاب المشوه الناقص يستعمل في المدارس وأن نذكر اقليدس القديم ذلك الذي لم يكن له الا كتب قليلة وصحفة واسعة من الرمل كان يضعها في الأرض ويخط عليها وما زال يكشف عليها الحقائق ويجمعها ويعيد وضع القواعد الأولى لعلم الهندسة حتى كمل لديه بعد حين كتاب من أعظم الكتب التي ظهرت في العالم وأسهلها تناولا وهو سفر قدر له أن يكون علما من أعلام الفكر ونورا ظل يهتدى به البشر أمدا طويلا بعد أن تبدلت الأحوال وتغير الدهر وزالت الدول التي كان يعرفها اقليدس وثلت عروش الملوك الذين كان يخدمهم ، تعاقبت على أرضها دول أقولها الرومان ثم دالت دولتهم على مر الدهر ووطئت أرضهم جيوش الهمج ، ثم نهض هؤلاء الهمج بعد حين طويل ومصاعب جملة ففتحوا صدورهم للعلم والتربية وكان كتاب اقليدس من عوامل تهذيبهم وها هي هذه الشعوب في أيامنا هذه بعد ذلك الدهر الطويل قد استطاعت أن تصل إلى درس الهندسة بغير كتاب اقليدس ، اذن لقد حان الوقت لزوال دولة كتاب اقليدس ، فليكن ذلك . ولترل دولته ولئن ذهب اليوم فقد ظل حاملا نور الهدى للناس أمدا طويلا وحسبه . وما كتب العلم الا إلى مدى ثم يستبدل بها غيرها .

فالذى أريد أن أبينه أن هذا الروح العقلى القوي الممتاز هو الذى جعل ابيقراط واقليدس ، لابل دنيس التراقى يعيشون ألفى عام ، وأن ذلك الروح نفسه هو الذى نفخه أهل العصر المجيد من اليونانيين فى كل أعمالهم وسوف يبقى جلها على كل حال أبد الدهر لا يعفيا قدم وان هذه الحقيقة التى نذكر أمر سهل ادراكه ولكنه مع ذلك ذو بال وخطر ولهذا نرى حتما علينا أن نختصه بالتوكيد لحظة فانا اذا قرأنا رسالة قديمة فى الطب أو علم الحيل (الميكانيكا) هزنا الاعجاب بها ورأينا فيها مؤلفا جليلا ولكنا مع ذلك ندرك أنها قد أصبحت قديمة عافية وأنها قد عاشت دهرها واحتلب خيرها وسار العلم دونها . ولكنا اذا طالعنا كتب هومر أو اسكيليس وقدرنا على تفهمها وادراك محاسنها لم نجد فى أكثرها ما نشعر من أجله أننا قد أصبحنا فوق مستواها فانا لا شك قد قطعنا أشواطا بعيدة فى صغرى الأمور ، فقد أوغلنا فى ميادين المعارف العامة ودقائق العلوم الوضعية ورقينا فى مراقى الحضارة وما الى ذلك غير أنك لا تكاد تجد ليبييا يتصور أنه قد سبق هؤلاء فى صفتهم الكبرى وميزتهم التى جعلتهم من كبار الرجال .

لا مرء فى أن كل فن به عنصران : الأول هو الحقائق المطلقة أو العلم ، وهذا العنصر تتوره التغيرات ويسوقه تيار التقدم ولكن الآخر لا شأن له بالعلم ولا يناله التغير بتقادم الدهر بل هو أبدا حيث هو له قيمة خالدة ثابتة أشبه الأشياء بهاء الفجر المتنفس أو روعة حب الأم لوليدها أو تنعم الحيوان الصغير بتذوق الحياة أو شجاعة الشهيد فى الفتنة والعذاب فان العالم مهما تقدم لا يمكن أن يخاف تلك المعانى وراء ظهره فانها أبد الأبد ماثلة مثول النار

فوق العلم ، وإنما سعى الناس الى بلوغها والرقى اليها ، وهكذا الحال في كل ما خلقه خيال البشر من جلائل البدع وفي ظننا أنه ليس في شبهة التوقع أن يقوم شاعر فيعمد الى المعنى الرئيسى الذى قصده (اسكيليس) في منظر (كاسندرا) من قصة (أجا ممنون) فيبرزه في حلة أبهى مما كساه اسكيليس فان البشر ليس لهم من ذلك المنظر الا أن يفهموه ويفوزوا منه بما فيه من سرور وهزة وعجب وان هذه الصفة الخالدة لأئين ما تكون في الشعر ، فالشعر اذا شابه علم كان منه في المحل الثانى .

ففى الفن لا يزال التقدم يطرأ على آلاته المستعملة ووسائله المتبعة وأعماله التى يستلزمها ، فصاحب الفن اليوم قد يجد في نفسه أنه لا يستطيع أن ينحت تمثالا فيبدع فيه ابداع فيدياس الا أنه مع ذلك يرى أنه قد يعلم من الأمور ما كان يخفى على سابقه وفي استطاعة ذلك المتأخر على كل حال أن يوجه فنه في وجوه مختلفة ما كان ليفيدياس أن يلج مثلها وأن يجد مما يثير خياله أكثر مما أتيح ليفيدياس أن يجده .

أما في الفلسفة فان اشتراك العنصرين أخفى وأدق فقد كانت الفلسفة أبدا قائمة على أساس العلم من بعض الوجوه بيد أنه يلوح أن أحسن مباحث الفلسفة يتردد فيها عادة روح الخيال المنشئ فقد كتب أفلاطون محاورة اسمها (التيماوس) وكانت دائرة على تكوين العالم وكان لها أثر كبير في متأخرى اليونان ولكننا اذا قرأناها اليوم ولنا ما لنا من المعارف العلمية التى تزيد على ما كان يعلمه أيام زيادة ، اذا قرأناها خيل إلينا أنها تكاد تكون خلوا من المعنى ولكن أفلاطون في كتاباته عن نظرية المعارف أو عن أساس معانى العدل أو الحب لم يكن لمباحث معتبر في الفلسفة أن يلقي بما كتب في زاوية الإهمال بل اننا لتساءل عما اذا كان لنا أن نبليغ شأوه في دقة التفكير وسموه .

وانا اذا أردنا أن ندرك حقيقة علاقتنا بالماضي وجب علينا أن نعتبر أمرا آخر يبدو في هذا الموضع وهو كالأمر السابق الذكر في بساطته وخطورته ، فلنضرب مثلا : رجلا يقول ” اننى أدرك تمام الادراك أن (أفلاطون) أو (اسكيليس) قد يكونان صاحبي آراء بديعة غير أن كل ما قالاه من قول قيم كان لا شك معروفا قبل أيامهما للناس جميعا وعلى ذلك فليس من اللازم أن نرجع الى اليونانيين فيه . ونظير ذلك أننا لا نرجع الى ما كتبه كوبرنيكوس اذا شئنا أن نعلم أن الأرض تدور حول الشمس“ فماذا يكون ردنا عليه ؟

ليس لنا من رد سوى أن نقول ان مثل هذه الحججة لا تعدد بالفرق بين ما يتغير ويتقدم وبين الدائم الذى لا يتبدل أو بين المعارف وبين الخيال . فاذا كان (هارفى) مثلا أول من اهتدى الى أن الدم ليس بثابت بل يدور دورته و (كوبرنيكوس) أول من اهتدى الى أن الأرض تدور حول الشمس وليست الشمس هى التى تدور حول الأرض فان هذه الحقائق المكشوفة تصبح سهلة التناقل بأوجز عبارة واذا كان صانع يهتدى الى تحسين فى آلة المسرة أو مصلح اجتماعى يتوصل الى أن يستبدل بخبيث طيبا فيما يتبعه الناس كان من المحتمل بعد أعوام قلائل أن الناس جميعا يستفيدون بما أدخل من التحسين غير شاكرين سعى من سعى فيه ، بل غير عارفين ما ذلك الاصلاح الذى ينتفعون به وهكذا الناس لا يبالون بما يكونون عليه من الغباء ما دام قد نالهم الخير واحتلبوا لبانه .

ولكن أيستطيع الانسان أن يتحدث بمثل ذلك عن مكبث أو روميو وجوليت وهل يمكن أحدا أن يقول فى ألفاظ قليلة موجزة

ماذا تدل عليه هذه . وهل لا مرئ أن يبلغ من هذين خيرا الا من طريق واحد وذلك أن يكب عليها دارسا في شغف يستجلى معانيها ويتغلغل في قلب المؤلف يستقصي دخيلة شعوره ودفينة فكره ؟

وانه لدليل على نوع من نقص العقل ، نقص يشبه الصمم أو عمى اللون أن يظن الانسان ، كما يفعل البعض ، أنه يستطيع أن يدرك قيمة قصيدة عظيمة بأن يدرس ملاحظاتها في دائرة معارف أو بأن يتصفح ترجمة لها فان الأشياء التي ندعوها خالدة ، تلك الأشياء وليده العقل والخيال تستمد ما فيها من طريقاتها أكثر مما تستمد من نتيجتها ومغزاها ولا يستطيع بلوغ لبها ولا تذوق لذاتها الا بأن نتدخل في طريقاتها . فاذا كانت قيمة نزهة مخصوصة مستمدة من منظرها فلا يمكن الانسان أن يدرك تلك القيمة اذا هو سلك طريقا مختصرا فيها أو اذا هو قطعها في سيارة سريعة .

وبعد : فانا اذا رجعنا بالنظر الى عصر حى ممتاز من عصور الماضى وجدنا نوعين من الكتب يستوقفان النظر أولهما أمثال فينوس لميلو أو الكتاب لحوب أو الجمهورية لأفلاطون وهذه لها قيمة ومعنى في ذاتها لما اتصفت به من الميزات القائمة بها وثانى النوعين أمثال القانون الرومانى المأخوذ عن الصفحات الاثنتى عشرة أو اختراع آلة الطباعة أو ديوان بعض الأيام العظمى في الحرب وهذه الأشياء تسترعى النفس خصوصا لأنها أسباب لنتائج أعظم وحوادث أجسم أو لأنها عقد في متسع نسيج التاريخ فالاقبال على النوع الأول لأنه فنى وعلى النوع الثانى لأنه تاريخى على أنه من الجلى أن العنصرين الفنى والتاريخى ممتزجان فى الغالب فى كل مثل حسى .

فاليونان القديمة ذات خطر عظيم من الوجهين كليهما فهي في نظر ابن الفن والشاعر يكسوها جمال رائع لا مثيل له . واليك موازنة بينها وبين رومة في ذلك مثلا فانك ان حفرت فيما يجاور الحائط الروماني في كمبرلاند وجدت ركاما من أشياء شتى بين مذابح القربان والنقوش المكتوبة والصور وآلات الحرب والأحذية الطويلة والنعال القصيرة وهذه الأشياء ذات دلالة تاريخية عظيمة تسترعى الاهتمام والاقبال ولكنها من جهة الجمال لا تزيد بهاء على ما يوجد في أحد أكوام المتروكات في أيا من هذه ويصح أن يقال مثل هذا في ما يستخرج من الحفر في كل بلاد العالم ولكك ان حفرت في مكان من الأماكن القديمة أو الوسطى في العالم اليوناني كدت لا تجد شيئا الا جميلا ولو قلت قيمته التاريخية فترى الحائط نفسه جميلا وعليه نقش أبدع حفره وأما الصور فترى أكثرها يميزه الصدق والملاحة ولو كانت مادتها رخيصة بسيطة على أنك قد تجد منها ما تعمد صانعه أن يجعله غريب الشكل مضحكا، وأما الأواني فتجدها حسنة الشكل ورسم وشيها جميلا ، فاذا اتفق أن حفرت في مقبرة وعثرت ببعض الشواهد عليها ذكري بعض الغابرين وجدت على جلها تلك المسحة من الجمال التي لا يستطيع أحد أن يدرك كنهها ولو أن الشعر المكتوب قد لا يكون حسن الوزن وقد تكون الكلمات غير صحيحة الهجاء .

واني لشديد الحرص على ألا أكتب في ذلك الأمر هراء . وأن الانسان ليستطيع أن يدل على صدق هذا الأمر في تفاصيله بأن يأخذ أية مجموعة مما كتبه اليونان على شواهد قبورهم وهذا هو الطريق الوحيد لاقامة الدليل فان الانسان يرى دونه الجمال

حقيقة ماثلة ولعله اذا حاول أن يتغلغل الى منابعه ليفحصها أمكنه أن يبلغ شيئا في فهم سر ذلك الأمر فأول شيء يعرفه أن ذلك الجمال ليس من حلية وتتميق بل هو جمال في البناء والتركيب جمال الصدق والبساطة. ولنضرب مثلا: رجلا مرقوض الجسم يلعب كرة التنس في أصوافه اذا وضعته الى جانب عظيم من العظماء ضخمة الجثة محتق في حلله المذهبة أو مثلا آخر (يختا) من خير سفن اليوم سريرا خفيفا بسيطا اذا قابلت بينه وبين سفينة ضخمة تحمل الخشب من سفن القرن السادس عشر قد زينتها حلية مذهبة ثقيلة، لا بل اذا فاضلت بينه وبين سفينة من سفن الحكومة الصينية فان اليخت لا يدانيه أيهما في الجمال على أنه لا يحليه جزء من مائة من زينة الآخرين فاليخت في نفسه هو الجميل لأن رسمه وبناءه صحيحان وأما الآخران فقوامهما ثقيل وهما لذلك شيئان قبيحان قد لطخا بالذهب والأصباغ .

وبعد فان أكثر مخلفات اليونان القديمة لها جمال ذلك اليخت ، لا جرم قد استخدم اليونان الأصباغ كثيرا ولكن المعبد اليوناني فيما عدا ذلك بسيط بساطة الحظيرة وأن من ألف الزخرف العربي والزجاج الملون والميازيب لا يدرك في الغالب قيمة لذلك المعبد وكذلك التمثال اليوناني فانه في العادة عاطل من كل زينة كأن يكون تمثال شاب يسابق أو يصلي أو تمثال شيخ يفكر فتراه قائما يتمثل فيه الجلال والبساطة وسواء أكان وضع أعضائه جسمه صحيحا أم غير صحيح وسواء أكانت تقاطيع سطوحه سليمة أم سقيمة فانه لا يقصد الا الى الجمال الأصديق . ولعل مثل هذا التمثال يكون سمجا في عين أحد رجال الفن الذي صنع صورة خشبية لملك

في القرون الوسطى ، وأذكر أني رأيت ذلك التمثال في مدينة
بشرق أوربا ، فألفيته تاجا يتألق بزجاج مختلف الألوان فوق
حلة طويلة قرمزية تغطيها النقوش وفي طيها وجه قبح من وجه
لا عظام به ولا عضل ولا تتجلى به نظرة ولا معنى . وليس هذا
ما كان يقصده اليوناني من الجمال ويصدق هذا القول نفسه
في شأن الشعر اليوناني غالبا . وليس ذلك لاتفاق الاصطلاح الفني
أو تشابهه في حالي صناعتي الأحجار واللغة فان الشعر اليوناني (تمثالي)
بمعنى أنه على الأكثر متوقف على تركيبه في نفسه وليس ذلك الشعر
بحال من الأحوال تمثاليا بالمعنى الآخر أي بكونه باردا أو لا روح
فيه أو جامدا . على أن الشعر اليوناني على وجه الاجمال به صفة
يسوء بها ظن قارئ هذه الأيام وتلك هي أنه عار شديد وذلك
القارئ قد اعتاد الزينة الزائدة والاغراق في كل ناحية ، فشعر
اليونان بسيط يرمى الى قصده بغير عوج وهو في ذلك شبيه بالنحت
اليوناني فكان شاعرهم يريد أن يقول شيئا عنده فيقوله بما استطاع
من احكام وصدق في أسلوب ملائم ولك بعد ذلك ألا تقبل
على شعره اذا لم يكن فيك اقبال عليه فهو لا يلتمس ألفا من الحيل
الدقيقة والحركات الغريبة في سبيله حتى تنسى سماجة قوله فيما
يسبب لك من هو في زوائده التي لف بها ذلك القول . اللهم
الا في شواذ قليلة تفسر علة وجودها بنفسها .

ولكننا هنا نلقى صعوبة ظاهرة فانا نقول ان الشعر اليوناني
معروف بالقصد والبساطة وأنه خال من الحلية التي لا وجوب
لوجودها ومع ذلك فانا اذا نقلنا منه الى الانجليزية ونظرنا
الى الترجمة كان أكبر ما نشعر به على ما أعتقد أن البهاء والرونق
قد زال عنه ولا نعلم كيف زال ، فندري أن شيئا كان عاليا جليلا قد

أصبح سخيفا حقيرا ، وأن أحد دارسي اليونانية ممن لا بأس بهم إذا طالع أحد شعرائه الأقدمين وجد في نفسه أنه في حضرة شيء مجيد نادر، شيء يشبه في جوه جو (الفردوس المفقود) ولكن لغة الفردوس المفقود لغة متكلفة ملتوية دخلها من التنميق ما جعلها عالية نادرة على حين لغة الشعر اليوناني لغة بسيطة مستقيمة . فما معنى ذلك ؟ لا أستطيع إلا أن أقول ان اللغة العادية للشعر اليوناني في حد ذاتها لغة مجيدة من بعض الوجوه وأكثر النقاد يقبلون ذلك الرأي على أنه حقيقة واضحة على أن ذلك الرأي إذا كان حقيقة كان حقيقة غريبة وكان جديرا بالبحث والنظر، وسر ذلك يرجع جزء منه الى جمال اللفظ فحسب فقولك "kaireis harôn fôs" كما يلوح أحلى منطقاً من قولك "تسرك رؤية النور" ولكن جمال اللفظ ليس كل السر فان نطق كثير من الشعر اليوناني كما ننطق به نحن أو كما كان ينطق به القدماء لا يحلوا لأذن الحديث بل هو فيها كرية . إذا فلعل جزءا من السر في ذلك الجمال يرجع الى تركيب اللغة اليونانية نفسه فان علماء اللغة يقولون ان تلك اللغة خير اللغات التي يعرفونها وأكملها في التركيب والنمو وفي قوة التعبير عن معاني الأشياء ولا شك أن الانسان كثيرا ما يجد أن المعنى يمكن أن يظهر في اللغة اليونانية سهلا جميلا فاذا ما وضع في اللاتينية أو الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية صار قبيحا ثقيلا ولكنني مع ذلك أرى أن هاتين العلتين السابقتين ليستا في الصميم ولا تذهبان في الايضاح الى الكنه ، فما ذلك الذي يخلع على الألفاظ حلتها ويجعل الأسلوب عاليا أو ساقطا ؟ لا شك أن ذلك هو ما يلتصق بتلك الألفاظ ويتداعى اليها أو هو تلك الصحابة التي لا تزال حول الألفاظ في أذهان من يستعملها ، فان اللفظ الذي يستعمل

في لغة الحانات ومحال لعب (البليارد) يصبح وقد سرى فيه الروح المعتاد لأمثال تلك المحال وان اللفظ الذي يثير في النفس ذكر ملتون أو كارليل تفوح منه ريح لا تنفك حوله من عقول هؤلاء ولهذا لا أستطيع أن أنكر حكما وهو أن لغة شعر اليونان اذا كان لها في نظر من ألم بها ذلك الطبع الخاص من الجمال الحى الشديد فما هذا الا لأن عقول الشعراء الذين استعملوا تلك اللغة كانت في حياتها معودة السمو الى أفق أعلى من أنقنا سواء في قوتها أو في نبيلها وشرفها . فتلك اللغة أنقى وأكثر تهذبا لأنها تعبر عما في أذهان قوم أنقى وأكثر تهذبا ولا نقصد بالقوم أن يكونوا أنقى وأكثر تهذبا أنهم كانوا في تعاملهم أجم أدبا سواء قسناهم بميزان أيا منا أو بميزان أيامهم ولكن أقصد أنهم كانوا قوما أشد احساسا بالأمر فكانت عندهم المحاسن من شروق الشمس ومنظر البحر ومرأى النجوم وحب الانسان للانسان والنضال ومواجهة الشر في سبيل الخير . لا بل كانت لديهم الأشياء العادية من لحم وشراب والأمر القبيحة من كره وخوف . كان كل ذلك لديهم له حد أحد وسن أقطع مما له عندنا فكان يثير في نفوسهم مشاعرهما أسرع مما يثيرها فينا وأكثر جلالا . وبعد فعلينا أن نستقصى تلك الحجّة قبل أن نعدوها لغيرها ولنجعل أول مكان نبدأ منه تلك الحقيقة التي لا نزاع فيها وهي أن اليونانيين في حوالى القرن الخامس قد أخرجوا لسبب ما أعمالا مختلفة من أعمال الفن من مباني وتمائيل وكتب ولا سيما كتبها قد بقيت بدل أن تموت أو تهمل وتسقط في حياة مؤلفيها وهي لا تزال مبعث جلائل المعاني ومثار واثبات المشاعر فاذا حاولنا أن نفسر هذه الحقيقة الغربية لاحظنا أن اليونانيين كانت لديهم غريزة قوية لادراك الجمال قد استحوذت

عليهم وكان ادراكهم لنوع خاص من الجمال ، ذلك الحسن الذى لا يكون من حلية عرضية بل من جوهر الشئ المصنوع وتركيبه .

ففى مؤلفات الأدب قد رأينا أن الجمال الخاص الذى نسميه الجمال اليونانى جزء منه ناشئ من قصد القول وصدقته وبساطته تلك الصفات التى كانت تميز اليونانيين فى كتابتهم لما يريدون أن يقولوه وأن جزءا آخر من ذلك الجمال راجع الى قوة خاصة وجلال فى اللغة التى نظنها الأداء الطبيعى للعقول القوية الجليلة ، فهل نقدر بحال من الأحوال أن نجمع كل تلك الأشياء معا حتى نفسرها ، أو على الأقل لى ندركها جميعا ادراكا أكثر جلاء ووضوحا ؟

سيعيننا فى الاجابة عن هذا السؤال مثل مغرق فى القدم ومضلل غالبا . فقد قالوا : "ان العالم كان اذ ذاك فى صباه" نعم ان العالم لم يكن بالطبع كذلك اذا عيننا بالدقة فى التعبير . ذلك بأن الألفى سنة العجيبة التى تفصل بيننا وبين بريكليس ليس شيئا مذكورا بالقياس الى عمر العالم الكلى أو الى عمر الانسان . ثم نحن لا نستطيع أن نتصور أن رجلا ناهز الستين من عمره يشعر أنه أكثر فتوة فى القرن الخامس قبل الميلاد منه فى عصرنا الحاضر . بل الأمر على نقيض ذلك تماما . فان المناظير والأسنان الصناعية لم تكن قد عرفت بعد فى ذلك العهد البعيد . ومع هذا كله فان العالم ، وان شئت فقل ان عالمنا الغربى ، عالم الرقى والانسانية ، كان على عهد اليونان من بعض الوجوه فى صباه واقتبال سنه . فان الأمور العظيمة التى تعنى بها العقول الناهضة فى العصر الحاضر كانت قد بذرت بذورها كلها تقريبا فى بلاد اليونان .

لعل لفظ (الصبا) لا يؤدي المعنى المراد تمام الأداء . فان من النبات ، وذلك كضروب من عود الند مثلا ، ما يظل سنين طولا قريبا من الأرض وحيا حياة رتيبة بطيئة حتى اذا ادخر كفايته من القوة الحيوية نما بفاة نموا يبلغ عشرة أقدام وغدا حافلا بالنور ثم هو بعد ذلك إما يعتوره الفناء أو تبدو عليه أعراض الجهد ونفاد القوة . فاذا نحينا فكرة الفناء جانبا فانه يلوح لنا أن شيئا مثل ذلك يصيب الجنس البشرى من وقت لآخر أو يصيب منه نواحيه التي تحمل بحق نورا ما . فان جل الشعوب والأمم ليست في تقدم ونهوض في معظم حياتها ولكن في مجرد ركود ونحول فان تحركت فليس تحركها الا لمجرد المحافظة على عاداتها التي اصطلحت عليها أو لترتد مرة أخرى الى جاهليتها . هذا هو السر في أن التاريخ لا يعي شيئا عن هذه الشعوب والأمم . ان تاريخ العالم ليتكون في الغالب من ذكريات العصور القلائل التي فاضت فيها بعض نواحي العالم بالقوى الحيوية واندفعت تحمل نورا وثمرات .

وقد أتيح لنا نحن أن نعيش في منتصف عصر من هذه العصور وقد يكون ذلك في آخره . فان ما شهدته القرن الأخير من تغير في الحياة اليومية وفي الأفكار وحال الأرض بوجه عام ربما كان أشد مما شهدته أية أربعة قرون أخرى أتت منذ ابتداء العهد المسيحي . ولكون الأمر كذلك أصبحنا نميل الى اعتبار الرقي السريع حالا عادية من حالات الجنس البشرى مع أنه أعنى الرقي السريع لم يكن كذلك قط . ثم ان عصرنا آخر منورا كعصرنا الحاضر نورا قصيرا الأمد ضيق الرقعة بالنسبة الى عصرنا ولكنه سريع النمو قويه الى حد التحير والادهاش قد أتى على النواحي المنخفضة من شبه جزيرة البلقان من حوالى القرن السادس الى القرن الرابع قبل الميلاد .

وبعد فهذا الضرب من النور هو الذى يملأ جوانح العالم أملا ويجعله بذلك صبيا فتيا . أنظر الى رجل قد فرغ توا من استكشاف أو اختراع . أنظر الى رجل موفق فى حبه ، أو الى رجل قد أخذ فى حركة اجتماعية عظيمة ناجحة ، أو الى رجل يصنف كتابا أو يصور صورة يعلم أنها قيمة ، أنظر الى رجال يقاتلون فى سبيل قضية انقطع رجاؤهم من نجاحها قبل القتال ثم اذا هى ظافرة ظاهرة . أنظر الى انجلترا عقب هزيمة الأرمادا وفرنسا وقد لاح فى أفقها بخر الثورة وأمريكا أثر سقوط يوركناون ، أنظر الى ذلك كله تر أن أمثال هؤلاء الرجال وهذه الأمم قد امتلأت جوانحهم قوى حيوية فغدت مداركهم أشد وأحد واستنشقوا الهواء يفيض غبطة وسرورا وسرى فى نفوسهم شعور بأنهم سائرون فى طرق جديدة وبآمال مشرقة النور وأمور محتملة النجاح لم يعالجوها بعد ، وثقة بأن كل شيء يمكنهم التغلب عليه اذا ما صدقوه السعى . بهذا المعنى يكون العالم فى صباه واقبال سنه وأظنه كان بهذا المعنى فى صباه على عهد ثيمستوكليس واسكيلوس . هذا الصبا نصف سر الروح اليونانية .

هنا قد ألقى اعتراضا ربما كان كامنا فى أذهان كثير من القراء . فقد يقول قائل : ” ان كلامكم هذا كله يلوح عليه أنه تحليل بسيط لحقائق معلومة بل الواقع أنه محض تصور وخيال . هؤلاء الاغريق الذين تصفونهم (بالنبل) قد طال عرضهم على الأنظار وألقى عليهم علم الاثروبولوجيا أنواره الكشفية . فليست محاربتهم وأسلحتهم وآلاتهم الموسيقية هى وحدها التى لها نظائر عند المتوحشين فكم منهم كان غريقا فى أحط أنواع الخرافات ! وكم منهم كان يأتى غير الطبيعى من الرذائل والمنكرات ! أولم يكن فيهم من كان مستعدا

لأن يرى حين الفزع الشديد أن الأضحية البشرية خير دواء يدفع به الأذى عن نفسه ؟ ! ثم إنا بعد هذا كله لسنا بحاجة لأن نقرر أن نظامهم الاجتماعي كان الى حد كبير قائماً على الرق وأنهم كانوا يعيشون في مدن صغيرة حقيرة شبيهة بأعشاش الزناير ، كل مدينة منها في حرب مع جارتها التي تليها ونصفها في حرب مع نفسه “ !

لو أن صاحبنا المخاصم لليونان ذهب في اعتراضه الى أبعد من ذلك فربما خرج الى قول غير الحق . ونحن واقفوه وان كنا على اتفاق معه فيما ذهب اليه . أن هذه التهم صادقة على وجه الاجمال ، وإذا كنا نريد أن نفهم حقيقة اليونان فعلينا أن ندرك هذه التهم ونقتلها فهمما . وعلينا أن نجعل نصب أعيننا حقيقتين اثنتين أولاهما أن أغريق القرن الخامس قد جاءوا ببعض ما يعرف العالم من خير الشعر والفن وأدق الآراء السياسية وأشد ضروب الفلسفة اتصالاً بالحياة . والحقيقة الثانية أن القوم الذين سمعوا أو شهدوا تلك الآيات الروائع ، كلا بل ان نفس القوم الذين جاءوا بهذه الآيات الروائع ، لا يفصلهم عن المتوحشين سوى فاصل ضعيف وغير مقطوع بوجوده . يقولون اذا امتحنت الروسى المتحضر تكشف لك عن تترى همجى ونحن نقول اذا امتحنت الأغريقى القديم تكشف لك دون شك عن مخلوق فطرى مخيف تلتعسه بمزلة ما بين الفايكنج والبوليزى .

وهذا أعجب ما فى الأمر وأغربه ولا بد أن المجهود الأدبى الذى اقتضاه هذا الانتقال كان هائلا جدا . نعم انا قرأنا قصصا تروى عن زعماء متوحشين أدخلهم المبشرون المسيحيون أو البوذيون فى دياتهم فما هو إلا عام أو بعض عام حتى كانوا قد عدلوا عن

أسماهم التي يكرعون فيها الخمر وعن خزعبلاتهم السحرية الدموية الى حياة لا نقول انها حياة تقوى وتدين ولكنها حياة منطوية على الرغبة في اسعاد البشر وحسن ولاية أمورهم . كذلك رأينا اليابانيين منذ عهد قريب يبلغون من النهوض في مدى جيل من الزمان ما يبلغ عادة في بضعة قرون . ولكن القوم في هذين المثالين انما كانوا يعملون بتعاليم حضارة راقية ، ثم هم مع ذلك لم يبلغوا أن يخرجوا للناس أثرا من آثار العبقريّة الفذة المبدعة . أما اليونان فليس من شك في أنهم ليسوا مبدين للثقافات الأجنبية إلا في القليل النادر . لقد كانوا حتى في عصر اضمحلالهم شعبا متعزّدا " أن يأخذ قليلا ويعطى كثيرا " ، كما يلاحظ الأستاذ بيورى ولقد أقاموا صرح حضارتهم لأنفسهم بأنفسهم . بيد أنه ينبغي أن نصغى مع ما يجب من الانتباه الى النقاد الذين أظهروا للعيان ما وجدوا عند اليونان من بقايا التوحش والخرافة كالنخاس والوثني والعراف والمحتقر للمرأة والمتعصب الحق على كل ما هو أجنبي عن مدينته أو حزبه . ولكن ينبغي أن نعلم أن اليونان لا يتألفون من هؤلاء الأشخاص . انك لتجد هؤلاء الأشخاص أمثالا في جميع نواحي العالم التاريخي . هم أعم من ثمر العليق وأشد انتشارا . ليس الذي يتألف منه اليونان بالشئ الثابت الجامد . انما هو الحركة التي نقلت اليونان من حال هؤلاء الأشخاص الى حال الرواقى أو سفسطائى القرن الخامس الذى استنكر الرق وسخطه ، والذى ألقى الخرافات الوحشية طرا ودعا الى دين قائم على الفلسفة والانسانية ، والذى طالب للمرأة بنفس الحقوق الأدبية التي للرجل ، والذى نظر الى جميع الناس نظره الى شيعة وعشيرته ، والذى نظر الى العالم على

اعتبار أنه "مدينة عظمى تسكنها الآلهة والناس" تلك هي الحركة التي لن تجد لها مثيلا في غير بلاد اليونان كما أنك لن تجد مثيلا لتماثيل فدياس وحوارات أفلاطون وقصائد اسكيلوس وأوربيديد .

من ذلك كله نستخلص نتيجتين أو ثلاثا : النتيجة الأولى ، هي أن الحضارة اليونانية لكونها قامت بتلك العجلة الزائدة وذلك المجهود الحاد ، ولكونها نشأت من ذلك المنشأ الوضيع قد كانت برغم عظمتها كلها قلقة قلقا غربيا وملأى بعيوب جعلتها أشد أذى بطبيعة الحال لمن زاولوها وعاشوا فيها ولكنها لا تنقص من لذتها وفائدتها لمن يدرسها بل على العكس من ذلك تزيد هذه اللذة وتلك الفائدة .

النتيجة الثانية ، هي أن قرب عهد اليوناني بالتوحش قد أ كسب العقل اليوناني صفات بعينها نتجشم نحن كثيرا في سبيل الاتصاف بها مع أننا ذوو مدنيات أكثر اطمئنانا وأرسخ أساسا من المدنية اليونانية . فالعقل اليوناني ينشأ نشطا ويسير الى غرضه سيرا قاصدا وهيئات أن تأخذه في ذلك سامة أو ملل . ثم ان دهشه بالنسبة للعالم وعنايته به لا يبرحان جديدين . النتيجة الثالثة ، هي أن صفة غريبة وهامة جدا تلاحظ في المدنية اليونانية أكثر مما تلاحظ في غيرها ، اللهم الا اذا كنت مخطئا فيما ذهبت اليه ، تلك هي أن هذه المدنية قد نهضت من الطبيعة سليمة خالية من الشوائب خلوا عجيبا بحيث لا تكاد تجدها تتعثر في عقائد أنيقة أو عادات وتقاليد مرعية .

لست غافلا بالطبع عن الحضارة المينوية السابقة على التاريخ ولا عن الأوضاع الخاصة ، والبسيطة جدا غالبا ، التي انحطت اليها الديانة اليونانية التقليدية . ربما أكون قد تنكبت المحجة

بعض الشيء لتعودى الاكثار من الاقامة وسط أشياء يونانية ونسيانى بذلك الغرابة التى كانت تبدو على بعضها زمنا ما . ولكن اذا حسبنا حسابا لهذه المؤثرات كلها فانه يخيل الى أن قولنا بأن المدنية اليونانية نهضت من الطبيعة سليمة من الشوائب يظل مع ذلك دعوى صادقة بوجه الاجمال . فلو أن مفكرا أوربيا أو أمريكيا أراد أن يدرس أشياء تتعلق بالصين أو الهند فليس عليه أن يلم بأصول معينة من التاريخ والميثولوجيا فحسب ولكن عليه فوق ذلك أن يعمل عقله معملا خاصا كأن يضع عليه اذا صح هذا التعبير منظارا من نوع خاص . ولو أن هذا المفكر عينه أراد أن يدرس أشياء ترجع الى العصور الوسطى ، لو أنه أراد مثلا أن يدرس شاعرا عالميا كدانتى فالأمر كما ذكر . فهو يجب عليه قبل أن يقدم على فهم دانتى أن يتمثل فى خياله بوجه ما الآراء الغربية المتعلقة بالبابا والأمباطور والفلسفة المدرسية العسرة ، واللاهوت الغريب والذي قد يكون شنيعا بالنسبة للعقل الحديث ، المرتكز على جهنم وسعيرها . أما اذا كانت الأشياء المراد درسها يونانية فالأمر يكون أهون من ذلك كثيرا . نعم انه لا شك فى أن المصدر التاريخى والخيالى الذى كان يستمد منه كبار الشعراء والفلاسفة على اختلافهم هام جدا وأن حظا كبيرا من عمل المعلم الحديث مصروف الى جعل ذلك المصدر أوضح وأبين . ولكن اذا نحن صرفنا النظر مؤقتا عما عساه أن يكون من نقص فى ترجمة الآداب اليونانية فان الفلسفة اليونانية بوجه عام تتحدث رأسا الى كل من يريد أن يفكر تفكيرا بسيطا سهلا وأن الفن والشعر اليونانيين ليتحدثان الى كل من يستطيع أن يستعمل خياله ويستمتع بالجمال . وليس عليه أن يستعين فى ذلك بقيود أو عصابات يأخذها عن نظام آخر . بل الذى عليه هو أن يتخلص من قيوده وعصابته الخاصة وذلك أجدى عليه وأيسر مؤنة .

أظن أن هذه النتيجة الخاصة لا ينازعنا فيها منازع ومع ذلك فالموضوع لا يخلو من صعاب وإذا ينبغي أن نفصل القول فيه .

هذه النتيجة لا ترمى قبل كل شيء الى أن الفن اليوناني هو ما نصفه (بالطبيعي) أو (الواقعي) فمن البين أنه عكس ذلك . لقد كان الفن عند اليونان أبدا نوعا من (Sophia) أى الحكمة أو مصطلحا (Technê) ذا قواعد يجب استظهارها وأن ما يبدو عليه من علائم البساطة المطلقة لغير مطابق للواقع . فالعمود الذى يرى كأما هو مستقيم استقامة مطلقة هو فى الواقع مؤلف من منحنيات لطيفة والنقش الجنازى الذى يخيل إلينا أنه يمثل أبسط تمثيل ممكن حال امرأة تودع طفلها الوداع الأخير قد رتب سطحا وراء سطح بأعظام ما يمكن من البراعة وأحيانا بمخالفة متعمدة لقواعد المنظور . انك دائما تجد فى الفن اليوناني شيئا من المواضعة وشيئا من الخيال وشيئا من النور الذى لم يقع قط على بحر أو بر . ومع هذا كله فالفن اليوناني على ما أرى ظل قريبا من الطبيعة بدرجة عجيبة . ان عين الفنان اليوناني دائما متجهة الى موضوع عمله وإذا أبرز هذا الموضوع فى أسلوبه الخاص فذلك الأسلوب دائما أسلوب متزن معتدل خال من التكلف والغلو وسقم الذوق وخال فى العصور الأولى من المواضعة والاصطلاح . انه لفن دون شك ولكنه الفن الطبيعى المتزن الذى ينمو من تلقاء نفسه لأقل عهد الناس بأن يكونوا أحرارا فى التعبير عن الجمال خذ لذلك مثلا : إن لغة الشعر اليوناني تختلف عن لغة النثر اختلافا بينا . وأساليب الشعر يختلف بعضها عن بعض اختلافا بينا والشعر نفسه قلما يتعلق بالحاضر هو دائما يتعلق بالماضى وبالماضى المتخيل فى صورة الكمال . فكل ما نلاحظه على ذلك هو أن هذا النوع من التقيد المعهود

فى جميع عصور الشعر العظيمة ليس على ما يظهر أمرا صناعيا أو
تحكميا ولكنه ميل واتجاه نشأ نشوءا طبيعيا مع الآثار الأولى
العظيمة التى عبر بها الناس عن احساسهم الشعرى .

وفوق ذلك فان هذا القرب من الطبيعة وهذا الخلو من نظام
تفكيرى مقيد أو ترتيب نقول ان هذا كله بالاضافة الى عوامل
أخرى قد أدى الى ما فى الفن اليونانى من تنوع وتعدد فى جوانبه .
ذلك التعدد المدهش والذى هو أعجوبة من أشد أعاجيب اليونان
القدماء تحيرا للألباب اذا ما قابلناهم بالاسرائيلين والآشوريين
والرومان الأوائل مثلا : ان بلاد اليونان من الوجهة الجغرافية
مملكة ضيقة الرقعة وذات ساحل شديد التعرج وأرض يتقطعها
عدد عظيم من الأودية التى يكاد كل واد منها يكون بمعزل عن
سائر الأودية . أما من الوجهة السياسية فانها كانت عبارة عن
وحدة مضطربة مؤلفة من عدة دول مستقلة . فكل مدينة يحيط
بها سور وتسكنها بضعة آلاف من السكان كانت كافية لتكوين
دولة . وكان أهل كل دولة من هذه الدول بصفة خاصة قادرين
قدرة عظيمة على أن يكونوا لأنفسهم آراء يقاتلون من أجلها .
ومن ثم وجد من الوجهة العملية كثير من التقاطع والتحارب
والضعف العام وهذا كله أدى الى خسارة وضرر لليونان أنفسهم
ولكنه أدى الى نفع عظيم لنا نحن الذين يدرسون اليونان بعد أن
مضوا لسبيلهم . ذلك بأنه أدى فى عالم الفكر الى تنوع وحيوية
هائلين . فانك لا تكاد تجد نمطا من أنماط الفكر ولا أسلوبا من
أساليب الكتابة الا أممك أن تجد له نظيرا عند اليونان القدماء .
وغاية ما فى الأمر أنك تجد ذلك النمط وهذا الأسلوب عندهم
كأنما هما فى أقدم صورهما وأبسطها . بل ان كل شئ ينحى

اليك أنه ليس يونانيا بالمرّة تستطيع أن تتبين له أصلا في ناحية من نواحي الأدب اليوناني . فمذاهب : اللذة ، والزهد ، وعبادة المعرفة ، واحتقار المعرفة ، والاحاد ، والتقوى ، والعمل للدنيا ، واطراح الدنيا ، كل هذه وكل ما عداها تقريبا من وجوه الرأي التي يمكن أن ترد على الخاطر تجدها ماثلة في مكان ما من آثار ذلك الشعب الواحد الصغير . وما من حكم عام في هذا الفصل الا ويستطيع الكاتب أن ينقضه نقضا معززا بالأدلة والشواهد . وجملة القول أنك تحس تحمرا عظيما من كل قيد وترى العقل البشري الذي ربما كان لم يجرب الأمور بعد مطلق الحرية شديد العناية بالحياة وممتلئا أملا ويحاول أن يبلغ في كل ناحية ذلك السمو الذي يسميه اليونان (cretê) تهديه في ذلك غريزة خاصة نحو الاعتدال والجمال .

هناك التنوع وينبغي ألا ينسى . ومع ذلك ففي وسط هذا التنوع تجد لوازم معينة عامة أو مركزية ترجع غالبا الى تلك الصفة عينها صفة الجدة والقرب من الطبيعة .

لو أنك نظرت الى تمثال من تماثيل اليونان أو نقش من نقوشهم البارزة أولو أنك قرأت قطعة متوسطة الجودة لارسططاليس فمحتمل جدا أن تشعر في أول الأمر بملل وسامة . ولم ؟ لأن هذه الأشياء كلها عادية صادقة خالية خلوا عجبيا جدا من الغلو والاضراب والتأكيد الثقيل ولأنها مجردة من تلك الأوضاع الجاننية الفاتنة الشاذة التي تروق فينا عنصرا شاذا ضعيفا يشبهها . قد نصيح قائلين ” انا سمنا منظر هؤلاء الرجال بما أوتوا من خلق حسن وصحة تامة ، ووجوه تعلوها المهابة والوقار ، وعظام

وعضلات لا تفترق عما ألفنا في شيء. انا سمنا سماع أن الفضيلة وسط بين طرفين وأن الغرض منها اسعاد البشر ، وانا ان نحفل بما يقال الا أن يقول لنا قائل ان الفضيلة هي انكار النفس انكارا تاما أو انها ، وقد تكون كذلك ، اثبات النفس اثباتا متطرفا لاهوادة فيه . أو انها ليست الا غلطة شنعاء. أما التماثيل فاما أن تعطونا تمثال رجل شخت الخلقة معصوب الجسم غائر العينين ، يسب الاله سبا ، أو تعطونا تمثال شيء يتدحرج على الأرض لهما وشحما .

وما منشأ ذلك النوع من الشعور الذي أسلم بأنه يأخذ غالبا صورة أدخل في حكم العقل من جميع الصور التي أشرت اليها ؟ انه ذلك السبب البسيكولوجي الذي يبعث على تغيير الزى في الفن واللباس والذي يجلب الى الناس كل منقوص الخلقة ويجلب للجرائد الصقراء الخيروالثراء. انه الملل والسامة (Ennui). لقد تناولنا أكثر من كفايتنا من (١) وسمناه وعرفنا كيف يصنع ومجته أذواقنا فهات لنا من (ب) وخير من ذلك أن تناولنا شيئا من (ح) فاذا ماتناولنا جرعة كبيرة من (ح) اشتهينا أن يعاد الدور من جديد . دعك من ذلك وتصوّر رجلا لا تدركه السامة على الاطلاق ، رجلا يغير من ذكريتهم للدنيا اهتماما عظيما حريصا على اختيار الأشياء الصالحة واطراح الأشياء الفاسدة ، رجلا كله رغبة في العلم وكله نزوع الى الاستكشاف . ذلك الرجل يسره أن يرى منظر عضلات طبيعية صحيحة في جسم صحيح حسن التكوين . فاذا غيرت وبدلت في وضع العضلات لتحدث تأثير انفعاليا قال لك في تبرم وضجر (ولكن هذا قبيح) أو قال (ولكن عضلات الانسان ليست بهذا النظام !) وستجده يلاحظ أن الدموع ملحة دافئة بعض الشيء .

فاذا قلت مع شاعر محدث ان دموع صاحبك (أحر من الجمر وأملح من ماء البحر) فربما خال ما تقول (غير مقنع) وخاله من أجل ذلك "باردا".

لعلنا قد ألفنا استعمال اللغة الوجدانية في دائرة الدين والأخلاق خاصة . أعني انا نستعمل التعبيرات التي لا تصلح الا في آونة الصفاء الروحاني كما نستعمل الأشياء العادية في حياتنا اليومية . "لأن تتألم أنت خير ألف مرة من أن ترى غيرك يتألم" "انما الحب الصادق أن ترغب في سعادة من تحب" هذا النوع من العبارات الطنانة قد أصبح مما تألفه عقولنا كما أصبحت الاستعارات الكثيرة الميتة جزءا من لغتنا اليومية . وعلى ذلك فنحن نشعر بشيء من البرد والتبرم اذا ما سمعنا لغة لا يكاد أهلها يستعملون استعارة الا اذا أرادوا معنى هذه الاستعارة حقا ولا يجرى على ألسنتهم ذكر العواطف السيالة الا اذا كانوا موقنين كل الايقان بأنها عواطف صادقة . فهل معنى ذلك أن اليوناني كان يظل دائما في درجة حرارة عادية اذا صح هذا التعبير فلا تتقد في جوانحه انفعالات قوية تملك عليه سمعه وبصره ؟ كلا ثم كلا ! لان تخطر مثل هذه النتيجة بالبال دليل على عدم الثقة بقيمة الحياة . دليل على أنك انما تستطيع أن تبلغ الانفعالات العظيمة بالتصنع والتكلف أو بأن تعتاد تجسيم الانفعالات الصغيرة في حين أن الواقع عكس ذلك تماما . اذا كانت عظام الأمور وجد اليوناني اللفظ العظيم والمعنى العظيم حاضرين . أما الذي اعتاد الغلو والاسراف في القول فهو الذي يجد نفسه عيبا مفلسا . وبعد فان عظام الأمور لا بد من وقوعها !

ان القدرة على رؤية الأشياء رؤية قاصدة عامدة وتبين ما فيها من جمال أو سمو في غير تأثير بسامة عارضة أو تقلب في الذوق ، نقول ان القدرة على ذلك هبة نادرة جدا وربما لم تتوافر للانسان تامة غير منقوصة . على أن هناك قاعدة فنية أصولية تأمر الانسان اذا ما كان منهمكا في درس الأساليب المتنوعة أوفى استقراره تصوراتها الخاصة ” بأن يعود فيلقى بنفسه في حجر الطبيعة “ وكذلك الشأن الى حد ما بالنسبة للعالم . فانه يلوح لنا أن العالم يذبحى برغم ما قد يكون في الفن والأدب من ضروب التكلف والغلو وتقلب المواضعة ، أن يعنى عناية خاصة بما كان في الفن والأدب من أمثال هذه الأمور عند ما فطن الانسان لأول مرة الى معنى الحق والجمال ، ونظر الى العالم في حرية وعدم تقييد نظره الى شىء جديد .

أهذا اسراف في القول ؟ لا أظن ذلك . بيد أنه لا يمكننا في هذا المقام أن ننفي عنه صفة الاسراف نفيا مطلقا . لقد عينا في هذه المقالة عناية تكاد تكون مطلقة بطرافة اليونان الفنية وقد يكون في استطاعتنا كذلك أن نعنى بطرافتهم التاريخية . إذا لألفينا ، بالنسبة لذلك الفرع البشرى المسئول عن الحضارة الغربية ، أن أصول مانعه مفعرة الرقى الانسانى هى كلها تقريبا قد غرست في بلاد اليونان ففي بلاد اليونان تكلم القوم لأول مرة وبقوة تامة في تصورات الجمال لعبا في نفسه ودليلا هاديا في الحياة . وفي بلاد اليونان قد استكشف القوم أو وصفوا الى حد كبير نفس القوانين التى يعرف بها الجميل من القبيح . وأن تصور الحرية والعدالة ، حرية الجسم والقول والفكر ، والعدالة بين القوى والضعيف والغنى والفقر ليتغلغل في مناحى التفكير السياسى اليونانى

كله وقد حقق ، وسط عيوب ظاهرة ، في أحسن الجماعات اليونانية . ثم لعل العالم لم يعرف أحدا أشد ادراكا لتصور الحق غاية تطلب لنفسها شيئا يستكشف أمره وتجلى حقيقته بالتجربة والخيال خاصة ، ومعنى يتصل في أصله بالحرية ويغاير كلا من الفوضى والطاعة العمياء ، نقول لعل العالم لم يعرف أحدا أشد ادراكا لذلك من كتاب الأغريق الأوائل الذين كتبوا في العلم والفلسفة والذين يقف الانسان حائرا دهشا أمام حرية فكرهم التامة . وثم تصوّر آخر ظهر عند اليونان أخيرا أى عند ما اندمجت المدن اليونانية بعضها في بعض وألفت مجموعة كبيرة مع احتفاظ كل منها بحقوقه المدنية الخاصة . ذلك هو تصوّر الأخاء العام بين الانسان والانسان . ذلك بأن اليونان سرعان ماتينوا عقب الحروب الفارسية أنهم مبعوثون للعالم وأن الهيلينية ترمى الى الحياة العليا انتصارا لها على الهمجية ، والى السمو انتصارا له على التوسط الذى يدرك بغير مجهود . ولقد عبروا الى ذلك أدوارا ومراحل فكان فى أول الأمر دور الوطنية الفجة التى تعد كل يونانى أفضل من كل همجى ، ثم كان دور التفكير والتعقل فرأى القوم أن ليس جميع اليونان حملة النور حقا ولا جميع الهمجيين أعداء ذلك النور ، وأن الهيلينية انما هى أمر يتعلق بالروح لا بالجنس الذى ينتمى اليه الانسان أو المكان الذى يولد فيه . ثم كان دور تصوّر جديد يعبر عنه لفظ جديد هو (الانسانية) ذلك التصوّر جعل الرواقين يرون أن العالم أخاء عام . لعمري ان التاريخ لا يعرف أمة سبقت اليونان الى تكوين هذه المثل تكويننا صحيحا ، وان الذين جرت

على ألسنتهم أسماء هذه المثل بعد اليونان يخيل الى الانسان أنهم في معظم الأمر إنما يرددون صدى أفكار اليونان القدماء .

كل هذه الآراء من طلب الحق ، والحرية ، والجمال ، والسمو ليست كل ما في الأمر . لقد كانت هذه الآراء للعالم مبعث قلق وحيرة . لقد رفعت للناس نورا لم يرقهم دائما أن يبصروه . ثم ان هناك مثلا أعلى آخر أقوى منها بوجه عام وقد يقضى عليها في النهاية على اعتبار أنها ضرور وآثام . فثم الخضوع بدل الحرية ، وامانة الحواس أو تحريك بهيميتها بدل الجمال ، والنزول على حكم التقاليد بدل طلب الحق ، والاعتقاد بالوهم أو الشهوة بدل العقل والفكر المعتدل ، ومحو الفوارق بين الخير والشر ، والتسليم بأن جميع الناس وجميع حالات الذهن متكافئة متساوية . فاذا ثبت في النهاية أن شيئا من ذلك يجوز للانسان القول به فان اليونان يكونون قد لعبوا دور المخرب الأكبر في تاريخ الانسانية . يكونون قد رفعوا لنا أضواء كاذبة استمالت سفننا الى مواطن خطر . ومهما يكن من الأمر فانهم لا يزالون رافعين هذه الأضواء هادئا كان الجو أم عاصفا . وانهم أوقدوا هذه الأضواء قبل الأمم كلها وظلوا رافعيها مدة سيطرتهم القصيرة . وسواء اعتقدنا بحياة فردية قائمة على الحرية والعقل والجمال والسمو وطالب الحق ، وبحياة دولية ترمى الى المؤاخاة بين الانسان والانسان أو ظننا أن هذه المثل شباك عظيمة نصبتها السياسة البشرية فهناك سبب معقول في أن يقوم نفر منا في كل جيل فيضحي ببعض وقته ومجهوده ويدرس أمثال هذه القوى الهامة حيث ظهرت لأول مرة واضحة

مدركة في أذهان آبائنا الروحيين . سنجد هذه القوى وأضدادها الكبرى الى حد ما أنضروا في أفكار اليونان القدماء وفنونهم وأسلم من العيوب وأسهل نسبيا منها في غير هذه الأفكار والفنون . سنجدها عندهم قد دون كل أثر من آثارها العظيمة بمقياس رسم مادي صغير وذات كل مسألة من مسائلها بأشد ما يمكن من الإيجاز ما جالبرت مري

الدين

من الواجب على من يكتب عن اليونانيين أن يحذر ضلالة كثير ذيوها اليوم هي نظرية المفاضلة بين الأجناس . ان علم الأصول السياسية للشعوب ، وهو علم مزيف ، قد برر مطامع الألمان وسهل عليهم اضرار نار الحرب وهو الذى أوحى الى الحلفاء طريقة لنشر السلام وكذلك المذهب الباطل القائل بالتفاضل بين الأجناس يتخذ بعض الناس وسيلة لتبرير الظلم فى أوروبا وتبرير القتل بالتعذيب فى أمريكا . هذا المذهب لن يعيننا على تفهم اليونانيين . كان اليونان أمة مكونة من نفس العناصر التى تكوننا نحن منها وان اختلفت نسبها فيهم وفينا . وان جمالهـم المشهور الذى كان قد أدبر أو كاد حين زار ششرون أتينا كان راجعا فى صميمه الى حياتهم الخلوية وتربيتهم البدنية وزيهـم الذى كان من أكثر الأزياء تجميلا لأهله وما نظنهم كانوا أبجل من مجد فى أكسفورد أو من تلاميذ آيتن . أما الزمن الذى أزهرت فيه عبقريتهم فقد تأثر بنفس العوامل التى أثرت فى النهضة العلمية الإيطالية وتشابهت آثارها فيهم وفيها . ان ولايات المدن^(١) من شأنها أن تحمل أهلها على ادراك الفخـم الرائع من النتائج ولكنها تسرع فى استنفاد ذخيرتها التى لديها منهم . على أننا لا نستطيع أن نعد اليونانيين شعبا متجانس العناصر فقد كان الأسبرطيون من الشماليـن الخالصين تقريبا والأثينيون

روما^(١) خلصا . أما الذين عمروا تلك الأرض وأنجبوا أبطال اليونان فبعيد أن يكونوا قد احتفظوا بأنسابهم خالصة . على أنه لم تكن هناك يوما ما ثقافة يونانية مشتركة بين جميع اليونانيين فالنظام الأسبرطى الذى كان يقوم على قبيلة صغيرة محاربة ترابط فى أرض مغلوبة يذكركنا بنظام الزولو فى عهد (تشاكا) . وقد كان أهل اركاديا رعاة ، وأهل يوتوليا همجا ويوتيا كانت متقشفة ومقدونيا كان نصفها داخل المدنية ونصفها خارجها وقد كان الشعور بالجنسية قائما بين اليونانيين على وجه التقريب مقام الشعور بالانتماء الى الجنس الأبيض أو الى المسيحية فى المدنية الحديثة .

لم تكن اليونان من الوجهة التى نكتب عنها جنسا ولكن ثقافة . كانت لغة وأدبا وشيئا أهم منهما هو الوجهة فى الحياة ، ثقافة تبدأ بالنسبة لنا من هو ميروس وتستمر سلسلة متصلة الحلقات مع ما اعتورها من التغيرات الى أن يغلق جستنيان غرف المحاضرات فى أثينا تلك التغيرات كانت عظيمة من غير شك فى العهد الذى بدأت أثينا فيه من الوجهة السياسية غير أثينا النابضة بالحياة ، ذلك العهد الذى ورث التقاليد اليونانية فيه قوم لم يكونوا من سلالة الذين أسسوا تلك التقاليد . لكن التقاليد ظلت باقية يحفظها الأدب والتماثيل وتحفظها العوائد الاجتماعية أن تزول .

لقد كانت مدينة الإمبراطورية الرومانية يونانية لا ايطالية واستمر الأمر على ذلك الى انتهاء القرن السادس ثم فقدت المدنية الرومانية صبغتها اليونانية فى اللغة والأدب ووجهة الحياة فقدانا استمر حوالى ألف عام ثم استردتها الغرب فى النهضة العلمية الايطالية فظلت بعد ذلك عنصرا فعالا فى المدنية الغربية الى اليوم . وكانت الفترة التى انقطعت فيها الصلة بين الغرب وبين الثقافة اليونانية

(١) من شعوب البحر الأبيض المتوسط

هى فترة العصور المظلمة وأوائل القرون الوسطى لكن لم يكن الانقطاع تاما بين الغرب وبينها حتى فى تلك العصور لأنها كانت عصور الحكم اللاهوتى الكاثولىكى. وإذا كنا لا بد مختارين رجلا واحدا يمكن أن نعهده مؤسسا للكاثوليكية كحكومة دينية فذلك الرجل لن يكون أوغسطين ولا القديس بولص وأبعد من ذلك أن يكون عيسى المسيح . إنما ذلك الرجل هو أفلاطون الذى بين فى "قوانينه" الظروف التى تنتج مثل تلك الحكومة والشكل الذى لا بد أن تكون تلك الحكومة عليه وحدد ذلك كله تحديدا عجيبا فى صحة نبوءته وكذلك فى دائرة التفكير النظرى فقد كان أوغسطين مدينا للأفلاطونيين بالشئ الكثير كما كان المدرسيون مدينين لارسطو والمتصوفون لـتلميذ بروكلوس الذى كانوا يسمونه دينسيوس . أما الذى فقد أو كاد فذلك هو العلم اليونانى والروح العلمية ولم يكن أمام الغرب حين حطم أغلاله إلا أن يبدأ ذلك من جديد .

فالثقافة اليونانية لم تكن ميراثا لشعب خاص ولم تقتصر على فترة من الزمن خاصة . زالت الحرية السياسية عنها فضنيت وهزلت ولكنها لم تملك بل اتصلت حلقات فلسفتها من تاليس الى بروكلوس ثم من فيسينو وبيكو الى لوتزى و برادلى بعد نوم طويل لم يكن نوم الموت . أما دينها فقد وجد مدخلا دخل منه فى لاهوت المسيحية من غير أن يعتور ذلك الدين انقطاع . كانت الكنيسة الأولى اذا تكلمت تكلمت اليونانية واذا فكرت فكرت باليونانية وكان معنى الفلسفة اليونانية فى أيام حرية اليونان أن يكون الانسان فردا من أفراد العشيرة اليونانية . أما بعد الاسكندر فقد صار معناها أن

يكون الانسان ذا ثقافة يونانية . فالرواقيون لم ينشأ واحد منهم بأرض اليونان نفسها وكان زينو نفسه ساميا . أما الكتاب اليونانيون المتأخرون فقد كان منهم ماركس أوريلياس وهو أسباني نشأ نشأة رومانية ، وبلوتينوس وأكبر الظن أنه قبطي وبورفيرى ولوسيان وهما شاميان ، والقديس بولص ورابع الانجيليين على الراجح وهم من اليهود . كل هؤلاء تظلهم الثقافة اليونانية ويضمهم تاريخها . وإذا كان هؤلاء يونانيين فهل يمكن أن ننفي هذا اللقب عن روفائيل وميخائيل انجلو وعن سبنسر وسدنى وعن كيتس وشلى ؟ ان بليك حين كتب :

”ان نور الشمس المسفرة ، متوقف على العين المبصرة“

لم يخلص في قوله هذا فلسفة شعراء البحيرات فحسب ولكن لخص خير ما أخرج الفكر اليونانى للناس ثم ألم يكن هناك ما يثرب له أفلاطون فى اقرار ميخائيل انجيلو بالايمان وهو الاقرار الذى ترجمه لنا ورد زورث اذ يقول :

”ولدت الروح من السماء فهى تنزع دائما الى السماء وهى لا تزال تخلق فى ما وراء عالم الشهادة تبحث عن الشكل الكامل والقالب العام اذ كل ما يتجهج به الحس باطل ضعيف وانى أقول ان الحكيم لن يجد راحة فيما يفنى ولن يعلق قلبه شيئا ينال منه الزمان“ .

وهل كان أحد قط أحسن تعبيرا عن أعلى مظاهر الديانة اليونانية من ورد زورث نفسه وقد وفق اليه كما وفق بليك عن طريق الالهام لا عن طريق كتاب ؟

”لقد شهد العظمة وأحس قوتها وهو طفل لم يبلغ أشده وانطبعت الأغراض العظيمة على خاطره بطابع الشعور القوى

الراسخ فاستقرت على ذلك الخاطر كأنما هي مواد محسوسة يروع الحواس شهودها“ .

ان الانسان لا تحيا روحه بالتقاليد فحسب بل هي تستطيع أن تشرب من المورد الأصيل نفسه إنا هنا نتكلم عن احدى ثقافات الانسان الخالدة التي تنسب بحق الى اليونانيين إذ هي قد بلغت أوج عزتها و بهجتها في أدب المدائن الهيلينية وفنها . ولكنها أيضا لا يمكن أن يفرق بينها وبين المدنية الغربية كما يفرق بين أجنبي وأجنبي فلولا ما تركه لنا اليونان لما كان لنا ديننا ولا فلسفتنا ولا علمنا ولا أدبنا ولا تربيتنا ولا سياستنا ولكنا لا نختلف عن الهمج بشيء . ولا داعي لأن نبحث عما كنا نستطيع استكشافه في النهاية لو أننا كنا تركنا وأنفسنا فان مدنيتنا شجرة جذورها في اليونان . أوهي ، اذا استعرنا من كليمان الاسكندري مجازا أدق ، نهر تمده الروافد من كل مكان ولكنه يوناني المعين . إن الاتصال بين الرأي والعمل عند اليونان في الدين وفلسفته أمر له شأنه وخطره ومن الضروري أن نؤكد هذا هنا لأن برنامج التربية لدينا ، وهو أمر عارض ، يترك في عقول أكثر الطلبة هوة واسعة بين الرواقين والمسيحيين ويهمل ما تأخر من فلسفة الدين عند اليونان اهمالا تاما ويرد القواعد المسيحية الى فلسطين وليس بينها وبين فلسطين من الاتصال الا النزر القليل .

وهناك طريق آخر يبطل فينا الشعور بهذا الاتصال . ذلك هو النزعة التي يترع بعضنا بها الى التفرقة بين بعض مظاهر التفكير والحياة عند الهيلينيين فيقولون هذا يمثلهم وهذا لا يمثلهم في حين أن كليهما كان على السواء بين قدماء اليونان . ففي دائرة الدين

وهو موضوع هذا المقال يأمرنا بعض الناس أن نعتبر أفلاطون ويوربيديس خارجين على التقاليد القومية وغير ناتجين بالفطرة عن عصرهما وقطرهما. ولكنى لا أرى من حق أن أقبل شيئاً وأرفض غيره على هذا الأسلوب فقد لا يمثل صفات أمة مثل خوارجها ولا خصائص دين مثل الملحدين فيه . فلو أن نيتشه كان مصيباً في تسميته أفلاطون مسيحياً قبل المسيح لما كان لى أن اعتبر أفلاطون من أجل ذلك يونانياً غير هيلينى ولكن الأقرب من هذا أن أرد إليه ، وإلى اليونان ، دين الكنيسة المسيحية وفلسفتها السياسية والنوع المسيحى من التصوف . وإذا كان يوربيديس قد سبق إلى اللادينية المتورعة والشرك المبهم والعاطفة الانسانية التى هى إلى القرن التاسع عشر أقرب منها إلى القرن العشرين فلست من أجل ذلك أظنه من خوارق أثينا فى القرن الخامس ولكن أرى أن أثينا قد هدتنا الطريق حتى فيما لم نكن نتوقع الهداية منها فيه . ولست أجدنى كذلك ميالاً من غير برهان إلى اعتبار الأفلاطونية المتأخرة غير هيلينية سواء سميناها ديناً أو فلسفة . ولا داعى إلى أن نبحث عن مؤثرات أسيوية فى مدرسة استسكت بالتقاليد الأثينية . إنما الأقرب من هذا إلى ما نحن بصدد أن نبين كيف أن فلسفة دينية ذات نزعة تصوّفية تنزع بها إلى الكشف ومحاسبة النفس قد نشأت بالفطرة عن الفاسفات الطبيعية التى تقدمتها كما اضطّر علم ما وراء الطبيعة والعلم الطبيعى فرجع فى أيامنا هذه إلى نظرية المعرفة وعلم النفس وما كان ينبغى أن يكون أنصار الهيلينية فى حاجة إلى مذكريذكرهم أن صفوة الحكمة فى العصر الأدبى القديم (العصر الكلاسيكى) كانت ” اعرف نفسك

بنفسك“ أو أن هرقليطس قديين طريقته بقوله ”فتشت
نفسى“ .

على أننا سنصل عما قريب الى بعض أجزاء فى تراثنا الحديث
ليست يونانية فى أصلها ولا فى لونها ولن يكون عثورنا عليها أيسر
فى يوربيديس أو أفلاطون منه فى هرودوتاس أو سوفوكليس .
لكن أنصار الهيلينية الكراهيتهم بعض ما نجم فى الدين من مثل
التقشف والشعوذة فى العبادة والاضطهاد الدينى والاعتماد على رأى
أولى العلم ، يريدون أن ينكروا اتصاله بما كان اليونانيون يقولون
ويفعلون . وما هو الا مساوئ الروح اليونانى سرت الى الكنيسة
من مصادر هيلينية لا من مصادر يهودية . ان كلياتيس هو الذى
أراد أن يعامل أرسترقس بما عاملت الكنيسة به جاليليو لأنه
سبق الى ما استكشفه جاليليو بعد . وأن بلوترك أو قل أباه الوقور
هو الذى قال : ”أنك على ما يظهر لى تتناول موضوعا عظيما ذا خطر
أو بالأحرى تثير مسائل لا ينبغى أبدا أن تثار إذ تضع رأينا فى الآلهة
موضع النظر وتتطلب أسبابا وبراهين على كل شئ . إن العقيدة
القديمة عقيدة السلف كافية . وإذا زحزحت هذه العقيدة فى نقطة ما
عن مركزها الثابت الموروث فانها تنهدم ولا يثق بها أحد“
ان سلسس اتهم المسيحيين بأنهم قالوا : ”لا تسأل ولكن صدق“
ولكن هذا لم يكن مذهب كليمان وأريجان فضلا عن أن يكون
مذهب القديس پولص ذلك السباق المقدام وإنما كان مذهب الفرد
العادى من الوثنيين المتورعين . فقد كان الدفاع فى ذلك الوقت
عن الخرافات الشائعة قد تعدى أمره السياسة وصار ضرورة
محسوسة . كان مركس أوريلياس كثيرا ما يقدم البقر الأبيض

قربانا وكان الناس يكرهون المسيحيين لا لأنهم كانوا يظنون بهم التخريف ولكن لأنهم كانوا يظنون بهم الاجترأ على الآلهة .
لذلك طرد الاسكندر الأبنطاسكى "المسيحيين والأبيقوريين"
بالاسم من مجالسه وكان لوسيان فولتير عصر كثير التصديق أما
الشعوذة التعبدية فإن أفيد قد نسب مذهب الأخذ بما عمل من
قبل^(١) صريحا الى اليونان .

لقد كانت الكنيسة المسيحية آخر عمل عظيم أخرجته الثقافة
الأدبية القديمة فهى فى صفاتها الأساسية لا تنسب الى آسيا
ولا القرون الوسطى اذ المسيحية أقل جميع الديانات العظمى شرقية
فالساميون قد نفضوا أيديهم منها وعادوا الى يهودية خالصة من
عناصرها اليونانية أو حشروا أنفسهم طائعين تحت راية الاسلام
الذى سماه وستكوت يهودية متحجرة وما لقيت بعثات التبشير
المسيحية نجاحا فى قطراسوى ما . كذلك ليس فى الكاثوليكية شىء
من مميزات القرون الوسطى . لقد حفظت الكاثوليكية فكرة
الأمبراطورية الرومانية من الزوال بعد أن زالت دولة الأمبراطورية
الغربية بل لقد حفظت تقاليد الأمبراطورية المدنية فاتخذت من
الأمبراطورية الرومانية نموذجا نسجت أنظمتها على منواله ورفعت
ما ادعاه الرومان من حق امتلاك العالم الى منزلة التقديس وأرصدت
لكل خارج على سلطتها قانون الـ (Maiestas) الرومانى . حتى المعاقبة
بالنار وهى أحب طرق العقاب اليها قد أخذتها عما تأخر من القوانين
الرومانية . وهى بعد ذلك قد استمسكت باللغة التى كانت رسمية
فى العصر القديم وباللقب الأمبراطورى الذى ابتدعه لنفسه حاكم

التلال السبعة على أن المسيحيين الأولين لم يكونوا من الحرص على انكار هذا الاتصال بالمحل الذى يضعهم فيه كثير من الناس . ان كتابهم كانوا فى أول الأمر يرمون الى اثبات اتصالهم باليهودية ولكن اليهودية لم يعد يقام لها وزن بعد أن دمر بيت المقدس فى سنة ٧٠ بعد الميلاد . وجاء كتابهم فى القرن الثانى يننون دعوتهم الى التسامح على أن ما يقول به خيرة الفلاسفة اليونانيين يكاد يكون هو ما يعتقده المسيحيون . يقول جستين مارتير : ” انا نعلم ما يعلمه اليونان وان كنا قد خصصنا بالكراهية دونهم جزاء على ما نعلمه “ ويقول ترتليان : ” لقد كتب بعض الراسخين منا فى الأدب القديم كتباً ليثبتوا أن ليس فيما نعتقد شئ لا يؤيدنا فيه الأدب الشائع بين الناس “ ويقول جستين فى موضع آخر : ” ليست تعاليم أفلاطون بأجنبية عن تعاليم المسيح وهذا يصدق أيضاً على الرواقين “ ” لقد اتبع هرقلطس وسقراط القانون الإلهى فيما عاشا “ وينبغى اذا أن يعدا من المسيحيين . ويقول كليمان : ان أفلاطون كان يكتب ” بالهام من الله “ ويرى أوجستين وعصره متأخر جداً عن عصر كليمان أنه ليس هناك حاجة الا الى تعديل ” بعض كلمات وعبارات “ فى الأفلاطونية حتى تصير مطابقة للمسيحية من كل جهة . وقد بين هرnk أن قواعد الأخلاق عند معاصريه من الوثنيين خصوصاً ما بينه بورفيرى منها كادبت تكون هى بعينها قواعد الأخلاق عند المسيحيين فى عصره وان اختلفت فى نقط كثيرة عن قوانين الأخلاق لخمسمائة سنة من قبل وعن قوانين الأخلاق لخمسمائة وألف سنة من بعد فان الخلاف لم يكن ناشئاً عن الجنسية ولا عن العقيدة . فالمسيحية الكاثوليكية متصلة اتصالاً تاريخياً بالمدنيات القديمة التى ظلت حية فيها بعد أن ذهبت تقاليدها الأخرى وعاداتها

وليس في التاريخ الا أمثلة قليلة أخرى اتسع فيها الفرق بين الحقيقة والظاهر كما اتسع في هذا المثل ففى الظاهر يبدو الاتصال بالوثنية مفصوما وباليهودية غير مفصوم والواقع على الضد من هذا .

هذه الحقيقة التى هى غاية فى الأهمية قد أبهمها على الناس أسباب عدة وقد ذكرنا من قبل الهوة التى توجدتها تربيتنا التقليدية فى التاريخ كما نقرأه . أما التواريخ التى لدينا عن الكنيسة فى عهدها الأول فكثيرا ما ينحرف بها عن الجادة تحيز ووددنا لو سلمت منه فهى تحكم على المسيحية بأحسن ما فيها وعلى الوثنية بأسوأ ما فيها وتنزل المجاز فيما طعن به الطاعنون على سنيكا وچوثنال وتاسيتاس منزلة الحقيقة فتأخذ به على ظاهره . وقل أن تتذكر تلك التواريخ العرف الذى كان يضطر الهاجى الى الاقذاع أو الظن السيئ الذى كان يظنه الرواقيون بالملكية من الوجهة السياسية ، أو أن الحياة العامة لم تكن يمثلها النمط الحديث للحياة فى العاصمة . هذا عن التواريخ القديمة . أما مؤرخ الكنيسة الحديث فقد اكتسب خبرته فى ركن من أركان كلية أو زاوية من زوايا كاتدرائية فهو لا يعلم عن بلده الا قليلا ولا يكاد يعرف شيئا عن الحالة الأخلاقية فى القرون الوسطى ، أما ما صارت اليه الحالة الأخلاقية الآن فى كثير من بقاع أوروبا فذلك ما لا يعرف عنه شيئا على أنه تبدو الآن فى أحدث الكتب رغبة حقيقية فى الوقوف فى الحكم عند حد العدل وليس هناك شئ تخشاه الكنيسة من حكم لا يأخذ الا بالعدل .

هناك فرض يفترضه حتى الكتاب المطلعون أمثال هرنك وهتس مؤداه أن العنصر اليونانى فى المسيحية دخل عليها فأخرجها عن صفائها الأول وصير أوروبا نصف وثنية مرة أخرى . وود هذا

الفريق لو أثبت أن الكاثوليكية كانت تكن بروتستانية أولية ليس لليونان عليها من فضل . والحق أن الكنيسة كانت نصف يونانية من البدء وإن كان الانجيل لم يكن كذلك كما سأعرض لهذا عما قريب . كان القديس پولص يهوديا من يهود التيه لامن فلسطين وكانت المسيحية التي اعتنقها مسيحية ستيفن لا مسيحية خيمس أخى المسيح ورسائله الأخيرة تفيض بلغة المعميات اليونانية واصطلاحاتها فرسلته الى العبريين كالانجيل الرابع لا يفهمان من غير أن تحيط بعض الاحاطة بما كتب فيلو . ولاهوتية فيلو يونانية أكثر منها يهودية فلما قام النزاع حول الحياة الأخرى غلبت الوجهة اليونانية على اليهودية وما التصريح المشهور الذى أعلنه القديس پولص بقوله : "إنا لا ننظر الى المراثيات ولكن الى غير المراثيات لأن المراثيات موقوتة وغير المراثيات خالدة" إلا فكرة أفلاطونية خالصة ليس بينها وبين تفكير اليهود اتصال . لقد كانت المسيحية المتهودة مسألة محلية لم تعش الا أجلا محدودا قصيرا .

وهناك نقطة أخرى . ان الخلاف بين التعاليم الرسمية فى الوثنية وبين الصلوات فى المسيحية ينزله فريق فوق منزلته ويعطيه فوق أهميته وينسى من يفعل هذا كيف كان الدين والفلسفة متمازجين فى العصور اليونانية تمازجا تاما . إنا نستطيع أن نقول مطمئين أن الأمبراطورية كانت دينها الحيوى مرتبطا بالديانات ذات المعميات ورياضة "الحياة الفلسفية" هذا نستطيعه من غير أن ننقص بهذا القول قدر تلك التقوى البسيطة التى كانت تحوم حول الهياكل وطقوسها خصوصا فى البلاد الريفية . وفى هذه الدائرة دائرة الرياضة الفلسفية والمعميات يقع أغلب اتصال الكاثوليكية بالهيلينية لقد كان الفلاسفة فى ذاك العصر هم الوعاظ وهم القوام

على الاعتراف وهم القسيسون والمبشرون فخرقة الكهنوت بجميع فروعها تقريبا قد تسلسلت مباشرة عن الفلاسفة الهيلينيين . ودعوى الاتصال هذه قد تبدو مناقضة نفسها لمن يتذكر الاضطهاد الوحشي الذي اضطهدت الحكومة الامبراطورية به المسيحيين . غير أن تلك الاضطهادات لها أسباب عدة . كانت الامبراطورية ككل الامبراطوريات التي من جذعها تعتمد من بين ما تعتمد عليه على عماد ديني وقد كان أغسطس يشجع شعراء حاشيته على الحض على احياء التقوى والأخلاق الفاضلة . وایس في وسع حكومة أن تمحص اعتقادات الناس ولكنها تستطيع أن تلزمهم السير على سنن الدين واحترام العبادة التي "يؤيدها القانون" . فالمسيحيون والاپيقوريون كانت جريمتهم السياسية واحدة هي الكفر . فلم تكن الحكومة تجدد في ديانات المعميات ما تشكو منه لأنها كانت ديانات لا تتجاوز الضمائر ولكنها كانت ترى الجهر بازدراء الآلهة القومية خيانة واضحة . ولم يكن في مقدور الوثنيين أن يفهموا لما ذا كانت الكنيسة تأبى كل الآباء أن تصانع القائلين بامتزاج الأديان وهو في نظرهم كان نتيجة طبيعية لامتزاج القوميات . فأبيلوس مثلا يقول على لسان أزيس حين تجلت للوسيوس حيث الروح الأحد الذي تعددت أسماءه وتنوعت شعائر عبادته واختلفت مظاهره بقدس في كل بلاد العالم ويسرد على لسانها بعد ذلك أسماءها المختلفة فكان كرم النفس هذا الذي تجاوز مقام التسامح يبدو لمختلف سكان الامبراطورية اعترافا بالحالة السياسية الواقعة . فالذين كانوا يأبون أن يدخلوا ضمن دائرته كانوا في نظر الناس قابلين على الأقل لأن يصيروا أعداء المجتمع الذي هم فيه . هذا هو الخلاف الحقيقي الذي كان بين الكنيسة والامبراطورية .

وأوغسطين حين سخر انما سخر من دين الحكومة القديم ومن الآلهة الرومانية الصغيرة التي لا عداد لها ولعله وجد أسماءها في فارونيس ان أفلاطون و يوريبديس وزينوفانيس هاجموا الخرافات الرسمية^(١) بما لا يكاد يقل في شدته وحدته عما كتب أوغسطين ولكنهم لم يسلموا من اللوم والتجريح وكان المسيحيون أكثر مخالفة للأولبيين في الأساسيات .

كانت النهضة الوثنية التي قامت في حمى الأمبراطورية شبيهة بالكاثوليكية الجديدة في فرنسا وكانت أقرب الى الوطنية والقومية والمحافظة منها الى التدين بمعناه الدقيق ومن هنا على ما يظهر حاول سلسس في كتابه المفقود الذي انتقد المسيحيين فيه أن يأتهم من ناحية الوطنية حاثا اياهم على مؤازرة مملكتهم وحكومتهم في الأزمات الشداد حتى اذا أخذت الكنيسة تزداد أتباعا وقوة وأخذت التقاليد القائمة تنهار شيئا فشيئا لما قل التناسل في الطبقتين العليا والوسطى جعل المحافظون يحدبون على ثقافتهم حذب الوهان القلق ويبصرون في المسيحية ظلمة مبهمة تنذر باطفاء "كل شيء جميل في الدنيا" . ونحن نستطيع أن نعطف بعض العطف على خوفهم وقلقهم هذا ولكننا لا نستطيع عطفنا على ما أدى اليه من سياسة حمقاء . لقد كانت الاضطهادات الأولى شبيهة بالمجازر الروسية كانت الحكومة فيها بين محرضة عليها ومغضية عنها رجاء أن يكون فيها منفذ يذهب منه سخط الناس فقد كان الناس في ذلك الوقت يكرهون المسيحيين ويتلقون ما كان يدور حولهم من فظيخ الأقاويل بشيء كثير من التصديق لكن الهجمات عليهم لم تكن متصلة ولم

يقبل الناس عليها بقلوبهم فالبون بعيد بينها وبين ذلك الاستئصال المنظم الذي استؤصل به اليهود والبروتستانت في أسبانيا . وقد وجد هديران في الاسكندرية شعبا يحب المال ويعبد المسيح وسارابيس عبادة من يسوى بينهما لا يبالى أيهما عبد . ونحن نخطئ اذا تصورنا المجتمع عندئذ منقسما قسمين على حرب دائمة فان أول حرب حقيقية وآخرها وقعت في أيام دقلديانوس لتكون فصلا بين الوثنية والمسيحية أيهما يكون دين الحكومة . ولكن مهما يكن من ذلك فليس من شك في أن تلك الاضطهادات كان لها يد في القضاء على الثقافة القديمة .

يرى هرنك أن صيغ المسيحية بالهيلينية قد أخذ أدوارا ثلاثة وأن "الحياة والآراء اليونانية بدأت تنبت حقا" حوالي سنة ١٣٠ ميلادية ولا يستطيع أن يحدد أثرا يونانيا مذكورا "في كلمات المسيحيين الأولين غير بولص ولوقا ويوحنا" وهذا استثناء من الأهمية ما يسلب هذا القول قيمته أو يكاد . أما بعد سنة ١٣٠ فان "فلسفة اليونان قد نفذت الى صميم الديانة الجديدة من غير تعريخ" وبعد ذلك بقرن أو نحوه "تأثرت الكنيسة بالرموز اليونانية والمدنية اليونانية في جميع تطوراتها ولكنها لم تتأثر حتى ذلك الحين بقصصها وتعبد آلهتها فان هذين لم يكن حان وقت التأثير بهما بعد" "لقد مر قرن آخر قبل أن يثبت في الكنيسة قدم الهيلينية والواقع أن هذه الحركة قد بدأت منذ جعل الوعاظ المسيحيون يعظون باللغة اليونانية ولم تبلغ قط من التمام ذلك المبلغ الذي يصفه "ان الروح المسيحي" (١) الذي يحمله بحق أعلى محل من الأهمية كان في رسائل القديس بولص لا ينقصه

الا الاسم . وما يجده من التناقض الواضح بين الفكرة المسيحية عن الوحي يظهر على يد انسان في وقت معلوم وبين الفكرة اليونانية عن حق لا يتغير ولا يحده زمان يمكن أن يدركه كل من يروض نفسه الرياضة اللازمة ، وهذا التناقض قد عالج له الآباء القسيسون من اليونان وتغلبوا عليه بعض التغلب . كذلك يرى هرنك أن مذهب الأدريه ان هو الا المذهب اليوناني الصحيح في الوحي قد تجسم ونسى أن الأفلاطونية الحققة والكنيسة هما في معاداة مذهب الأدريه سواء . والكنيسة برفضها مذهب الأدريين قد آثرت الهيكلية الحققة على تطوّر همجي فاسد قد تطوّرت . لكنا من الجهة الأخرى لا نجد عهدا يمكن أن نقول عنه ان الآراء اليونانية قد استحوزت فيه على المسيحية تمام الاستحواذ . لقد ذهب شطر كبير من التقاليد القديمة حين ذهب حماها الذين انقرضوا طوعا لذلك القانون المحزن الذي تفنى الجماعات وتبقى تبعاً له وأفسحوا بانقراضهم المجال للزلاء وللطبقات التي كانت مغلوقة على أمرها من قبل أى لأولئك الذين كانوا أقل حاجة والذين لم يكونوا يأبهون بثقافة لم يسمح لهم أن يأخذوا بنصيب منها .

وهناك سبب آخر من أسباب فهم الحال على غير وجهها يمكن توضيحه مما كتب ماتيوارنولد . لقد قسم الناس جميعا الى صنفين أتباع العبريين وأتباع اليونانيين وجعل الانجليز والأمريكيين الحديشين من أتباع العبريين . وفي رأيه أن شعار الأخلاق العبرية هو "سر بالنور الذي لديك" وشعار الأخلاق اليونانية هو "احذر أن يكون النور الذي فيك ظلمة" فالآخذ بالشعار الأول صحا قلبه ولم يستر عقله والآخذ بالشعار الثاني صفا عقله وقسا قلبه . وقد

لاحظ الأستاذ سانتيانا حديثا الفرق نفسه بين الفرد ينشأ من الأمم اللاتينية والفرد ينشأ من الانجليز السكسونيين . فالمدينة الرومية . الناشئة حول البحر الأبيض ، تتحرى الدقة في مقاييسها لأنها أقدم عهدا وأكثر تحذقا . أما ساكن الأصقاع الشمالية فقد قصر اهتمامه على ضخامة ما يعمله من غير نظر الى نوع ما يعمل واتبع في ذلك نصيحة كلاو .

” اذهب ! لا تقل في نفسك ثم ما ذا ؟ واذا تم ما تريد وهدأت سورتك فلا تقوان ما الفائدة وما النفع ؟ “ .

لكن سانتيانا لم يقع في الخطأ الذي يقع فيه من يعتبر أن النهضة الحديثة كانت رجوعا الى مسيحية فلسطين . لقد كان القائمون بالنهضة أنفسهم يظنون ذلك لكن كل بدعة دينية تحاول أن تقوم على بعض التقاليد القديمة . فالمسيحية جعلت تبحث أولا لنفسها عن شواهد في اليهودية وان أسرع اليهود فأدركوا أن المسيحية ” قد أبطلت القانون “ وكان هذا الظن الذي ظنه القائمون بالنهضة معقولا في ظاهره فانهم نبذوا من الكاثوليكية كل ما لم يكن يمت بسبب الى فلسطين وان اتصل بثقافة الهيلينيين القدماء وأشياءهم لكن ما بقي بعد الذي نبذوه كان تيوتونيا أكثر منه يهوديا . حقا ان النهضة في احدى نواحيها كانت فرارا من الرومانية الى الهيلينية فقد كانت الفلاسفة المسيحية الأولى أفلاطونية في أساسها وكانت الأخلاقيات المسيحية الأولى كما تتمثل في بعض الكتابات خصوصا كتابات أمبروز ، رواقية في صميمها . وقد قرب الأفلاطونيون المتأخرون كثيرا بين أفلاطون والرواقين حتى صار من السهل أن يسود الاثنان جنبا لجنب وجاء أوغسطين فطرد الأخلاقيات

الرواقية من الكنيسة طردا لم يكن لها بعده رجعة الا عند النهضة .
 أما الكلفانية فما هي الا رواقية معمدة ثم هي في الواقع تجعل
 الاله مرجع كل شئ لأنها لا تعترف في العالم الا بارادة فعالة
 واحدة فهي في هذا تشبه كثيرا ما كان يعتقد العلم في القرن التاسع
 عشر . كذلك البيوريتانية لم تشبه اليهودية في شئ وإن شغفت
 بكتاب العهد القديم ولكنها شديدة الشبه بالرواقية . فالنهضة كانت
 ثورة على اللاهوت اللاتيني وعلى الوثنية التي ورثتها شعوب
 البحر الأبيض ولم تكن رجوعا الى مسيحية ما قبل الهيلينيين أظلت
 بكنفها انسانية ارازمس والنهضة الانجليزية التي ازدهرت أخيرا .
 وما وجدت الأفلاطونية المسيحية منبتا أنمى ولانمى أكبر من ذلك
 الذي وجدته في بريطانيا البروتستانتية .

ويوجد اليوم ثورة بين غوغاء المدن أكبر خطرا تنذر في الواقع
 بتدمير كل ما نحن مدينون لليونان به . فقد تولد عن الثورة
 الصناعية نوع جديد من الهمجية لا يمد في الماضي يجذر فأصبح
 التواشع والاتصال مهتدا بالضياحة لارة الثانية في تاريخ أوروبا الغربية .
 ينشأ الآن جيل لا تعوزه التربية ولكنها تربية من طراز لا تصله
 بالثقافة الأوروبية في تطورها التاريخي صلة . فلا الآداب
 القديمة تدرس فيها ولا الكتاب المقدس ولا التاريخ يدرس درسا ذا أثر .
 وأشد خطرا من ذلك أن التقاليد الاجتماعية قد انعدمت فالمدني
 الحديث مبتور لا يتصل يجذر قد نسي ما كانت عليه القرية
 التي جاء منها آباؤه من عادات وعواطف وصارت الحياة الى طراز
 لا هو بالصحيح ولا بالطبيعي فليست تربطه رابطة بالطبيعة
 ومؤثراتها الحلوة وقد أكسب هذا الطراز الناس عقلية تبرأ منها
 الصحة والفطرة وليس لها في الماضي شبيه وأخص خصائص هذه

العقاية حب الدنيا والمادة . فالصانع المدنى البحت لا دين له ولا خرافة . لا يعرف غاية وراء هذا العالم الذى يحسه بحواسه ويلمسه . فكان من الطبيعى أن يفتح ذلك هوة بينه وبين دين اليونانيين ويفتح هوة أكبر منها بينه وبين المسيحية . أما المحاولات التى يحاول أصحابها أحيانا خصوصا فى هذا البلد أن يلبسوا حركة العمال بها لباس من يريد الرجوع الى الانجيل الفلسطينى فانها تكاد تكون خلفا مضحكا . وقد بين بلفور باكس فرق ما بين الاثنين فى قطعة تمثل بها الأستاذ جاردنروهى : " ترى المسيحية أن الإصلاح لا يبدأ الا من الداخل أما دين الاشتراكية الحديثة وأخلاقها فانهما يتطلبانه فى الخارج فى الماديات وفى حياة اجتماعية أرقى " فهى بهذا تتحدى المسيح وأفلاطون على السواء .

هذا الروح الجديد منطقى حين يثور على ما نسميه بالفكرية^(١) أى معالجة مشا كل الحياة بالفكر المحض فانه روح يريد أن يستعيز عن الفكر بما يسميه بعض فلاسفته بالغريزة ولو سموه عاطفة لكان أقرب وليس بين هذا رأى فى الحياة وبين الهيلينية من وفاق فان العلم هو أكبر أبناء الروح اليونانى وأعزهم عليه ولسوف تقع بين العلم وخصومه احدى كبريات معارك المستقبل فأما الغريزون فسيكونون أكثر عددا وأما الطبيعة وهى التى كان يحلها ويثق بها جميع اليونانيين فسوف يتحقق ظنها فى أبنائها .

وأخص ما ينقم عليه هذا الروح الجديد هو أخلاق الرواقين التى تقلدتها المسيحية كما رأينا ، تقلدتها ومذهب الأفلاطونيين فيما وراء المادة . ان الرواقية تعلم الناس أن يحترموا القانون الطبيعى وينخضعوا له وأن يتقبلوا مصائب الحياة بهدوء فى تكبر وأن يعطفوا

ولكن من غير استرسال في شفقة وأن يعتمدوا على النفس ولا يحوجوها الى غيرها وأن يحرموها ابتغاء ضبطها والفوز عليها وأن يجعلوا هذه الحياة مدرسة صارمة يتلقون فيها الرياضة الخلقية المتينة . وهذا كله يبغضه الروح الحديد فانه يقاد بعواطفه غير مروض ولا جاعل للحياة غرضا الا السرور . يذكر للبيوريتانية شدتها من غير أن يعجب بفضائلها .

كثيرا ما يقال : ان الرجل الحديث قد فقد كل حب اليونانيين للجمال . وهذا فيما أرى غير صحيح فيه ظلم لمدينتنا الحاضرة رغم ما فيها من قبح محقق في نواح كثيرة . ومن العجيب أن الذين تناولوا اليونانيين بالنقد لم يلفتوا الناس الى عيب في حاسة الجمال عند القدماء جعلهم لا ينفرون كثيرا من القسوة . ولم يكن هذا فيهم لأنهم كانوا يخرجون الأفعال الجميلة من دائرة الجمال ، فانهم لم يخطر لهم قط أن يفرقوا بين الجمال والخير من هذا الطريق ، ولكنهم كانوا لا يتأذون بتعذيب الرقيق ولا من تعريض الأطفال للموت ولا من ذبح أهل مدينة اذا هم ناروا . وقد انتاب المدن الايطالية عند النهضة مثل هذه القسوة فان ازيلو كان معاصر اللبانين والراسمين العظماء . ولست أرى مندوحة عن أن أستنتج أن هذه القسوة تمت بسبب الى ما كان هناك من مقدرة على الابتكار الفنى في هذين العصرين . أما الحساسية الكبيرة التي تحس المدنية الحديثة بها آلام الناس اذا كانت جثمانية فانها نشأت وانتشار الصناعة جنبا لجنب وهي أظهر ما يكون في أخضع الممالك للصناعة وقد ظهر معها أمر آخر نأسف له في عصرنا . ذلك هو ما أصاب المقدرة على الافتنان السهل المطبوع من ركود ريحه . لقد كان افلين في القرن

السابع عشر لا يزال في استطاعته أن يزور السجن من سجون باريس بدافع التطلع الى رؤية مسجون يعذب حتى إذا ما رآه خرج قبل انتهاء العذاب ولكن من غير أن يشعر له بدن ومن المحقق أن تأفنا من أمثال هذه المناظر راجع الى عاطفة الجمال لا الى عاطفة الخير فينا وهذا أظهر ما يكون في الطبقات الاجتماعية السفلى . حدث منذ سنوات أن كنت ممن شهدوا أول ليلة مثلت فيها رواية لم تخل من سخف عن روما القديمة وكان من بعض مناظرها أن يؤتى بمسيحي ليعذب على المسرح تعذيباً لا أثر للشدة فيه ولكن لم يكد يرتفع السوط في يد الضارب حتى قام جيرانى من مجالسهم يصيحون "يا للعار ! أمسك يدك !" واضطر القائمون بتمثيل الرواية الى حذف هذا المنظر فى الليالى الأخرى . وحدث فى بعض المصانع أن سمع العمال مواء هرة بين الآلات فأبطلوا العمل ساعة حتى اذا أنقذوها من الموت بين الآلات والعدد قضوا عليها خنقا . وتفسير هذه الحساسية يجب أن يترك لعلماء النفس لكنى على ثقة من أننا فى مثل هذه الأحوال نبصر مثلاً من الاحساس الجمالى قد زحزح عن موضعه فنحن مثلاً نستطيع أن نسير غير متأثرين فى شارع بليستاو لكنا لا نحتمل أن نرى حصاناً يضرب . والأثينيون لم يقيموا تذكاراً كتذكار ألبرت ولكنهم كانوا يعذبون الرقيقات فى محاكمهم ويسوقون الأسرى الى مناجم الفضة فى لوريا ليعملوا فى أسرابها الفظيعة .

فظهر هذا الروح الحديد الذى تكاد الصلة تنقطع بينه وبين جميع التقاليد يجعل من الصعب تقدير ما علينا الآن من دين لليونان فى الأمور الدينية وما كان ذلك التقدير ليكون سهلاً ولو لم تحدث ثورة صناعية . ان الأوروبيين الشماليين لم يكادوا يبلغون بعد

مرتبة الافصح عن أنفسهم فدياتهم خليط من عناصر يونانية ولاينية وعبرية تأبى أن تتفق فيما بينها وتتأفر في هذا البلد مع ما يراه مثلاً أعلى للرجل المذهب ذلك المثل الذى هو بين غير القساوسة في الشعوب الناطقة بالانجليزية دين لم يعد له علاقة بالرتب وتاريخها ولا بالأرض وامتلأ بها . ان الانجليزى المذهب بعيد عن أن يكون يونانيا بعده عن أن يكون يهوديا . لو قسنا أوديسياس به لكان خبا ذا فكاكة ، أو أكليس لكان متوحشا ذا فظاظه ، أما الانسان الأعلى الذى يصوره ارسطو فهو كما قيل يشبه بعض النبلاء في روايات دزرائيل لكنه لا يشبه أى مذهب آخر. ان الانجليزى متدين بطبعه لكن المسيحية كما هى الآن دين رومى^(١) ولو أنها نشأت في شمال الألب أولا لأمكن أن تكون ذات معالم غير معالمها . من أجل ذلك كان في البروتستانتية اضطراب ثابت يجعل نضالها مع الكنيسة اللاتينية كالمعارك يخوضها هجم ضد جنود مدرين .

فديننا الحديث مثل الخيط المعقد يصعب جدا فصل بعضه من بعض . ومع ذلك قد لا يكون من العبث أن نحاول أن نميز في المسيحية الحاضرة ما هو غير يونانى بالمعنى الواسع الذى اخترناه لهذه الكلمة مما هو يونانى في أصله أو في لونه .

فأما العناصر غير اليونانية فأولاها بالتقديم الانجيل الأصيل الذى لم نذكر عنه الى الآن شيئا . ان ما تحتويه الأناجيل الثلاثة من تاريخ الهداية الجاليلية لم يكتب الا بعد زمن طويل من حدوث الحوادث الموصوفة فيه . واذن فلا ينبغي أن يؤخذ بها غير منقودة . لكن تعاليم المسيح بالرغم من ذلك تبدو في لبابها واضحة جليلة في هذه

الكتب على ما أرى وليس فيها من أثريوناني يمكن العثور عليه بل ليس فيها علامة من علامات اليهودية المصطبغة بالهيلينية التي يمثلها لنا معاصره فيلو . ولكننا لا يمكننا كذلك أن نسمى الانجيل يهوديا الا بقيود كثيرة فقد جاء المسيح قومه نبيا وتعمد أن يقفو أثر الأنبياء قبله في نبوءاتهم فهو كمن سبقه من أنبياء قومه لم يخرج في تنبؤاته كل الخروج عن القالب الذي اعتاد الناس عندئذ أن تفرغ النبوءات فيه لكنه لم يدع الى القومية المألوفة ولا الى الحرية المألوفة ولا الى الأخلاقية المألوفة فلم يكد قومه يدركون مرماه حتى نبذوه . ان الانجيل كما قال القديس بولص كان خلقا جديدا ولأمر ما لم يلبث أن استحدث اصطلاحات خلقية جديدة فالكلمات اليونانية التي ترجمها بالمحبة (أو الاحسان) والفرح والسلام والرجاء والتواضع ليست في شيء من بضاعة الأخلاقيين اليونانيين قبل المسيح والناس لا يضعون ألفاظا جديدة لمدلولات قديمة . فالانجيل في مجموعه ينسج على غير منوال سابق . والمسيحي يستطيع أن يجد بيئة قوية تشهد بصحة ما يعتقدده من أن الانسانية عامة قد تجلى لها في المسيح هدى يريها لأول مرة دينا روحيا في أنقى صورته وأعمها وقد اندمج هذا الهدى الى حد كبير في مشاعر الدنيا المتحضرة لكن الدنيا المتحضرة لا تفقه للآن ما ينطوى تحته من كل ما يتعلق بالمعاملة فردية كانت أو اجتماعية أو دولية . ثم هي لم تعمل به قط الا عن تراخ وضعف . ان عارا عينا ألا تكون تعاليم المسيح الا قليلا من كثير مما يؤلف ما نسميه بالمسيحية وأن أتباع وسل^(١) في مجموعهم هم في رأي أقرب الجماعات الى ما ينبغي أن يكون عليه مجتمع مسيحي .

(١) Quakers وهم طائفة من النصارى يؤمنون بالوحى الخاص فى أمور الدين والحياة .

ثم ان اليونان قد نجوا من مفساد الحكومة الكهنوتية . ان النوع الشرقى من التيقراطية الذى عرفوه فى مصر أيام الفراعنة كان أجنبيا عن حضارتهم . كانت قرايئهم من نوع يغلب عليه الايناس والبشر اذ كانت أكلة يتصلون فيها بالاله الا أنه يجب علينا ألا ننسى أنه قد كان فى اليونان أشكال للعبادة بعيدة عن البشر والايناس وأن الأرفية^(١) أصابها انحطاط تعددت أنواعه ذكره أفلاطون فى جمهوريته ” كانوا يسؤلون لا للأفراد فحسب ولكن لمدن بأسرها أن الذنوب انما يكفر عنها بقرايين وملاهى يفرغ لها الانسان ساعة وينتفع بها حيا كما ينتفع بها ميتا . فأما ما ينفع الميت فكانوا يسمونه بالمعميات ويرون أنها تنقذ من النار وأن مهملها لا يدرى أحد أى مصير سيئ يصير اليه “ هذا النوع من استغلال القربان كان اذا شائعا فى اليونان لكن الهيلينية لم تعرف قط تلك البابوية القيصرية التى امتازت بها البيزنطية والاستعمار الحديث والتى ابتدعها قسطنطين ليستعين بها على صبغ الأباطورية بالصبغة الشرقية صبغا كان دقلديانوس هو البادئ به . ” ان قسطنطين “ كما يقول سيلى ” اشترى لقبا لا يحى بعهد لا ينقض أعطى به بعض امتيازات مقابل الطاعة التامة له . حصل على فتوى تقرر النظرية الشرقية فى الحكم مقابل تقبله قانون الكنيسة . صار غير مسئول لرعيته بشرط أن يصير مسئولا للمسيح “ .

واليونان لم يكن لهم دين كتابى قط بالمعنى الذى صارت اليه اليهودية والذى كان دائما عليه الاسلام غير أنهم كانوا الى حد ما

عرضة لأن ينظروا الى هوميروس وهسيود كما ينظر غيرهم الى الكتب المتزلة. ومن البين لنا نحن أن وراء هوميروس تاريخا دينيا طويلا وأن اتخاذ الآلهة أغراضا للشعر القصصى يثبت أن الآلهة لم تعد يحف بها من الشعور الدينى الا القليل بل لقد صار بعضها مثلا يسخر منه كاشيطان فى أقاصيص الايقوسيين فكان من يريد أن يجعل هذه الأشعار أدبا مقدسا عرضة لأن يكون سخرية للمسيحيين . على أن هوميروس لم يظن أحد قط به أنه يشتمل على "الايمان الذى كان مرة مما أوتى القديسون" فلم يكن مستطاعا أن يبنى عليه دين يسيطر على نفوس الناس وكان من أثر ذلك أن بقى الفكر اليونانى أبعد من الفكر المسيحى كثيرا عن التغيير حتى جاء العصر الذى نحن فيه .

ان الذين راقبوا حقيقة حال المسيحية فى أقطار البحر الأبيض لا يجدون فرقا كبيرا بين التوحيد المسيحى والشرك الوثنى . لقد حاربت الكنيسة الأولى جنوح الناس الى أن يجعلوا بينهم وبين الله شخوصا تعبد لكن عبادة مريم قد دخلت على الناس من ثغر غير محروس وصارت الجماهير الكاثوليكية فى الأقطار الرومانية أكثر من كتب الصلوات وثنية فى العبادة حتى صار الكثير من سذج الكاثوليك ألييبوس يتخيلون فيه عيسى ومريم ويوسف عياهل مسيطرين .

ان القول بخلق الدنيا فى وقت محدود ، وهو قول كان يذكره أكثر المفكرين الوثنيين ويقره أكثر الربانيين المسيحيين . أقرب مرادًا الى الفلسفة منه الى الدين وأهم منه القول بانكار قدم الروح وهو قول متوقف عند الفكر اليونانى على عقيدة البقاء بعد الموت

يقوم بقيامها ويسقط بسقوطها ومن الممكن أن يكون راجعا
بعض الرجوع الى تأثير اليهودية لكن أغلب اليونان لم يكونوا
يعتقدون القدم على ما يظهر وهو في الواقع يكاد يختفى من علم
الفكر اليوناني بين أفلاطون والأفلاطونيين المستحدثين فمن الجائز
أن يكون للقول الفيثاغوري الأفلاطوني مستقبل يضمه الغيب .

هذه فروق يصر بعض الناس على أنها لا معنى لها يجنب
الحقيقة الواقعة ، ان المسيحية كانت الجانب النظري نشوة ثارها
دهماء الناس على النظام الاجتماعي لذلك العهد . وعادت هذه
الفكرة التي جعلت المسيح الفقير الصالح فشاعت بين الناس حديثا
حتى لقد قارن بعضهم المسيحيين الأولين بالبلاشفة وأن من
الانصاف أن نتساءل في أي عهد كان ذلك ولو بالتقريب صحيحا ؟
لقد كان المسيح وحواريوه من زراع وادى الأردن المترفين .
نشأوا من طبقة متوسطة جيدة التربية غير مكدودة . أما خدم
سراة الرومان وهم الذين اعتنقوا الدين الجديد زرافات فقد كانوا
لا يستطيعون صرفا ولا نصرا ولكنهم مع ذلك لم يكونوا تعيسين
ولا مستذلين . فاذا ما نحن جاوزنا القرن الثاني صارت المقارنة
بين المسيحيين بعده وبين دعاة الثورة في هذا العصر الحديث
أسخف من أن تتناول بحث أو نحيص . نعم ان في أقوال الآباء
للمسيحيين كثيرا من الأقوال البليغة عن الغنى وعن الفقر لكن من
تعس الحديث أن الكنيسة لم تعمل على ما يظهر الا قليلا جدا تنمى
يه على المظالم الاقتصادية الصارخة في القرنين الرابع والخامس ولم
يكن هناك حوالى الكنيسة الكاثوليكية من الأول الى الآخر شيء
من الحركة الاسبرطية ، ثم لم تكد الاضطهادات تقف حتى أخذ
الأساقفة بالطبع مكنهم بين الأشراف .

فاذا ما أردنا أن ننظر فيما لليونان من فضل على الديانة الحديثة
عسر علينا أن نعرف أين نبدأ .

ان تصور الفلاسفة كفن حي من أخص تصورات اليونان
وليس أبعد من الحقيقة من أن تسمى اليونان "فكرين" تريد
الاستخفاف الذى يغلب على الكلمة اليوم . كان غرض الفلسفة
تعليم الانسان أن يعيش فيحسن العيش وأن يفكر فى الله والدنيا
ونفسه فيحسن التفكير وسيلة الى ذلك العيش الحسن .
وهذه الصلة الوشيعة بين ماوراء المادة والأخلاق والدين
قد بقيت بين أيدي الدنيا الحديثة ملكا لا يزول . فكل فيلسوف
ينتظر منه اليوم أن يبين علاقة ما بين مذهبه وبين الخلق والدين .
وكثيرا ما يلاحظ النقد عن صدق أن المفكر مهما اجتراً في تفكيره
يتحرى حين يتعرض للسلوك أن يجارى العرف مجارة كافية .
ولا يزال المزيح الذى مزج اليونان الأقدمون بين مذهب أفلاطون
فى ماوراء المادة ومذهب الرواقين فى الأخلاق هو الطراز
الغالب على الفلسفة الدينية المسيحية . ومن الشائق أن
يلاحظ الانسان كيف استمرت الميول المتخالفة فى هذين المذهبين ،
من استحسان التجرد والعزلة والاشتراك فى أعمال البر الاجتماعية ،
يجاهد بعضها بعضا داخل الكنيسة المسيحية .

ان ما للزهد من المكانة فى الدين والكثير الذى كتب بغير تعقل
عن فرق ما بين مكانته فى الهيلينية والمسيحية يحملنى مع مراعاتى
الاختصار فيما أكتب على أن أتناوله بتفصيل أكبر مما تبرره
الدقة فى مراعاة التناسب . كثيرا ما افترض المفترضون أن المثل
الأعلى من الزهد لا يمكن أن ينال إلا احتقارا من أمة رياضية

تجعل هرقل وتسيوس وأكيليس وأمثالهم أبطالا يمجدون . لكن الحق أن الزهد كان له في الهيلينية تاريخ مطرد . فهو مروس نفسه لم يكن يجهل خبر (السلى) من قساوسة دورونا ذات البرد الذين كانت أرجلهم الحافية لا تغسل والذين كانوا يفترشون الغبراء . ومن الراجح أن هذا لم يكن ، كما يظن ثيلا موثر مولندرف ، وصفا لمعيشة متوحشة ولكن لطائفة متقشفة من المتنبيين فإن أيام الصوم التي كانت تسبق تنقيح القوانين كل سنة كانت المحصنات الأثنيات يصمنها على نفس النمط ، كن يمشين غير متعلات ويجلسن على الأرض عارية . ومن الممكن المقابلة بين هذه وبين مذهب تعرية الأقدام^(١) الذي كان الرومان يأخذون أنفسهم به في زمن القحط والذي ذكره پترونيوس وترتوليان . لقد صام المتنبيون والمتنبئات في ملتوس وكلفون وفي غيرهما من الأماكن وكان الناس كافة يؤخذون بأنواع من الصوم أيام النوازل أو الخطر وكانت مدينة تارتم تصوم في كل عام شكرا على النجاة من حصار حوصرتة أما جلد الأولاد في أسبرطة فلا يكاد يدخل فيما نحن بضدده إذ هو على الراجح كان بدلا من القربان البشرى . لكن مما يحمل على العجب أن ذلك التبعد القاسى قد استمر الى نهاية العصر القديم تقريبا . وكانت عبادة ديونسيوس زجريوس في طراقيا مصحوبة قبل فيثاغورث برياضات من التقشف وكان الأخذ بمذهب النباتيين ، وهو الذى لا تخلو حياة مترهد من أثرهام له ، حتما لازما على الفيثاغوربيين ولكن لم يكن يبعثهم عليه محض الرغبة في قمع الحيوانية فقد كانوا يعتقدون بانتقال الأرواح الى جسام الحيوانات ومن يعتقد ذلك لا يجد

مناصا من اعتبار أكل اللحوم كأكل البشر أو يقرب منه وكانت قواعد الحياة عند الفيثاغوريين والأرفيين معروفة جد المعرفة خلال العصر القديم وكان يراعيها كثير من الناس على الأرجح . كانت قاعدة العفة أقل دقة منها في الحياة الكاثوليكية الدينية بكثير لكن أميدوكليس قد نصح كما يقول هيبوليتوس بالامتناع عن الزواج والتناسل . واطرد ازدياد الميل الى اعتبار الترهّب جزءا من الحياة الفلسفية . وقد روى عن كليمان الاسكندري أن انتستين الكابي وداو "رمى أفرديت ذلك الذي أفسد العدد الكبير من النساء الطاهرات" لكن زهد الكلبيين الأولين وبعض الرواقيين لم يكن مبنيا على الروحية وبيع النفس بل على الرغبة في الاستقلال بالنفس عن غيرها وكثيرا ما اتخذ ذلك الزهد أشكالا منفرة وقد كان فيهم من يصدق عليه أنه كان لا يكره اللذة الحسية لذاتها وإنما كان يكره أن يدفع لها ثمنا .

ان الرغبة في استغناء النفس عما سواها جزء دائم من الزهد ولكنه كان جزءا صغيرا عند القديسين المسيحيين . وكان اليونانيون الذين اتبعوا هذه الرغبة يتلهفون دائما على العصمة فيغلون في التلهف . وكانت العصمة هي المحبب الأكبر في الحياة الفلسفية من عهد انتستين وبقيت كذلك الى النهاية . لكن الكلية والرواقية (وهما يجنحان الى أن يجريا معا) صارا في عصر الأمبراطورية الرومانية أكثر لطفا وأقرب رحما وأكثر روحانية حتى لقد يبدو سنيكا وأبكتيتس وماركس أوريليوس كأنما أخذوا من المسيحية بنصفها ولكن لعل من البعيد أن تكون الأخلاق المسيحية قد أثرت أثرا مباشرا في ذلك العهد القديم ويكفى أن نفترض أن روح العصر قد أثرت في جميع المعتقدات والمذاهب

أثرا متشابهها . لقد أخذ تعذيب النفس يتشكل أشكالا تتزايد عنفا حتى انتهى الى الضلالات الغربية ضلالات الرهبنة المصرية وهذه لا يمكن اعتبارها يونانية ولا مسيحية وانما تدل على اعتلال قائم في المجتمع لا يمكن أن يعلل كله بظروف ذلك العصر . ثم مرت قرون قليلة جاء بعدها نوع من العزلة كان خيرا من تلك الرهبنة عفى على أصحاب الصوامع . فلقد احتفظ تساك القرون الوسطى بعيشة التفرد ولكن شتان بينهم وبين متوحشى طيبة المعاتية . أما في العصور الحديثة فقد عاش أكثر الناس أثرا بالروح اليونانية في بساطة التقشف في الجملة ولكن من غير أن يأخذوا أنفسهم بشيء من التأديب العنيف الذي يقال ان بعض صالحى الكاثوليك لا يزالون يفعلونه . ذلك لأن الروح اليونانية لا ترى حياة فلسفية أعلى من المران الدائب على امتلاك النفس والتقليل كل التقليل من الأخذ من ملذات الحواس فحياة القسيس أو الأستاذ أو الفيلسوف الانجليزى هى عند أخيار اليونان حياة ملومة لاسرافها في مطاوعة النفس . ونحن كثيرا ما ننسى مبلغ أخذ اليونان في جميع الأحوال بالشظف والجلد في العيش لكن علينا في هذا المقام أن نزن الفروق بين المناخين واضطرار الشعوب الشمالية على ما يظهر الى التغذى بغذاء أطيب .

ان تأثير المعميات اليونانية على المسيحية مسألة يحتدم الجدل فيها وللهموى وسوء الظن فيها ملعب لا يليق . لقد استكشفت في مصر وغيرها استكشافات حديثة زادت كثيرا في المعلومات اللازمة للحكم ولكن قد وقع ما يقع عادة من المبالغة أحيانا في تقدير أهمية الحقائق الجديدة . لقد بنحس اللاهوت البروتستانتي تأثير المعميات حقه وتعهد أن يرد ذلك التأثير الى تاريخ متأخر حتى

لا يسلم بأن مسيحية القرن الأول كان قد وجد فيها بالفعل عنصر كاثوليكي قوى والكاثوليكية الصحيحة تجاهلت ذلك التأثير لبواعث تختلف عن الأولى ولكنها مثلها في الوضوح وفي رأي أن الكاثوليكية الآخذة بالحديد قد قدمت تاريخ انبثاق مذهب القربان التقديسي الساذج في الكنيسة عن مواعده وجعلت له من الأهمية في دين القرن الأول المسيحي فوق الذي كان له . وأهل هذا الرأي يكادون ينكرون أن يكون هناك بين تعاليم المسيح وبين الكنيسة الكاثوليكية التي يرونها في الدين من طراز عبادة أزيس ومثرا ، الا اتصال يرجع نصفه الى المصادفة . ومن الغريب أنهم يرون المسيح مجرد شخص من أشخاص التوراة ويعتبرونه واحدا من كثير من المسيحيين أو المهديين الذين قاموا في تلك الفترة في فلسطين . وهناك مشار آخر للجدل هو تقدير ما كان لأديان المعميات التي كانت في بلاد اليونان من قيمة . ان من كتب في هذا الموضوع من رجال الأدب الألمان المقتدرين مثل رترنشتين وروض وهو أكثر تطرفا في ذلك من رترنشتين ، اتخذوا في بحثهم طرائق المعميات أسلوبا جافا جدا على ما يظهر لي ثم جاء أخيرا بعض النقاد الأكفاء فانتصروا منذ زمن غير بعيد الى أن لليهودية ، اليهودية المتهلنة طبعاً ، من الفضل على هذه الناحية من المسيحية أكثر مما كان يظن الى الآن .

يقول أفلاطون في فيدو " ان الذين أسسوا معمياتنا يعلنون أن من يرد على النار غير مهدي سيرقد في الطين وأن من يرد عليها مطهرا مهديا سيقم مع الآلهة " لأن " من يحمل الشارة كثير لكن الملهمين منهم قليل " ولم يسلم مذهب القربان التقديسي هذا من التحدى كما قد رأينا عن أفلاطون نفسه . وقد تساءل ديوجينيس كما يقال عن الفاتك باتشون أهو خير منقلبا في الدار

الأخرى من البطل أموننداس لأنه كان موفقا مهديا ولأن الثاني لم يكن ؟ لكن الأرفية طهرت التعبدات الخمرية ورفعتها وان تعرضت هي للفساد . فقد كان الخمريون كما تقول مس هريسون يرجون أن يصلوا الى الله بالسكر والأرفيون يرجون أن يصلوا اليه باجتنا ب الخمر فصارت النجاة الآن عن طريق الصلاح وأعطى المهدي عهدا أن ”يأيها السعيد المبارك لتكونن الها بدلا من أن تكون فانيا“ وكان اليوناني يفهم من أن يكون الها أن يكون خالدا ونجا الأرفي الصالح بهذا من الحلقة المؤلمة حلقة الميلاد والموت المتكررين . وكانت الطهارة الأرفية في صميمها نتيجة للرياضة الخلقية وان لم تكن كذلك في رمتها . ويقول كيومون أن طرائق المعميات جاءت معها بشيئين جديدين ، بوسائل معماة للتطهير أرادوا أن يغسلوا بها عن الروح أدرانها ، وبالعهد الذي يضمن للتقى الخلود في النعيم جزاء تقواه . ويقول مستر ه . ١٠ . كندى إن الحق كان يعرض عليهم في ثوب الوحي الالهي وأنهم كانوا يعنون باخفاء التعاويذ عن أعين الفساق يرون ذلك حتما عليهم وهي التعاويذ التي كانوا يرون فيها وسيلة قوية يتخلصون بها من مس الشياطين ويتغلبون بها على القدر النافذ وهو أهم لديهم . وكانت هذه الشيطانيات يعتقدها الناس في كل مكان أيام الأمبراطورية الرومانية وهي الأيام التي عناها مستر كندى بجملة هذه . ومن تعس الجلد أنها تركت من الأثر في رسائل القديس بواص أكثر مما كنا نود . كذلك تكونت جماعات تصوفية كان تكبرها خطوة مهمة في نمز الدين اليوناني . كانت هذه الجماعات عامة وانتشرت على ما يظهر في الفرض الكبرى على الأخص وأقبل الناس عليها اقبالا وكان أكثر أشياعها من

الطبقات الدنيا ولم يكن معمولاً بالفروق القومية والاجتماعية فيها .
ولا يمكن أن يلخص غرضها الأقصى بأحسن من كلمات مستر
كندى " أن ترتفع بالروح عن قصير عمر المادة الفانية بالوحدة
الفعلية مع الاله " .

وقد اعتاد الكتاب أن يفرقوا بين الوقور المعترف به رسمياً من
المعميات مثل معميات أليسيس وبين الجماعات التطوعية المستقلة
التي صار لبعضها أهمية بعد . لكن الراجح أنه لم يكن هناك فرق
مهم بينها فلم يكن في أيها كبير تعليم محدود وكانت ترمى كما يقول
ارسطو الى أحداث حالة خاصة من الشعور كانوا يمثلون رواية
من روايات العواطف في ظروف غاية في الروعة والتأثير .
وليس هناك سبب يحمل على الشك في أن تأثيرها الخلقى كان مفيداً
وأنه كان أحياناً عظيماً . فلما امتزجت المعميات المصرية ،
معميات أيزيس وآزوريس ، بالمعميات اليونانية نشأ طراز
من العبادة يشبه المسيحية الى حد مدهش . ففي بعض المتون
المصرية المشهورة ترى الوعد " ليحيين (العابد) حقاً كما أن حياة
آزوريس حق ولينجون من الموت حقاً كما أن نجاة أزوريس
من الموت حق " . وشكر أيزيس الوارد في آخر "من خلق الى
خلق" لا يلباس جميل جداً في ذاته وان كان نهاية غريبة لرواية
خليعة . وتحتوى الأدبيات أدبيات النسك الرهبانية أيضاً على
مواعظ تشبه مواعظ يوحنا شبا كبيراً كما يتبين ذلك على الخصوص
في دعاء أيزيس "مجدني كما مجدت اسم ابنك هوراس" . واني
وان وافقت النقاد أمثال كيومون وزلنسكى فيما يرون من نسبة
التعليم الرهباني الأرقى الى مصادر هيلينية حقاً فاني لا أرى داعياً
لأن ينسب التعليم الأرقى كله الى اليونان والأدنى الى مصر .

كثير من لاهوت القديس بولص ينمى الى نفس سلسلة الأفكار التى تنمى هذه المعميات اليها . ومن أجدرها بالتنويه علم النفس الذى يقسم الفطرة البشرية الى روح ونفس وجسم يريد بالروح ذلك العنصر الالهى الذى يتحول اليه الذين ينجون لأنهم "يعرفون الله" . هذه المعرفة هبة غير طبيعية تجعل صاحبها يتخلق بأخلاق الاله . ويفضل القديس بولص عادة أن يسمى هذا الجزء وهو أسمى جزء من الفطرة البشرية بالنيوما وليس من السهل التمييز فى أدبيات النسك . الأدبيات الرهبانية بين النيوما وبين النوس التى لها بالضبط نفس المكانة فى الأفلاطونية المستحدثة . وليست فكرة أن النجاة هى معرفة الله قليلة الورد فى القديس بولص . قارن مثلا (الرسالة الأولى الى الكورنثيين - ١٣) وقطعة أخرى أهم منها (٢ رسالة الى قليمون - العهد الجديد) وكان الكشف والرؤى سبيلا من سبل الوصول الى بعض هذه المعرفة كان له بعض الأهمية لدى القديس بولص لكن القديس بولص يسير فى الجملة على وتيرة واحدة ويجعل المعرفة تاج الايمان ونهايته . ان تبدل الشخصية النيوموية الروحية منزلة من غيبيات القديس بولص منزلة القلب . "إن هلك الانسان الظاهر فالانسان الباطن يتجدد يوما فيوما" و"الجسد الروحي" هو وعاء الشخصية المتبدلة لأن "اللحم والدم لا يمكن أن يرثا ملكوت الله" . والتعبير "بعود فيولد" شائع فى أدبيات المعميات .

ان من السهل أن نجد لو شئنا فى رسائل القديس بولص وفى كتب يوحنا التى هى أحسن تعليق عليها وفى لاهوت الآباء اليونانيين متشابهات أخرى كثيرة تثبت الصلة الوثيقة بين المسيحية الأولى وبين أديان المعميات فى الإمبراطورية . ولو كنا نكتب هذا

المقال قبل عشرين عاما لكان من المفيد أن نبين أوجه الشبه هذه بتفصيل أكبر حتى في ملخص كهذا الذي نكتبه . لكن الناس الآن اذا لم ينزعوا الى المبالغة في تقدير ما للآراء والعبادات الهيلينية من فضل على الدين المسيحي فانهم ينزعون على أى حال الى أن يغفلوا في أديان المعميات الفرق العظيم بين العناصر الراقية التي كان في مقدور الدين الجديد أن يستلحقها بسهولة وسرور وبين النوع الأدنى منها مثل الفلسفة الالهية^(١) والسحر والشعوذة التي لم يكن طريقها طريق النمو اليوناني والتي قد خلا كتاب العهد الجديد منها وقد قال وندلاند وما عرفناه الا ناقدا بصيرا فأصاب كل الاصابة ان موقف القديس بولص من أديان المعميات كموقف أفلاطون من الأرفية فهي لم تكن مدار حياته الدينية ولكنه وجد فيها من العبارات البليغة ما وافق المعاني التي كانت تحوم حول وجد أنه أو كما يقول فينل "ليس رأى القديس بولص في الروح وفي المسيح رأى مقلد للمعميات ولكنه معنى من ذات نفسه عبر عنه مجازا حسب أسلوب عصره" .

ان أمثال لوازي من الكتاب الذين يقولون ان المسيح كان في اعتقاد القديس بولص إلهام نقذا بالمعنى الذي كانت به آذوريس وأتيس ومثرا ويطفقون يوضحون أوجه شبه بين بلاء هذه الأشخاص الخرافية وموتها وبعثها وبين أناجيل الكنيسة المسيحية ينسون أن القديس بولص كان من اليهود وأن من التطورات ما يستحيل على العقل الديني أن يتطوره . فلو قششت القديس بولص ما وجدته يقول عن المسيح انه إله منقذ وأبعد من هذا عن الصواب تلك

الاستشهادات التي يراى بها اثبات أن دين القديس بولص كان يرتكز على أساس من السحر المادى القربانى الغليظ . وأن الرسول الذى انطبعت كل كتاباته بطابع كرهه للتعبدات الشكائية أيا كانت والذى يشكر الله على أنه لم يعمد الا قليلا جدا من الكرنثيين والذى يعلن للناس أن المسيح أرسله لا ليعمد ولكن ليدعو الى الانجيل هذا الرسول يرمى بأنه يرى التعميد "وسيلة وثيقة تضمن للرجل دخول الملكوت مهما كان سلوكه فى المستقبل" . وهذا كما يقول فينل بالرغم من أن رسالته الى الرومان قد ورد فيها "التعميد لم يخطر على بالى الا مرة ومائدة السيد لم تخطر ولا مرة" . ما كان التعميد عنده وسيلة وثيقة وانما كان احتفالا ذا مغزى اجتماعى ورمزا يمثل الفوز بقسط أكبر من الرعاية الالهية التى يستوجبها صاحبها بالايمان ثم يأتى هؤلاء النقاد أنفسهم فيوضحون رأى القديس بولص فى مائدة السيد بما يجدون فى دين الأزتيين^(١) وغيرهم من الهمج لكن من العيب مناقشة الذين يظنون أن رجلا له نشأة القديس بولص وثقافته كان يستطيع أن يصبر على فكرة "أكل إله" . ان السيد على المائدة هو المضيف الروحى وليست مائدة عليها لحمه . ولقد فارقوا بين مائدة السيد ومائدة الشياطين فهل يظن أحد أن مائدة الشياطين هى المائدة التى عليها يؤكل الشياطين . ان الشياطين لا أجسام لهم كما نتبين من قطعة يونانية معروفة جد المعرفة فى مخطوط للعهد الجديد .

انما جاء مذهب القربان الغليظ بعد ذلك ولو شئنا لتعقبنا منشأه حتى نردّه الى المتجرين بالمعميات الذين قد سخط عليهم أفلاطون .

هذا الشكل من الدين ليس بالهيلينية الصحيحة اذا كانت الهيلينية علما على طريق من طرق التفكير أما أن هيلينيين كثيرين قد قالوا به فذلك ليس الى انكاره سبيل .

ان التوراة تقول بخطيئة الانسان وهو ما لم يكن يستطيع العبريون تخريجه من عند أنفسهم . وقد ظلت اليهودية تعتقده وتكتمه حتى جاءت المسيحية فذاع فيها بتأثير اليونان . وقد كان أميدوكايس وغيره يعلمون أن الانسان "وقع عليه طرد وتشريد من الله" وأن جسمه كان قبره وأن لحمه لم يكن الا جلبابا مستعارا يلبسه على زلل هو موبقه ان لم يجد من يستنقذه . فالهيلينية كانت قد صارت دين الانقاذ وكانت الأمبراطورية مستعدة تمام الاستعداد لقبول هذا الجزء من المذهب المسيحي وأصبح اثم آدم هو المنظر الأول في مأساة الانسان العظمى مؤديا فيما بعد الى الكفارة . ولم يكن هذا التصوير مجرد تاريخ فان معناه الأكبر كانت تمثله حياة كل فرد . فالفكر اليونانى قد جاء فصبغ بهذه الصبغة قضايا كان اليهودى يسلم بها ولا تبدوله الا تاريخا معادا بحثا . وجاءت العصور الحديثة فاعتبرت المناظر الأولى من الحكاية تمثيلا قصصيا لما تكابده الروح البشرية عادة ولا تكاد تفيد عندهم شيئا غير هذا . لكن الفكر اليونانى وان حافظ على قالب الحكاية لم ينظر قط الى الاثم نظرة التحسر والتشاؤم التى نظرت المسيحية بها اليه فقد جعلت المسيحية مجاهدة الشر أصعب منها عند اليونان فى أى عهد . على أن علينا ان نتذكر أن الجماهرة العظمى ممن يدينون بالمسيحية لا يعبأون كثيرا بأثامهم وأن أخيار اليونان كانوا فى ابتغائهم اصلاح أنفسهم جادين غير هازلين .

نزل الانقاذ الى الأرض على يد منقذ كان انسانا وإلها معا . وهذا المعنى كان مرة أخرى وفق التفكير اليونانى . فعندهم أن الواسطة بين الله والانسان يجب أن يكون إلهيا تاما اذ لو كان بين بين لما اتصل بأحدهما فلم يكن انتصار اثناسيوس هزيمة للهيلينية بوجه من الوجوه انما العقبة التى كانت تقوم بين المفكر اليونانى وبين ذلك المعنى هى استحالة تجسد الاله عنده . ولكن هذا لم يكن عقبة الا عند الفلاسفة . أما العامة فلم يجدوا فى دينهم صعوبة فى تصور اله مجسد ان القول بروح القدس قرب ما بين المسيحية وبين الأفلاطونية والرواقية فأحاطا الشخص الثانى فى الثالوث بنفس الصفات التى كانت للنوس عند الأفلاطونيين المستحدثين لكن الذين حاولوا أن يعادلوا بين الثالوث وبين أرواح بلتينس الالهية الثلاثة لم يكونوا أكثر فى ذلك فلاحا من هيجل حين حاول حديثا أن يجعل الثالوث أصلا من أصول فلسفته .

بقى الآن موضوع الغيبيات وهو من السعة بحيث لا نرجو أن نلم بجميع نقطه فى فقرة واحدة مهما اختصرنا فى بحث كل نقطة . لقد اعتاد الناس أن ينسبوا القول ببعث الجسم الى اليهود والقول بخلود الروح الى اليونان . لكن اليهود لم يدمجوا فكرة الحياة الأخرى فى دينهم العملى الا ببطء شديد وهى الى اليوم ليست على ما يظهر بذات أهمية فى اليهودية وكأن الشكل الذى تتشكل به آمال اليهود بطبعها نوع من أنواع المللنيرية ، وهى حكم يكون للقديسين على الأرض كان الاعتقاد به أول قالب ظهر فيه كترالهدى الحديد . ولم تتخلص الكنيسة منه قط تمام التخلص ولا يزال ينازعها الرجوع أثناء كل انقلاب . ان أنضج فلسفة لليونان ترى أن مظهر الوجود

الالهى الخلود . أما الحوادث فانها تولد وتعيش ثم تموت وكانت ترى أن الانسان عالم صغير على صلة بكل درجة من درجات الوجود وأنه يستطيع الأخذ بنصيب من الوجود الالهى وذلك بأن يعيش ما استطاع متجردا عن هذه الأرض وظلالها الزائلة وبضاعتها الباطلة . ولا حاجة بنا الى تبين ما كان لتصور الخلود على هذه الصورة من تأثير كبير فى المسيحية فكرا وعملا . انه لا يزال اليوم كما كان دائما من قبل دين المتصوفة . ولكن التقاليد الأرفية وما كانت تصور به دار عذابها ودار نعيمها وما فيهما من عذاب ونعيم خالدين قد غلبت فى المسيحية الشائعة على المذهبين الآخرين بعد أن جردت من الاعتقادين اعتقاد عودة الأرواح الى التجسد واعتقاد تناسخها وهما قولان لا يزال لهما فى مذهب الأفلاطونية المستحدثة وجود وإن كان على شىء من القلق والاضطراب . وقد صار العقاب الأخرى بدونهما أربابا لهما . هذان الاعتقادان ، الفلسفى والعامى ، فى الدار الأخرى هما كلاهما أقرب كثيرا الى اليونانية منهما الى اليهودية لكن محاولة الجمع بين هذه المعتقدات المتباينة قد جعلت الغيبات المسيحية على اضطراب عظيم وأياست كثيرا من المسيحيين فلم يعودوا يحاولون أن يأتوا بنظرية ما عما يسمى بالأشياء الأربعة الأخيرة . وليس التحديد فى موضوع معنى كهذا بمتوقع ولا محمود . إن الانجيل الأصيل لا يشجع الانسان فى تطلعه بطبعه الى معرفة مآل نفسه . ولكل من الغيبات الثلاثة التى وصفناها قيمته لأنه يمثل فى الدين ناحية من نواحي الثقة والرجاء . وعلينا بعد هذا كله أن نعترف بصدق كلمات القديس بولص اذ قال : "لم تر عين ولم تسمع أذن بل ولم يخطر على قلب بشر ما أعده الله لأولئك الذين يحبونه" وهو نفسه يذكرنا بأننا "نرى كأننا نرى من

مرآة . نرى أحاجى ولا نفقه الا جزءا “ وقد تكون الرؤية وجها لوجه والمعرفة التى تجمع بين العارف والمعروف من نصيبنا اذا انتهى بنا المدى . وهذه الكلمات التى تذكرنا بخرافة الكهف الشهيرة لأفلاطون ترينا القديس بولص متحدا فى الأساسيات مع الأفلاطونيين . ولقد خبا نور الاعتقاد فى الحياة الخالدة بين رجال هذا العصر وليس بعيد أن يستردوه عن هذا الطريق .

وفى الختام نتساءل ما هو ذلك الشئ الذى نحن فى أشد خطر ان نسيناه ويستطيع دين اليونان أن يعلمنا إياه ؟ ذلك باختصار هو الايمان بأن الحق لنا صديق وأن معرفة الحق ليست فوق مقدورنا . فقد كانت الثقة فى حسن عاقبة الاخلاص فى الطلب بمنزلة القلب من وجهة النظر اليونانية . يقول أرسطو ” لا ينبغي أن يكون الذين يريدون الوصول الى الحق الا حكاما لا خصوما “ ويقول يوربيدس فى نبذة له ” سعيد من عرف قيمة البحث “ أما أن حب الاستطلاع فضيلة لا رذيلة فذلك قد عرفه اليونان وجهلته القرون الوسطى . كان أفلاطون يرى أن الطبيعة هى خليفة الله والكاشفة عنه وأنها روح الكون وأن الطبيعة البشرية هى والطبيعة الالهية سواء — لم يكن أحد أكثر تأكيداً لذلك منه . وأن الطبيعة لنا وإنا الذى علينا الضرورة والفوضى . ويجب علينا أن نسلم بأن الفرقة بين الدين ومذهب الانسانية لم تبدأ الا فى عهد خلفاء أفلاطون الذين لم يعباوا لنكد الحظ بالعلوم الطبيعية بل هم فيما عرفوا منها لم يتبعوا أحسن النور الذى كان لديهم . ثم صارت تلك الفرقة فرقة باثة فى العصور المظلمة وكانت الصلة باليونان منقطعة فيها . ولم يكن ما ربا من خرافات اليونان الأولين غير علمى فقد كانوا حين تعوزهم المعرفة يسدون النقص

بالخيال و "طريقة التجربة والخطأ". وما التمثيل القصصى الذى تصدر الخرافيات عنه الا مادة الشعر والعلم كليهما. ومن الممكن طبعا أن تكون الخرافيات الدينية حاجزا دون التقدم فى العلم وانها لذلك فى كل عصر يرد كل شىء الى العقل وحين تكون المسألة مسألة واقع أو غير واقع . ومن الخطأ أن نفترض أن الايمان فى العصر الذى يعقب العصر العقلى يكون مثله فى العصر غير العلمى ولو كانت القواعد فى العصرين واحدة . ان الروح اليونانية نفسها تهتف بنا الآن لتصرفنا عن بعض ما ألبستنا إياه التقاليد اليونانية . فنحن الآن مخيرون بين الأخذ بتقاليد ما بعد العقل — كما يسميه سنيانا — وهو مذهب شك وتحكم ونفاق فى التفكير وبين الوثوق بالعقل وهو الذى يرتكز فى حقيقته على الايمان. بروح القدس — أى بروح الكون التى تدل على نفسها بنفسها . ان كاتب هذه السطور ليعتقد أن النظر الصادق والعقل المتفتح سيقوداننا مرة أخرى الى اقدم المسيح . ذلك الذى وقعت اليونان — وهى صاحبة التقاليد الطويلة فى البحث الحراجرىء — فى أسره طائعة مسرعة واضعة بين يديه كنوزها المتعددة ثقة منها أنه جاء متما ولم يأت مدمرا ما

و . رانج

الفلسفة

لقد تأملنا في الاتجاهات التي تسير فيها الفلسفة اليوم. اتبدي لنا قبل كل شيء أن الحاجز الصناعي الذي يفصل بين العلم والفلسفة — ولا سيما العلم الرياضي — آخذ في التضائل . ولا مفر لنا من أن نلاحظ — من جهة أخرى — أن هناك انقلابا على ما يسمى بمذهب الذهنيين ^(١) وهذا الانقلاب يتجلى في أشكال عدة لعل أظهرها تجدد الاهتمام بالتصوف ^(٢) ، وأنه ليفضى بنا الى أن نعنى العناية كلها بالشطر العملي من التفكير الفلسفى ، وبتكوين رأى عن علاقته بما كان يعد من قبل مسائل نظرية محضة وتعرف باسم برجماتيزم ^(٣) ذلك الاسم الكئيب . ففى هذه الأمور نفسها يمكننا أن نتعلم الشيء الكثير من الاغريقية . ولذلك أضخى للفلسفة الاغريقية شأن كبير لنا فى هذا العصر الحاضر . فهى ، فى أحسن أحوالها ، لم تنفصل قط تمام الانفصال عن العلم بل شقت لنفسها طريقا تتصل منه بالحياة العملية ، وبالتصوف من دون أن تهمل مراعاة ما يتطلبه الذهن نفسه . ومنقتصر فى بحثنا هذا فى الفلسفة الاغريقية على هذه النقطة وحدها ، فمن العبث أن نحاول ايجاز الموضوع كله فيما لدينا من الصفحات لأن هذا الايجاز يكون لا قيمة له ولذلك سنغضى عن أشياء كثيرة يجب أن تفصل فى الكتب الكبيرة لما لها من قيمة فى ذاتها .

Intellectualism (١)

Mysticism (٢)

Pragmatism (٣)

وجل ما نستطيع عمله هنا هو أن نشير الى المواضع التي فيها يلوح أن الفلسفة الاغريقية تمس مسائلنا العقلية وسيتبين لنا هنا كما يتبين لنا في أى موضع آخر "أن كل تاريخ انما هو تاريخ عصرى" وأن الحاضر لا يفهم الا على ضوء الماضى .

ان لفظة الفلسفة اغريقية . وكذلك مدلولها . وليس ثمة دليل على أن الفلاسفة لم تقم فى أى مكان ما الا بتأثير اغريقى الا اذا استعملنا هذه اللفظة بأوسع معانيها وجردناها من كل معنى خاص بها . فتأملات الصوفيين التي عمادها الدين ليست من الفلسفة فى شىء على الرغم من أنها كثيرا ما كان لها الأثر العميق فى الفلسفة ولذلك فان مذهب الحلول عند الأوبانيشاد لا يمكن أن يدعى فلسفة . نعم أن هناك فلسفة هندية ، وأن الهنود هم الشعب القديم الفذ الذي كان له فلسفة اذا استثنينا الاغريق ، أولكن علمهم خذ لا شك عنه الاغريق بعد فتح الاسكندر . وان النظم الهندية التي يمكن أن تعد بحق فلسفية هى أحدث عهدا من ذلك كما تدل عليه الدلائل الكثيرة . ومن جهة أخرى فان أول مثل لمفكر اغريقى تأثر بالفلسفة الهندية هو بيرهوس (٣٢٦ قبل الميلاد) فما أتى به من الشرق كان فكرة الهدوء والسكينة من حيث هى مثل أعلى ولم يأت بمذهب فلسفى محدود . فاللغة كانت عقبة كأداء فى سبيل تبادل الآراء فى الموضوعات الهامة لأن كلا من الهنود والاغريق لم يعن الى تعلم لغة سوى لغته . طبعا ان الفلسفة قد تسمو حتى تصل الى مرتبة الدين وقد كان ذلك من نصيب خرافلسفة الاغريقية ، ولكنها تبدأ بالعلم لا بالدين .

يقصد الاغريق بالفلسفة جهدا جديا يبذل في سبيل تفهم العالم والانسان، وذايتها الكبرى الاهتداء الى خير طريق في الحياة ثم دعوة الناس الى سلوكه . ومع ذلك فليس من الصواب أن نقول ان لفظة الفلسفة كانت دائما تدل على هذا المعنى الخاص . وعلى أى حال فان الفعل الاغريقى كان فى أول الأمر ذا معنى أوسع من ذلك بكثير فهيرودوت مثلا (I. - ٣٠) يقول على لسان كريصص (قارون) ان صولون ساح فى بلدان كثيرة كفيلسوف ويتضح من سياق الحديث أن ذلك يومئ الى محبة السياحة من أجل العجائب التى ترى فى البلاد الغريبة ، وبذلك المحبة كان يمتاز الاغريق الأيونيون فى القرن الخامس قبل الميلاد . ويوضح ذلك عبارة "بقصد الرؤية" المذكورة معها . هذا ، ولما جعل توسيد يد (II. ٤٠) بركليس يقول عن أبناء وطنه " اننا نتبع الفلسفة بدون أن نفقد شيئا من رجواننا " لا شك فى أنه ما كان يفكر وقتئذ فى الفلسفة بمعناها الخاص . انما كان يقابل بين ثقافة أثينا بحضارة الأيونيين فى آسيا الصغرى تلك الحضارة التى كان بها شيء من الخنوثة . حتى فى القرن التالى قد حاول ايسوقراط أن يعود الى هذا المعنى الواسع فكان يستعمل لفظة الفلسفة عادة فى فن الصحافة السياسية الذى كان يلقنه تلاميذه .

وقد جاء فى الأثر أن أول من استعمل لفظة "الفلسفة" بمعناها الخاص الذى سبق ذكره هو فيثاغورس الصامى (نسبة الى جزيرة صامس) وهو أيونى أقام جمعية فى النصف الثانى من القرن السادس قبل الميلاد فى جنوب ايطاليا للعناية بها . ومعلوم كل العلم أنه من الصعب أن نذكر شيئا محققا عن فيثاغورس هذا لأنه

لم يكتب شيئا ما . على أنا نكون بمأمن من الخطأ اذا نسبنا الأفكار العامة في النظام الفلسفى الى المعلم لا الى أتباعه ومع ذلك فان ما جاء في الأثر يؤيده القول بأن لفظ الفلاسفة كان يطلق في الأصل على الفيثاغوريين بطريقة خاصة ، ولدينا على هذا القول أدلة كافية — فانا نعرف مثلا أن زينون الالياوى (حوالى ٤٥٠ قبل الميلاد) (نسبة الى Elea) كتب كتابا ضد الفلاسفة وهذا القول منه لا يمكن أن يقصد به الا أنه ضد الفيثاغوريين . واستعمل الفيثاغوريين لهذه الكلمة متوقف على نظرتهم فى الانسان نظرة خاصة ولدينا أدلة كافية تجعلنا نعزو ذلك الى فيثاغورس نفسه . وقد أصبح ذلك شيئا معلوما للناس كافة ولكن يجب علينا اذا أردنا أن نعلم ما يفهمه الاغريق من لفظة الفلسفة أن نحاول معرفة ذلك من منشئه . وبالايجاز هو أن الانسان شىء وسط بين الله وسائر الحيوان . فاذا وازناه بالاله فهو انسان لا غير معرض للخطأ وللموت (ويقال عنهما كليهما انهما من صفات الانسان خاصة) وهو شقيق وقابل للحضارة والتمدين . ولقد حوى اللفظ اللاتينى هذا المعنى المزدوج الذى يفرق بينه فى الانجليزية تفريقا تحكيميا فى الهجاء فحسب فيقال (Humane, Human) وجلى أن الحكمة بأكمل معانيها مستحيلة على كائن معرض للغلط وللموت فتلك من خصائص الاله وحده . ومن جهة أخرى فان الانسان لا يرضى — كما ترضى الحيوانات الأخرى — أن يظل جاهلا فان لم يستطع أن يكون حكيما فانه يستطيع أن يكون على الأقل محبا للحكمة ويستنبط من ذلك أن غايته السامية أن يتشبه بالله الى أقصى حد مستطاع كما قال أفلاطون فى تياتيتوس^(١)

ودراسة الفيثاغوريين للرياضة جعلتهم يواجهون فكرة الاقتراب المستمر الذي لا يصل الى غايته . فأنت ترى أنا لدينا إذا أدلة كافية تدعونا الى تصديق القول بأن فيثاغورس هو أول من أعطى لفظة الفلسفة ذلك المعنى الخاص وربه بربطه بتقسيم الكائنات الى إله وإنسان وحيوانات أخرى . ولقد تقدم الفيثاغوريون المحدثون خطوة أخرى ورتبوا الحيوانات العاقلة الى آلهة وأناس "ومن كان على شاكلة فيثاغورس" فان ذلك ناجم عن تحمس المريدين والأتباع وليس في الواقع الا دليلا آخر على أن هذه الأفكار جميعها ذات صبغة فيثاغورية حقيقية فلنسلم إذا بأن لفظة الفلسفة قد اتخذت معناها الخاص في جنوب ايطاليا قبل أن يبدأ القرن الخامس قبل الميلاد .

وأؤكد من ذلك أن هذا المعنى كان معروفا تمام المعرفة في أثينا بعد منتصف القرن الخامس بقليل ، في دوائر معلومة على الأقل . ويظهر أن هذا كان من عمل سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ قبل الميلاد) فلا ريب في أنه كان متصلا تمام الاتصال بزعماء الفيثاغوريين الذين لجأوا الى طيبة وألى فيلوس في البلوبونيز لما صارت تعد جماعتهم خطرا على الحكومة في كروتون وغيرها من بلاد جنوب ايطاليا - مهما كان رأينا في فلسفة سقراط أو في علاقتها بفلسفة أفلاطون في محاوراته الأولى (وتلك نقطة لا حاجة بنا لمناقشتها هنا) .

حدث كل هذا حوالي منتصف القرن الخامس ولا بد أن يكون سقراط قد عرف هؤلاء الرجال بزمن لا يبعد عن ذلك بكثير . فمن الطبيعي أن يكونوا قد زاروا أثينا حوالي هذا التاريخ

ولكن لا بد أن تكون صلته بهم قد انقطعت بعد قيام حرب
البلوبونيز (٤٣١ قبل الميلاد) لأنهم كانوا يقطنون ولايات معادية
في حين أن سقراط كان يحارب عن بلاده فإذا استثنينا فترة صلح
نيكياس القصيرة (٤٢١ قبل الميلاد) فلا بد أن يكون انقطاعه عنهم
مدة سنين طويلة ومع ذلك بغلى أنهم لم ينسوه . إذ لا محيص
لنا عن قبول قول أفلاطون في فايدو — ان كثيرا من فلاسفة
العصر النابيين جاءوا أثينا ليكونوا مع سقراط عند ما قضى عليه
بالموت ، وأن من لم يستطع الحضور منهم كان متشوقا أن يسمع
التفصيلات الكثيرة عما حدث له . حتى قبل هذا قد غادر طيبة
سيمياس وسيبيز (وهما تابعان ناشئان من اتباع الفيثاغورى فيلولائوس)
ولبثا مع سقراط — وذلك خبر من الأهمية بمكان كبير . ويشهد بذلك
زينوفون كما يشهد به أفلاطون ، ولقول الأول منهما قيمة كبيرة
في هذا الموضع لأنه لم ينضم الى سقراط الا خلال هذه السنوات
مع أن آخر مرة رآه فيها كانت قبل محاكمته واعدامه بسنة أو اثنتين .
ومهما استنبطنا غير ذلك من هذه الحقائق فهي كافية للدلالة
على أن سقراط قد عرف بعضا من زعماء فلاسفة الاغريق قبل
أن يبلغ العقد الرابع من عمره وذلك يجعل احتمال أنه هو الذى أدخل
لفظ "الفلسفة" بالمعنى الفيثاغورى الى أثينا كبيرا .

كفى بهذا القدر بحثا في هذه اللفظة . وعلينا بعد ذلك أن
نتساءل كيف حدث أن قام شيء يسمى بالفلسفة . ذكرنا قبلا
أن فيثاغورس كان أيونيا فكان من الطبيعى أن نتظر أنه جلب
من شرق هلاس مبادئ ما سماه فلسفة . ولقد بينا أن الفلسفة
الاغريقية قد شيدت دعائمها على العلم وأن العلم قد بدأ في ميلطة^(١)

في أرض آسيا الصغرى وهي تكاد تقابل جزيرة صاموس موطن فيثاغورس ومنشأه . ولقد كان الميلطيون الأول رجال علم أكثر منهم رجال فلسفة بمعناها المحدود ، ولم يكن العلم والفلسفة قد تميزا بعد بعضهما عن بعض ، فالقول الشائع بأن الفلسفة تبدأ من طاليس الميلطى (٥٨٥ قبل الميلاد) له ما يبرره . ان مبادئ العلم الرياضى ذلك العلم الذى كان طاليس أول من أوجده كما هو مبين فى موضع آخر من هذا الكتاب قد أفض بطاليس ومن خلفه الى أن يتساءلوا عنه الطبيعة النهائية للحقيقة ، فكانت أسئلتهم مبادئ الجانِب النظرى من الفلسفة ، نعم ان الميلطيين لم يستطيعوا أن يجيبوا عن هذه الأسئلة الا اجابة ناقصة كل النقص ومن المحتمل أنهم لم يدركوا كل ما لهذه الأسئلة من شأن كبير . ولم يرد هؤلاء الباحثون الأوائل الا معرفة ما صنعت الأرض منه وطريقة سيرها ولكن ابتعادهم عن الأساطير وعن كل ما جاء فى الأثر قد مهد الطريق لكل ما حدث بعد . وليس من الأمور الصغيرة أنهم استطاعوا أن ينبذوا المذهب القديم المعروف " بالعناصر " — النار والهواء والتراب والماء — وأن يعدوا هذه كلها حالات لمادة واحدة تبدو فى أشكال مختلفة حسب رقتها وكثافتها . فانكسيمندر (٥٤٦ قبل الميلاد) خليفة طاليس قد نقض عن نفسه فكرة أن الأرض تقتضى دعامة ماتحفظها فى مكانها بل كان يعتقد أنها تترجح فى الفراغ وأنها بقيت حيث هى لأنه ليس من سبب يقضى بسقوطها فى اتجاه دون الآخر . وفى الجملة فإن هؤلاء الباحثين فى الدنيا من حيث هى رأوا أن الثقل ليس صفة ذاتية للأجسام وأنه لا يمكن تفسير شئ ما به . بل بالعكس فان الثقل نفسه فى حاجة الى التفسير . ولقد لحظ أنكسيمندر أيضا ما لحركة

الدوران من الشأن والأهمية في النظام الكوني واستنتج أنه ربما يوجد عدد غير محدود من النظم الدائرة غير ذلك النظام الذي نعرفه مباشرة . وكذلك لاحظ عدة ملاحظات ذات صبغة بيولوجية وأعلن أن الانسان لا بد أن يكون قد نسل من حيوان من نوع آخر . فصغار أكثر الحيوان تستطيع أن تجد غذاءها في الحال في حين أن صغار الانسان تستلزم حضانة طويلة فان كان الانسان في الأصل على ما هو عليه الآن ما تسنى له أن يعيش الى اليوم . كل هذه لا شك مبادئ علم أكثر منها مبادئ فلسفة ولكنها كانت مبادئ الفلسفة بمعنى أنها قلبت الرأي الشائع عن الدنيا رأسا على عقب وجعلت ظهور مشا كل أخرى نهائية محتملا لا مفر منه .

ولقد تم هذا الانقلاب مستقلا عن الدين الاستقلال كله فان ما نسميه بالعلمانية كان في الواقع مميزا للعلم الأيوني الى النهاية ويجب ألا ننفل بتسمية أنكسيمندر عوالمه المتعددة الهة ولا بتسمية أنكسمينز الهواء إلها ، فهذه لم تكن في وقت من الأوقات آلهة لأية مدينة ولم يعدها أحد قط ولا ينطبق عليها ما يفهمه الرجل الاغريق العادي من الآلهة . واستعمال المليطيين لهذه اللفظة يقصد به أن الحيز الذي كانت تشغله آلهة الدين في حين ما أصبح الآن وقد تولته الظواهر الكبرى الطبيعية وأن الاغريق المحدثين كانوا على حق من وجهة نظرهم هم في تسمية ذلك الحادا وقد دل ارسطوفانيز على ذلك النوع من الكلام في كتابه "السحب" لما قال على لسان ستربسياديز ملخصا ما تعلمه بقوله ان "الدوامه (دورة الأرض) قد طردت زيوس وحكمت محله" . وكذلك عند ما يجعل سقراط يقسم "بالفوضى وبالتنفس وبالهواء" وكذلك قال المليطيون

عن المادة الأولى بأنها "قديمة أزلية" وهى عبارة من عبارات هوميروس تدل على فرق بين الآلهة والانسان ولكن لا يدل ذلك إلا على أن العاطفة التى كانت ملازمة للآلهة انتقلت الى الطبيعة.

يستنتج من هذا أن المليطيين ارتأوا فكرة المادة الخالدة التى منها تولدت الأشياء كافة واليهما تعود . والفكرة عن المادة هى فكرة تتعلق بالفلسفة أكثر من تعلقها بالعلم . وفضلا عن هذا فانهم وضعوا أسس الهندسة وقد أدى هذا غيرهم الى تكوين فكرة الحد أو الشكل المتعلقة بها . ولا حاجة بنا أن نعدد هنا ما استفادته الهندسة المستوية من الفيثاغوريين والمليطيين بل يكفى أن نذكر القارئ بأنهم كانوا يعرفون الأجزاء الأولى والثانية والرابعة والسادسة ولربما الثالثة أيضا من كتاب "اقليدس" . وزيادة على ذلك فإن فيثاغورس قد أسس علم الحساب أو نظرية العدد بخلاف فن الحساب العملى . وانا لنعلم أيضا أنه قد كشف كروية الأرض ، والنسبة العددية للمسافات بين درجات السلم المرسقى ومن هذا يتضح أنه كان نابغة من نوابع العلم ومن طرازهم الأول وأن طريقه كان تشمل طريقتي الملاحظة والتجريب . ان استكشاف كروية الأرض نشأ من مشاهدة الكسوف والخسوف وكشف النسبة العددية بين درجات السلم الموسيقى لا بد أن يكون نتيجة تجارب على وتر مشدود . هذا مع أن التجارب الفعلية التى تعزى اليه كلها فاسد سخيف . ولا شك فى أن استكشافه الأخير هذا هو الذى دعاه الى أن يصوغ مذهبه فى تلك الصيغة الرائعة : " ان الأشياء أعداد " وبذلك أعطى الأولوية لعنصر الشكل أو الحد بدلا من المادة المتوسطة التى كان سابقوه يجعلون الأولية لها .

ولقد كان فيثاغورث يخالف من تقدمه في نقطة ظهر أنها ذات شأن كبير . فانه لم يتجاهل الدين ولم يغفله حتى أنه لقد أقام في جنوب ايطاليا جمعية للدين فيها المقام الأول . فيجوز أنه كان متأثرا بازدياد عدد الجمعيات الأرفية التي أخذت تنتشر في كل مكان خلال القرن السادس ولكن دينه كان يخالف الأرفية في أمور كثيرة ولا سيما في أن إله الفيثاغوريين الأعظم كان أبلو وليس ديونا يصص وجميع ما لدينا من البيانات تدل على أن فيثاغورس قد جلب دينه هذا من شرق هلاس لما جلب منها علمه ولو أنه جلب الأول من جزائر بحرايجه لا من أرض أيونيا وانا لنستطيع أن نرى أنه كان متأثرا جد التأثير ببعض ما يؤثر عن معبد ديلص الذي أصبح المركز الديني للعالم الأيوني .

انه كان هناك أفكار وآراء دينية منتشرة بين الاغريق قبل فيثاغورس . وهذه الآراء كانت من نوع لا يخالف ما نراه في الهند على أن عقبات كأداء تقوم في سبيلنا ان فرضنا أن الايجيين أثروا في الهند أو أن الهند أثرت في الايجيين في ذلك الوقت . ولربما يرجع أصل الآراء التي كهذه الى وقت كان الاغريق والهنود يعيشون فيه في صعيد واحد أو ربما ، وذلك أكثر احتمالا أن كليهما قد تأثر بحركة نشأت في الشمال ووصلهم منها رأى جديد في "الروح" وربما كانت أسطورة الديليين عن الشماليين تشير الى شيء من ذلك . ومهما يكن فان الغرض الأول من الطقوس الدينية التي كان يزاوها كل من الأرفيين والفيثاغوريين كان الحصول على افتداء الروح بوساطة التطهير من عقاب الاعتقال المتوالى في عدة جسوم . وكانت الروح عندهم تعد لها سقط من

السماء . وليس من سبب يجعلنا نظن أن فيثاغورس قد أبدى ابتكارا خاصا في هذا الجزء من تعاليمه . فكله متوقف على مبدأ تقمص الأرواح أو الولادة من جديد الذى كثيرا ما يطلق عليه لفظ تناسخ الأرواح ^(١) وهو لفظ محدث لا ينطبق عليه تمام الانطباق .

ولا يخالج الشك واحدا منا في أن فيثاغورس قد قال بذلك كما أنه قال بالامتناع عن تناول اللحم وتلك نتيجة طبيعية لذلك الامتناع . ولقد كان الاغريق مع ذلك على علم بمثل هذه الآراء قبل زمن فيثاغورس . والصعوبة الحقيقية هي في معرفة الرابطة بين هذا كله وبين عمله العلمى وانا لمقصرون في تعرف ذلك على ما نستنتجه من أقوال الكتاب المحدثين . أما اذا كان المبدأ الذى جعل أفلاطون سقراط يشرحه في فائيدو فيثاغوريا كما يظنه الكثيرون فلنا أن نقول ان فيثاغورس لم يقل سوى أنه : في حين أن لطرق التطهير المعتادة فوائدها الخاصة بها فان خير طريقة لتطهير الروح وأصدقها هي البحث العلمى . ولسنا نستطيع أن نفسر الصبغة الدينية التى يمتاز بها خير ما أنتجه الاغريق من العلم إلا بمثل ذلك فهو يتضمن المبدأ القائل بأن الحياة النظرية هي أسمى أنواع الحياة الانسانية ، وهذا مبدأ يعتقد أفلاطون وارسطاطاليس وسنعود اليه فيما بعد . ومع ذلك فانا يجب أن نذكر أنه ليس مثلا أعلى من مثل الذهنيين . فليس الأمر مجرد تأمل وتفكير ، تأمل الكسالى ، انما هو طريق شاق مجهود من طرق الحياة غايته تخليص الروح وانه ليوحى الى الانسان أن يدعو الناس اليه .

ولهذا السبب وحده يرى الفيلسوف الفيثاغورى ضرورة الاشتراك في الحياة العملية اذا سنحت له الفرصة بل وأنه يقبض على أزمة الحكم في البلاد اذا دعاه اليها داع . بل جماعة فيثاغورس كانت من أول نشأتها جمعية دعاية ولقد حاولت أن تدعو الى الانضمام اليها كل من استطاعت تحويله الى مذهبها من غير نظار الى مركزه الاجتماعى أو جنسه ، ذكرا كان أو أنثى (لأن النساء لعبن دورا هاما فيها من المبدأ) فغيرتها على اصلاح الحياة البشرية ، ومحاولاتها لإقامة حكم يشبه حكم القديسين ، فى مدن ايطاليا الجنوبية هما اللذان جلبا عليها سخط الناس فلو قنع الفيثاغوريون بتأمل الكسالى وتفكيرهم لذبحوا أو اضطروا الى الفرار كما حدث لهم فعلا قبل منتصف القرن الخامس .

وسرعان ما اتضح أن المبدأ الفيثاغورى بحذافيه كان عاليا جدا على معتنقيه فكان لا مناص من حدوث الشقاق بين العلم والدين الفيثاغوريين . فمن استطاع أن يقدر الشطر العلمى لتلك الحركة حق قدره مال شيئا فشيئا الى أن يهمل القاعدة الدينية التى أقامتها . ولذلك قبل أن ينتهى القرن الخامس رأينا الزعماء الفيثاغوريين الذين نعرف أسماءهم هم رجال علم قبل كل شئ وأنهم ليزدادون ميلا يوما بعد يوم الى أن يهملوا ما اعتبروه الجزء الخرافى من العقيدة وأخيرا انتهوا بأن انضموا الى ما نشأ فى أثينا من المدارس الفلسفية الجديدة أما سواد المؤمنين فانهم لم يعنوا بالحساب والهندسة والموسيقى والفلك بل أصبح اعتقادهم فى مذهب فيثاغورس أن يسيروا حفاة الأقدام وأن يكفوا أنفسهم عن أكل اللحم والفول وظل الأمر كذلك حتى بعد أن نحدث روح الفيثاغوريين العلمىة فأصبحوا موضع تهكم شعراء القرن الرابع الهدوجائين ومجالا لسخريتهم .

وانه لمن اليسير علينا أن نرى الآن أن كل هذا يدل على ضعف حقيقى فى مذهب الفيثاغوريين . فالعلم والدين لا يتحدان بأن يوضع كل منهما قبالة الآخر . وأنا لا ندرى الى أى حد كان فيثاغورس شاعرا لغموض مركزه ، ولا يدهشنا ان كان قد أحس بذلك عند نهاية عمره لأننا نعلم أنه قد عمر طويلا حتى شهد أوائل الثورة على جماعته فى كروتون وغيرها وهذا ما دعاه الى الذهاب الى متابنطيم حيث توفى وحيث استطاع شيشرون أن يزوره بعد ذلك بزمان طويل . وسترى بعد . ما هى النقطة الضعيفة فى نظام فيثاغورس وكيف تغلب الناس فيما بعد على ذلك الشقاق الذى خلفه وراءه . أما الآن فأهم من ذلك أن نفهم أنه كان المؤسس الحقيقى للعلم والفلسفة كما نفهمهما نحن الآن وأنه ايصديق حقا على العلم أن الخطوات الأولى هى أشق الخطى . ولقد خلف فيثاغورس وراءه عملا كافيا فى الحساب لى يحكمه سواء ويتقنه . ولقد لبثت الاغريق أقل من ثلاثة قرون فى اتمام البناء ولفيثاغورس الفضل الأكبر فى ذلك فهو الذى وضع الأساس وضعا صادقا متينا .

لقد رأينا الآن كيف توصل الاغريق الى فكرتى المادة والشكل . والمسألة الثانية التى كان على الفلسفة الاغريقية أن تواجهها هى مسألة الحركة . ولقد كانت حقيقة الحركة فى المبدأ شيئا مسلما به . وكان الأيونيون مبالغين الى أن يروا حركة فى كل مكان ، فالسكون أو بالأحرى مظهره هو الذى يستلزم تفسيراً ولكن لما أخذ الناس يفكرون تفكيراً جدياً فى فكرة المادة الخالدة أحسوا بصعوبات كثيرة . فان كانت الحقيقة تعد دائمة مستمرة فيظهر أن لا مكان لشيء غيرها حتى ولا للفراغ نفسه الذى يجب أن يكون هو وغير الحقيقة شيئا واحداً ومن السهل أن نبين أن غير

الحقيقى لا يمكن أن يكون له وجود ما . ولكن إن لم يكن ثمة فراغ فيظهر أنه من المحال أن تكون حركة وأن ذلك العالم الذى نطن أننا عارفون به مدركون له لا بد أن يكون وهما كله . هذا بالايجاز هو الموقف الذى اتخذته أيونى آخر من جنوب ايطاليا هو برمنيدس الايلوى (حوالى ٤٧٥ قبل الميلاد) . فقد كان فى أول نشأته فيثاغوريا ولكنه قد طبق طريقة الاستدلال الدقيقة التى استعملها الفيثاغوريون فى الهندسة بكل نجاح على مسألة طبيعة العالم القديمة التى كانت شاغلة للمليطيين . ان الشئ العجيب عن المهندسين هو أنهم لم يكونوا لهم فكرة عن الفراغ تلك التى تبدو لنا الآن ذات شان عظيم فى الوقت الحاضر بل استطاعوا تجنبها لأن فكرة المادة كانت قائمة لديهم ، وكانوا يعدون الهواء الحال الطبيعية للطبقة التى دون المادة . ان خلط الهواء بالفراغ شئ طبيعى ومع ذلك فان المرء ليدهش أن ذلك الخلط لم يدركه مؤسسو علم الهندسة ومع ذلك فليس من النادر فى تاريخ الفكر العلمى أن لا يستنبط من اكتشاف علمى حديث كل نتائجه الممكنة .

أما برمنيدس فقد أزال هذا الغموض بانكار احتمال وجود أى فراغ لا باثباته ، حتى قبل أن يثبت ذلك أحد ما . فقد رأى أن الفيثاغوريين قد تضمنوا ذلك فعلا فى آرائهم على غير علم منهم . وأن برمنيدس هذا ليهما من حيث أنه أول فيلسوف شرح فلسفته نظما ولا ريب فى أن ذلك ليس من أصالة رأى لأن الأدلة التى يبحث فيها لا يسهل التعبير عنها بصفة النظم على أنا نحمد الله ان لم يتخذ طريقته هذه أحد ممن جاءوا بعده سوى أمبدكليز فانها تضايق كل المضايقة من حيث أنها تستلزم استعمال عدة ألفاظ مختلفة للشئ الواحد كما تقتضيه ضرورة الشعر والقافية فلو أن هناك

استدلالات لا يقتضى دقة التعبير فذلك استدلال برمنيديس . ومهما يكن فان شعره مملوء بتلك الأغلاط والعيوب التى تنتظرها لو أن هندسة اقليدس صيغت فى قالب من الشعر . ومن جهة أخرى ان برمنيديس هو أول فيلسوف لدينا من آثاره ما به نستطيع أن نتبع حججه المتواصلة . فانا لا نملك شيئاً ما عن فيثاغورس وقطعا منفصلة ليس إلا عن سواه . وكان برمنيديس مستعداً أن يسير وراء حجته الى حيثما تفضى به . فانه تناول فكرة المادة كما أحكمها من تقدمه وأبان أنها لا بد أن توصلنا — ان فكرنا فيها تفكيراً جدياً — الى أن الحقيقة متواصلة محدودة ، كروية لا شئ خارجها ولا فراغ داخلها . فالحركة محال فى مثل هذه الحقيقة ، ولا بد أن يكون عالم الحس وهما . وطبعاً هذه نتيجة لا ينتظر أن تظل الناس موافقة عليها زمناً طويلاً . واذا تكلمنا من وجهة تاريخية فان المذهب الأيلوى يجب أن يعد تفنيدياً^(١) للتفكير السابق ومع ذلك ليس من سبب يدعو الى الاعتقاد بأن برمنيديس نفسه قصد به ذلك بل أنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه قد عثر بالحقيقة وأدركها .

لقد حاول كثيرون أن يفلتوا من نتائج برمنيديس فبدءوا جميعاً بترك الفرض بأن المادة متجانسة متواصلة ذلك الفرض الذى كان متضمناً فى الفلسفات السابقة على الرغم من أن برمنيديس هو أول من أوضحه للناس . وهنا يتجلى أيضاً تأثير العلم المعاصر فى التفكير الفلسفى فاميدكايز الأجرجنطى (حوالى ٤٦٠ قبل الميلاد —

(١) التفنيد طريقة البرهان على شئ . بإثبات بطلان ضده .

وهو الوحيد الذى له مقام فى أوائل تاريخ الفلسفة وكان من ولاية ضرورية - كان مؤسس مدرسة صقلية الطبية . ولعل اشتغاله بهذا العلم (الطب) هو الذى جعله يحى المذهب القديم القائل بالنار والهواء والتراب والماء ذلك المذهب الذى نبذه المليونون ولكنه كان موافقا لهوى النظريات الفسيولوجية التى كانت قائمة فى ذلك العصر . وهو لم يستعمل الكلمة (اسطقس) التى ترجموها فيما بعد بالعناصر فمعناها الحرفى "حروف الهجاء" ، ويلوح أن الفيشاغوريين هم أول من استعملها بهذا المعنى فى وقت متأخر عن هذا عند ما رأوا ضرورة التنبيه الى النظرية الجديدة . فتكلم امپدكليز عن الأصول الأربعة للأشياء . وكان يقصد بذلك أن أشكال المادة الأربعة هذه كانت كلها أصلية وكل منها منفصل عن الآخر . وفى هذا جواب جزئى عن أدلة برمينديس التى كانت قائمة على أن المادة متجانسة . كذلك وجد أنه لا مناص له عن أن يفترض وجود أصلين للحركة ، أو قوتين كما نسميهما الآن ولكن امپدكليز كان يرى أنهما مادتان : واحدة تفرق تلك الأصول الأربعة بعضها عن بعض والأخرى تضمها وتؤلف بينها وقد سماهما الحب والخصام ، وظن أن حياة العالم تأخذ أدوارا متبادلة تتغلب فى كل دور منها إحدى هاتين القوتين . فلا ريب فى أنه كان فى ذلك كله متأثرا بدراسته للفسيولوجية فظن العالم كله كائنا حيوانيا قابلا لما نسميه الآن التكوين الخلوى والانحلال الخلوى^(١) وتجعل تفاصيل النظرية ذلك كله واضحا . ويشبه هذا المذهب مادعا اليه انكسجوراس (حوالى ٤٦٠ قبل الميلاد) . وهو رجل من كلاروميني

من أعمال آسيا الصغرى نزح الى أثينا بعد الحروب الفارسية واشتغل معلما لبركليس مدة . أما مذهبه فكان أدق من مذهب أمپدكليس وأعوص منه . فانه كان يقول : ” بالبذور “ تجتمع فيها الأضداد من بلل وجفاف ، وبرد وحر على نسب مختلفة ويتيسر لنا أن نرى في هذا المذهب توقعا غريبا لبعض النقط في الكيمياء الحديثة . ولقد شعر انكسيجوراس أيضا ضرورة فرض قوة أو أصل للحركة وظن أن في ذلك الأصل كفاية لتعليل دوران الأرض الذي نسب اليه تكوين العالم . وقد سمي هذه القوة ” عقلا “ ولكن وصفه إياها يجعلها مادية ويرى أنها أرق من سائر الأجسام وأصفى منها . ولا شك في أنه اختار ذلك اللفظ لكي يبين التوافق بين أصل الحركة في العالم وبين أصلها في الحيوان . وهذا ينطبق أيضا على الاهتمام العلمى الذى كان قائما في ذلك العصر . أما من حيث نظرياته الفلكية فانه دل على أنه أيونى شرقى حقيقة وكان فيها يتخلف كثيرا وراء فيثاغورس ففي نظره ونظر أيونى أيجه حتى ديموقريط نفسه أن الأرض مسطحة وأن ” الدوامة “ التى منها نشأ العالم كانت حركة في مستوى . ان نظرية المذهب الذرى كانت جوابا أكثر اقناعا على برمنيديس فهذا المذهب يسلم صراحة بوجود الفراغ ويثبت أنه حقيقة كالجسم نفسه وكان مايسس (٤٤٤ قبل الميلاد) أول من أشار الى مثل هذا الحل وهو رجل صامى ولكنه كان عضوا في المدرسة الايلية قال : ” اذا كانت الأشياء ” كثيرا “ فكل شيء منها ينبغى أن يكون ” كالواحد “ الذى بينت ما يجب أن يكون . وكان المقصود من هذا أن يكون اثباتا بطريق التنفيذ . ولكن لما تجرأ لويكيپص المليطى (٤٤٠ قبل الميلاد) الذى درس كذلك في مدرسة ايليا على أن يثبت وجرد الفراغ لم يبق سبب ما للتهرب

من النتيجة التي لم يقررها مليسص إلا ليبين استحالتها . فليست الذرات في الحقيقة إلا ذلك الواحد المتواصل الذي لا يتجزأ (الذي ذكره برمنيديس) مكررا الى ما لا نهاية في فراغ لا حد له . وبذلك أصبحت نظرية الجسم تامة من هذه الوجهة على الأقل ، وأصبح سؤال طاليس مجابا عليه . ومن المهم أن نلاحظ أن ذلك قد حدث بفضل عودة الاختلاط — بين أيوني ايطاليا وأيوني أيجه ذلك الاختلاط الذي أتاحه تأسيس الأمبراطورية الأثينية — فلا شيء يجعلنا نشعر شعورا حيا بالرابطة التاريخية مثل عودة أسماء كليلطه وصامس الى الظهور بعد خفائها تلك السنين الطوال ومع ذلك فقد تبقت عدة مشا كل أساسية لم تستطع النظرية الذرية حلها وكانت أول محاولة لفك طلاسمها في أثينا ، التي يلاحظ أنها الى هنا لم يكن لها ذكر في تاريخنا الذي نحن بصدد سرده والواقع أنه لم يبلغ أحد من أثينا الطراز الأول في الفلسفة الا اثنان فحسب نعم ان هذين الرجلين كانا يدعوان سقراط وأفلاطون ولذلك كان الاستثناء كبيرا جدا . فتأسيس الأمبراطورية الأثينية هو الذي جعل أثينا ملتقى طبيعيا لمختلف الآراء الفلسفية والعلمية . ففيها التقى غرب هلاس بشرقيها واجتمعت آرائهما اجتماعا أنتج فلسفة جديدة استمرت الى اليوم على الرغم مما حدث لها من الطوارئ التي عطلتها أحيانا .

إذا أردنا أن نفهم كيف ترقى الفلسفة الاغريقية فمن الأهمية بمكان أن ندرك الاختمار العقلي الذي كان في أثينا في عصر بركليس وأيامه الزاهية . ولقد ذكرنا قبلا أن انكسيجوراس الكلزوميني قد استقر هناك ولم يمض زمن طويل حتى هذا آخرون حذوه ولا سيما زينوالأيلوى (حوالى ٤٥٠ قبل الميلاد) تلميذ برمنيديس الحبيب اليه فانه أصبح وقد تتلمذ له كثيرون في أثينا . وقد جعل

زينو نصب عينيه تأييد مذهب أستاذه ومعاضدته فيه فبين أن الذين رفضوا تصديقه والأخذ به قبلوا آراء أخرى أقل ما يقال فيها أن الذوق السليم ينفر منها ، وبذلك قد خدم عرضا الرياضة والفلسفة بأن أثار عجاجة مسئلتى الاتصال والانقسام اللانهائيين وأظهر ما دونهما من صعوبات اظهارا تاما . كل هذا كان منفصلا كل الانفصال عما كان للسفسطائيين من تأثير فى وقت تال مع أنهم جاءوا كذلك من الشرق والغرب ومع أنهم قد تأثروا بمدارس هذه الأقاليم الفلسفية . ففى أثينا هذه ولد سقراط (سنة ٤٧٠ قبل الميلاد) نحو عشر سنين بعد موقعة سلاميس فكان معرضا من صباه بطبيعة الحال الى كل هذه المؤثرات المتضاربة التى وصفها لنا أفلاطون وصفا حيا فى فائيدو . والحقيقة أنا لا نستطيع فهم سقراط ان لم نجعل هذه الحوادث التاريخية نصب أعيننا . ولا شك فى أنه قد انضم فى ريعان شبابه الى أرخلاوس الأثينى الذى خلف أنكسيجوراس بعد أن اضطر هذا الأخير الى مغادرة أثينا الى لمبساكس ولقد قال شاهد عيان وهو أيون الصاكسى : أن سقراط زار آسيا الصغرى رفقة أرخلاوس ويلوح لنا أن فى ذلك اشارة الى حصار صامص حينما لم يبلغ سقراط العقد الثالث من عمره . وليس ثمة من سبب يدعو الى الارتياب فيما قرره أفلاطون مرات من أنه قابل برمنيديس وزينو فى وقت قبل هذا . وعلى كل فآثر زينو فى جدليات سقراط لا يخطئه أحد ويجوز لنا أن نسلم بأنه كان عارفا بأنواع الطوائف الأرفية والفيثاغورية فقد كتب اسكيزياسقلى محاورة عنوانها تلاوجيز صور فيها سقراط جامعا حوله المتقشفين المتشددىن مع أتباع فيثاغورس ولكن سقراط — كما نستطيع أن نكون عنه صورة

لأنفسنا — لم يكن رجلا يتلمذ لغيره بل كان أثينا صميا من حيث تهكمه الذى يتضمن شيئا من تحفظ مشوب بسخرية يقيه التورط فى المبالغة والافراط مهما كان له من الاهتمام بمبالغة غيره وافراطهم . ومع ذلك فتمد اشهر فى صباه بالحكمة وذاع صيته فيها على الرغم من أنه نفى عن نفسه كل شيء من ذلك . ولكن يظهر أنه جمع حوله حلقة من "الرفقاء" وليس لنا من مرجع يبين لنا هذه السنوات الأولى الا "سحب" ارسطافانيز (٤٢٣ قبل الميلاد) وهذه مضحكة بالطبع ويجب ألا نعد ما جاء فيها جدا كله . ومع ذلك فكل شاعر هزلى يحسن عمله — (ولا شك فى أن ارسطافانيز يحسنه) لا يرتضى لنفسه أن يعرض على جمهور الأثينيين رجلا نابها فى صورة لا تتفق مع الحقيقة فى شيء ما ، ولحسن الحظ توجد قطعة فى ممرابيلية زينوفون (I — ٦) يظهر عليها أنها تزودنا بما يمكننا من فهم رواية السحب . وهذه القطعة تمثل سقراط بصورة مخالفة كل المخالفة لما يظهر به فى سائر الكتاب . ولا يمكن أن تكون هاهنا من مخترعات زينوفون نفسه والظاهر أنها تشير الى وقت كان فيه زينوفون وأفلاطون طفلين صغيرين ان لم تشر الى وقت قبل أن يولدا ولربما كانت مأخوذة من أصل أدبى لا سبيل الى وصولنا اليه فتلك القطعة تقول ان أنتيفون السفسطائى كان يحاول أن يفصل زملاءه عن سقراط . ثم تلا ذلك حديث اتهمه فيه بتعليم أتباعه أن يكونوا بأئسين لا سعيدين ثم أردف ذلك بقوله انه كان على حق فى عدم تناوله أجرا على دروسه لأنها فى الحقيقة لا تستحق شيئا . فهذا دليل على علاقة متواصلة بين سقراط وأتباعه كانت معروفة مشهورة حتى أنها أنارت حقد بنى مهنته وحسد هم . ولم يحاول سقراط انكارها بل قال ان كل ما كان يعمل هو ورفقاؤه

انما كان صرف الوقت معا في درس حكمة السلف الصالح التي خلفوها في كتبهم ، وأنهم اذا عثروا بشيء ارتأوه حسنا وصالحا اقتبسوه لمصلحتهم وعدوه مكسبا عظيما وبهذا صاروا أصدقاء بعضهم لبعض ولا يخفى أن هذا يدل على شيء يخالف كل المخالفة الرأي الشائع أن سقراط ليس الا ثرثارة على قوارع الطرق بل هو يدل على شيء أشبه ما يكون بمدرسة منظمة وأن ذلك كما هو يفسر لنا مهزلة أرسطوفانيز .

ان سقراط الذي نعرف عنه الشيء الكثير كان مشغلا بشيء يغاير ذلك كل المغايرة فانه حبس حياته على تبليغ رسالة الى بني جنسه وبخاصة الى أهل بلده . وان كما نثق ” باعتذار ” أفلاطون الى هذا الحد فان سبب ذلك هو الجواب الذي حصل عليه خيروفون من عرافة دلفي . وخيروفون هذا أحد كبار تلاميذ سقراط في أول حياته كما أخبرنا ارسطوفانيز . سأل خيروفون عرافة دلفي ان كان ثمة رجل أعقل من سقراط وهذا يتضمن أن سقراط كان مشهورا بالحكمة قبل أن يبدأ برسالته . وقد صرحت العرافة ألا أحد أعقل منه وجعل أفلاطون سقراط يقول في كتاب ” الاعتذار ” ان هذا كان مبدأ رسالته الحقيقي فانه نهض ليبرهن أن ” العرافة ” كانت مخطئة ولذا اجتهد سقراط في أن يبحث عن رجل أعقل منه ولكن بحثه لم يكن مجديا لأنه لم يعثر إلا على أناس يظنون أنفسهم حكماء وليسوا بهم فاستنتج أن ما قصده العرافة فعلا هو أن سقراط أعقل من غيره من وجهة واحدة ليس إلا فلا هو ولا غيره كان حكما حقا ولكن سقراط كان أكثرهم حكمة لأنه يعتقد أنه ليس بحكيم في حين أنهم كانوا يعتقدون أنفسهم حكماء ويجب أن يتضح أن أكثر هذا لم يكن إلا تهكما . ولا يتوهم أحد أن سقراط

يجعل لعرافة دلفى شأنا كبيرا لأنه يتكلم عنها باستخفاف وما كان ليدكر القصة لو لم يكن معروفا للناس أن رسالته قد بدأت فعلا من هذا الزمن . واذ انظرنا الى ذلك من الوجهة التاريخية كان أقرب الى الواقع أن نقول ان نشوب حرب البلوبونيز كان النقطة الحاسمة في حياته وفيها اشترك سقراط كفارس اشترا كما يشرفه فقد ابث أربعا وعشرين ساعة وهو في غيبوبة ، في معسكر بوتيديا (٤٣١ قبل الميلاد) ويظهر أن هذا يدل على تطوّر في نفسه أحدثه اشترا كه في تلك الحرب أو أعجل ظهوره . ومهما يكن فانا نراه بعد ذلك وقد حبس نفسه على دعوة بني وطنه الى مذهبه وتحويله اليهم . فلنحاول أن نفهم تلك الرسالة التي أرسل اليهم بها .

يقول سقراط في "الاعتذار" : انه كلف برسالته من السماء فهو لا يجرؤ على اهمالها ولو أفضت الى موته كما حدث فعلا والأسلوب هنا يخالف تلك اللهجة التهكمية التي بحث بها في نبوءة العرافة "والعلامة المقدسة" نفسها فتلك لم تفعل سوى أن حذرت من عمل أشياء — أكثرها تافه — كان على وشك القيام بها . ولكنها لم تخبره بعمل شيء ما . أما رسالته فكانت على النقيض من ذلك أمرا ايجابيا كلفه الله ولا يرتاب أحد في أن أفلاطون أراد منا أن نفهم أن تلك كانت عقيدة سقراط الخالصة اعتقدها من صميم نفسه . يشق علينا أن نصدق أن أفلاطون قد أساء تصوير أستاذه في مثل هذه النقطة فانه قد شهد محاكمته ولا بد من أنه كتب كتاب "الاعتذار" بعد ذلك بزمان غير طويل لم تزل فيه ذكرى المحاكمة قائمة في نفوس الناس . يقول لنا أفلاطون قولا واضحا جليا إن سقراط انما أراد تفهيم الناس ضرورة "العناية بأرواحهم" ويؤيد ذلك مصادر أخرى وأن

جميع الناس لتسلم بذلك على أن هذه العبارة قد أضحت معروفة للناس فلم نعد نرى فيها شيئاً جديداً أو هاماً . أما الأتينيون في القرن الخامس فكانوا يرونها غريبة كل الغرابة . نعم ان الكلمة التي تترجمها ” بالروح “ قد وردت مرات في آداب العصر ولكنها لم تستعمل في شيء يطالب منا رعايته والعناية به بالمعنى الذي قصده سقراط فانها كانت تستعمل عادة في نفس الحياة ذلك ” الخيال “ الذي ” يلفظه “ الانسان عند موته . فيمكن أن تترجم إذا ” بالحياة “ في كل حالة يخاطر المرء فيها بحياته أو يفقدها أو يتشبث بها ولكنها لم تستعمل قط في مركز الحياة الشاعرة بأى حال من الأحوال . بل كانت تستعمل أحياناً لتدل على مركز الشعور في الحلم أى فيما يسمى الآن بالاشعور ولم تستعمل مرة واحدة في الشعور أثناء اليقظة الذي هو مركز العلم والجهل والصلاح والخبث . ومع ذلك فان هذا المعنى كان معروفاً في القرن الرابع تمام المعرفة فيمكننا أن نستنتج أن الفضل في هذا التغيير راجع الى سقراط . واقد تهكم عليه ارسطو فانيز كثيراً لاعتقاده آراء غريبة في الروح ، وكانت هذه التهجمات تصب عليه وأفلاطون لم يزل طفلاً . لا شك في أنا لا نطمع أن نحصل من هذه على رأى واضح محدود عن تعاليم سقراط الحققة في هذا الموضوع ولكننا لو راعينا الآراء التي كان يعتقدوها مدارس غرب هلاس وشرقيها عن الروح لم يكن من المستحيل أن نتعرف ما هو ذلك الرأى .

ان أيوينى آسيا الصغرى قد أطلقوا الروح على الشعور الذى هو مستقر الصلاح والخبث والحكمة والحق ولكنهم لم ينظروا اليه من حيث هو النفس ، ولم يعاملوه كما يعامل الفرد . فقد اعتقد

أنكسمنيز وأتباعه أن الروح هو ما يسمونه هواء ، وذلك لأنهم كانوا يعدون الهواء المادة الأولى التي منها تكون كل شيء . فالروح شيء يأتينا من الخارج بوساطة التنفس ، أو هو كما يقول ديوجينيز اللاطواوني "جزء صغير من الله" أى من المادة الأولى احتبس في الجسم الى حين ثم يعود بعد الموت الى الجزء الأكبر من المادة نفسها . وكان الناس يتقبلون الحكمة القائلة "التراب للتراب والهواء للهواء" كوصف كامل لما يحدث بعد الموت . أما الأيونيون الغربيون ولا سيما الفيثاغوريون فكانوا يرون رأيا آخر فالروح عندهم شيء إلهي . فهى إله ساقط من السماء واعتقل في الجسم عقابا له على ما ارتكبه قبل ميلاده من الخطايا . وان ذلك ليسترعى نظرنا من حيث أن أول هم لنا في الحياة هو أن نطهرها من كل رجس حتى نضمن لها الحرية فلا تضطر الى الاعتقال في جسم آخر . أما في هذه الحياة الحاضرة فانهم كانوا يعتقدون أن هذا العنصر الإلهي ينام الا في الأحلام التنبؤية فكما يقول بندر: انها لتنام حينما تكون سائر الأعضاء مستيقظة . فلا هذا رأى ولا ذاك كان معروفا لدى الرجل العادى في أثينا . أما سقراط فانه كان يعرف كليهما حق المعرفة ولكنه لم يكن راضيا عن أحدهما فاذا تكلم في الروح فانه لم يقصد إلهها عجيبا هوى من السماء واحتل الجسم الى حين بل قصد النفس الشاعرة التي في طاقتنا جعلها حكيمة صالحة . ومن جهة أخرى فان اهتمامه وتوكيده بأن العناية بالروح واجبة علينا لا يتلاءم مع كونها شيئا خارجا عنا كما قال بذلك كل الأيونيين الشرقيين الى أنكسيجوراس انما هى على العكس من ذلك نفسنا الباطنة الحققة هى شيء فينا أكبر قيمة وأعلى شأننا من أى شيء آخر كائننا ما كان . فالى هذه العقيدة في الروح والى واجبتنا نحوها أحس سقراط بأنه واجب عليه أن يقوم

ويدعو الناس كافة ولا سيما أبناء وطنه . ولقد كانت هذه عقيدة جديدة غربية في ذلك الزمان . ولئن أصبحت معروفة مشهورة اليوم فذلك دليل على أن سقراط قد نجح في مهمته فهو وإن لم يستطع حمل بنى جنسه على أن يعملوا بما علموا فإنه على الأقل نجح في جعلهم عالمين بها متأكدين منها . وبهذه الطريقة رأى سقراط الصدد بين العلم والدين الذى كان قاضيا على جماعة الفيثاغوريين وأنا لنقول ان أهمية تعاليمه لم تنفذ بعد . ولقد قرر ذلك أفلاطون بكل وضوح فى كتابه اعتذار سقراط كما ذكرنا من قبل . هذا ، وأن ذلك هو المفتاح الوحيد الذى يجعلنا نفهم كل الفهم سلسلة المحاورات العظيمة الى الجمهورية التى فيها كلها ظهر سقراط بمظهر المتكلم الأول . وانها لمسألة تاريخية هامة . هل زاد أفلاطون على مبدأ أستاذه قليلا أم كثيرا فى هذه المحاورات ؟ على أن ذلك لا يعنى القارئ العادى وعلى الأقل فى البداية . وأنا لنعرف من تلميحات أرسطفانيز أن سقراط نفسه قال بمبدأ جديد عن الروح لما كان أفلاطون لا يزال طفلا ولا يفوت القارئ العطوف أن يرى أن القطعة التى فى "الاعتذار" التى أشرنا اليها قد قصد بها أن تكون تقريراً صادقا لذلك المبدأ أما الباقي فليس إلا زيادات طبيعية وليس بذى شأن كبير أن نعرف ان كانت هذه الزيادات ترجع الى سقراط أو الى أفلاطون نفسه . وان حكمنا فى هذه النقطة لا يقلل من قيمة ما استوحته الأجيال الكثيرة من هذه الكتابات ما دمنا نجعل نصب أعيننا أن موضوعها الأصيل هو المبدأ الجديد للروح ، وأن لا يتسنى لنا فهمه الا مسترشدين بالمبادئ التى مهدت الطريق له . وسقراط لم يفعل سوى أن زاد فى عمق مبدأ الأيونيين الشرقيين بأن نفحه شيئا من الوجدان والعواطف التى امتازت بها

تعاليم الفيثاغوريين في هذا الموضوع في حين أنه من جهة أخرى جعل نظرية الفيثاغوريين معقولة يجعله الروح هي نفسنا الشاعرة .

فاذا كان هذا حقا ما علمه سقراط وقال به فلا بد من أن يعد فاتحا لعهد جديد بالمرّة في تاريخ الفلسفة وهذا يدل عليه اطلاق العبارة — ” قبل سقراط “ على أسلافه مع أن الكتب المعتادة غامضة عند ما تبحث الأسباب التي من أجلها نال سقراط هذه المكانة السامية . كذلك ترى أنه كان من الطبيعي لديه أن يهتم كل الاهتمام بتحويل الأرواح كما حدث منه فعلا . ولقد ظل هذا الرأي غالبا على الفلسفة الاغريقية الى النهاية . نعم انه لا شك في أن المدارس المتعاقبة اختلفت أفكارها في معنى هذا التحويل ومع ذلك قد كانت الصلة التي تربطها جميعا بعضها ببعض . وفي الواقع أن هذا قد أدى الى شكل أقوى جديد عنيت به الناس عناية متزايدة وأخيرا اقتبسوه آباء الكنيسة المسيحية مع ما اقتبسوه من كثير غيره من القواعد الأساسية .

لقد رأينا قبلا أن سقراط كان له أتباع ومريدون من بين جميع المدارس الفلسفية في ذلك العصر و ليس من المستحيل أن يزداد ما نعلمه عنه عند ما نعثر بمصادر أخرى جديدة . أما الآن فليس لدينا من مصدر جديد الا بعض أجزاء جديدة كبيرة من الالسيبيادس التي ألفها اسكنيز الأسفطي . وانا نعلم أن اسكنيز هذا كان تلميذا لسقراط ويشاع قديما أن محاوراته مثلت سقراط أصدق تمثيل . فاذا كان الأمر كذلك فيحتمل أن سببه عدم وجود فلسفة خاصة لاسكنيز . وأهمية هذه الأجزاء الجديدة تنحصر في أننا اذا قرأناها مع ما لدينا (ولسوء الحظ ان الأجزاء الجديدة والقديمة لم تطبع معا)

تؤيد التأثير الذي تركه فينا أفلاطون عن سقراط وطريقته في الحاجة وذلك يزيدنا ثقة بأن سقراط أفلاطون مطبوع بطابع تاريخي صادق .

وكذلك أجزاء اسكنيز تؤيد أفلاطون لأنها تبين أن تحويل السبيادس (الذي أنقذ حياته صغيراً) كان من أحب الأمور إلى فؤاده .

ولكن الخليفة الحقيقي لسقراط كان بالطبع أفلاطون نفسه (٤٢٧ - ٣٤٧ قبل الميلاد) وأنا لا يتسنى لنا أن نقول شيئاً ولو موجزاً عن فلسفة أفلاطون . والواقع أن الوقت لم يحن بعد لذلك مع أن أبحاثنا شيقة كثيرة تعمل الآن ولا سيما تلك التي يقوم بها الأستاذ الفرنسي روبان التي تبشر بنتائج أكيدة أكثر مما وصلنا إليه إلى الآن . إن كل ما نستطيع أن نعلمه هنا هو أن نشير إلى موقف أفلاطون تجاه بعض المسائل التي نحن بصدد البحث فيها وسنبر بآرائه الهامة التي أمد بها نظرية المعرفة لأنها بدأت الآن أن تفهم ، وبخاصة ثياتيطس وتتمتها "السفسطائي" فإنها آخذة أن تنال المكانة اللائقة بها من حيث هي أفضل مقدمة للفلسفة عامة ومع ذلك لا مفر لنا من أن نلقى نظرة عجيلى على مسألة أساسية في الطريقة وقد أشارت المحاورات نفسها إليها . وذلك أنه في حين أنا نرى اسم سقراط في كل محاوره منها ما عدا "القوانين" فإنه لم يشترك في بعضها البتة ، ومعلوم استناداً على أسباب أخرى أن هذه المحاورات التي لم يشترك فيها كتبت آنحراًيام حياة أفلاطون فلا بد من سبب ما لذلك . ومن الحزم أن نتخذ هذه المحاورات كبينة أولى على آراء أفلاطون والحقيقة أنه لم يكن مأمونا أن نحاول أن نجيب عن السئال : كم من هذه المحاورات التي كتبها

في أوائل حياته تعزى الى أفلاطون نفسه لا الى سقراط ، الا بعد أن أعيد اقامة فلسفته بالاطلاع على هذه المصادر وعلى الاشارات الغامضة اليها في ارسطاطاليس . تلك مشكلة تاريخية ذات أهمية عظيمة ولكن — حلها لو كان ممكنا — لا يحدث أى تغيير يذكر في الأثر الذى تركته الفلسفة الأثينية فينا .

لو أنا تأملنا كتابات أفلاطون الأخيرة — ولنفرض اذا أنه كتبها مستقلا فيها أكبر استقلال لوجدما ننتظره من تلميذ لسقراط فالروح فيها المحل الأول على أنا نلاحظ فيها صفات خاصة بها ليس لدينا ما يؤيد نسبتها الى سقراط . إنا لنميل كل الميل أن نرى أن أفلاطون كان مشغولا الشغل كله بما يسمى (نظرية الآراء) وهى نظرية بحثها أفلاطون مرة أو اثنتين في محاوراته الأولى التى تعزى الى سقراط ولكنها لم يكن لها أثر فى مؤلفاته الناضجة حيث يشغل مبدأ الروح الحيز الأكبر منها ، ومن ثم نرى أن الروح عند أفلاطون شأنا كبيرا . فهو يعتبر الروح منبع الحركة كلها فى العالم لأنها هى وحدها الشئ الذى يتحرك غيره من دون أن يتحرك هو بشئ آخر فهذا — وهذا وحده — الذى مكن أفلاطون من أن يعلل وجود العالم والانسان وأن يتجنب نظرية ”العالمين“ التى كاد أن يقع فيها كل أصدقاء ”الآراء“ كائنا من كانوا كما بينه أفلاطون نفسه فى السفسطائى ، ولقد سما هذا رأى عنده حتى صار نوعا من ”التوحيد“ لا ينسبه أفلاطون فى أى موضع ما الى سقراط فهو يمثله رجلا ذا طبيعة دينية عميقة ، ولكننا لا نرى من ذلك أنه شعر بضرورة ايجاد مبدأ شكلى لله ، على أن أفلاطون قد خلف وراءه أول دفاع منظم تعلمه عن الإلهية ^(١) وهو مبنى كله على مبدئه

القائل بأن الروح محرك يتحرك بذاته . ولكن الروح الأسمى أو الله ليس الأصل النهائي لكل حركة فحسب بل انه قد بلغ من الطيبة أقصى حد وبما أن في العالم أشياء كثيرة غير طيبة من الالحاد أن نعزوها الى الله فلا بد أن يكون في العالم أرواح أخرى مستقلة استقلالاً نسبياً على الأقل فليس الله سبب كل شيء على الأقل مباشرة . ولكنه ليس من السهل أن نكشف العلاقة بين هذه الأرواح الأخرى وبين الله وقد ذكرت هذه المشكلة في تيمايوس على الشكل الآتي : ان روح العالم وجميع الأرواح الأخرى بشرية كانت أو إلهية كلها من عمل الخالق الذي هو الله ، وهي ليست غير قابلة للعدم لأن كل شيء يعمل يمكن أن يعدم ولكنها مع ذلك تكاد تكون غير قابلة للعدم لأن الله خلق كل شيء لأنه طيب وأراد أن تكون مخلوقاته طيبة كذلك بقدر الامكان . فطيبته لا تسمح له حينئذ بافناء ما عمله من قبل وكل هذا قد ذكر طبعاً على شكل أساطير لم يقصد بها أفلاطون أن تكون بياناً عن اعتقاده الشخصي لأن ذلك ليس الا ما قاله تيمايوس على لسان الخالق . ومع ذلك فانا لنستطيع أن نرى المسألة التي كانت شاغلة له ولا نكون بعيدين عن الانصاف اذا استنتجنا أنه نظر الى المسئلة التي لا تزال محيرة للعقول من وجهة أن قدرة الله على كل شيء محدودة بطيبته وهذا تحديد أهم مما يفرضه وجود المادة ويشير اليه تيمايوس . ولم يكن هو في ذلك الا سائراً على نهج الفيثاغوريين الذين ينتمى اليهم كما يدل على ذلك توحيده بين المادة والمكان أو الحيز .

ان ما بلغناه الى الآن من العلم لا يخلو أن نعزو هذا الرأي الى أفلاطون عزوا حاسماً فهذه نقطة لم يفصل فيها بعد .

ان وصف تيمايوس للخلقة يجب أن يعد من باب الأساطير في تفصيلاته ، على أن به من الصفات المميزة ما يجعلنا نعلم الشيء الكثير عن الاتجاه الذى سارت فيه أفكار أفلاطون عن العالم اتنا نفهم فيثاغوريا عند ما يذكر ما للهندسة من الأهمية ، ولكنه استخدم بضع نظريات هى من أحدث الرياضيات عهدا فى ذلك العصر وبخاصة قانون الخمس المجسمات المنتظمة التى يرجع الفضل فيها الى تياتيطس أحد أعضاء الأكاديمية الأول والذى يصوره لنا أفلاطون بأنه عرف سقراط قبيل مماته . أما تياتيطس نفسه فقد توفى صغيرا ولكن ما نعرفه عنه ينبئنا بأنه كان أحد أفذاذ الرياضيين العبقرين الأقلاء الذين ظهروا فى التاريخ . فنظرية المجسمات المنتظمة استعملت فى تيمايوس للتخلص من مبدأ الأربعة العناصر النهائية مرة أخرى . ويقول تيمايوس عن هذه أنها لأبعد من أن تكون عناصر أو حروف هجاء بل هى ليست مقاطع . ان الطريقة التى بها تكون ما يسمى بالعناصر من جزيئات تشابه فى شكلها المجسمات المنتظمة ، وتفسير تغييرها بعضها الى بعض المبني على التركيب الهندسى لهذه الأشكال يراها القارئ العادى شيئا غريبا ولكن واحدا من أنبه الرياضيين والطبيين الأحياء ذكرا قال ان ما يدهشه هو مشابقتها للنظريات العلمية القائمة فى القرن العشرين ، فيحسن بنا اذا ألا نتعجل فى الحكم على هذه النقطة . وعلى كل حال فمن السهل أن نفهم كيف صار لدراسة الرياضيات المحل الأرفع فى أكاديمية أفلاطون .

حسب الخطة التى اختططناها لأنفسنا فى هذا المقال لا بد لنا من أن نذكر شيئا عن موقف أفلاطون تجاه الحياة العملية . وتلك نقطة من السهل الخطأ فيها . فلم يهتم أحد اهتمامه باعلاء شأن

الحياة النظرية فالحكيم رجل مغرم بمشهد الزمان والوجود كليهما وهذا ما يجعله بنجوة من سفساف المطامع وحقير الأمنى فانه كابد من المشتات ما كابد في الصعود من "الكهف" حيث يقطن سواد الناس وحيث لا يرون الا أشباح الحقيقة . ولكنه في تمسسه عند وصفه للحياة الفلسفية قد اهتم اذتماما معادلا لها بما على الفلاسفة من واجب يقضى عليهم بالتزول على التوالى الى الكهف لانقاذ من يمكن انقاذه من اخوانهم المعتقلين ولو بالرغم منهم فيوجهونهم شطر النور يأخذون بيدهم الى عالم الصدق والحق .

من السهل علينا أن نفهم مما سبق أن أفلاطون خص الجزء الأعظم من أحسن سنى في حياته بمسائل الحياة العملية وأنه هجر أبحاث الأكاديمية حينما اشرف على تربية ديونيصص الثانى ويظهر أن هذا شىء لا يستهان به فالحضارة الاغريقية فى صقلية وكذلك بالطبع حضارة أوربة الغربية كان محققا بها خطر شديد من ناحية القرطاجيين فقد أوقف ديونيصص الأول تيارهم ولكن كل شىء بعد موته كان متوقفا على من سيخلفه . وبما أن تربية ديونيصص الثانى كانت مهمة كل الاهتمام مع ما فيه من المواهب الطيبة فان عمه ضيون كان صديقا لأفلاطون وكان يدافع عن ديونيصص هذا وحسن نيته فلم يستطع أفلاطون أن يعير هذه الدعوة أذنا صماء ولكن ديونيصص كان مما يدعو الى الأسف عنيدا متصلفا فسرعان مامل السروس الجدية التى كان يرى أفلاطون بحق ضرورة أخذه بها حتى يعده الى عمله فكانت العاقبة أن ازداد النفور بين أفلاطون ونلميذه وأصبح من المحال أن نأمل أملا طيبا فى نجاح الخطط التى كان يرسمها ضيون . ليس من الضرورى أن نسرده

القصة كلها هنا ولكن من الصواب أن نقول انه لم يكن ثمة شيء غير عملي فيما أخذه أفلاطون على عاتقه ولا شك في أنه كان مبررا في اعتقاده أن تربية ديونيصص يجب أن تكمل قبل أن يؤمن جانبه ويعهد اليه الدفاع عن مصلحة الهلينية في الغرب .

ان اخفاق أفلاطون في تربية ديونيصص لم يجعله يهجر كل جهد يبذله في تضييد جراحات الهلينية فكان التشريع أحد الأبحاث التي يتحمس لها في الأكاديمية ، وأفلاطون هو الواضع الحقيقي لأساس ذلك التشريع ولم يكن من النادر أن تطلب المدن الاغريقية من الأكاديمية المتشرعين لينظموا قوانينها الحاضرة أو تسن قوانين أخرى جديدة للمستعمرات التي تم تأسيسها حديثا . فهذا هو التفسير الحقيقي للكتاب الشهير الذي عنوانه القوانين والذي شغل أفلاطون عدة سنين . وربما كان بدأه في أثناء اشرافه على تربية ديونيصص ، ويظهر أنه تركه قبل أن يتمه ففي حين أن بعض أجزائه محكمة الوضع ترى أجزاء أخرى تجعلنا نعتقد أنها ليست الا "تسويدا" . ومع ذلك فانه كتاب جليل اذا نظرنا اليه من الوجهة الحقة . فهو تنظيم للقانون الاغريقي ولا سيما الأثيني مع بعض تعديل عن أفلاطون حينما كان يبحث الموضوع بحثا منظما ، وقد صار أساس القوانين الهلينية والرومانية التي لها فضل كبير على العالم . لا شيء يصحح الفكرة الشائعة في أن أفلاطون رجل خيالي غير عملي مثل المدرس الدقيق لأشق أجزاء "النوانين" وأعوصها في البحث الفنى مسترشدين في ذلك المدرس بضوء كتاب "النظم" .

لم نحاول أن نصف هنا نظام أفلاطون الفلسفى كله . والحق أن الوقت لم يحن بعد لأن تكون مثل هذه المحاولة مجدية فنحن

لا نعرف مباشرة شيئا عن تعليمه في الأكاديمية لأننا لا نملك من كتبه الا ما كتبه للجمهور وكذلك يجب أن نحيط في حال ارسطاطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد) وانما لسبب نقيض السبب الأول فليس لدينا الا قطع من كتبه المنشورة وما هي الا اصول محاضراته في الليسيوم . وسنرى أن في هذه مجالا كبيرا للبحث والعمل فمن طبيعة الحال أن الانسان يدع في مذكرات المحاضرات أشياء كثيرة مسلما بها ولكنها تشرح أثناء الالقاء شرحا وافيا هذا وان كثيرا من النقط الهامة لم تبحث البحث الكافي ومع ذلك فان بها أشياء كثيرة تتجلى بوضوح كاف وقد يتفق أنها نقط هامة نعرف منها أمورا كثيرة تفيدنا في مسائل اليوم الفلسفية .

إننا نود أن نبين أن ارسطاطاليس ما كان أثينيا وانما هو أيوني من شمال ايجه فكان متأثرا أشد التأثر بالعلم الأيوني الشرقي ولا سيما بنظام ديمقريطس (الذي يظن أن أفلاطون لم يعرفه) كما كان متأثرا كذلك بنظريات ذلك العصر الطبية وهذا هو السبب في أنه لم يكن يعطف على مدارس الغرب الفلسفية وبخاصة المدارس الفيثاغورية والايلية . ولم ينل الخطوة لديه سوى امپدكليس الذي كان مشغولا مثله بعلم الحياة والمؤسس لمدرسة طبية . فلم يكن ارسطاطاليس عارفا اذا بالأمور الرياضية ونظامه في الطبيعيات (الفيزيكا) لا يعد الا رجعيا اذا وازنا بينه وبين نظام الأكاديمية . نعم انه قبل مذهب كروية الأرض ولكن اذا استثنينا ذلك فان آراءه الكونية لا بد من أن توصف بأنها رجعية . أما في علوم الحياة (البيولوجية) فلا يرتاب أحد في أنه كان عظيما . والبيولوجية هذه لم تهمل كل الاهمال في الأكاديمية ولكنها كانت تعد ثانوية

بالإضافة الى الرياضيات والفلك . فالمقابلة بين ارسطاطاليس وأفلاطون تعيد الى الذهن المقابلة بين فيثاغورس وأمپدكليس وذلك يذكرنا بشيء هو أشبه بقانون للترقى الفلسفى وربما يلقى شيئا من النور على الموقف الحالى فكأن التبادل بيد الاهتمام بالرياضيات وعلم الحياة أساسى فى نشأة التفكير الفلسفى . وأن فلسفة العصور المختلفة لتضطبع بصبغته . ففلسفة القرن التاسع عشر كان يغلب عليها آراء أكثرها بيولوجية فى حين أن القرن العشرين يقضى عليه بأن يكون رياضيا فى نظراته الى العالم ولا شك فى أنه يجب علينا ألا نغالى فى تقدير مثل هذه القوانين على أنه قد يفيد أن ندرس مثل هذا التبادل فى فلسفة الاغريق حيث كل شيء أبسط وأسهل فهما .

ومن جهة أخرى فقد لبث ارسطاطاليس عضوا فى الأكاديمية نحو عشرين سنة فلا بد من أن تترك هذه السنون أثرا فى نفسه وهذا يفسر لنا الحقيقة التى لوحظت مرارا . ففى تفكيره تياران متضادان لا يتلاءمان . فهو من جهة قد اعترم تجنب كل شيء سماوى وترجع لذلك كراهيته لرياضيات فيثاغورس وأفلاطون . ومن جهة أخرى فهو معجب بأفلاطون كل الإعجاب وقد تأثر به تأثرا غير قليل على الرغم من الانتقادات المجحفة التى كان يوجهها اليه ويمكن أن تقول ان السبب فى تقده له على هذا الشكل المصحف يرجع جزء منه الى أن صدره قد يضيق به أحيانا عند ما يرى نفسه عاجزا كل العجز عن التخلص من الأفلاطونية مهما عمل . ويؤيد ذلك أنه كان يميل الى أن يلجأ الى مجازات ذات صبغة أسطورية أو سماوية لم تكن مهيين لها من قبل ولم يتفضل علينا أحد بتفسيرها كلما بلغ أقصى نقطة يوصله اليها نظامه . وهذا هو الحال وبخاصة عند ما يبحث

في الروح وفي المحرك الأول وايس ما يقول ارسطاطاليس في الروح
 الا ترقية للنظريات الايونية الشرقية وانا لنشعر باننا قد ابتعدنا بعدا
 كبيرا عن فكرة أفلاطون من حيث تقديمه الروح وتفضيلها على كل
 شيء آخر . ولكن عند ما يقول لنا ارسطاطاليس ان العقل أسمى
 جزء في الروح وأرقاه فانه يدهشنا كل الدهشة عند ما يقرر أن العقل
 في هذا المعنى ليس الا سلبيا في حين أنه يوجد شكل آخر منه ينفصل
 عن المادة وهذا وحده هو الخالد الدائم . وقد أفضى ذلك الى
 مناقشات لا نهاية لها ولا تشغل بالنا هنا وخير تفسير لها أنها انفجار
 أفلاطوني لم يستطع ارسطاطاليس الخلاص منه . وشبهه بها تلك
 القطعة التي يحاول فيها أن يبين كيف أن المحرك الأول يوصل حركته
 الى العالم مع أنه لم يحركه أحد . فهو يقول يتحرك كما يتحرك الشيء
 المحبوب ثم يدعنا نستخرج منها ما نستطيع أن نستخرجه ومع ذلك
 فلا يسعنا الا أن نشعر أننا في مثل هذا القطع نقرب كل القرب من
 انتقادات ارسطاطاليس التي كان يهتم بها أكثر من اقترابنا منها
 في أي موضع آخر فهو في قلبه أفلاطوني أراد ذلك أو لم يرد .

ان موقف ارسطاطاليس تجاه الحياة العملية يتوقف أيضا
 على رأى أفلاطون . ففي الكتاب العاشر من الأخلاق وضع حياة
 التفكير والتأمل في مكانة أعلا مما وضعها فيها أفلاطون حتى
 أن الحياة العملية لتبدو ثانوية بالاضافة اليها . فهو لا يشعر كما شعر
 أفلاطون بواجب الفيلسوف في النزول الى الكهف من أجل من فيه
 من المعتقلين فهو في الجملة يبدو عليه أنه كان أقل اكتراثا
 من أفلاطون بما تهتم به الحياة العملية . ومع ذلك فانه احتذى
 أفلاطون في حبسه جزءا كبيرا من وقته لدرس السياسات وهذا
 أيضا لغرض عملي واضح وهو تدريب المتشرعين . ولقد انتقده

الناس كثيرا لعجزه عن أن يرى أيام "دول المدائن" معدودة عليها ومن أجل الطريقة التي بها تجاهل ظهور العاهلية في شخص تلميذه الاسكندر الأكبر . ومع ذلك فهذا ليس من الانصاف في شيء . فقد كان ارسطاطاليس يكره الأمراء والبلاطات وكانت دول المدائن لا تزال تسترعى لبه من حيث أنها هي المعيار العادي للتنظيم السياسي . وما كان يصدق أن يوما سيأتي عليها تمخض فيها ويحل سواها محلها بل كان يود أن يساعد على تحسين ادارتها والواقع أنه كان في نظراته أشد مخافة من أفلاطون الذي كان يميل أن يرى مع أيسوقراط أن إعادة الملكية هو الشيء الوحيد الذي يحفظ المدينة كما كانت عليه حينئذ . يجب علينا أن نذكر أن ارسطاطاليس نفسه لم يكن منتميا الى أية حكومة حرة فليس لنا أن نتظر أن يكون لديه من الغرائز السياسية ما لأفلاطون الذي ينتسب الى الطبقات الحاكمة في أثينا وقد ورث الحرية عن عصر بركليس وربما يظهر ذلك كله على أجلاله في موقف كل من الحكيمين تجاه مسألة الرقيق . ففي "القوانين" التي تبحث في الأحوال الحاضرة حينذاك يعترف أفلاطون بنظام الرقيق كأمر واقع على علمه بما في ذلك من الأخطار وقد اقترح عدة مشروعات قانونية لتقليل أضراره . وأما في الجمهورية حيث لا حاجة به تضطره الى مراعاة الأحوال الحاضرة فانه صوّر لنا على لسان سقراط أمة يظهر ألا رقيق فيها . كذلك كان ارسطاطاليس مهتما بتقليل أسوأ مناكر الرق ومقابحه ولكن كان يبرر استبقاء هذا النظام — نظام الرق — ودوامه بحجة أن البرابرة أرقاء بطبيعتهم وأنه لمن مصلحتهم أن يكونوا آلات حية . فان هذا الاهتمام بالتفريق بين الاغريق والبرابرة لا بد أن يكون قد ظهر لكثيرين من معاصري ارسطاطاليس كمغالطة تاريخية ولذا شهر به أفلاطون ورفضه لأنه غير علمي .

ان رفض ارسطاطاليس للرياضيات الأفلاطونية أفضى الى انفصال الفلسفة عن الرياضة وتلك نتيجة مباشرة لم يقصدها ارسطاطاليس ولم يتنبأ بحدوثها . ولقد كانت الرياضة لا تزال بالغة أشدها . أدرك ذلك ارسطاطاليس أم لم يدركه وكانت أعمال الجليل السابق تدفع الرياضيين الى أن يحلوا مسائل أدق وأعوص . فان زوى الليسيوم وجهه عنهم فانهم كانوا على أتم أهبة في أن يسيروا باسم الأكاديمية وحدهم وقد نجحوا في ذلك نجاحا لم يكن ينتظره أحد . والحق أن القرن الثالث قبل الميلاد كان العصر الذهبي للرياضة الاغريقية ويقال ان ذلك راجع الى انفصالها عن الفلسفة . فان كان هذا حقا فمعرفتنا له من الأهمية بمكان . لا شك في أن كبار الرياضيين في القرن الثالث كانوا يسرون خلف أسلافهم الذين كانوا فلاسفة كما كانوا رياضيين فلا غرو أن استطاعوا هم ذلك الى حين . ولكن الحقيقة المدهشة هي أن الرياضة الاغريقية قد أصبحت عقيمة غير مثمرة في وقت قصير ولم يحدث أى تقدم الا أيام ديكارت ولا يبنترالذين سارا بالفلسفة والرياضة معا يدا في يد .

ولم يكن ما حل بالفلسفة نفسها من جراء هذا الانفصال بأقل مما أصاب الرياضة . نعم ان ثيوفراسطس استمر في عمل ارسطاطاليس ناهجا منهجه فأسس علم النبات كما أسس سابقوه علم الحيوان ولكن مدرسة المشائين ماتت بموته أو كادت ولم يبق لها من النفوذ الا قليل الى أن أحيا الأفلاطونيون المحدثون دراسة ارسطاطاليس .

والآن قد أصبح انفصال الفلسفة عن الرياضيات انفصالا تاما . نعم انه كان لكل من الرواقين والأبيقوريين نظام علمي ولكن

فلسفتها لم تكن مقامة على هذا النظام بأى شكل من الأشكال فموقف أبيقور تجاه العلم مشهور فانه لم يهتم به من حيث هو علم ولكنه اتخذ وسيلة يحرر بها الناس من الخوف الدينى الذى ينسب شقاء الانسان اليه . وذاهر أن علم الأكاديمية الذى منه نشأ علم دينى (لاهوت) لم يكن صالحا لهذا الغرض ولكن أبيقور عاد كما يعود أيونى شرقى مثله — الى نظرية ديمتريطس الذرية بعد أن أضاف اليها مع ذلك عدة أمور صيرتها هراء لا معنى له وذلك مثل نظرية الثقل والخفة المطلقة التى كان من دواعى الأسف أن قال بها ارسطاطاليس . ولقد كان الرواقيون كذلك ماديين فانهم وجدوا ما شاءوا من العلم فى نظام هراقليطس مع أنهم اقتبسوا لأغراض جدلية كثيرا من منطق ارسطاطاليس بعد أن عنوا بتغيير ألفاظه ومصطلحاته . فكل من هاتين المدرستين — مع أنهما اثبتتا مخلصتين لفكرة الفاسفة من حيث هى دعاية وتحويل — نسيت أنها كانت فى الحقيقة مؤسسة فى خير أيامها على العلم . وهذا هو الذى اجتذب الرومانين الى الرواقين والأبيقوريين الذين لم يهتموا بالعلم اهتماما صحيحا فى وقت من الأوقات . فكل المذهبين : الرواقى والأبيقورى كان لهما جاذبية عملية تختلف فى أحدهما عن الآخر جعلت لهما مقاما محمودا فى رومية .

ظلت الأكاديمية التى أسسها أفلاطون فى الوجود ولكنها حادت عن الغرض الذى أنشئت من أجله ولم يمض على وفاة أفلاطون جيل واحد . ولقد رأينا أن الرياضة قد استقلت عن الفلسفة فأصبحت الحاجة ماسة كل المساس الى ضرورة نقد النظريات والمبادئ التحكيمية “ التى أدخلها الرواقيون . وفى

هذا اتباع لجزء غير صغير من مذهب أفلاطون وهو على صغره ليس بأقل الأجزاء خطرا . وحقا ان الأكاديمية لتبدولنا بعد هذا الزمن الطويل كمدرسة للتشكيك ولكن يجب أن نذكر أن تشكيكها هذا كان موجها الى عالم الحس الذي كان موقف أفلاطون تجاهه لا يختلف عن موقفهم اختلافا أساسيا . ان المتشككين الحقيقيين كانوا دائما يرفضون أن يعدوا الأكاديميين متشككين بمعنى الكلمة الصحيح ومن الجائز أن تقاليد الأفلاطونية الحقة لم تنقطع في وقت ما . وعلى كل حال فانا نلاحظ من القرن الأول قبل الميلاد أن الرواقية أخذت تقرب من الأفلاطونية شيئا فشيئا . فأخذ الناس يقبلون من جديد على دراسة تيمايوس التي لأفلاطون وكان لتعليق يوزيدونيوس (حوالي ١٠٠ قبل الميلاد) عليها أثر كبير في ترقى الفلسفة حتى آخر القرون الوسطى . فذلك هو عصر "الاختيار والتفضيل" الذي يتجلى لنا في كتابات سيشرون الفلسفية وكان له شأن عظيم في تاريخ الحضارة على أنه كان بعيدا كل البعد عن روح الفلسفة الاغريقية الصادقة فتلك كانت مية في ذلك الوقت ولم تعد اليها الحياة الا في القرن الثالث بعد الميلاد لما نشر بلوطينوس الأفلاطونية في عاصمة الروم .

لم يأخذ مؤرخو الفلسفة الاغريقية في نصفه الأفلاطونية الحديثة الا منذ عهد قريب . ويرجع ذلك الى اتجاهات الفلسفة العصرية وميولها التي أشرنا اليها في مفتتح هذا الفصل كما يرجع الى الأبحاث التاريخية التي تمت في فلسفة القرون الوسطى تلك التي اتضح تزايد اعتمادها على الأفلاطونية الحديثة لغاية نظام القديس توماس أكوناس بما في ذلك هذا النظام نفسه . حقا لقد كان اختيار بلوطينوس تأسيس مدرسته في رومية لا في أثينا

أو الاسكندرية ، أكبر حقيقة فاصلة في تاريخ الحضارة الغربية لأن غرب أوروبا أصبح بذلك الوارث الحقيقي للفلسفة الاغريقية لامراء في أن كل امرئ يعرف أن بلوطينوس كان صوفيا ولكن هذه اللفظة قد تجعل المرء يرى فيه آراء خاطئة لا تصدق عليه . فكثيرا ما قيل عنه انه رجل أدخل الآراء الشرقية في الفلسفة الاغريقية وان عامة الناس تظنه مصريا وهذا بعيد الاحتمال اذ لو كان ذلك صحيحا لازداد الأمر غرابة فهو على الرغم من أنه قضى احدى عشرة سنة يدرس في الاسكندرية لم يذكر ديانة ايزيس التي كانت فاشية في رومية في أيامه والتي أخذت بلب رجل أغريق عريق مثل بلوطرخس قبل ذلك بعدة أجيال . لاشك في أن بلوطينوس كان يعتقد أن ما يدرسه هو الأفلاطونية الصحيحة وأنه قد أعد نفسه لذلك بتوافره على درس ارسطاطاليس وعنايته به وبمذهب الرواقين ما دام ذلك يعينه على غرضه لا مرء في أن بلوطينوس كان رجلا عظيما تمنعه عظمته بعد أن يكون مرددا لصدى أفكار سواه . ولكن على الرغم من كل ذلك فانه كان الوارث الحقيقي لأفلاطون ولنا أن نزيد فنقول أن المسيوروبان الذي أخذ على عاتقه استخلاص فلسفة أفلاطون الحقيقية من كتب ارسطاطاليس — وذلك عمل شاق — فانه قد توصل الى أن في افلاطون "أفلاطونية محدثة" أكثر مما قد يظنه الناس .

كان بلوطينوس صوفيا اذا ، ولكن ليس بذلك المعنى الذي يساء فهمه من هذه الكلمة . انه وضع أمام تلاميذه طريقا للحياة توصل مراحلها الى أسنى أنواع الحياة كلها وهذا هو نفسه ما فعله فيثاغورس وأفلاطون من قبل ، فهو ليس الا استمرارا في رواية يرجع الاغريق عهدها الى القرن السادس قبل الميلاد

أى نحو ألف سنة قبل عصر بلوطينوس . ولقد كانت غايته نفس الغاية التى رعى إليها سالفوه وهى تحويل الأرواح الى ذلك الطريق ويختلف عن المفكرين أمثال الرواقيين والابيقوريين فى اعتقاده أن هذا الطريق الذى يدعوهم إليه يجب أن يكون أساسه مذهبا منظما فى الله والعالم والانسان فكانت النتيجة أن الانفصال الذى تم بين العلم والفلسفة ذلك النظام الذى ظل قرونا قد زال ثانية . أجل إنا لا نستطيع أن نقول ان بلاطينوس نفسه قد درس الرياضة دراسة خاصة ولكن لا يوجد ثمة ريب فى أن أتباعه قد فعلوا ذلك وأنا لمدينون اليهم بكثرة ما نعرفه من الرياضة الاغريقية ولا سيما الى بروكلوس الذى كان المنظم لمذهب بلوطينوس على الرغم من أنه كان يخالفه فى بعض نقط معلومة ومهما قلنا فلا نستطيع أن نغالى فى تقدير ما كان له من التأثير فى الفلسفة التى ظهرت بعد وذلك التأثير تمكن رؤيته واضحا جليا حتى فى ديكارت الذى تأثر بها من عدة طرق قام بها الأستاذ جيلصن المشتغل بدراسة الفرنسية فى جامعة ستراسبورج فاذا ما تمت أبحاثه تجلى استمرار الاتصال بين الفلسفتين الاغريقية والحديثة وتبدى ما كان لأفلاطون من الشأن العظيم فى تكوين العقل الأوربى الحديث وعندئذ ندرك أكثر من ذى قبل الأسباب التى صيرت الفلسفة الاغريقية ذات شأن كبير دائم .

والحق أن تاريخ الفلسفة الاغريقية هو تاريخ ماضينا الروحانى ، ومحال أن نفهم الحاضر من دون أن نحسب للماضى حسابا ولا سيما الأفلاطونية فهى أساس الحضارة الغربية كلها . ففى رومية — كما أشرنا إليه سابقا — كان بلاطينوس يلقى دروسه ،

وفي بعض ما ترجم الى اللاتينية من كتب مدرسته وجد القديس أوغسطين ما كان يبحث عنه من أساس للفلسفة المسيحية فالنفوذ الكبير الذي كان لهذا القديس في الكنيسة اللاتينية هو الذي جعل الأفلاطونية فلسفتها الرسمية عدة قرون، انه لخطأ كبير أن يظن ظان أن نفوذ ارسطاطاليس كان الغالب على القرون الوسطى المسيطر عليها فانه لم يعرف قط الا في القرن الثالث عشر وحتى في هذا القرن نفسه فانه لم يكن يدرس الا على ضوء الأفلاطونية كما كان يدرسه بلاطينوس وأتباعه وأنه لم يحصل الا في آخر القرون الوسطى على هذا النفوذ وتلك السيادة التي كان لها أثر كبير في القرون التي تلتها . وكذلك من الأفلاطونية نشأت علوم القرون الوسطى الأولى فترجم كلسينديوس في القرن الرابع جزءا كبيرا من كتاب تيمايوس الى اللاتينية وعلق عليه تعليقات محكمة كل الاحكام مستقاة من مصادر قديمة . وكتاب تيمايوس هذا من تأليف أفلاطون . ولقد كان كتاب "عزاء الفلسفة" الذي كتبه الأفلاطوني الروماني بوثيوس وهو في سجنه سنة ٥٢٥ أشهر كتاب في القرون الوسطى وقد ترجمه الى الانجليزية الملك الفرد الكبير وتشو صر كما ترجم الى عدة لغات أوربية أخرى . فعلى هذه الأسس قامت الأفلاطونية الفرنسية في القرن الثاني عشر ولا سيما أفلاطونية مدرسة شارتر التي كان لها أثر كبير في انجلترا ويكفي أن نذكر أسماء جريستته وروجر باكون حتى يتبين المرء بسهولة أن ما قدمه الكتاب الانجليز الى العلم والفلسفة يمتاز بأمور يرجع أكثرها الى ذلك الأثر .

على أن الاهتمام بالفلسفة الاغريقية ليس مقصورا على الوجهة التاريخية وحدها بل هو حافل بتعاليم للمستقبل أيضا . لقد كانت الفلسفة منذ أيام لوك ميالة الى الاختصار على البحث في طبيعة

المعرفة وتترك مسألة طبيعة العالم للاخصائيين وأن تاريخ الفلسفة الاغريقية ليبين لنا الخطر الكامن في انقسام دائرة الفكر هذا الانقسام غير الطبيعي . فكلما ازدددنا لهذا التاريخ درسا ازدددنا شعورا بالحاجة الى نظر أوسع وأشمل . ان "فلسفة الأشياء الانسانية" كما يقول الاغريق ليست الا جزءا من عدّة أجزاء أخرى وما نظرية المعرفة الا جزءا من ذلك الجزء فاذا درست منعزلة عن الكل أصبحت لا شك ذات وجه واحد . كذلك يمكننا أن نعرف من الفلسفة الاغريقية خطر فصل التفكير عما فيه مصلحة الجنس البشرى فالفكرة الفائلة بأن الفلسفة يمكن عزلها كانت فكرة لا يفهمها أحد من كبار مفكرى الاغريقية وبخاصة الأفلاطونيين الذين كثيرا ما اتهموا بهذه "المهرطقة" نفسها وفوق كل هذا تعلمنا الفلسفة الاغريقية الأهمية العظمى لما نسميه نحن الشخصية ويسمونه هم الروح ، فادراك الاغريق لذلك جعل فكرة التحويل الاغريقية الصحيحة ذات شأن كبير في تفكيرهم ومعيشتهم . فهذا قبل كل شيء هو الدرس الذى كان عليهم أن يعلموه وهذا هو السبب فى أن كتابات عظمائهم لا تزال قادرة على تحويل أرواح من يتلقى تعليمهم بالتواضع ما

ج . برنت

الرياضة والفلك

لقد أحسن من قال : اننا اذا أردنا دراسة أى علم على الوجه الأكمل وجب أن ندرسه باعتباره حيا ناميا وأن ننظر فيه من وجهة نموه فى ماضيه ولما كانت معظم القوى والحركات الحيوية ذات الأثر الفعال فى المدنية الحديثة نبتت فى اليونان فان دراستها على الوجه الأكمل تستلزم الرجوع الى عهد اليونان وهذا هو الحال أيضا بالنسبة لآداب اللغات عند البلاد الحديثة ولفلسفتهم وفنونهم فاننا لا نستطيع دراستها جميعا بقصد الوصول الى قراراتها دون أن يؤدى بنا السير فى نهاية الأمر الى الطريق الموصل لليونان .

وعند ما نفكر فى مقدار الدين الذى على الانسانية لليونان نكون عرضة لأن نحصر دائرة تفكيرنا فى الدرر الغوالى التى خلفوها لنا فى الأدب والفن . وهذا خطأ لأن العبقرية اليونانية كانت متعددة النواحي وقد وجد اليونانى نفسه مندفعاً بفطرته نحو دراسة العلوم البيعية والرياضية والمنطق والاستدلال الدقيق بوجه عام دفعه على ذلك ما جبل عليه من حب فى العلم لا سبيل لاطفاء جذوته ومن رغبة صادقة فى رؤية الأشياء كاملة على حقيقتها وما يتأجج فى صدره من الشوق لأن يكون قادرا على ادراك تفسير معقول لكل شئ فى السماء والأرض .

ننقل هنا عبارة وردت فى نقد ينم عن ذكاء مفرط الكاتب شهير وهى "كون الانسان يونانيا مرادف لكونه باحثا وراء الحقيقة

يبنى تعترف اللباب الأساسى للمادة وتفقه معنى العدد ومعرفة الدنيا كوحدة جامعة معقولة ، ويستطيع الانسان أن يقول وهو بعيد عن روح التناقض أو الالغاز بأن اقليدس كان أحسن نموذج لليونانى فقد كان يسعى ليعرف قوانين قياس الأرض معرفة عميقة وليعرفها كسلسلة معقولة . وأفلاطون أيضا كان مولعا بالهندسة وعجائب الأعداد وقد كان يونانيا لأنه كان رياضيا قبل كل شئ واذا ماتين الانسان بهذه الطريقة العبقرية اليونانية متجالية في كتاب اقليدس وكتاب "بستريور أنا ليتيكس" فانه يفهم الشعار الذى كتب فوق الأكادى ابكى تدرك معنى العبقرية اليونانية يجب أن تبدأ بدراسة الهندسة والحقيقة أن الرياضة تلعب دورا مهما في فلسفة اليونان فهناك مثلا قطع عدة في أفلاطون وارسطاطليس لا بد من بعض العلم بالاصطلاح لكى تفهم الرياضى اليونانى . من أجل ذلك يجب أن يكون من معدات كل طالب يدرس الأدب القديم أن يقرأ أجزاء ليست بانقليلة من كتب الرياضيين اليونانيين. في أصلها اليونانى فيقرأ مثلا بعض الأجزاء الأولى من كتاب اقليدس. بحذفها والتعاريف على الأقل التى وردت في بقية الأجزاء ويقرأ كذلك منتخبات لكتاب آخرين . وقد ضمن فون ولا موثتش مولندروف كتابه "المطالعة اليونانية" مقتطفات من اقليدس وارميدس وهيرن الاسكندرى ويجب أن يقتدى بهذا الكتب في هذه المملكة (انجلترا) وضرورة المام كل رياضى يستحق هذا النعت بالكتب الأصلية للرياضيين اليونانيين لا تقل عن ذلك فان الرياضة علم يونانى . أما فيما يتعلق بالهندسة النظرية البحتة فالمعدات الفنية للرياضى تكاد تكون جميعها يونانية فقد وضع اليونان القواعد الأساسية وحددوا المصطلحات وكانوا أول من اخترع الطرق . وفوق

هذا فقد فعلوا كل ذلك بغاية التحقق بدليل أنه لم تظهر حاجة ما في كل تلك القرون التي توالى بعدهم لأن ينشأ من جديد أى جزء أساسى من تعاليمهم ومن باب أولى لم يدع الحال قط لأن يطرح بعضها لثبوت عدم صحته .

أنظر أولا الى المصطلحات الرياضية تجد أن كل الأسماء العامة الأساسية يونانية أو ترجمة لاتينية لأصل يونانى ومع ان الرياضى قد يتعلم معنى تلك المصطلحات من غير أن يكون له الملم بالغة اليونانية الا أنه اذا تعلم تلك الكلمات كما تنشأ وبجزء من اللغة الحية التي استخدمها الرجال الذين وضعوا هذه المصطلحات فانه يكون ولا شك أقدر على ادراك مدلولاتها . خذ مثلا كلمة "isosceles" وترجمتها متساوى الساقين فمن الممكن إفهام التلميذ معنى المثلث المتساوى الساقين ولكنه اذا لم يعرف شيئا عن اشتقاقها حارفى السبب الذى من أجله احتجنا لاستخدام كلمة ظاهرة الغرابة للتعبير عن فكرة بسيطة كهذه ولكن اذا عرف من مجرد شكل الكلمة أن معناها شىء له ساقان متساويان لتركبهما من "isos" بمعنى متساوى و "Skelos" بمعنى ساق . عندئذ يفهم صلاحيتها ولا يصعب عليه تذكرها (أما كلمة "Equilateral" فأخوذة من اللاتينى ولكنها مجرد ترجمة للأصل اليونانى ومعناه متساوى الأضلاع . كذلك يمكن تفسير كلمة "Parallelogram" لمن لا يفهم اليونانية ولكنها تكون أسهل فى الفهم على من يرى فيها الكلمتين اليونانيتين اللتين يتكوّن منهما ويدرك أنها طريقة مختصرة للتعبير عن أن الشكل المشار اليه محصور بين خطوط متوازية . وكلمة "Parallel" نفسها تكون أوضح لنا اذا عرّفنا أن الخطين الموصوفين بها يسيران جنبا لجنب دائما . كذلك يجب أن يعرف الرياضى أن المعين سمي "Rhombus"

لما بينه وبين نوع من النحل الدّوّار من الشبه وكما أن متوازي الأضلاع شكل مكوّن من خطين مستقيمين متوازيين فالمتوازي المستطيلات "Parallelepiped" جسم محدود بثلاثة أزواج من المستويات المتوازية وبهذه المناسبة نقول إن المتعلم بهذه الكيفية يسلم من الوقوع في الخطأ الفاحش الذي يشوّه عددا ليس بالقليل من الكتب الدراسية الهندسية وهو كتابة "Parallelopiped" بحرف O واليك مثالا جيدا آخر وهو كلمة "Hypotenuse" فهي مشتقة من فعل بمعنى يمتد تحت شيء فاذا اعتبرناه لاتينيا فيكون معناه "subtend" وهي لفظة تستخدم بوجه عام للدلالة على "المقابلة" وكلمة الوتر (hypotenuse) أى وتر الزاوية القائمة مقصورة في استعمالنا نحن على الدلالة على الضلع المقابل للزاوية القائمة في المثلث القائم الزاوية. وهو اختصار للعبارة المستخدمة في بند ٤٧ بالجزء الأول من كتاب اقليدس ومعناها الضلع المقابل للزاوية القائمة وهذا يفسر التأنيث في "hypotenuse" ولو أن الرياضيين لقنوا من اللغة اليونانية قدرا أكبر من الذي عرفوه لما ظل الخطأ في الهجاء في كتابة كلمة "hpothene" هكذا شائعا هذه المدة الطويلة .

لنأخذ مثالا خارجا عن المبادئ كيف يتسنى للرياضي أن يفهم على الوجه الصائب لفظة "Latus rectum" المستخدمة في القطاعات المخروطية إذا لم يكن رآها في "أبولونيوس" على أنها الجنب والضلع القائم في مستطيل خاص في حالة كل من القطاعات المخروطية الثلاثة^(١)

(١) في حالة القطع المكافئ تكون قاعدة المستطيل (وهي خلاف الضلع القائم) هي مائسة بالاحداثى الأفقى المتأبّل للاسدائى الرأسى ومساحة المستطيل نفسه تساوى مربع الاحداثى الرأسى. أما في حالة القطاعات المخروطية ذات المركز فقاعدة المستطيل هي الضلع المستعرض للشكل أو القطر المستعرض (القطر اليه) ومساحة المستطيل تساوى مساحة المربع المنشأ على القطر المرافق للقطر الذى نسب اليه .

ثم ان كلمة احداثى رأسى تكاد لاتفيد شيئا لمن لا يعرف أنها ما وصفه أبولونيوس بالخط المستقيم المرسوم (من نقطة على المنحنى) النازل الى أسفل بكيفية موضوعة من قبل أو مقدرة كذلك كلمة "asymptote" مأخوذة من كلمة يونانية بمعنى غير المتقاطعة وكان لها عند اليونان مدلول أعم زيادة على مداولها الذى نحصره الآن فى دائرة ضيقة وقد استخدمت فى بعض الأحيان للدلالة على الخطوط المتوازية لأنها هى أيضا لا تتقابل واذا تناولنا أى كتاب مدرسى هندسى مؤلف طبقا لأحدث القواعد التى وضعها ادارة التعليم أو التى وردت فى برنامج الجامعات وجدنا أن الألفاظ المستخدمة (الا فى الكتب التى قصد منها أن تكون أقرب الى اللغة المتداولة وأبعد من اللغة العلمية) تكاد تكون يونانية صرفة وقد كانت صلاحية اللسان اليونانى لنقل الأفكار العلمية مدهشة وكانت الدقة الباهرة من مميزات لغة اقليدس وكان بركليس أحد منسريه وشراحه مشغوبا جدا بالتنويه بملك الدقة العجيبة وتأكيدها . كانت لغة علماء الهندسة اليونانيين على جانب عظيم من الإيجاز والافادة برغم الظواهر التى تشير الى عكس ذلك ومما ينعاه الكثيرون على اقليدس "أنه مسهب" ومع ذلك نجد فى الكتب الهندسية الابتدائية الحديثة (بصرف النظر عن الاختصارات الكتابية) أن بسط المادة المناظرة لمادة اقليدس يشغل عادة حيزا لا يقل بل يزيد عن نظيره فى هذا الكتاب الأخير . واذا أغضينا الطرف عن براءة المقطع فى رسائل أرشيدس فانا نجد فى ديرن وبطليموس وپاپوس نماذج قيمة للتعبيرات المختصرة المفيدة . والبرهان الهندسى البحت الذى أورده ديرن لفانون مساحة المثلث

$$\Delta = \frac{1}{2} c (a - b) (c - h) \text{ والنظريات}$$

الهندسية في الكتاب الأول (Ptolomy's Syntax) بما فيها نظرية بطليموس هي حالات تشرح ما نحن بصددده .

وقواعد الهندسة والحساب (بمعنى نظرية الأعداد) مذكورة ضمن المادة التمهيدية في الجزأين الأول والسابع من كتاب اقليدس ولم يكن بمستكشفها فانها نشأت بالتدريج من عهد فيثاغورس وكان ارسطاطاليس يفهم طبيعتها وترتيبها فهما واضحا فهو يقول ان كل واحد من العلوم التي تقبل التوضيح عمليا يتضمن ثلاثة أمور : المادة والأشياء التي وردت لها براهين والأشياء التي عندها تبدأ البراهين وليس في مقدور الانسان أن يبرهن على كل شيء والا أصبحت سلسلة البراهين لا نهاية لها فيجب أن تبدأ برهانك في نقطة معينة ثم تأخذ بأمور معترف بها ولكنها غير قابلة للتأيضاح عمليا وهذه الأمور هي :

(أولا) القواعد العامة التي تشترك فيها كل العلوم وهي التي تسمى بالبداهيات أو الآراء العامة ومثالها أن "أحد الرأيين المتناقضين يجب أن يكون صحيحا" أو أنه "إذا طرحت أشياء متساوية من أخرى متساوية كانت البواقي متساوية أيضا" .

(ثانيا) القواعد التي تمتاز بها مادة العلم الخاص الذي هو موضوع البحث كالهندسة مثلا وفي مقدمة هذه القواعد الأخيرة التعاريف فلا بد أن يكون هناك اتفاق على مدلولات ألفاظ اصطلاحية معينة على أن التعريف لا يقرر شيئا بخصوص وجود الشيء المعروف أو عدمه .

ولا بد من التدليل على وجود مختلف الأشياء المعرفة ويستثنى من ذلك في كل علم من العلوم بعض أشياء قليلة أو مبدئية يستحيل

التدليل على وجودها ولا مناص من افتراض هذا الوجود ضمن القواعد الأساسية للعلم . فلا بد مثلا من افتراض وجود النقط والخطوط في الهندسة والوحدة في الحساب وأخيرا علينا أن نفترض وجود أشياء أخرى محدودة هي أقل وضوحا من الأشياء السابقة ولا يمكن للإنسان أن يبرهن عليها ومع ذلك لا مناص له من التسليم بصحتها وهذه الأشياء سميت بالفروض لما تطلبه في المتعلم من استعداد للاعتقاد فيها باخلاص وفروض اقليدس من هذا النوع ولا سيما الفرض المعروف بفرض التوازي .

ولا شك في أن طرق حل المسائل كانت تطبق أولا على حالات خاصة ثم تنظم وترتب بالتدريج وربما جاء وضع الأسماء الاصطلاحية الفنية لهذه الطرق متأخرا أي بعد أن توطدت دعائم الطرق نفسها . وكانت إحدى طرق الحل هذه عبارة عن تحويل مسألة الى أخرى وكانت تسمى باسم يظهر أن ارسطاطاليس أول من استخدمه ولو مثل هذا التحويل حدث قبله بزمان طويل فقد حول هيلرانيس ابيقراط الطشيوزي مسألة مضاعفة المكعب الى مسألة إيجاد الوسط المتناسب في التناسب المتسلسل بين خطين مستقيمين أي أن ابيقراط بين أنه لو أمكن حل هذه المسألة الأخيرة فإن الأولى تحل كذلك تبعا لها ومن المحتمل أنه كانت هناك أمثلة أخرى أقدم من هذه واردة في الهندسة الفيثاغورية .

يأتي بعد ذلك طريق التحليل الرياضي الذي قيل ان أفلاطون كتب عنه الى ليودامس الثاسوسي أو فسر له ولكن التحليل بمعناه الرياضي كالتحويل (الذي يقرب منه كثيرا) لا بد أنه كان مستخدما قبل هذا العهد بزمان طويل وقد عرف پاپوس التحليل والتركيب

المتصل به فقال : في التحليل نفرض وجود ما نبحث عنه ثم نتساءل عما يصح أن ينتج هذا عنه ونبحث بعد ذلك عن السبب الذي نشأ عنه هذا الشيء الجديد وهكذا نتراجع الى الوراء خطوة خطوة حتى يصل بنا هذا التراجع الى شيء معروف من قبل أو محدود من طبقة القواعد الأساسية . أما في التركيب فإنا نعكس العملية فنبدأ بهذا الذي وصلنا اليه في نهاية العملية السابقة ونرتب تلك النتائج التي كانت فيما سبق مقدمات حسب ترتيبها الطبيعي ونربط كل واحدة منها بالتي تليها حتى نصل في النهاية الى النشاء ما كنا نبحث عنه .

أما طريقة الاحالة الى المستحيل التفنيد فضرر من التحليل نبدأ فيه بفرض صحة عكس الذي نريد البرهنة عليه ونستخدم طريقة التحليل نفسها ونتردد بها الى الوراء حتى نصل الى شيء معترف بخطأه أو مقطوع باستحالة . يصف ارسطاطاليس هذه الطريقة بطرق مختلفة فيقول انها الاحالة الى المستحيل أو البرهنة بالمستحيل أو البرهان الموصل للمستحيل ويمكن في هذه الحالة أيضا لم تكن الطريقة بالمستحدثة ولو أن اسمها كان جديدا ومن أمثلتها القديمة متناقضات زينون .

وفي النهاية نقول ان اليونان أسسوا طريقة العرض التي لا تزال سائدة على المباحث الهندسية لأنها من املاء المنطق الدقيق وتراها متبعة في نظريات اقليدس بأقسامها الشكلية المتعددة ، تلك الأقسام التي وضعت لها فيما بعد الأسماء المميزة الآتية :

(١) منطوق النظرية ،

(٢) التوضيح بالرسم ،

(٣) إعادة ذكر المطلوب وهو ما يراد عمله أو اثباته لا بالفاظ عامة (كما في منطوق النظرية) ولكن بالإشارة إلى الفروض الخاصة التي يحتويها الرسم ،

(٤) العمل ،

(٥) البرهان ،

(٦) النتيجة ،

وكثيرا ما يحدث في حالة المسائل أن حل التمارين لا يكون ممكنا إلا اذا حققت فروضها الخاصة شرطا معيننا وفي هذه الحالة ينتفى عنصر آخر من النظرية وهو ذكر الشروط أو الحدود الضرورية لامكان الحل وهذا العنصر سمي بنفس الاسم الذي أطلق على العنصر الثالث للنظرية ومعناه التعريف أو التحديد .

وقد حاولنا إلى الآن أن نبين بوجه عام الصفة القاطعة والقيمة الباقية للعمل الذي قام به أولئك الذي خلقوا علم الرياضة وبقى علينا أن نلخص بأقصى ما يمكن تاريخ الرياضة اليونانية تبعا للعصور والموضوعات .

أخذ اليونان بالطبع كل ما استطاعوا أخذه من الحقائق الأولية في الهندسة والفلك عن المصريين والبابليين ولكن حتى في هذه الاستعارات وأمثالها عن الأمم الأخرى تتجلى بعض المميزات الخاصة بالعبقريّة اليونانية فيظهر فيها كما يظهر في كل موضع آخر استقامة قصدهم وتركيز فكرهم فقد كانوا دائما على علم واضح بما هم في حاجة إليه وكانت لهم غريزة لا تخطئ تلهمهم انتقاء ما هو جدير بأن يؤخذ ويضربون صفحا عما سواه . توضح لنا هذه الصفة فيهم قصة أسفار

فيثاغورس الذي عاشر قسيسين وأنبياء وتعلم منهم مبادئ الشعائر الدينية التي تقام في مختلف الجهات تعلمها لا عن تحمس ديني (كما قد يتبادر الى ذهنك) هكذا يقول الراوى — ولكن عن رغبة في ألا يفوته تحصيل أى جزء جدير بالتحصيل من العلم الذى قد يكون مخبئا في العبادة الدينية . وهذه الحكاية توضح أيضا ميزة مهمة لليونان على المصريين والبابليين ففى هاتين الدولتين كانت العلوم — شأنها في ذلك العهد — احتكارا للقسس وحيث يكون الحال كذلك قد تصبح أولى الخطوات العلمية هى الخطوة الأخيرة أيضا لأن النتائج العلمية التي يتوصل اليها يغلب عليها أن تندمج في الأوامر الدينية ورسومها المرعية اليومية ولذلك تصير في نهاية الأمر مجموعة من القواعد التي لا روح فيها . أما اليونان فلم يكن عندهم لحسن الحظ قسوسة منظمة وقد أعانهم عدم التقيد بالأوامر والقواعد التقليدية أو الخرافات على أن يطلقوا العنان لقواهم الفكرية فاستطاعوا بذلك أن يخلقوا العلوم الطبيعية كما يخلق الكائن الحى صالحا لأن يرتقى لغير حد .

تبدأ الهندسة اليونانية كما يبدأ الفلك اليونانى بمجهود طالس حوالى (٦٢٤ — ٥٤٧ قبل الميلاد) الذى ساح في مصر وقيل انه جاء منها بالهندسة والهندسة التي كانت بمصر عندئذ هندسة نشأت عن الحاجيات التي تعرض للناس في حياتهم العملية . فالخراج كان يجبي من العوائد التي تفرض على الثروة الطينية وكان تقدير هذه يتوقف على تعيين حدود مضبوطة لمختلف الممتلكات (التكليف) كان كلما طغى الفيضان الدورى فأزال معالم هذه الحدود وجب ابدالها بغيرها أو تعيين المساحات التي تفرض عليها العوائد بقطع النظر عن تلك الحدود التي انطمت معالمها وهذا كله يحتاج

الى فن مسح الأراضي وانا نستنتج من ورقة البردى رند (حوالى ١٧٠٠ قبل الميلاد) وغيرها من الوثائق أن الجزء الأساسى من الهندسة المصرية كان عبارة عن قواعد عملية لمعرفة المقاييس الآتية بنوع من الدقة :

(١) بعض المساحات كمساحات المربعات والمثلثات وأشباه المنحرف والدوائر .

(٢) أحجام المواد الصلبة التى تحتويها مكاييل القمح وغيره على اختلاف أشكالها . كذلك أنشأ المصريون أهرا ماذوات انحدارات معينة قدروها بواسطة عمليات حسابية مبينة على نسبة خاصة هى نسبة نصف ضلع القاعدة الى الارتفاع وهذا يعادل فى الواقع ظل تمام زاوية الميل . ويتم استعمال المصريين هذه النسبة على وجود فكرة لديهم عن تشابه الأشكال ولا سيما المثلثات وكان المصريون يعرفون أيضا أن المثلث يكون قائم الزاوية اذا كانت النسبة بين أضلاعه الثلاث تساوى ٣ الى ٤ الى ٥ ويستخدمون هذه الحقيقة كطريقة لرسم الزوايا القائمة ولكن ليس لدينا ما يشير الى أنهم كانوا يعرفون الخاصة العامة للمثلث القائم الزاوية (راجع بند ٤٧ من الجزء الأول لاقليدس) التى تضم فى ثناياها الخاصة السابقة كحالة خصوصية . أو ما يشير الى أنهم أتوا ببرهان لأية نظرية عامة فى الهندسة .

لا شك فى أن طاليس كان يرى وهو بمصر أشكالا ترسم لتوضيح قواعد قياس الدوائر والأشكال المستوية الأخرى وأن رؤيته لهذه الأشكال كانت تبصره ببعض تشابهات وتطابقات هندسية تحمله على التفكير فيما اذا كانت هناك قواعد أولية عامة ينطوى عليها

انشاء تلك الأشكال المختلفة وأجزائها وعلاقتها بعضها ببعض وهذا أمر يتفق مع الغريزة اليونانية التي طبعت على التعميم ومع ما كان عند اليونان من رغبة في أن يصيروا قادرين على تفسير كل شيء على أساسات معقولة .

والنظريات الآتية منسوبة الى طاليس :

(١) الدائرة ينصفها القطر (انظر تعريف ١٧ بالجزء الأول من اقليدس)

(٢) زاويتا القاعدة في المثلث المتساوي الساقين متساويتان (اقليدس ١-٥) .

(٣) اذا تقاطع مستقيمان فالزاويتان المتقابلتان بالرأس متساويتان (اقليدس ١-١٥) .

(٤) اذا تساوى في مثلثين ضلع وزاويتان على التناظر تساوى المثلثان من جميع الوجوه (اقليدس ١٠-٢٦) .

(٥) يقال إنه كان أول من رسم مثلثا قائم الزاوية داخل دائرة وهذا يدل على أنه أول من استكشف أن الزاوية المرسومة على نصف الدائرة تكون قائمة (انظر ٣١ بالجزء الثالث من اقليدس) .

وهذه الأشياء الأولية تشير على بساطتها الى تطور جديد عظيم الأثر فأنها تمثل الخطوات الأولى في سبيل تكوين هندسة نظرية ولا شيء أبلغ في هذا الموضوع من أن ننقل بالحرف بعض ملاحظات وردت في مقدمة "كانت" الطبعة الثانية من كتابه "نقد للتفكير النظري" قال : لقد سارت الرياضه في طريق العلم المأمون من أقدم الأزمان التي يصل اليها تاريخ التفكير عند

الانسان على يد الاغريق ذلك الشعب العجيب . ولكن يجب ألا نظن أن العثور على هذا الطريق (السلطاني) أو بالأصح شقه كان ميسرا للرياضة تيسره للمنطق حيث لا يعنى التفكير الا بذات التفكير مجردا عما سواه بل انى أعتقد بالعكس أنه فى حالة الرياضة قد ظل الحال زمنا طويلا وهو لا يعدو أن يكون تلمسا وكان المصريون على وجه خاص لا يزالون فى تلك المرحلة كما أعتقد أن هذا التحول يجب أن يعزى الى ثورة سببها ذلك الالهام السعيد الذى حمل رجلا من الناس على أن يقوم باجراء تجربة ومنذ ذلك الحين صار طريق العلوم الذى يجب أن يسار فيه واضحا لا يضل عنه أحد وهكذا عثر على الطريق الأمين للعلوم واختط لجميع الأزمان ولمسافات لانهائية . نور تجلى على أول رجل وضع للناس خاصة المثلثات المتساوية الساقين (سواء سميته طاليس أو أى اسم آخر تريده) .
كذلك حل طاليس مسألتين عمليتين :

(١) فأبان كيفية قياس بعد السفينة فى البحر .

(٢) وأوجد ارتفاعات الأهرام بواسطة مقارنة أطوال ظلالها بظل عصا معلومة الطول فى برهة واحدة . وقال بعضهم انه اختار الوقت الذى يتساوى فيه طول العصا بطول ظلها ولكنه على أى حال كان يحتاج بتشابه المثلثات .

أما فى الفلك فقد تنبأ طاليس بكسوف شمسي ولعله كان الكسوف الذى حدث فى (٢٨ مايو سنة ٥٨٥ قبل الميلاد) ومعلوم أن البابليين بعد أن قاموا بأرصاد متوالية فى بحر عدة قرون استكشفوا أن الزمن الذى بعده تتكرر الانكسافات هو ٢٢٣ دورة قمرية فمن المحتمل القريب أن يكون طاليس قد سمع بهذا الزمن وبني عليه

نبوءته . وقيل أيضا انه استعان بالدب الأصغر في العثور على القطب وأنه استكشف اختلاف مدد الفصول الأربعة الفلكية وأنه كتب مؤلفات عن الاعتدال والانقلاب .

أتى الفيثاغوريون بعد طاليس ويقول عنهم ارسطاطاليس انهم نصبوا أنفسهم لدراسة الرياضة فكانوا أول من سار بها الى الأمام وذهبوا في الاجار من شأنها الى حد أن قالوا بأن القواعد التي تسير عليها الكائنات جميعها منطوية تحت القواعد الرياضية . أما عن فيثاغورس نفسه فقد روى لنا أنه كان يعلق أهمية عظمى على دراسة الحساب وتقدم بهذه الدراسة وخرج بها عن دائرة النفعية العملية وأنه أيضا حوّل دراسة الهندسة الى أن صيرها بمثابة تعليم عام واختبر قواعد هذا العلم من البداية .

والكلمة اليونانية نفسها التي تفيد " مواد التعليم " بوجه عام كان فيثاغورس أول من أطلقها على الرياضة .

وعندما نقول بأن علم الحساب بدأ بفيثاغورس يجب أن نفرق بين استخدام هذه الكلمة في ذلك الوقت واستخدامها في الوقت الحاضر فاليونان كانوا يفرقون بين لفظة (ارتماطيقى) ولفظة (اللاغياطيقى) وهي علم اجراء العمليات الحسابية . وهذه الكلمة الأخيرة هي التي يصح أن تنصرف الى علم الحساب كما نفهمه نحن . أما لفظة (ارتماطيقى) فكانت مقصورة على علم الأعداد قائمة بذاتها أو ما نعبر عنه نحن الآن بنظرية الأعداد ويمكن التعبير عن هذا الفرق بطريق آخر فنقول ان (الارتماطيقى) يبحث في الأعداد المطلقة أو الأعداد مجردة عن أى معنى آخر . أما (اللاغياطيقى) فيبحث في أشياء معدودة أو بعبارة أخرى في الأعداد المحسوسة بعد

تخصيصها . وعلى ذلك يشمل (اللغياطيقى) مسائل بسيطة عن عدد من التفاح أو عدد من القصع أو عدد من الأشياء بوجه عام كالتى توجد فى المختارات اليونانية وهى تحوى فى بعض الأحيان معادلات جبرية بسيطة .

فنظرية الأعداد اذا بدأها فيثاغورس حوالى (٥٧٢ - ٤٩٧ قبل الميلاد) وكانت تشتمل على تعريفى الوحدة والعدد وتقسيم الأنواع المختلفة من الأعداد وتعريفها كالفردى والزوجى والأولى والمركب والتقسيمات الفرعية لكل من هذه مثل الفردى - الزوجى والزوجى - مكرر الزوجى الخ . وهناك أيضا أعداد شكلية وهى الأعداد المثلثية والمربعة والمستطيلة والمضلعة "مضلعات خماسية وسداسية الخ" . وهذه الأعداد تقابل تلك الأشكال المستوية المناظرة لها . وهناك الأعداد الهرمية والمكعبية والمتوازية السطحية وما إليها التى تناظر المجسمات الهندسية . وكانت أغلب المباحث فى هذا الصدد هندسية تمثل الأعداد فيها نقط تملأ أشكالا هندسية على أنواع مختلفة وقد قررت القواعد التى تتكون تبعاً لها تلك الأعداد الشكلية المختلفة . وفى هذه المباحث لعب النومون دوراً مهماً وكان معنى هذا اللفظ فى الأصل الابرة القائمة فى الساعة الشمسية ثم استخدم للدلالة على شكل يشبه مربع النجار ثم أطلق اللفظ بعد ذلك على شكل يشبه الفأنت يوضع حول ضلعين من أضلاع المربع فيكون مربعاً آخر أكبر من الأول والاستعمال الحسابى لذلك اللفظ شبيه بهذا . فاذا مثلنا الوحدة بنقطة واحدة ووضعنا حول هذه النقطة ثلاث نقط بحيث تكون الأربع النقط معا أركان مربع فيكون العدد ٣ هو النومون الأول واذا وضعنا بعد ذلك خمس نقط على أبعاد متساوية حول ضلعين متجاورين من أضلاع المربع الذى يحوى

الأربع النقط الأصلية فانه يتكوّن منها جميعا المربع التالى (٣) ويكون العدد ٥ هو النومون الثانى وعلى العموم اذا كانت لدينا نقط عددها n مرتبة بحيث تملأ مربعا ضلعه n فالنومون الذى لا بد من وضعه حول هذا المربع لكى يتكوّن المربع التالى $(n + 1)$ يحتوى $(n + 2)$ من النقط . ولذلك عند تكوين المربعات تكون النومونات المتتابعة سلسلة من الأعداد الفردية التى تلى الواحد الصحيح أول مربع وهى ٣ ٥ ٦ ٧ وفى تكوين الأعداد المستطيلة الأعداد التى فى شكل $(n + 1)$ التى أولها 1×2 تكون نومونات المتتابعة الحدود التى تلى العدد ٢ فى متسلسلة الأعداد الزوجية ٢ ٤ ٦ ٨ أما الأعداد المثلثية فتكوّن بإضافة الحدود التى تلى الواحد الصحيح فى متسلسلة الأعداد الطبيعية ١ ٢ ٣ ٤ ٥ الى الواحد الصحيح (وهو أول مثلث) فالأعداد الطبيعية اذا (بالقياس) نومونات المثلثات . أما نومونات الخمسات فهى الحدود التى تلى الواحد فى المتوالية العددية ١ ٤ ٦ ٧ ١٠ ... التى أساسها ٣ أو $(5 - 2)$ وهكذا . فأساس متوالية النومونات المتتابعة لعدد ينتمى الى مضلع ألفى (أى تحتوى على ألف من الأضلاع) هو $(1 - 2)$.

ومن متسلسلة النومونات للمربعات نستطيع أن نستنبط بسهولة قانونا لايجاد الأعداد المربعة (المربعات الكاملة) التى يكون كل منها فى ذاته مجموع مربعين فانه لما كان النومون $n + 1$ هو الفرق بين مربعين متتاليين n و $(n + 1)$ فما علينا إلا أن نجعل $n + 2$ مربعا كاملا . ولنفرض أنها صارت m فتكون عندئذ $n = \frac{1}{4}(m^2 - 1)$ و $m + 1 = \frac{1}{4}(m^2 + 1)$ بفرض أن m أى عدد فردى وهذا هو القانون الذى ينسبونه بالفعل الى فيثاغورس .

وقيل ان فيثاغورس كشف نظرية المتناسبات أو التناسب وكانت هذه نظرية عددية ولذلك لا تنطبق الا على المقادير القابلة للقياس . ولا شك في أنها كانت على نمط ما ورد في الجزء السابع لافليدس وترتبط بنظرية التناسب هذه نظرية المتوسطات التي كان يعرف منها فيثاغورس ثلاثة هي : المتوسط الحسابي والمتوسط الهندسي والمتوسط الشبه العكسي (الذي سمي فيما بعد بالتوافقي) ونخص بالذكر ما روى من أن فيثاغورس نقل التناسب " التام الكمال " من بابل الى اليونان وهو :

$$١ : \frac{١+١}{٢} = \frac{١٢}{١٢+١} : ١٢$$

الذي حداه الثاني والثالث هما المتوسط الحسابي والمتوسط التوافقي على التناظر للعددين ١ و ١٢ وهاك حالة خاصة

$$١٢ : ٩ = ٨ : ٦ .$$

ولهذا علاقة بما قد يعد أعظم اكتشاف لفيثاغورس وهو أن الفترات الموسيقية مناظرة لنسب حسابية خاصة بين أطوال الوتر عند ما يكون مقدار الشد في الوتر واحدا فالجواب الموسيقي يقابل النسبة ٢ : ١ والخامس يقابل ٣ : ٢ والرابع ٤ : ٣ ولما كانت هذه هي نفس النسب التي بين العدد ١٢ والأعداد الثلاثة ٦ ٨ ٩ على التناظر فانا نستطيع أن نفهم الآن كيف تطورت التسمية وأطلق على الحد الثالث في ذلك التناسب السابق وهو العدد ٨ اسم الوسط التوافقي بين العددين ١٢ و ٦

وهذا الحساب الفيثاغوري بجملة مع ما طرأ عليه من تطور بعد عهد فيثاغورس وصل اليها معظمه من طريق كتاب نيقوماخس "مقدمة في الارثماطيق" وتعليقات اياميلخس على هذا الكتاب

$$m = \underbrace{1}_{1-u} + \dots + \underbrace{2}_{2-u} + \underbrace{1}_{1-u} + \underbrace{1}_{1-u}$$

$$I = S + S$$

$$J = J_1 + J_2$$

$$\frac{1}{1-u} = \frac{u}{1-u} + \frac{1}{1-u}$$

$$\frac{2 - (1 + u + \dots + u^{r-1} + u^r)}{2 - u} = \text{وجليها هوس}$$

ولأحد المجسمات المذكورة وهو ذو الاثنى عشر وجها ١٢
وجها كل منها مخمس منتظم وانشاء هذا الخمس المنتظم يتضمن تقسيم
مستقيم "بنسبة الطرف والوسط" (راجع ١١ بالجزء الثانى و ٣٠ بالجزء
السادس من كتاب اقليدس) وهى حالة خاصة من الطريقة المعروفة
"بتطبيق المساحات" وهذه طريقة بسطها فيثاغورس بتفصيل أوفى

وظهر أنها من أقوى الطرق وأفعالها في الهندسة اليونانية. وأبسط حالة لها مذكورة في ٤٤ ٤٥ ٤٦ بالجزء الأول من اقليدس وفيها يتبين كيف يتسنى لنا أن نرسم أو نطبق على الخط المستقيم باعتباره قاعدة "متوازي" أضلاع إحدى زواياه تساوي زاوية معلومة ومساحته تساوي مساحة شكل مستقيم الأضلاع معلوم وهذا الانشاء هو العملية الهندسية المناظرة لعملية القسمة الحسابية . والحالة العامة هي التي يتجاوز فيها متوازي الأضلاع هذا المستقيم ولو أنه مرسوم عليه أو يقصر عنه بحيث يكون الجزء الزائد أو الناقص من متوازي الأضلاع عن متوازي أضلاع آخر قاعدته المستقيم المعلوم بالضبط وزاويته وعرضه يساويان نظيريهما في المتوازي الأضلاع الأول بحيث يكون هذا الجزء الزائد أو الناقص مشابها لمتوازي أضلاع معلوم (راجع ٢٨ ٢٩ ٣٠ من الجزء السادس لاقليدس) . وهذه العملية السابقة هي المكافئ الهندسي للعملية الجبرية في حل أعم شكل لمعادلة الدرجة الثانية وهي $ax^2 + bx + c = 0$ $ax^2 + bx + c = 0$ بفرض أن الجذرين حقيقيان وقد بسط أيضا شرط توافر كون الجذرين حقيقيين (انظر ٣٧ من الجزء السادس) .

وعلى هذه الصورة صورة "تطبيق المساحات" حصل أبولونيوس على النخاسة الأساسية لكل من القطاعات المخروطية . ومن المصطلحات الفنية المستخدمة في تطبيق المساحات أخذ أبولونيوس كما سنرى فيما بعد الأسماء الثلاثة : القطع المكافئ والقطع الزائد والقطع الناقص التي كان هو أول من سمى بها هذه المنحنيات .

وهناك مسألة أخرى حلها الفيثاغوريون وهي كيفية رسم شكل مستقيم الأضلاع بحيث يساوي في المساحة شكلا معلوما مستقيم الأضلاع ويشابه شكلا آخر ويذكر بلوتارخ أن هناك شكلا فيا

إذا كانت هذه المسألة أو النظرية الواردة في ٤٧ بالجزء الأول من اقليدس هي التي ضحى فيثاغورس من أجلها بشور .

وأهم التطبيقات الخاصة التي عملت على نظرية مربع الوتر كالتي وردت في الجزء الثاني من اقليدس كلها فيثاغورية ومن هذه التطبيقات كيفية انشاء مربع يكافئ مستطيلا معلوما (راجع ١٤ بالجزء الثاني من اقليدس) وهي عملية تناظر حل معادلة الدرجة الثانية البحتة $x^2 = 1 \cdot x$.

وكان الفيثاغوريون على علم بخواص المتوازيات وقد برهنوا النظرية التي تنص على أن مجموع الزوايا الثلاث في أى مثلث يساوى قائمتين .

كانت نظرية التناسب الفيثاغورية كما رأينا عديدة ومن ثم لم تكن وافية بالحاجة لعدم انطباقها على المقادير غير القابلة للقياس وإنما نستطيع أن نقول بأن الهندسة الفيثاغورية مع تلك الصفة التي اتصفت بها شملت معظم مادة الأجزاء الأول والثاني والرابع والسادس من "المبادئ" تأليف "اقليدس" أما من جهة الجزء الثالث من المبادئ فحالته أقل جلاء ولكننا نرجح أن معظم النظريات التي وردت به كانت كذلك جزءا من الهندسة الفيثاغورية ونستنتج ذلك من أنها كانت معلومة لأبيقراط الطشيوزي في النصف الثاني من القرن الخامس بعد الميلاد .

وفي النهاية نقول ان الفيثاغوريين اكتشفوا وجود الكميات غير القابلة للقياس أو غير الجذرية في تلك الحالة الخاصة حالة قطر المربع اذا قيس بضلعه وقد ذكر أرسطاطاليس برهانا قديما لعدم امكان قياس نسبة القطر للضلع وذلك بطريقة (الاحالة الى المستحيل)

أو التفنيد فبين أنه لو كان هذا القياس ممكناً لنتج عنه أن يصير واحد من الأعداد فردياً وزوجياً في آن واحد. ولا شك في أن هذا البرهان كان فيثاغورياً .

ولا بد من أن نقول كلمة عن الفلك الفيثاغورى فقد كان فيثاغورس أول من قال بأن الأرض (وكذلك كل واحد من بقية الأجرام السماوية بغير شك) كروية الشكل وكان يعرف أن الشمس والقمر والسيارات لها حركات مستقلة خاصة بها وأن اتجاهات تلك الحركات مضادة لاتجاه الدورة اليومية ولكن الظاهر أن فيثاغورس اعتبر الأرض في الوسط على أن أتباعه في التفكير نبذوا هذا الرأي وهو مركزية الأرض (ويعزى هذا الابتكار تارة الى هكتس السيراقوزى وتارة الى فيلولالوس) واعتبروا الأرض كالشمس والقمر والسيارات الأخرى تدور كلها في دوائر حول "النار المركزية" التي هي موطن تلك القاعدة (أو القوة) المسيطرة على حركة الكون تسيره وتوجه حركته حيث شاءت .

الهندسة التي تكلمنا عنها للآن كلها واردة في "المبادئ" ولكن اليونانيين قبل أن يتم بناء هيكل "المبادئ" كانوا قد تقدموه فعن - حلول النصف الثاني من القرن الخامس كانوا قد بحثوا ثلاثة مسائل شهيرة في الهندسة العالية وهي : (١) تربيع الدائرة . (٢) تثليث الزاوية . (٣) مضاعفة المكعب والأسماء العظيمة التي ظهرت في ذلك العصر هي هيباس الأليوى وأيقراط الخيوسى ودمقريتس .

فالأول اخترع منحنيًا خاصًا يتكون بتركيب حركتين متظمتين (احدهما زاوية والأخرى في خط مستقيم) يتمان في زمن واحد وقد استخدم هيباس نفسه منحنيه هذا في تثليث أية زاوية

أو تقسيمها بأية نسبة ولكن استخدمها بعده كل من نيكوميديس ودينستراتوس أخو ميناخموس تلميذ يوركسوس لتربيع الدائرة ومن هذا الاستعمال علق بها الاسم (Quadratrix).

وقد ذكر أرسطاطاليس أبيقراط الطشيوزي كمثل يشهد بأن الرجل قد يكون عالما ممتازا في الهندسة وفي الوقت نفسه جاهلا غبيا في شئون الحياة العادية فقد كان أبيقراط يشغل مكانا رفيعا بالنسبة لما أتى به في الهندسة الأولية وكذلك لعلاقته بمسألتين من المسائل العالية التي أشرنا إليها فيما سبق . كان على ما نعرف أول جامع لكتاب المبادئ وهو أول من أثبت النظرية المهمة التي وردت في ٢ بالجزء الثاني عشر من أفليدس والتي تنص على أن النسبة بين مساحات الدوائر كالنسبة بين المربعات المنشأة على أقطارها ويستنتج منها كذلك أن النسبة بين القطاعات المتشابهة من الدوائر كالنسبة بين المربعات المنشأة على قواعدها وقد استخدم هذه النظريات في رسالته عن تربيع الأهلة الذي قصد به التدرج إلى تربيع الدائرة. والأجزاء المهمة في هذه الرسالة محفوظة في قطعة وردت ضمن تعليقات سمبليسيوس على كتاب أرسطاطاليس في "الطبيعة" الذي يحتوي مقتطفات من كتاب يوديمس المفقود عن "تاريخ الهندسة" وقد أوضح أبيقراط كيفية تربيع ثلاثة أهلة خاصة من أنواع مختلفة ثم ربع في نهاية الأمر حاصل جمع دائرة خاصة وهلال خاص ولسوء الحظ لم يكن هذا الهلال الأخير من النوع الذي يمكن تربيعه ولذلك أخفقت محاولة تربيع الدائرة بهذه الطريقة بعد كل ما كان .

عالج أبيقراط أيضا مسألة مضاعفة المكعب وهناك روايتان عن أصل هذه المسألة الشهيرة فحكى بعضهم أن شاعرا "تراجيدا" عجوزا صوّر مينوس كأنه لم يرقه حجم قبر مكعب بنى لولده جلوكس

فأمر المعمارى بمضاعفة حجم القبر مع الاحتفاظ بشكله المكعب
أما الزوايا الأخرى فهي أن الدالينيين أصابهم (وباء) واستخاروا
العراف فأنبأهم بأن السبيل لا يقاف هذا الوباء هو مضاعفة حجم
مذبح معبد معين . حقا ان أبيقراط لم يحل مسألة التضعيف ولكنه
أحالها الى مسألة أخرى وهي إيجاد وسطين متناسبين تناسباً
متسلسلاً بين مستقيمين معلومين . ومن ذلك الحين عالج الناس تلك
المسألة بهذا الشكل . فإذا كان $س = ٦$ $ص = ١$ هما الوسطان المتناسبان
المطلوبان بين المستقيمين أ و ب فإن $١ : س = س : ص = ص : ب$
ومن ذلك ينتج أن $\frac{١}{١} = \frac{٦}{٦}$ ومنها الحالة الخاصة التي يكون فيها
 $ب = ٢$ وعندئذ تكون $س = ٢$ ١ وعلى ذلك اذا وجدت قيمة
س تضاعف المكعب .

كتب ديمقريطس عددا عظيما من الكتب الرياضية لم يبق
الدهر على شيء منها غير العناوين ويستنتج من أحد هذه العناوين
وهو " عن الخطوط والمجسمات غير الجذرية " أنه كتب عن
المقادير غير الجذرية . وقد أدرك ديمقريطس تمام الإدراك مثل
زينو الصعوبة التي تصحب دراسة المقادير المستمرة والمقادير
المتناهية في الصغر وعبر عن ذلك بنفس القوة التي عبر بها زينو
وهذه الصعوبة تتجلى في حيرته بشأن القاعدة الدائرية للمخروط
وقطاعه الموازى لها والقطاع الذي يقصده هو القطاع القريب
من القاعدة قربا لانهائيا (كما يقول) أى القطاع الذي يصح
أن نصفه بأنه القطاع التالى مباشرة اذا كان هناك قطاع بهذه الصفة .
وتساءل ديمقريطس هل هذا القطاع مساو للقاعدة أم لا
فاذا كان مساويا لها كان المقطع الذي يليه مباشرة مساويا له
وكذلك الذى يلى هذا الخ ولو صح هذا لكان المخروط فى الحقيقة

أسطوانة لا مخروطا وإذا لم يكن ذلك المقطع مساويا للقاعدة بل كان أقل فإن سطح المخروط يكون مدرجا كالسلم وهذا قول سخيف . ولا شك في أن كتاب ديمقريطس عن "تماس الدائرة أو الكرة" يبحث في صعوبة مشابهة لهذه .

وأخيرا نذكر أن أرشميد يقول بأن ديمقريطس كان أول من قرر بأن حجم المخروط أو الهرم = ثلث حجم الأسطوانة أو المنشور على التناظر المرسوم على نفس القاعدة والذي له نفس الارتفاع . قرر ديمقريطس ذلك ولو أنه لم يستطع إيراد برهان دقيق لهذه النظريات التي كان يودكسس أول من برهنها .

وصلنا الآن الى عصر أفلاطون والأسماء العظيمة المتصلة به هي أسماء أرخياتاس وتيودور الكيريني وتيايطس ويودكسس .

وقد ألف أرخياتاس (حوالي عام ٤٣٠ - ٣٦٠ قبل الميلاد) في الموسيقى والنسب العددية التي تناظر فترات ذى الأوتار الأربعة ويقال انه أول من وضع كتابا مطولا في الميكانيكا مبنية على الأصول الرياضية ومن الناحية العملية ابتدع حمامة آلية تستطيع الطيران وفي الهندسة وضع أول حل لمسألة المتوسطين المتناسبين واستخدم في ذلك انشاء عجيبا ذا ثلاثة أبعاد أمكن بواسطته تعيين نقطة هي محل تقاطع ثلاثة سطوح وهي :

- (١) مخروط معين .
- (٢) نصف أسطوانة .
- (٣) وحلقة مرسى قطرها الداخلى صفر .

وتيودور معلم أفلاطون في الرياضة وسع نظرية المقادير غير الجذرية باثبات عدم امكان القياس في حالات خاصة معينة عدا حالة قطر المربع بالنسبة الى ضلعه وهي التي كانت معروفة من قبل

وقد أثبت أن ضلع المربع الذى يشتمل على ثلاثة أقدام مربعة أو خمسة أقدام مربعة أو أى عدد غير مربع من الأقدام المربعة لغاية ١٠٧ لا يمكن قياسه بالنسبة الى القدم وبعبارة أخرى أن $3\sqrt{2} \cdot 6\sqrt{2} \cdot 0.00172$ كلها لا يمكن قياسها وظاهر أن برهان تيودور لم يكن عاما بل لقد بقى لتياطيوس فضل تضمن كل المقادير غير الجذرية فى تعريف واحد وإثبات الخاصة إثباتا عاما كما ورد فى اقليدس جزء ١٠ - نظرية ٩

وكثير من محتويات بقية الجزء العاشر من اقليدس (التي تتناول المقادير غير الجذرية المركبة) وكذلك الجزء الثالث عشر الذى يبحث فى المجسمات المنتظمة الخمس كل ذلك يرجع الفضل فيه لتياطيوس الذى يقال أكثر من هذا أنه اكتشف اثنين من هذه المجسمات (ذا الثمانية أوجه وذا العشرين وجها) .

وقد لا يكون أفلاطون (من ٤٢٧ - ٣٤٧ قبل الميلاد) رياضيا مبتكرا ولكنه كان سببا فى تقدم فروع الرياضه عامة والهندسة بصفة خاصة تقدما عظيما بتحمسه لها وقد شجع طلاب مدرسته على التخصص فى الرياضه والفلك . فمثلا يقال : انه فى الفلك وضع لطلابه المجدين السؤال الآتى وهو : (ما هى الحركات المنتظمة المرتبة التى يمكن بفرضها تفسير الحركات الظاهرة للسيارات ؟) . ويوجد بعض تعاريف كتبت بخط أفلاطون نفسه ، مثال ذلك : تعريف الخط المستقيم بأنه ما يمكن لوسطه أن يشمل طرفيه وبعض إيضاحات رياضية ممتعة ولا سيما ما ورد فى القطعة الهندسية الثانية فى (مينو) (٨٦هـ ٨٧هـ) وينسب لأفلاطون نفسه القانون الآتى $(1 - u)^2 + (u^2)^2 = (1 + u)^2$ لايجاد عددين مربعين مجموعهما عدد مربع وكذلك وضع طريقة التحليل التى

يقال انه شرحها الى ليوداماس الثايرصى (وان كان التحليل الرياضى بلا شك مستعملا قبل ذلك بكثير) ويشك فى صحة ما ينسب لأفلاطون من حل مسألة الوسطين المتناسبين بوساطة اطار يشبه ما يستخدمه صانع الأحذية فى قياس قدم .

ويودكسوس (٤٠٨ - ٣٥٥ قبل الميلاد) عبقرى مبتكر لا يسبقه فى تاريخ موضوع بحثنا هذا أحد (الا أن يكون ارشميدس) كان له الفضل فى استكشافين على أعظم جانب من الخطر فى تقدم الهندسة الاغريقية :

(١) ان الاهتداء الى الكميات غير القابلة للقياس بعد ذلك قد جعل نظرية التناسب الفيثاغورية غير وافية بالحاجة كما مر بنا لأنها انما تصدق على المقادير التى يمكن قياسها دون غيرها . نعم ليس من شك أنه من الممكن فى أكثر الأحوال أن يستبدل بالبراهين القائمة على التناسب سواها ولكن كان فى هذا عناء وخرج ولقد غلب على الهندسة بوجه عام شىء من الخفاء أو بقى لذلك شىء من العار على الهندسة بوجه الاجمال على أن تلك الصعوبة ذلت تذليلا نهائيا باهتداء يودكسوس الى النظرية الكبرى للتناسب التى تنطبق على ما يقاس وما لا يقاس من الكميات على السواء وهى التى فصلت فى الكتاب الخامس لاقليدس . ويحق لبارو أن يقول عن هذه النظرية "انه ليس فى مجموع الأصول العامة ابتداء أدل على الذكاء وأمتن أساسا منها" وحجر الزاوية فى كيانها هو تعريف النسب المتساوية (اقليدس ٥ التعريف الخامس) ولم تنقص ثلاثة وعشرون قرنا من قيمته شيئا كما يتضح لك من أن فيرستراس يعيده لفظا لفظا وهو يعرف الأعداد المتساوية وهو يناظر الى حد يكاد يكون تطابقا الطريقة الحديثة التى بسطها ديدكند عن المقادير الصماء .

(٢) وقد اهتدى اكتشف يودكسوس الى طريقة الاستنفاد في قياس المساحات والمجسمات المنحنية وبفضلها مع ما أدخله عليها أرشميدس من التوسعات نالت الهندسة الاغريقية أكبر انتصاراتها . لقد قرر السفطائي أنتيفون وهو في معرض محاولة تربيع الدائرة أننا اذا أنشأنا فيها مضلعات منتظمة ثم ظللنا نضاعف عدد الأضلاع باستمرار وصلنا في وقت ما الى مضلع تنطبق أضلاعه على محيط الدائرة . ولما كان الرياضيون يحاذرون أن تقف في طريقهم محاجات زينو في المقادير المتناهية في الصغر وهو التي لا سبيل لهم بدفعها اعتاضوا عن تلك العبارة بعبارة أخرى وهي أنه بالاستمرار في انشاء المضلعات نستطيع أن نرسم مضلعا يقارب مساحة الدائرة الى درجة القرب التي نريدها . وقد استخدمت طريقة الاستنفاد هذه للاثبات بواسطة التفنيد (الاحالة الى المستحيل) الفكرة الذي دلت عليها في اقليدس (١٠ - ١) للبرهنة على أنه اذا طرح من كمية ما لا يقل عن نصفها ثم طرح من الباقي ما لا يقل عن نصفه وهكذا باستمرار أمكن الوصول الى باق أصغر من أى مقدار معين من النوع نفسه مهما صغر . وهذا أيضا يتوقف على فرض يعتبر واردا ضمن التعريف الرابع في الجزء الخامس من اقليدس ولكنه يعرف ببديهية أرشميدس وهي التي تقول بأنه اذا علم لدينا مقداران غير متساويين أمكن باضافة فاضلهما الى نفسه باستمرار مهما صغر أن يزيد على أى مقدار من النوع نفسه (مهما كبر) .

ونرى طريقة الاستنفاد هذه مستخدمة في اقليدس (١٢ - ١ الى ٢ ٦ ٣ الى ٧ والنتيجة ١٠ ١٦ ٦ - ١٨) وتبرهن نظريات ٣ - ٧ ونتائجها وكذلك نظرية ١٠ على أن حجم كل من الهرم والمخروط يعادل على التناظر ثلث حجم المنشور والاسطوانة

الذين يشتركان معهما في القاعدة أو الارتفاع . وقد ذكر أرشميدس بجلاء أن أول من أثبت تلك الحقائق هو يودكسوس .

واشتهر يودكسوس في علم الفلك بنظرية الكرات المتمركزة تلك النظرية الجميلة التي ابتدعها ليفسر الحركة الظاهرية للسيارات وبصفة خاصة النقط التي تبدو ثابتة فيها وما يظهر عليها من التراجع . والنظرية تصدق أيضا على الشمس والقمر وقد استخدم يودكسوس لكل منها ثلاث كرات وقد مثل حركة كل سيارة كأنها ناشئة من دوران أربع كرات متداخلة متحدة المركز مع الأرض وتتصل على الوجه الآتي : كل كرة من الكرات الداخلة تدور حول قطر ثبت طرفاه (القطبان) في الكرة التالية التي تحيط بها . فأما الكرة الخارجية فتمثل الدورة اليومية والثانية تمثل حركة على محيط الدائرة البروجية وقطبا الكرة الثالثة مثبتان في الكرة السابقة وقطبا الكرة الرابعة ويحلان السيارة مثبتة على خط استوائها قد ثبتا على الكرة الثالثة ورتب فرع الدوران واتجاهاته بحيث ترسم السيارة على الكرة الثانية منحنيًا يسمى حدود الحصان أو شكل حرف ثمانية باللغة الأفرنجية وهو يقع على طول الدائرة (البروجية) ويتناصف بها والترتيب بأجمعه يدل على ذكاء هندسي خارق .

وهو قليد بونتس (من نحو ٣٨٨ — ٣١٥ قبل الميلاد) وهو من تلاميذ أفلاطون خطا خطوة واسعة في تقدم الفلك باظهاره أن الأرض تدور حول محورها مرة في كل ٢٤ ساعة وبما كشفه من أن عطارد والزهرة يدوران حول الشمس كتتابع لها .

ومناحموس أحد تلاميذ يودكسوس هو الذي استكشف القطاعات المخروطية واستخدم اثنين منها وهما القطع المكافئ والقطع الزائد لحل مسألة الوسطين المتناسبين اذا كانت ١ : ٢ : ٣

= س : ص = ص : ب كانت $س^2 = ١ ص ٦ ص$
 = ب س ٦ س ص = ١ ب وهذه المعادلات يمكن أن تمثل
 في الأحداثيات الكرتيزية والمحاور المستطيلة القطاعات التي بتقاطعها
 مشى أمكن مناخوس أن يحل المسألة أما في حالة القطع الزائد القائم
 فكان ما استخدمه في الحل خاصة الخط التقريبي .

وننتقل بعد ذلك لعهد اقليدس . قبل اقليدس بقليل كتب
 أوتوليقيوس البيطاني كتابين حول الكرة المتحركة وهو مؤلف يبحث
 في خواص الكرة لتستخدم في الفلك والثاني حول الشروق والغروب
 والكتاب الأول أقدم مؤلف يوناني مدرسي وصل الى أيدينا سليما
 ولقد كان بين يدي اقليدس حين كتب كتابه "الظواهر" وهناك
 كثير من مواضع الاتصال بين الكتابين واشتهر اقليدس (سنة ٣٠٠ قبل
 الميلاد) أو قبل ذلك بقليل وكتابيه العظيم المبادئ الذي يقع في ثلاثة
 عشر جزءا هو أشهر من أن يحتاج لوصف . وربما كان أكبر الكتب
 تأثيرا بعد الانجيل وسترجع اليه الأجيال المتصلة كلما ملوا تلك الكتب
 المنقولة التي وضعت لتحل محلها وسموا الاضطراب الناشئ من
 تعددها المربك وبعدها ما ذكرناه سابقا عن نمو كتاب "المبادئ" نستطيع
 أن نقدر ملاحظة بروطيس عن اقليدس حيث قال انه هو الذي حصر
 المبادئ كلها معا بجمع كثيرا من نظريات يودكسوس وكل كثيرا
 من نظريات تياطييطوس وأوضح بجلاء الأشياء التي لم يقيم عليها أسلافه
 الا أدلة مفككة ومع أن قسما كبيرا من مادته كان موضع ابحاث
 أسلافه أولئك فكل الدلائل تشير على أن الترتيب بأجمعه من عمل
 اقليدس نفسه ، ومن المحقق أنه أحدث تغييرا عظيما في ترتيب
 النظريات وفي براهينها وأن ظهور أثر ابتكاراته تجلى من بداية
 الكتاب الأول .

وقد كتب اقليدس كتباً أخرى في كلا الهندسة الأولى والعالية وفي موضوعات رياضية أخرى كانت تعرف في عصره وكتبه في الهندسة الأولى تشمل كتاب "الفروض" وكتاب "حول التقسيمات للأشكال" وقد بقي الأصل اليوناني للكتاب الأول أما الثاني فلا توجد منه إلا صورة عربية وكذلك كتاب "اليسوداريا" وهو الآن مفقود وكان من قبيل الكتب التي ترشد إلى المغالطات في البراهين الهندسية . أما الرسائل التي كتبها في الهندسة العالية فقد فقدت جميعها وهي تشمل القطاعات المخروطية في أربعة أجزاء وقد تناولت ما تناوله كتاب أبولنيوس في القطاعات المخروطية في أجزائه الثلاثة الأولى تقريباً وإن كانت القطاعات في نظر اقليدس كما كانت في نظر أسلافه قطاعات مخاريط قائمة الزاوية ومنفرجتها وحادثتها على التناظر ينشأ من قطعها بمستو عمودي على مولد في كل حالة .

(٢) وله كتاب "المنشورات" في ثلاثة أجزاء ويستدل على أهميته وصعوبته من بيان وصف بابوس له ومن الفروض التي يوردها لتستعمل معه .

(٣) المحال الهندسية السطحية وهي كذلك قد أضاف إليها بعض فكر بابوس أحداها تشير إلى أن اقليدس قد افترض معرفة خاصة الدليل والبورة للمخاريط الثلاثة وهي ما لم يرد لها ذكر في مخروطات أبولنيوس .

وكتب اقليدس في الرياضة التطبيقية :

(١) كتاب "الظواهر" .

وهو كتاب في الفلك الكروي وتبدو فيه كلمة الأفق لأول مرة بمعناها المعروف .

(٢) كتاب البصريات وهو رسالة أقلية في فن المنظور وكلا الكتابين قد بقي أصله اليوناني .

(٣) كتاب في مبادئ الموسيقى . أما كتاب سكتيوكانونيس المعروف باسم اقليدس فيصعب أن ينسب اليه وهو في صورته الحالية .

وفي الفترة التي تقع بين اقليدس وأرشميدس يجيء أرسطارخوس الصاموسي (٣١٠ - ٢٣٠ قبل الميلاد تقريبا) وله الفضل في أن سبق الى التنبؤ بما اهتدى اليه كوبرنيق . ولقد أخذ بما ارتآه هراقليدس من أن الأرض تدور حول محورها وذهب أبعد من ذلك وافترض أن الشمس هي الساكنة وأن الأرض والمشتري والزهرة والسيارات الأخرى تدور حول الشمس في أفلاك دائرية . وإنا نقرر ذلك اعتمادا على سند أرشميدس الذي صح فتمد جاء بعده بخمس وعشرين سنة فتمط ولا بد أن يكون قد رأى الكتاب وفيه هذا الافتراض الذي أشرنا اليه وقد نبئنا أيضا أن كليا نديس الرواقى كان يرى ضرورة محاكمة أرسطارخوس بتهمة الكفر لجعله قلب العالم في حركة .

ولأرسطارخوس كتاب واحد باق باليونانية وهو حول حجم كل من الشمس والقمر وبعدهما وهو كتاب ممتع في ذاته وأن يكن غير مشتمل على كلمة واحدة . عن افتراض الدوران حول الشمس وهو كتاب كلاسيكى في شكله وأسلوبه ولذلك فهو يورد افتراضات معينة ثم يستنبط منها طبق قواعد الهندسة الدقيقة حجمي الشمس والقمر وبعديهما . ولو صحت افتراضاته لصحت النتائج أيضا ولكن أرسطارخوس في الواقع قد افترض أن زاوية معينة ٨٧° بينما هي

في الحقيقة ٥٠ ٦ ٨٩° وافترض أن الزاوية التي تحدث بتوصيل طرفي قطري الشمس أو القمر عند مركز الأرض تساوي ٢° بينما قد علمنا عن أرشميدس أن أرستارخوس نفسه استكشف أن الزاوية الأخيرة تبلغ $\frac{1}{3}$ فقط وكان من أثر هندسة أرستارخوس أن وجدنا نهايات حسابية لمقادير هي في الواقع نسب من نسب حساب المثلثات لزوايا صغيرة معينة وهي :

$$\frac{1}{18} < \text{ح} < \frac{1}{6} < \frac{1}{5} < \text{ح} < \frac{1}{8} < \text{ج} < \frac{1}{9} < \frac{1}{10}.$$

والنتائج الأساسية التي يحصل عليها من ذلك هي :

(١) أن قطر الشمس يعادل بين ١٨ ٦ ٢٠ ضعفا بالنسبة لقطر القمر .

(٢) أن قطر القمر بين $\frac{2}{5}$ ٦ $\frac{1}{3}$ من المسافة التي يبعدها مركز القمر عن أعيننا .

(٣) أن قطر الشمس يقع بين $\frac{19}{3}$ ٦ $\frac{43}{6}$ من قطر الأرض ، ويشتمل الكتاب على قدر كبير من العمليات الحسابية .

ولد أرشميدس حوالي (٢٨٧ قبل الميلاد) وقتل في حصار سراقوزة بجيش مارسيلوس (في سنة ٢١٢ قبل الميلاد) والروايات عنه شائعة معروفة جيدا ومن ذلك قوله : "أعطني مكانا أقف عليه وأنا أحرك الأرض" وكيف انه بعد أن فكر في مسألة التاج وهو في الحمام نخرج عريان الى بيته وهو يصيح "يوريكايوريكا" أي لقد وجدتها وكيف أنه أثناء الاستيلاء على سراقوزة كان غارقا في شكل رسمه على الأرض فقال لجندى روماني قدم عليه : "أبعد أيها القادم عن شكلي والقليل من الناس من يعلم عن عمله أكثر من أنه اخترع بارما لايزال يستعمل في ضخ الماء وأنه لبث زمنا يحبط هجوم الرومانيين

على سيراقوزه بالابتكارات الميكانيكية والمحركات التي كان يستخدمها ضدهم ولكنه كان قليل الاعتداء بتلك الأشياء فأما اهتمامه الحقيقي فكان بالتأملات الرياضية ولقد طلب أن ينقش على قبره صورة تمثل أسطوانة تحيط بكرة بنسبة $\frac{3}{4}$ وهي نسبة الأسطوانة الى الكرة ومن ذلك نستنتج أنه كان يعد ذلك أعظم استكشافاته . وكانت كل أعمال أرشميدس مبتكرة وهي أمثلة حقة للبسط الرياضي تبلغ الكمال ويتضح المدى الفسيح الذي تناولته موضوعاته من قائمة الكتب التي سلمت من العدم وهي "حول الكرة والأسطوانة الجزئين الأول والثاني" و "قياس الدائرة" و "حول المخروطات والكرات الصغيرة" .

"وحول الأشكال الخلزونية" و "حول التوازن في مستو واحد" الجزئين الأول والثاني و "الحاسب الرمل" و "تقسيم القطع المكافئ الى أربعة أرباع" و "حول الأجسام الطافية" الجزئين الأول والثاني وآخرها كتاب "الطريقة" الذي لم يستكشف الا سنة ١٩٠٦ وتنسب اليه كذلك "مسألة المواشي" الصعبة كتاب الفروض الذي وصل الينا عن طريق اللغة العربية على أنه في صورته الحالية لا يمكن أن يكون من وضع أرشميدس ولو أن بعض ماورد فيه من نظريات يحتمل كثيرا أن يكون منشؤها أرشميدس (وأشهرها تلك التي تتصل بال "Salinon" أو خزانة الملح ونظريات أخرى عن الدوائر المرسومة داخل ما يسمى سكيئة صانع الأحذية) .

ومن الكتب التي فتمدت الكاتو بسريكا و "حول عمل الكرة" وتحقيقات بشأن متعددات السطوح يحتوي ١٣ جسما شبه منتظمة عزى بابس استكشافها الى أرشميدس .

وكانت كتب أرشميدس الهندسية اذا تكلمنا بوجه عام مقصود بها قياس السطوح والأحجام المنحنية وقد استخدم فيها طريقة هي تطور في طريقة الاستنفاد ليودكسس والظاهر أن يودكسس كان يقترب من الشكل المراد قياسه من أسفله أى بواسطة أشكال ترسم داخله تباعا أما أرشميدس فكان يقترب منه من ناحيته فيرسم الأشكال تباعا بعضها داخله والأخرى تحيط به من الخارج وبذلك استطاع أن يضغطها اذا صح هذا التعبير حتى تنطبق على الشكل المراد قياسه الى أى درجة مرغوبة من الدقة فكانت عملياته في كثير من الأحوال تظهر بمثابة تكامل حقيقى عند ما نبسط ما يعادلها في الوضع التحليلي وهذا هو الحال في دراسته لمساحات القطاعات المكافئة والحلزونية وسطح الكرة وحجمها وأحجام أى قطاع في المخروطيات والكرويات .

وكتاب "الطريقة" الذى كشف حديثا له أهمية خاصة لأنه يبين كيف حصل أرشميدس فى أول الأمر على نتائجه وقد كان هذا بطريقة ميكانيكية تم عن ذكاء بها يوازن (نظريا) بين عناصر الشكل المراد قياسه المتناهية فى الصغر وعناصر شكل آخر معلوم مساحته أو حجمه (حسب ما تقتضيه الحال) فهى بمثابة اتقاء لعملية التكامل ومع ذلك فما كان يعترف أرشميدس للطريقة الميكانيكية إلا بأنها تنفع للوصول الى النتائج وما كان يقول بأنها أثبتت حتى يقوم الدليل عليها هندسيا ففى "قياس الدائرة" بعد أن يرهن أرشميدس بطريق الاستنفاد على أن مساحة الدائرة تساوى مساحة مثلث قائم الزاوية ضلعاها المتعامدان يساويان نصف قطر الدائرة ومحيطها على التناظر وصل أرشميدس بمجرد العمليات الحسابية الى إيجاد النهايتين العظمى والصغرى للنسبة بين محيط الدائرة

وقطرها (التي نسميها ط) وقد فعل ذلك برسم مضلعات منتظمة ذات ٩٦ ضلع في الدائرة وحولها واستخرج حسابيا محيطاتها المتناظرة بوجه التقريب فبدأ بافتراض معلومية قيم تقريبية خاصة للمقدار $\sqrt{3}$ وهي $\frac{1351}{78} < \sqrt{3} < \frac{265}{153}$ وتتضمن حساباته التقريبية الى الجذور التربيعية لأعداد كبيرة عديدة (الى سبعة أرقام) والكتاب لا يورد الا النتائج ولكن من البديهي أنه لم تعترضه أية صعوبة في أن استخراج الجذور التربيعية على الرغم مما كان لطريقة التعبير عن الأعداد بالطريقة الهجائية من عدم الملائمة اذا قيس لغيرها. والنتيجة التي وصل اليها مشهورة وهي $\sqrt{3} < ط < \sqrt{3} \frac{1}{11}$.

و"الاتزان المستوية" أول كتاب علمي وضع في القواعد الأساسية للميكانيكا حسب ما تقرره الهندسة البحتة وأهم نتيجة وردت في الجزء الأول هي قاعدة الرافعة وكان يعرفها أفلاطون وارسطاطليس ولكنه لم يكن لديهما برهان حقيقى عليها فالميكانيكا الارسطية تقتصر على ارجاع الرافعة الى موضوع الدائرة فتنص على أن القوة التي تؤثر على مسافة من نقطة الارتكاز أبعد من غيرها تحرك المجموعة بسهولة أكبر لأنها ترسم دائرة أكبر وقد أوجد أرشيميدس كذلك مركز ثقل متوازي الأضلاع والمثلث وشبه المنحرف وأخيرا (في الجزء الثاني) عين مركز ثقل القطاع المكافئ وكذلك الجزء منه الذي ينحسر عنه خط مستقيم موازى للقاعدة.

أما "الحاسب الرملى" فيمتاز باختوائه على طريقة للتعبير عن الأعداد الكبيرة بالرتب والأدوار مؤسسة على قوى بالآلاف المؤلفة (١٠٠٠٠) وكذلك يحتوى على الاشارة المهمة لنظرية تمرکز الشمس

في وسط الكون التي أتى بها أرسطارخوس الصاموسي في كتاب
عن (الفروض) وعلى التفاصيل التاريخية للمحاولات التي تقدمته
في سبيل قياس حجم الأرض وتعيين أحجام وأبعاد الشمس والقمر.

وآخر ما نذكره عن أرشميدس أنه اخترع كل علم الايدروستاتيكا
ففي كتابه عن الأجسام الطافية يبدأ بفرض عن الضغط المنتظم
في السائل ويبرهن لأول مرة على أن سطح السائل عندما يكون
ساكنا هو كرة مركزها عند مركز الأرض . وتبين نظريات أخرى
أنه إذا طغا جسم صلب في سائل فإن وزن الجسم يساوي وزن
السائل المزاح وإذا وزن جسم صلب في سائل أخف منه فإنه يزن
أقل من وزنه الحقيقي بمقدار وزن السائل المزاح ثم يأتي بفرض
آخر وهو أن الأجسام التي يدفعها السائل الى أعلى يكون دفعها
في اتجاه الأعمدة على السطح التي تمر بمركز ثقلها . وبعد أن
يفترض ذلك يناول أرشميدس موضع السكون وثباته لقطاع
من كرة عائمة في السائل بحيث تكون قاعدتها بأجمعها فوق السطح
أو كلها تحته والجزء الثاني (تنقل عجيب للقوة) يبحث بتوسع كل
مواضع السكون والثبات لمقطع قائم في جسم ناشئ عن دوران
القطع المكافئ عائم في سائل تبعاً لما يأتي :

- (١) علاقة محور الجسم بالمقياس المعين للقطع المكافئ الذي يولده .
- (٢) الثقل النوعي للجسم بالنسبة للسائل ولفظة (الثقل النوعي)
وإن لم توجد في البحث بنصها إلا أن فكرتها قد وضحت تماماً بعبارة
أخرى .

وكان أراتستينس الكريخي معاصراً تقريباً لأرشميدس واليه
أهدى الأخير مؤلفه (الطريقة) ومن مقدمة هذا المؤلف نستنتج

أن أرشميدس كان يعتقد بأنه على مقدرة رياضية عالية وكان معاصروه يعترفون له حقيقة بأنه رجل متفوق يمتاز في جميع الفروع برغم كون الاسمين اللذين أطلقا عليه وهما بيتا و بنتاتلس^(١) يشيران الى أنه كان دون المرتبة الأولى مباشرة في كل مادة من المواد وقد عينه بطليموس يوريحيقي مؤدبا لابنه (فيلوپاتر) وصار أميناً للمكتبة في الاسكندرية وقد اعترف بدينه لبطليموس بأن أنشأ عموداً وكتب عليه عبارة وجيزة رقيقة أشار فيها الى الحلول السابقة لمسألة مضاعفة المكعب أو إيجاد الوسطين المتناسبين ودافع عن طريقته وفضلها لأنها تعطينا أى عدد من الأوساط وقد ثبت على العمود صورة من البرنز تمثل آلهة وهي إيطارفيه مثلثات قائمة الزاوية (أومستطيلات) قابلة للحركة بمحاذاة خطين أجوفين متوازيين وبعضها فوق بعض كما نقش معها برهان مركب. وبديهي أن كتاب ايراتستينيس (أفلاطونيكي) تناول الآراء الأساسية للرياضة من حيث علاقتها بفلسفة أفلاطون والظاهر أنه ابتداء بقصة أصل مسألة التضعيف وأشهر عمل قام به (ايراتستينيس) قياسه للأرض وكان أرشميدس قد روى قياساً قديماً قدر محيط الأرض فيه ٣٠٠٠٠٠ ستاد بفناء ايراتستينيس بتقدير أحسن من هذا فقد لاحظ أن وقت الظهيرة من يوم الانقلاب الصيفي لا يكون للأجسام عند سين (اسوان) ظل ما بينما يكون في تلك اللحظة في الاسكندرية للنومون القائم ظل يناظر زاوية بين النومون وأشعة الشمس قدرها ١/٥ من الأربعة القوائم ولما كانت المسافة بين تسين والاسكندرية معروفة بأنها ٥٠٠٠ ستاد فمحيط

(١) المعنى الأصلي لهذه الكلمة هو (أثليت) رياضي من جميع النواحي يفوز في كل الخمسة الأنواع من اللعب التي تألف منها الألعاب الرياضية وهي النط وقذف الأقراص والباري والمصارعة والملاكمة (أورمي المزارق) .

الكرة الأرضية يكون تبعا لذلك ٢٥٠,٠٠٠ ستاد والظاهر أن أراتسثينس لأمر ما غير هذا القول فيما بعد الى ٢٥٢,٠٠٠ ستاد وهذه تساوى ٧٨٥٠ ميلا حسب أقرب احتمال لما كان عليه طول الستاد وهذا العدد لا يقل عن القطر القطبي الحقيقي الابلنجسين ميلا .

وقيل ان أراتسثينس تناول بالبحث أمورا فلكية أخرى في كتابه "عن قياس الأرض" كالمسافة بين دائرتي الاستواء والقطب وجمعي الشمس والقمر وأبعادهما والكسوف والخسوف الكلي والجزئي الخ وعلاوة على الكتب الأخرى التي ألفها في الفلك وحساب الزمن فقد ألف أراتسثينس "الجغرافيكاً" في ثلاثة أجزاء بسط فيه لأول مرة تاريخ الجغرافيا الى أيامه ثم عرج على الرياضة الجغرافية بما في ذلك شكل الأرض الكروي وهلم جرا .

أطلق معاصرو أبولونيوس البرجي عليه بحق "الهندسى العظيم" مستندين في ذلك الى مؤلفه العظيم عن القطاعات المخروطية . ووصف بأنه من مشاهير الفلكيين في أيام بطليموس يوريجيت (٢٢٢ - ٢٤٧ قبل الميلاد) وقد أهدى الجزء الرابع وما تلاه من أجزاء "القطاعات المخروطية" الى الملك أتالس الأول البرجموى (١٩٧ - ٢٤١ قبل الميلاد) .

وكتاب "القطاعات المخروطية" كتاب هائل كان في الأصل ثمانية أجزاء وصلت اليها الأربعة الأولى منها باليونانية وثلاثة أخرى بالعربية وأما الثامن ففقد ومن مقدمة أبولونيوس نستطيع أن نحكم عن علاقة كتابه بكتاب اقليدس في نفس الموضوع ومحتويات الأخير قد تضمنها الأجزاء الثلاثة الأولى من كتاب أبولونيوس ومع أن اقليدس كان يعلم أن القطع الناقص يمكن

رسمه بطرق أخرى مثل قطع الأسطوانة القائمة بمقطع مائل فلا شك في أنه حصل على الثلاثة القطاعات المخروطية بواسطة المخروطات القائمة كما فعل أسلافه ولكن أبولونيوس يصل إليها بأعم الطرق وهي قطع المخروطات المائلة وكانت محاوره الأصلية على العموم مائلة ونعني بها قطرا ومماسا في نهايته وبالنسبة لهذه المحاور وجد أبولونيوس الخواص الأساسية بواسطة تطبيق المساحات وأنواعه الثلاثة : التطبيق والتطبيق بالزيادة والتطبيق بالنقص توصلنا الى خواص المنحنيات الثلاثة على التناظر والى سبب تسميتها بنفس الأسماء الثلاثة "القطع مكافئ" و "القطع الزائد" و "القطع الناقص" التي أطلقها عليها أبولونيوس لأول مرة ولا تظهر المحاور الأساسية الا بحالة خاصة بعد أن يقوم الدليل على أن المنحنيات اذا نسبت الى أى قطر آخر والمماس في نهايته يكون لها خواص مشابهة لتلك التي تستنتج بالنسبة للمحورين الذين ينبجآن عن طريقة الانشاء الأصلية. وتتألف من الأربعة الأجزاء الأولى ما يسميه أبولونيوس بالمقدمة الأولية والأجزاء الباقية مباحث تخصيصية وأهمها الجزء الخامس (عن الأعمدة) والسابع (ومعظمه عن الأقطار المترافقة) وقد بحثت الأعمدة لا عن طريق المماسات ولكن بصفاتها النهايات الصغرى أو الكبرى للمستقيمات التي تصل المنحنيات بنقط أو أنواع من النقط المختلفة . يبحث أبولونيوس المسائل التي من قبيل عدد الأعمدة التي يمكن رسمها من نقطة واحدة (حسب موضعها) وطريقة انشاء مثل هذه الأعمدة جميعها وتعيننا بعض نظريات على جانب عظيم من الصعوبة في استنتاج المعادلات الكرتيزية للمنحنيات الناشئة من الثلاثة القطاعات بسهولة .

ولأبولونيوس عدة مؤلفات أخرى يصفها بابس بأنها جزء من "خزانة التحليل" وقد ضاعت جميعها إلا كتاب "سكتيوراسيونيس" الذى يقع فى جزأين والذى رُصل إلينا باللغة العربية ونشر ترجمته باللاتينية هالى فى سنة ١٧٠٦ وهو يتناول كل الحالات الممكنة للمسألة العامة التى هى إذا علم خطان مستقيمان سواء أكانا متوازيين أم متقاطعين ونقطة ثانية على كل منهما فكيف ترسم مستقيما يمر بأية نقطة من النقط المعلومة ويحدد على كل من الخطين أجزاء (مقيسة من النقطتين الثابتين) النسبة بينهما تساوى نسبة معلومة ويبحث الكتاب المفقود "سكتيوسباتى" بطريقة مشابهة لهذه فى المسألة المشابهة لها التى لا بد للأجزاء المحددة فيها أن (تكون) مستطيلا معلوما والكتب الأخرى التى ذكرت فيما رواه بابس هى:

(١) عن المقطع المحدد .

(٢) اللس أو التماس والجزء الثالث مخصص كله للبحث فى مسألة رسم دائرة تمس ثلاثة دوائر معلومة يمكن تجديد حل أبولونيوس هذا بصورة مرضية إذا استعنا على ذلك بالنظريات المساعدة التى وضعها بابس .

(٣) المحال الهندسية المستوية أى المحال الهندسية التى تكون خطوطا مستقيمة أو دوائر .

(٤) الميول والمسألة العامة فيها هى كيفية مد خط مستقيم ذى طول معلوم بين خطين مستقيمين أو منحنيين بحيث يتجه نحو نقطة معلومة أى يمر بها إذا مد . وقد قصر أبولونيوس بحثه على الحالات التى يمكن حلها بطرق مستوية أى بمستقيمت ودوائر فقط .
وقيل ان أبولونيوس ألف كذلك .

(٥) مقارنة بين الجسم ذى الاثنى عشر وجها والجسم ذى العشرين وجها (المنشأين داخل كرة واحدة) برهن فيها على أن النسبة بين سطحيهما كالنسبة بين حجميهما .

(٦) عن اللولب الأسطوانى .

(٧) "رسالة عامة" تبحث على ما يظهر الفروض الأساسية وما اليها للهندسة الأولية .

(٨) كتابا عن المقادير غير المرتبة التى لا يمكن قياسها أى المقادير غير القابلة للقياس .

(٩) عن "المرايا المحرقة" الذى يبحث فى المرايا الكرية وربما بحث أيضا فى المرايا التى مقطعتها قطع مكافئ .

(١٠) الايصال السريع وفى هذا الكتاب الأخير ذكر أبولونيوس مقدارا تقريبا لقيمة ط أقرب من الذى ورد فى كتاب أرشميدس «قياس الدائرة» وربما احتوى الكتاب كذلك تفسيراً للعديّة التى وضعها أبولونيوس للأعداد الكبيرة حسب القوى المتعاقبة لعشرات الالاف .

أما الفلك فيروى أن أبولونيوس أجرى فيه أبحاثاً خاصة تتعلق بالقمر وأنه سُمى (إپسلن) لأن الشكل (اليونانى) لهذا الحرف متصل بالقمر . وكان كذلك أستاذاً فى نظرية الدوائر التى مركزها على محيط دائرة أكبر تتحرك هى حولها ونظرية المنحرفات عن المركز .

وقد وصلت الهندسة الاغريقية الى ذروتها فى عصر أرشميدس وأبولونيوس والواقع أن الهندسة كانت قد أتت على جميع كل مواردها تقريباً لولا التعبيرات والوسائل الأشد مرونة التى كانت يمدّها بها الجبر، ومع ذلك فقد مضت مدة ظل يظهر فيها علماء هندسة

قادرون حافظوا على التقاليد اليونانية واشتغلوا إما بتكميل التفاصيل أو بابتكار حلول جديدة للمسائل أو اكتشاف منحنيات جديدة يستفاد منها أو يبحث فيها .

كان نيكوميديس الذى يحتمل أن يكون قد ظهر فى الفترة التى بين أراتستينس وأبولونيوس هو مخترع الكونكبويد أو الكوكبويد الذى كان على ثلاثة أنواع مختلفة كما روى بابس . واشتهر ديوكليس (حوالى آخر القرن الثانى قبل الميلاد) بأنه كاشف السيسيد الذى كان يستخدم فى مضاعفة المكعب وألف أيضا كتابا عن المرايا المحرقة ربما تناول فيه بالبحث المرايا ذات السطوح التى مقطعها على شكل القطعين المكافئ والناقص مع غيرهما من أشكال المرايا واستخدم الخواص البورية لهذين القطاعين وفى هذا الكتاب أورد ديوكليس حلا مستقلا بارعا (بواسطة القطع الناقص والقطع الزائد القائم) لمسألة أرشميدس التى ترمى الى قطع الكرة بنسبة معلومة الى قطاعين ووضع ديونيسودورس بواسطة القطاعات المخروطية حلا للمعادلة المساعدة ذات الدرجة الثالثة التى أحال اليها أرشميدس مسألته هذه كما قدر ديونيسودورس حجم حلقة الرسو .

والمأثور عن برسيس أنه كاشف القطاعات الاسبريكية وباحثها وهى قطاعات خاصة أحد أنواعها حلقة الرسو . والحلزون يتولد من دوران دائرة حول مستقيم فى مستويها قد يكون خارجا عنها (وعندئذ يكون الجسم المتولد هو حلقة الرسو أو قديكون قاطعا للدائرة أو مماسا لها .

كان زنودوراس مؤلف كتاب عن الأشكال المتساوية القياس والمسألة التى تناولها فيه هى مقارنة محتويات مختلف الأشكال المستوية أو المجسمات التى تتساوى محيطاتها أو سطوحها على التناظر .

وكتب هيسكليس (في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد) الكتاب الذي عرف بالجزء الرابع عشر من "المبادئ" ويحتوى نظريات تكيلية عن المجسمات المنتظمة (بعضها مستخرج من ارستايوس وأبولونيوس) ، ويظهر أنه كتب أيضا عن الأعداد المضلعية والكتاب المتوسط في الفلك الذى يعزى اليه هو أول كتاب أغريق نجد فيه تقسيم دائرة البروج الى ٣٦٠ جزء أو درجة .

وكتب بوسيدونيس الرواقى (حوالى ١٣٥ - ٥١ قبل الميلاد) عن الجغرافيا والفلك تحت العنوانين : "عن الأقيانوس" و"المحيط" وقد حسب من جديد محيط الأرض وأخطأ فى حسابه فجعله ٢٤.٠٠٠ ستاد وعلى النقيض من ذلك قد افترض فروضا (بعضها تخيلى) فى قطعة (رسالة عن حجم الشمس) قائمة بذاتها (تفند الرأى الأبيقورى الذى يقول بأنها من الكبر بقدر ما تظهر لنا) قدر فيها القطر الشمسى ٣.٠٠٠.٠٠٠ ستاد (أى قدر قطر الأرض $\frac{1}{4}$ ٣٩ مرة) وهى نتيجة أقرب بكثير الى الحقيقة من تلك النتائج التى وصل اليها ارستارخوس وهيرخس وبطليموس وقد أورد بوسيدونيس فى الهندسة الأولية بعض تعاريف (أشهرها للمتوازيات مبنى على فكرة تساوى الأبعاد) .

وقد كتب (حوالى ٧٠ قبل الميلاد) أحد تلاميذ بوسيدونيس وهو جيمينوس الرودى كتابا كدائرة المعارف عن تبويب الرياضيات ومحتوياتها يتضمن تاريخ كل فرع من فروعها وقد صان منه يروكليس وغيره بعض مقتطفات جديدة بالذكر ونقل النيريزى (عربى من شراح اقليدس) محاولة أحدهم وهو أجانيس ولعله جيمينوس أن يبرهن على فرض التوازى .

ولكن الظاهر أنه منذ ذلك الحين زوت دراسة الهندسة العالية (ما عدا الكرية منها) حتى ظهر (عند نهاية القرن الثالث بعد الميلاد) ذلك الرياضى الذى يستحق الإعجاب وهو بابس فأحيى فى الناس الاهتمام بالموضوع وأنا لنستخلص من الطريقة التى ظن بابس فى كتابه العظيم "التجميع" أنه لا بد من اتباعها فوصف بشيء من التدقيق فى التفاصيل محتويات الكتب التاريخية التى تتصل "بكثر التحليل" أن كثيرا من هذه الكتب كان فى عهده قد ضاع أو غشيه النسيان وأن بابس لم يكن يرمى إلى أقل من تأسيس الهندسة من جديد واعادتها إلى مستواها القديم وما كان لأحد أن يفوقه فى حسن الاستعداد للقيام بهذه المهمة والغالب على الظن أن الاهتمام الذى استطاع بابس أن يثيره ضعف سريعا ولكن كتابه "التجميع" لا يزال أوسع المراجع وأثمنها بعد الكتب الأصلية التى وضعها عظماء الرياضيين وهو بمثابة كتاب مرجع أو دليل للهندسة اليونانية يكاد يشمل أو يحيط بجميع نواحي ذلك الميدان ومن الأشياء المبتكرة فى "التجميع" الذى ألفه بابس عبارة صاغها تعد بمثابة توقع للنظرية المعروفة بنظرية جولدن .

بقى أن نتكلم عن ثلاثة فروع وهى حساب المثلثات (الذى يمثلها هيروخس ومنيلاوس وبطليموس) وعلم تقدير السطوح (المساحة) (الذى يمثلها هيرون الاسكندرى) والجبر (ويمثله ديوفانتوس) .

ولو أن مبادئ حساب المثلثات ترجع من جهة إلى عهد أرشميدس (قياس الدائرة) إلا أن هيرخس هو أول شخص يمكن التدايل على أنه استخدم حساب المثلثات بنظام فهذا الرجل هو أعظم علماء الفلك الأقدمين والذى أجرى أرصاده بين ١٦١ و ١٢٦٦ قبل الميلاد . كشف تقدم الاعتدالين وقدر بالحساب

متوسط طول الشهر القمري ٢٩ يوما و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة و $\frac{1}{4}$ ثانية (وهو يختلف عن القيمة التي يؤخذ بها الآن بأقل من دقيقة) وأجرى تقديرات أصح من تقديرات من سبقه لجمي الشمس والقمر وبعديهما وأدخل تحسينات عظيمة في الآلات المستخدمة في الرصد وجمع مجموعة تحوى نحو ٨٥ نجما ويظهر أنه أول من عبر عن موضع هذه النجوم بدلالة خطوط الطول والعرض (بالنسبة لدائرة البروج) وقد ألف كتابا يقع في اثني عشر جزءا عن الأوتار في الدائرة يعدل جدولا للجيوب المثلثية واستخدم نظريات في حساب المثلثات الكرية لاستخراج الأقواس الفلكية بالحساب من أقواس أخرى معلومة بواسطة الجداول .

ليس في كتاب "الكرويات" الذى ألفه ثيوروسيوس البثني المكتوب حوالى سنة ٢٠ قبل الميلاد حساب مثلثات ولكن هذا يختلف عنه في "الكرويات" الذى ألفه منيلاوس الموجود باللغة العربية ويحتوى الجزء الأول من هذا الكتاب نظريات عن المثلثات الكرية تناظر النظريات الأساسية التى فى اقليدس عن المثلثات المستوية (كنظريات التطابق مثلا والنظرية التى تنص على أنه فى المثلث الكرى مجموع الثلاثة الزوايا أكبر من قائمتين) بينما يحتوى الجزء الثالث حساب مثلثات كرى حقيقى يتألف من نظرية منيلاوس بالنسبة للدكرة واستنتاجات منها .

وكتاب بطليموس العظيم "التكوين" الذى كتب حوالى ١٥٠ بعد الميلاد والذى كان يسمى فى الأصل "الماتيماتيقى سنتا كسس" صار يعرف بـ "المجالا سنتا كسس" وقد كثر العرب من صيغة المبالغة وهى لفظة كلمة المجسطى التى أصبحت تطلق عليه .

والجزء الأول الذى يحتوى المقدمات الضرورية لدراسة النظام البطليموسى فيه جدول للأوتار الدائرية التى تقابل زوايا رأسها فى المركز $= \frac{1}{4}^\circ$ وتترايد بقدر هذا النصف حتى تصل الى 180° وقد قسمت الدائرة الى 360 جزءا أو درجة والقطر الى 120 جزء وقد ذكرت الأوتار بدلالة الأخير وكسور "ستينية" (مثلا الوتر المقابل للزاوية $120^\circ = 103 \text{ ج } 53 \text{ د } 23$) وجدول الأوتار يعادل جدول جيوب أنصاف الزوايا التى فى الجدول لأنه اذا كان الوتر 2 يمثل الوتر المقابل للزاوية كان الوتر $\frac{2}{13}$ وقد بدأ بطليموس بذكر أقل عدد من النظريات الهندسية الضرورية لحساب الأوتار وأقل هذه تعطينا (وتر 36°) 6 (وتر 72°) من هندسة سومين داخل الدائرة والثانية (نظرية بطليموس عن المثلث المتساوى الأضلاع فى الدائرة) تعادل قانون حـا (ثيتا — فاى) والثالثة قانون حـا $(\frac{1}{4} \text{ ثيتا})$ ومن (وتر 72°) 6 (وتر 60°) 6 استنبط بطليموس باستخدام هذه النظريات على التوالى مقدار (وتر $\frac{1}{4}^\circ$) 6 (وتر $\frac{3}{4}^\circ$) ومن ذلك استنبط (وتر 1°) بطريقة تفسير تم عن ذكاء ولا ينقص لاتمام الجدول الا نظريته الرابعة التى تعادل قانون جتا (ثيتا + فاى) .

كتب بطليموس كتبا فلكية أقل أهمية من هذا معظمها لا يزال موجودا إما بالعربية أو اليونانية وكتابه عن البصريات يقع فى خمسة أجزاء (أربعة تكاد تكون كاملة وترجمت الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر) وكذلك كتب محاولة للبرهنة على فرض التوازى أعاده بركليس .

أما هيرن الاسكندري (ولا يعلم بيقين الزمن الذى عاش فيه وربما كان متأخرا الى وقت القرن الثالث بعد الميلاد) فقد كتب فى الموضوعات الرياضية والطبيعية كتابه على نسق دائرة المعارف وكان يقصد الى الفائدة المادية العملية لا الى الكمال النظرى ولذلك إذا ضربنا صفحا عن مجموعة التعاريف الممتعة التى وصلت الى أيدينا باسمه وعن انتقاداته على اقليدس التى لا تمثلها الا مقتطفات فى كتابات بركليس والنيريزى اذا استثنينا ذلك فان هندسته معظمها تقديرات للسطوح على شكل أمثلة عددية محلولة. ولما كانت هذه قابلة للتوسع بغير حد فقد كان فيها ما يغرى الناس بأن يضيفوا اليها وينشروها باسم هيرن .

وبقطع النظر عن مقدار ما هو مطابق للواقع من الكتب التى نشرها هلنش فلا بد لنا الآن من أن نعتبر المترىكا الأصلية التى كشفت فى القسطنطينية سنة ١٨٩٦ وطبعها ه . شون سنة ١٩٠٣ مرجعا أقوى فالجزء الأول من مقاييس المساحات له أهمية خاصة لما يأتى :
(١) لأنه يذكر القانون الذى استخدمه هيرن لايجاد قيم تقريدية للجذور الصماء .

(٢) للبرهان الهندسى الظريف على قانون مساحة المثلث وهو $\Delta = \frac{1}{2} (a+b+c) \cdot h$ (ع - ب) (ع - ج) (ع - ح) قانون معروف الآن بأنه يرجع الى أرشميدس .

(٣) اشارة الى نهايات قيمة ط التى أوجدها أرشميدس والتى هى أدق من المقادير $\frac{1}{7}$ و $\frac{1}{11}$ التى وردت فى كتاب "قياس الدائرة" .

والجزء الأول من المترىكا يحسب مساحات المثلثات والأشكال الرباعية والمضلعات المنتظمة لغاية المضلع ذى الاثنى عشر ضلعا (حتى أن مساحات المسبع والمتسع وذى الأحد عشر ضلعا نفسها مقدرة على وجه التقريب) والدائرة وقطاعها والقطع الناقص وقطاع القطع المكافئ وسطوح الأسطوانة والمخروط القائم والكرة وقطاعها، ويبحث الجزء الثانى فى قياس المجسمات : الأسطوانة والمنشورات والأهرامات والمخاريط وأجزائها (أى القطاعات الناقصة) والكرة وقطاعاتها وحلقة الرسر والمجسمات المنتظمة الخمسة وأخيرا المجسمين الخاصين الواردين فى طريقة أرشميدس وقد استخدمت فى ذلك بكثرة جميع نتائج أرشميدس والكتاب الثالث يبحث فى تقسيم الأشكال والجزء الخاص بالأشكال المستوية يشبه كثيرا فى أسلوب كتابته كتاب "التقسيم" (أى تقسيم الأشكال) لأقليدس والمجسمات التى قسمت بنسب معلومة هى الكرة والهرم والمخروط وجزؤه (أو المخروط الناقص) وقد بين هيرن عرضا كيف يحصل على تقريب للجذر التكعيبي لعدد (١٠٠) الذى ليس بالمكعب الكامل وقد حل هيرن المعادلات التربيعية (ذات الدرجة الثانية) بقاعدة منتظمة ليست بعيدة الشبه عن طريقتنا وتحوى "الحيومتريقا" على مسألتين هامتين غير محددتين .

كتب هيرن أيضا "النوماتيكا" وفيه يجد القارئ أمورا كالمصاصات ونافورة هيرن وآلات بنس فى الثقب ومضخة حريق وأرغون مائى وترتيبات عدة تستخدم فيها قوة البخار وعمل (المتحركات بذاتها) والبلوبيكا ويبحث فى الآلات الحربية و "الكاتوپتريكا" والميكانيكا وقد نشر "الميكانيكا" عن العربية وقد ضاع أصله اليونانى (الاقطعا قليلة) ويبحث عن معضلة عجلة ارسطو ومتوازي

أضلاع السرعة وتعريف مركز الثقل ومسائل عليه وتوزيع الأثقال على عدة حوامل والخمسة القوى الميكانيكية والميكانيكا في الحياة اليومية (أسئلة وأجوبة) ويتناول بابس في الجزء السابع من كتابه "التجميع" نفس المادة .

نأتى بعد ذلك على ذكر الجبر ونجد في ورقة البردى "الزند" مسائل تتضمن معادلات بسيطة وكذلك في "الأپاثيما" تأليف تيماريداس الذى سبقت الإشارة اليه وأيضا في المقطعات الحسابية في المختارات اليونانية (يشير أفلاطون الى هذا النوع من المسائل في القوانين ٨١٩ ب و ج وتلك المختارات تحتوى كذلك حالتين من حالات المعادلة غير المحددة من الدرجة الأولى وقد أورد الفيثاغوريون حولا عامة بأعداد مقيسة للمعادلات $ص^2 + ع^2 = ٢٦ س^2 - ص^2 = ١ \pm$ وهى معادلات غير محددة من الدرجة الثانية .

وكان أول من استخدم الرموز في الأعمال الجبرية بطريقة نظامية هو ديوفانتوس الاسكندرى (حوالى ٢٥٠ بعد الميلاد) فاستخدم :

(١) علامة للكمية المجهولة وسمّاها أرثموس صورة مختصرة لقواها حتى القوة السادسة واستخدم :

(٢) علامة أخرى (↑) تقابل علامة (-) التى نستعملها والعلامة الأخيرة ربما كانت اختصارا للأصل اليونانى لكلمة معناها ناقص وعلامة (~) هى فى الغالب اختصار للحرفين اليونانيين (ألفا و ر) وكانت الصورة المختصرة لقوى الكمية المجهولة يرمز لها بالرمز Δ للمربع و ك $\sim$ للمكعب وهكذا وبين ديوفانتوس أنه حل معادلات الدرجة الثانية بقانون كما فعل هيرن وكتابه (الأرتماطيقى) الذى لم يبق

منه سوى ستة أجزاء من ثلاثة عشر جزءا يحتوى على عدد من المسائل تؤول الى معادلات بسيطة ولكن أكثره قد خصص للتحليل الذى يتناول المقادير غير المحددة أو شبه المحددة ولا سيما ذات الدرجة الثانية والمجموعة متعددة النواحي بدرجة مدهشة والطرق التى اتبعت فيها تنم عن ذكاء كبير والمسائل المحلولة تشبه ما يأتى (ويسمح بالأجوبة الصحيحة والكسرية على حد سواء) :

بمعلومية عدد يراد ايجاد ثلاثة أعداد أخرى بحيث يكون مجموع الثلاثة أو أى اثنين منها مع العدد المعلوم مربعا كاملا والمطلوب ايجاد أربعة أعداد بحيث يكون مربع مجموعها زائدا أو ناقصا أى عدد منها مربعا كاملا والمطلوب ايجاد ثلاثة أعداد بحيث يكون حاصل ضرب أى اثنين منها زائدا أو ناقصا مجموع الأعداد الثلاثة مربعا كاملا وقد فرض ديوفانتوس أن القارئ يعلم نظريات معينة عن الأعداد التى تساوى مجموع مربعين أو ثلاثة مربعات على التناظر وخواص أخرى فى نظريات الأعداد وكتب أيضا كتابا فى الأعداد المضلعية لم يبق منه الا جزء صغير .

وبابس وديوفانتوس تختتم قائمة المؤلفين المبتكرين فى الرياضة وجاء بعدهم الشراح الذين لا يمكن ذكر أكثر من أسمائهم هنا ومنهم ثيون الاسكندرى ناشر كتاب اقليدس وقد عاش حوالى نهاية القرن الرابع بعد الميلاد وفى القرنين الخامس والسادس جاء بروكلوس وسنبليسيوس وأوتوسيوس الذين لا يمكن أن نجزيهم الجزاء الكافى على ما احتفظوا به من البقايا الغالية لكتبه هى الآن مفقودة ولا سيما تاريخ الهندسة وتاريخ الفلك ليودموس تلميذ ارسطو .

تلك هي قصة العلوم الرياضية الاغريقية واذا كان
ثمت ما يزيد في اعجازها فهو أن ندخل في الاعتبار قصر
الوقت (نحو ٣٥٠ سنة) الذي استطاع فيه الاغريقون
وقد تناولوا تلك العلوم من بدايتها الأولى أن يصلوا بالهندسة
الى درجة اجراء عمليات تعادل حساب التكامل وفي عالم الفلك أن
يسبقوا كوبرنيك فعلا الى آرائه .

العلوم الطبيعية

ارسطو

لحوته الشاعر الألماني الفيلسوف مقال صغير سماه الطبيعة هو في جملة ما كتب في العلوم الطبيعية فتناول فيها عقل الشاعر الفيلسوف التواق الى البحث في شتى الموضوعات من ضوء ولون وأبراق وأزهار وجمجمة وفقار يخيل للانسان أنه منشور شعري أو أنشودة شريفة مؤنقة تحت على النظر في الطبيعة وتزين درس أحوالها . وقد كتب أناكسيمندر الحكيم اليوناني قبل ذلك بخمسة وعشرين قرنا كتابا شارك المقال المذكور في العنوان وخالفه في الموضوع والكتاب صورة أخرى لمذاهب التكوين الشائعة . فذكر فيه كيف كانت الأرض في البدء خالية لا شكل لها . وأراد أن ينسب كل شيء في مؤلفه هذا الى القوة الأزلية التي لا تحد بزمان أو مكان تلك القوة التي وجدت قبل العوالم كلها والتي يصير اليها في النهاية كل شيء . والطبيعة لحوته هي الجمال أي جمال العالم بأنواعه خلا ما يتعلق بالأشياء الملموسة أما الفيلسوف الأكبر سنا فيرى فيها سرا لروح الخالق ولا شيء في عرف جوته أعلق بنفوسنا من الطبيعة فهي التي يتصدى لوصفها كثير من الشعراء ويقفون على آثارهم فيها من دونهم . أما فيما كتب اليونان فلا أذكر تشبيها بجمال الطبيعة وهياما بها شبيها بذلك ولكن التوايف اللاتينية أتت بالمعجب من القول في بدائع الطبيعة لذاتها على النسق الذي يروقنا ونستطيعه اليوم .

ولعل هذا السبيل هو أقرب السبل التي جعلت العالم الرومانى يظهر أقرب لنا من العالم اليونانى وهو لا يظن أقرب اليها فحسب بل هو فى الواقع كذلك فاننا اذا وازنا بين حضارة روما وغيرها من الحضارات السالفة ألفيناها عصرية وتنتمى الى حضارة الغرب على أننا مهما تقربنا بقلوبنا الى الحضارة اليونانية أنسنا منها تلك النعمة الشرقية وشممنا منها ذلك عبقا من الماضى القديم . فابن (توسكانيا) اليوم لا يختلف عن ابن روما بالأمس كلاهما فلاح كما كان كاتو ومحب للطبيعة مثل هوراس يذهب الى مزرعته أو كرمه مثل تيكوس أو بليني الصغير وكما أن (بيكون) تغنى بحاسن حديقته كذلك بليني تغنى بحاسن ضيعته . وما فيها من حقول الحنطة وخصيب السهول ومثمر الكروم والدوح الظليل وما تضمنت رياضها من أشجار الفاكهة وشجيرات الزهر وما فيها من خلايا النحل والزهور .

وقديما قال فاروقيل كوبر بزمى مديد : ان الريف من صنع الله ، أما الحضرة فمن صنع الانسان ، ولا تجد مثل هذه العبارة الماثورة فى كتب اليونان .

لقد قال شيلر : ان اليونانيين كانوا يتأملون الطبيعة بعقولهم لا بعواطفهم . فلم يرد لها عندهم أى ذكر يشعرونا صريح حبهما إياها وإعجابهم بها . وقال (همبولت) : ان تصوير الطبيعة لذاتها وفى مختلف مظاهرها كان بعيدا عن أفكار اليونانيين ويصرح أن المنظر الطبيعى يشغل الجزء الظهري من صورتهم بينما تشغل الجزء المهم منها شؤون الناس وأعمالهم وأفكارهم غير أنك تجد فى هذه الصورة كما هو الحال فى بعض الصور الايطالية القديمة لدومينيكينو

أو ألبانى أو ليوناردو نفسه أن الجزء غير المهم قد صوّر بدقة ويظهر لك رائعا جميلا وقد يؤدي بنا ذلك أحيانا في نهاية الأمر الى تقديره أكثر من باقى أجزاء الصورة .

ان منبت علومنا الطبيعية تجده متأصلا فى ثرى حينا للطبيعة سواء كان هذا الحب حسيا أو عقليا ومتغلغلا فى فن النظر والملاحظة وهو نتاجها وأول مدلولاتها وكل ما نما فوق ذلك فهو تراث للناس كافة ، على أنه قد يختلف ما يصيبه البعض عما يصيبه البعض الآخر كثرة وقلة ، ويتجلى هذا فيما وقع اليه مما خلف القانص وصائد السمك والراعى والفلاح والفنان والشاعر . فليست معارف القدماء فى التاريخ الطبيعى مقصورة على ما أدلى به ارسطو وبلىنى . بل تجدها متشعبة فى بطون الأسفار الأدبية القديمة .

ومهما أوردنا فى القول بشأن ذلك الصمت الذى استقبل به اليونانيون هذه المعارف فانها تحيينا بنبل فى كلام هوميروس وتشففنا بشعر (أنا كريون) ويوفى رعاة صقلية مزاميرهم تبعا لها فيما سطر نيوقراطس ثم ننقل الى أشعار فرجيل فنحلم بهذه المعارف بين صدح اليمام الباكى ودوى النحل المجد .

ولم يقتصر ما انتهى اليه فى علم تاريخ الطبيعة من كتبه ومناحيه على ما كتب عظماء كهؤلاء ، بل يجب علينا أن نتلمسه كذلك فى ثنيات التواليف الأدبية المختلفة فنضيف على ما خلف ارسطو وبلىنى من المؤلفات العلمية مستعنين بالشذرات الباقية مما كتب بعض الطبيعيين مثل (أسيبوس أو الاسكندر المنديانى) ونزيد على أقاصيص هيرودوت المعروفة حكايات (اكترياس) و(محسطينوس) الهندية ثم نجلس الى مائدة العشاء مع (اثنيوس)

فنتلقت أحاديث الطاهي ونصغى الى هذا الجمع المبتهج ومن فيه من هؤلاء الرجال الجذالين حين ينافسون في حلبة الشعر ويقصون القصص ثم نقرأ تواليف (أكسينوفون) في الصيد وندرس ما قرص من الشعر للتعليم مثل قصيدتي (سينجتيكا) و (هليوتيكا) لأوبيان وأوفيد وبعد ذلك لنا أن نخرج على عالم أدبي أكبر من هذا فيه الشاعر والأديب من كاتب الخرافات الوضع الى عظماء الروائيين ومن (هوميروس) في عظامته الى لوسيان في مضاء خاطره تجدهم جميعا على مشاركة في حب الطبيعة يجعلون حواشي أقاصيصهم الموفقة جذابة بالاشارة فيها من طرف خفي الى حيوان أو طائر ثم ان هذه الاشارات يتناولها الفنى أولا بالصقل ثم تصبح قدسية لكثرة ما تعيها الذاكرة فتبقى بعد ذلك كنزا في صدور الرجال وتنبؤا لها مكانا في أحسن كتبنا في الأدب .

خذ مثلا من ألف مثال تتوارد اليك وهو تلك القطعة المشهورة بالاليادة . ففيها تشبيه الجيش اليونانى حين نزوله في سهول سكماندر بأسراب مهاجرة من الكراكي أو الأوز أو البجع المشرب الأعناق تطير مختالة فوق مروج آسيا وتهبط صاحبة بازاء مجرى (كيستر) . وكم من مرة ردّد فرجيل صدى هذه السطور المألوفة . وصف هوميروس ثانية ما بلغ به أسباب السماء نفسها وأورد (هسيود) و (بندار) شيئا عن صخب الكراكي البعيد وهو يطرق السمع من فوق السحاب ، وهناك مثال قديم في أيام (هسيود) وهو أن الكراكي كان يراعى وقت قدومه بصيرا بالفصول يضربون المثل بمعرفة الكراكي لفصول السنة اذ كان ينذر بحلول الشتاء ويوعز الى الفلاح لاعداد نفسه للحرث .

وذكر (تيوقريطس) أن الكركى كان يتبع المحراث بلجاجة كما يتأثر الذئب الحمل أو كما يلزم فتي المزرعة حبيته وطالما افتنوا في وصف نظام الكراكي المهاجرة وتجمع صفوفها على شكل صفين محتشدة أثناء طيرانها وحسن تنسيق أسرابها المستريحة. وقد أبان أرسطو كيف أنها تختار دليلا لها يسهر على حراستها بالليل ويصبح بالبطئ المتأخر أثناء الطيران. وجمع (أوربيدس) ويعد أكثر كتاب المأساة تقربا من الطبيعة كل هذه القصة القديمة في أبيات من الشعر وهي :

يتحاشى سرب الطيور الليبائية عاصفة الشتاء نزولا على نداء قائدها الهرم الذى يصبح لقطيعه وأخيرا جمع ملتون في شعره ماذكر من هذه التلميحات الى الكراكي المهاجرة والكثير غيرها من القديم مغزى وشكلا :

ويخلق البعض بلا مبالاة فوق المنطقة والبعض الآخر وهو يشاركه في تنسيق صفوفه ويشق طريقه وهو على دراية بالفصول ويبدأ قافلته الهوائية طائرا فوق البحر والبر وترفرف لتقلل عن أنفسها عناء الطير على هذا النمط يقوم الكركى النابه بالقيادة .

وما نأخذه عن الشعراء من التاريخ الطبيعى بمثابة قصة لا آخر لها اذا ما قدرنا المعارف القديمة مهما يكن تقديرنا موجزا ، فهناك مسائل أخرى جديرة ، بالتأمل ووجهات أخرى للنظر ، يجب أن نقف عندها .

فاذا نحن تدبرنا العلوم اليونانية وأسرعنا الى التعلق بها وبدت لنا عظمتها تدريجا . ألفيناها كذلك محصورة مفيدة قياسا على علومنا يشوبها التحيز العجيب أو يطبعها التحديد . فلا وجود عندهم

للعلوم العملية النافعة كالكيمياء والميكانيكا والهندسة وكلها علوم طغت على الناس وغمرتهم في العصر الحديث . هي خافية بحيث تنسى فتمتز بها غير ملتفتين . أما الرياضيات فكانت عندهم في أوج فوق الجميع كما يليق بها . فتبوأَت عرشها قرنا من بعد قرن من دون منازع . من فيثاغورس الى (بروكليس) ومن نثير المدارس في عهد الحضارة الاغريقية المتقدمة الى عهد ازدهار جامعة الاسكندرية ثم ذبولها وكان بجانب الرياضة من قديم الزمن وايدها علم الفلك وكان كلاهما المحبوب الموموق عند أعظم فطاحل علماء اليونانيين . يجب ألا يتطرق إلينا الظن لحظة أن العلوم العملية والفنية كانت معدومة في مثل هذه الحضارة المركبة ذات الرخاء بالرغم من أننا لم نسمع بها ولم نقرأ عنها فالحزف وهو أنخر آثار العصور القديمة الباقية لا ينبئنا بمافيها من كيمياء على أننا نعلم أنها موجودة هنالك . قلب الطرف في بلد صيني وسر في شوارعه الضيقة المكتظة الحالية من اللجج حيث لا تسمع ضجيج العربات ولا فرقعة العجلات تخلص لك صورة هي أقرب شيء لما نسمع عن (سيبارس) فصناعة تلك الحرائر الزاهية والآنية الخزفية الرقيقة والمصنوعات المعدنية الدقيقة تطلبت الكثير من المعارف الكيميائية منقولة كانت أو تجريبية .

على مثل هذا كانت الحال بالضبط عند قدماء اليونانيين وقد عرف أفلاطون أن الأمر كذلك أي أن لكل من الصباغ والعطار والأقرباذني فنه الخفى وعلمه المستور الخاص به وهو مما لا يستهان به ولا يستصغر شأنه ولقد نعرهنا وهنالك على بحث مجد انتقل بصاحبه من الحدس الى اليقين أو تحليل صبغة أو سبيكة أو قطعة من نفايات المعدن ونهتدى في مدونات يرجع عهدها الى ما قبل

زمن الاغريق الى التركيب الكيميائى لما كانت تستعمله احدى
 الأميرات المصريات لتكحيل عينيها . أو نتأمل في صور ما كان
 يستعمله أتباع (طوبال كين) في صهر المعادن من موقد وفرن
 ومنفاخ وبوتقة . وفيما عدا : هذه المرة قلما أصاب الانسان في الأدب
 اليونانى شيئا من الكيمياء . فهناك نبذة غريبة صبغتها غير صحيحة
 وترجمتها مستعصية تضمنتها قصة (آرجونوت) ويذكر فيها كيف
 أن (ميديا) صنعت نحرها السحري فكانت تخلط بين أعشاب شتى
 لها عصارات ملونة مثل العصفور وحناء الغول والصابونية الخ.....
 لتكسب المخلوط قواما ثم تمزجه بالشب والزاج الأزرق (كبريتات
 النحاس) ثم تضيف اليه دما ولم يك هذا النحر السحري الا ضربا
 من الصبغ القرمزى لا أكثر ولا أقل ولكن صنعه يتطلب الكثير
 من المعلومات الكيميائية فأضيف النحاس للحصول على أملاح
 النحاس التى من نوع القلويات النباتية وهى من أبهى المواد
 الملونة وأثبتها والشب لتثبيت الألوان بل الدم لم يكن وجوده
 في المخلوط عن خرافة وانما لما عرف عنه من خاصية الترسيب
 وترويق المختمر (بواسطة زلاله المجمد) .

والرواية رفية للقصة التى وردت فيها تلك النبذة ربما ترجع الى
 العهد السكندرى وسواء أكانت العقاقير التى اتخذت منها النحر
 السحرية جاءت بالنص في السير القديمة أم اقتطفها الشاعر من
 العلوم الى أيامه فهذا مما لا يمكن القطع به وكيفما كانت الحال فان
 هذا التركيب قديم يسبق العهد البيزنطى بعدة قرون على الأقل وليس
 هذا بفريد في نوعه فقد جمعت نتف أخرى من الكيمياء القديمة
 تشبهه بعض الشبه . وفي الوسع أن نعثر على شتيت أطلال صرح
 الكيمياء القديمة في كتاب (جالينوس) الموسوم باسم تركيب الأدوية

النباتية وفيما كتب (بلىنى) و (بابلوص أغنيتا) وما ورد فى أوراق البردى المصرى (خصوصا الورقة المشهورة التى لا تزال باقية والتى وصفها (كليمان السكندرى) بأنها كتاب أسرار الكيمياء ومع ذلك بجميع هذه المعلومات ضئيل المكانة فى كتب الأدب فلا تكاد تذكر عند تقديرنا مواهب اليونانيين القدماء . ولسنا نستطيع أن نفترض أن الكيمياء القديمة أو أى شطر منها كان فى أى عصر ذا صبغة يونانية بحتة أو أن هذا العلم كان ملكا خاصا لأى أمة وفضلا عن ذلك فقد كانت حرفة تجارية أو مجموعة من الحرف تعد أسرارها من النفاسة بحيث لا يجدر افشاؤها وبذلك عاشت كالأحاجى والألغاز لا كالعلوم .

هكذا كانت حالة الكيمياء دائما وهى أعظم العلوم شيوعا بين الأمم وأكثرها اكتنافا بالأسرار ثم انبثت فى العالم وتسربت فى هدوء . فأبان عن شىء منها متعاطى صناعة الالتحام . فأخذ كبار صناع الفولاذ فى دمشق وطليطلة علمهم عن قبائل أفريقيا وهى أول من عالج صناعة الحديد .

ولم تكن تجارة الكيمياء علما جديرا بالرجل المهذب كما كانت الفلسفة والرياضيات فكان أفلاطون زعيم الفلاسفة من كبار المهذبين وبعد ذلك بزمن كبير أدلت (اكسفورد) الى روبرت بويل بمثل هذا رأى أى أن الكيمياء ليست بالمهنة التى تليق بالسادة ولكن روبرت بويل خالفها فى رأى وبذلك أصبح شقيق الأربل (كورك) أبا الكيمياء العلمية :

وانى أعتقد فيما يختص بعلم الحياة أن ارسطو قام بمثل ما قام به (بويل) متخطيا بذلك تقاليد مشابهة لتلك فكان هذا من أعظم

مآثره الجلييلة وقد وجد شيء كثير من معلومات التاريخ الطبيعى قبل عهده ولا يعزى هذا الا لمن اشتغلوا به من زارع وقانص وصائد ولا شك أنه وجد زيادة على ذلك شيء للطالب والحامل والشاعر فأوجد ارسطو من كل ذلك علما وأحله مكانا لا ئقا فى الفلسفة أى أن ارسطو عمل ما عمله (فيثاغورس) فى الرياضيات فى عهد سابق (كما ينبئنا بروكليس) اذ فصل الفلسفة التى تضمنها فن الهندسة التجريى القديم وجعله قاعدة تعليم فى التربية الحرة المطلقة .

كان الصائد على شواطئ البحر المتوسط لا يختلف عن الصائد الصينى أو الصائد اليابانى فيما لا يزال عنده ، كما كان شأنه دائما ، من المعلومات الجمة فى كل ما يتعلق بمهنته أو يلزمها . أما الصائد الاسكوتلندى فمفرداته محدودة ولا تكاد تتعدى أسماء أصناف السمك القليلة التى توجد فى السوق بخلاف الصائد على شواطئ مرسيليا وجنوه ومياه الشرق اذ عندهم أسماء مئات من أنواع السمك وذوات المحار والأصداف والأسماك المرجانية وأشتات السواجح والزواحف ولهم علم بكثير من عاداتها فى حياتها . لا بل قد تزيد معلوماتهم بها عنا معشر العالميين فى بعض الأحيان فهم من علماء التاريخ الطبيعى بحكم التقاليد والاتجار وبهذه المناسبة يجب ألا ننسى أيضا المعلومات الطبية والتشريحية القديمة لفريق الاسكولابيين ومعلومات القسس العريقة فى الخفاء وهى خاصة بكثير من المخلوقات كالسمك المقدس والحمام والدجاج والأفاعى وما اليها (شأنهم فى ذلك شأن اخوانهم قساوسة الصين واليابان اليوم) وهى التى ربوها وعنوا بها وقدسوها من قديم الزمن .

وليس من المستطاع التحقق مما استكشف ارسطو من جديد الحقائق وسواء أثبت أنه استكشف الكثير منها أم اتضح أنه لم يستكشف بنفسه شيئا البتة فلن يؤثر هذا شيئا في تقديرنا لعظمته وأعجابنا بعلمه فهو أول فلاسفة اليونانيين ومهذبيهم الذين أدركوا أن هذه الأشياء خليقة بالحفظ جديرة بتعليمها للناس. وهذا هو استكشافه العظيم الشأن .

ولقد بسطت في غير هذا المكان كيف قضى ارسطو سنتين ربما كانتا أسعد سني حياته عند ساحل البحر بجزيرة (متيلين) فكانتا كشهري عسل طويل وذلك عقب زواجه من الأميرة الصغيرة وقبل أن يبدأ بعمله الشاق في الحياة أى قبل أن يتولى تعليم الاسكندر في مقدونيا وقبل أن يخطب أبناء بلده والعالم في اليسيوم بزمين كبير . ففي تلك الجزيرة درس الجزء الأعظم من معلوماته في التاريخ الطبيعي التي يظهر فيها ، رغم توسعها ، من أولها الى آخرها ما للأحياء المائية من الأهمية الممتازة .

ولقد حاولت أن أشرح في غير هذا الموضوع كما حاول غيرى من الكتاب شيئا مما انطوت عليه معلومات ارسطو عن الحيوانات من التنوع وبعد الغور بضرب الأمثلة فكنت في عملي هذا كمن يغترف قليلا من الماء من بئر لا ينضب .

خذ مثلا مشهورا وهو : ”الحيوانات الرخوة“ تجد أحد شيئين إما أن معلومات ارسطو كانت نهاية في الدقة وإما أنها وصلت إلينا في حالة من الكمال غير مألوفة .

وهذه الحيوانات هي ذوات المداد وقد فارقها اسمها الذي سماها به ارسطو وهو ”الحيوانات الرخوة“ واندجت في مجموعة

كبيرة وجد أنها تشملها وتشمل الأصداف التي كان يسميها
 ارسطو استراكودرما وذوات المداد من المخلوقات التي يندر
 أن نراها ولكنها في البحر الأبيض المتوسط من مواد الأغذية
 ويعرف الصيادون منها أنواعا كثيرة جميعها أو كلها على التقريب
 كان معروفا لارسطو فقد وصف أشكالها وتوزيعها وعاداتها
 وكيفية نموها وذلك بدرجة من الدقة والأمانة يظهر لك معها
 أن كل ما يمكن أن نضيفه إليها اليوم ذو أهمية ثانوية . فانه
 بدأ بوصف منسق للشكل العام وتكلم عن الجسم والزعانف
 والثمانية الأذرع وما اصطف عليها من ماصات وأرؤسها النابية
 الوضع ثم بين لنا الرجلين الطويلتين في السيديا والكالومارى وعدم
 وجودهما في (الخطبوط) ثم أخبرنا بشيء لم يتحقق الا حديثا
 وهو أن الحيوان يتعلق في الصخور بواسطة هاتين الرجلين الطويلتين
 ويهتر كالسفينة بعد أن تلقى مرساتها في اليم . ووصف ارسطو أيضا
 العينين الواسعتين والسنين الكبيرتين اللتين هما بمثابة المنقار ثم شرح
 التركيب الكلي للأعضاء بمرئها المديد وحويصلتها المستديرة والمعدة
 والأعضاء الدقيقة اللولبية . ولم يقصر تشريحه على نوع واحد بل
 تناول أنواعا كثيرة مبينا من الاختلافات ما لم يلاحظه غيره حتى
 أتى (كوفيه) وشرحها ثانية ووصف أيضا (القمع) وعلاقته
 بالكيس الشبكي والكيس المدادى مبينا أن هذا الكيس في السيديا
 أكبر منه في سواها . وعلى ذكر ذلك نقول : ان ارسطو أخطأ في أمر
 ظاهر وقد اتضح في الواقع أن له العذرفيه . فقد ذكر لنا عن
 نوع الخطبوط دون سائر الأنواع أن القمع فيه في الجانب الأعلى
 ولكن الحقيقة أن الحيوان اذا تمدد ووجهه نحو الأرض وبسط
 أرجله جميعا فان القمع بالنسبة لطوله يبرز بين الأذرع والرأس

(بدلاً من أن يكون مفرطاً تحت جسم الحيوان الممدود) فيبدو إذاً على أحد جانبي الحيوان في موضع هو في الظاهر عكس موضعه الطبيعي : ووصف أيضاً طبيعة العظمة التي بداخل السبيا والقلم القرني الذي يحل محلها في أنواع الكالوماري المختلفة ولحظ عدم وجود تركيب مشابه لهذا في الاخطبوط وشرح الأجزاء التناسلية في الزوجين الذكر والأنثى فلم يفتنه شيء من أجزائها الرئيسية المعقدة ورسم كل ذلك في مجلد مفقود كان قد وضعه في الأشكال التشريحية وذكر صفة الأنواع المختلفة من البيض ثم كشف لنا عن معرفة أدعى إلى الدهشة مما سبق فبين لنا أجنة الحيوانات الرخوة الصغيرة وما يعلق برؤوسها النامية من أيكاس المح الكبيرة خلافاً لما هو حادث في صغار الدجاج على أن هناك أمراً آخر جديراً بالذكر كان أرسطو على علم به من أجيال قبل أن يعرف للمرة الثانية في عصرنا تقريباً وهو أن بعضاً من ذكور الحيوانات الرخوة إذا ما جاء وقت التناسل يغلظ أحد أذرعه بشكل غريب ويتحول إلى ما يشبه السوط المتقوّر ثم ينتقل إلى الحفرة الشبكية للأنثى في عمية التناسل ولم يعرف (كوفيه) شيئاً من طبيعة هذا الذراع المنفصل أو وظيفته . وإن لم أكن مخطئاً فإنه هو في الحقيقة الذي أخطأ فحسب هذه الذراع من الديدان الطفيلية أما أرسطو فقد أخبرنا بفائدته وغلظه الوقي ومفصلات تركيبه وينطبق وصفه على وصف أحدث الكتاب .

ويتلو ذلك وصف لا يقل عما سبق دقة للملاكوستراكا أو ذوات القشر والسرطانات والأربيانات والجراد البحري وغيرها من نوعها وقد خص كوفيه هذا الجزء بمقال مشهور . وهناك أنواع كثيرة من السرطانات وهي النوع العادي

والسرطانات الكبيرة المسنة وسرطانات الفرسان الصغيرة التي تعدو فوق الرمال وتجذ أغلبها خاويا أى أن تجاويها التنفسية كبيرة جدا وكذا سرطانات الماء العذب . وهناك الجراد البحرى الصغير والحيوانات ذات السنام الكبير وهى من الجراد وتوجد أيضا الكرانجونات والأربيانات الكبيرة ومثلها بما فيه من شوك وهو السلطعون أو اللانجوست ونقرأ عن أعينها الحبيبية التى تنزو فى كل الجهات وقرونها الكبيرة الحشنة والقرنين الواقعين بينهما وهما أصغر وأملس منها . وأنيابها الكبيرة أو عظام الفك وكذا الصدف وما به من منقار بارز والبطن ذات المفاصل ويوجد فى نهايتها الزعانف وعند أسفلها حواشى صغيرة تضع عليها الأنثى بويضاتها وقد وضعت هذه الأشياء بشئ من التفصيل وسردت هذه الأعضاء الكثيرة كل بمفرده نوعا بعد الآخر . ويمتاز وصف الأربيان واللانجوست بالدقة وقد أجريت المفاضلة بينهما باتقان محكم فى الأربيان — فضلا عن الاختلافات الأخرى بين الذكر والأنثى — يقال ان القدم الأولى (أو الساق) للأنثى ذات شعبتين بينما تجدها فى الذكر غير منقسمة وقد تبدو هذه المسألة تافهة على أنها حقيقية وقد بلغت هذه النقطة من الدقة أنى نقبت كثيرا قبل أن أعثر أخيرا على ذكر لها فى رسالة ألمانية . والأمر الذى يدعو الى الحيرة هو أن الساق الأخيرة هى التى لها هذه الصفات دون الأولى ولكن تعداد الأعضاء من الأمام الى الخلف ما هو الا اصطلاح خاص بنا فاننا عند فحص أعضاء الأربيان نلقيه على ظهره (كما كان يفعل ارسطو) فتبدولنا الأرجل بعضها فوق البعض وكل ساق خلفى فوق سابقه . فأقول ما نرى العضو الأخير خلفا وهو الذى يجب أن نرفعه أولا لفحص الآخرين.

ويعد وصف ارسطو للأسماء تاريخاً عظيماً للعادات والطعام والهجرة وطرق الصيد وأوقات البيض وطرقه وبعض تفاصيل تشريحية . وليس هذا بالمجال الذى نستطيع فيه أن نشرح علم الأسماء المدهش أو نوضحه فليس من السهل دائماً فهمه ولكن العقبة هى غالباً على ما اعتقد جهلنا فليس تعرف الأنواع دائماً سهلاً وفى هذا الموضع كما فى غيره لم يحسب ارسطو حساب زمان أو مكان تغدو فيه كلماته الاغريقية المألوفة غير معروفة أو ينسى الناس معانيها البسيطة ونجد الكثير من بين ذلك العدد العظيم من أسماء الأسماء يشير بطريقة ما الى الموليت الرمادى مما يحير الطبيعيين وواضحى القواميس وقد أخبرنى ضابط شاب يوماً أنه كان يراقب صيادا عربياً يفرغ سله وكان به موليت رمادى على أحد شواطئ سوريا فذكر العربى أربعة أسماء — ان لم تكن خمسة لأنواع مختلفة لم يستطع صديقى أن يجد بينها أى اختلاف ولو كان صديقى من العلماء بالأسماء لاحظ بلا ريب أن لأحدها جفونا دون الآخرين وأن أحدها له فرجونات صغيرة على شفثيه وأن نوعاً آخر يوجد تحت فكه شق صغير ولكنه مفتوح وآخر له بقعة صفراء على أغطية خياشيمه وهلم جرا . وطائفة الموليت يعسر فهمها على أنه من الجلى أن ارسطو كان كالصياد العربى على علم بما بينها من الفروق الدقيقة واستعمل الأسماء المناسبة . ثم يتكلم لنا ارسطو على نوع معين من الأسماء ذات العش . ولقد وقع كوثييه فى خطأ فيما يختص بهذا النوع (وقد جاريته فيه مرة) فلم يكن معروفاً فى عهد كوثييه سوى نوع واحد من السمك ذى العش يناسب فى الظاهر فترة ارسطو وهو الجوبى الأسود الصغير ولكن بعد زمن كوثييه عرف الطبيعئون طبائع

نوع "الراسات" من حيث بناء الأعشاش ولا شك أن هذه الطبائع كانت معروفة للصيادين ولأرسطو قبل ذلك بأجيال .

وكما هو الحال تقريبا في كل نقطة أخرى اتفق أن مررنا عليها . كذلك يمكننا أن نجعل هذه النقطة مبدأ لحكايات أخرى (وهنا يجد الشارح بهجة وافتانا من عمله) .

كان سبيوسيوس الذى خلف أرسطو في مجمع العلماء فيلسوفا وطبيعيا ولنا أن نفترض اذا راقنا ذلك أن لميله الى علم الحياة والى مجرى الآراء البيولوجية التى عظم شأنها شيئا فشيئا فى الفلسفة اليونانية فى ذلك العهد بعض العلاقة بتلك الروح الكبيرة التى استحشا أرسطو . ومهما يكن من الأمر فإن سبيوسيوس كتب كتابا اسمه "حول المشابهات" ولا بد أن هذا الكتاب الذى لم يبق لدينا منه سوى جمل قليلة متناثرة عجيب جدا ومما تلذ قراءته فقد ذكر ضمن حالات أخرى مشابهة أن سمكنا الصغير المسمى فيكيس يشبه كثيرا فى مظهره الخارجى السمك الأحمر وفى ذلك ما يكفى لإقامة المجمة على أن سمك أرسطو ذى العش كان من نوع "الجوبي" لا "الراس" ويظهر أن كل مضمون كتاب سبيوسيوس فى الكيفية وفى السبب الذى من أجله تشبه بعض الحيوانات البعض الآخر شيئا كبيرا رغم أنها من نوع يختلف تماما عن نوعها مع ما يبدو فى الطبيعة من اختلافات لا نهاية لها . وهذه مسألة لا تزال تحيرنا اذ ترى كيف أننا لا نندهش لحسب بل ونخضع بالشبه بين الزنبور والذباب الحائم وكذا بين ضرب من البزاة الصغيرة والوقوق وفى بعض الأحوال المتطرفة نطلق على هذه المسألة اسم "التقليد" ونستعين بالفروض لتعليل هذا التشابه "التقليدى"

والذين لا تروقهم هذه الفروض لا مندوحة لهم عن الالتجاء الى غيرها مما لا يقل عنها في بعد الغور ، وعلى الأقل فالتجاء الى سبيوس سيوس اهتدى الى مسألة حقيقية من مسائل علم الحياة لم تقتصر على ما بها من لذة لا تمل بل ولها أهمية جوهرية .

نعود الى ارسطو وأسماء كما لنلقى نظرة على نقطة أخرى صغيرة : ان تناسل ثعبان البحر لغز قديم لم يهتد الى فهم كنهه الا في وقتنا الحاضر فبينما تجد حوت سليمان مثلاً يصعد في النهر ليلد ثم ينحدر ثانية الى البحر ترى الثعبان يذهب الى المحيط لبيض ولا تعود الثعابين المسنة مرة أخرى بل تموت في مياه البحر ويتحول بيض الثعبان أولاً الى سميكات صغيرة مفرطحة شفافة تختلف في مظهرها اختلافاً كلياً عن الثعبان ثم تستحيل فيما بعد الى ثعابين صغيرة ويروي الأستاذ جراسي وكان له شأن كبير في ايضاح هذا الموضوع — أمراً غريباً هو أن صيادي صقيلية على علم تام بهذه الديدان الشفافة التي يسميها الطبيعيون الحديثون ليتوكوفالس فيعرفون أصلها جيداً ويطلقون عليها اسماً خاصاً (كاستولا) ويقول ارسطو في عبارة أظنها لم تفهم على حقيقتها (ويجب أن نسلم أن بها بعض الخطأ) أن ثعبان البحر ينتج مما سماه "γῆς ἔντερα" وهي كلمة اذا ترجمت حرفياً كان معناها أمعاء الأرض وهي التي ترجمها الشراح بديدان الأرض ولكنها في اللسان الصقلي "γῆς ἔντερα" تصير في الحال "γαῖεντρα" وبين كلمة "gasentera" والكلمة الصقلية الحديثة (Casentule) لا يوجد من الفروق قيد شعرة لذلك يجوز لنا أن نفترض أن ما رواه ارسطو على جانب عظيم من الصحة والدقة وأنه كان يعرف سميكات الثعبان الصغيرة بالرؤية وبالإسم ذلك الثعبان الذي يعد استكشافه من انتصارات البحوث العلمية الحديثة .

ان الصفحات الكثيرة التي كتبها ارسطو عن الأسماك تبعث في القارئ لذة وانشراحا فالمشرّح يعجب بمطالعة بعض الكتابات القيمة مثل (Placenta vitellina) في كلب البحر الأملس وهي التي بها يتغذى الجنين في الرحم على نمط مشابه لعلم أجنة الحيوانات الثديية . وتلك ظاهرة أماط اللثام عنها حديثا جوهان ملر وقد أهاجت في نفسه عاطفة إعجاب شديد بما قام به ارسطو من التّشريح الدقيق الصحيح . وقد نطالع مرة أخرى عن هجرة التّن الدورية وعن الشبكة العظيمة التي يصاد بها وعن الرقباء المعروفين باسم (هوور) في مصايد كورنول وهم يندرون من برج أو رأس باقتراب أسراب السمك . ويستطيع الطالب أن يعرف نوع ذلك السمك (شعاع النسر الكبير) الذي ذبح عوليس بزغانفه الشائكة . وهي أول ما استعمل كسنان للرمح . ويستطيع ثانية أن يعرف شيئا غير قليل عن السمك الرعاد الذي شبه به مينو أستاذه سقراط في تحية بها بعض الغموض . وقد خلف لنا ارسطو كثيرا من المعلومات المبعثرة الهائلة عن الحشرات وأورثنا ما يصلح لأن يكون مجلدا في كل التاريخ الطبيعي للنحلة . فقد عرف جميع سكان الخلية غير أنه كان كبعض معاصريه (وربما استثنينا منهم زنوفون ومثل شكسبير أيضا في تسمية ملكة النحل بالملك . فتراه يصف بناء الخلية ووضع البيض وإطعام صغار النحل ويتكلم عن صفات العسل المختلفة والزهور المتنوعة التي يجني منها وكان ملما بأمراض النحل وآفاته وقد حدثنا عن أشياء كثيرة غريبة اقتصادية عن الخلية وعن فنون النحالين فيظهر بعضها للرأى وعليه مسحة الشيء العصري المألوف ومثل ذلك استعمال شبكة أو حاجز لمنع الزناير وقد روعى في صنعها الدقة بحيث يحجز هؤلاء الأفراد

البواسل وهى مع ذلك تمرر النحل النحيف العامل . ويطول بنا الحديث ثم يطول اذا شئنا سرد كل ما يعرفه ارسطو عن النحلة واذا قارناه بما دونه فرجيل المعتبر سيد صناعة النحل فانه ينبئ لحسن الحظ بخدمة أكثر وعلم أغزر .

واذا أطلقنا لأنفسنا الحرية لنذهب أينما شئنا واقتفينا أثر النحل فى جميع نواحي الكتابات الأدبية القديمة وجدنا فى هوميروس ما نقرأه عن النحل البرى وعسله فى الصخور ثم عن نحل الخلايا وأمكننا تتبع منشئه الخرافى فى كريد حيث ذذى الطفل جوبتير بالشهد وذلك كما تمس شفتا الرضيع بالعسل حتى فى زمننا الحاضر . وتتبع اجتماع النحل يرسيرين وأمها والعلاقة الدقيقة التى بين النحل وديانا الافيزية وأن نجد فى قصيد الشعراء من مثل أشعار هيسود الى منتخبات الأشعار المتأخرة مائة المائة سارة لذيدة تلمع الى شجرة النحل فى غابة السنديان والى تل هيمتس الأزهر النضير ولربما عثرنا فى النهاية على الموضع الذى كان يظهر فيه أرجين كأنه يتنبأ بما سيأتى به شكسبير حين تكلم على ملك النحل وركب حاشيته (طبقات ضباطه) وسرب عماله (الخمالين الآلين الصبعاليك يتدافعون للدخول) وعن عقاب المتراخين منهم (حيث يجلس البعض كالقضاة لقصاصهم) وعن الحرب والظفر والغزو (حين يسير الظافرون بالأسلاب فرحين لأميرهم فى سرادقه الملكى) .

لنعد الآن لارسطو نسمعه يحدثنا ثانية عن كثير من الحشرات المتقاربة فيقص خبر النحل الوديع ونوعه والنحل البناء وعشه الطينى الحامد المستديرو عن النحل السراق والزناير المختلفة والزناير ذات القرون ثم يدهش القارئ ويفاجئه الى مدى أبعد فيتكلم عن

الزنبور الصائد وكيف يقتل العنكبوت ويغذو به الى وكره ثم يبيض في جسم الحشرة المسكينة حيث تتغذى ديدانه متى أفرخ بيضه . أو اصغ اليه إذ يروى نبال الزناير الكبيرة التي يسميها اثريينا وكيف تطارد الذباب الكبير وتفصل رءوسه وتطير حاملة باقى الجثة . وكل هذا يتفق بالحرف الواحد مع ما قاله هنرى فابر عن زنبور كبير يقطن جنوب أوربا ويصيد ذباب الخيل الكبير^(١) .

حقيقة لا جديد تحت الشمس .

ولارسطو معرفة تامة بأطوار انقلاب الحشرات المختلفة . فيعرف كيف تقضى الذبابة المعروفة أيامها الأولى في المزابيل وكيف يعيش ذباب الخيل الكبير والتبانيد في الحشب النخر وكيف يتناسل (كما يقول) بعض الذباب الصغير والبعوض في نفايات الخل اللزجة وهو يشرح باعثناء زائد ودقة فائقة تاريخ حياة البعوضة المعروفة ابتداء من العلق المائى أو الدود الدموى الصغير الذى نشاهده في البرك فيصفها وهى تتلوى كأجزاء العشب الأحمر الدقيقة النامية فى برغاض نصف مائه ثم يشرح أخيرا كيف تصبح العلقة جامدة ساكنة صلبة ومن ثم تنفجر الحسكة الجامدة وتخرج منها البعوضة صغيرة فتمتطيها سابحة على صفحة الماء حتى اذا تأثرت بحرارة الشمس أو اذا ما هبت نفخة ريح انطلقت وركبت متن الرياح .

وبعض هذا القصص عجيب حقا لأن ما يكشفه من الحوادث خفى يكتنفه بعض الغموض ولذلك فليس من المستغرب أن يعجز

Pour donner le coup de grâce à leurs Taons mal sacrifiés (١)
 et se débattants encore entre les pattes du ravisseur, J'ai vu des
 Bmbe machonner la tête et le thorax des victimes.

ارسطو بما بسط لديه من هذه المعلومات عن أن يطيل الحديث عن تاريخ حياة الفراشة وأنواعها المختلفة وذلك بالرغم من وضوح نظريتها . فهو في الواقع يحدثنا في موجز من القول على أن الفراشة تنتج من دودة وعلى أن هذه الدودة تتغذى بأوراق الكرنب وتلتهمها بنهم وشراهة ثم تتحول الى شرنقة ولا تتغذى بعد ذلك . ليس لها فم ينفذ منه الطعام وهي في هذه الحال صلبة وتظهر كالميتة ولكنها مع ذلك تتحرك وتتولى اذا لمست . ثم تنفجر الحسكة بعد حين وتخرج منها الفراشة . وبيان ارسطو هذا كما هو كاف مناسب ولكن ارسطو مع ذلك لم يظهر أى عطف نحو الفراشة فلم يقف عندها فيطيل ولم يرو عنها القصص . وكل هذا يتفق مع طبيعة باقى الأدب الاغريقى وخاصة الشعر حيث تنذر الاشارة الى الفراش وأخال اليونانيين وجدوا فى تلك القوة الحيوية التى تكاد تكون بلا جسد والتى نسميها الفراش شيئاً ينذر بالنحس أو الشؤم ولا يصلح الكلام عنه باستخفاف فأطلقوا عليه اسم الروح وكان عندهم للزيزاسم غريب يقرب من معنى "جثة صغيرة" فالزيزة ترقد فى الشرنقة كما ترقد الجثة الصغيرة فى الكفن أو التابوت وقد وصف أحد الشعراء المتأخرين "الفراشة وهى تفارق القبر وتعود لضوء النهار" ومن ثم استخلص بعض آباء الكنيسة لاسيما القديس باسل المغزى تبعاً لذلك فشبه البعث بالدودة حية تغط فى سباتها والحياة بالفراشة تصعد للعظمة والبهاء ولا تزال الأجيال تمجد هذا التشبيه الآن .

ولقد خلف لنا ارسطو بياناً عن فراشة كبيرة ولا يزال هذا البيان لدى الكثيرين لغزاً معقداً . فابتدأ بذكر دودة عظيمة لها قرون

كما يقول تنمو في مراحل هينة وتغزل ابا ان ذلك شرقة وثمت فريق من النساء يفككن الشرقة ثم يلففن خيوطها ومن هذا الخيط ينسجن قماشا واختراع هذا النسيج منسوب لامرأة من قوص ويبدو هذا لأول نظرة كأنه وصف بسيط قويم لدودة الحرير . على أننا نعرف أن دودة القز وشجر التوت الذي تغذيها أوراقه لم تنقل من الشرق الى اليونان البيزنطية الا بعد ذلك بزمان كبير يقرب من ألف عام في حكم يوستينيان وقد أخبرنا بليني شيئا عن دود الحرير القوي وحدثنا أنه يعيش على أوراق الدردار والبلوط والسرو وقد يخلص لنا بعض معلومات أخرى من كلمت الاسكندري وغيره من الآباء . مثال ذلك : أن الدودة كانت مغطاة بشعر كثيف وأن الشرقة تتكون من مادة غير متماسكة تشبه نسيج العنكبوت . وكل هذا يتفق بالدقة مع نوع من الفراش الكبير ينسج شرقة لا تشبه شرقة دود القز المعروف ووطنها جنوب أوروبا الشرقى وتتغذى بأوراق السرو والبلوط . ولا يزال يستخدم للآن كثير من أنواع دود القز غير النوع الحقيقي المعروف فمنه ما يخرج حرير الهند وغيره من جزائر اليابان التي تماثله وعلى ذلك فقد كان يغزل هذا الضرب من الحرير الخشن وينسج في اليونان وبمرور الأيام ظهر نوع أجمل منه تنتجه دودة الشام فاقه وحل محله فأبطلت الصناعة القديمة ثم انمحي أثرها من الأذهان .

ولنقف لحظة قبل أن نترك مبحث الحشرات أمام موضوع أحبته اليونان وفاق حبههم له كل ماعداه . لقد كنا يوم بدأنا نقرأ كتاب توكيديديس ونحن صبية في المدارس نجد في أوله قصة موسرى اليونان وكيف كانوا يعلقون جنادب ذهبية (كما كان

يسميا المعلم) في شعورهم . ولم تكن هذه الحلى الذهبية بالطبع جنادب عادية ولكنها كانت ضربا صغيرا منها يخرج تغريدا حادا يطرب له اليونانيون طربهم للموسيقى المشجية . وهذا الصوت لا تستملحه آذاننا كما وجد ذلك بروننج ولكننا نقرأ عنه آى المديح في كثير من شعراء اليونان مثل السيوس وانا كريون وفي جميع مجموعات الشعر اليونانية وهالك مثلا منه من قصيدة الأطيّار :

ولو أن الشمس الحارة تسطع في السماء

فأنا أرقد على حشائش المرعى المزهرة الوثيرة

لأصغى للنغمات الحادة المشجية

التي يحدثها الجندب حين يهيج وجدا في الظهيرة

ولأرسطو عن هذه الحشرات المألوفة المحبوبة بيان واف فهو يصف منها نوعين لا نزال للآن نميز أحدهما عن الآخر بسهولة : فالكبير من النوعين أشجها صوتا وأحسنها غناء والثاني صغير وهو أول من يقدم وآخر من يرحل في فصل الصيف . وقد نعرف العضو الصوتي الغريب أو الطبل المهتر في وسط الجندب . ولاحظ أن بعض الجنادب لها هذا العضو وبعضها ينقصه وعرف كما عرف الشعراء أيضا أن ذكر الجنادب هو الذى يغنى بينما تصغى له الأنثى ساكتة ونخبرنا أن الجندب لا يعيش في بلاد لا شجر فيها مثل سيرين (ولست أدري لم شط كل هذه المرحلة البعيدة الى سيرين ليتخذها مثلا) وأن صوته لا يسمع في الغابات الكثيفة التي لا تنفذ فيها أشعة الشمس وإن أحسن ما نصغى الى غناء الجندب في بساتين الزيتون حيث الأشجار متباعدة تحترقها أشعة الشمس . وهو بعد ذلك يقص علينا بايجاز ولكن

بدقة عجيبة تاريخ حياة هذا المخلوق وكيف أن الأنثى بمبيضها المستطيل تضع بيضها في أعماق الغصون الميتة الجوفاء مثل القصب الذي تدعم به الكروم وكيف أن أفرانها تتخذ لها أوجرة في الأرض عند ما تفارق البيض وكيف تخرج بعد ذلك من حفرها خصوصا في اليوم المطير حيث تلين الأرض بفعل ماء المطر وكيف يتحول الدود الى صورة أخرى تسمى حورية ويحدثنا أخيرا كيف يتمزق جلد الحورية عند حلول الصيف فتخرج منه إذ ذاك الحشرة تامة ويتغير لونها ثم لا تلبث أن ترفع عقيرتها بالغناء . وفي استطاعتنا أن نعثر فيما كتب ارسطو فانيس وتيوقراطس ولوكريتيوس وفرجيل ومارشال وفي مجموعات الأشعار على كثير من الاشارات الشعرية لهذا التاريخ الطبيعي فهي بذلك خلاصة بسيطة له .

ويعتبر "كتاب الحيوان" أو "تاريخ الحيوان" كما نسميه لك وقد اقتبست منه هذه الأمثلة القليلة من علم ارسطو الواسع ، أولى الخطى اللازمة في سبيل البحث العلمي . وثمت نوع من الفلسفة اليدوية (كما سماها اللورد الشيخ منتبد) يفحص حقائق لا تدركها العامة ويمكن تسمية هذا النوع قصص الطبيعة أو التاريخ السرى للطبيعة وقد برع في هذا البحث المقتن جلبرت ويت وجون راى وكثير غيرهما وتتكون منهم جماعة الطبيعيين البسيطين . ولكن تراكم الحقائق بهذه الصفة إن هو إلا أساس فلسفة "الفلسفة لا يصح اطلاقها إلا على ما يفسر أسباب الأشياء وأصولها" ولقد كان في وسع ارسطو أن يقطع في هذا السبيل مرحلة عظمى لو اكتفى بأن يظهر (كما بين جلبرت هويت لمعاصريه) أن التأمل في الطبيعة تأملا عميقا عمل خالق بالرجل المهذب وجدير بعناية

طالب العلم ولكنه فعل ما هو أكثر من هذا فانه جعل المعلومات الطبيعية في مرتبة العلوم وأدخلها في دائرة الفلسفة مرة واحدة لا رجعة فيها . فتساوى هذا العلم بالفلك على عراقة هذا في القدم إذ شغل أذهان الفلاسفة واستهوى أفئدة المفكرين مئات كثيرة من الأعوام في مصر والشرق وبعض القرون القليلة في اليونان ولقد نقلت عنه فيما سبق جملة عظيمة فيها يفسر غرضه ويبسط المعاذير عن اعتسافه وهي ” لا شك في أن جلال الأجرام السماوية يملأ النفس روعة تفوق التأمل في هذه الأشياء الحقيرة الأرضية . لأن الشمس والنجوم لم تولد ولن تموت ولكنها سماوية أبدية غير أن السماء بعيدة نائية وحواسنا لا تمدنا عن السماء الا بمعلومات طفيفة تحوطها الظلمات . أما المخلوقات الحية فهي أمام دورنا تغدو وتروح وان شئنا حصلنا من كل منها أو منها جميعا على معلومات وافية دقيقة . واذا كان الجمال في التمثال يسلب اللب ويملك المشاعر أفلا يملأنا الحى بهجة وحبورا ؟ ولشد ما يزيد إعجابنا اذا بحثنا في ضوء الفلسفة عن الأسباب وتعرفنا أدلة التصميم . إذا لتكشف الستر عن أغراض الطبيعة وقوانينها الكامنة الخفية فكلاهما يفضى بعملها الحافل الى شكل من أشكال الجمال .

وصلت اليها كتابات ارسطو الفائضة الوافرة وقد تغيرت تغيرا خطيرا . ولكن أعظمها جميعا وصل اليها لحسن الحظ سالما غير ممسوس أو متغيرا تغيرا يسيرا جدا وفقد بعضها ودخل بعضها الآخر ابدال وتحريف . وكتاب ” أجزاء الحيوان “ يبدأ (كما في النسخة التي تحت يدينا) بباب غرضه الظاهر مقدمة عامة لسلسلة كتب علم الحياة كلها ولست أعرف غير هذا الباب في كل كتب ارسطو يدل بوضوح على عظمة ارسطو كمعلم وكفيلسوف كبير . فهو يبدأ

بمحدث جرى مجرى المثل وهو "كل علم وكل فرع من علم ينتج نوعين من الفائدة : الأولى يصح تسميتها بحق الدراية العلمية ، والثانية في تناول الشخص المتعلم العادى " ثم يتطرق بعد ذلك الى "طريقة" البحث العلمى وهى هل يصح البدء من الخاص ثم تنتقل للعام أم نبدأ البحث فى الصفات العامة ثم نتحول الى الصفات الخاصة وهل يصح لنا عند الكلام عن الحيوان أن نسير كما فى الفلك الرياضى فنبحث أولا فى الحقائق أو الظواهر ثم نتطرق بعد ذلك فنكشف أسبابها المختلفة ونذكرها ، وهذا يؤدى فى الحال لبحث موجز (وهو مكمل فى مكان آخر) فى السببين العظيمين أو صورتى الأسباب ، وهما السبب النهائى والسبب المحرك أو الفعال ، سبب الحادث أو الغرض منه والسبب السالف الذى لأجله يصل الشئ بحكم الضرورة الى الحالة التى هو عليها . وهذه مسألة من مسائل الفلسفة العويصة الكبيرة . ولما مال ارسطو ناحية السبب النهائى كان لعمله هذا أكبر التأثير على عقول البشر فى كل تاريخ العلوم وقد اتخذ امبدكليس وجهة نظر أخرى فاعتقد بأن المطر يهطل أنى شاء أو عند الضرورة ولا يحق لنا أن نظن بأنه ينزل لينمى القمح فى الربيع ولا ليتلف اهراء الغلال فى الخريف واعتقد أيضا أن الأسنان تنمو بعملية تتبع قانونا طبيعيا واستعدادها الظاهرى وصلاحياتها للكسر والطحن لم يكونا لغرض وانما كان هذا عرضا واتفاقا . واعتقد بأن العمود الفقرى انقسم الى فقرات بسبب القوى الأولية وهى الثنى والعطف اللذان أثرا فيه فى بطن الأم . وتطرق أمبدكليس بعد ذلك الى نتيجة النشوء والتطور فأدرك بوضوح نظرية دارون قبله وأن الصالح وغير الصالح يخلقان سويا بيد أن الصالح يبقى وغير الصالح يهلك .

ويطول بنا المقال لأن هذا البحث عريض خطير لا يسعنا بحثه هنا ولكني أجسر فأشير إلى أن أرسطو كان يحنح لأن يمر المامة خفيفة بالسبب الطبيعي أما السبب النهائي فيقتله بحثا ولسبب واحد (بصرف النظر عن أية أسباب أخرى) وهو أن معرفته بعلم الحياة تفوق معرفته لعلم الطبيعة وأنه كانت تعوزه الناحية الرياضية من نواحي التفكير وهذه الناحية من أصول مدارس الفلسفة القديمة . وسواء أكان اختياره لطريقته هذه عن خطأ أم صواب فقد كانت لذلك أهمية لا تقدر إذ استطاع مدة قرون أن يكون مرشدا (ونجسر أن نقول مرشدا مؤثرا) للعلوم في المدارس ولتقدم العلم ولأوثق معتقدات بني الانسان .

ويحتوى هذا الباب الملى المثمر على قصره من أعمال أرسطو أشياء هي أكثر بكثير مما نطمح حتى إلى التكلم عنها بإيجاز ففيه يطيل الحديث عن " التقسيم " ذاك الموضوع المهم فيبحثه بحث منطق قادر في أشد نواحيه وأعنفها وقد بحث كثير من الشراح عن " تقسيم الحيوان " لأرسطو أما أنا فلم أعثر عليه وإن شئت دقة في التعبير فأنا أؤكد عدم وجوده . فأى تقسيم راسخ ثابت لا يمت لمنطق أرسطو بصلة . وقد يكون حسنا بل وضروريا لو أردنا ترتيب حيواننا على رفوف متحف أو في الصفحات الجرداء لدليل منسق وقد تكتسب رونقا جديدا لو استطعنا أن نجد ترتيبا حقيقيا أو تاريخيا وفق أصول التسلسل الصحيح مؤسسا على حقائق التطور التاريخي المؤيدة بالبراهين ولكن أرسطو (كما يلوح لى) لم يكن مقيدا بأدلة المتاحف ولم تمثل له في أحلامه آمال بالحصول على سلم طبيعي كامل أو على علم تسلسل الأنساب التقديرى . فقد قسم الحيوان كما رآه وكانت كل الفروق لديه كرجل

منطقي منقسمة الى قسمين يظهران بوضوح أمام ناظريه . فقد قسم الحيوان مرة الى ذوات دم وبدون دم ومرة أخرى الى متنفسات الهواء ومتنفسات الماء وثالثة الى وحشى وأليف وأخرى الى محب للعشرة ومحب للوحدة وغير ذلك من تقاسيم لا حصر لها . وكان في نفس الوقت ذا نظر ثاقب يدرك بسرعة المجموعات الطبيعية الكبرى وكانت يسميها الأجناس كالسمك والطيور والحشرة والحيوان الرخو وعلى هذا ففي الوقت الذي لم يجعل فيه أرسطو تقسيمه على أسلوب راسخ أو نظام وثيق لا شك (على ما أعتقد) أنه كان يظن أن عمله في هذا السبيل عبث باطل فقد حدث أن طرقه العديدة في التقسيم الجزئي أو الوقتي أنتجت خيوطا تآلفت أخيرا فكوّنت نسيجا غاية في الجمال منسجما منسقة ألوانه ولو أنه كان على مثال غامض نوعا ما . هذا ولو أن نظام أرسطو يخالف نظامنا الا أن خلاصة ما في تفكيره وأسلوبه تنتج نظاما كاملا فائقا معينا . وهذه الميزة هي التي قصدها مولير في "النساء العالمات" حيث يقول : انى أحب المشائين من أجل نظامهم^(١) .

وقبل أن ينحتم هذا الفصل الكبير الذي بدأنا أن نتكلم عنه أشار أرسطو الى أنه يوجد أكثر من طريقة واحدة لسرد الحقائق أو تقسيمها . فمثلا يكون من المناسب الضروري أن نبحث في الحيوان وأجزائه العديدة أو خواصه آونة ثم نتكلم آونة أخرى على هذه الأجزاء أو الخواص كما هي ونشرحها ونوضحها مستعينين بالحيوانات العديدة التي تنسب لها هذه الأجزاء أو الخواص "فأجزاء الحيوان" إذا نتيجة بل نتيجة محتومة ، لتاريخ الحيوان القصصى . ومع ذلك أيضا فتمت طريق ثالث . وهو البحث

(١) "Je m'attache pour l'ordre au péripatétisme."

في الوظائف الكبرى للنظام العضوى أو أفعالها أو قدرتها كما كان في مبدأ أمره بحثا عاما ثم ننسب هذه الوظائف في الحيوانات المختلفة للأعضاء التي خلقت لها وخصصت لأحداثها . ويطلب هذا إدراك الرسائل الفسيولوجية المتفرقة وتحريرها . تلك المسائل التي كتبت على مباحث التنفس والحركة والنوم والسير وعلى ذلك الوصف الخطير لتناسل الحيوان (والمبحث الأخير . يعتبر في بعض الوجوه أكثرها طموحا وبراعة وغرابة) .

ونسطيع أن نعتبر الآن أن السلسلة التامة الممكن إدراكها وضعت بايجاز فكان ذلك بمثابة نقش الشطر الأكبر من اللوحة العظيمة . ولكن اذا شئنا أن نجعل لهذا العلم صلة بالحياة الانسانية وأن نجعل له مكانة طيبة في درجات الفلاسفة العالية فالواجب أن نواصل البحث وأن ندرس الحياة بالذات : وأن ندرس ما يسميه الناس روحا . ومن هنا نشأت الفكرة العظيمة . فاننا نبدأ بالأساطير التافهة وهي التي يعرفها السماك والصياد والزارع ثم تتكون أمام ناظرينا علوم الحيوان والتشريح وعلم وظائف الأعضاء وعند المساء نجلس خاشعين تحت أقدام المعلم الأكبر للحياة نفسها والمؤرخ للروح . وليس لنا أن نجسر فنيين أن القصة لا تنتهى حتى هنا وأن هذا مطلع أرقى فصول الفلسفة . واذا تذكرنا أن حديثنا القصير هذا ان هو الا أخف تلميح لناحية واحدة من النواحي الكثيرة لأعمال الفيلسوف ومشروعاته بدأنا أن نسمو نحو فهم ما قاله روجر باكن "ان ارسطو وان لم يبلغ آخر مدى المعرفة فقد نظم كل أقسام الفلسفة" وقد صرح ناقد عصرى بنفس الروح "أنه لم يصل الى تعريف وتنظيم كل أقسام العلم فحسب بل إنه أظهر فوق ذلك ما بينها من علاقة ووحدة" .

وارسطو كشكسبير ملئ بالأمثال القديمة ووصايا الحكمة ودرر من القول في جمل ذات خمس كلمات وهالك مثلاً منها يصلح للعلم والمتعلم على السواء : "الايمان طريق المعرفة" (وهو ينبئنا بأن طريق العلم عن طريق الايمان) ومعناه أن الطالب يحتاج للقلب كما يحتاج للعقل تماماً .

ونجد في ارسطو كثيرا من الأساطير الغربية ويرجع ذلك من جهة لتأثير أجنبي وللسذاجة المدمنة القديمة التي لا تبرا منها حتى الفلاسفة فالعتر الذي يتنفس من أذنه والرخم الذي يلقيه الريح والنسر الذي يموت جوعا والوعل الذي يصطاد بواسطة الموسيقى والسمندل الذي يسير عبر النار ووحيد القرن والغول كل هذا قليل من السخافات الشائعة أو الأقوال المتوارثة (كما يسميها السير توماس براون) التي خلد ذكرها كتاب " تاريخ الحيوان " ولكنه لم ينشئها وبعضها أتى من الشرق الأقصى عن طريق العجم والبعض الآخر (وتجده أيضا في كتابات هرا بولو القس المصري) ان هو الا تعبير ظاهري أو مجازي عن أسرار الديانة المصرية القديمة ، وعلى ذلك حدث أن العالم منذ ألفى سنة كان يحج الى ارسطو من جميع الأقطار فيلقى عنده ما يريده وقد اقتنى العرب والمغاربة والسوريون واليهود كتبه في الوقت الذي كان الظلام يكتنف فيه العالم الغربي . وقد بنى صرح التعليم القديم على أساس من كلماته وشيدت أقدم جامعات كولونيا وباريس وأكسفورد على دعائم من تعاليمه بلى لقد أنشئت هذه الجامعات لدراسته فحسب وقد خلد تأثيره أنى وجد ظاهرا كان أم كامنا ، حتى المغاربة والعرب وجدوا فيه ليومنا هذا معلما يستهوى الفؤاد وأستاذ للحقائق الخالدة يحدتهم عن النوم والحلم والشباب .

والشيخوخة والحياة والموت والتناسل والفساد والنمو والانحلال واعتبروه دليلا لكتاب الطبيعة وكاشفا للروح ونبيا ينبئ بقدرة الخالق .

وقد خبرت أن الغرض من هذه الفصول القصيرة (ولو أنى كدت أنسى ذلك) أن هو الا دفاع وتزكية لدراسة لغة اليونان وآدابها الجملة. وهذا عمل لا قبل لى به ولم أهيا له . ان اليفرجولدسمث يوم اعترم تدريس اللغة اليونانية فى ليدن وقد خبر أن دراستها اختيارية صدمه مديرتلك الجامعة الشهيرة (كما نعرف جميعا) باعتراضات وجيهة فقال : ” اننى لم أدرس اليونانية قط ولم أشعر نحو جهلى بها بأى نقص فى نفسى لقد حصلت على شهادة الدكتوراه وأخذت القلنسوة والحبّة بغير اليونانية . وأنا بدونها أتقاضى عشرة آلاف فلورين فى السنة . وصفوة القول فأنا لا أعرف اليونانية ولا أجد فائدة فيها “ - ولقد رأيت أو قرأت القصة مرارا لأنها مسطرة فى كتاب ” خورى ويكفيليد “ ولم أسمع قط بأى شخص حتى ولا جولدسمث نفسه قد حاول أن يقرع حجة المدير . فأنا أوافق المدير على معظم ما قاله وأرى جليا أن كل اليونانية التى يعرفها جولدسمث وكل اليونانية التى يعرفها العالم بأسره لم تكن تجديه فتيلا أو تفيده أية فائدة ولكن يوجد كثيرون غيره ، وسيوجدون ، يلقون فى الحكمة اليونانية والحديث الاغريقى الرقيق أشياء يشعرون بحاجة اليها واذا لم توجد فانهم يكونون بأئسين حقا . أشياء يتخذونها عصيا فى أيديهم ونورا يهديهم سواء السبيل ومصباحا عند أقدامهم يقيهم مواطئ الزلل .

ونستطيع فى هذا العالم المكدمعنى أن نملك أنفسنا بسهولة وذلك كما يقول چين من أن رعايا التاج البيزنطى بالرغم من رسفهم

في ربة الذل وانغماسهم في حماة الانحطاط "كانوا يملكون مفتاحا من الذهب يستطيعون أن يفتحوا به مغلق كنوز الأقدمين واحة موسيقية خصية تنفخ الروح في المحسوسات وتجسم الأفكار الفلسفية المعنوية".

ويظهر أن أعمارنا نفسها طالت حقبتها بتذكر الآثار لأنه كما يقول شيشرون "ان لم تعرف أعمال السابقين تظل الحياة كلها طفلا" وأنا أتمثل بقول الدكتور جنسن الذي يذكرنا أيضا بقول لارسطو نفسه وهو "اننا كطلبة يجب علينا بادئ بدء أن نبحث ونفهم ما كتبه المتقدمون ثم نقلب الطرف في العالم".

ولكني الآن وقد جسرت أن أرشف رشفة صغيرة من أثر ارسطو الواسع العميق أشعر كأي أبحث عن عذر فالتمس في المثال والوصية وأعتقد أن الوصية على الأقل عبث فقد أنفق أبي كل أيام حياته الطويلة في دراسة اليونانية ولربما ظننت أن ذلك كان من أجل الحكمة . ولكن والدي كان شخصا متواضعا . والحقيقة أنه سلك هذا المسلك لسبب أبسط من هذا السبب . لسبب غريب جدا . يجمل أن أهمس به في أذنك لا أن أخبرك به ، لقد صنع ذلك من أجل الحب .

ومنذ نحو أربعين سنة خطوات خطاى الأولى في طرق يهب فيها ريح شرقى في مدينة فقيرة جائعة (وأقصد بفقرها من وجهة العلم) حيث قدر لي أن أقضى ثمة سنين عدة . وأول ما وقع عليه بصرى كتابة أقيمت على باب وضع خاشع (Hic mecum "habitant Dante, Cervantes, Moliere") وكانت الدار لمعلم فقير يدرّس اللغات فيكتسب ما يضيفه الى أرباح مدرسته الزهيدة

ولقد تأسيت كثيرا بهذا الخبر . وهكذا فهذا العالم الفقير ينظر الى صف رثيث من كتب قليلة بالية فيتجلد ويتأسى ويسمو به الخيال فتملكه العظمة والفخر , *Hi mecum...Homerus, Plato, Aristoteles* واذا سألت المعلم الفقير وهو ساه عن السبب الذي دعاه للتفرغ لليونانية والانعكاف فلربما غلبت عليه الحبسة واللكنة (مثل دوميني سمبسون) وأجاب بجواب يكاد يكون غير مفهوم . وأكبرظني أنه يذهل ويخر ساكنا لفضاعة هذا السؤال الوقع المهين . وبذلك يظل سبب تولوعه وانهماكه خفيا عن السائل كميننا الى ما شاء الله ما

دارسى ونثورت ثومسون

البيولوجيا - أو علم الحياة قبل ارسطاطاليس

ما العلم ؟ سؤال ليس من السهل الاجابة عليه وربما تعذرت الاجابة عليه أصلاً، فليس من التعاريف تعريف يلوح أنه منطبق على المرام تمام الانطباق فهى إما أعم منه أو أخص ومع هذا فاننا يمكننا أن نرى العلم فى حال نموه ويمكننا أن نقول انه لما كان العلم عملية تطوّر فلا وجود له الا نامياً .

أين يبدأ علم الحياة ؟ سؤال آخر : لا يمكننا كذلك الاجابة عنه ولكن يمكننا أن نرقب نشوءه وارتقاءه فقد عرف عن اليونان منذ زمن بعيد جداً دقة الملاحظة للكائنات الحية، وهذه الملاحظة هى على الأقل احدى ضروريات علم الحياة نعم ان كلمة بيولوجيا كما نفهمها الآن لم يكن من الممكن وجودها عند اليونان فالمقطع الأول من كلمة بيولوجيا وهى بيوس (Bios) تشير الى حياة الانسان ولا يمكن اطلاقها على حياة غيره من الكائنات الأخرى الا عن تكلف أو على سبيل المجاز ^(١) ولكن الأفكار التى نقرنها الآن بمدلول هذه الكلمة كانت ظاهرة النمو فى الفلسفة اليونانية فأصول علم الحياة عريقة فى القدم .

(١) كلمة بيولوجيا أدخلها جوتفريد رينهولد تريفيرانوس (١٧٧٦ - ١٨٣٧) فى كتابه المسمى : "Biologie oder die Philosophie der lebenden Natur" وهو فى سنة أجزاء ومطبوع فى جوتنجن ما بين سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨٢٢ ثم استعملها دلامارك فى كتابه المسمى "Hydrogeologie" المطبوع فى باريس سنة ١٨٠٢ ، ومن المحتمل أن تكون الكلمة استعملت لأول مرة بمعناها الحاضر فى اللغة الانجليزية فى كتاب سيروليم لورنس (١٧٨٣ - ١٨٦٧) المسمى "On the Physiology, Zoology, & Natural History of man" المطبوع فى لندن سنة ١٨١٩ - وهناك قبل ذلك استعمالات أخرى للكلمة فى اللغة الانجليزية مضادة لكلمة "biography"

اليونان عدة أصول من حيث الجنس والثقافة والروح وعن جميع هذه الأصول ورثوا قوى وصفات شتى وأخذوا مختلف أفكار وتقاليد شتى كذلك. وأليق المصادر بالموضوع الذى نحن بصددده هو الجنس المينوى الذى سلبه الاغريق ماله واحتلوا أرضه فان هذا الشعب ذا المواهب السامية قد أظهر فى جميع أدوار تقدمه قدرة فائقة على تصوير الأشكال الحيوانية، ومن أشهر الأمثلة التى تدل على براعة هذا الشعب فى التصوير أفاريزا قريطش وكؤوس قافيو (شكل ٥) وأسود ميسينى وكلها ذائع الصيت ومن الصعب ألا نعتقد أن دخول العنصر المينوى فى ذلك الخليط من الشعوب الذى يقال له الاغريق كان من بعض الوجوه على الأقل عاملا فى إيجاد مثل هذه القدرة على التصوير فى العالم الهيلينى وان لم يظهر للآن اتصال كبير بين الفن المينوى والفن الاغريقى العتيق، ولمعرفة أقدم ما قام به الاغريق من موضوعات علم الحياة يلزمنا أن نجعل جل اعتمادنا على المعلومات المتصيدة من الآثار الفنية.

نعم لقد وصل إلينا بعض نبذ مما كتبه فلاسفة الأيونيين والصقليين الطليان وفيها نقرأ شيئا عن آراء نظرية عن كنه الحياة والروح وبفضلها يمكننا أن نكون فكرة تقريرية عن المحاولات الأولى التى قام بها أمثال القماون الكروتونى (٥٠٠ قبل الميلاد) لبيان تركيب الحيوانات بواسطة التشريح^(١) كما أن معجم عقاقير لبعض المؤلفات الأولى فى المجموعة الايقراطية ينبئ عن إلمام كبير بالنباتات الأهلية والأجنبية^(٢) وفوق ذلك اشتملت كتب هرودت وغيره

(١) آثار القماون مذكورة فى كتاب هـ . ديل المسمى "Die Fragmente der Vorsokratiker" المطبوع فى برلين سنة ١٩٠٣ صفحة ١٠٣ ويأتى ذكر القماون فى فصل الطب اليونانى من هذا الكتاب .

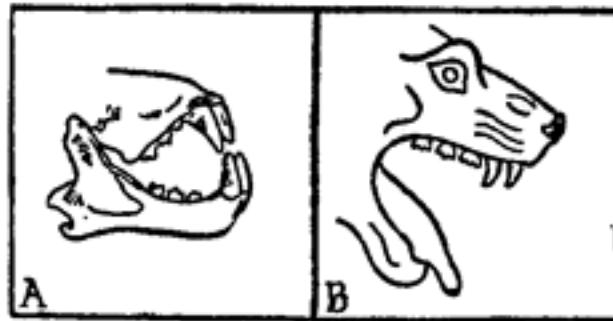
(٢) وخصوصا فى الكتابين اليونانيين المسميين "فى طبيعة المرأة" وفى "أمراض النساء" .

من الكتاب المتقدمين على كثير من المعلومات العارضة عن الحيوانات والنباتات مبعثرة هنا وهناك بين طياتها ولو أن هذه المعلومات منقولة ولا تفيدنا الا قليلا في معرفة ما كان للاغريق



(شكل ١)

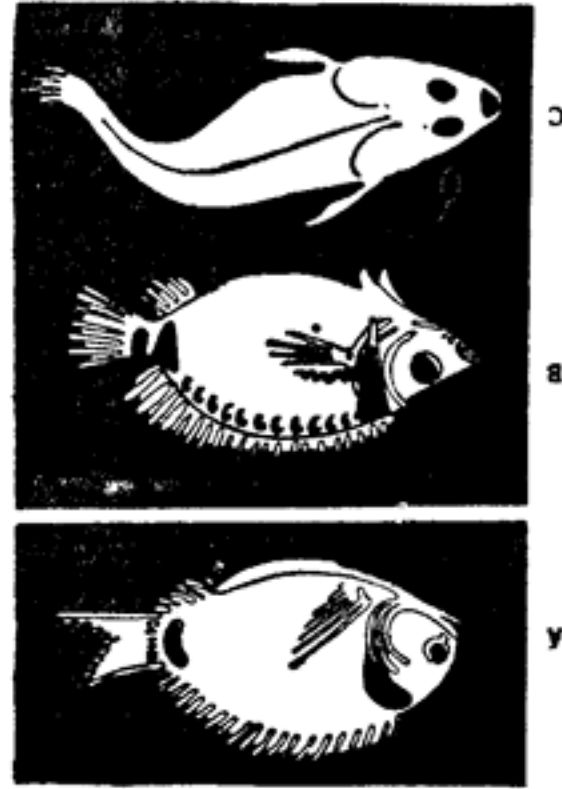
رسم لبوة وأشباهها مأخوذة عن آنية أيونية من القرن السادس قبل الميلاد عثر عليها في قاير في اتروريا الجنوبية (متحف اللوفر حجرة ٢٩٨) والصورة مأخوذة من كتاب ج . مورن المسمى 'Le dessin des Animaux en Grèce d'après les vases peints' المطبوع في باريس سنة ١٩١٩ (Renouard) ويرى الحيوان وهو متصب لمهاجمة الصيادين . والعفرة الخفيفة وشكل المخالب والضروع وهيئة الأسنان كلها مرسومة رسمًا كثيفا وان يكن مضبوطا .



(شكل ٢)

(١) عظام فك أسد ، (ب) رأس لبوة مأخوذة عن آنية نائيرية (شكل ١) من رسم مورن ، لاحظ كيف ميز الرسام بين الأضراس والقواطع .

من دقة الملاحظة وهي الأساس الضروري الذي يقوم عليه العلم الطبيعي . على أن هناك أشياء أخرى يكشفها لنا الفن اليوناني القديم . ان لدينا مجموعة سلسلة من أواني القرنين السابع والثامن قبل الميلاد نرى دقة في ملاحظة الأشكال الحيوانية تحدث عن شعب غير غافل عن دراسة الطبيعة ، فما نراه مصورا في هذه المجموعة عدد من الحيوان ، أما النبات فلا يرى وان رؤى قليل ، ومن أبدع ما صوّر منها حيوانات برية فنرى الوعول هادئة ترعى أو مرعوبة من صوت والطيور إما طائرة أو تلتقط الدود من الأرض والظباء العفر تحترق لها طريقا في الأرزغال أو ترعى مطمئنة أو تعدو بسرعة والخنازير البرية تتأهب للمكر على كلاب الصيد والكلاب تطارد الأرانب والأنعام الوحشية تتحلق دفاعا عن نفسها والصقور آخذة بفرائسها .

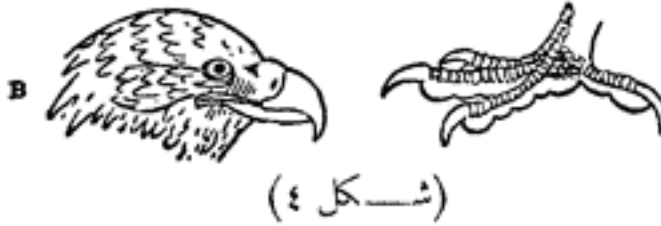
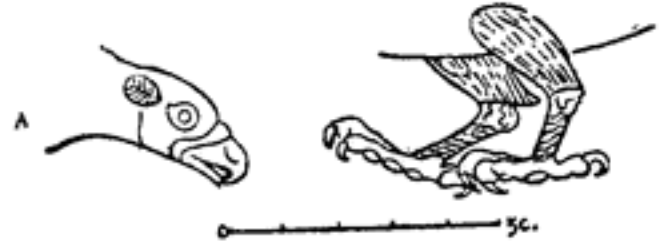


(شكل ٣)

صور أسماك على صحون تصوير اغريق ايطالى
من القرن الرابع قبل الميلاد ، من مورن
(١) *Sargus vulgaris* (ب) *crenilabrus*
Uranoscopus Scaber (ج) *Mediterraneus*

وكثير من هذه الصور تدل على ملاحظة غاية في الدقة حتى أن اتجاه الشعر في فراء الحيوانات درس أحيانا دراسة دقيقة وصوّرت العضلات في الغالب تصويرا جيدا وفي بعض الحالات قد وجد حتى هيئة الأسنان وترتيبها مصورا تصويرا

مضبوطا كما يشاهد ذلك في صورة لبؤة على آنية أيونية صوّرت في القرن السادس قبل الميلاد وهذا الحيوان كان حينذاك نادر الوجود على الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ولو أنه كان معروفا في بابل وسوريا وآسيا الصغرى وتفاصيل الرسم تدل على أن المصوّر لا بد أن يكون قد فحص الحيوان أسيرا (شكلي ١ و ٢).



(شكل ٤)

- رأس عقاب البحر (*Haliaeetus albicilla*) ومخالبه .
- (أ) مأخوذ عن آنية أيونية من القرن السادس قبل الميلاد .
- (ب) مرسوم من المنظور .
- من مورن .

وتوجد رسوم حيوانية من هذا الطراز مبعثرة في العالم الاغريقي كما في قبرص وبوشيا أو خليس ومما يلفت النظر الى عناية القوم بالأشكال الحية نفس اللفظ اليوناني (زوغرافس) لكلمة مصوّر وما جاء القرن الخامس حتى كانت أتيقا قد أثبتت تفوقها في تصوير الأشكال الحية كما ظهر في أنواع أخرى من الفنون . وتوجد على أوان من الفن الأتيقي نقوش بديعة للحيوانات لا تقل روعة عن رؤس خيول البارثينون (شكل ٦) .

ولقد ظهر قديما في أتيقا ضرب خاص من التصوير المتقن للأشكال البحرية ثم ازداد هذا الضرب شيوعا في جنوب إيطاليا

في القرن الرابع . ولقد وصل هنا من العصر المذكور عدد من الصيحات والأواني مرسوم عليها أنواع كثيرة من أشكال السمك مصورة بدقة تجعلها طريقة لما ظهر من العناية بالكائنات البحرية في المؤلفات الباقية من عهد ارسطاطاليس (شكل ٣) .

وهذه المصنوعات الفنية أرقى من أن تكون مجرد صورة للحياة اليومية للناس : فالصياد يلاحظ عادات الحيوانات وصائد السمك يلاحظ أشكال السمك وألوانه ولكن أساليب الصياد وصائد السمك لا تفسر بدقة تصوير أسنان الأسد ولا صحة عد قشور السمك ولا دقة ملاحظة اتجاه الريش على رأس جراح من الطير أو ملاحظة باطن مخالبه (شكل ٤) فأمثال هذه الملاحظات تجعلنا تتجاه شيء جدير بأن يسمى علم الحياة . ولو أن ما وصل إلينا مما كتب في الموضوع المتقدم قبل مؤلفات ارسطاطاليس قليل إلا أن روح كتاباته وأمثلة هذه النقوش والصور تشير إلى وجود اهتمام شديد وكتابات كثيرة ، بيولوجية بالمعنى الحديث ، قبل القرن الرابع .

على أن للعلوم اليونانية في جميع أدوار تاريخها صبغة خاصة تميزها عن وجهة نظر العلم الحديث فجاء مباحث العالم اليوناني كان فيماله علاقة بالإنسان والطبيعة لا تلذله في الغالب إلا فيماله علاقة بنفسه فكان الإنسان قطب العالم الإغريقي العلمي منه والفلسفي ويتضح ذلك جليا من الكمية الهائلة التي وصلت إلينا من التصانيف الطبية اليونانية عدا المؤلفات البيولوجية وهذا هو أيضا الشعور المتجلى في وصف الشعراء لخلق الحيوانات .

فيقول شاعرهم :

كم هناك من العجائب
ولكن ليس أعجب من الانسان
.....

فطيور الهواء ضعيفة الأحلام
وحوانات البرية والغابة
وأسمك البحار المالحة
كلها يصيدها بأشراكه المحوكة
ما أبرعه دهاء وحيلة
فالثيران الوحشية والوعول
التي تهيم في الجبال طليقة حرة
يتابعها الانسان بحيلته التي لا تنفد
والجواد الأشعث ذوالعرف الحشن
يذله ويلبسه الشكيمة

سوفوكليس

أشعار ٣٤٢ ff.

ترجمة. ف. ستور

لهذا لا غرابة في أن يكون أول مبحث منتظم في الحيوان
وارد في كتاب طبي عملي من المجموعة الايقراطية يسمى "في الطعام"
ويرجع تاريخ هذه الرسالة الغربية الى الجزء الأخير من القرن
الخامس وظاهر فيها ظهورا بينا أثر هرقليتوس (٥٤٠ - ٤٧٥
قبل الميلاد) وهي تشمل عدة وجوه للنظر. فتظهر في الفلسفة التي
جاءت بعد ذلك ويؤخذ مما ورد فيها أن جميع الحيوانات مكونة

من النار والماء فلا شيء يولد ولا شيء يموت ولكن للأشياء دورة أزلية مستمرة فليس هناك من حقيقة سوى التغير نفسه وما طبيعة الانسان إلا صورة للطبيعة العامة وما فنونه إلا تقليد لفنونها أو لوظائف الجسم والروح وهى مزيج من الماء والنار تستنفد نفسها فى الطفولة والشيخوخة وتزيد أثناء سن المراهقة وتعثر فيها أيضا على مبدأ غريب لا يخلو من ارتباط عجى الأفكار البيولوجية المتأخرة وهو أن جميع أجزاء الجنين تتكون فى آن واحد وعلى نسبة النار والماء فى الجسم يتوقف كل شيء من جنس وطبع ومزاج وادراك .

بأمثال هذه الآراء النظرية يتميز هذا الكتاب عن المؤلفات الطبية الايقراطية ذات الطريقة المألوفة والكتابان فى الحقيقة لا يشتركان إلا فى شيء قليل .

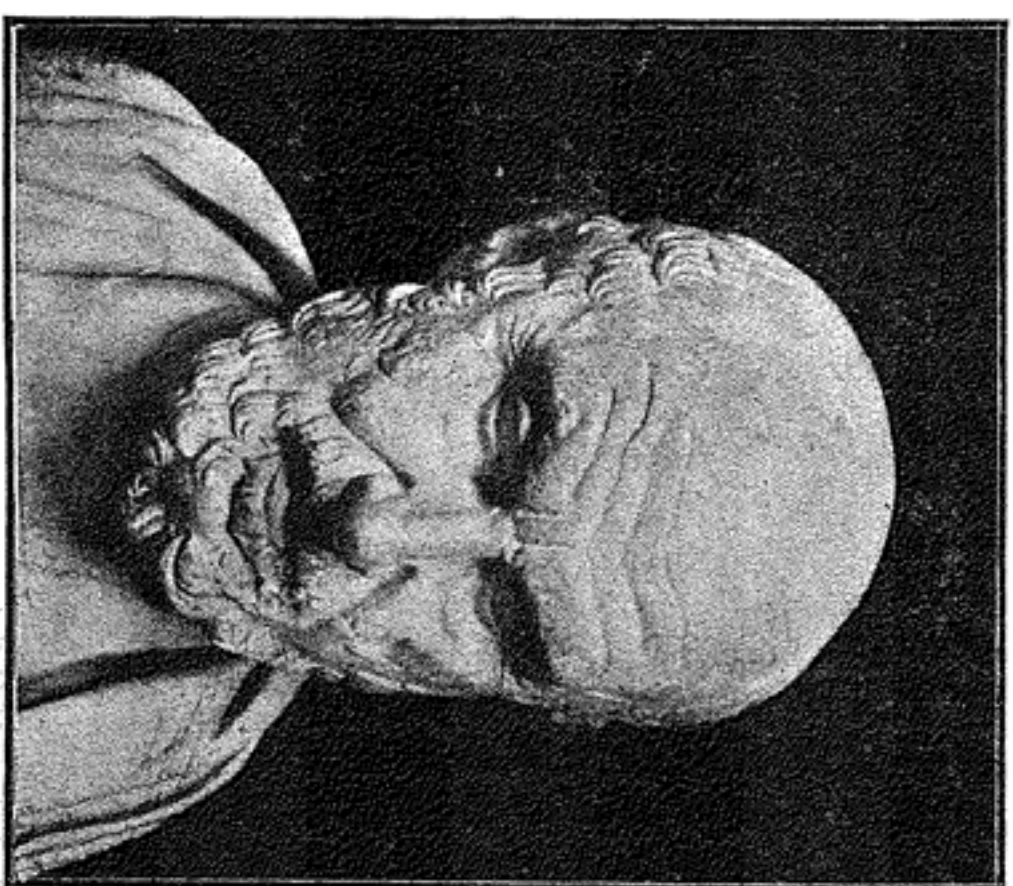
وبعد أن بحث الكتاب فى هذه المسائل النظرية عاد الى معالجة الأغراض العملية التى وضع لأجلها ، وفى أثناء بيانه طبائع الأطعمة ذكر ما يقوم مقام تقسيم تقريي للحيوانات فوضعها فى مجاميع ولا ينقص من المجاميع الكبرى إلا الزواحف والحشرات . ولقد وصف الجدول المتقدم من غير مبرر فى الحقيقة بأنه النظام التقسيمى القونى .

فهو ليس تقسما بالمعنى العلمى المعروف الآن فى استعمال الكلمة فى تقسيم المملكة الحيوانية .

ولكن لدينا مع ذلك نوعا محدودا من ترتيب الحيوان حسب طبائعه المفترضة ، ونبدأ هذه الفقرة بذوات الشدى مقسمة الى مستأنسة ووحشية والأخيرة مرتبة حسب هجومها وتليها



(شكل ٢ اسكوريوس)
المتحف البريطاني القرن الرابع قبل الميلاد



(شكل ١ ايفراط)
المتحف البريطاني القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد

الطيور الأرضية ثم الطيور المائية ثم الأسماك وقسمت الأسماك إلى الأقسام الآتية :

- (١) الأسماك التي تغطي الشواطئ .
- (٢) الأنواع التي لا تغشاها .
- (٣) الأسماك الغضروفية أو السيليشية وهي وإن لم تسم بهذا الاسم فقد جمعت معا .
- (٤) الأنواع التي تهوى الطين .
- (٥) أسماك الماء العذب .

وأخيرا يأتي ذكر حيوانات لا فقرية مرتبة ترتيبا ما حسب تركيبها . وخاصة هذا التقسيم هو تمييز السمك عن باقي ذوات الفقرات وتميز عديمة الفقرات عن كلاً النوعين ومن الخمسين حيوانا التي ذكرت في الجدول لا يقل عدد أسماء الأسماك فيها عن العشرين وهو نحو خمس العدد الذي عني بدراسته ارسطاطاليس ولكن يجب ألا يعزب عن فكرنا أن الجدول قد اقتصر على ذكر الأنواع الصالحة للأكل .

إن أقل ما نتبينه من وجود هذا الكتاب عناية القوم في القرن الخامس بدراسة الأشكال الحيوانية دراسة متقنة صحيحة جدية بأن يقال عنها بحق انها علمية . ولا غرابة في كثرة أنواع السمك التي ذكرت وتفرداها باسماء في التفصيل والشرح عن المجاميع الأخرى . فالبحر الأبيض المتوسط مشهور بغناه على وجه خاص في هذه الأشكال . والاغريق شعب بحري ومؤلفاتهم مشحونة بالمجازات المقتبسة من حرفة صيد السمك ، وأنواع السمك المختلفة وجمالها وألوانها بقيت تؤثر في عقولها تأثيرا عميقا من العصر المينوي إلى

العصر البيزنطى كما يشهد بذلك فهم ومع ذلك فإن الخدمة التى أداها الأطباء الايقراطيون لعلمى التشريح ووظائف الأعضاء هذين العلمين اللذين يختلف فيهما تركيب الانسان والحيوان المستأنس عن سائر الحيوان لأعظم أثرا فى نمو دلم الحياة فيما بعد من هذه الملاحظات المتعلقة بطبيعة الحيوان وعاداته ، ومعظم المؤلفات البيولوجية القديمة الباقية من هذا العصر تقصر بحثها على طبيعة الانسان وتركيبه وتدل هذه المباحث على ميل لا ريب فيه نحو ترتيب هذه الموضوعات ترتيبا منسقا فنجد فيها تقسيما ووصفا للجسم فى أسباع من سطحه الى مركزه ومن قمة الرأس الى أخمص القدم ^(١) أو تقسيما الى أربع مناطق ^(٢) كما أن التعاليم الخاصة بالعناصر الأربعة والأمزجة الأربعة صارت ذات شأن عظيم وقد اقتبس ارسطاطاليس بعضها فيما بعد ونجد فيه أيضا تفسيرات عدة ميكانيكية عن تراكيب الأجسام ومقابلة بين حالات تشريحية مما نعر عليه فى الحيوانات المتقاربة النوع وتجارب فى حيوانات حية ^(٣) وتفريحا نظاميا لبيض الدجاج لدرس تطوره وموازنة بين نمو النبات وأجنة الانسان والحيوان ونظريات فى التناسل ومن بينها ما سمي بعد ذلك بعلم الجراثيم المنوية ، وهى محاورات عن بقاء الأقوى وتغلبه على الضعيف وهى تكاد تكون نفس نظرية بقاء الأصلح الحديثة ونجد فيه أيضا نظرية عن وراثة الصفات

(١) الأصل اليونانى فقد وفى حوزتنا ترجمة له قديمة بربرية باللغة اللاتينية

وطبع حديثا شرح له باللغة العربية فى ليبزج سنة ١٩١٤ G. Bergsträsser, Pseud-ogaleni in Hippocratis de septimanis commentarium ab Hunnino Q.F. arabice Versum, Leipzig, 1914.

(٢) περὶ νούσων δ'

(٣) περὶ καρδίας.



(شکل ۵)



(شکل ۶)

المكتسبة^(١) وكل ما ذكر لا يدل فقط على معارف واسعة بل يدل أيضا على السعى وراء استخدام أمثال هذه المعارف في أغراض الانسان واذا اعتبرنا كيف كان ارتباط علم الأحياء بالطب حتى العصور المتأخرة وكيف كان تأثير المؤلفات الابيقراطية قويا جوهريا فيمن أتى بعدهم مباشرة من الأمم القديمة وفي العصور الوسطى الى القرن التاسع عشر أدركنا خطر هذه التطورات .

هكذا كانت صفة الأفكار البيولوجية في القرن الخامس وأن الجليل الذي تأثر بهذه الحركة قد قام ببعض الأعمال المجيدة في العصر الذي تلا ذلك مباشرة ففي الكتاب الذي عنوانه "في التغذية" والذي ربما يرجع تاريخه الى نحو (٤٠٠ سنة قبل الميلاد) أتى ذكر النبض لأول مرة في المؤلفات اليونانية الطبية ونقرأ فيه عن نظام فسيولوجي ظل حتى عهد هارفي وعلى حسب هذا النظام تخرج الأوردة من القلب والشرابين من الكبد وفي نحو هذا التاريخ ظهر مؤلف آخر موضوعه "القلب" فيه وصف للبطينات والأوعية الكبيرة وصماماتها ومقارنة بين قلب الحيوان وقلب الانسان .

وقد ظهر بعد هذا بقليل وربما كان ذلك (في سنة ٣٩٠ قبل الميلاد) كتاب ثالث موضوعه "العضلات" وفي هذا الكتاب معلومات أكثر مما يتضمن عنوانه ففيه كلام عن نظام السبعات القديم ووصف للقلب بأنه يرسل الهواء والنار والحركة داخل الأوعية الدائمة، الحركة الى أجزاء الجسم المختلفة الحركة وقد لا يخلو هذا الوصف من التأثر بفلسفة هرقليتوس (حوالي ٤٤٥ — ٤٧٥ قبل الميلاد) وصاحب هذا الكتاب يعتقد أن الطفل وهو في بطن أمه يستنشق

(١) خصوصا في "περί γενεῆς."

الهواء والنار بضمه ويأكل وهو في الرحم ويوازن بين فعل الهواء في الدم وفعله في النار ثم انه جعل للمجموع العصبي المركزي أهمية ثانوية مخالفاً بذلك ماورد في بعض البحوث الايقراطية الأخرى إلا أنه أعنى عناية كبيرة بالحواس الخاصة وقال : ان المخ يرجع الصدى أثناء السمع وأن أعصاب الشم مجوفة متصلة بالمخ كما أنها تحمل اليه مواد متطايرة تجعله يفرز المواد المخاطية ثم انه فحص العين ووصف أغطيتها ورطوباتها وصفا تقريبيا وربما كان قد أشار الى عدسة العين البلورية لأول مرة في المؤلفات اليونانية ثم انه وازن بين عين الحيوان وعين الانسان . وفي الكتاب من البيانات ما يدل لا على اتباع طرق التشريح فحسب بل وعلى التجربة أيضا ونرى البداية البسيطة للفسيولوجيا الكيميائية فيما يحاوله من الموازنة بين مقاومة الأنسجة المختلفة لبعض العمليات كالغليان .

هناك مؤلف موضوعه التناسل هو أوفى من كل ما تقدم من الكتب وهذا الكتاب ربما يرجع تاريخه الى نحو (٣٨٠ قبل الميلاد)^(١) وان كان أقل منها في قوة الملاحظة وهو يدل على مؤلف ذي عارضة فلسفية قوية شغوف بالتفسيرات الفسيولوجية لكن يقعد به جهله بعلم الطبيعة قد أوتى في الواقع ضعف خلفه ارسطاطاليس وقوته الى حد قليل فالكتاب ينبئنا سلفا عن كتاب ارسطاطاليس القيم في التناسل وقد أسهب جدا في تقرير مبدأ في علم الجراثيم المنوية لا يختلف كل الاختلاف عن مبدأ دارون في نفس الموضوع ولأجل أن يفسر ظواهر الوراثة فرض أوعية تصل الى البويضة حاملة معها أمثلة لجميع أجزاء الجسم واعتقد

(١) ثلاث المؤلفات "التناسل" و "طبيعة الجنين" و "الأمراض" الجزء الرابع - تولى كلها في الحقيقة بحثا واحدا في التناسل .

بوجود قنوات تمر من جميع الأعضاء الى المخ ومنه الى النخاع الشوكي (أو النخاع الأصلي) ثم الى الكليتين ومنها الى أعضاء التناسل واعتقد أيضا بأنه يعرف الموضوع الحقيقي لاحدى هذه القنوات لأنه لاحظ خطأ أن التشريط خلف الأذن يسبب تعطيل المجرى و يؤدي الى العنة . وبناء على هذه النظرية لا يمانع في القول بوراثية الصفات المكتسبة وقال ان الجنين ينمو ويستنشق بواسطة مواد تنتقل اليه من أمه داخل الحبل السرى ونجد أيضا في هذا الكتاب وصفا مطولا بعينة مثيرة من الغشاء المخاطي للرحم اعتبرها المؤلف خطأ جنينا ولكن أقل ما تدل عليه ملاحظاته أنه أشد ما يكون رغبة في الوقوف على الحقائق (١) .

فؤلف كتاب التناسل المذكور آنفا هو اذا بيولوجى حسب الاصطلاح الحديث ومن الفقرات التي تظهره بهذه الصفة موازنته بين جنين الانسان وأفرخ الدجاج حيث يقول : ” الجنين فى غشاء توجد فى وسطه السرة التى بواسطتها يشهق الجنين ويزفر ويخرج الأغشية من الحبل السرى . . . وتجد أن تركيب الطفل من البداية حتى النهاية على ما وصفته آنفا . . . واذا شئت فأجر هذه التجربة : خذ عشرين بيضة أو أكثر واجعل دجاجتين أو أكثر تحتضنها ثم خذ بيضة منها كل يوم من ابتداء اليوم الثانى حتى يوم الفقس واكسرها ثم افحصها فستجدها كما قلت تماما لأنه يمكن تشبيه طبيعة الطائر بطبيعة الانسان و (سترى) أن الأغشية تخرج من الحبل السرى وكل ما قلته فى موضوع الطفل ستجد شبيهه فى بيضة الطائر وسيدهش من يقوم بهذه المشاهدات لوجود حبل سرى فى بيضة الطائر (٢) .

(١) طبيعة الجنين الفقرة ١٣ ، نفس التجربة مشروحة فى كتاب ” العضلات “

(٢) كتاب ” طبيعة الجنين “ الفقرة التاسعة والعشرين .

وقد أظهر المؤلف في تكلمه على النبات نفس الاهتمام الذي أظهره في بحث موضوع نمو الانسان والحيوان فقال : اذا أبقيت بذرة في الأرض فانها تتشبع بما فيها من العصارات لأن التربة تحتوى على عصارات من كل نوع تغذى بها النبات فاذا تشبعت البذرة بالعصارات تمددت وانتفخت وبذلك تنضغط القوة (الطاقة) المنتشرة فيها بالروح والعصارة فتتشقق وتصبح البذرة الأوراق الأولى ولكن يأتى على هذه الأوراق وقت لا يمكنها فيه أن تغذى من العصارات الموجودة في البذرة ولذلك تندفع البذرة والأوراق الى أسفل وتدفع الأوراق البذرة الى أن ترسل في الأرض بذلك الجزء من قوتها الذي لا يزال مركزا فيها وبذلك تتكون الجذور كأنما هي امتداد للأوراق فاذا أصبح النبات في آخر الأمر ثابت الجذور في الأرض وامتنص غذاءه منها انعدمت الحبة لأنها امتصت كلها خلا قشرتها التي هي أصلب أجزائها ومع ذلك فان القشرة تختفى أخيرا عن الأنظار بسبب تحللها في الأرض وبعد زمن يخرج بعض الأوراق أغصانا ولا يزال النبات رخوا ورطبا لأنه انما يولد من البذرة بواسطة الرطوبة ولا يمكن للنبات بعد أن يثمر لقوة نموه من أعلا ومن أسفل وذلك بسبب خلوه من صفتي القوة والادخار اللتين منهما يمكن أن تنشأ البذرة ولكن اذا مضى على ذلك زمن وأصبح أصلب عودا وأثبت جذورا تكونت فيه أوعية هي مسالك توصل الى أعلا وأسفل ولا يخرج من التربة ماء فقط بل يخرج أكثر من ذلك مواد أكثر من الماء وأدسم فاذا سخنت الشمس هذه المواد فعلت فعل الخميرة في الأطراف وولدت ثمرا من نوعه وعلى ذلك يكون الثمر كثيرا من قليل لأن كل نبات

يستمد من الأرض قوة أوفر كثيرا من القوة التي ابتدأ بها ولا يحصل الاختمار في موضع واحد بل في عدة مواضع (١) .

ولم يحجم هذا المؤلف عن تشبيه النبات بجنين ذوات الثدي فقال : ” بنفس الطريقة يعيش الطفل في رحم أمه وفي حالة مناسبة لصحتها وتستجد شبيهها تماما بين نتاج التربة ونتاج الرحم “ .
ولقلة الأمثلة التوضيحية المستمدة من المباحث النباتية في المؤلفات اليونانية القديمة كان خليقا بالذكر المقارنة الجلية بين تولد النبات من العقل وتولده من البذور التي ورد ذكرها في نفس الكتاب الآنف الذكر .

” أما بخصوص النباتات المتولدة من العقل يغرس جزء الغصن من حيث قطع من الشجرة فتخرج منه الجذيرات وهذه طريقة حصوله يستمد جزء النبات الموجود في التربة العصارات وينتفخ ويكون روحا بخلاف الجزء الخارجى ثم ان الروح والعصارة يركزان قوة النبات في أسفله فيصير أكثف ثم ينفجر الطرف السفلى ويولد جذورا رخوة ثم ان النبات يسحب العصارات بجذوره من الأرض وينقلها للجزء الذى يعلو التربة فيستغلظ ويولد روحا فتصبح القوة مركزه بعد أن كانت منتشرة في النبات وبذلك يخرج النبات شطاه وأوراقه فالعقل تختلف اذا عن البذور ففي حالة البذرة تتولد الأوراق أولا ثم ترسل الجذور الى أسفل وفي حالة العقلة تتكون الجذور أولا ثم الأوراق “ (٢) .

ولكن بلغ الطور الأول لعلم الحياة اليونانى أزهى تقدمه بهذه المؤلفات التي ظهرت في الجزء الأول من القرن الرابع أما المؤلفات

(١) كتاب ” طبيعة الجنين “ الفقرة الثانية والعشرين

(٢) نفس الكتاب

الايقراطية المتأخرة التي تبحث في الموضوعات الفسيولوجية فأحط
مستوى .

والواجب أن نبحث عن سبب خارجي لهذا القصور ولن
نتكلف البحث بعيدا فهذا العصر شهد قيام حركة كان لها أبلغ أثر
في كل دائرة من دوائر الفكر فنرى ظهور حركة فكرية عظيمة في العالم
اليوناني كانت نتيجتها تفهقر دائرة الفلسفة التي تبحث في الطبيعة
أمام الفلسفة الأخلاقية وكانت أتينا مركزا لهذا الانقلاب الفكري
الذي ربما لم يشهد العالم أعظم منه كما أن سقراط (٤٧٠ - ٣٩٩)
كان زعيمها ولا تعيننا الحركة نفسها أو نتيجتها التي امتازت بها ،
على أن الخلف العظيم لمنشئ هذا الانقلاب وتلميذه يكشف لنا
في الطيماوس (Timaeus) عن صورة للدرك الذي يمكن أن ينحط
إليه العلم الطبيعي بمحاولة أن يعطينا معنى خاصا عن الغاية من جميع
أجزاء العالم المنظور فالكتاب والصورة التي يرسمها هذا الكتاب بالرغم
من أنها سوداء وممقوتة للعقل الذي درج على الطريقة العلمية
الحديثة سيطر على فكر فريق كبير من البشر مدة تقرب من ألفي سنة
وتبدو الطبيعة العضوية في الكتاب المتقدم وهو لأفلاطون
(٤٢٧ - ٣٤٧) كأنما هي انحطاط للإنسان الذي جعله الخالق
في غاية الاتقان ثم ان المدرسة التي تمسكت بهذا الرأي انحطت أخيرا
بسبب فشلها في ترقية المعارف وأصبحت آراؤها على مر القرون
ترداد بعدا عن الظواهر وأن التطورات القريبة التي انتهت إليها
”الأفلاطونية الجديدة“ المتأخرة تبقى الى اليوم نذيرا لكل طريقة
تهمل التأمل في ظواهر الطبيعة .

ولقد جرت الأفلاطونية معها في سقوطها العلوم الطبيعية
وأهملت كل المعلومات البيولوجية المتقدمة فقضت بذلك عليها

ولكن الرياضيات فلائها ليست من مباحث الظواهر الطبيعية كانت أكثر موافقة لطبع الأفلاطونية الجديدة فاستمرت تتقدم حاملة معها هنيهة من الزمن علم الهيئة ذلك العلم الذى كان ذا أثر فى حياة الانسان والذى أصبح بسرعة خادما لعلم التنجيم وكذلك الطب الذى يقرر أحوال حياة الانسان نال أيضا رعاية وإن أخطأ فى كثير من الأحيان ولكن العلم الطبيعى المحض قد قضى عليه ومع أن النظر الى الطبيعة من الوجهة الأخلاقية قد غمر العلم فى آخر الأمر فان قيام ارسطاطاليس (٣٨٤ — ٣٢٢) ذى الشخصية القوية أوقف هذه الغمرة الى حين ومع هذا فان المؤلف فى علم الحياة اليونانى لبقى فى مركز غير حسن اذا وزن بأمثاله من مؤرخى الرياضيات أو علم الهيئة أو علم الطب اليونانى وذلك لقلة الموارد الكافية لتقديم بيان عن تطور المباحث البيولوجية قبل ارسطاطاليس ولقد بسط هذا الطبيعى الجليل نفوذه العظيم على علم الحياة اليونانى تمام البسط كما بسطه على شئ كثير من علم الحياة الذى جاء بعد ما

تشارلس سنجر

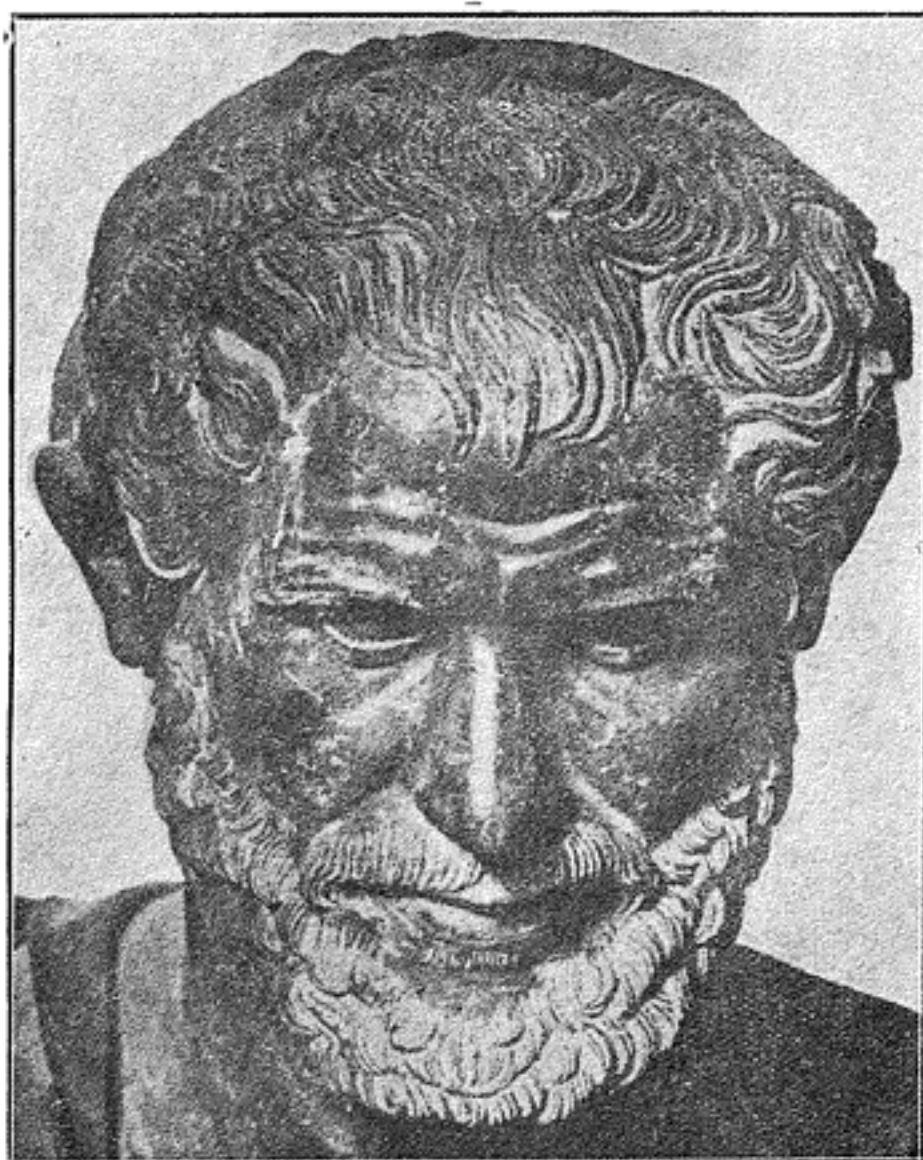
بعد ارسطاطاليس

كل ما بقي من المؤلفات البيولوجية الارسطاطاليسية تشير مبدئيا الى الحيوان. أما كتاب ارسطاطاليس في النباتات فقد ضاع أو بقي ولكنه ليس الا بقية محرفة ولكن من حسن الحظ أن لدينا كتابين كاملين من تأليف تلميذه وخلفه تيوفراسطس (٣٧٢-٢٨٧) وهذان لا يمكن اتحادهما فقط دليلا على النهج الأرسطاطاليسى نحو عالم النبات بل يشيران أيضا من طرف خفى الى الحالة العامة لعلم الأحياء في الجيل الذى أعقب ارسطاطاليس .

ورسالتا تيوفراسطس المتقدمتان من وجهات كثيرة أكمل وأنظم ما وصل الى وقتنا الحاضر من المؤلفات البيولوجية العتيقة جميعها ويعطينا فكرة عن نوع اللذة التى تنشأ فى نفس العالم الطبيعى العامل فى تلك الأيام عند ما يلهم عبقرية معلم عظيم بدل أن يلهم بقوة أفكاره الخاصة ذلك بأن تيوفراسطس يسير حيث يحلق ارسطاطاليس فالأول بالنسبة لأستاذه كالعلماء المورفولوجين

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالنسبة لدارون فقد وقف مجهود الطبيعيين ومهارتهم فى جميع العالم مدة جيلين بعد ظهور كتاب "أصل الأنواع" سنة ١٨٥٩ عند حد البحث فى تركيب الكائنات الحية وطريقة معيشتها بحثا تفصيليا على قاعدة فلسفة النشوء حتى أن معظم المباحث الخاصة بالمورفولوجيا وكثيرا من مباحث الفسيولوجيا من بعد زمن دارون يمكن اعتبارها تفسيراً لمؤلفاته وكذلك مؤلفات تيوفراسطس المذكورة تعطينا نفس الفكرة وهى تمثل الآثار، وبالأأسف تكاد تكون قاصرة على الآثار البيولوجية الباقية من مدرسة عمات فكرة عظيمة مدفوعة بذكرى

أرسطو أليدس



(شكل ٧)

مأخوذة من الهرقولانيوم
(يحتمل أن تكون من صنع القرن الرابع قبل الميلاد)

معلم عظيم وتشبه بحالتها هذه كثيرا من المؤلفات العلمية في أيامنا هذه التي يقوم بتأليفها رجال ليس لهم من العبقرية الا أنهم مزودون بتخيل وأمل ومثل أعلى وليس في قدرتنا أن نكتب عن أمثال هؤلاء الرجال كما نكتب عن ارسطاطاليس فكل أثرهم في الحياة مقصور على الأعمال التي قاموا بها فعلا وبما أن ثيوفراسطس مؤلف منظم ومؤلفاته قد وصلت إلينا في حالة جيدة فهو مقياس مناسب جدا للمستوى الحقيقي الذي أدركه علم الحياة العتيق . "لولا التخيل لهلك الناس" ولا يستطيع العلم أن يستمد حياته الا من ذلك النفر القليل جدا من الأنبياء الذين أمدوا العالم من آن لآخر أثناء العصور المختلفة بالكليات العظمى والأمثلة العليا . في ضوء هذه الحقيقة دعنا نفحص ما قام به ثيوفراسطس .

يكاد علم النبات جميعه حتى القرن السابع عشر يكون مكونا في الغالب من أوصاف الأنواع وذلك لعدم وجود أى نظام واف للتقسيم وكان وصف ورقة أو جذر وصفا دقيقا باللغة المعتادة في ذلك الوقت يستلزم غالبا عدة صفحات لكن علماء النبات الحديثين قد اخترعوا مصطلحات محكمة ومهما استقبلتها العين أو استقبلها السمع فإن لها فضلا عظيما في اختصار الكتابات العلمية ، وأما علماء النبات قبل القرن السابع عشر فكان لبعضهم هذه الطريقة الخاصة في التعبير والى بعض هذا النقص تعزى المجهودات المستمرة التي كانوا يبذلونها أثناء العصور لتمثيل النباتات بالرسم في كتب النبات الخطية منها والمطبوعة ، وبهذا أصبح من المتيسر الوقوف على تاريخ كاف للتصوير النباتي .

ويظهر أن ثيوفراسطس شعر بشدة الحاجة الى المصطلحات النباتية فهناك عدة حالات يؤخذ منها أنه حاول اعطاء معنى

اصطلاحى خاص لكلمات شائعة شيوعا كثيرا أو قليلا ومن أمثلة هذه الكلمات ما يأتى: "Carpos" للثمرة و"Pericarpion" لوعاء البذرة و"Metra" وهى كلمة أطلقها على الجوف المركزى لأى ساق سواء أكان مكونا من خشب أو لب أو أية مادة أخرى ، ولقد وصل إلينا بسبب استعمال ثيوفراسطس لهذه الاصطلاحات تعريف حقيقى للثمرة ولوعاء البذرة ^(١) ومن السهل أيضا ادراك السبب الذى من أجله أدخل كلمة "metra" فى علم النبات ، ومعناها فى الأصل "الرحم" وادراك الفراغ الذى ملأته الكلمة فى اللغة اليونانية ، وعن هذا يقول المؤلف "metra" هو ذلك الجزء من الخشب الذى يقع فى وسطه وترتيبه الثالث ابتداء من اللحاء فهو كالنخاع بالنسبة للعظام وبعضهم يسميه القلب وآخرون يسمونه الباطن بيد أن البعض يطلق لفظ القلب على الجزء الأوسط فقط من المترا نفسه بينما آخرون يسمون هذا الجزء النخاع ^(٢) فهو بذلك قد اخترع كلمة تشمل جميع الأنواع المختلفة للنباتات ناقلا إياها من مبحث آخر وهذه هى الطريقة المتبعة فى التسمية العلمية الحديثة وهى طريقة لم يكدها يعرفها علماء النبات حتى القرن السادس عشر بعد الميلاد فان واضعى أساس المصطلحات الحديثة هما سيزالينو ويواقيم ينج وذلك فى أواخر القرن السادس عشر وفى القرن السابع عشر .

(١) يجوز أن ثيوفراسطس اقتبس كلمة "Pericarp" من ارسطاطاليس وفى النبذة المذكورة فى الكتاب المسمى "De anima" ما يشعر بأن الكلمة المذكورة لم يكن لها المعنى الاصطلاحى التام الذى أعطاه لها ثيوفراسطس .

(٢) كتاب "Historia plantarum" الباب الأول ، الفصل الثانى ، السطر السادس .

لقد أدرك ثيوفراستس قيمة دراسة التطورات مستمدا هذا الإدراك من أستاذه قال: "لنبات قوة انبات في جميع أجزائه لأن الحياة موجودة فيها كلها ولذلك يجب النظر إليها لا بحسب ما هي بل بحسب ما تؤول إليه" (١).

ولقد فصل طرق تكاثر النبات تفصيلا صحيحا بطريقة تفوق ما جاء في الكتاب القديم الوحيد الذى بقى حتى الآن والذي عالج هذا الموضوع بالتفصيل ونعنى به مؤلف ابيقراط فى "التناسل" وقد قال فيه ان طرق توالد الأشجار والنبات هي: تكاثر ذاتى أو من بذرة أو من جذر أو من قطعة ممتلئة أو من فرع أو غصن أو من الجذع نفسه أو من أجزاء من الخشب قطعت قطعاً صغيرة (٢) ولا بد أن تكون أعجوبة الانبات قد أثارت دهشة القوم من قديم الزمان ولقد سبق أن رأينا أنها تشغل عقل مؤلف أقدم من هذا كما أنها كانت أيضا إحدى الشواغل الأولى الهامة لارسطاطاليس فليس عجيبا إذا أن تكون عملية الانبات قد شغلت أيضا ثيوفراستس الذى ترك آراء مدونة فى تكوين النبات من البذرة فقال فى بعض النباتات تنبت الجذور والأوراق من أحد طرفى البذرة وفى البعض الآخر ينبتان منفصلين كل من أحد طرفيها ففي القمح والشعير والقمح الألمانى وجميع ما شابه ذلك من الحبوب ينبت كل منهما من أحد الطرفين حسب وضع [البذرة] فى السنبلة فينبت الجذر من الطرف السفلى الغليظ والساق من الطرف العلوى ولكنهما ، الجذر والساق ، يكونان معا

(١) نفس الكتاب جزء ١ صفحة ١ سطر ٤

(٢) كتاب "Historia plantarum" جزء ٢ صفحة ١ سطر ١

شيئا واحدا متصلا ، وأما الفول وسائر البقول فليست كذلك ففيها ينبت الجذر والساق من نقطة واحدة هي موضع التصاقهما بالقرن حيث يكون منشأهما كما لا يخفى وفي بعض الحالات تكون ثم عملية يحدث منها أن ينمو الجذر متجها الى أسفل والورقة والساق الى أعلا كما في الفول والحمص وخصوصا الترمس . وفي بعض الأشجار تنبت فيها البرعمة أولا داخل البذرة ثم يزداد حجم البذرة فتتشق فكأن هذه البذور مكونة من فلقتين ومن الجلى أن جميع بذور النباتات البقلية ذات فلقتين وهي مزدوجة وإذا يخرج الجذر من غير ابطاء ولكن لا يحدث هذا في الحبوب لأن بذورها قطعة واحدة بل ينمو الجذر قبل (الساق) بمدة وجيزة وينبت كل من الشعير والقمح وحيد الورقة ولكن البسلة والفول والحمص تنبت متعددة الورقة ، لجميع النباتات البقلية جذر مفرد خشبي تتفرع منه جذور رفيعة جانبية ولكن للقمح والشعير والحبوب الأخرى جذور رفيعة عديدة تجعلها متشابكة .

وهناك تباين بين هذين النوعين ، فالنباتات البقلية لها جذر مفرد وأشطاء كثيرة جانبية علوية تخرج من الساق [المفرد] . . . بيد أن للحبوب عدة جذور تخرج منها عدة سيقان مجردة عن الأشطاء الجانبية “ (١) .

ولا شك أن ما تقدم يدل على ملاحظة دقيقة للطريقة التي بها نبتت البذور فهو يعين بالدقة الفرق بين ذوات الفلقتين والفلقة الواحدة الا أنه لم يعن بالبذرة من حيث فلقها عنايته بعلاقة الجذور

(١) كتاب “Historia plantarum” الجزء الثامن ، الصفحة الأولى ،

السطر الأول .

بالسيقان وفي ذوات الفلقتين أبان أن الجذر والساق يخرجان من نقطة واحدة وفي ذوات الفلقة الواحدة يخرجان من الطرفين المتقابلين للبذرة .

ولم يحصل تقدم حقيقى بعد ذلك فى موضوع البذرة النابتة حتى اختراع المجهر (الميكروسكوب) وظهر مؤلف هايمور (Highmore.) (١٦١٣-١٦٨٥)^(١) ومباحث ملبينى (Malpighi.) (١٦٢٨-١٦٩٤)^(٢) وجرو (Grew.) (١٦٤١-١٧١٢)^(٣) ذات الاستقصاء الواسع المدقق بعد منتصف القرن السابع عشر على أن ملاحظات تيوفراسطس كانت صحيحة وواضحة وتامة لدرجة يصح معها أن تكون عنوانا لصفحات المؤلفين المتقدم ذكرهم الذين أتوا بعده بألفى سنة .

قد كتب المتأخرون كثيرا عن علم الأقدمين بالنبات من حيث الذكورة والأنوثة ويمكن أن يقال أن ما من أحد من الكتاب الأقدمين كانت عنده أية فكرة واضحة عن العناصر التناسلية للزهرة ومع ذلك فإن الذكورة والأنوثة غالبا ما ينسبان إلى النباتات فقد ترى فى دواوين الشعراء شيئا عن "غرام النبات" تشبيها لها بالناس ، وكثيرا ما وصفت النباتات أيضا كأنها ذكر وأنثى

(١) كتاب "A History of Generation" مؤلفه "Nathaniel Highmore"

مطبع فى لندن سنة ١٦٥١

(٢) كتاب "Anatome plantarum" مؤلفه "Marcello Malpighi"

مطبع فى لندن سنة ١٦٧٥

(٣) كتاب "Anatomy of Vegetables begun" مؤلفه "Nehemiah Grew"

begun مطبوع فى لندن سنة ١٦٧٢

في المؤلفات البيولوجية العتيقة ويذهب بليني في ذلك بعيدا الى حد القول بأن بعض التلاميذ اعتبر أن جميع الأعشاب والأشجار ذات صفة جنسية^(١) ولكن اذا أمكن اختبار أمثال هذه الكتابات وجدنا أن ما سمي ذكورا واناثا هو عادة أنواع مختلفة من النبات ، وفي حالات قليلة وصف نوع عقيم من النبات كأنه الذكر ونوع مخصب كأنه الأنثى وفي بقية قليلة من الحالات اعتبرت نباتات أو أزهار من ذوات الأعضاء التناسلية المنفصلة كأنها ذكر وأنثى ولكن من غير فهم حقيقى لطبيعة الأزهار الجنسية ، يتبقى بعد ذلك النخيل ولقد عرفوا عن جنسه النباتى أكثر قليلا مما عرفوا عن غيره فقال تيوفراسطس : ”في حالة البلح يجب جلب الذكر الى الاناث لأن الذكور تنبت الثمرة في محلها وتنضجها وهذا ما يسميه البعض من طريق المقارنة ”استعمال التين البرى“^(٢) والعملية هكذا : عند ما يزدهر الذكر فانهم يفصلون في الحال الغمد الزهرى مع الزهرة ويهزون النوار بزهرته وطاعه فوق ثمرة الأنثى فاذا عولجت هكذا احتفظت الأنثى بالثمرة ولم تطرحها^(٣) ولقد عرف البابليون منذ عهد قديم جدا ما لغمد ذكر النخيل من صفة

(١) كتاب ”Naturalis Historia“ لمؤلفه ”Pliny“ الجزء الثالث عشر

صفحة ٤

(٢) الكلمة الغريية ”δλυνθίζειν“ التى ترجمت هنا بالعارة الآتية ”استعمال التين البرى“ مأخوذة من ”δλυνθός“ وهو نوع من التين البرى الذى قلنا ينضج ، والمعنى الخاص المقصود من الكلمة مفسر في كتاب آخر لثيوفراسطس مسمى De causis plantarum جز ٢ صفحة ٩ سطر ١٥ وبعد أن شرح الانضاج في التين قال ”لا يحصل نفس الشئ في البلح ولكن يحصل شئ شبيه به ولهذا سمي هذا الشئ“ ”δλυνθίζειν“ .

(٣) كتاب ”Historia plantarum“ جز ٢ صفحة ٨ سطر ٤

ثيوفراتوس



(شكل ٨)

مأخوذة من فيلا الباني

نسخة في القرن الثاني لليلاد عن صورة أقدم

التلقيح وقد ذكرها هيردوت (١) ورمز لها برمز شائع على الآثار
الآشورية .

ومقارنة تلقيح النخيل باستعمال التين البري تشير الى عملية "الأبر"
وأن تيوفراسطس يخبرنا بأن هناك أشجارا معينة منها التين عرضة
لأن تلقي ثمرها قبل الأوان ولعلاج هذه الحالة تتبع "طريقة الأبر"
وحشرات العفص تخرج من التين البري المعلق هناك وتأكل قمم
التين المزرع وبذلك تجعلها تنتفخ (٢) . وهذه الحشرات العفصية
"تنشأ من البذور" (٣) وقد فرق تيوفراسطس بين تطبيق العملية
في التين وتطبيقها في البلح ملاحظا "أن في كليهما (التين والبلح)
يساعد الذكر الأنثى لأنهم يسمون (النخلة) الحاملة للثمر بالأنثى،
لكن بينما يتحد الجنسان في أحدهما فإن الأمر ليس كذلك
في الآخر" (٤) .

لم يوفق تيوفراسطس جد التوفيق الى تمييز طبيعة العناصر الأولية
للنباتات ولو أنه كان في مكتته أن يفرق بين الجذر والجذع والورقة
والأذين والزهرة من الوجهة المورفولوجية وكذلك من الوجهة
الفسولوجية لحد ما . وقد اختار للجذر التعريف المشهور الوحيد
الممكن اختياره قبل ظهور علم الكيمياء وهو (ما يمتص به النبات
الغذاء) (٥) وهذا الوصف ينطبق على الشرح الذي أورده مؤلف
كتاب التناسل قبل زمن أرسطو . وقد بين تيوفراسطس بأمثلة

- (١) كتاب "Herodotus" جزء ١ صفحة ١٩٣
(٢) "Historia Plantarum" » ٢ » ٨ سطر ١
(٣) نفس الكتاب » ٢ » ٢
(٤) "Historia Plantarum" » ٢ » ٨ » ٤
(٥) نفس الكتاب جزء ١ صفحة ١ سطر ٩

عديدة أنه قادر على تتبع النظائر المورفولوجية فقد فطن الى أن اللبلاب تنبت له جذور من الأغصان التي تتخلل الأوراق وبها يستطيع أن يعلق بالأشجار والجدران^(١) وأن الدبق لا ينبت الا على قشور الأشجار الحية حيث تتغلغل جذوره وأن التكوين الخاص الذي يمتاز به شجر (المانجروث) يمكن تعليله بأن هذا النبات تنبعث له جذور من الأغصان حتى تتصل بالتربة فتكون جذورا أخرى وبذلك تتكون حول الشجرة دائرة من الجذور لا ارتباط بينها وبين الجذع الأصلي بل توجد على بعد منه^(٢) على أنه لم يفلح في التفرقة بين طبيعة بعض التكوينات كالبصيلات والريزومات والدرنات ولم يكن أوفر حظا في بحثه في طبيعة الجذوع ، أما الأوراق فكانت أفكاره عنها جلية مرضية ولو أنه ضل ضلالا كبيرا في بحثه عن وظائفها ، فلا شك عنده في أن الورقة الريشية لشجرة لسان العصفور الجبلية ورقة وليست فرعاً .

وعلى الرغم من قصوره عن ادراك كنه التناسل في الأزهار فقد توصل الى فكرة تقريرية صحيحة عن العلاقة بين الزهرة والثمرة فيقول عن بعض النباتات ان (الزهرة) تكون حول الثمرة نفسها كما في الكروم والزيتون وان أزهار الزيتون تظهر حين سقوطها كما لو كان هناك ثقب يخترقها ويتخذ من ذلك دليلا على طيب ازدهارها فان الزهرة اذا احترقت أو لم يتم نضوجها سقطت مع الثمرة وبذلك تصبح غير مثقوبة . ونجد غلاف الشجرة في أغلب الأزهار في الوسط وقد توجد الزهرة أعلى غلاف الثمرة كما هي في الرمان والتفاح

(١) نفس الكتاب جزء ٣ صفحة ١٨ سطر ١٠

(٢) كتاب "De causis plantarum" جزء ٢ صفحة ٢٣

والكثيرى والبرقوق والآس لأن بذورها توجد أسفل الزهرة ، وأحيانا نجد الزهرة أعلى البذور نفسها كما فى جميع النباتات الشبيهة بالعوسج ^(١) وبذلك نجح تيوفراسطس فى التمييز بين أنواع الأزهار السفلية الالتحام والدائرية الالتحام والعلوية الالتحام وكاد يصل الى أن يعد علاقة الزهرة بالثمرة العنصر الضرورى للزهرة .

وكانت لدى تيوفراسطس فكرة تامة الوضوح عن توزيع النباتات من حيث توقفه على التربة والمناخ ويخيل اليك أحيانا أنه على وشك الانتقال من ذكر توزيع المناخ الى بحث مناطق جغرافية حقيقية ، وقد بقى البحث العام فى توزيع النباتات زمنا طويلا عند الحد الذى تركه عنده ان لم يكن قد تراجع عنه وقد شوه قيمة المخطوطات والمطبوعات النباتية القديمة التى وجدت فى بلاد الغرب عدة قرون التمسك بوصف للنباتات أعد للشرق اليونانى والجنوب اللاتينى ، وكادت هذه المؤلفات تكون خلوا من كل فائدة لولا ما احتوته هنا وهناك من رجوع الى الطبيعة ولما مات تيوفراسطس حوالى (سنة ٢٨٧ قبل الميلاد) انقرض علم الحياة النظرى من العالم الاغريق لدرجة كبيرة وذلك هو نفس الانحلال الذى دب ديبه فيما بعد فى الأفرع العلمية الأخرى فلم تعد تحد والناس الى العلم الرغبة فى المعرفة بل أصبح العلم دراسة تطبيقية خاضعة للفنون العملية . وتلك الروح لا بد أن تعود بالضرر على العلوم التطبيقية نفسها فى آخر الأمر . على أن القرون التى تلت ذلك العهد لم تخل من كتاب ذوى مقدرة كبيرة فى علم الحياة . وقد شبت دعائم علمى التشريح والفسىولوجيا فى المدرسة الطبية بالاسكندرية من حوالى (سنة ٣٠٠

(١) كتاب Historia plantarum جزء أول صفحة ١٣ سطر ٣

قبل الميلاد) على أن مركزهما كان دائماً ثانوياً بالنسبة لعلم الطب وما زال كذلك من ذلك العهد . وقد اشتهر اثنان من تلك المدرسة وهما هيروفيلوس وأراسيستراتس ولا بد لنا من ذكرهما في مكان آخر^(١) وقد اختفت مؤلفاتهما ولدينا منها مجرد نبذ ومع ذلك فقد كان هناك كتاب عديدون في القرن الأخير السابق للمسيحية والقرنين الأولين من صدر المسيحية وقد بقيت أجزاء من مؤلفاتهم ذات قيمة بيولوجية كبيرة . نذكر من بينهم كراتياس وهو كاتب نباتي ومصوّر يرجع إليه فضل كبير في التوسع في طريقة تمثيل النباتات بانتظام بالرسوم دون الوصف ان لم يكن هو في الواقع مبتكر هذه الطريقة وهذه الطريقة على ما لها من أهمية للآن كانت أعظم شأنًا في عصر لم يوجد فيه نظام موافق للتسمية النباتية وقد صوّر كراتياس النباتات ومن المحتمل أن تكون قد وصلت إلينا نسخ من صورهِ .

فاستن بذلك سنة استقرت حوالى القرن الخامس وظلت ثابتة تقريباً حتى العودة الى اكتشاف الطبيعة في القرن السادس عشر وقد كان طبيباً لمتريداثس السادس يوباتور (١٢٠ — ٦٣ قبل الميلاد) ولكن كانت لمؤلفه شهرة ومكانة في روما التي أصبحت موئل العبقريّة الاغريقية^(٢) .

(١) انظر فصل الطب اليوناني المرافق لهذا الفصل .

(٢) طبع م . ولمان حديثاً القطع الباقية من مؤلفات كراتياس وألحقها بكتاب ديسقوريدس المسمى "De materia medica" في ثلاثة مجلدات مطبوع في برلين سنة ١٩٠٦ — ١٧ الجزء الثالث صفحة ١٤٤ — ١٤٦ وقد بحث نفس المؤلف مصدر رسومه النباتية وما آلت إليه في كتابه المسمى "Krateuas" المطبوع في برلين سنة ١٨٩٧ .

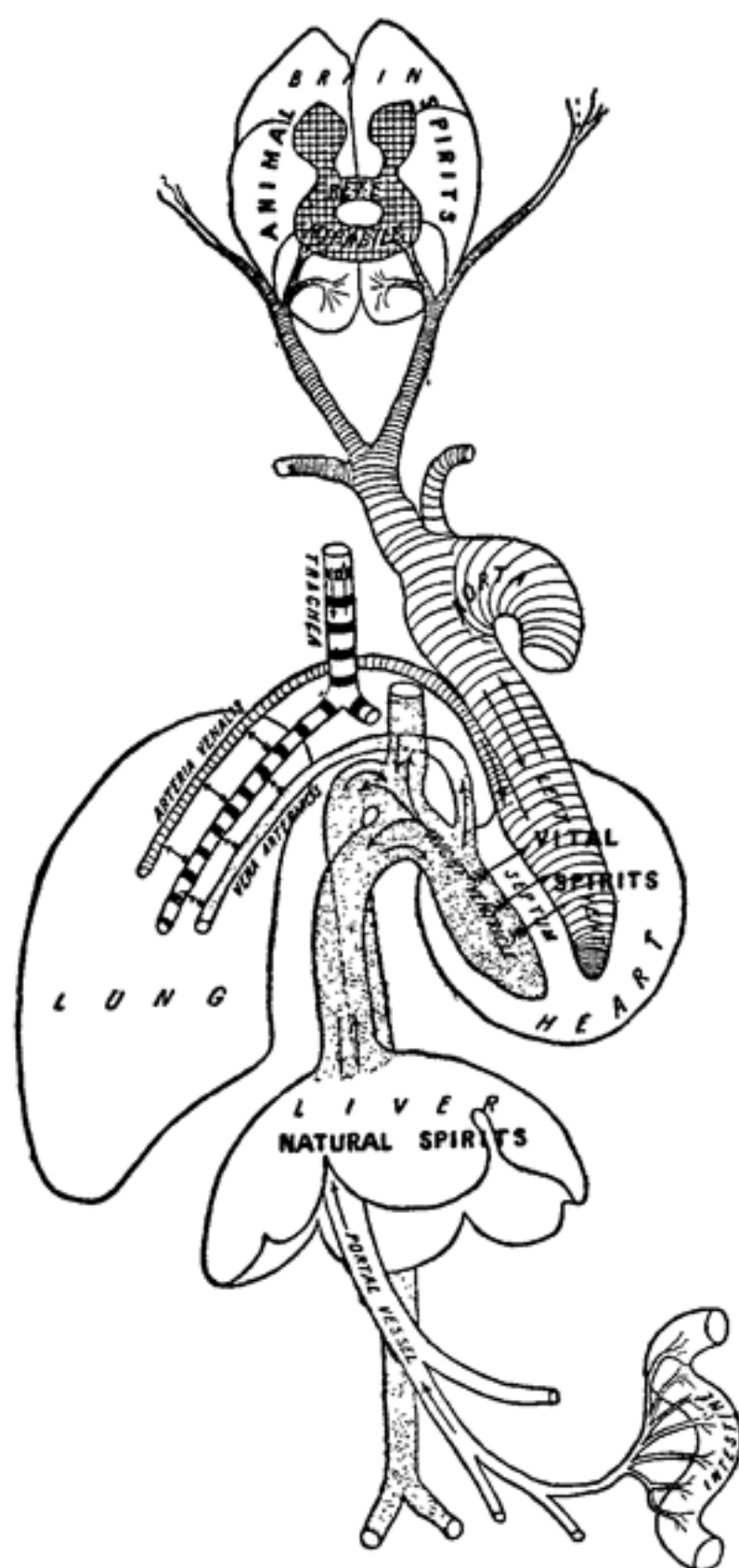
وقد كتب سلسوس الذى اشتهر (حوالى سنة ٢٠ قبل الميلاد) كتابا قويا فى الطب ولكنه لم يكتب فى التشريح والفسولوجيا الا النذر اليسير على أن روفوس الأفسوسى قام فى القرن التالى بتشريح القردة والحيوانات الأخرى . وقد وصف تقاطع الأعصاب البصرية وغلاف العدسة البلورية وكتب أول وصف جلى لتركيب العين باق حتى الآن وكان يعتقد بتفرع الأعصاب من المخ وكان يفرق بين أعصاب الحركة وأعصاب الاحساس وقد وصف قناة المبيض فى الأغنام .

وكان محقا فى اعتقاده بإمكان الحياة مع عدم وجود الطحال .

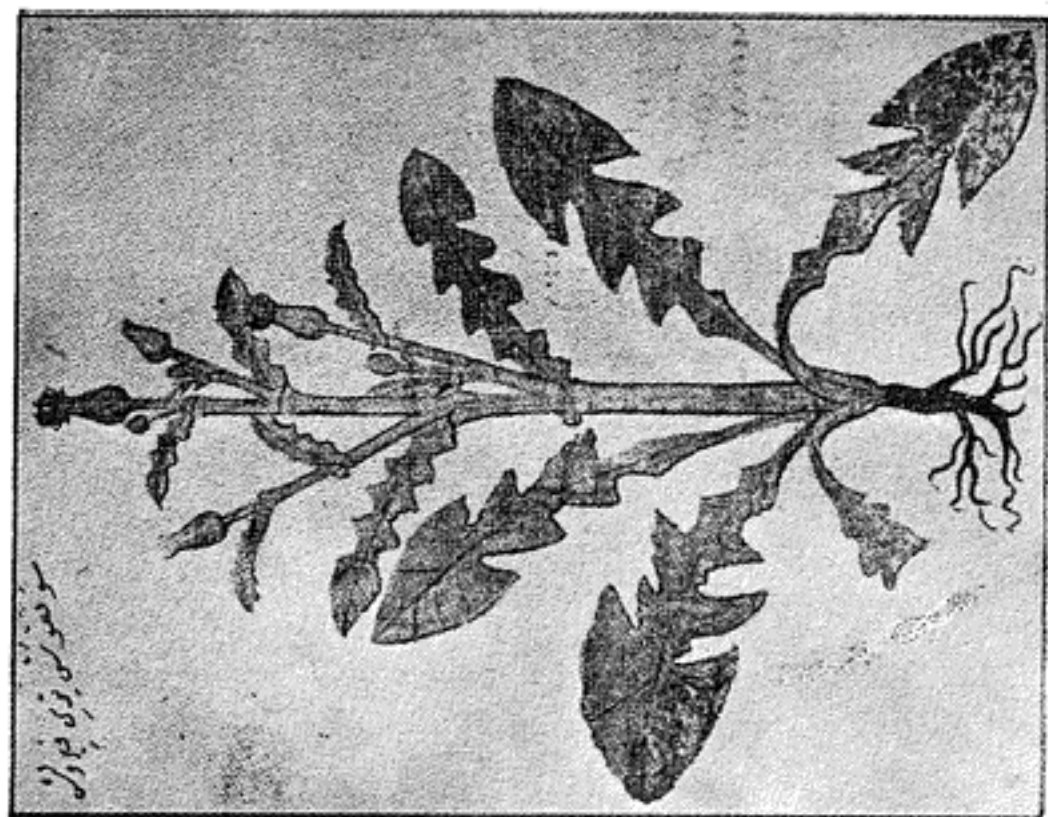
وقد ظهر فى القرن المسيحى الثانى كاتبان هما پلبنى وديسפורيدس وهما ان لم تكن لهما أهمية من الوجهة العلمية فانهما كانا أهم من نقل إلينا تقاليد الاغريق فى علم الحياة الى العصور الوسطى على الرغم من أن پلبنى الذى عاش (من سنة ٢٣ الى سنة ٧٩ بعد الميلاد) كان لاتينيا فانه مدين لكتب الاغريق بكل ما أودع دائرة معارفه من الطرائف ونجد فى كتابه عن التاريخ الطبيعى مجموعة من الآراء الشائعة فى كنه النباتات والحيوانات وأصولها ومنافعها وذلك ما كان منتظرا من شخص نابه مجد أمين ينتمى الى طبقة الملاك لم يؤت قدرة على النقد وليست له كفاية علمية خاصة والكتاب تافه من الوجهة العلمية على أنه لا مندوحة من ذكره كلما تصدينا لدرس مخلفات اليونان فقد مرت عصور عديدة كان فيها ذلك الكتاب أهم مرجع للتعالم والمشاهدات القديمة فى التاريخ الطبيعى فقد تصفح الناس جزءا كبيرا من مؤلفات پلبنى فى جميع العصور سواء فى ذلك أعرقها فى الجهالة أو أكثرها اشراقا بنور العلم ثم عمدوا

الى نقله واعادة نقله ثم الى ترجمته وشرحه والاقتباس منه واختصاره حتى تسرب بالتدريج الى ألسن الخلق ، فاليه يرجع الفضل فيما يتردد على ألسنة العرافين من النور الى يومنا هذا من صيغ شوهاء لقوانين ارسطو وأبيقراط التي يرجع تاريخها الى ٢٥٠٠ عام مضت .

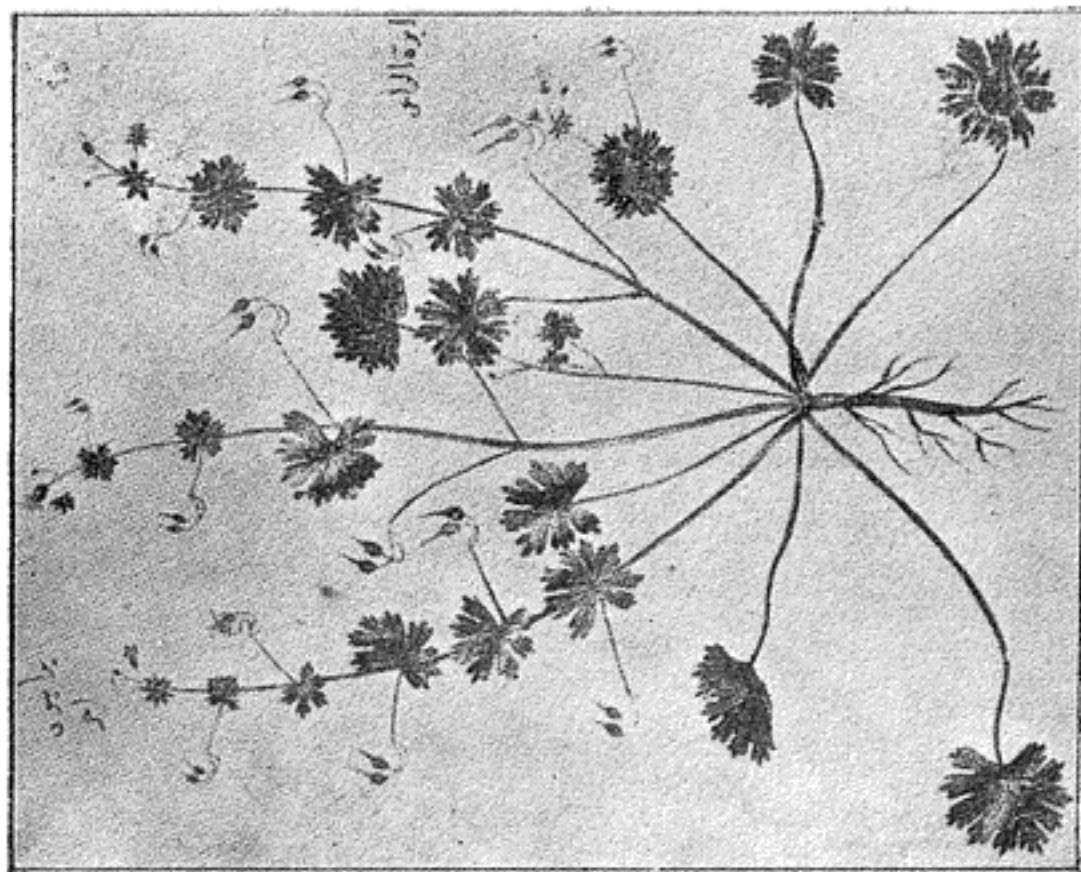
ولم يختلف ما أصاب ديسفوريدس عن ذلك فكتابه في المادة الطبية يحتوى على مجموعة من شروح موجزة للنباتات يكاد يكون ترتيبها غير متوقف على طبيعة النباتات نفسها ، على أنها جزيلة الفائدة لما حوته من أوصاف محكمة مدهشة تضمنت في الغالب ذكر الطبائع والمواطن . وقد دل تاريخ هذا الكتاب على أنه من أكبر المؤلفات النباتية أثرا فهو مصدر جل المعلومات النباتية الضئيلة التي وصلت الى القرون الوسطى . وكان أكبر حاث على القيام بالأبحاث النباتية في عصر النهضة ومنه اتخذت كل فارما كوبيا عصرية شكلها العام واليه يرجع كل الفضل في التسمية العصرية للنباتات سواء أكانت علمية أم دارجة واذ كان كتابه قد ترجم الى جميع اللغات تقريبا من الانجليزية القديمة والبوهيمية الى العربية والعبرية ونشر مختصرا وكاملا فيما لا يحصى من المخطوطات البديعة الزخرف التي لا يزال بعضها بين أجمل كنوز الكتب الأهلية فقد مرت قرون كان فيها ديسفوريدس بائع العقاقير محبوبا من طائفة العقول المصبوغة بالصبغة المدرسية وان في كثرة ما نجد في أوراق البردى من النبذ المأخوذة عنه لدليلا على مكانة مؤلفه في مصر في القرنين الثالث والرابع ومن أقدم المخطوطات الاغريقية الموجودة والتي يمكن الرجوع الى تاريخها مجلد فاخر لديسفوريدس مكتوب بالحروف



(شکل ۱۱)



کریپس بالودوسا
(شکل ۹)



جرانیم هایریناکوم
(شکل ۱۰)

الكبيرة ^(١) وكانت له من القيمة ما جعله جديرا بأن يكون هدية عرس لسيدة كانت ابنة أحد أباطرة الرومان وخطيبة لآخر ^(٢) ورسوم هذا المؤلف الخطى الذى ظهر فى القرن الخامس هـ أثر ثمين جدا لتاريخ الفنون وأثنى درة تباهى بها المكتبة التى كان يطلق عليها اسم المكتبة الملكية بثينا (شكلا ٩ و ١٠) ^(٣) وظهرت لديسقوريدس تراجم لاتينية مصورة وكانت متداولة فى زمن كاسيودورس (٤٩٠ — ٥٨٥) وهناك مؤلف آخر مؤسس عليه ومحلى مثله بالصورة إلا أن اسم مؤلفه أيوليوس وهو من أكثر الكتب النباتية شيوعا فى العصور الوسطى ويرجع تاريخ أقدم نسخة باقية الى عصر كاسيودورس نفسه ^(٤) وقد ظلت مؤلفات ديسقوريدس بعد نهضة العلوم موضوع بحث عدد كبير من نوابغ النباتيين واللغويين فتعددت طبعتها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وكان كثير منها محلى برسوم فاحرة .

(١) الكتاب الخطى الذى نبحث فيه هو "Med. Graec" الجزء الأول ويوجد فى المكتبة التى كانت سابقا المكتبة الملكية بثينا وهو المشهور باسم "Constantinopolitanus" وقد نقل بعد الحرب الى سان مارك بفينسيا ولكنه إما أن يكون قد نقل الى فينا أو على وشك أن ينقل اليها وقد نشر سيجنوف صورة طبق الأصل لهذا الكتاب الخطى الفخم فى لندن سنة ١٩٠٦

(٢) هذه السيدة هى جوليانا أنيسيا ابنة أنيسيون أوليريوس امبراطور الغرب سنة ٤٧٢ وامراته بلاسيديا ابنة فالنتينيان الثالث وقد خطبها الامبراطور الشرقى زينو سنة ٤٧٩ لتبودر الاستروجوتى لكنها تزوجت أريوبندوس وهو ضابط حربى عظيم كان يعمل تحت امرة الامبراطور أناستاسيوس البيزنطى وربما كان ذلك سنة ٤٨٧ حين أهدى لها الكتاب الخطى .

(٣) وقد بحث شارل سنجر أهمية هذا الكتاب الخطى ومركز ديسقوريدس كطبيب نباتى فى مقال عنوانه البيولوجيا الاغريقية ونهضة البيولوجيا العصرية فى كتاب بحث فى تاريخ العلوم وأساليبها والمجلد الثانى المطبوع فى أكسفورد سنة ١٩٢١ .

(٤) ويوجد هذا الكتاب الخطى فى مكتبة الجامعة بليدن بمر ٩ Voss Q

على أن أعظم البيواوجيين في العصر الاغريق المتأخرو ومن أعظمهم في جميع العصور هو كلوديوس جالينوس البرجموني الذي عاش من (سنة ١٣١ الى سنة ٢٠١ بعد الميلاد). ولقد عني جالينوس من حداثة بدراسة الطب . وفي الحادية والعشرين من عمره نعلم أنه درس التشريح تحت اشراف بلوبس بأزمير وقد قام في أول أمره برحلات طويلة الى آسيا الصغرى ليزيد معلوماته عن العقاقير ثم رحل الى الاسكندرية ليهذب معلوماته عن التشريح وهنا يخبر بأنه فحص هيكلًا عظيمًا بشريًا ومن المحتمل أن إلمامه بالتشريح البشرى بطريقة عملية مباشرة كان قاصرا على الهيكل العظمى وأن الأجسام البشرية لم تكن تشرح في عهده وعلى ذلك لم يكن له بد من استقاء معلوماته في الفسيولوجيا والتشريح من مصادر حيوانية على الأخص وقد بز الكتاب القدماء في العلوم من حيث عدد ما كتبه من المجلدات وهو من أكثر الكتاب القدماء تأليفا في أى علم ولا يهمننا هنا ما حوته تلك المجلدات الضخمة من المعلومات الطبية ولكن سنقتصر على الآراء الفسيولوجية التي لم تسد في عالم الطب حتى زمن هارفى وبعده فحسب بل سيطرت على أفكار رجال العلوم والجمهور فيما يختص بطبيعة الجسم البشرى والعمليات الداخلة فيه خمسة عشر قرنا ودخلت في صلب كلامنا مدة قرون . والوقوف على آراء جالينوس الفسيولوجية لا مناص منه لاجادة فهم تاريخ علم الحياة وهو يفسر ما يعسر من كتابات أدبية يرجع تاريخها الى القرون الوسطى وعصر النهضة .

وكان الطب منقسما بين عدد كبير من الطوائف في الزمن الواقع بين تأسيس المدرسة الاسكندرية وعصر جالينوس على أن جالينوس كان يتخير من كل شئ أطيبه .

فاستقى بعض تعليماته من كثير من هذه الطوائف بيد أنه كان فوق ذلك طبيعيا ذا قدرة ومثابة عظيمتين وكان على علم تام بقيمة طريقة التجربة ولكنه كان فيلسوفا جعجا لدرجة ما ، وكان من زهوه بمواهبه الفلسفية لا يتردد في استخلاص نتائج من شواهد ليست كافية في جميع الأحوال وسنشرح باختصار النظام الفسيولوجي الذي توصل اليه (شكل ١١) .

ان المبدأ الأساسي للحياة تبعا للفسيولوجيا الجالينوسية اثر هوائى يكتسب من الروح العالمى العام أثناء عملية الشهيق فيدخل الجسم عن طريق الشريان الحشن (المسمى فى العصور الوسطى "arteria aspera" وهو العضو المعروف لنا الآن باسم القصبة الهوائية) .

و ينتقل الاثر الهوائى من الحنجرة الى الرئة ومن ثم الى البطن الأيسر عن طريق الشريان الشبه الوريدى (ما يسمى "arteria venalis" فى العصور الوسطى وما نسميه الآن الوريد الرئوى) ويجعل بنا أن نترك الاثر الهوائى برهة ونتبع الجهاز الوعائى فى طريق آخر .

فالطعام الصادر الى المعدة بعد مروره فى القناة الهضمية يمتص من الأمعاء فى صورة كيلوس ثم يجمعه الوعاء البابى ويحمله الى الكبد وهذا العضو حسب رأى جالينوس ، مركز الحرارة الطبيعية وله قدرة على تحويل الكيلوس الى دم وريدى وعلى اكسابه اثرا يسمى بالاثير الطبيعى (ما يسمى "Spiritus naturalis" فى العصور الوسطى) وهو غريزى فى كل مادة حية ما دامت على قيد الحياة . فاذا تحمل الدم الوريدى بها وبالمواد المغذية المأخوذة من الطعام

قام الكبد بتوزيعه بواسطة الأوردة التي تتفرع منه كما تتفرع الشرايين من القلب وتقوم هذه الأوردة بنقل الغذاء والاثير الطبيعى الى جميع أجزاء الجسم . وقد مرت أجيال كان فيها شعار الفسيولوجيا الحالينوسية أن الكبد منبع الأوردة . وكانوا يعتقدون أن الدم دائم السريان ذهابا وجيئة في الأوردة أثناء الحياة .

وينخرج من الكبد وعاء كبير هو الوريدى الكبدى وكانوا يعتقدون أن الأوردة الأخرى تخرج من شعب منه . وأحد هذه الأفرع ، هو المعروف لنا باسم الوريد الأجوف السفلى يدخل الجانب الأيمن من القلب أما الدم الذى يحمله الى القلب فله مصيران ، فالجزء الأكبر يبقى قليلا في البطن حيث يتخلص مما به من المواد الفاسدة والأبخرة ونفايات الأعضاء التي يحملها الوريد الشبه الشريانى (المسمى "Vena pulmonalis" في العصور الوسطى والمعروف لنا باسم الوريد الرئوى) الى الرئة حيث تنطرد الى الهواء الخارجى . والمواد الفاسدة ، والأبخرة هي التي تكسب النفس صفاته السامة الخائفة . فاذا ما تخلص الدم الوريدى مما به من المواد الفاسدة غادر البطن الأيمن ثانية الى الجهاز الوريدى . أما الجزء الأصغر من الدم الوريدى الذى دخل البطن الأيمن فله مصير آخر فهذا الجزء من الدم الوريدى الأصغر الذى لا يزال محملا بالاثير الطبيعى المكتسب من الكبد يمر في قنوات دقيقة في الغشاء الذى يفصل البطنين ثم يدخل الفجوة اليسرى وعند وصوله يلاقى الاثير الخارجى فيتحوّل الى شكل أسمى من أشكال الاثير وهو الاثير الحيوى (Spiritus Vitalis) الذى يوزعه الجهاز الشريانى مع الدم على جميع أجزاء الجسم وهو يسرى أيضا ذهابا وجيئة في الجهاز الشريانى ويمكن رؤية نبضه أو ادراكه باللس هنالك .

ولكن توجد من بين الأوعية الشريانية التي ترسل الدم الشرياني المحمل بالاثير الحيوى أوعية خاصة تصعد الى المخ وقبل وصولها اليه تنقسم الى قنوات دقيقة وعند مرورها فى المخ تتحول بفعله الى نوع من الاثير أرقى من السابق يسمى بالاثير الحيوانى وهو مادة اثيرية تقوم بتوزيعها على أجزاء الجسم المختلفة التكوينات المعروفة لنا الآن بالأعصاب والتي كانوا يعتقدون حينذاك أنها قنوات جوفاء . وعلى ذلك فقد كان بدء ذكر القوى الأساسية الثلاثة ، وهى الطبيعة والحيوية والحيوانية التى تحدث وظائف الجسم المقابلة لها وصفا للقوة الأولية أى الاثير .

ويمكننا أن نؤكد أن هذا النظام الفسيولوجى لم يكن نتيجة بحث فى التشريح البشرى فالمخ البشرى ليس به "rete mirabile" مع أن مثل هذا العضو موجود فى العجول وليس بكبد الانسان ويريد كبدى مع أن هذا العضو موجود فى الكلب وقد شرح جالينوس كثيرا من الكلاب والعجول والخنزير والديبة فضلا عن قردة بلاد البربر وهذه هى الحيوانات التى استقى منها آراءه الفسيولوجية ويرجع كثير من أغلاط جالينوس فى التشريح والفسيولوجيا الى أنه ينسب لحيوان تركيب حيوان آخر ولم تتجلى هذه الحقائق للمشرحين الا فى عصر النهضة بتدرج بطىء . ولقد حوى عدد قليل من مؤلفات جالينوس كل ما كان معروفا للعالم فى علم الفسيولوجيا من القرن الثالث الى القرن السابع عشر وكل الأفكار البيولوجية تقريرا لغاية القرن الثالث عشر وجل علم التشريح وشيئا كثيرا من علم النبات حتى القرن السادس عشر وكل الآراء الشائعة فى العصور الوسطى فى التركيب الطبيعى للكائنات الحية . وقد ظلت مؤلفات ارسطو وتيوفراستس بين الحياة والموت

في هيئة بضعة مخطوطات نادرة في أديرة الشرق وقد اندثر كل الاندثار ما تمخضت عنه عقول المجدين بالاسكندرية وبرجامون في مئات من السنين وانسحب ذيل النسيان على مؤلفات اليونان البيولوجية التي نجا منها أنموذج واحد بأعجوبة ولكن مؤلفات جالينوس الضخمة التي ديدنها الثثرة وسوء الترتيب ظلت باقية، ولما كانت قد ترجمت الى اللاتينية والسريانية والعربية والعبرية فقد نهلت منها عقول المفكرين في العصور الوسطى. وقام بشرحها بعض كتاب الاغريق المتأخرين ثم ترجمت كتب هؤلاء الى نفس اللغات المذكورة ثم ظهرت ثانية بأسماء بعض كتاب الاغريق أمثال أوريباسيوس وپول الاجنائى واسكندر الترابلسي، وما السر في تلك القوة الحيوية التي أودعت أفكار جالينوس؟ يمكن الاجابة على هذا السؤال في بضع كلمات وهي: أن جالينوس كان ممن اتفق أن طابقت آراؤهم الروح الدينية السائدة في العصور الوسطى سواء أكانت مسيحية أو اسلامية أو يهودية. وتبعاً لآرائه يكون مصدر كل شيء في جسم الانسان تبدو عليه مظاهر النشاط كائناتاً زكياً يخلقه وفق خطة حكيمة وعلى هذا يكون العضو من حيث تركيبه ووظيفته نتيجة تلك الخطة وكان من بليغ حكمة الخالق أن تخير أفضل الوسائل للوصول الى أغراضه الخيرية ومما يدل على قدرته أنه خلق كل شيء حسن تبعاً لخطته وبذلك حقق مشيئته^(١).

(١) وهناك مثال حسن يبين وجهة نظر جالينوس وهو وصفه للبدن ذلك الوصف المشهور في عالم الأدب — في كتابه المسمى منافع أجزاء جسم الانسان الجزء الأول . وقد ترجم توماس بلوت هذه القطعة الى الانجليزية في رسالة طبعت

أعقب جالينوس ألف سنة سادت فيها الجهالة وانقطعت سلسلة تاريخ علم الحياة . فقد اتجهت عقول القرون الوسطى صوب الدين . أما تلك البقايا من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التي تسربت الى النظام الدينى فلا فائدة فيها للروح العلمية على أن هناك فرعا من المعارف الوضعية لابد أن يظل باقيا بطبيعة الحال فما زال الناس يتألمون لما يلحق بأجسامهم من العلل وما زالوا يتلمسون الخلاص منها . ولكن الكتب التى كانوا يسترشدون بها لم تكن بذكر القواعد العامة أو ما شابهها من المعلومات وكانت أحقر الكتب التى كانت لا تزال تذكر تحت اسمى ابيقراط وجالينوس وكانت فى الغالب عبارة عن مجرد قوانين وترياقات أو على الأكثر جداول لأعراض الأمراض . ولما تجاوز انحطاط العقل الغربى مبلغه كانت الكتب البيولوجية التى يمكن أن تغتذى بها العقول لا تزال معدومة .

وكان الاهتمام السائد فى العالم الهمجى عند ما أخذ يعنى أخيرا بما توارثه من القدم موجهها لعلم المنطق ولم يبق من مؤلفات ارسطو مترجما الى اللاتينية إلا كتابا "المقولات" و "التفسير" وهى مخلفات أغاثنا بها بيثيوس خاتم الفلاسفة ولو بقيت لنا ترجمة لمؤلفى ارسطو "تاريخ الحيوانات" و "توالد الحيوانات" أو وصلت الى القرون الوسطى المتقدمة ترجمة لاتينية لمؤلف ابيقراط فى التناسل أو لمؤلفات تيوفراسطس فى النباتات لكان فى الامكان أن تتغير معالم التاريخ العقلى فى أوروبا وأن يتقدم تاريخ العودة الى اكتشاف الطبيعة قرونا على أنه كان لا محيص للعالم من التريث طويلا لوقوع هذا التغير . وكان أقدم ما أهدها إلينا الاغريق فى علم الحياة شيئا دون ذلك كثيرا ، ولما وصلت إلينا هديتهم برزت فى صورتين احدهما لم تعرف قيمتها تماما على أن كليهما

كانت من مخلفات اليونان وهاتان الصورتان هما أولا الكتب الشهيرة التي كتبها المترجمون الأقدمون ، ثانيا مؤلفات مدارس معينة في فنون ثانوية ولم تدرك أهميتها الا بعد زمن طويل .

وأقدم المؤلفات البيولوجية التي أمكن الحصول عليها في الغرب لم تترجم من اليونانية بل من العربية ^(١) وربما كان أولها مؤلفا لجالينوس في حركة العضلات وهو كتاب يشمل أكثر مما يدل عليه اسمه وتجده في الواقع شيئا كثيرا من النظام الفسيولوجي لجالينوس وقد ترجمه الى اللاتينية من النسخة العربية ليوانيتوس (حنين بن اسحق ٨٠٩-٨٧٣ ميلادية) رجل اسمه مارك الطليطلي وكان ذلك حوالي سنة ١٢٠٠ ولم يلق اهتماما كبيرا على أنه لم يمض الا القليل حتى صارت مؤلفات ارسطو البيولوجية في متناول الناس ويحتمل أن يكون أولها نبذة اسمها "في النباتات" وأصلها الاغريق مفقود وفيما عدا الترجمة اللاتينية ليس لدينا الآن سوى صورة عربية لترجمة عربية سابقة وقد نقلت هذه عن ترجمة سريانية مأخوذة عن شرح يوناني . وقد ظهر هذا المؤلف لمترجم اسمه الفريد الانجليزى حوالي سنة ١٢٢٠ أو بعد ذلك بقليل ولا يمكن أن نستشف روح جالينوس في هذا المؤلف ولا في مؤلف آخر لنفس المترجم اسمه "في حركة القلب" حاول فيه أن يثبت أولوية هذا العضو بحجج مأخوذة من ارسطو ^(٢) .

(١) قام م . استينشيدر بترتيب التراجم الأوروبية القديمة المأخوذة عن العربية في جداول تدل على اطلاع لا مثيل له وذلك في كتاب "Die Europäischen Uebersetzungen aus dem Arabischen bis Mitte des 17. Jahrhunderts" في : "Sitzungsberichte der kais. der Wissenschaften in Wien" مجلدا ، المطبوع في فيينا سنتي ١٩٠٤ و ١٩٠٥

(٢) مقال س . ه . هاسكنز "كيف قوبلت العلوم العربية في إنجلترا" بالمجلة التاريخية الانجليزية المطبوعة بلنדרه سنة ١٩١٥ صفحة ٥٦

ويفضل هذين المؤلفين قليلا مؤلف الساحر ميخايل الاسكتلندي (١١٧٥ ؟ - ١٢٣٤ ؟) ويخبرنا روجر بيكون أنه في سنة ١٢٣٠ "ظهر ميخايل (في أكسفورد) ومعه مؤلفات ارسطو في التاريخ الطبيعي والرياضة مشروحة شرحا متقنا وعلى ذلك كان اللاتينيون يحدون فلسفة ارسطو" (١) وقد كتب سكوت مؤلفه في الحيوانات حوالى هذا التاريخ وضمنه مؤلفات ارسطو البيولوجية الثلاثة الكبرى وكلها مترجمة من ترجمة عربية غير متقنة (٢). ولم يتوفر لالبرتوس ماجنوس لذلك الوقت ترجمة مأخوذة عن اليونان رأسا ليرجع اليها في كتابة شرحه الكبير لكتاب "تاريخ الحيوانات" ولكنه اعتمد على مؤلف سكوت. وقد ترجمت مؤلفات ارسطو البيولوجية من اليونانية مباشرة الى اللاتينية في سنة ١٢٦٠ وربما كان مترجمها وليم المربكى (٣) ولما كانت أمثال هذه التراجم قد ظهرت في عصر الفلسفة الدراسية البحتة كان كل شيء فيه موجهها ضد روح الملاحظة بطريقة مباشرة فلا

(١) كتاب روجر بيكون Opus majus نشره ج. ٥٠٠ - روجر في ثلاثة مجلدات بلنדרه ١٨٩٧ - ١٩٠٠ المجلد الثالث صفحة ٦٦

(٢) فيما يخص تراجم سكوت لارسطو انظر كتاب أ. ٥٠٠. كويرفلند Michael. Scottus und seine Schrift, De Secretis naturae المطبوع في ليبزج سنة ١٩١٩ وكتاب م. ٥٠٠. ماسكنز Michael Scot a Frederick II جزء ٢ صفحة ٢٥٠ المطبوع في بروكسل سنة ١٩٢٢

(٣) كتاب ج. ٥٠٠. شنيدر Aristotelis de animalibus historiae generatione animalium المطبوع في ليبزج سنة ١٨١١ صفحة كتاب ل. ٥٠٠. ديمير Guillemi. Moerbekensis Marslio commen tationis Aristotelicae de I المطبوع في رلنجن سنجن سنة ١٩١٥ كتاب ل. ٥٠٠. ديمير De animalibus historia المطبوع في ليبزج سنة ١٩٠٧

يمكن القول بأنها صادفت مرعى خصيبا . نعم نجد فيها وصفا منسقا للطبيعة وطريقة مثلى للبحث على أن هذه المزايا وجدت في مجتمع لم يدرك شيئا من قيمتها الحقيقية ^(١) .

على أن ظهورها وافق عودة الرغبة الى ملاحظة الطبيعة فقد كان ألبرت على الرغم من فلسفته المدرسية طبيعيا لا يستهان به . وإذا اعتبرنا ما كتب في علم النبات فأننا يمكننا أن نقول ان ألبرت أول من درس علم النبات من الطبيعة رأسا في العصر الحديث فقد تضمن كتابه "De Vegetabilibus" مشاهدات ثمينة وهو جدير بأن يذكر بين منشئ علم الحياة . ورغما عن أن كل علمه وتطويله كانا عقبة في سبيله فقد دل كتابه الضخم "De animalibus" أنه أوتي دقة الملاحظة وأنه أشرب شيئا من روح الطبيعي العظيم الذي وقف ألبرت حياته لدرس مؤلفاته وتصدي لشرحها كما يصرح بذلك . فترى في وضوح أن ذلك الغرس الذي غرسه أرسطو ينمو ويتزعرع ولو أن ألبرت كان لا يزال فيلسوفا مدرسيا ويمكننا أن نقبس قطعة من كتابه في تناسل السمك وهو موضوع أتى فيه أرسطو بأوصاف غاية في الغرابة ظل بعضها غير محقق حتى الأزمنة الحديثة . وقد تركت هذه الأوصاف أثرا في عقل ألبرت مثل الأثر الذي تركه في عقل الطبيعي العصري ولقد يروع من لم يقف

(١) وقد بحث أوج . جوردان موضوع التراجم اللاتينية لأرسطو في كتاب *Recherches critique sur l' âge des Traductions latine d' Aristote*: الطبعة الثانية . باريس سنة ١٨٤٣ وكذلك م . جرابمان في كتاب *Forschungen uber die lateinischen Aristoteles Übersetzungen des XIII Jahrhun-* derts المطبوع في مينستر I W سنة ١٩١٦ وف . و . ستفلد في كتاب *Die Übersetzungen arabischer Werke in das Lateinische Seit dem XI Jahrhundert* المطبوع في جتنجن سنة ١٨٧٧

على ما وسعته مؤلفات أرسطو البيولوجية من قوة الاستحثاث والتنبية وصف ألبرت لحنين السمك ودقة تمييزه بين طريقة نموها وطريقة نمو الطيور بانعدام الغشاء السجفي في إحدى الحالتين وتوفره في الأخرى وألبرت يعتمد على مؤلفات أرسطو ، أى على ترجمة منقولة عن ترجمة منقولة عن الأصل ، على أنه لم ينقله انقيادا أعمى .

هناك فرق بين طريقتي نمو بيض الطيور والأسماك وهو أنه أثناء نمو السمك لا يوجد ثانی الوريدین الممتدين من القلب (حسب وصف أرسطو للطيور) لانا لا نجد الوريد الذى يمتد الى الغطاء الخارجى لبيض الطيور وهو الذى يسميه البعض خطأ بالسرة لأنه يحمل الدم الى الأجزاء الخارجية“ على أننا نجد الوريد المناظر للوريد المحي للطيور لأن هذا الوريد يمتص الغذاء الذى تنمو بواسطته الأعضاء وتمتد الأوعية فى السمك كما فى الطيور من القلب الى الرأس والعينين أولا حيث تظهر قبل كل شىء الأجزاء العلوية العظمى وباستمرار نمو صغار السمك يقل الزلال لأنه يندمج فى أعضائها ثم يتلاشى كلية عند ما يتم النمو والتكوين . وضربات القلب تنتقل الى الجزء السفلى للبطن وتحمل النبض والحياة للأعضاء السفلى .

وحينما تكون صغار (السمك) فى طفولتها غير كاملة النمو نجد لها أوردة طويلة تقوم مقام الحبل السرى ولكن اذا نمت وكبرت قصرت الأوردة وضمرت داخل الجسم نحو القلب كما ذكرنا عن الطيور وتكون صغار السمك وبيضها منحصرة داخل غطاء كما هو الحال فى بيض الطيور وصغارها ويشبه هذا الغطاء الأم القاسية

(للمخ) ويوجد أسفله غطاء (فهو لذلك يناظر الأم الحنون للمخ) ولا يحتوى شيئاً سوى صغار الحيوان (١).

وفي القرن التالى أخرج كزادفون مجنبرح "سفر الطبيعة" وهو مؤلف كامل فى التاريخ الطبيعى والأول من نوعه فى لفته وهو مؤسس على الترجمة اللاتينية لمؤلفات ارسطو وجالينوس البيولوجية المنقولة عن اليونانية رأساً فى ذلك العهد وهو حسن الترتيب ومصدر بوصف منسق لتركيب الانسان ووظائف أعضائه باعتباره نوعاً من المخلوقات الحيوانية ثم يصف هذه بطريقة منتظمة ويتبع ذلك بوصف النباتات وبالرغم من استرشاده بارسطو فقد كان كزاد يلجأ الى استعمال عينيه وأذنيه وبذلك افتتح هو وألبرت عصر الجنوح الى الملاحظة بطريقة مباشرة (٢).

على أن هناك فرعاً آخر من العلوم كان الناس أسبق فيه الى تعرف قيمة مخلفات اليونان فقد مرت قرون كان الناس ينسخون فيها رسوم كتب النبات والحيوان ويتناقلونها الواحد عن الآخر وبذلك حافظوا على سنة ابتدأت فى عهد فنانى الاغريق فى القرن الأول قبل الميلاد بيد أن رسومهم كانت تنسخ بدون الاسترشاد بالشئ

(١) يمكن الاطلاع الآن على الكتاب الضخم De Animalibus الذى كتبه ألبرت الكلونى فى طبعة هـ . ستاولر المسماة Albertos Magnus De Animalibus libri XXVI nach der Kölner Urschrift فى مجلدين . طبعت فى مينستر I/W ١٩١٦ — ١٩٢١ . ترجمت القطعة المقتبسة من المجلد الأول صفحتى ٤٦٥ — ٤٦٦

(٢) نشره . شولتز كتاب كزاد بطريقة مناسبة فى Das Buch der Natur Var Conrad Von Megenberg, die erste Naturgeschichte in deutscher in New-Hochdeutsche Sprache bearbeitet. المطبوع فى جرايفسفالد سنة ١٨٩٧ وكتاب كزاد مؤسس على كتاب توماس الكانمبراى (١٢٠١ — ١٢٧٠).

المرسوم فبعد الشبه بينها وبين الأصل شيئا فشيئا وأخيرا أصبحت تلك الرسوم ولا شأن لها إلا كنماذج صورية وظلت على هذه الحال في بعض النسخ المتأخرة والتي ظلت تصدر حتى القرن السادس عشر ولكن أتى عصر حدث فيه انقلاب فأصبح الفنان لا يقنع بالركون الى التقاليد فلجأ الى الطبيعة أخيرا . وهذا الانقلاب الحديث في الفن يناظر الانقلاب الحديث في الآداب أى النهضة العربية وهى نفسها من مخلفات اليونان ولو أنها فسدت فسادا عظيما أثناء انتقالها وكانت السبب في بدء عهد الفلاسفة .

ويتجلى في كثير من أشغال الحفر والنحت الجميلة لكأئس الجامعة الفرنسية روح التطور الحديث في صدر القرن الثالث عشر فنجد في بعض الجهات مثل شارتران محاولة تمثيل النباتات والحيوانات بدقة في الأحجار يرجع تاريخها في القدم الى سنة ١٢٤٠ أو ما قبل ذلك . ويظهر نفس الميل للتصوير على الرق ، وهو وسط أسهل من الحجر ، في عهد أسبق . ويجرد ابتداء هذه التزعة أخذت تتقدم ببطء حتى ذلك العهد العظيم عهد استرداد كتب اليونان في القرن الخامس عشر اذ نشطت ثانية وقد انصرفت جهود علماء النبات والحيوان في القرن السادس عشر في الغالب الى اخراج طبعات لمؤلفات ديسفوريدس وتيوفراسطس موضحة بالرسوم ومشروحة بكل عناية الى وصف الحيوانات وطبائعها وتركيبها وصفا يرمى الى توضيح ما كتبه ارسطو بينما كان المشرحون يدرسون دخائل أجسام الانسان والحيوان لتأييد آراء جالينوس أو دحضها . وتلك الرسائل القيمة التى كتبت في الطيور والأسماك والنباتات في ذلك العصر والتي لم تكن في ظاهرها سوى شروح لبليني وارسطو وديسقوريدس كانت في الحقيقة أول مجهود في العصر الحديث

يرمى الى كتابة تاريخ طبيعى وقد تسربت بطبيعة الحال الى دوائر المعارف فى أواخر القرن السادس عشر ثم دخلت هذه فى صلب المؤلفات الفسيولوجية فى القرن السابع عشر ولم يكن ارسطو من سقط المتاع أبدا فى علم الحياة كما كان فى علم الطبيعة ذلك لأنه كان من علماء الحياة القديرين ولكنه لم يكن عالما عظيما فى الطبيعة .

وما انقضى صدر القرن السادس عشر حتى أضحت مؤلفات ارسطو وكذلك مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس بدرجة أقل عاملا كبيرا فى انشاء علم بيولوجى جديد وقد أتى ماتيولى (١٥٢٠ - ١٥٧٧) فى شرحه لديسقوريدس (الطبعة الأولى ١٥٤٤) وهو من أوائل الكتب التى ظهرت من نوعه بلغته القومية بمشاهدات مباشرة للوقوف على طبائع النباتات وتركيبها وهى مدهشة حتى للنباتى العصرى . وحوالى نفس هذا التاريخ أصبحت الفسيولوجية الجالينوسية ، وقد ظهرت أيضا فى عدة مؤلفات باللغة الدارجة وأثارت حب الاستطلاع عند الأطباء ، المنشأ الجلى لعلمى الفسيولوجيا والتشريح المقارن العصريين .

على أن مؤلفات ارسطو البيولوجية كانت فضلا عن كل ذلك مخصصة للعقول . فمن الممتع أن نشاهد ملاحظا دقيقا مثل فابريسيوس آب اكوابندنت (١٥٣٧ - ١٦١٩) يضع أسس علم الأجنة العصرى بسلسلة بديعة من المشاهدات المباشرة ويعد مباحثه الجلييلة كشرح لارسطو تقريبا . ما أبعد الفرق بين هذا وبين طبيعة ذلك العصر الجافة والمؤسسة أيضا على مؤلفات ارسطو ويقول فابريسيوس أن غرضى البحث فى تكوين الجنين فى كل حيوان مبتدئا بما يخرج من البيضة ، لأن هذا البحث يجب أن يسبق ما عداه فى الموضوع لأنه لا يصعب أن نتعرف رأى ارسطو فى المسألة

ولأن كتابه في تكوين الجنين من البيضة أغزر مؤلفاته مادة والموضوع أصعب الموضوعات وأكثرها اتساعاً (١)

وفد أوتى فابريسيوس المجد الحريص قدرة مدهشة على الملاحظة لم يشحذها بنفسه بل بفضل مؤلفات أرسطو وبذلك كانت رابطته بالأستاذ نفس الرابطة التي تربط تيوفراستس وهو تلميذ أرسطو أثناء حياته فيوجد حقاً شبه بين مؤلفات فابريسيوس وتيوفراستس فكلاهما يعتمد على طائفة واحدة من الآراء العامة وكلاهما ينقل بنفس الاطمئنان المنظم الهادئ من مشاهدة الى أخرى ووهب كلاهما الهاما فعالا باعثا على العمل على أنه دون المرتبة العظمى وقد أوتى كلاهما الحماسة والتأثير بكاهنين وراء الحقائق على أنه تنقصهما الشجاعة والتأثير عند استخلاص النتائج .

على أن فابريسيوس كان موفقاً في تلاميذه أكثر من تيوفراستس فنشاهد نفس آراء أرسطو تحتصر في عقل خلف فابريسيوس وهو وليم هارفي (٢) أعظم بيولوجي وجد منذ زمن أرسطو نفسه (١٥٧٨-١٦٥٧) فمؤلف هذا الكتاب في التناسل عبارة عن شرح معني به لمؤلف أرسطو في نفس الموضوع وليس شرحاً بالمعنى القديم بل هو شرح تتجلى فيه روح أرسطو نفسه فقد فحصت كل عبارة فيه ومحصت في ضوء التجارب فنجد الطبيعي الفتي رغم اجلاله لأرسطو لا يتردد في نقد نتائجه . وقد توفر له من استقلال الفكر والبراعة في اجراء التجارب والقدرة على الاستنتاج ما يجعل لمؤلفه

(١) انظر كتاب هيرونيومو فابريزيو الاكوابندنتي المسمى Deformatio Foetu

المطبوع في بادوا سنة ١٦٠٤

(٢) انظر كتاب وليم هارفي Exercitationes de generatione animalium

المطبوع في لندره سنة ١٦٥١

المكانة الوسطى بين ثلاثة المؤلفات العظمى في علم تكوين الأجنة والمؤلفان الآخران هما كتابا ارسطو وكارل أرنست فون بير (١٧٩٦-١٨٧٦) ^(١) .

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر وأثناء رده كبير من القرن الثامن عشر قلت العناية الموجهة لمؤلفات ارسطو البيولوجية فقد كانت تلك الحرب التي أثرت ضد علم الطبيعة الارسطاطالى انتهت بالانتصار عليه على أنه بانه بانه هذا العهد انسبدل ستار العفاء ظلما على مؤلفات ارسطو البيولوجية كما كان منسدلا على كل ما كان محل اجلال في القرون الوسطى .

والعودة الى استكشاف مؤلفات ارسطو شيء عصى . وقد كان جمع ذلك الجرم الغفير من الأشكال الحية الشغل الشاغل لأجيال من الطبيعيين من عهد راي (١٦٢٧ - ١٧٠٥) وولوبى (١٦٣٥ - ١٦٧٢) الى عهد رومور (١٦٨٣ - ١٧٥٧) ولينيوس (١٧٠٧ - ١٧٧٨) ومن بعدهم الى القرن التاسع عشر ويظهر أن ضخامة هذا العمل وروعته كادت تحولان دون وضع قواعد عامة وبانقراض هذا العهد ظهرت طائفة من علماء الطبيعة كانت أكثر تعمقا في الفلسفة منها كوفييه (١٧٦٩ - ١٨٣٢) وأعضاء أسرة سان هيلير . وبفضلهم تبوأ ارسطو مركزه اللائق به ثانية . ومنذ بزغ فجر القرن التاسع عشر وأصبح في مقدور الطبيعيين تحقيق آرائه أخذت شهرة ارسطو كطبيعي تزداد ازديادا مطردا .

بفوهان ميلر (١٨٠١ - ٥٨) وریشار أون (١٨٠٤ - ١٨٩٢)
وجورج هنرى لويس (١٨١٧ - ١٨٧٨) ووليم أوجل (١٨٢٧ - ١٩١٢)

(١) Ueber die Entwick elungsge chichte der Thiere, Königs

قليل من كثير ممن تلقوا الوحي من مؤلفاته البيولوجية مباشرة ولما تهذبت طرق البحث الحديثة حول علماء البيولوجيا شطرا كبيرا من اهتمامهم نحو مسائل التناسل . وقد تحول اهتمامهم على الأخص الى مؤلف ارسطو في هذا الموضوع وربما كان الآن أكثر ذيوعا من أى كتاب بيولوجى آخر قديم أو حديث ما عدا مؤلفات داروين وقد كتب ذلك الطبيعى الكبير الى أوجل فى سنة ١٨٨٢ يقول قد تولدت عندى مما شاهدته من المقتبسات فكرة سامية عن مواهب ارسطو على أنى لم تكن عندى أية فكرة عن مبلغ عظمة الرجل وقد كان لينىوس وكوفيه موضع اكرام وإجلالى لميزات فى كل تخالف ميزات الآخر جدمخالفة ولكنهما كانا كصبيحة المدارس اذا قيسا بارسطو الشيخ ما

تشارلس سنجر

الطب

صدق هروفيولوس أحد أطباء اليونان وفلاسفتهم (حوالى ٣٠٠ قبل الميلاد) حين كتب: "إذا فقدت الصحة لم يكن لدى العلم والفن على السواء شيء يخرجانه وعجزت القوة عن المجاهدة وصار الغنى لا نفع له والفصاحة غير مجدية" (١). من أجل ذلك كان لجميع الشعوب طرائقها فى معالجة المرض. وقد هذبت هذه الطرق فى أغلب الأحيان عند أرقى الشعوب ثقافة حتى كادت تكون مذهبا منظما ولقد شاعت مذاهب مختلفة كهذه قديما كما هو الحال حديثا وتركت تلك الأمم التى كانت تمارس فن الكتابة من قديم سجلات عدة سجلوا فيها طرقهم الطبية وتعاليمهم: لذلك أصبحنا نستطيع أن نكون رأيا يشبه أن يكون حقا عن الأصول الطبية فى الحضارات العراقية والمصرية والایرانية والهندية والصينية.

وفى هذه المذاهب كثير مما يشبه طرق العلاج عند القبائل الأولى فى أنها كانت مبنية على نظرية للرض تتفق مع نظرية أخرى عن كنه الشر.

وكان أكثر هذه النظريات شيوعا النظرية الشيطانية التى تعتبر أى حيود عن معيار الصحة العادى نتيجة لأذى من مخلوقات خارقة للطبيعة أو لدخول تلك المخلوقات بالفعل فى أجسام المصابين. وإن مذهبها طبيبا مبنا على مثل هذا رأى لقابل للتوليد الكبير فى الحضارات الأرقى.

(١) مؤلفات هير بولوس مفقودة وهذه العبارة البليغة - ففظها سكسن أمبريكس أحد أطباء القرن الثالث فى مؤلفه الذى فى صميمه طعن على الفلاسفة الإيجابىة ومن المفكر أن يضطر إلى الذهاب إلى مؤلف كهذا نلتبس مخلفات أعظم مشر فى التاريخ القديم والعبارة مذكرة فى القسم الموجه ضد الأخلاقيين من الكتاب.

ولكنه لا يمكن أن ينمو نمواً غير محدود لأنه غير مبني على المشاهدة وما كان كذلك فهو لا محالة بالغ نقطة يحجم عندها العقل عن الاستنتاجات المعقدة البعيدة عن الظواهر المشهورة. فمثلاً: طب الحضارة القديمة المستقرة التي كانت لقوم مثل الأشوريين — البابليين وقد عثر منها على بعض آثار مذكورة، لا يكاد يكون أنجع من الطب عند كثير من قبائل متوحشة أمية يمكن أن تشاهد اليوم وإن كان أكثر منه تنظيماً. وقد نستطيع وصفاً لمثل هذا الطب أما أن نكتب له تاريخاً فقلما نستطيعه. لأننا لا نستطيع إثبات عناصر الاتصال والترقى التي منها وحدها يمكن أن يبنى التاريخ.

لقد امتاز اليونان وحدهم بين أعم العصر القديم باتباعهم في الطب نظاماً مبنيّاً لا على نظريات ولكن على مشاهدات جمعت على ممر الزمن تباعاً في نظام واحد. ولشاهد أن يشهد لليونان بأن بعضاً منهم على الأقل لم تزغه نظرية ولم تخدعه شعوذة ولم تعقه تقاليد أثناء بحثه عن حقائق المرض ولا أثناء محاولاته تفسير ظواهره لقد استطاع اليونان وحدهم بين القدماء أن يعتبروا مداويهم physicians (أي اتباع الفطرة) وفي هذه الكلمة القائمة نفسها تذكير خالد بما فعلوه (١).

أخذ الناس في دور من أدوار تاريخ الغرب — قد يختلف في تحديد تاريخه لكن لا اختلاف في وقوعه — يقبلون على التنقيب عن كنوز الحكمة القديمة وبالتدريج كشف الغطاء للطلاب عن

(١) ان كلمة (فيريقوس) بالرغم من انتقالها الى اللاتينية (شرون) بمعنى منبع الفطرة قد أكسبها الكتاب اليونانيون المتأخرون معنى سحر ولعل كلمة physicianus إنما وضعت تمييزاً من physicus أى مشعوذ ثم صارت physicus و medicus مترادفين في اللاتينية التي جاءت بعد.

جميع ما كان لليونان في الطب من علم وقد احتوى ذلك على كثير من غث تخلف عن العصور اليونانية السابق منها واللاحق لا يكاد يفضل ، إن فضل التراكيب المسوخة التي كانت متداولة تحت شعار الطب في القرون الوسطى .

لكن ما استرد من الكتابات الطبية اليونانية حوى أيضا بعضا من أنقى المواد وأكثرها انطباقا على الأصول العلمية تكون هي والروح التي كتبت بها دين الطب القديم على الطب الحديث وهو دين لا يمكن الغلو في تقديره . حقا ان الأطباء في عهد النهضة وبعده بوقت طويل غلوا في الايمان بلفظ ما سطره سلفهم من اليونان وحاولوا أن يحبسوا روح ابيقراط وجالينوس الحرة بين جامد جذران لفظ ما عادوا فاكتشفوه من المتون . وهي محاولة أحتقت بكاررؤاد الطب الذين جاءوا من بعدهم وخفى عنهم أكثر حقيقتها فثاروا خير قليل وبحق ثاروا على رقاليونان نشأوا فيه . على أن من المحقق أن هؤلاء الكاشفين الحداثيين كانوا هم ورثة اليونان الحقيقيين فلو لم يكن هروفيلوس لما كان هارفي ولجازان تتأخر نهضة علم وظائف الأعضاء قرونا . ولولا بقاء مؤلفات قط ولأمكن أن جالينوس لما أعاد فزاليوس بناء علم التشريح تتخلف الجراحة تخلف أخيها علم الأمراض الباطنة . فجموعة ابيقراط كانت هي الأساس الضروري المعترف به لأعمال أكبر مشاهد حديث في الطب التطبيقى توماس سدنهام . وتعاليم ابيقراط وتلاميذه هي الآن الأساس المتين للتعليم في أروقة المستشفيات الحديثة . فسنعمد اذا فيما يلي الى أن نستعرض الصفات العامة للعرفان الطبي في أحسن عصور اليونان وننظر باختصار في مقدار ما كان في متناول أوائل رجال الطب الحديث من ذلك الارث العظيم حتى يستطيع القارئ

أن يقدر بعض التقدير مقدار ما وصل من تلك الوديعة الى أزماننا هذه . من الواضح أن ممارسة الطب لم تكن لتجىء على نمط واحد بين طائفة من الشعوب كالأغريق متفاوتة في درجة حضارتها وفي عقولها وفي مركزها الجغرافي والاقتصادي وفي وجهتها العامة . كان هناك صنوف كثيرة من الآراء العلمية والعملية رائجة بينهم لأنه لم يكن لديهم طريقة ترد التربية الطبية الى مركز واحد وتوحد معيار التعليم . وكثير من تلك الصنوف كان في درك سافل من عوائد العامة وقد وصل إلينا من مثل هذا الغناء كثير يوناني الأصل وإن رجع كثير منه الى عصر متأخر على غرابة في ذلك . لكن السواد الأعظم من الأدب الطبي اليوناني الأسبق قد نصب لنا مثالا خالصا من السعى العلمى وراء مشاهدة الأمراض وتصنيفها ووراء استخلاص الكليات من جزئيات غنى بجمعها وتعليل منشأ المرض تعليلًا معقولا واتباع أساليب في المداواة مبنية على أساس اتخذ بعد تفكير فنحن اذا لا نبعد اذا أكدنا أنه لا يزال بأيدينا بالرغم من خسارات جسيمة لا يمكن تعويضها بعض من أحسن ما نتج العقل الطبي اليوناني .

وهناك أدلة ضافية على أن اليونان ككثير غيرهم من شعوب منبتها البحر الأبيض المتوسط وآسيا قد ورثوا عن أسلاف لهم أبعد منهم مجموعة كاملة من الصيدلة والطب منشؤها السحر والتعليل غير المعقول وهناك أوجه شبه كبيرة يمكن سردها بين ما كان يتداوله عوام اليونان من هذا وبين مذاهب الطب عند الرومان الأولين وعند قدماء المصريين وأيضا بينه وبين طب فيدا الهندي وما كتبه همج الأوروبيين الأولين ، فمن المعقول اذا اذا ظهرت هذه العناصر فيما تأخر من كتب اليونان أن نفرض

أنها تمثل من الشعب اليونانى أعرق عناصره فى الجاهلية تمثلها متخللة الطبقات العليا فى العالم اليونانى المتعلم صاعدة اليها ظاهرة عليها تحت تأثير الانحلال الاجتماعى وما يتبعه من الانحطاط الفكرى ولكنها عناصر لا تهمنى نحن كثيرا على عظم أهميتها لعلم تطوّر الانسان وعلم النفس وعلم سلالات البشر وتاريخ الأديان . ثم هى على أهميتها ليست من الأشياء المبنى عليها دعوى تبريز الشعب اليونانى ولكنها أقرب أن تساعدنا على ربط العقلية اليونانية بعقليات الشعوب الأخرى التى تشابه ذلك الشعب .

ان الأولى بنا أن نبحث مجرى الطب اليونانى الأصولى خاصة ونبحث نوع التعاليم الطبية والتطبيب القابل للترقى والذى هو أساس نظام طبنا الحديث . ان الذى يهمنا فى الحقيقة انما هو أقدم طب متطور لا تكاد تكون هناك حاجة لتحخيص مناشئ الطب اليونانى الأولى فان المادة التى بين أيدينا قليلة والاستنتاجات مشكوك فيها بعض الشك وربما كانت سابقة أوانها فان كشف جزء كبير من التاريخ الذى ألفه مينون أحد تلاميذ ارسطو عن آراء بعض المتقدمين الذين مهدوا السبيل للمدرسة الايقراطية يحدد فى الصدر أملا أن يؤدى البحث اذا امتد واتسع الى حقائق أخرى عن مصادر الكتابات اليونانية الطبية الأولى وماهيتها^(١) إن درس أقوال عوام العراقيين فى النجوم قد بين أن هناك صلة تربطها بعلم الفلك عند اليونان المتقدمين ولكن مجهودات دارسى الكتابة الأشورية لم تظفر باثبات وجود مثل هذه الصلة بين طبيّي الشعبين . وفى الجملة

(١) نشرت هذه النبذة فى الجزء الأول من المجلد الثالث من كتاب Aristotelieum

Supplementum تأليف ه . ديلز المطبوع فى برلين سنة ١٨٩٣ انظر أيضا كتاب

ه . نج . ف سبت المطبوع فى برلين سنة ١٨٩٦ .

فالبحت الحديث يشير الى أن المصادر المصرية أقوم وزنا من المصادر العراقية خلافا لما كان يقال به من قبل . فمن أحدث ما ظهر وصف ورقة بردية مصرية في الطب تاريخها (حوالي ١٧٠٠ قبل الميلاد) تشبه بعض التآلف الايقراطية شهاواضحاً^(١) . كذلك ظهر أن بعض العقاقير التي كانت متداولة بين اليونان مثل "Andropogon" والحبان والسمسم الشرقى هي هندية الأصل ثم هناك أيضا المدينيات المنوية وهي جذيرة بالاعتبار ومع أن ما نعرفه الآن غير كاف للحكم على ما قد يكون الطب اليوناني قد أخذ وما لم يكن أخذ عن هذا المصدر فقد يفيد أن علم الصحة عند اليونان كان مدينا لهذا المصدر بشيء^(٢) . فسنغفل اذا هذا العهد الأول القديم وننتقل مباشرة الى فترة لاحقة بين القرنين السادس والرابع قد وصل اليها مخطوطات منها بالفعل .

أول مدرسة طبية جاءتنا عنها معلومات بينة هي مدرسة (سنيد) وهي مستعمرة لسذمونية في دورس الآسيوية ومنشؤها قد يرجع الى القرن السابع قبل الميلاد ولدينا مدونات حقيقية تدل على أن مدرسى سنيد كان من عاداتهم جمع خواص أعراض الأمراض جمعا منظما وتبويب ما جمعوه تبويبا غاية في التعقيد والراجح أن لدينا أيضا عدة من مؤلفاتهم نفسها . أما كتب ناقدتهم من أطباء عصرهم فلم يصل اليها منها الا كتب أطباء قوص ودهؤلاء كانوا يرون أن الأطباء السنيديين أعاروا الأعراض المرضية وما يحس به المريض أكثر مما ينبغي له من الاهتمام به وقد صاغ السنيديون

(١) ظهر أثناء الطبع تقرير مبدئي عن بزديه أدوين اسمث ذات الشأن .

(٢) نجد أنفسنا تميل الى ربط مذهب الأفعى الأسقلوبية بالمركز الخاص الذي للأفعى في الديانة المنوية .

أهم تعاليمهم في سلسلة جمل أو كلمات جوامع تنصح على ما يظهر بعلاج الأعراض أو على الأكثر بعلاج المرض نفسه من غير نظر للمريض تابعين المصريين في ذلك . يؤيد هذا ما حوته المجموعة الايقراطية من كتب في أمراض النساء يرجع أصلها في الغالب الى السنيديين . هناك فوق ذلك قليل من أسماء وصلتنا لأطباء سنيديين لم يصلنا الا أسماء مؤلفاتهم ثم جملة كتبت عنهم تفيد أنهم مارسوا التشريح كذلك . وليس هناك شك في أن المدرسة السنيديّة اقتبست من الطبين الفارسي والهندي . ان مدرسة جزيرة قوص المجاورة قد نشأت بعد مدرسة سنيدي بقليل والراجح أن تاريخها يرجع الى القرن السادس قبل الميلاد أما المدرسة القوصية أو على الأقل الوجهات العامة التي كانت تمثلها فلدينا لها في الجسد الايقراطي أثر أدبي خالد جمع بين الفخامة والغزارة . والجسد الايقراطي مجموعة جمعها على الراجح في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد لجنة من علماء الاسكندرية طاعة لأمر المغرم بالكتب بطليموس سوتر (حكم من ٣٢٣ الى ٢٨٥ قبل الميلاد) والعناصر التي تتكون منها هذه المجموعة ذات تواريخ مختلفة بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد وهي متفاوتة قيمة ومنشأ ولكنها تمثل في الغالب وجهة نظر أطباء القسم الشرقي من العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع .

إن أظهر صفات هذه الكتابات القوصية وأكثر عناصرها استلفاتا لنظر الباحث الحديث هو أنها تعير تتبع مسار المرض توكيدا عظيما فقد افتح كتاب من أعظم المؤلفات الايقراطية بالجملة الآتية :

”يخيل إلى أن من أحسن ما ينمي الطبيب في نفسه المقدرة على التنبؤ^(١) أنه إذا عرف أعراض المرض ماضيها وحاضرها ومستقبلها وأخبر عن ذلك بمحضر من المريض وفسر كل ما أهمل المريض ذكره يجعله يعتقد فيه أنه فاهم حالته فيطمئن إلى اسلام نفسه لعنايته وبذا يكسب احترام مرضاه بحق ويكون طبيبا مجيدا . إن معرفة ما سيقع في كل حالة يعينه على الاحسان في رعاية من يرجي شفاؤه وإن انذاره بموت من سيموت وتبشيره بشفاء من سيشفى يقيه من اللوم“ (٢)

فكما أن السنيديين بتقسيمهم الأمراض حسب أعراضها بالغوا في تأكيد التشخيص وفي تعقيد العلاج كذلك القوصيون اهتموا كثيرا جدا بالانذار الطبي في المرض فكان موقفهم تجاه الأمراض موقف المتوقع المنتظر . وكان بين كل من أطباء سنيد وأطباء قوص صلة مشتركة تنتسب تاريخيا إن لم تكن فعليا إلى عبادة الهياكل . والأطباء الذين يجمعهم الانضواء تحت اسم إله ، كما كان الاسقلابيون ، يمكنهم أن يتجنبوا وقد تجنبوا بالفعل الأخط من عناصر الشعوذة في طب الهياكل فقد خلصوا منها الخلوص المنتظر أن يخلصه الطبيب الكاثوليكي الحديث من سخافات لوردز . ولكن قد لا يبعد أن المتطرف من مذهب الانذار بين أهل قوص قد نشأ عن الأقاويل الطبية لمتكهنه المعابد بأن استبدلت بالندر الدينية علامات محسوسة في المريض نفسه^(١) . ونجد أنفسنا

(١) إن كلمة pronia كما فسرهما جالينوس ليست هنا بمعناها الفلسفي كما لو سأل سائل أخلفت الدنيا بالمصادفة أم بال pronia ولا هي تماما بمعناها الحديث prognosis أو الانذار وإن تضمنت ذلك أيضا وهي في كتابة ايقرات تفيد معرفتك أمورا عن المرض قبل أن تخبر بها . انظر ما قال E. T. Withington تحت عنوان بعض الاصطلاحات الطبية اليونانية مرجوعا فيها إلى يوك ولبلد وسكوت .

أيضا تميل الى ربطه بطريقة التكهّن الفلكي والتكهّن النجمي التي كانت معمولاً بها في الحضارات العراقية التي قلدتها أيونيا وأخذت عنها ما أخذت . فالدين إذا كان له بالطب نفس العلاقة التي يمكن أن تكون بين الدين وبين رجل حديث متطبب متدين ، يوحى اليه بالباعث ويكيف وجهة عمله من غير أن يمتد تأثيره الى التفاصيل والطريقة .

وبينما كانت مدرسة الطب القوصية تنمو متحجة هذا النحو في القرنين السادس والخامس كانت هناك حركة من أهم الحركات شأننا تجرى في أقصى الطرف الآخر من العالم اليوناني . وليس هذا هو موضع التعرض لمجرى الفلسفة الصقلية وأهميتها ولكن لم تكن تلك الحركة الخارقة للعادة غير ذات تأثير على الطب نظرا وعملا .

وكان بعيد الأثر في هذا السبيل امبدوكليس الأبرجنتيني (٥٠٠ - ٤٣٠ قبل الميلاد) أخذ رأييه في الدم أنه موطن الحرارة الغريزية من اعتقاد العامة أن (الدم هو الحياة) وكان لا يكاد يرى مميزا بين الحرارة الغريزية والروح . وأنفع من هذا كان قوله بأن التنفس لم يكن مجراه مانسميه الآن بالمسالك النفسية فحسب بل أيضا المسام الجلدية . وأدت تعاليمه الى الاعتقاد بأن القلب هو مركز الجهاز الدموي وأنه العضو الرئيسي للنيوما أو الاثير الهوائى التي كانت أوعية الدم توزعه . وهذا الاثير الهوائى كان عندهم عدلا لاروح والحياة كليهما . بل كان شيئا أكثر من ذلك . كان هو ذات الهواء والنفس . وكانوا يستطيعون أن يروه بالذات يتصاعد من دم القربان المسفوح كبخار متألق ، أفلم يكن الدم هو مقره الطبيعي ؟

(١) هناك مبحث عن علاقة الاسقلوبية بشعائر الهياكل في مقال - E. T. Withington في كتاب "أبحاث في تاريخ العلم وطرقه" تحرير Charles Singer

كان هناك أيضا اثير هوائى يتخلل الكون حولنا ويكسبه صفات الحياة التى كانوا يشعرون أنها فيه ووظيفة الاثير هذه يمكن أن يقال ان "انكسمينس وهو يونانى سابق لأمبدوكليس (٦١٠ - ٥٤٥ قبل الميلاد) قد حددها لنا إذ قال "كما أن روحنا تبعث فينا الحياة لأنها هواء كذلك الاثير والهواء يتخللان الكون جميعه"^(١) إلا أن آراء أمبدوكليس نفسه هى التى آل أمرها الى أن تعتبر أساس المدرسة الاثيرية فى الطب التى كان لها فيما بعد تطورات فى غاية الأهمية .

وآخر من رجال المدرسة الغربية الأولين فيثاغورس الصاموسى (٥٨٠ - ٤٩٠ قبل الميلاد) الذى زاد فى التعاليم الطبية زيادات مهمة لا حاجة بنا إلى أن نتكلم عنه إلا من ناحيتها . كان عنده أن العدد هو أساس الفلسفة لأنه أصفى التصورات وأن الوحدة هى رمز الكمال وتقابل الاله نفسه . وكان عالم الحس عنده يمثله رقم ٢ ويقسمه ١٢ ومن هنا نتجت ثلاثة عوالم وأربعة دوائر وهذه بدورها ينشأ عنها حسب رأى متأخرى الفيثاغوريين على الأقل العناصر الأربعة : التراب والهواء والنار والماء . وهو قول أساسى فى الطب والعلم ربما كان مأخوذا عن قدماء المصريين وظل متبعاً أكثر من ألفى عام وكان الفيثاغوريون يقولون أيضا بوجود روح حيوانى متشعب عن روح الكون وفى ذلك كله يمكننا أن نتبين جرثومة مذهب علاقة الانسان بالكون علاقة العالم الصغير بالعالم الكبير . مذهب رأت المؤلفات الابيقراطية أنه خارج عن موضوعها فنبذته ثم عاد فظهر فى المؤلفات الأفلاطونية وفى الأفلاطونية المستحدثة على الخصوص وصار بعد ذلك فى الطب اللاحق من أهم المسلمات .

(١) مؤلفات انكسمينس مفقودة أما عبارته هذه فقد نقاها لنا الكتب المتأخر عنه زمنا أتيوس .

إن الكميون الكروتوني (حوالى ٥٠٠ قبل الميلاد) أحد تلاميذ فيثاغورس ومعاصر لأمبدوكليس أسن منه شرع فى وضع أساس إيجابى للعلم الطبى بممارسة تشريح الحيوان وكشف عصبى الابصار وقنوات أوستاكيوس بل قد مدّ أبحاثه الى علم الأجنة وفيها ذكر أن رأس الجنين هى أول أجزائه نموا - استنتاج تبرره المظاهر - وهو أيضا صاحب المذهب القائل بأن الصحة متوقفة على الائتلاف بين العناصر فى الجسم والمرض على اختلافها . وقد أثارت أقوال أمبدوكليس والكميون تطلعا الى معرفة توزيع الأوعية أفضى الى الاستزادة من التشريح . وكل تلاميذ الكميون - اكرون (حوالى ٤٨٠ قبل الميلاد) وبوسانياس (حوالى ح ٤٨٠ قبل الميلاد) وبعدهما فلسطيون اللوكرى^(١) (ح ٤٨٥ قبل الميلاد) معاصر أفلاطون كلهم قاموا بأبحاث تشريحية .

ان آراء أمبدوكليس وخصوصا مذهبه القائل بأن القلب هو المركز الأساسى للاثير (النوما) الهوائى لم تثر على اليونان من غير أن تؤثر فيها بالرغم من أن مدرسة قوص كلها قد رفضتها وقد قام ديوجين الابولونى فيلسوف مذهب الاثير (النوما) الهوائى وأحد كتاب أواخر القرن الخامس الذى كان لا بد معاصرا لايقراط الكبير قام نفسه يبحث عن أوعية الدم . ويمكن تتبع أثر هذه المدرسة فى مؤلف صغير عنوانه "عن القلب" وهو أحسن رسالة تشريحية فى المجموعة الايقراطية . تناولت بالوصف الأورطة والشريان الرئوى وكذلك الصمامات الثلاثة الموجودة فى أصل كل من هذين الوعائين الكبيرين وتحدثت عن تجارب تجرى لاختبار استحكامها

(١) معرفة مؤلفات هؤلاء الأطباء انظر خاصة كتاب م. ولمان المطبوع فى برلين

وقد تناولت بالبحث التامور والسائل التامورى ولعلها تناولت العضلات الحلمية وفارقت بين ضخامة جدر البطينين الأيمن والأيسر . وفى رأى المؤلف أن البطين الأيسر خال من الدم . وكذلك هو ولكن بعد الموت ^(١) وأنه منبع الحرارة الغريزية والذكاء المطلق . وهى آراء تتفق وتعاليم أمبدوكليس . ولذا قد يكون لنا أن نقدم على القول بأن هذا المؤلف هو من أعمال المدرسة الصقلية لم تذهب به الأيام . ومن الممتع أن نلاحظ أنه قد جاء فى هذا الكتاب أول اشارة الى تشريح الانسان . فان مؤلفه يخبرنا أن قلوب الحيوان يمكن أن تقارن بقلب الانسان . على أن شرف السبق فى الكتابة عن التشريح البشرى بالذات هو على الراجح لكاتب لاحق ديوكليس بن ارشدامس الكارستى الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ^(٢) والآن يصح أن ننظر فى الجسد الايقراطى فى جملته . هذه المجموعة تتركب من مؤلفات مستقلة حوالى الستين أو السبعين عدا مكتوبة فى عصور مختلفة وعلى درجات من الصيانة مختلفة ولا يمكن أن يعزى منها الى ايقراط على أحسن تقدير الا جزء صغير جدا لكن من المتفق عليه أن النظر فى صحة نسبة هذه المؤلفات لا طائل تحته اذ مما لا شك فيه أنه ليس لدينا أى ضابط نعرف به ما اذا كان مؤلف ما هو من قلم (أبى الطب) أم لا ؟ وأكثر ما يمكن أن يقال عن مؤلف كهذا أنه على ما يظهر من تأليف مدرسته وأنه مشرب بروحه . على أن من أعظم ما أسدته هذه المجموعة الى عصرنا والى كل العصور هبتين تطولان كل ما عداهما . صورة انسان وصورة طريقة .

(١) ملاحظة للترجمين : ليس ذلك صحيحا فى جميع حالات الموت اذ فى بعضها يشاهد الدم فى البطين الأيسر .

(٢) جالينوس فى النحاضير التشريحية .

الانسان هو ابيقراط نفسه . ان نفس تفاصيل حياته لا نكاد نعرف عنها شيئا . تقع فترة نشاطه الأكبر (حوالى ٤٠٠ قبل الميلاد) . وقد عاش على ما يظهر عيشة المتجول . ولد من سلالات متعاقبة من الأطباء فى جزيرة قوص فكان ميدان جهاده طراقيا وابديرا وديلوس والبروپونتيس وثاسوس وتساليا (ولا سيما لارسا وملبية) وأتينا وغيرها ومات فى لارسا بعد أن بلغ من العمر أقصاه (حوالى سنة ٣٧٧ قبل الميلاد) . وكان له تلاميذ كثيرون منهم ولداه تيسالوس ودراكون وكانا مثله سائحين وصهره بوليبيوس الذى حفظ علينا ارسطو شذرة من كتاباته ^(١) وثلاثة آخرون من أهل قوص يدعون أبولونيوس ودكسيبس وپراكسا جوراس . هذا يكاد يكون كل ما نعرفه عنه على التحقيق .

ولكن على الرغم من أن هذه لمحة من بعيد وفيها غموض شديد فانه لا يمكننا مهما تغالينا أن نقدر تأثير مجرى الطب وتكمل الأطباء فى جميع العصور بالصورة المتوارثة التى كوّنت عنه من البدء واتى . لا يزال من الممكن انتزاعها مرة أخرى من المؤلفات الموسومة باسمه تلك هيئة ، جمالها ووقارها فوق متناول المدح وسبق ابيقراط الى الأبد مثال الطبيب الكامل يحيط به ابهام قليل لعله يزيد فى أبعته كان عالما دقيق الملاحظة رحما شديدا لاجار لحقوق مرضاه عليه ثم شديد الحرص على أن ينفع غيره بخبرته ، من طبعه النظام والهدوء لا يقلقه الا حرصه على تدوين معلوماته لينتفع بها اخوانه فى المهنة وليخفف بها الآلام رزينا متدبرا متحفظا نقي الخاطر مالمالك التزام .

(١) تاريخ الحيوان الجزء الثالث يعزى هذا المؤلف الى بوليبيوس . ولكن نفس العبارة كررت مرتين فى الكتابات الايقراطية فى (عن طبيعة الانسان) وفى (عن طبيعة العظام) .

نفسه . تلك صورة غير مبالغ فيها لأبى الطب كما كان يبدو لأهل عصره ولمن بعدهم صورة من الخلق والفضيلة كان ولا يزال لها لدى أطباء جميع العصور أثر خلقى لا يقاربه الا أثر مؤسسى الأديان العظمى فى نفوس تابعيهم فلو أريد تول مأثور ليوضع على تمثال ابيقراط لما وجد خير مما جاء فى كتاب الحكم "أينما توجد محبة الانسان توجد محبة الفن" ان تماثيله النصفية التى أدركت عصرنا ليست صورة زيتية ولكن أحسن تلك التماثيل أعون لنا وأفضل من أى صورة زيتية . إن هى الا مثل عليا لما كان ولما ينبغى أن يكون عليه الطبيب عند صفوة أهل اليونان وأحكامهم (١) .

كانت طريقة الكتاب الابيقراطيين هى تلك المعروفة الآن بالاستقراء لم يكن لديهم ما لدينا من الارث العلمى الواسع ولم يكن لديهم بالنسبة لما لدينا الا قليل من مشاهدات مأخوذة عن مدارس قوص وما جاورها وكان يحيط بهم جميع صنوف الديانات الشرقية الخرقاء التى لا يراعى فيها علاقة ما بين السبب والمسبب مراعاة كافية .

وكانوا فضلا عن ذلك بمستحث دائم من تلك العبقرية الربابية عبقرية الفلسفة العقلية التى كانت لذلك الشعب اليونانى الذى كانوا يعيشون فيه ويلقون ما يلقى من المغريات العقلية . ومع ذلك كله فقد كانوا فى الغالب صابرين على مشاهدة الحقائق شاكين فى الحوار وفى ما لا يمكن التحقق منه مترددين عن تخريج النظريات الا بقدر ما تبرره المقدمات . ولكنهم كانوا دائما مسارعين الى العموميات ينتزعونها من التجارب الفعلية هادئين مخلصين ذوى كفاية فى خدمة السقيم والمريض . انه لا يكاد يكون هناك نوع مما نعرف

(١) أنظر (شكل ١) .

من أنواع الجهود العقلية لم يأت به اليونانيون أولا يمكن استخراج مثله من بين كتاباتهم أما الرجوع ، ابتغاء التثبت على حذر واستمرار الى المخبور المائل في سجلات من المشاهدات الفعلية وهى الطريقة المعتادة المتبعة في فروع العلم الحديثة فانه نادر بينهم الا عند هؤلاء المؤلفين الطبيين الأولين .

ولا يمكن توضيح الروح التى كانوا بها يعملون بأفضل من ذكر نص اليمين المعروف باليمين الايقراطى . انه وثيقة يستضاء بنورها الباهر في استجلاء آداب الطب اليونانى . ولو أنها ترجع في شكلها الحاضر الى عصر أحدث من عصر ايقراط :

”أقسم بابلوا الطبيب وباسقلابيوس وهيچيا وبنسيا . ضارعا الى جميع الإلهين والإلهات أن يكونوا على شهاداء أنى سأبر هذا القسم وبهذا الميثاق المكتوب جهد طاقتى وقصارى حكمى . ليكون الذى علمنى هذا الفن بمنزلة منى كمنزلة أبوى الذين ربيانى لأقاسمنه معاشى ولأكفينه حوائجه ان نزلت به حاجة . ولأجعلن ذريته من خاصة اخوتى ولأعلمهم هذا الفن ان رغبوا بلا أجر أو عوض .

لأبوحن به فيما أرشد وفيما أحاضر وبكل وسيلة من وسائل التعليم لا لأبنائى فقط بل أيضا لأبناء من علمنى وللرديد المرتبطين بالميثاق والقسم حسب قانون الأطباء لا لمن عداهم لأراعين فى المسلك الذى أتخذ مصلحة مرضاى جهد طاقتى وقصارى حكمى لا أبتغى ضررهم ولا أرمى الى مقصد معيب . ما كنت لأعطى أحدا عقارا قاتلا وان سئلته . وما كنت لأدل السائل على الطريق اليه . كذلك ما كنت لأعطى امرأة شيئا يسبب اجهاضا بل

لأحفظن حياتي وفني نقيين طاهرين . مهما أدخل من بيت فلا أدخله
ابتغاء الحير ليريض متجنباً أن أضرب باختيارى أو أن أفسد ومتجنباً
على الأخص أن أغوى أحداً ذكراً أو أنثى عبداً أو حراً ومهما أر
أو أسمع من شيء من شئون الناس أثناء عيادة مرضاى ، بل
وبمعزل من عيادتهم ، مما لا ينبغي التحدث به فلا آخذن بالصمت
فيه ولأعدنه سرا من أسرار الدين . فإذا ما وفيت بهذا القسم غير
ملحد فيه فليكن لى على السواء سرور الحياة وسرور الفن مع حسن
السمعة بين جميع الناس أبد الأبدين ولينزل بى ما هو ضد لذلك
كله إن أنا اعتديت وحنثت فى يمينى ” .

احترم هذه اليمين العربى واليهودى والنصرانى على السواء فى جميع
العصور ثم هى لا تزال بعد ذلك شعار مهنة الطب ^(١) وكان للإعلان
بها من القيمة الخلقية ما لم يكن ليفوت حتى ولا بيزنطيا من عباد
الشكل . ومما تروق ملاحظته أن أقدم نسخة خطية يونانية من
نسخ المتن الابيقراطى وتاريخها يرجع الى القرن العاشر قد عنونت
فيها تلك القطعة الفخمة بعنوان ” من يمين ابيقراط على صورة لا
يتخرج نصرانى أن يحلف بها ” .

إذا نحن امتحنا الجسد الابيقراطى بتدقيق أكبر تبين لنا أن تلك
الرسائل لم تكتبها أيد كثيرة فحسب بل وليس فيها فكرة أو مذهب
نسق ينتظمها من الأول الى الآخر . يوضح هذا جيداً بعض ما هو
أشهر من عبارات تلك المجموعة الممتازة ففى قطعة مشهورة من
(الأهوية والمياه والأماكن) نجد أن السنديين ينسبون عاهة جسدية

(١) لا بد مع ذلك من التسليم بأن فى المجموعة الابيقراطية أحوالاً حث فيها
باليمين مثل تسييب الاجهاض المذكور فى أحد الكتب على أن هناك شواهد على أن
مؤلف هذا الكتاب لم يكن من المتطهين .

مخصوصة الى بعض الآلهة وعقب المؤلف على ذلك بقوله "ولكن يظهر لي أن هذه العلل ليس فيها من الإلهية الا ما في أى علة أخرى وأنه لا مرض أعرق في الإلهية أو في البشرية من غيره بل كلها إلهية على السواء لأن لكل منها فطرته وليس منها ما ينشأ عن غير سبب فطرى". ولكن من الناحية الأخرى نجد مؤلف الكتاب العظيم "عن النذر الطبية" ينصحننا اذا دعى طبيب لعادة أحد أن يتحرى استكناه العلل التي يعالجها وخاصة "ما اذا كان في العلة شيء إلهي وليعلم ذلك أيضا قبل أن يكون" ويصح أيضا أن نلاحظ أن هذه الجملة هي تقريبا السابقة مباشرة لجملة لعلها أشهر الجمل الايقراطية، هي وصف ما قد سمي منذ ذلك الوقت بالملاح الايقراطية هذا الوصف العجيب لعلامات الموت يصح أن نذكره هنا تبياناً للموقف الذي كان من عادة المدرسة الايقراطية أن تقفه تلقاء الانذار في المرض ومثلاً من أمثلة عنايتهم الشديدة بملاحظة التفاصيل .

"ينبغي له (للطبيب) أن يلاحظ كذلك في الأمراض الحادة: أولاً وجه المريض هل هو يشبه وجوه أهل العافية وعلى الأخص هل هو يشبه نفسه فذلك خير وكلما ازدادت مخالفته لها كلما كان ذلك شراً له بأن تكون الأنف مرهفة والعين غائرة والصدغان منخسفين والأذنان باردتين متقبضتين قد انعكست تعاريجهما والجلد حول الجبهة خشناً ممتدداً جافاً ولون الوجه كله مخضراً أو قاتماً فاذا كان الوجه كذلك في أول المرض ولم يمكن تعليل ذلك بالأعراض الأخرى وجب الاستفهام عما اذا كان قد قضى ليلة لا نوم فيها وعن أمعائه هل بها اسهال شديد أو عما اذا كان متهاقاً من الجوع . فاذا كان شيء من هذا واقعا جاز أن يعتبر الخطر أقل

ويمكن في ظرف ليلة ونهار أن يحكم على ما إذا كان مظهر الوجه قد نشأ عنها أما إذا لم يمكن القول بأن شيئاً من هذه موجود ولم تخف الأمراض في تلك الفترة فليعلم على التحقيق أن الموت منه قريب". كذلك نقرأ في كتاب "في الفن الطبي" "أرى لائقاً بالطبيب أن يمتنع عن معالجة من أخنى عليهم الداء" وهي خطة إن كانت قاسية فهي حازمة بين قوم لعلهم ينظرون إلى مقدور الطبيب كأنه من السحر . ولعلها طريق من الحكمة اتباعها اليوم في بعض أماكن غير بعيدة من قوص . على أن كتاب "في الأمراض" ينصح لنا حتى في الأمراض الميئسة أن نخفف عن المريض بالعلاج المستطاع وزيادة على ذلك فمؤلفات كتاب المدرسة الايقراطية تقف أحياناً فيما بينها موقف النقيض من النقيض .

ففي الرسالة "عن القلب" تجربة كان يظن بها أنها تثبت أن جزءاً على الأقل من السائل المشروب يجد منفذاً إلى تجويف الرئة ومنه إلى أجزاء الجسم وهي غلطة كانت ذائعة قديماً في كتاب تيمابوس لأفلاطون . لكن هذا الرأي قد نص على بطلانه مؤلف كتاب "في الأمراض" ويظهره مناقشة جاء ذكرها في نبذة منون التي سلمت لنا .

لقد أقنعت أمثال هذه العبارات جميع الطلاب بأنا حين ننظر في المجموعة الايقراطية ننظر في كتب مختلفة كتبها كتاب مختلفون في تواريخ مختلفة في ظروف مختلفة . وهو أمر يمكن فهمه إذا تفكرنا أن الطب عند اليونان كان موضع دراسة مطردة مدة هي أطول بكثير مما كان عليه الحال في العالم الغربي إلى الآن . فالكلام عن مثل هذه المجموعة غير ممكن إلا من أعم سبيل . والنظام أو النظم الطبية التي سنتكلم هكذا عنها كانت معمولاً بها إلى العصر السكندري أي إلى مبدأ القرن الثالث قبل المسيح .

كان التشريح وعلم وظائف الأعضاء وهما أساس نظامنا الطبي الحديث موطن ضعف علمي شديد فيما سبق العصر السكندري من العصور . لقد عنوا بدراسة هيئة الجسم الظاهرة خصوصا من جهة علاقتها بالكسور ولكن ليس في آداب ذلك العصر أى بيئة تدل على أنهم كانوا أكثر من ذلك إلماما بالتراكيب التشريحية الجثمانية وهذه الحقيقة يؤيدها الفن اليوناني تأييدا حسنا ^(١) لأن الفنان في أنبل عصور الفن لم يظهر أى دليل على أنه استعان في فنه بمعلومات تشريحية . ولن نلقى مثل هذا الدليل الا اذا بلغنا نحت العصر السكندري . وعندها نرى في بعض أعمال مدرسة برجمون مواقف فيها بعض تكلف وبعض مبالغة في تمثيل العضلات يفيد أن الفنان ان لم يكن أخذ معلومات فقد أخذ اشارات عن المشرحين الذين كانوا على نشاط في ذلك العهد . على أنه ليس من البعيد أن عظاما منفصلة إن لم تكن هياكل عظمية كاملة كان من العادة دراستها قبل ذلك العهد يدل عليه أن المؤلفات الجراحية في المجموعة الايقراطية وعلى الخصوص ما كان منها في الكسور والخلوع ، فيها ما يدل على معرفة بعلاقة بعض العظام ببعض وبموضعها الطبيعي في الجسم لم يكونوا ليحصلوا عليها بدون تلك الدراسة إن حصلوا إلا بكبير المشقة . إن في المؤلفات الايقراطية مقابلات بين التركيب الانساني والحيواني كذلك التي يمكن الحصول عليها من العمليات الجراحية ومن الاصابات التي تقع من آن لآن وفي الناس من يرى أن عادة استطلاع الغيب من امتحان أحشاء القرابين قد أدت بهم الى بعض المعلومات التشريحية

(١) ورد في الرسالة المسماة "في المفاصل" إشارة الى التشريح ترجع في رأى المؤلف الى العصر السكندري .

ولكن يظهر أنه ليس من المرجح أن نظاما فيه من العلمية ما في نظامهم لا تكاد تربطه بالهيكليات رابطة يكون في حاجة الى كبير أخذ عن تلك المصادر ثم لا داعى للالتجاء الى القساوسة نستعين بهم ، ونحن نعلم أن الحيوانات كانت تشرح بالفعل من عهد بعيد مثل عهد الكمون . صحيح أن الكاتب المجهول مؤلف (في مواطن العلل في الانسان) المكتوب (حوالى ٤٠٠ قبل الميلاد) . يعلن أن (تركيب الجسم أساس الطب) لكن ما بين أيدينا من الرسائل من العصور الابقراطية المكتوبة في التشريح خاصة قد ذكرت المعيار التشريحى لجسم الانسان وما ذكرت مقصر غاية التقصير أما صحيفة "في التشريح" وان كانت أحدث كثيرا على الراجح (لعلها حوالى ٣٣٠ قبل الميلاد) فانها قصرت حتى عن رسالة في القلب ولعل هذه (حوالى ٤٠٠ قبل الميلاد) .

كان همهم الأول المريض المتألم ولذا تجنب الأفضلون منهم عن قصد كما يصح أن نزن ، كل اشارة الى تلك التخرصات الا فى الأقل النادر ، كانت صحة الجسم العامة تتوقف عند الايقراطيين على توزع العناصر الأربعة - التراب والهواء والنار والماء التى من خلاطها Cris ومن خواصها الأساسية من جفاف وحرارة وبرودة ورطوبة يتركب الجسم وجزئياته ويقابلها السوائل الأصلية الدم والبلغم والصفراء والسوداء : والشرط الأساسى للحياة هو الحرارة الغريزية التى بزوالها يكون الموت . هذه الحرارة الغريزية تكون على أشدها فى الشباب ولذا كانت الحاجة فيه الى الوقود أشد وتضمحل على التدرج كلما تقدم السن . وضرورة أخرى من ضرورات الحياة الاثير الهوائى أو النيوما الذى يدور فى الأوعية كل هذا ربما كان فيه من الخيال ما فيه . لكن يحسن بنا أن

نذكر أن النصف الأول من القرن التاسع عشر تقضى قبل أن يبطل القول بالأمزجة الذى كان حينئذ قد استمر اثنين وعشرين قرنا على الأقل ولعله لا يزال يعيش الى الآن فى صورة بعض نواجم العلم الحديث . وفضلا عن ذلك فإن ألفت المؤلفات الايقراطية أخصها بالايقراطيين هى بين مغفلة هذه النظريات غير الضرورية لغرضها الأول ومشيرة اليها عرضا فقط . فان شغلها الذى اختارت لنفسها من ملاحظة الأعراض وتمييز الأصل من العرضى فى الأمراض وانتزاع الكليات من المخبورات يمكن أن يمضى فى سبيله غير متأثر بأى رأى يرى فى طبيعة الانسان أو طبيعة العالم . حتى العلاج الذى لا يكاد يكون فيه بد من مراعاة نظرية ما عن التسبب لم يحد عن سبيله من أجل قول بالعناصر والأمزجة لم يكن مستظاعا البناء عليه بالذات . وزاد عن علم فوائده الأدوية فلم يتأثر بمثل هذا قولهم بالطبيعة كشافية للأمراض وهو ما كان يقول به الكتاب اللاتينيون المتأخرون والذى يقال به اليوم .

ان سبيل مداواة الأمراض حسب رأى الايقراطى هو اعادة التوافق بين العناصر والأمزجة وهذه فى الواقع تجنح بطبيعتها الى التوازن واذا ما تركت وشأنها أرجوها اليه فى أغلب الأحوال الميل الفطرى الى التعافى .

هذا الارجاع يسمى بالهضم وبالطبخ كما يسمى باللاتينى ونقطة الانقلاب التى عندها تظهر آثاره هى البهران وهو مصطلح لا يزال له على بعض معناه الأصلى مكان فى الطب . هذه النقطة نقطة الانقلاب تقع بالفعل فى كثير من الأمراض ، خصوصا الجرثومى منها ، فى أيام مخصوصة وان كان الأطباء اليونانيون قد أعاروا عدد مرات وقوعها بالضبط فوق ما ينبغى له من التوكيد . ولم يكن من

غير المهم من واجبات الطبيب أن يعين الفطرة بالدواء يتحرى في إعطائه أوقات البحران (الخرج) فإذا لم يكن بحران أو إذا أخطئ بالأدوية لحظة الإعطاء فإن المرض قد يصير عياء لكن الأمراض إنما كانت تنتج بالذات أو بالواسطة عن اضطراب ما بين الأمزجة من التوازن والتآلف وهذا لم يكن إلا مجرد فرض كما كان الإبيقراطيون أنفسهم يعرفون وكانت هناك أسباب أخرى أكثر بعدا تقع في أفق نظر الطبيب من ظروف كان يستطيع أن يدرسها وبالفعل درسها . فضرب لها مثلا طرائق العيش غير الحكيمة والتعرض لتغيرات الجو والسن الكبير وما أشبهه وكثير من هذه كان يمكن تصحيحه أما ما لم يكن تصحيحه ممكنا فقد كان له من المداواة طرق متنوعة بالمرصاد .

أما أن الأجسام البشرية تكون عادة على حال من الصحة تظل عليه وأنها في الجملة تنجح إلى الأفاقة من المرض فهو رأى قد ألفتناه اليوم حتى لا يكاد يكون هناك إلى التذكير به حاجة . أننا نعيش بعد إبيقراط بنحو ثلاثة وعشرين قرنا كان العالم المتمدن في ستة عشر منها يرى أن الفصد والحجامة المتجددين ضروريان للاحتفاظ بالصحة وظللنا في آخر قرن أو قرنين منها نحور إلى الموقف الإبيقراطي بالتدريج .

لعل نخر المجموعة الإبيقراطية الأكبر من الوجهة التطبيقية هو وصفها حالات قد وقعت يبلغ كل ما يسلم اليانمها اثنين وأربعين^(١) وهي لم تظل قريبا من ألفى سنة فريدة في مجموعها فحسب بل هي لا تزال إلى اليوم نماذج مما ينبغي أن يكون عليه الوصف التطبيقي

(١) وهي توجد في ملحق للجزأين الأول والثالث من كتاب "الأمراض الوبائية" وفي صلب الجزء الثالث ..

الوجيز فهى واضحة مختصرة ليس فيها من كلمة زائدة ثم فيها مع ذلك كل ما لا بد منه . لا يبدو فيها الا رغبة فى تدوين أهم الوقائع من غير أى نزوع الى العجلة فى الحكم فهى المثل الكامل للنبوغ اليونانى فى انتزاع المهم ، لا يبدى كاتبها أقل رغبة فى الاعلاء من مهارة نفسه ، انما يروم أن يضع الوقائع بين يدى القارئ ليتهدى بها فى مثل ظروفها ، ومن النتائج الطبيعية لروح الأمانة التامة التى فيها عاش أولئك الرجال وبها عملوا تدوينهم عن جل تلك الحالات أنها كانت حالات موت . من تلك المجموعة الصغيرة المعجبة يصح أن نورد هنا حالتين :

”المرأة المريضة باللوزتين الساكنة مع أرسطيون ، بدأت علتها فى اللسان ، الصوت منحبس ، اللسان أحمر جاف . اليوم الأول : رعدت ثم سخنت . اليوم الثالث : حمى حادة ، انتفاخ أحمر جامد على جانبي العنق والصدر ، الأطراف باردة ممتعة ، التنفس مرتفع ، الشراب عاد من الأنف ، لم تكن تستطيع البلع ، الافراز البولى والمعوى موقوف . اليوم الرابع : احتدت الأعراض كلها . اليوم الخامس : ماتت “ .

أمامنا هنا على الراجح حالة دفتريا فالتهاب اللوزتين وشلل اللهاة أدى رجوع الطعام من الأنف وصعوبة النطق والبلع هى نواتج تتميز بها هذه العلة قد عقدها هنا امتداد التواءات المتسمة الى العنق والصدر ، توابع لهذا المرض غير قليلة الوقوع انما الأشبه أن يكون غير عادى هو سرعة هجمة الأعراض لكن تعليله يتيسر اذا ما اعتبرنا الحالة حالة دفتريا خفيفة لم يفتن لها تعقدت بعد بشلل وبتسم ثانوى عرضت المريضة من أجلهما على الطبيب .

في تاسوس أصاب زوجة دلريس الساكنة في السهل حمى مرعدة حادة لحزن نزل بها . كانت من أول الأمر لآخره تلتف بغطاء فرشها ، ظلت صامتة ، نكشت ، لقطت ، نقبت وجمعت الشعر (من الفراش) ، دموع ثم عودة الى الضحك ، لا نوم ، الأمعاء سهلة التهيج لكن لا تبرز شيئا ، اذا ألح عليها شربت قليلا ، البول رقيق قليل ، كانت الحمى تبدو خفيفة للممس ، برودة في الأطراف . تاسع يوم : تكلمت كثيرا بخلط ثم عادت الى الصمت العميق . اليوم الرابع عشر : التنفس نادر مديد على فترات ثم عاد فصار سريعا . اليوم السابع عشر : بعد تنبيه الأمعاء أخرجت حتى المشروبات وما كانت تستطيع امساك شيء ، لا تعى شيئا ، الجلد جاف مشدود . اليوم العشرون : كلام كثير ثم هدوء ففقدان صوت ، التنفس معجل . اليوم الحادى والعشرون : ماتت . كان نفسها أثناء ذلك كله نادرا مديدا . وكانت لا تعى شيئا ملتفة دائما بغطاء فرشها . وكانت إما فى كلام كثير أو فى سكوت تام .

هذه الحالة الثانية بعضها وصف لغيوبة فيها هذيان خافت وهى نهاية عادية فى الحميات الملحة كالتيفود مثلا . وهناك شبه كبير بين الوصف وبين ما هو معروف الآن بالحالة التيفودية . ثم فيه بالمصادفة اشارة الى نوع من التنفس شائع عند الموت اذ يصير الشهيق عميقا بطيئا ينتهى بالتدريج الى السكون ويقل ثم يقل حتى يبدو كأن قد انقطع تماما ثم تزداد سرعته بالتدريج وهكذا دواليك . هذا النوع من التنفس معروف لدى الأطباء باسم شهيق شين ، استوكس تنويهاً بطيبيين أرلنديين ناهين عاشا فى القرن الماضى واستلفتا رجال الطب اليه وقد فسر حديثا تفسيراً

جزئيا مبنيًا على أساس فسيولوجي^(١) ولنا أن نلاحظ أن هناك في المجموعة الايقراطية صورة أخرى قلمية لشهيق شين استوكس أحسن من السالفة وردت في الحالة المشهورة حالة فلسكوس الساكن بجوار الحائط الذي لزم فراشه من أول يوم حم بحدة فيه وقد مات حوالى منتصف اليوم السادس .

ويلاحظ الطبيب أن التنفس (الشهيق) من الأول للآخر كان تنفس شخص جامع لوعيه وأنه كان مديدا نادرا . وصف تنفس شين استوكس فأحسن بأنه "تنفس شخص جامع لوعيه" .

من الممكن أن يفرق بين أمثال هذه المدونات وبعض مدونات أخرى بلغتنا عن العهد اليونانى القديم نضرب مثلا لها : لوحتين كشفتا في ابيدوراس سنة ١٨٨٥ فيهما وصف أربعة وأربعين شفاء هيكليا الآتيان مثلان منهما معتدلان :

ارستاجرا الطرزونية : كان عندها الدودة الشريطية وبيننا هي نائمة في هيكل اسقلابيوس في طرزون رأت رؤيا . رأت كأن أبناء ذلك الاله اذ لم يكن هو حاضرا بل كان غائبا في ابيدوراس . قد قطعوا رأسها ولكنهم لم يستطيعوا اعادتها مكانها فأرسلوا رسولا الى اسقلابيوس يسألونه القدوم الى طرزون . وطلع النهار فيما بين ذلك ورأى القسيس رأسها منفصلا بالفعل عن جسمها . وفى

(١) وصف جون شين (١٧٧٧ - ١٨٣٦) هذا النوع من الشهيق في تقارير مستشفى دبلن (١٨١٨ - ٢ صفحة ٢١٦) وقد وصف سمى شين . جورج شين (١٦٧١ - ١٧٤٣) حالة بالغة منه في كتابه المرض الانجليزى (١٧٣٣) اشتهرت "بحالة الكولونيل تونشند المحترم" ونشر وليم استوكس (١٨٠٤ - ١٨٧٨) وصفه للتنفس الشين استوكس في صحيفة دبلن الربع السنوية للعلوم الطبية سنة ١٨٤٦ صفحة ٧٣ المجلد الثانى .

الليلة التالية رأت ارستاجرا كان ذلك الاله عاد من ايدروس ووصل رأسها برقبته ثم شق بطنها وعاد نفاطها . وكذلك شفيت .

كان عند رجل خراج في بطنه فرأى رؤيا خيل اليه فيها أن ذلك الاله أمر العبيد الذين كانوا معه فرفعوه وأمسكوه بحيث يمكن شق بطنه . حاول الرجل أن يفلت فأمسكه عبيده وربطوه وكذلك شق اسقلابيوس بطنه وأزال الخراج عنه ثم خاطه ثانيا وفك عنه القيود . من تلك اللحظة قام الرجل معافى وكان بلاط المنامة مغطى بالدم ^(١) .

إن عنصرا أساسيا في مادون من طرق المداواة الهيكلية . وقد سلم منها عدد عظيم في متنوع من الوثائق كبير، هو العملية المسماة بالترقيد أو نرم الهيكل يكون عادة في مكان للنوم مخصوص أو المنامة ولا يزال للعملية ما يوازيها عن قرب في بعض الكنائس اليونانية الحديثة وفي أماكن للعبادة أخرى أبعد منها كثيرا إلى الغرب . بل هناك آثارات منها في هذه الجزائر ومن المرجح الأرجح أن المسيحي منها ينحى إلى الوثني بنسب متسلسل متصل ^(٢) .

ماهية علاج الهياكل كانت ولا تزال على شكل يوحى للمريض أن يحلم بالاله . ولذا فهو يحلم به في العادة . ومثل هذه المعالجة بالايحاء لا تنطبق إلا على أنواع خاصة من الأمراض وهي دائما

(١) النقوش الابدورية ذكرها م. فرانكل في Inscriptionum Graecarum Corpus الجزء الرابع صفحة ٩٥١ — ٦ وبجنتها ماري همتن (م.زجاي دكنس) في الترقيد (سنت اندروز ١٩٠٦ من ترجمته نقلنا . وهناك نقوش أخرى ذكرها كافيدياس في كتابه المطبوع سنة ١٩١٨ والصادر سنة ١٩٢١

(٢) ومثل هذا تقريرا قد ورد في "وحي تيقوريماس المشكوك فيه" مؤلف كتب على الرابع حوالى آخر القرن الرابع .

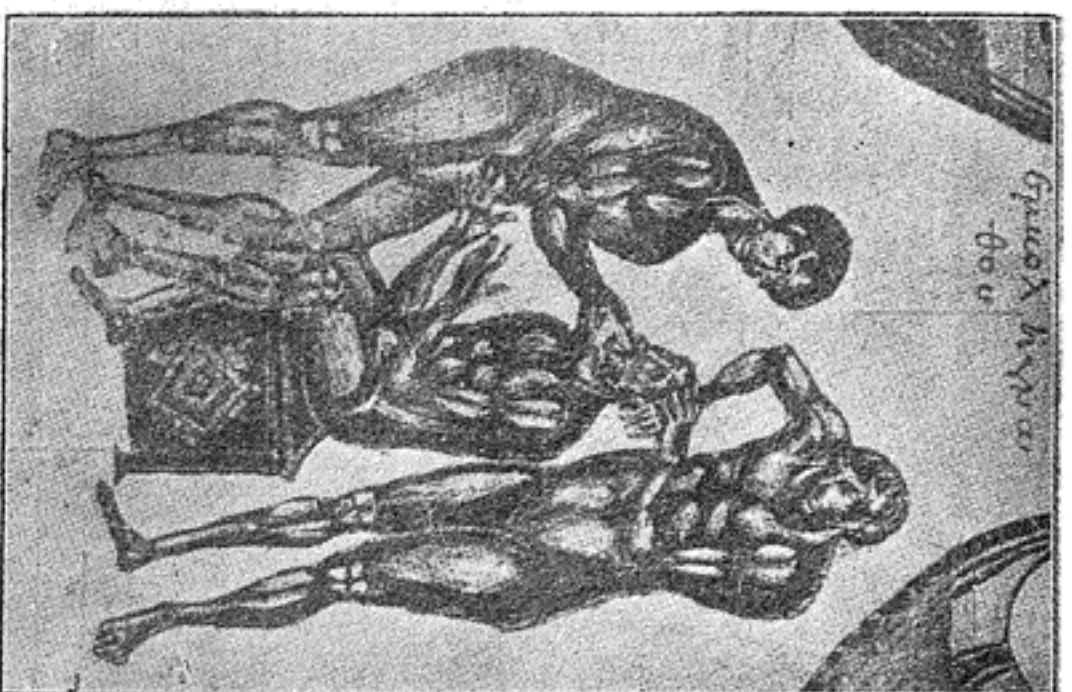
عرضة لأن يستثمرها الجهالة المتغالون في الدين والمحتالون . والعقبة التي يصادفها الطبيب التزيه هي أن المصاب هو مسبب مرض نفسه بنفسه . فيصعب جدا اقنائه أن شكواه هي ما هي في الحقيقة علة في العقل . وهذا هو الذي يعطى المتجر بالحوارق فرصة .

. انظر قليلا في الحالتين من إبيدوراس وما هما الا نموذج للباقي وتلاحظ أن الأولى منهما وصفت مجردة بأنها حالة الدودة الشريطية أو الوحيدة من غير مبرر قط لهذا التشخيص . وليس نادرا في أيامنا هذه أن نرى المرضى الناحلين المتخوفين يقولون بغير مبرر كذلك أنهم مصابون بتلك العلة . ينسبون أعراضا معدية مخصوصة الى هذا السبب الذي لعاهم قرأوا عنه في الاعلانات المستلفتة للناس . ثم يطلبون دواء لمرض هم أنفسهم شخصوه لكن لا وجود له في الواقع . لحالة كهذه يناسبها غالبا العلاج بالايحاء . وإذا كان هناك من التعقيد في دواء الهياكل ما يدعو الى الدهشة قليلا فان من السهل اخراج مقابل لذلك من أفاصيص القديسين المسيحيين . وفضلا عن ذلك فانه ينبغي أن نتذكر أن ما بين أيدينا ليس هو حكاية حكمتها المريضة عن نفسها ولكن كتاب تزكية كتبه عمال الهياكل . أما الحالة الثانية : حالة الرجل المصاب بخراج في بطنه فهي أبسط كثيرا من أختها ومن الواضح أن قد أجريت في الواقع عملية أجزاها الكاهن متنكرا في ثوب اسقلاپيوس . بينما كان المريض يمسكه العبيد ثم أكدوا له أن ذلك ما هو الا حلم وخرج معافي يعلق على ما رأى تعليقة المنام وكان بلاط المنامة مغطى بالدم .

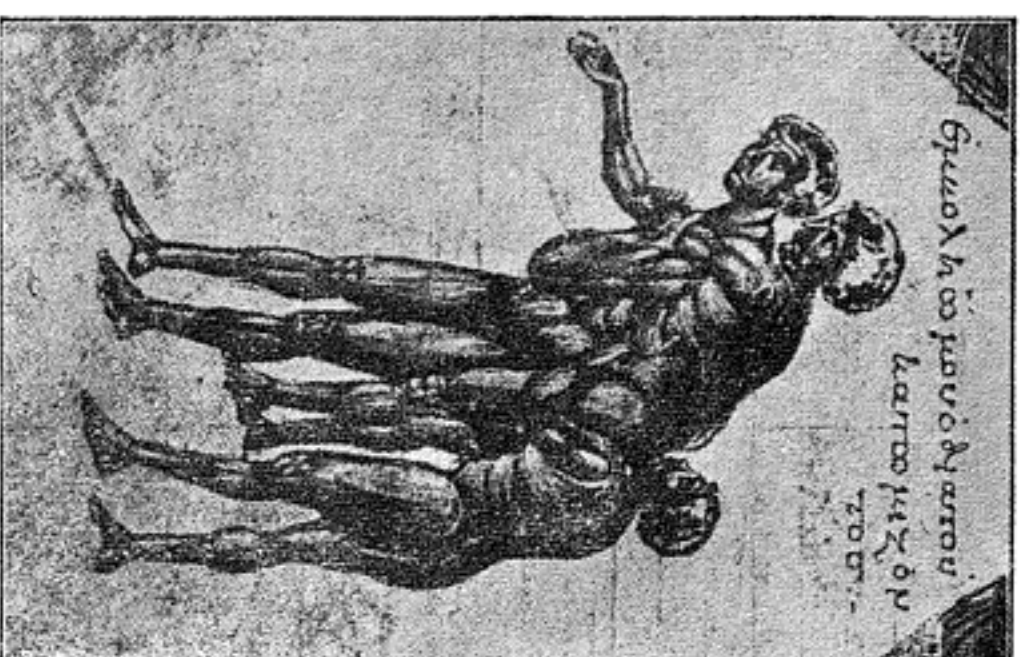
هذه الأحوال يمكن مضاعفتها إلى غير حد من غير فائدة كبرى نفيدها ما نحن بصددده إذ ليس في هذه الأمور نمو ولا تطور ولا تاريخ ومثلها في ذلك من غير شك جزء عظيم جدا من طرق التطبيب عند اليونان وكذلك جزء صغير من الطب الحديث ولكنا هنا لسنا بصدد تبيان هذا ولذا فلن نلتفت إليه لكن لا بد من كلمة تحذير نقولها : عبادة الهيكل هذه قد قورنت بالتحليل النفسى الحديث وهو طريقة قد استعملت أحيانا على غير وجهها كغيرها من الطرق ولكن فرق ما بينها وبين نظام الهيكل أنها في روحها عملية علمية محضة بها يكشف للمريض عن الأسس الأصلية لتوهماتة فتبدوله واضحة .

على أن هناك ناحية أخرى للهيكل الاسقراطية أنها قد نمت تدريجا على النحو الذى نمت عليه مصطافاتنا ومصحاتنا واكتسبت كثيرا من الصفات — حسنها وقبيحها — التى نعرفها في بعض أماكن المياه المعدنية في القارة . فمن قبيح ذلك أنها صارت مجامع للقليل والقال بل صارت شيئا لا يكاد يفضل المواخير الا قليلا كما قد يؤخذ من (mimes) لهورنداس . ومن حسن ذلك أنها كانت فيما يحيط بها من جمال طبيعى مونق ملاجئ هادئة للمريض والمجهد والناقه يستطيع كل فيها أن يتمتع بما هناك في الهواء النقي والمنظر الأنيق والمعيشة المنظمة من منفعة وفائدة . كذلك من المرجح أن الهواء الطلق وطريقة العيش أفادت كثيرين من حالات السل البدئ .

لنرجع بالقول الآن الى المجموعة الايقراطية . لن تجد الرسائل الجراحية الصرفة فيها أقل تميزا من رسائل الطب التطبيقي . فقد قال جراح قدير فرانسيس ادم (١٧٩٦ — ١٨٦١) في منتصف القرن التاسع عشر وكان على الكعب في الأدب اليونانى أن ليس



(شكل ٤)
جسير الفاك المخلوع



(شكل ٣)
جسير الكنف المخلوعة

فيمن كتب بانتظام عن الجراحة الى عصره من وصف بعض الخلع - خصوصا خلوع مفصل الورك - فبلغ من الاجادة والاحاطة مبلغ الوصف الموجود في المجموعة الايقراطية .

ومن المحقق أن بعض أنواع اصابات الورك كما وصفتها المجموعة الايقراطية لم تعرف من غير طريق المجموعة الا معرفة كبيرة النقص حتى وصفها سيراستلي كوبر (١٧٦٨ - ١٨٤١) الذي كان نفسه كأنما هو من الايقراطيين ^(١) . ومن المرجح أن حكم آدمس كان حكما عادلا وان كانت جراحة الخلع قد تخطت منذ أيامه بمعونة أشعة س على الأخص ، موقفها الذي كانت عليه عند الايقراطيين الى موقف جلي وراءه . ومن الجدير بالإعجاب كذلك وصف الايقراطيين نخاع مفاصل الكتف والركب . اذا حدث خلع في الورك أو في الكتف أو في الورك وما شابهه وحدث معه تشويه محسوس . هذا التشويه قد وصفه الكاتب الايقراطي طبيعته ومعناه وصفا يسترعى النظر بدقته . كما وصف أيضا النقص الناتج عنه . أما قواعد العلاج عندهم في هذه الأحوال بل وتفصيله فانها تكاد تكون هي بنفسها التي عندنا إلا أننا نستعمل مخدرا . والعمليات لا تصلح لسوء الحظ أن تذكر هنا نقلا ووصفا مفصلا . ولكنها ذات مغزى خاص ، إذ قد وصل إلينا صورة واضحة منها . ففي المكتبة اللورنتية في فلورنس مخطوط في الجراحة كتب في القرن اليوناني التاسع يحتوي على أشكال لجراحين يجبرون تلك الخلع . وهناك ما يحمل على الظن أن هذه الأشكال المصغرة منقولة عن

(١) انظر أستلي باستون كوبر (مؤلفه على الخلع وكسر المفاصل) المطبوع بلندن

سنة ١٨٢٢ (وملاحظات على كسر الرقبة والورك الخ) بلندن سنة ١٨٢٣

أشكال أعدت أول مرة في عصور ما قبل المسيحية بقرون وفي هذه يمكننا أن نرى نفس عمليات جبر تلك الكسور كما كان يعملها جراح آخذ بالتقاليد الايقراطية بالذات (انظر شكل ٣ و ٤) .

وأغلب ما كتب في الجراحة في المجموعة يوافق هذا كله حتى لتكاد تروعن الرنة الحديثة تنبعث من الاجراءات اذا ما تصفحنا على عجل كراسة المذكرات . . . ” في الجراحة “، أو الرسالة الأعقد منها ” في التطبيب “ ففيهما نقرأ اذا شئنا ارشادات مفصلة عن



• صورة

(شكل ٥) عيادة طبية يونانية في (حوالي ٤٨٠ - ٤٧٠ قبل الميلاد) من نقش على خزف يجلس في الوسط طبيب ممسك مشرطاً يفحص مريضاً من الوريد الأوسط عند ثنية المرفق الأيمن في طشت كبير وقد علق فوق الطبيب وخلفه ثلاثة محاجم وإلى اليمين يجلس مريض آخر منتظراً دوره وعضده الأيسر مربوط في منطقة ذات الرأسين والشخص خلفه يشم زهرة ربما أراد بشمها الوقاية من العدوى وقد وقف خلف الطبيب رجل متوكئ على هراوة . مجروح في ساقه الأيسر المربوطة وبجانبه شكل قزم رأسه غير متناسب معه كبيراً وبجسمه ناهات هي مثال المرض التكويني المعروف الآن بوقوف نمو الغضاريف أو (Achondroplana) ويلاحظ زيادة تلي هذه العاهات أن جسمه كثير الشعر وأنه أنفطس الأنف يحمل فوق ظهره أرنبا بر ياكاد يباغه طولاً . ويتحدث إلى القزم رجل متكئ على هراوة طويلة على صدره بقية من رباط .

(انظر كتاب بوتير ” عيادة طبية يونانية في القرن الخامس ، الخزف الأثري من مجودة يذيل معهد بوجين تمثيل وذكريات “ (بعض تفسيراتنا يختلف عن تفسيرات مـيو بوتير) .

غرفة العمليات . وعن نقطة أخرى مثل حسن استعمال الضوء من صناعي وطبيعي وتنظيف الأيدي تنظيفا مستقصي وحفظ العدد واستعمالها مع الاحتياطات الخاصة اللازمة لها إن كانت من حديد . ثم الأدب الواجب مراعاته أثناء العملية والطريقة العامة للربط والوضع الذي يكون عليه المريض والجبائر والحاجة الى حسن الهيئة والى الترتيب والنظافة .



(شكل ٦) قدح يوناني من متحف برلين (تاريخه ٤٩٠ قبل الميلاد) منقوش عليه أي "صنعتي سوسيام" ويمثل اكيليس يربط لباتروكليس وحول الهاشم مكتوب اسما البطلين .

النقاش يوفرونيوس . والنقش هو آية أعمال ذلك الفنان العظيم . عضد باتروكليس الأيسر به اصابة واكيليس يربطه برباط ذي طاقنين (لقتين) وهو يحاول أن ينزل به ليمده فوق المرفق . أما تصوير الأيدي وهو فرع نبغ فيه يوفرونيوس فانه ممتاز بدقته . لم يكن اكيليس جراحا مدربا ويلاحظ من موضع ذيلي الرباط أنه سيجد بعض صعوبة عند ما يريد في النهاية أن يعقده .

هذه الارشادات قد توسعت في كثير منها المؤلفات الجراحية الأخرى في المجموعة، ففيها تجد على الأخص تعليمات وافية عن الربط وعن تشخيص الكسور والخلوع وعلاجها وقد مثلت هذه الجراحة التي تصفها تلك المؤلفات تمثيلا مقبولا في نقش على آنية أتينية الأصل تاريخها (حوالى ٤٨٠ - ٤٧٠ قبل الميلاد) وإذا تكون سابقة لايقراط نفسه (انظر شكل ٥) وعلى أوان خزفية يوجد أيضا تمثيلات جميلة عدة لنفس عمليات الربط (شكل ٦) . من بين الاجراءات الجراحية التي نجد وصفا لها في الكتابات الايقراطية فتح المصدر من أجل الحالة المعروفة بالأمبيا (تجمع المدة في البلورا الذي كثيرا ما يعقب النيومونيا أو ذات الرئة) وتربنة (أى ثقب) الجمجمة في أحوال كسرها . عمليتان أساسيتان في الجراحة الحديثة . لقد تقدم فن الجراحة تقدما عظيما في أزماننا بحق ومع ذلك فمن الممكن تحضير كتاب مما ورد عن الجراحة في هذه المجموعة وحدها فيه كثير لا يزال نافعا الى اليوم .

فاذا ما مررنا الى المؤلفات في الطب بمعناه الخاص مررنا الى منطقة أكثر صعبا بل ولعلها أكثر خلافا ينقطع فيها البحث عن العلل البسيطة المعروف أصلها ويتصل بآثار المرض والفساد الذي لم يكن الكتاب الايقراطيون يعرفون عن خصائصهما بطبيعة الحال إلا النذر القليل . ولقد صان أحاسن هؤلاء الأطباء أنفسهم صيانة لا هوادة فيها عن كل محاولة يقصد فيها الى تعليل المرض بأسباب قريبة تفترض فتصرف جهود القارئ الى وجهة لا نفع لها في الطب — الى التخرص المبهم الذي كان الرذيلة العقلية الشائعة بين اليونان . وكان يمنعهم أن يستخلصوا إن استطاعوا مستنبطات عامة من أحوال شوهدت بالفعل . لقد صار كثير من أفكارهم

كلمات تردّد في البيوت ميراثا ورثنا. أكثره بالذات عن أولئك الأطباء الأقدمين . لكن علينا أن نذكر أن الأفكار التي جرت منا هكذا مجرى الأمثال كانت فيهم نتيجة اختبار طويل مسطور وأنها ليست كشيء مما نلاقى في طب الأمم القديمة الأخرى .

هذه النتائج لعلك تجدّها في أحسن صورها في الكتاب العجيب كتاب الكلم الجوامع ومنه نستطيع أن نورد هنا فقرات قليلة .

”العمر قصير والفن طويل ، الفرصة راکضة ، التجربة خطيرة والحكم عسير ، وعلينا مع ذلك أن نستعد لا نعمل واجبنا بأنفسنا فقط وإنما على كل من المريض والخادم والظروف المحيطة أن يعين“ (١) في هذه العبارة المأثورة المفردة التي اشتدّ إيجازها في الأصل حتى كادت تستعصى على المترجم قد ترك من سبق إلى فصل الطب من الفلسفة كل ميل للحدس والتخرص جانباً وهو يحضر من المريض . ووقف جهده كله على الحالة التي بين يديه متخذاً تلك الوقفة الخاصة التي هي في آن واحد شخصية شديدة وغير شخصية والتي صارت منذ ذاك الحين شارة الطبيب وصيرت الطب علماً كما صيرته فنا .

”لأُمراض الشديدة طرق للمداواة شديدة“ (٢) .

”الصوم أسهل ما يكون على المعمرين ثم على البالغين ثم على الصغار وأقلهم تحملاً له الأطفال خصوصاً أكثرهم نشاطاً وحركة“ .

”أكثر الأجسام حرارة غريزية النامي منها“ .

(١) الأسطر الأولى هي منشأ الأسطر المشهورة في فاوست لجوت .

(٢) شدة العلاج أريد به في الأصل الاحتماء الشديد من الأكل
لكن معنى الكلمة قد فهم دائماً على أنه أعم .

”أكثر الحرارة الغريزية هي في الأجسام النامية لذلك هي الى الغذاء أحوج فان لم ينالوه نحلوا . والمعمرون قليلة حرارتهم ولذا فقليل من الوقود يكفيهم اذ كثيره يطفئها . كذلك الحميات لا تبلغ من الحدة فيهم ما تبلغه في غيرهم لأن جسومهم باردة .

”النوم المتكاف المستعصى علامة الهلكة في المرض لكن اذا نفث فلا هلكة فيه“ .

”النوم اذا انتهت به الغيبوبة علامة حسنة“ .

”اذا جاد أكل الناقه ولم يزدرد سمنا كان ذلك علامة سيئة“ .

”لأن يكون الطعام والشراب أقل جودة وأحسن مذاقا خير من أن يكون أكثر جودة وأقل مذاقا“ .

”الكبار في الجملة أقل شكاة من الصغار . لكن تلك العلل المزمنة التي تنزل بهم قلما تفارقهم“ .

لدينا هنا طائفة من المشاهدات قد سار بعضها حقا على السنة الناس . بل وليس من الصعب تفهم كيف خرجت تلك الأمثال من حوز الخاصة الى حوز العامة . لقد ترجم هذا الكتاب الفخم كتاب الكلم الجوامع الى اللاتينية فصار ميسورا للغرب من عهد بعيد قبل القرن السادس المسيحي على الراجح غير متأخر عنه على التحقيق . وقد بقيت نسخ من الترجمة اللاتينية تاريخها القرنان التاسع والعاشر في الأما كن التي ترجمت بالفعل فيها . في مونت كاسنو في جنوب ايطاليا وفي ايتزليدن في سويسرا . ولما جاءت سنة ٩٩١ كان كتاب الكلم الجوامع مشهورا يدرس عن تمن في مدرسة الكاتدرائية في شارترز . ومن فرنسا بلغت الكلم الجوامع انكلترا . وهي مذكورة في وثائق تاريخها القرنان العاشر والحادي عشر . ولم يأت هذا

التاريخ حتى كان الكتاب قد ترجم الى اليونانية . ومن بعدها الى العربية والعبرية فلم تأت القرون الوسطى الحقبة الا والكتاب معروف شرقا وغربا بالعامى من الألسن وبالفصيح . وعن اللغات الشرقية أخذت تراجم أخرى عديدة الى اللاتينية . وقد عاش على رغم الحوادث عدد ضخم من مخطوطات الكتاب فى جميع اللغات الغربية تقريبا وهى تدل فى الجملة على أن متن الكتاب قد حفظ من العبث الى حد يحمل على العجب . وفى أواسط القرن الثالث عشر أخذ بعض من أشهر تلك الكام الجوامع فأدمج فى قصيدة لاتينية ذاعت عندئذ بين الناس نشرتها مدرسة الطب فى سالرنو . وإن نسبت كذبا الى تاريخ أسبق من ذلك . وقد ترجمت القصيدة السالرنية الى لغية عامية أوروبية فكانت بذلك مما جعل ايقراط يتبوأ مكانا فى كل بيت . لكن ما كل الكلمات الجوامع يمكن أن يندمج فى طب العوام . انما الذى يمكن أن يقع له ذلك منها هو ما اتصل بالأحوال التى تتكرر كثيرا .

كذلك يحتوى الكتاب على عدد من الملاحظات عن أحوال نادرة قلما يلاحظها إلا رجال الطب . مثل ذلك : الملاحظات الفطينة الآتية :

”الجرح الذى تتبعه رعدة مهلك“ .

”المصابون بالكزاز” التتانوس “ يموتون فى أربعة أيام فان لم يموتوا فيها تعافوا“ .

”التشنج والفواق اذا وقع أحدهما بعد ادماء كثير كان ردىء العاقبة“ .

”اذا لم يظهر بعد الجروح البليغة ورم كان الأمر شديدا لخطر“ .

هذه الجمل الأربع خاصة كلها بالجروح . الأوليان منها تشيران الى مرض الكزاز "التتانوس" الذى كثيرا ما يعقب الجروح الملوثة بالتراب فى الأماكن الحارة الرطبة . ومن خصائص هذا المرض سلسلة انقباضات عضلية مؤلمة يمكن أن تصير فى الشديد الخطر منه رعدة متصلة هى المشار إليها فى الجملة الأولى . وفى التتانوس كلما تأخرت وطأته عن زمن الانجراح كلما كانت فرصة الشفاء أكثر . وقد وضع هذا فى الجملة الثانية . والجملتان الثالثة والرابعة توردان أعراضا مشؤومة تعقب الجرح الطاغى يعرفها ويحذرهما الآن كل جراح . وقد وجد بالطبع فى الحرب الماضية أمثلة لا تعد تؤيد صدق تلك الكلمات فى حالة الجراح المتسعة لا سيما الجروح المتهمم معها أحد الأطراف .

"السل أكثر ما يكون يكون بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين" .

"الاسهال الشديد اذا أعقب السل يميت" .

إن الفترة التى تقول المكالم الجوامع ان هذه العلة تقع أكثر ما تكون فيها تؤكدها المشاهدة الحديثة والكلمة الثانية صحيحة كذلك فالاسهال المستمر كثيرا جدا ما يسبق القاضية فى السل المزمن وقد دل التشريح بعد الموت على أن تأثير الأحشاء بالمرض تأثيرا مضاعفا أمر كثير الوقوع جدا فى هذا المرض . وليس المثل الآتى بأقل استرعاء مما سبق :

"من الخطر فى اليرقان أن تتليف الكبد" .

اليرقان عارض عادى تافه يتبع أنواعا مختلفة من الأمراض أو يصحبها وهو فى ذاته وبمفرده لا أهمية له ويذهب من نفسه دائما

تقريبا . إلا أن هناك طائفة صغيرة من الأنراط المرضية لا يقع هذا فيها . أكثرها ذيوعا وأهمها تليف الكبد وسرطانها وهما علتان فاتكان يحس فيهما تضخم ذلك العضو وتصلبه فإذا ما أحس إذا في اليرقان بذلك كان الأمر كما تقول الكلمة الجامعة في نهاية الخطورة . وقد وصل إلينا من الأزمان اليونانية تمثيلات لأحوال كان فيها ذلك . فعلى تمثال نصب في أثينا تذكيرا بطبيب مات في القرن الثاني المسيحي يمكننا أن نرى عملية الامتحان التطبيقي (شكل ٧) فيه يمس الطبيب كبد شخص فيه قصر شديد تنبؤ بطنه المتفخخة وأطرافه المنهزلة وطاعته الناصبة بحال يشبه تلك الموصوفة في الكلمة الجامعة بل من الممكن أن نتبين في التمثال التمدد الذي سببه تمدد الكبد .

”يجب أن نلتفت الى مظهر العين في النوم منظورا إليها من أسفل فإنه اذا بدا جزء من البياض من بين الجفنين المقترين ولم يكن ذلك ناشئا عن اسهال شديد من مرض أو مسهل كان ذلك علامة رديئة جدا ومن علامات الموت“ إننا في هذه الكلمة وهي آخر ما سنورد نرى الطبيب الايقراطي وهو يقوم فعلا بمشاهداته . إن مقلة العين تكون في النوم منقلبة الى أعلا فلا يرى من العين عندئذ اذا فتحت وامتحت إلا البياض . والجفون في الأدوار الأخيرة من الأمراض المزمنة المضنية تميل الى ألا تنطبق . ومن بلغ به المرض ذلك مات غالبا وعيناه مفتوحتان غير باد منهما أحيانا إلا البياض كما هو معروف — لكن الطبيب الايقراطي لم يكن يقنعه أن يكون مشاهدا فحسب إنه كان أيضا يستخرج العلامات بطرائق فعلية . إن أكثر عمل طالب الطب في العصور الحديثة بل ولعل رأس عمله هو تعرف هذه العلامات المسماة (بعلامات

المرض الطبيعية) التي أعيد بناء تقاليدها بالتدريج في القرون الثلاثة الأخيرة . ومن أهم الطرائق التي يتعلم الطالب كيف يمهر فيها النسمع . لقد زاد شيوع هذه العملية النافعة منذ اختراع (لانك) المسمعة في سنة ١٨١٩ مستعينا بإشارات قيمة أخذها من الكتابات الابيقراطية وقد ذكر النسمع الأطباء الابيقراطيون . ووصفوه مرارا واتخذوا فيه الطريقة المباشرة طريقة الاصغاء لا طريقة الواسطة التي ابتكرها (لانك) . على أن هناك أحوالا لا يزال الطبيب الحديث يرى فيها أن خير الطريقتين هي أقدمهما . الطريقة الابيقراطية التي لا آلة فيها . انا نقرأ في المؤلف الابيقراطي ” في الأمراض “ عن حالة فيها سائل في البلورا أن ” ضع المريض على مقعد لا يتحرك ولميسكه مساعد من أكتافه واهززه مستمعا بأذنك لصدره حتى تعرف في أي الجنبين العلامة “ . هذه العلامة لا يزال الأطباء يأخذون بها وتعرف بينهم بالخضخضة الابيقراطية . وفي قطعة أخرى من نفس المؤلف موصوفة أعراض التهاب البلورا وأنه يمكن سماع قعقة كقعقة الجلد ، وهذه هي الحفيف البلوري المشهور الذي تعود الطبيب أن يتلمسه في أمثال هذه الأحوال والذي هو أشبه ما يكون بقعقة الجلد .

ان مثل هذه المقتطقات تشرف بنا على طريقة الابيقراطيين العامة ووجهتهم ، ومن المستحيل أن نورد هنا في مثل هذا الاستعراض أكثر من مجرد لمحة من فن كفن الطب كان وراءه حتى في تلك الأيام تقاليد طويلة معقولة . أما العلاج نفسه فأعقد كثيرا من أن نوجز وصفه هنا وهذا يصدق بالأخص على ما كانوا يعلمون



(شكل ٧)

تمثال جنازى اثينى

القرن الثانى بعد الميلاد

كتب عليه ما يأتى : المتحف البريطانى "پاسون واسمه كذلك ديموس الأكرينافى
طبيب" و يلى ذلك نسبهته . والى جانب المريض كأس هوا .

قديمًا عن الأوبئة التي لا غنى لنا عن أن ننظر إليها نظرة على عجل .
 لم يكن الأطباء الايقرطيون ولا العصور القديمة يدرون بعد ما
 طبيعة العدوى^(١) . وما كانوا يعرفون وجودها الا لما من بعيد .
 كان المرض الحاد عندهم شيئًا يحق بالمريض من الخارج . أما
 كيف وصل اليه من الخارج وما هو ذلك الذي وصل اليه فانهم
 ياقرارهم لم يكونوا بعد يعرفونه . وفي حيرتهم هذه ولوا وجوههم
 شطر المشاهدة المتابعة وأداهم الاختبار المتكرر الى ملاحظة أن
 الأمراض الوبائية في دنياهم موزعة توزيعًا خاصًا بين الفصول وبين
 البقاع . فلم يكن قطر مثل آخر تمامًا ولا فصل مثل آخر بل ولا
 سنة مثل أخرى . وبسلسلة من مشاهدات متسلسلة عن البقاع
 والفصول والسنين كيف اختلفت فيما بينها أفلحوا في وضع أساس
 دراسة معقولة لعلم الأوبئة نشأت عنه فكرة وجود بنية وبائية للسنين
 المختلفة . فكرة شدة ما كانت منبهة مخصصة لدى كبار الأطباء التطبيقيين
 في القرنين السابع عشر والثامن عشر وما هي لدى علماء الأوبئة الحديثين
 بغير ذات فوائد . لقد أسس . . آباء علم الأوبئة الحديثون عملهم عدا
 على ايقراط . . قبل أن تغادر الطبيب الايقرطى يجب أن نقول
 كلمة عن وسائل المداواة عنده .

(١) كان الأقدمون يكادون لا يعلمون شيئًا مطلقًا عن العدوى مطبقة على
 الأمراض بنوعها . لقد كان الأقدمون كالرومان واليونان يؤمنون بانتقال الخصائص
 من شيء لآخر بالطهارة والنجاسة وحسن الحظ وسوء الحظ كانت في نظرهم تنتقل
 بالعدوى وكانت في الأمراض تدوى بهذا المعنى . أما العدوى بالمعنى الحديث فليس
 من كبير دليل على الإيمان بها عندهم على أن بعض أمراض قليلة أشير إليها في قطع
 معينة على أنها معدية كالزمد والحرب والسل — انظر كتاب " عن اختلاف الحيات
 صحفة ٢٧٩ والاشارة الى العدوى في الطب نير يورك سنة ١٩١٧ العصور القديمة
 مدينة تفصيلًا فيما كتبه لك ؛ وسنجر عن المنزلة العلمية للجرامو في جريدة التاريخ .

إن بيت سلاحه يمكن أن يقال عنه أنه كان يشبه ذلك الذي كان للطبيب الحديث قبل جيلين . حقا أننا في ذينك الجيلين أضفنا أدوية الى قائمة الأدوية الفعالة عندنا لكننا عن تراض عام رجعنا فيهما من ناحية أخرى الى التيسر الايقراطي في العلاج .

كان قطب عوامل العلاج بعد الراحة والهدوء هو الغذاء وكان له علم ينظر الى السن (الكبار في السن أقل حاجة الى التغذية من الصغار) وإلى الفصل في الشتاء التغذية الكثيرة أصح وفي الصيف الطعام الأخف أصح وإلى حالة الجسم . النحاف من الناس ينبغي أن يكون طعامهم قليلا ولكن هذا القليل ينبغي أن يكون دسما . أما السمان من الناس فينبغي أن يكون طعامهم كثيرا ولكنه ينبغي أن يكون دهنه قليلا ، كذلك لم يهمل النظر في قابلية الأطعمة المختلفة للهضم (اللحم الأبيض أسهل هضما من الأحمر) ولا في تحذيرها وفي الأشرية كان يستحب الماء وماء الشعير وماء الخير . وكانت قواعد التغذية عند الايقراطيين خصوصاً في الحمى في صميمها نفس قواعد اليوم . ومن الممكن القول أن الميل الطبي العام في الجيل الماضي كان أقرب من هذه الوجهة الايقراطية "كلنا نذينا الأجسام غير الصحيحة أضررنا بها" . يجب على المرضى الذين يأخذهم من الحمى أشدها منذ البدء أن يفرضوا في الحال على أنفسهم نظاما دقيقا في الغذاء "الحمية التامة غالبا ما تنفع ان كان المريض عنده من قوة ما يتحملها . على أنه ينبغي أن تمتحن قوة المريض لنرى ما اذا كان في حال يصاح معه الاستمرار في الأخذ بهذه الحمية في الطعام حتى يبلغ البحران" .

يجب في تطبيق هذه القواعد أن نكون دائما على ذكر من قوة المريض ومن مجرى كل علة من حديثها ومن نظام المعيشة وسمتها العادية في كل علة كذلك .



وكان لدى الطبيب الايقراطى بجانب الطعام متنوع كبير من الأدوية الأخر من بينها الحمامات والتدليك والألعاب الرياضية والأخف من ضروبها . ومن المرجح أنه قد أسرف بعض الاسراف فى الأخذ بالحجامة والفصد . ولدينا تمثيلات متعددة للآلات التى كانت تتخذ لهذه العمليات (شكل ٨) وهو لم يكن يستعمل العقاقير كثيرا وقليل ما يذكرها ، اللهم الا فى مؤلفاته فى معالجة النساء التى يرجح أن تكون من أصل سنيدى . والتى منها استمد أكثر المواد الثلاثمائة المكونة لمعجم الصيدلة (الفرما كوبيا) الايقراطى . فقائمة العقاقير كانت لديه قصيرة ولكن عددا من العقاقير التى كان يعرف لا يزال بين أيدينا نستعمله .

ان عمل هؤلاء الرجال يمكن أن يلخص بقولنا انهم بلغوا بعلم المرض منشئه ومجراه أقصى ما يمكن أن يبلغه من كان خلوا من التشريح ومن علم وظائف الأعضاء والأمراض العمليين ومن كل معونة مصدرها الآلات . وهذا فعلوه بالاستقراء العمل المحض فالجراحة عندهم وان لم تبين على التشريح الا من بعيد كانت مؤسسة على اختبارات لهم مدقونة أدق تدوين وقد صانوا أنفسهم فى علم فوائد الأدوية عن أن تخدعهم آمال باطلة أو تريغهم تقاليد زائفة ومع ذلك فقد ظلوا الى القرن التاسع عشر غير مفضولين فى كثير من أبواب التشخيص والانداز والجراحة وفوائد الأدوية . وإلى بعض طرقهم رجع الناس فى القرن العشرين . فالطرق الايقراطية كانت هى الأساس لجميع أبواب التقدم الحديث لأنها بقيت ماثلة فى جميع العصور ، تقاليد كانت يزداد وضوحها حيناً وحيناً يقل واتخذت أوضح أشكالها فى القرن السادس وبعده .

لكن تاريخ الطب اليونانى لم يقف عند المجموعة الايقراطية بل يمكن أن يقال انه فى كثير من الأمور قد بدأ عندها، غير أننا لا نلمح فيما جاء بعدها شيئا له نفس المعيار السامى الذى نعرفه فيها لا فى الخلق ولا فى الصناعة . كذلك تاريخ الطب اليونانى منذ العهد السكندرى أكثره تاريخ لمذاهب مختلفة فى التفكير الطبى لم يصير كل منها إلا جزءا من مجرى العرفان الطبى وطبيعته . وحل مشكل مجرى تلك الفرق وتعاليمها ظل طويلا الشغل الشاغل للذين احترفوا تاريخ الطب لكن القارئ العادى لن يجد ما ينشرح له فى فروق ما بين المعتنين والمتبسطين والمتنظمين^(١) الذين ماتت آراؤهم كما ماتوا . ولم يكن العقل اليونانى فى هذا العصر السكندرى المتأخر أقل نشاطا منه قبله انما تجد لما عمل مذاقا غير المذاق . ترى تدينا عاما فى روح ما أخرج فى الطب وفى الأدب . وهيهات أن تحس ثانيا تلك الحضرة التى كان يسمو بك صلاحها الرزين الجميل والتى كنت تستشعر أنفاسها تتخلل المجموعة الايقراطية وتكسبها طيبا خاصا .

سنمر بسرعة كبرى على المجرى العام لما تأخر من الطب اليونانى . قامت مدرسة طبية واضحة فى الاسكندرية وربما قامت مدارس أخرى برجمون وغيرها . أما أتيننا فانها صارت بعد موت ارسطو وتلاميذه فى الذيل لا يؤبه بها مطلقا فيما يختص بالطب . بدأ التشريح يدرس فى الاسكندرية حيث جمعت مكتبة طبية كبرى وأخذ يمارس المهنة فيها رجلان ارستراتوس وهروفيولوس كان لمستكشافتهما شأن عظيم فى تاريخ التشريح . واذا صار التشريح أساسا أمكن أن تصير التربية الطبية أكثر وأبلغ نظاما . ومن

Dogmatists, Impiries, & Methodists. (١)

أكبر البلايا أن تفقد تأليف هذين الرجلين المتفوقين . لقد سلمت نبذ من هروفيلوس محفوظة في مؤلفات جالينوس (١٣٠ - ٢٠١ قبل الميلاد) وسيلس أوريليانوس (القرن الخامس) وآخرين . هذه النبذ كانت موضوع محاولة من أول المحاولات الحديثة وأشقتها وأنجحها في إعادة تركيب مؤلف مفقود لمؤلف قديم ومستقانا الرئيس عن ارستراتوس رسالتان مكبرتان ناقض بهما جالينوس وحديثا تيسر للناس شيء جديد عن كلا الرجلين في بردية منون . لقد أمكن على الأخص إعادة تركيب رسالة في التشريح لهروفيلوس على وجه فيه رجحان كبير . بدأ رسالته بارشادات عامة عن عملية التشريح وأتبعها بأن وصف بالتفصيل المجموعات المختلفة عصبية ووعائية وغددية وهضمية وتناسلية وعظمية وكان فيها قسم عن الكبد خاصة لم يسلم منه الا جزء صغير ولعل أوفى أجزائه خبرا لدينا ما كتبه عن الجهاز العصبي ومنه يتضح أنه تقدم وراء الموقف الايقراطي وأمعن ففي صندوق الدماغ رأى الأغشية التي تغطي الدماغ وفرق بين المخ والمخيخ .

وقد عرف شيئا عن بطينات الدماغ وعن أعصاب الرأس والنخاع الشوكي وأعصاب القلب ولفافات العين واستبان قنوات دم الجمجمة بل قد أبصر ما هو أدق بنية من ذلك كالانخفاض الصغير في البطن الرابع في الدماغ الذي يعرفه المشرحون الحديثون بالوءاء الكبّابي فهو لا زال موسوما بالاسم الذي سماه به اذ قد تراءى له كما أخبرنا جالينوس أنه يشبه الأقلام التي كان يكتب بها الاسكندريون في ذلك العهد (١) . كذلك لا نزال نستعمل

(١) جالينوس ... في التحضيرات التشريحية — ٩ — ٥ —
(الجلبة الأخيرة) .

مصطلحه الاثني عشرى . فكذا يؤكد جالينوس أن هروفيولوس سمي الجزء الأول من الأمعاء قبل أن تتلف ثانيا الاثني عشرى ^(١) هو جزء من الأمعاء شكله U يعقب المعدة مباشرة وهو لا يمكن أن يتلف فوق ذلك لأنه مثبت وراء بهوة البطن وهذا يفسر وصف جالينوس له . وكان طوله حوالى اثني عشر أصبعاً في ما شرح هروفيولوس من الحيوان .

لارستراتوس الأصغر قليلا من هروفيولوس في السن والمعاصر السكندرى له شرف استكشافات تشريحية أخرى . وصف صوابا عمل لسان المزمار في منع الطعام والشراب أن يدخل القصبه الهوائية أثناء البلع وأبصر الأوعية اللبنية في المساريقا وتوسع في تتبع تشريح المخ وأضاف الى ما كان معروفا عن تشريح القلب ووصف صمامات ما بين الأذنين والبطين ووصف انفلاقها وميز أعصاب الحركة من أعصاب الاحساس .

وقد وقف على ما يظهر وقفة تجريبية لا شك فيها وهو أمر نادر جدا بين الأطباء الأقدمين . وقد كشف حديثا وصف تجربة أجراها قال :

”إذا أنت أخذت حيوانا . عصفورا مثلا . وحبسته حيناً في اناء من غير أن تطعمه ثم وزنته هو وفضلاته وجدت نقصا مذكورا في وزنه ^(٢) “ . التجربة بسيطة ولكن قد مر حوالى عشرة وتسع مئتين من السنين قبل أن خطر لأستاذ حديث سنكاريو ستاريو (١٥٦١ - ١٦٣٦) أن يعيدها .

(١) جالينوس في تشريح العروق والشرابين .

(٢) انشاهد مأخوذ من سطر ٤٤ من الفصل الثالث والثلاثين من هـ . ديلز

في مجلد ٣ جزء ١ برلين ١٨٩٣

وكان للتقدمات التشريحية التي أوجدها السكندريون تأثير طبيعي على المقدرة الجراحية . والتحسين الناتج يمكن ادراكه من وصف العلاقات التشريحية مثلاً في بعض حالات خلع الورك للجراح السكندري هجتر الذي عاش (حوالى ١٠٠ قبل الميلاد) فقد تساءل في كتابه "عن الأسباب (أسباب العلل) " و"لماذا (بعض الجراحين) لا يبتغون طريقة أخرى لجبر خلع الورك ... هم يرون أنه اذا كانت مفاصل الفك والكتف والمرفق والركبة والأصبع الخ ممكناً اعادتها الى مواضعها ، وجب أن يمكن ذلك في جميع الأجزاء ثم هم لا يستطيعون تعليل استحالة رد عظمة الفخذ الى مكانها ... كان الأولى لهم أن يعرفوا أن من رأس عظمة الفخذ تخرج عصبية لتدخل في حق عظم الورك ... وانه اذا ما انقطعت هذه العصبية مرة لم يمكن لعظمة الفخذ أن تستبقى في مكانها" (١) هذه القطعة تحتوى على أول وصف لما هو معروف لدى المشرحين الحديثين بـ (Ligamentum teres) حزمة ليفية قوية تصل رأس عظمة الفخذ بالحق المقدّر لها في عظمة الورك كالحيط الذي يربط الكاس والكرة في لعبة الطفل .

هذه العصبية تنفصم في بعض أحوال شديدة من خلع الورك .

بعد أن استقام أمر مدرسة الاسكندرية انتظم التعليم الطبي بسرعة لكنه كان يشتكى في العصر القديم من أنه لم يكن هناك شيء ما يشبه دبلوما تمنحها الحكومة . وكان لأى انسان أن يتطبب وأعقب ذلك أن كثر الدجالون والمتحذلقون والمتهوسون بين صفوف

(١) هذه هي القطعة الوحيدة التي سلت من كتابات هجتر محفوظة في مؤلف

أبولوبيوس القبطى ؟

المتطبيين الذين كانوا في الغالب من الأرقاء أو من المعتقدين . على أن المدرسة السكندرية العظيمة عملت الكثير مما أقام للناس معيارا فنيا ما وكان أخص ما أعان على ذلك سنتها في التدريب على التشريح .

ان ما كتب في الطب في فترة ما بين تأسيس المدرسة السكندرية وجالينوس لسنا بالأغنياء فيه فانه اذا استثنينا النبذات والتأليف الصغرى لم نجد فترة الأربع المئين هذه أو يزيد من السنين قد سلم لنا فيها الا أعمال خمسة مؤلفين هم سلسوس ودسكريدس وارتاوس الكپاروقى ومؤلفان من افيزيا اسمهما روفوس وسرانس .

سلسيس الذى عاش فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد مؤلف واحد هو كتاب لاتينى مترجم عن اليونانية على الراجح وهو الجزء الطبى الذى سلم من دائرة معارف كاملة . وهو بالرغم من أصله الذى لا يربى منه خير كبير معجم جليل فى بابه فيه تقدّم كبير من نواح شتى وراء الموقف الذى انتهى اليه الايقراطيون لهجته الخلقية نبيلة جدا كذلك وان خلت مما كان لايقراط من جمال عال متجرد . تحسن التشريح كثيرا وتحسن معه أسلوب الجراحة . والكتاب يمثل على الراجح أحسن ما كان يعمل السكندريون والفرما كوبيا (معجم الصيدلة) أغزر مادة ولكن ما تصل بعد الى حد الثقل وخطة العلاج العامة معقولة رحيمة واللغة رقيقة واضحة . وقد وصف فيما وصف أسلوبهم فى معالجة الأسنان ذا كرا العلامات التى تدعو الى استخراج السن وطرق استخراجها وتثبيت الأسنان بالسلك وقد يكون ذكر مرآة للأسنان . وهناك وصف غاية فى الحسن لما قد يظن به أنه العملية الحديثة لازالة غدتى اللسان ولا يزال سلسيس مذكورا فى الطب الحديث بالمساحة السلسية مرض من أمراض الجلد ليس بقليل الشيوع .

الواقع أن كتاب De re Medica هو من عيون أحاسن الكتب الطبية التي وصلت إلينا من القدم وله تاريخ نسي في القرون الوسطى واستخرجه المتأدب بالأدب القديم الكلاسيكي جارينو الفيروني (١٣٧٤ - ١٤٦٠) وكشف صاحبه لامولا نسخة خيرا من نسخته في ١٤٢٧ ووجدت أخرى في ١٤٤٣ وجدها تومس بارنتكلي (١٣٩٧ - ١٤٥٥) الذي صار بعد البابا نيقولا الخامس ودرس بوليتيان منها بعد ذلك (١٤٥٤ - ٩٤) وهو وإن كان من آخر ما كشف من متون الطب القديم العظيمة فقد كان من أول ما طبع (فلورنسا ١٤٧٨) ونفد له من الأول طبقات كثيرة جدا وكان ذا أثر عظيم في احياء الطب .

بعد سلسيس جاء دسكريدس في القرن الأول لليلاد كان جراحا حربيا يونانيا من أصل سيليشي وقد خدم نيرون وفيه ترى العقل اليوناني قد بدأ يعتريه الخور . عمله كبار الأهمية من جهة تاريخ النبات لكنه من جهة الطب المبني على العقل يكاد لا يكون شيئا .

بدأ حيث كان ينبغي أن ينتهي . بدأ إما بقوائم العقاقير ذا كرا ما يقال انها تشفيه أو تخففه من الأعراض وإما بقوائم أعراض ذا كرا معها سلسلة من العقاقير قد سماها . أما المشاهدات والتدوينات التطبيقية فهو منها خلاء كما قد خلت هذه الفارما كوبيا المعقدة من روح ايقراط .

بالقرن الثاني من العهد المسيحي ينتهي عهد الابتكار في الطب اليوناني ١٠ أن لدينا مؤلفات أربعة من كبار كتاب هذا القرن . ثلاثة منهم ، روفس ألافيسي ، سورانس ألافيسي ، وأرتيس الكبادوقى ، لم يكن لهم أثر مذكور في مجرى الطب في العصور

اللاحقة وان كانوا ذوى خطر لمن يريد أن يتصور حال الطب في أيامهم . ترك لنا روفس ألافيسى وهو أصغر قليلا من دسكريدس في السن ، أول مؤلف موضوع في التشريح البشرى وله بعض أهمية في تاريخ مقارنة التشريح وهو مذكور في الطب بأنه أول من وصف الطاعون الغددى وفي الجراحة بوصفه طرق وقف النزيف وبمعرفة تشريح العين . قد ترجم له مؤلف في النقرس ، الى اللاتينية في القرن السادس لكنه بقى غير معروف حتى حديث العصور .

سورانس ألافيسى (حوالى ٩٦ - ١٥٠ ب . م) كاتب ذكى في علم الولادة ترك مؤلفا يمثل التشريح في عهده تمثيلا حسنا وكان له تأثير دام قرونا عدة وقد وصل الى عصرنا في مخطوط يعاصر نفس الكتاب ^(١) ملخص لاتينى له عمله في القرن السادس من يدعى مشيون وموضع استلفات النظر فيه أنه يضاد النظرية الايقراطية القائلة بأن الجنين الذكر يتكون في الشق الأيمن من الرحم والأنثى في الشق الأيسر - قياس فاسد أخذ في الأصل عن أبيدوكليس وبارمنيدس لكنه دام حتى القرن السابع عشر أدامته التراجم اللاتينية لارسل . كان مؤلفه مزيئا بأشكال سلم لنا بعضها في مخطوط من القرن التاسع . سلم ولكن طبعا في تحريف من النساخ كبير وان لم يكن في بعد عن الحقائق صحيح . وهو يعطينا فكرة من بعيد عن كيف كانت الرسوم التشريحية القديمة ونستطيع أن نعين خيالنا قليلا فيكون فكرة عما كانت صورة تلك الأشكال وذلك بالاستعانة ببعض أشكال أخرى من القرون الوسطى تمثل مختلف

(١) Leyden Voss في القرن السادس قطعة من ذلك المؤلف

المجاميع التشريحية هيئة توزيعا من عروق وشرابين وأعصاب وعظام وعضلات . مجاميع يمكن ردها الى أصل سكندري^(١) على الأرجح . كان أرتيس الكبادوقى على الراجح من معاصرى جالينوس (النصف الثانى للقرن الثانى . ب . م) وشهرته عالية كمؤلف تطبيقى واعلمها أعلى مما يستحق وقد لفت الأنظار اليه على الأخص وصفه لذات الرئة والأمپيا أو التهاب البلورا الصديدي والبول السكرى وداء الفتيلة وهو يعالج بالبسيط من العلاج غير ناظر الى الصيدلة المركبة وارتأى كثيرا من الوسائل الآلية التى لا تصدر الا عن ذكاء ولم يكن أرتيس على ما يظهر كاتباً مستقلاً ولكنه فى صميمه كان جامعاً يعتمد كثيرا على أربكنيس وهو طبيب ممتاز معاصر لجوفنال قد ذهبت مؤلفاته الانبذا صانها أرتيس وأتيوس عن طريق الجمع .

وكان أرتيس كثير القراءة جدا بين اليونان فى جميع العصور لكنه لم يترجم الى اللاتينية ولم يعرفه الغرب إلا وسط القرن السادس عشر وفى ما كتب متعة للقارئ من حيث الاشتقاق اللغوى لأنه ما زال يستعمل اللهجة الأيونية .

بقى هناك شخص جالينوس الضخم الباسق . ان الكثرة الكبيرة التى سلمت لنا من مؤلفات هذا الرجل الذى كان الحاكم فى الطب حتى عصر النهضة وبعده من شأنها أن تطغى على المدونات الطبية اليونانية فتخرجها كلها عن المنظور . ان مؤلفات جالينوس وحده هى تقريبا نصف مجموع ما سلم من الكتابات الطبية اليونانية وتبلغ فى الطبعة الصحيحة اثنين وعشرين جزءا سميكا متراص الحروف وهى تشمل كل فرع من الطب والتشريح ووظائف الأعضاء

(١) كشف هذه الصور وأسنادها لأصحابها من عمل ك . شودوف وذكر المراجع التى رجع اليها فى مؤلف فى الموضوع يوجد فى كتاب "دراسة التشريح" فى عصر إحياء العلوم الأول فى كتاب ك . سنجر "دراسة فى تاريخ العلم وطريقته" الجزء الأول اكسford سنة ١٩١٧ .

وعلم الأمراض والنظريات الطبية وعلم فوائد الأدوية كما تشمل الطب التطبيقي والجراحة . أما الأسلوب فثرائر ثقل وكثيرا جدا ما يغلب عليه الاكثار ثم هي مشبعة بالتيلولوجيا^(١) التي تمل أحيانا قسرف وقد خالط كثير من الشروح التيلولوجية ما ورد في مؤلفاته التشريحية من الكلام عن أجزاء في الجسم لم يستوف في الغالب وصفها .

ومع ذلك فالى هذا العنصر منها يرجع الفضل في صيانة أغاب أعمال جالينوس من الضياع لأن وجهته التيلولوجية صادفت هوى دينيا من المسيحية الغربية ومن الاسلام الشرقى فمؤلفاته التي لا تطاق كأدب هي بيت ثمين يحوى كنوز الطب من معرفة وخبرة وعوائد وتقاليد وتاريخ .

ان الجسد الجالينى كالجسد الايقراطى مؤداه التي بين أيدينا مختلفة المصادر الى حد ما الا أن لدينا في حالة جالينوس معيارا حسنا لصحة النسب ذلك أنه قد ترك لنا قائمة بكتبه يمكن أن نراجع عليها تلك التي لدينا بالفعل . ليست الكتابات الجالينية بمبينة الايقراطية في وجهتها العامة لكنها خلاء من سمو النظر الذي كان لذلك الطبيب العالى الهمة الطاهر الروح . وقد حل محله فيها شخص متوقد مخلص مجادل يفيض نشاطا وجلدا . ليس بالقظ لكنه يحب العراك فهو شخص جرىء هجوم . يحب الحق لكن يحب الجدل مثله على السواء . أما قيمة كتاباته الفلسفية وقد سلم بعضها فليس هذا محل تناولها بالبحث لكن من الواضح أنه كثيرا ما يقنعه التفسير اللفظى البحث أما وهو قسيولوجى ذكى مجرب يجيد التجربة بالفطرة . مشرح تفوق ويريد المزيد . يعرف الهيكل البشرى العظمى معرفة حسنة والأجزاء الباطنة معرفة فيها من الدقة كل

(١) البحث عن العلة الأخيرة للأشياء .

ما يمكن اكتسابه بالعكوف على تشريح الحيوان عكوف الولهان به، أما وهو قد تهيأ بكل ما كان هناك من علم في مدارس برجمون وأزمير والاسكندرية واستغنى بالحنكة التي أكسبه إياها عمله الواسع في رومه فان جالينوس في صميمه هو الرجل المقتدر . لقد كان عنده من اللياقة ما جعله يعترف اعترافاً متجدداً مستمراً بفضل الكتابات الايقراطية عليه . هكذا كان الرجل الذي تكون آثاره والمجموعة الايقراطية صميم ما خلفته اليونان للعالم الغربي من تراث طبي .

ان بعض مؤلفات جالينوس هي فقط قوائم عقاير لا تفضل قوائم رسكريدس بشيء وقد نشأ عن الانحطاط العقلي الذي ساد عند تفكك الامبراطورية الرومانية ان اختيرت هذه المؤلفات دون غيرها ووزعت في الغرب . كذلك كان ممارق الفكر المسوخ فكر أواخر العالم الروماني بعض تأليف في التنجيم نافهة مخرفة كانت متداولة باسم جالينوس وايقراط .

لم يكن الكتاب اليونانيون في الطب بعد جالينوس الامقلدين له وملخصين، لكن كان بعضهم واسطة في أن مؤلفاته وصلت الى الغرب في عهد بكير من القرون الوسطى فمن الملخصين الذين نقلوا الى اللاتينيين في البكور أرباسيوس (٣٢٥-٤٠٣) وبولص الأچيني (٦٢٥-٦٩٠) واسكندر التري (٥٢٥-٦٠٥) أما أحسن مؤلفات جالينوس وأكثرها علمية فان القرون الوسطى لم تعرف عنها ان عرفت الا القليل .

ثم صار جالينوس وايقراط بعد أقرب قليلا الى المتناول لا بترجمة عن اليونانية ولكن بترجمة عن العربية نقلا عن ترجمة له سريانية وأول ما نقل بهذه الكيفية ترجمة من جوامع الكلم

لايقراط كانت مع ذلك موجودة كما رأينا في ثوب لاتيني هي والطعام في الأمراض الحادة لايقراط وبعض تأليف جالينوس في ترجمة ممسوخة لاسحاق بوديس . نقل هذه الكتب عن العربية الى اللاتينية قسطنطين وهو جواب من افريقيا ترهبين في جبل كسينو ومات هناك في سنة ١٠٨٧ كان قسطنطين صانعا حقيرا ذا معرفة قليلة بكل من العربية واللاتينية وكان أحسن غناء منه مترجم القرن الثاني عشر العظيم عن العربية جرارد الكروموني (مات سنة ١١٨٥) الذي نقل تأليف كثيرة في الطب عن العربية الى اللاتينية والذي اقتفى أثره في ذلك جيش كامل من المقلدة . على أن أهم من هذا لتقدم الطب كان الانتعاش العلمى في القرن الثالث عشر ذلك الانتعاش كان في أساسه مبنيا على تراجم من العربية لكن عددا محدودا من التأليف قد نقل أيضا عن اليونانية بالذات . ففى القرن الثالث عشر بدأت مؤلفات ارسطو العلمية تعالج بهذه الطريقة لكن أهم منها للطب كانت مؤلفات جالينوس ولم يكن لهذه بد من أن تنتظر حتى القرن الذى بعده . فطول جالينوس عن منافع أجزاء الجسم في الانسان ترجمه نيقولا الرجوى عن اليونانية الى اللاتينية في أوائل القرن الرابع عشر وهذا المؤلف على عيوبه كان بعيد مدى الفضل على كل ما ظهر لذلك العهد في وصف الجسم البشرى . وقد سلمت مخطوطات كثيرة للترجمة اللاتينية وترجمت الى لهجات عدة منها الانجليزية وأثرت في الجراحة تأثيرا كبيرا .

إن نقل هذا المطول الى اللاتينية وانتشاره الواسع يمكن أن يعتبر مبتدأ الطب العلمى الحديث ، وظهوره كان فضلا عن ذلك جزءا من ظاهرة تجدد الاقبال على التشريح الذى بدأ القرن عليه

في الجامعات في القرن الثالث عشر ^(١) وصار سنة عم الأخذ بها في الرابع عشر والخامس عشر .

كاد التقدم في التشريح يكون غير محسوس حتى آخر القرن الخامس عشر . وفي القرن الخامس عشر استرجعت متون أخرى لجالينوس ولايقراط نقلت بالتدريج إلى اللاتينية لكن أيضا بدون تأثير حيوي على مجرى التشريح . أما نفس طبع المجموع من مؤلفات ابقراط وجالينوس فقد جاء على تأخر لأن أطباء عهد النهضة بذوقهم المحسوخ استمروا يفضلون دسكريدس والعرب الذين طبعت مؤلفاتهم طبعات متعددة وهكذا لم يتقدم الطب تقدما يقابل تقدم الأدب . طبعت تأليف ابقراط لأول مرة سنة ١٥٢٥ وظهرت طبعة مفردة لغث جالينوس في سنة ١٤٩٠ لكن التقدم الحقيقي في الطب لم يتحقق بذات دراسة هذه المؤلفات فان تلك المؤلفات لم تكن تفضل مؤلفات العرب وغيرهم الموروثة عن القرون الوسطى ما دام الناس كانوا يقرأونها بروح المدارس الموروثة من قديم . والشروح تفسد حتى ابقراط . ولم تظهر القيمة الحقيقية لمؤلفات ابقراط وجالينوس حتى بدأ الباحث بالفعل يقارن مشاهداته هو بمشاهداتهم وكان أول ما حدث ذلك فيه من فروع الطب التشريح ودعاة الانقلاب أمثال لوناردو دافنسي (١٤٥٢ - ١٥١٨) الذي لم ينشر لنفسه شيئا وفساليس (١٥١٤ - ١٥٦٤) الذي ظهر مصنفه العظيم في سنة ١٥٤٣ قد اتخذوا في الواقع جالينوس أساسا لعملهم وإن شغلوا أنفسهم كثيرا بتبيين غلطاته .

(١) كان تشريح الحيوان يمارس في سلرنو منذ القرن الحادي عشر .

وانبعثت التقاليد الايقراطية على يد أنطونيو بنفيني (مات سنة ١٥٠٢) أحد دعاة الروح الحديد المتشوفين بعثها بأن جمع بالفعل مذكرات عن بضع حالات مع بيانات عن الوفيات وعمما وجد بالتشريح بعد الموت نرى جديرا بالذكر منها حالة بالأعور^(١). اقتدى الناس به من حين لآخر أثناء القرن السادس عشر. مثل ذلك: إن الطبيب اليهودي البرتغالي أماتس لوزتانس (١٥١١ - ١٥٦٢) طبع ما لا يقل عن سبعمائة حالة لكن البعث الحقيقي للتقاليد الايقراطية انما جاء في القرن التالي بمجيء سدنهام (١٦٢٤ - ١٦٨٩) و بورهاف (١٦٦٨ - ١٧٣٨) اللذين كانا يعملان على الأساس الايقراطي عن علم ويحاولان أن يزيذا اختبار ايقراط سعة ومدا. كان آخر ما انتفع بهذا البعث الجراحة. ويمكن الاستدلال على أن أعظم جراحى القرن السادس عشر ذلك المحب المحبب أمبروس باريه (١٥١٠ - ١٥٩٠) قد استفاد كثيرا من مؤلفات العصر القديم وإن كان كما اعترف هو بنفسه رجلا جاهلا. لا لاتينية يعرف ولا يونانية - استفاد ما استفاده مما كان في عصره متداول منها في التراجم يرشح منها الى أسفل الى غير العالمين.

لقد كانت متون ايقراط وجالينوس جزءا غير مبتور من التثقيف الطبى في الجامعات منذ ابتدائها في القرن الثالث عشر وظهر أول متن يونانى لجوامع الكلم لايقراط في سنة ١٥٣٢ منقحا بيد لا تقل عن يد فرانسوا رابيليه ، فلما استرجعت في اليونانية متون أخرى

(١) نشرت مذكرات بنفيني بعد موته وفي بعض المؤلفات اليونانية الزائفة في المجموعة الايقراطية مذكرات عن الحالات المرضية كذلك.

ووضعت تراجم خير من التراجم الأولى صار ما استرجع وما ترجم هو تقريبا الوسيلة الوحيدة للتعليم أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر . كثر سواد الترجمة بعد ذلك واختلفوا في المقدرة إلا أن واحدا حذقا بالترجمة منهم يعنى القراء الانجليز أمره على وجه خاص . ان توماس لنا كر (١٤٦٠ - ١٥٢٤) طبيب هنرى الثامن ومربي البرنسيية مارى ومؤسس كلية الأطباء وأول رئيس لها من شمل احسانه كلاما من الجامعتين القديمتين وأحد أوائل الانجليز الانسانيين وأقدرهم وأجمعهم لصفات الانسانيين وأكثرهم حملا على غيظ قد فى ذاك العمل فى الترجمة التى كانت مواهبه أنفق كثيرا من جهده قد أعدته لها على وجه خاص .

اليه يرجع ما لا يقل عن ستة كتب هامة من تأليف جالينوس منها واحد *Detemperamentis et de inaequali intemperie* المطبوع فى كمبردج فى سنة ١٥٢١ كان من أول ما طبع بطابع تلك البلدة ويقال انه أول مطبوع فى انجلترا استخدمت فى طبعه حروف يونانية وقد نال من التشريف أن أخرج بالفوتوغرافيا فى العصور الحديثة . وكان لأمثال هذه الأعمال التى هى جهود أدبية صرفة أمر مشهور مدة قرن أو قرنين وكانت مستعملة كثيرا فى الجامعات . هذه التخريجات الانسانية كان لها أحيانا بين دعاة الطريقة العلمية الجديدة أثر من الاحناق والاغضاب لم يعادله الا حقق الانسانيين أنفسهم على المترجمين عن العربية لكن هذه الآن نيران قد خبت . لقد أخذت دراسة المتون تدول دولتها فى التربية الطبية باطراد رسوخ قدم طرق التعليم العلمية والتطبيقية ثم زالت كما كان ابيقراط وجالينوس نفسيهما يحبان لها أن تزول .

لم يبق الآن لمتون ابيقراط وجالينوس مكان في أى مقرر طبي ومع هذا فان كل من يعرف هذه الكتابات يعرف أيضا ليس أن روحها لا تزال لاثبة فينا فقط بل أن التصانيف نفسها لا تزال في المكان الخلفى من التطب الحديث ولا تزال نفس تعبيراتها ينطق بها بجانب فراش المريض . إن الطب الحديث يصحح أن يوصف بحق أنه في لبه من خلق اليونانيين ولن يعرف طبيعة نظام الطب عندنا إلا من يعرف شيئا عن مصادره اليونانية وإن يوما ينسى فيه هذا الدين لليونان فهو يوم سوء للطب يكون فيه الخسار الأخلاقى عدل الخسار العقلى على الأقل . لكن من سعادة جدنا ألا خوف هناك من هذا فان شخص ابيقراط وروحه هما اليوم أقرب الى التحقق والحياة منهما في أى يوم منذ نحت العقلية العلمية اليونانية هامة في القرنين الثالث والرابع من العهد المسيحى ما

شارلس سنجر

الأدب

إن السائر من "بكادلى" الى "شيرنج كروس" مارا بشارع "شافتزبرى" يرى "مسرح الغناء" ، واذا كان الوقت مساء فقد تكون بداخله "رواية تمثيلية" تمثل هناك ، وقد تكون "مأساة" ، أو أى نوع من أنواع الكوميديا فاذا كانت "كوميديا موسيقية" ودخل هذا السائر ليشهدها فانه يرى "مناظر" غاية فى الروعة والجلال . ويرى رواية قد تكون لها فاتحة ، وقد يكون فى جزء منها "حوارا" بين "أشخاص" الرواية وفى جزء آخر منها قد تكون مكونة من أناشيد من أوزان مختلفة تنشدتها فرقة المغنيين على عزف فرقة الموسيقيين .

ان الألفاظ الانجليزية لتلك الكلمات تدل عابر السبيل — دون أن يكون له سابق علم — على ذلك الأثر الخالد الذى خلفته "اليونانية" فى الحياة الأوروبية العقلية والفنية كما تدله أيضا على أن "اليونانية" لا تزال حية فى القرن العشرين . وقد يحفل الأثيني القديم عند رؤية الكوميديا الموسيقية وفرقة المغنيين بها ولكنه يكون كأنه ينظر الى طفل خلفه هو ومهما يكن ذلك الطفل بعيدا منحطا صعبا ادراكه فهو ابن تلك الفرقة التى بغنائها ورقصها كانت تدور حول مذبج "ديونيس" فى مسارح وطنه الأصلي .

وهذا الأثر سواء أكان ظاهرا أم غامضا يبدو على جميع أشكال الأدب عندنا عدا واحدا . فالشعر القصصى والغنائى والرثائى والتمثلى والارشادى والنظم والتاريخ وتاريخ الحياة والبيان

والخطابة والنكتة والقالاة والمواظظ والرواية التاريخية والرسائل والنقد الأدبي — كل ذلك يوناني في الأصل وفيه كله ينم الاسم على الأصل . ولروما دعوى مشكوك فيها في باب الهجاء ولكن مادة الهجاء موجودة في الكوميديا القديمة ويظهر أنها كانت موجودة في كتابات مفقودة الآن بل ان هناك نوعا أو نوعين من الأدب مثل الخطب الخيالية مما اخترعه اليونانيون وتجدها الآن من حسن الحظ في الأدب الحالي . وعند ما ظهر هومر لم يكن للأدب الأوروبي وجود ولكن قبل أن ينقضى عهد الدولة البيزنطية الأخيرة كانت قد وضعت الخطط التي سار عليها الكتاب لوقتنا الحاضر . وقد كان ذلك كله صنع شعب واحد ضعيف من الوجهة السياسية قليل من الوجهة العددية فقير من الوجهة المادية وذلك تصديق للقانون الاقتصادي الطبيعي الذي يمنح قوة الثناء في المسائل العقلية والروحية لمن كان قليلا عديدهم . واليونانيون جديرون حقا باعجاب العالم لقصائدهم الفردية ولرواياتهم التمثيلية ولكتاباتهم ومما يدعو الى عظيم الدهشة أن الأجيال المتأخرة وان كانت أنمت أصول الأدب اليوناني لم تزد عليها شيئا للآن . هذا جزء من تراث اليونان في الأدب .

أما الجزء الآخر فهو المؤلفات نفسها . والأدب لا يمكن الحكم عليه إلا بعد قراءته ومن المؤكد أنه لا يمكن ايضاح مميزاته في صحف قليلة ولكن الجاهل باليونانية والمتشوق لتقدير قيمتها يمكن له أن يكون فكرة عن آراء النقاد الثقة من وراء البحث . وأكبر ظني أنه يجدهم قد اجتمعت كلمتهم على أنه ما من رجل عظيم ثقة تكلم في الأدب اليوناني بغير اللهجة التي تكلم بها غيره . والرومان أول شاهد على ذلك كما هو باد في أدبهم الذي بدأ بترجمة تصانيف

اليونان ثم باتباع آدابهم نوعا نوعا . وقد تغلغت فيه (بخاصة في كبار الكتاب) تلك التقاليد والذكريات وأثر الأدب اليوناني مما يدل على الاعتراف بالدين وبمعظمه . وقد قال شيشرون : ” إن اليونانيين هم أساتذتنا في العلم وفي كل فرع من فروع الأدب “ — وقد ظن كتيان أن الطفل الروماني عليه أن يبدأ دراسته باليونانية ” لأن العلم الروماني مشتق من اليوناني “ وهذه الملاحظة بدت بنفسها في أيام النهضة وردد صداها كثيرون في قرننا الحالي — وقال جيته : ” ولو أن كتاب المآسى من اليونانيين يتفاوتون عظمًا ودقة فإن كتابتهم كلها بها صفة واحدة بارزة . فكتابتهم تميزها الفخامة والروعة والسلامة وروح الانسانية التامة وفلسفة الحياة العليا وسمو الفكر والالهام القوى . ونحن نجد هذه الصفات فيما بقي من مآثور شعرهم القصصى والغنائى كما نجدها في رواياتهم التمثيلية ونجدها في فلاسفتهم وخطبائهم ومؤرخيهم . ونجدها تتجلى الى درجة عالية فيما بقي من آثار نحتهم “ . وقال أيضا :

” لست شيئا مذكورا بجانب عظماء الشعراء الأتيكين أمثال ” أسكليس “ و ” سوفوكليس “ وقال وردسورث في ” حديث المائدة “ : ” انه تكلم بحرارة عن مزايا دراسة الأدب القديم وخاصة اليوناني منه فقال أين نبحت عن خطيب أعظم من ريموستنيس وأى شاعر تمثيلي نراه بعد شكسبير خيرا من اسكليس أو سوفوكليس بله يوروبيدس “ — وقد قال : ” ان كتاب هيرودوت هو ألد الكتب وأكثرها فائدة بعد الانجيل “ — وقال شيلي : ” ان الفترة التي انصرمت بين مولد بركليس ووفاة ارسطو هي بلا ريب أهم فترة جديرة بالذكر في تاريخ العالم سواء اعتبرناها بنفسها أو نظرنا اليها من جهة آثارها في مصير الانسان المتحمدين ...

وان بقايا تلك العقول اللطيفة العميقة وفضلاتها اتدلنا — كما تدلنا بقايا تمثال بديع — فى شىء من الغموض عن عظمة تلك العقول وكما لها وان لغتهم لتفوق فى تنوعها وبساطتها ومرونتها ووفرتها أية لغة أخرى من لغات العالم الغربى “ وبعد أن أشار الى فن الحفر عندهم قال : ” ويظهر أن شعرهم له منزلة عالية جدا وان لم تكن أقل تناسبا اذا قسناه بغيره من الآداب “ .

وقال ميل : ” أعظم الشعوب التى ظهرت على سطح الأرض هم اليونانيون فقد كانوا البادئين لكل شىء تقريبا — عدا المسيحية — مما تفخر به العصور الحديثة ... وكانوا أول شعب ظهرت له آداب تاريخية كاملة فى نوعها (وإن لم تكن من أعلى نوع) كمال خطابتهم وحفرهم وعمارتهم وهم الذين أوجدوا الرياضيات والطبيعة وطريقة الاستقراء فى دراسة السياسة وفلسفة الطبيعة والحياة البشرية . وفى كل ذلك قاموا بالخطى الأولى التى لا مندوحة عنها والتى هى أساس الخطى الباقية “ .

وقال ما كولى : ” لقد رجعت الى أدب اليونان بشغف أدهشنى وقد خيل الى أنى لم أعرف من قبل معنى المتعة العقلية ، فواها لهؤلاء القوم ما أعجبهم ! انه لا يوجد فن ولا علم لا نستطيع معه أن نطلق عليه نفس التعبير الذى أطلقه ” لوكريتيوس “ فى كلامه على ” الانتصار على الخرافات “ من أن العقل البشرى فوق كل شىء وأظن نفسى سعيدا جدا لأننى استطعت أن أرجع الى أولئك الأساتذة العظام وأنا بعد فى شرح الصبا ناضج الذوق سعيد الحكم . وجل الناس يقرءون ما تعلموه من اليونانية قبل أن يبلغوا الخامسة والعشرين ... ولكن الشاب مهما كان عبقرى لا يستطيع الحكم على كاتب مثل تيوسيديدس وانى أنا نفسى لم أكن أعده من كبار

الكتاب منذ عشر سنوات . أما الآن فاني أقرأه بعقل درب على البحث التاريخي والأمور السياسية . واني ليدهشني سابق جهلي وعظمتي . لقد كنت لا أقوى على احتمال "يوربيدس" وأنا بالجامعة ولكني الآن أقرأ ما كنت أنكره فيما مضى . ان ايوربيدس غلطات لا شك فيها . ولكن ما أعظمه شاعرا" .

إن هؤلاء الرجال — وغيرهم ممن لا يصعب علينا ذكره — كلهم شهيد ذوو كفايات ومنزهون عن الغرض فليست فيهم روح تحزب ولا يمكن اتهامهم كما يتهم المدرسون ورجال الجامعات أحيانا بأن شغفهم بالأدب اليونانية والرومانية وتحمسهم لها سداه ولحمته المنفعة الشخصية ولا يمكن أن يقال أيضا انهم يعجبون باليونانية لأنهم لم يقرأوا ما هو أحسن منها . ذلك بأنهم جميعا لا فرق بين جوته وغيره ملمون بالأدب الانجليزي مقدرون لعظمتي — ومع ذلك فالعبارات الآنفة الذكر هي ما قالوه هم أنفسهم عن أثر اليونانية فيهم "بأن المدنية حق مشاع للعالم" . وهذا الحكم ظاهر لا يحتاج الى ايضاح . ومن الجلي أن كل من يهتم بالأدب يجد فيما بقي من الأدب اليوناني من الشعر والنثر لذة لا تدانيها لذة .

لقد حاولت أن أجيب بإيجاز عن هذا السؤال ماذا صنع اليونانيون — لقد استنبطوا كل صنوف الأدب المعروفة ووضعوا الأسس التي سار عليها الأدب الأوروبي وأوجدوا مجموعة في النظام والنثر حازت اعجاب العالم . أما السؤال الثاني وهو : ماذا يمكن أن يتعلم العالم عنهم فلسنا نستطيع أن نجيب عليه بهذه السهولة ولعمري ان الجواب كمين في الأدب اليوناني نفسه ، وخلاصة الأدب لا يمكن استخراجها وصوغها في عدد من القوانين المعنوية ولا تقاس عظمة الأدب بصفاته التي هي دائما أقل من الأدب

نفسه ولكنها تقاس بمقدار امتدادها الى أعماق الكون ووصولها لذروته وهذا هو المقياس النهائى الذى يجب أن تقاس به عظمة الأدب ويمكن الحكم على مقدار ما بلغه الأدب اليونانى من هذه الوجهة من الشهادات السابق ذكرها .

ومع عدم اغفالنا هذه الحقيقة فلنحدد عمدا دائرة بحثنا ونتكلم عن الصفات . ثم لنضيق المجال مرة أخرى ونقصر كلامنا على بعض الصفات التى توجد بلا ريب فى كل الآداب ولكنها ليس لها فى غير الأدب اليونانى نفس القوة والانتشار التى لها فى هذا الأدب ، لا يمكن لإنسان أن يفكر فى الأدب اليونانى دون أن يفكر فى تلك الصفات لأنها تتركها السنة المعجبين بها وهى التى أكسبت الأدب اليونانى ما يمكن فيه من قوة الإلهام — وتلك الصفات الأساسية هى البساطة وكمال الصيغة والصدق والجمال على أن عظمة الأدب اليونانى ليست ناشئة كلها من هذه الصفات فان عظمة روايات أجا ممنون وأديب وبا كاي لا يمكن تفسيرها بتلك الصفات وحدها بل ان عظمتها ناشئة بعضها من أشياء خاصة بها وبعضها من نفس الأسباب التى جعلت روايات "الملك لير" أو "فوست" أو "براند" عظيمة وليست هى كل هذه الأسباب أو أهمها ولكننى أقصد بذكر هذه الصفات أن ألفت نظر القارئ الى المزايا التى يمتاز بها الأدب اليونانى وحده وعلى الرغم من أن بعض النقاد قد أطنبوا فى ذكر جمال الأدب اليونانى حتى ظن الناس الى درجة السخف أن الجمال أهم صفاته أو صفته الوحيدة فقد كانوا على حق فى تقدير تفوق الجمال فى الأدب اليونانى . وعلى الرغم من أن الصدق صفة تميز الكتابة العظيمة فى جميع اللغات فانها أعم فى الأدب اليونانى منها فى أى أدب آخر .

إذا وازن قارئ بين ملتن وهومر أو بين شكسبير وسوفوكليس أو بين أفلاطون أو أرسطاطاليس وبين أية كتابة حديثة تبحث في الأخلاق أو السياسة أو النقد الأدبي فانه يجد فرقا وحيدا بين الكتاب القدماء والمحدثين اذ يجد الأولين أكثر بساطة ويحدهم أميل الى الاقتصاد فرواية "أوديب" بها ١٥٢٠ سطرا في حين أن الفصلين الأولين من هملت بهما وحدهما أكثر من ١٦٠٠ سطرا . كذلك تجد كتب التاريخ والفلسفة اليونانية أكثر إيجازا من مثيلاتها في الكتابة الحديثة . فكل مؤلفات "تيوسيديدس" يمكن طبعه في عدد من أعداد التيمس به ٢٤ صفحة ويبقى بها فراغ بعد ذلك ورسالة أرسطو في الشعور هي التي ظلت عمدة الكتابة التمثيلية عدة أجيال تبلغ صفحاتها ٤٥ صفحة صغيرة وجمهوريتها أفلاطون وهي التي أثرت في عالم الفكر أكثر من أي كتاب فلسفي آخر تزيد قليلا على ثمانمائة صفحة . نعم ان الإيجاز ليس هو البساطة على الدوام وقد تكون الكتابة بسيطة مسهبة ولكن كل من يدقق النظر في الكتاب اليونانيين يجدهم جميعا موجزين لأنهم يتجنبون الاستطراد والتشعب والتفصيل الدقيق ويحصرهم في النقاط الرئيسية لموضوعهم يبحثونها باختصار لا يكلفهم كبير عناء . ولكتابهم صفة مزدوجة فهي تدل على أنهم متمكنون من النقد الأساسية فهم يظهرونها غير مشوبة بالتأنيج الصغرى الثانوية بل بارزة بروز أشجار الغابة تظهر ناتئة لا تخفيها الشجيرات الصغرى . ومن الهام تبين هذا الفرق اذ أن كل الآداب تحوى أولى هاتين الصنفين . أما الثانية فهي بنت انصافه والمدنية كأنهر كلما بعدت عن منبعها لا يسعها الا أن تنضم اليها آلاف النهرات التي تزيد من حجمها وتغير من لونها وتشعب مجاريها . أما عند المنبع فهي صافية الأديم ورغبات

الناس في العصور الأولى هي الرغبات الأقوية الضرورية للطبيعة البشرية . وإن أدب تلك العصور يظهر تلك الرغبات غير مختلطة أو مشوبة بما هو أقل أهمية منها . ولذلك فإن القضايا الهامة الأساسية تظهر جلية واضحة في كتابات المفكرين كما يتضح ذلك في أفلاطون ، وتيوسيديدس . والشعراء يتخذون شعرهم من العواطف والرغبات القديمة قدم الإنسان وليس لديهم شيء من الممهدبات والتعقيدات التي تضيفها التربية والثقافة المتوارثة من قديم الزمان إلى المادة الرئيسية للطبيعة البشرية . ولقد قال الكاهن المصري اصولون : ” إنكم معشر اليونانيين أطفال دائماً “ ولقد كان هذا القول حقاً من وجهة لم يرم هو إليها . فشعور اليونانيين لم تأوثره ولم تفسده تلك الوراثة القديمة المردولة . فلم تكن حياتهم ولا كان جدهم العقلى مرتبكا معقدا . ولم يطل تفكيرهم حتى يملوه . فكانوا أبناء الدنيا وقد ضموا إلى عقل الرجال حدة ذكاء الأطفال العجيبة وبساطتهم وصراحتهم .

ولقد اتخذ ” بيتر “ الجيو كندا التي وضعها ليونارد دودافنشي رمزا للفرق بين الفن الحديث والفن القديم وبيانا لشعب الأول وتعقيده إذا قورن ببساطة الثاني . فقال عن المناييزا أن رأسها هو الذي من أجله قدم القادمون من أطراف الدنيا — الجفون متعبة قليلا — جمال فاض من الداخل على اللحم فكانت محط الآراء العجيبة والتخيلات الغريبة والعواطف البديعة والشهوات الفائقة . وضعها برهة بجانب إحدى تلك الآلهة البيضاء أو النساء الجميلة القديمة وانظر كيف تضطرب لهذا الجمال الذي مرت به النفس بجميع آلامها ! وكل أفكار العالم وتجاربه حفرت وصيغت هناك بكل ما فيها من قوة لتجعل مظهرها

الخارجى عظيم الدلالة . وهى أقدم من جميع الصخور التى نقيم بينها وهى كالمصاصة ماتت مرات كثيرة وعرفت أسرار القبور وكانت تغطس فى البحار العميقة وتذكر الأيام الخالية كل ذلك موجود فى الرقة التى صيغت بها التقاطيع المتغيرة ولوّنت الجفون والأيدى — وقديما وجدت فكرة الحياة الخالدة التى تكتسح آلاف التجارب — والرأى الحديث أدرك فكرة الانسانية كما أثرت فيها وجمعت بنفسها طرق الفكر والحياة . ومن المؤكد أن اللادى ليزا يمكن أن تكون الخيال القديم مجسما ورمز الفكرة الحديثة . فى هذه الكلمات شئ من الخيال الغريب والأسلوب الخاص بكتابها ولكنها لا تعدو الحقيقة كما يمكن لمن يوازن "مناليزا" بأية قطعة من قطع النحت فى القرن الخامس أن يرى بسهولة — ويرى فيها نفس الفرق بين الأدب اليونانى وأدبنا . وان هومر أوسوفوكليس يضطرب اذا قدر له أن يرى كتابة بروننج أو مردث أو هنرى جيمس أو كوزراد الذين قد جمعوا فى شخصهم كثيرا من الآراء والتجارب المتناقضة المختلفة وازن حكاية هكتور واندروما كما بقطعة شهيرة من آثار أحد أولئك الكتاب "هكذا قال هكتور المجيد باسطا ذراعيه لولده . ولكن الولد أجفل وجرى يبكى الى حضن مرضعه الجميلة المنطقة وكان قد ذعر لما رأى والده العزيز وعلى رأسه خوذة يعلوها عرف من البرنز وشعر الخيل . واذ ذاك ضحك والده العزيز ووالدته ضحكا عاليا ثم رفع هكتور المجيد الخوذة عن رأسه ووضعها وهى تتلألأ على الأرض . ثم قبل ابنه العزيز ودلله بين يديه وأخذ يدعو الإله زيوس وجميع الآلهة قائلا "يا إلهى زيوس ويا جميع الآلهة أرجو أن يبلغ ولدى هذا بين أهل طروادة ما بلغته من العظمة

والقوة والشجاعة وأن يكون ملكا كبيرا لطروادة“ قال هذا ثم وضع ولده بين يدي زوجه العزيزة فضمته الى صدرها العطر وابتسمت حتى اغرورقت عيناها بالدمع فأشفق عليها زوجها ومسح رأسها بيده وناداه باسمها قائلا : ”يا عزيزتي أرجو ألا تسترسل في الحزن فلن يكون هناك من يردني رغم ما هو مقدر لي — على أنى أؤكد لك أن القضاء المحتوم لم ينج منه أحد“ قال ذلك ورفع خوذته ذات العرف المصنوع من شعر الخيل وإذ ذاك رجعت زوجه الى منزلها وكانت تتلفت وراءها والدمع ينسكب من عينيها ثم وصلت الى المنزل الأنيق منزل هكتور مجندل الرجال ووجدت هناك وصيقات كثيرات فاثارت فيهن جميعا كامن الأشجان والعويل . فبكين هكتور في منزله وهو لا يزال على قيد الحياة . إذ ظن أنه لن يعود اليهن سالما من الحرب ^(١) — تلك العواطف يشترك فيها الناس في القرن العشرين قبل المسيح والقرن العشرين بعده — يشترك فيها شكسبير ونايليون وأقل الناس علما وأكثرهم غباوة وجهلا وقد عبر عن هذه العواطف بلغة تشبه العواطف نفسها في بساطتها . وقد توجد مثل هذه الموضوعات البسيطة في أدبنا ولكنها قلما يعبر عنها بهذا النفاذ والجلاء . بل أن ”تشوسر“ الفطري يعتبر وارثا لتركمة غامضة آلت اليه عن اليونان والرومان ويحول بخاطره طيف من الأدب الخيالي التصوري المفقود والموجود . ولا نجد تلك المشاعر الفطرية التي نراها في شعر

(١) الباذة هوميروس بتصرف (ترجمة لانج وإيف وميرز) ويلاحظ أن الثلاثة الأشخاص في هذا النفاذ يموت منهم اثنان بعد أيام قليلة وفي ظرف ستة توثر الزوجة — والطفل يرمى به من فوق سور المدينة .

(٢) الفصل الحادي والعشرون ١٤٠ ف — من سفر التكوين .

هوميروس قد عبر عنها بلغة أكثر جلاء وصراحة من لغته إلا في الانجيل . تتبين ذلك من العبارة التالية : ” وغادرت المكان وتجوأت في فيافي بئر سبع — ولما نفذ الماء من الزجاجة ألقته بالطفل تحت شجرة ثم ابتعدت عنه وجلست أمامه على مرمى قوس وقالت في نفسها لا أريد أن يموت طفلي أمام ناظري ثم جلست أمامه وأجهشت بالبكاء “ .

ولقد عاش هوميروس مثل ما عاش كاتب أسفار اليهود المقدسة في عالم جميع عواطفه فطرية فأملت عليه مثل هذا النوع من الكتابة بطبيعة الحال . ولقد أخذت العصور التالية تتأثر بهذه التقاليد ولكن هذه التقاليد لم تنقل هذه العصور لقلتها ولأن العالم كان لا يزال ساذجا ، كذلك كان شعراؤها وناثروها يسرون في ميدان العمل كما يسير الجنود والساسة يقابلون باستمرار حقائق الحياة ويرونها كما هي لا كما يطالعونها في الكتب ولذلك كانت موضوعاتهم مركزة وكتابتهم بسيطة فموضوع ”أوديب“ أو ”هرقل فيورنس“ يمكن أن يسمى سقيا ولكن الطريقة التي عالجها بها سوفوكليس ويوردديدس ليست كذلك فالعنصر غير الطبيعي فيهما مهمل لا يكاد يشعر به . وقد صرفت العناية الى منظر عظماء الرجال وسط المصائب الفادحة . وذلك موضوع أولى مرتبط . بحياة الانسان العامة . والطريقة التي عولج بها الموضوع بسيطة بساطتها في هوميروس فالأشخاص قليل ومواقع الاهتمام الثانوية بعيدة عن الرواية والاهتمام كله قد حصر في النقط الأساسية للأساة ومن ثم كانت الشدة النادرة والأثر السريع والشعور بالاقتراب من الشيء الموصوف الذي يلفت نظر كل من يقرأ مقالة الرسول في ”هرقل فيورنس“ أو ذلك المنظر الذي تعرف فيه شخصية ”أوديب“ أو أية

قطعة عظيمة من الروايات اليونانية التمثيلية وقد دامت بساطة المعالجة هذه الى أن جاء ميناندر والاسكندريون فهؤلاء عاشوا في عالم أكثر شها بعالمنا الذي نجد فيه الأدب بسيطا في شكله كما نجده في العصر اليوناني ولكنه أكثر فنية وعقلية وأدبية وأقل إنسانية في أساسه .

ومن الحق أن نكلف الكتاب الحديثين بساطة هوميروس أو عصر بركليس أو أن نقول بأنهم بغير تلك البساطة لا يكونون عظماء . فلكل عصر أدبه ينم عن عقول كتابه وظروفهم ، وليست الميزة كلها في جانب اليونانيين ، فرواية تمثيلية من شكسبير أوتاريخية من تلوستوى بما فيها من أشخاص كثيرين أقرب الى الحياة من مأساة يونانية ينقصها المقاصد الثانوية وتقتصر على أشخاص قلائل هم محور الرواية وأن المؤرخ الحديث مثلا قد يدق ويبحث مظاهر من تاريخ اليونان في القرن الخامس كان يهملها تيوسيديدس . فالأدب الحديث وإن لم يبلغ من القوة مبلغ الأدب القديم فإنه أوسع منه مدى وأصدق منه ايضا كما لتعقد الحياة ومن جهة أخرى فإن الأدب اليوناني خلو من سيطرة الأفكار الغريبة غير المألوفة التي تعد خطرا على الأدب الحديث وكتاب اليونان لم ينقبوا عن الفساد الجندى أو يشجعوا القراء على التنقيب عنه . وهم أيضا خلو من سيطرة غير الضرورى الذى هو فى الحياة كما هو فى الأدب رذيلة محاتلة خطرة وإن لم يكن فيها ما فى غيرها من الاجرام وهذا هو سبب كون بساطتهم منعشة مبهجة ففى الحياة البشرية يعود الانسان من لذات شتى مسلية الى أشياء قليلة بسيطة فاذا لم يعد فانه يخاطر بحياته . وذلك ما يجب أن يكون فى الأدب الذى هو ظل الحياة .

على أن بساطة الأدب اليوناني يصحبها أرقى درجة من درجات الفن الأدبي وليس ثمة ما هو أكثر غرابة من هذا لأنه يظهر أن الأحوال الفطرية التي تبقى على البساطة الأدبية لا تتفق مع الاجادة الفنية التي هي وايدة حديثة للأدب ولا مع وجود الذوق الناضج والخبرة الطويلة والعمل بثبات — ولكن في اليونانية وربما كان ذلك فيها وحدها — تسير البساطة الطبيعية والفن جنباً الى جنب وأن وجودهما معا في شعر هوميروس لمن الغرابة بمكان، فمن المتناقضات امكان تصوير خلق أشيل وموت هكتور ومكر أوديسيوس الفطري في مثل هذا الوزن وبمثل هذه المفردات . ويخيل الينا أن من غير الطبيعي أن أداة مهذبة كهذه تستعمل في تصوير حياة تلك الجماعة والتعبير من أفكارها وهي أقرب الى الهمجية منها الى المدنية ولكن مهما يكن الأمر فان الواقع كذلك .

وأظهر خصائص الأدب اليوناني شكله ورقى صناعته، على أن هناك استثناءات ، فروايات اسكيليس الأولى غير ناضجة في فكرتها ونثر جورجياس خيالي كثر ليلي وجميل تيوسيديس كثيرا ما تكون غير مهذبة وبها أغلاط نحوية . فاسكيليس عاش في مبدأ الشعر التمثيلي وجورجياس وتيوسيديس هم خالقو النثر الدوري وفيهم ضعف الممهدين ولكن النثر والنظم اليونانيين على العموم قد صيغا أحسن صياغة وهذبا أجمل تهذيب وقد ترقى الفن بسرعة كبيرة حتى أنه في حياة اسكيليس نفسه سار به سوفوكليس الى أعلى درجة فنية من الوجهتين الأدبية والتمثيلية وفي مدى جيل بعد موت تيوسيديس أوجد أفلاطون أسلوبه الفذ ذلك بأن دم اليوناني كان يشتغل على غريزة فنية نمت عن نفسها في كل أدهم في الأناشيد الغنائية الاجماعي بما فيها من ترانيم معقدة واختلافات

دقيقة وفي كتابة أفلاطون وهو يرتب الكلمات الثمان الأولى من كتاب الجمهورية المرة بعد الأخرى وفي الاهتمام الذى أظهره اليونانيون بنظرية الفن الأدبى وهم يسعون فيه كما سعوا فى غيره ومما يدل على أن اليونانيين فكروا فى ذلك أكثر منا كتاب البيان لارسطو والمنشآت لديونيسيوس وغير ذلك من كتابات البيانيين التى لا عداد لها .

هذا مجمع عليه من الكل ولكن هبة اليونانيين الفنية القائمة عليها بينة أعظم لم تعط حقها من التقدير . نعم لقد عرفت الأمم الأخرى فن الكتابة وخلدت تلك الآثار الكتابية التى هى غير مادية وسريعة المرور كالهواء ولكنها أبقيت من النحاس والحجر . ولكن ليس من بين الأمم من خلقت الفن الأدبى كما خلقه اليونانيون ولا أوجدت كما أوجد اليونانيون من العدم أنواع الأدب المختلفة فلم يكن أمامهم نماذج ينسجون على منوالها ولم يكن لهم مرشدون ولم يتلقوا مساعدة خارجية ما . أما روما فكان لها من اليونانيين قدوة . وقد خلفت هى نماذج لخلفائها ولكن اليونانيين صنعوا ما صنعوا من العدم فهم مبتكرون حقا كما لم يبتكر انسان غيرهم وهناك مثالان يؤيدان ذلك هما هوميروس والروايات التمثيلية اليونانية .

يتوقع الانسان أن يرى فى بحر الأدب على الأقل خشونة وجفافا وحكما غير ثاقب ويذا ترتجف ولكن القصيدة اليونانية الأولى ولدت قصيدة تامة النمو ناضجة كما ولدت الآلهة أمينا فى الأساطير القديمة وموجدوها اصطنعوا بأنفسهم الحكاية والألفاظ الفنية والبحر الفذ الناضج ولا يقلل من قيمة هذا العمل العظيم أن القصائد الهومرية يمكن أن تكون الزهرة اليانعة لعصر شعري بدأ من قبل . ذلك بأن منبت هذه القصائد من صنع اليونانيين وإكنا نحتاج

لقوة من الخيال نقدر بها صعوبة العبء الذى أخذوه على عاتقهم
بغير شعور منهم وأتموه بهدى الطبيعة بدون نظريات موضوعة
أو غرض مقصود .

ومن الصعب أن نخلق مفردات شعرية فطرية اذا لم يوجد
شئ منها وليس ثمت شئ فطرى فى قولهم فى الاياذة "كالشواهدين
بأظفارها الحجن ومناقرها العقفاء التى تصبح بصوت عال وهى
تقتتل على صخرة عالية " أو قولهم فيها أيضا " بقدر ما يمتد
نظر الانسان فى الضباب عند ما يجلس على مرقب وينظر
الى بحر أسود كالنبيذ بقدر هذا الامتداد تنهض خيول الآلهة
فى قفزة واحدة وتسهل سهيلا عاليا " .

ومن المتعذر كما تدل على ذلك بداية الشعر الرومانى أن نستنبط
بحرا لا يكون غير موسيقى ولا غريبا مضحكا ومع ذلك فان هذا
البحر وهو البحر الأوروبى الأول لم يجد له فى خصبه وقوته منافسا
من اليونانيين أنفسهم ولا من غيرهم . وتظهر نفس هذه المهارة
الفنية الطبيعية أشياء أدق من البحر أو الأسلوب فقد ولد هومر عارفا
بفطرته أسرار الفن الأدبى العميقة التى صاغها ارسطو بعده بقرون
وجعلها أصول وحدة التمثيل وقد كتب فى "الشعريات" يقول ان
مقصد الرواية يجب أن يكون موضوعه عمل واحد تام غير مجزأ
دو بداءة ووسط ونهاية . . . وهو يختلف فى مبناه عن الكتابة
التاريخية التى لا تصف بطبيعتها عملا واحدا ولكن فترة واحدة
بكل ما يحدث فى هذه الفترة لشخص أو أشخاص تقل الرابطة بينهم
بحسب الحوادث . . . ونستطيع أن نقرر أن ذلك ما يفعله معظم
الشعراء وهنا يظهر تفوق هومير وس وابداءه مرة ثانية فهو لم يحاول
أن يجعل كل حرب طروادة موضوع قصيدته ولو فعل ذلك لجعل

موضوعه واسع النطاق جدا لا يمكن حصره في منظر واحد ولو جعله في حدود معتدلة فانه يكون كثير التعقيد بالحوادث المتنوعة . والواقع أنه يكتفى بقسم واحد ^(١) . وما هي الا أن ذكر مبدأ وحدة العمل مرة حتى أصبح شائعا مألوفاً في الفن الأدبي - ولكن ذلك المبدأ لا يتضح الا اذا ذكر كما يظهر ذلك من تاريخ انياس أو "ملكة الجن" ولا بد أن الشعراء الذين أخذ ارسطو من شعرهم استقراره كانت لهم غريزة فنية نادرة فجعلوا - دون أن يشعروا - يحتفظون بوحدة موضوع اهتمامهم في خلال قصائدهم القصصية أو رواياتهم التمثيلية الطويلة ولا يكون مثل هذا العمل ممكناً الا انتم ذوى عبقرية طبيعية في فنون الأدب . وقد وجدت جميع عناصر الأدب لدى اليونانيين ووصلت الى شكلها الطبيعي بنفس التطور الطبيعي الذي تتفتح عنه الحبة وتأخذ شكلها المقدر لها .

ويمكن ايضاح ذلك ايضاحاً أكثر من هذا بوساطة الروايات التمثيلية اليونانية وقد لا يجد الكاتب الحديث الذي يريد أن يكتب رواية تمثيلية أن ذلك سهل وان كان يعرف الشكل العام الذي تتخذه الرواية التمثيلية والمبادئ العامة التي تتبع في كتابتها . فهو يعرف الطول المناسب لها وتقسيمها الى فصول ومناظر وطريقة عرضها والحوار الذي بها واظهار مقصدها وقانون وحدة التمثيل الى غير ذلك . أما موجدو المأساة اليونانية فلم يكن لديهم مثل هذه المساعدة ولم يكن لديهم تمثيل بالمعنى الذي نفهمه بل كل ما كان لديهم من هذا النوع جماعة من خمسين شخصاً يلبسون لبس مخلوقات نصفها آدمي ونصفها الآخر ماعزى ويرقصون حول المذبح

(١) الشعر يات ص ٢٣٠ (ترجمة بوشتر) .

ويغنون غنائهم . ومن هذا كان يمكن أن يؤخذ أو لا يؤخذ شيء ولكن اليونانيين بما فطروا عليه من العبقرية أوجدوا من هذا النوع أرقى الصور الأدبية ولم تمض مائة سنة حتى كتبوا عن الروايات ما وضعها شيلي في مصاف "الملك لير" وقال عنها سوينبرن انها "ربما كانت على العموم أعظم عمل روحاني قام به الانسان".

فاليونانيون لا يشق لهم غبار في ابتكار مبادئ الفن الأدبي وإنشاء أنواع الأدب المختلفة ولعله لا توجد أمة قد أظهرت كثرة من الأدب غاية في إبداع الأسلوب كما أظهر اليونان . وإننا إذا وازنا بين كاتب وكاتب فانا نجد من بين الأفراد الفنيين من ينافسهم . وإن قوة الأدب الانجليزي ليست محصورة في كماله الفني ولكن ملتن وبوب وتينسن وغيرهم ممن لا حاجة الى ذكر أسمائهم متمكنون من هذا الفن تمكن أى يوناني وكذلك الفرنسيون لا يقلون عن اليونانيين في هذا الشأن بل هم أساتذة فيه فان كمال اللفظ عندهم هو القاعدة المطردة ولكن ذلك لا يصدق على صفة أخرى من صفات الكتابة اليونانية التي يمكن وضعها في وصف الكمال الفني ولو أنها في الحقيقة شيء أكثر من ذلك وتلك الصفة من أعظم خصائص اليونانية ولو أنها تظهر لأول نظرة غير متناسبة ومنفرة فاذا فتح قارئ حديث عهد بالأدب اليوناني كتب تيوسيديس فان أول أثر يراه هو خلوها من اللذة والطلاء واذا قرأ وفي ذهنه شيء من شيلي أو تينسن نكتة سيمونيدس على قبر قتلى الاسبرطيين عند ترموبيل التي يقول فيها "أيها الغريب خبر الاسبارطيين بأننا نضطجع هنا طوعا لأمرهم" نقول اذا قرأ ذلك فانه لا يجد فيه أكثر من نثر يعوزه الطلاء وهذه البساطة المتناهية أو الإيجاز هي حجر عثرة في سبيل متعودي الاطناب الحديث ولكن هذه البساطة

التي يراها القارئ هي أجمل آثار الأدب اليوناني الذي يبدو أحسن ما يكون عند ما يكون في منتهى البساطة وهي ميزة من مميزات الأدب اليوناني . ويتضح الفرق بين هذه البساطة وبين الطريق الانجليزية العادية من قراءة نكتة شعرية مشهورة هي رثاء بن جنسون الذي كتبه على قبر صبي ممثل :

ابكوا عليّ يا من تقرأون هذه القصة الصغيرة واعلموا أن الموت نفسه حزين على ذلك الذي تذرفون الدمع من أجله .

كان صبيا بلغ من اطفه وجماله مبلغا عظيما كأن الطبيعة والسماء تنافستا في أيهما يكون له هذا المخلوق .

لم يطو من عمره ثلاثة عشر عاما حتى قست عليه الأقدار—وكان زهرة المسرح ثلاث سنين سويا .

وكان يمثل الشيوخ بمهارة فائقة (وذلك ما نبكيه من أجله) حتى أن آلهة الأقدار ظنته رجلا شيخا لأن تمثيله بلغ غاية الاتقان .

وهكذا اتفقوا جميعا خطأ على القضاء عليه ولكنهم لما عرفوا حقيقة بعد ذلك ندموا على ما فعلوا ولاب ساعة مندم .

فهذه السطور وليست هي كل القصيدة كانت كافية للدلالة على الفرق بين الطريقتين الانجليزية واليونانية فالأولى غنية خصبة تقفو أثر خيال غني . أما الثانية فمقتصدة في القول محدودة ترك لخيال القارئ مجالا وحاجة ليمثل دوره . وهناك في قصيدة ابن جنسون مادة لبضع نكات ولو كان هو سيمونيدس أو أفلاطون لوقف عند السطر الرابع ولو فعل ذلك واقتصد في ورقه لرفع من شأن قصيدته كما يرى بعض النقاد .

وكان الكتاب اليونانيون مقتصدين نظريا وعمليا لا يحيدون عن هذا المبدأ . يشيدون بذكر الاقتصاد في أمثالهم الشائعة مثل قولهم "النصف أكبر من الكل" "ازرع باليد لا بالزنبيل كله" وذلك توضحه القطع القيمة من أدهم . ولست تجده واضحا في حكاية تيوسيديس لحصار سرقوزه وفي ختام "الفيدو" أو "الجمهورية" بأقل مما تجده في موت هكتور أو في مقابلة "بريام" و "أشل" وقد يكون لديهم موضوعات توحى الى الشاعر وتغريه بالاطناب فيها ولكنهم يقاومون هذا الاغراء ويذكرون الحقائق بهدوء ثم يتركونها دون شرح أو تعليق عليها . وخاتمة "الفيدو" تدل على هذا التقيد فبعد أن يحكى أفلاطون بايجاز قاس تفاصيل وفاة أستاذه لم يزد تعليقه على هذه الحادثة التي أورثته الحزن والارتباك طول حياته على هذه العبارة "وهكذا يا يوكوكراتيس كانت وفاة صاحبنا الذى هو على ما أظن خير من عرفتهم من الناس وأرحمهم وأكثرهم عدلا" .

على أنه يوجد أمثلة طيبة للحصر والاقتصاد فى الأدب الانجليزى ومن أظهرها ما يرجع الى أصل يونانى ولكن لا يستطيع انسان أن يقول ان تلك الصفات هى القاعدة التى يسير عليها كبار كتابنا ذلك بأن العبقريّة الانجليزية غنية بذخّة وليست محدودة ولا يوافق مزاجها أن تكتب كما كتب سافو "يا كوكب المساء يا من ترجعين كل الأشياء التى بدد شملها الفجر اللامع يا من ترجعين الأغنام ، المساعز والأطفال الى أمهاتهم" بل تكتب كما كتب بيرون : "يا هسبرس أنت تأتين بكل الأشياء الطيبة تعيدنين المضنى الى موطنه وتدخلين السرور على الجوعان وترجعين الى فتح الطير أجنحة آبائها الوارفة . وتعيدنين الى الثور المتعب مزوده المحبوب

وكل ما تحويه بيوتنا من راحة وطمأنينة وكل ما تحميه آلهة بيوتنا من أعزة، كل ذلك يجتمع حولنا بنظرتك الهادئة . وأنت أيضا تردين الطفل الى حضن أمه “ وقد يمكن أن يقال ان لكل من الطريقتين مزاياها فان الاطناب والتوسع في التفصيل يغنيان الخيال في حين أن الاقتصاد يحركه ويبعث فيه النشاط . وقد يكون الاقتصاد خلوا من اللذة ولا يسلم الا في يد الكاتب الماهر . أما الاطناب فانه كالوليمة الفخمة تترك العقل متخما غير قادر على الحركة . فيه لا يجد العقل ما يعمله لأن كل شيء قد عمل له . أما الايجاز فيجعل القارئ يستنبط لنفسه من ينابيعه الخاصة فهو يجعل الخيال يسبح في ميدان اللانهاية ويعد بعض القراء ذلك من لذات الأدب الضرورية في حين أن غيرهم يؤثر أن يأخذ المؤلف بيدهم ويرشدهم الى كل تفصيل بكل دقة .

والايجاز في الأدب معناه تأثير الأدب بذلك...الذى هو أرسخ المثل العليا اليونانية أساسا وأشد الكلمات اليونانية امتناعا على الترجمة ولكن المصادفة ساعدته ولو فقد فن الطباعة لكانت المؤلفات الحديثة أقل حجما مما هي وكان يشجع الايجاز اليوناني ان “ فست “ لم يكن وجد بعد . ونحن اللذين لا نعتمد على النسخ بأيدينا في شركتنا نطيل الكتابة بطبيعة الحال فاذا فقد الأدب بذلك شيئا من ايجازه فانه يجد من وراء الاسهاب ما يعوضه من ذلك ولكن عادة الكتابة لكسب المال هي التي تشجع على كثرة الكتابة ووجود آلات الطباعة التي تجعل ذلك سهلا تعرضنا لأخطار ، كان الأقدمون بنجوة منها . وأكبر الضرر ناشئ من الصحف فهي تذكر أشياء كثيرة لا حاجة الى ذكرها وتقول كل شيء باطناب زائد لا حاجة اليه . وليس الضرر الذي يلحق الأدب

بأقل من ذلك فأشهر الكتاب في الخمسين سنة الأخيرة أمثال بروننخ ومردث وهاردى وكونراد يمزجون كتابتهم بأشياء لا داعى لها ان لم نقل بأشياء قليلة القيمة وينجون كتابة لم يكن لها أعظم قوة . ولو اقتصرت كتاباتهم على النصف — وهو اقتصار معقول لكانت أتم لأن وقتا أطول كان يخصص لها ولكانت أقوى لأن كل ضربة منها تكون دقيقة قوية وتكون أشد أثرا لأنها لا يصحبها ضربات غير منتجة . وهذا يصدق الى درجة أكبر على الكتاب الأقل مرتبة وعلى غير ذلك من صنوف الأدب وبسبب أن "الأجريكولا" التى وضعها "تاسيتس" لا تزيد على ثلاثين صفحة كانت حياة خادم رومانى مدنى ليس بذى عبقرية عظيمة أخلد من حياة من هم أعظم منه شأنا .

إن فن الحذف هو الفن الذى يجب على الكتاب الانجليز أن يكونوا أشد تعلماء له منهم لسواه . وذلك المبرد الأدبى هو أقل العدد استعمالا فى يدهم ولكن كلا الفن والعدة أتم اليونانيون فهمهما واستخدماهما باطراد .

والميزة الثالثة التى يمتاز بها الأدب اليونانى صدقه وقد تكون هذه أهم مميزاته وأعمها على الإطلاق . حقا ان اليونانيين ليسوا أقل كذبا من سائر الشعوب ولكنهم أحبوا أن يروا العالم على حقيقته واستطاعوا أن يفعلوا ذلك .

وبهذه الميزة الأساسية قد أورثوا الغرب قوة ادراك الفاسقة والعلم فهذان قد ورثاهما عن اليونانيين دون غيرهم فأما فلسطين وأسلافنا من الألمان فلاهما أنشأهما ولا كان لدهما ذلك المزاج الخلقى الذى ينشئان عنه وأما رومه فقد أخذت قسطها منهما عن اليونان .

قد يفهم من لفظ الصدق هنا مطابقة الأدب للواقع مطابقة تامة كما يفعل بعض كتاب العصر الحاضر ولكن ذلك غير صحيح لأن صدق الأدب اليونانى يختلف عن ذلك كل الاختلاف ويجب التفرقة بين ذلك الصدق وبين التباعد المتكافئ والتزاهة المؤلمة التى نراها فى شعر فلوبرت مثلاً فان صدقه يكاد يطمسه عن الانظار كما تخفى الجدران ما فى الحجرة من آلات متحركة أما صدق الأدب اليونانى فهو صدق اختيارى طبيعى لا يبذل فى سبيله جهد ما ، هو السجية الطبيعية التى يتصف بها الفنان الذى ينسى نفسه اذا رأى منظرًا من المناظر ولا علاقة بين هذا الصدق وبين المطابقة التامة للواقع وليس من صفاته تجرده من العامل الشخصى تجردًا يجعله خلواً من الرونق والحياة . فى الأدب اليونانى يحس القارئ أن الواصف انسان لا آلة صماء يشعر كل الشعور بما يراه ولكن شعوره مهما زاد لا يفسد عليه رؤيته لذلك نشعر ونحن نقرأ وصفه بشخصية الواصف ونحس الحياة تدب فى ذلك الوصف ديبب الكهرباء . كذلك لا صلة بين صدق الأدب اليونانى وذلك النوع الحديث من المطابقة الذى يشبه العقاقير السامة يملك الروح ويكرب القلب ويصور الحياة البشرية بصورة سوداء يبتئس بها الانسان أشد ابتئاس وهذه الصورة ليست مع ذلك أصدق ولا أتم تمثيلاً للعالم من الأدب اليونانى ويندر بل يستحيل أن تجد بين كتاب اليونان كاتباً هذه صفاته .

يستطيع كثير من كتاب العصر الحاضر أن يصفوا ما لا يحبه الانسان ولكك تجد وصفهم فظاً فى الغالب وتنقبض له النفس على الدوام ، أما الذين وهبوا القدرة على وصف آلام الناس ومساوئهم وصفا صادقا فى جميع أجزائه ولكنه لا يبعث فى نفس

الانسان الرعب وحده، فهم قليلون وقد تكون قلتهم هي السبب في قلة المآسى الجيدة اذ يلوح أنه يشترط فيها أن تمثل ما في الحياة من أسى شديد دون أن تترك في النفس شعورا بالحزن والكآبة يتملك على الانسان كل حواسه وهذا السر قد عرفه كبار كتاب اليونان، فهم لا يقلون عن غيرهم احساسا بما في الحياة من آلام وشروخ ولا ينقصون عنهم صدقا في تصويرها ولكن غيرهم من الكتاب اذا وصفوا آلام الناس لا يشعرون الا بالكآبة أو الضجر أو الوجع ويفقدون ما لديهم من قوة حيوية ويعتريهم الذهول والهبال، أما كتاب اليونان فقد وهبوا حاسة هي أقرب الى فلسفة الجمال منها الى الأخلاق، بها يدركون جلال الأمور واذا نظروا الى المصائب رأوا خلاها آلام الكون المتعب وأخذتهم الرهبة والعجب — لا الضجر والحزن وحدهما — لما يقاسيه الناس من الألم وهذا هو السبب في أنك اذا قرأت في هوميروس وصفه بريام وهو يضرم الى قاتل ابنه أن يعطيه جثته تشعر بشيء غير الحزن والكآبة يقول هوميروس "وهكذا دخل بريام دون أن يروه ثم وقف بجوارهم وأمسك بيديه ركبتى أشيل وقبل يديه الرهيبتين الفتاكيتين اللتين قضتا على حياة كثير من أبنائه ولكن أشيل وسائر من معه أخذتهم الدهشة من رؤية بريام وصاروا من شدة العجب ينظر بعضهم الى بعض ثم شرع بريام يتضرع اليه قائلا : أى أشيل يا شبيه الآلهة في عظمتك تذكر أبالك لقد بلغ من السن ما بلغت ورد الى أرذل العمر وقد يسىء من حوله من الناس معاملته ولا يجد من يدفع عنه البؤس والشقاء ولكنه مع هذا كله اذا سمع أنك لا تزال على قيد الحياة طرب وأمل أن أيام فراقه مهما طالست سوف تنقضى فتقر عيناه برؤية ولده مرة أخرى أما أنا فما أتعس حالى لقد كان لى أولاد

هم خير من أنجبت طروادة ففضوا عن آخرهم والآن قد قتلت من كان باقيا منهم قتلت هكتور بطل طروادة وركنها المكين وهو يدافع عن وطنه . وقر الآلهة يا أشيل وارث لحالي واذكر أباك واعلم أنى أتعس منه حالا وأنى قد لاقيت ما لم يلاقه بشر من قبل اذ أرفع يدي الآن ضارعا الى قاتل أولادى“ (١) فى هذا الوصف من الألم والبؤس بشيء كثير والشاعر لا يحاول اخفاءهما أو نقصهما ولكنى أظن أن معظم القراء عند ما يقرءون هذه القطعة لا يشعرون بما يشعرون به وهم يقرءون قصة ”ما دام بوثرارى“ أو ”چود المجهول“ (٢) ذلك بأن صدقها ليس بالقبيح ولا بالكئيب .

كذلك ليس صدق الأدب اليونانى عبارة عن شيئية . ذلك بأن الكاتب الشيئى يقص قصته ويعبر عن آرائه بسرد الحوادث دون تعليق عليها قدر المستطاع وكتاب القصص والروايات التمثيلية مضطرون بطبيعة عملهم أن يكونوا شيئين بهذا المعنى (على أن فيلدنج وثرى من كتاب القصص وابسن وشو (٣) من كتاب الروايات التمثيلية يعلقون على ما يروونه من الحوادث باسانهم هم لا باسان أشخاص قصصهم ورواياتهم) ولكن هذه الشيئية لا تجعل الكاتب بالضرورة أكثر صدقا أو نزاهة من غيره لأن فى استطاعته أن يشوه الحقائق تشويها تاما بذكر بعضها واغفال البعض الآخر كما يشوهها غيره بالتعليق عليها تعليقا مضللا والكاتب اذا كان شديد

(١) الياذه هوميروس الفصل الرابع والعشرين ص ٢٧٧ (مع حذف بعض الأجزاء) .

(٢) Madame Bovary, Jude the Obscure

(٣) Fielding, Thackeray, Ibsen, Shaw.

التحيز عرض على قرائه من الحقائق ما يؤيد وجهة نظره هو وبذلك
تؤثر شخصيته في كتاباته تأثيرا لا يقل عن تأثير الكاتب الذي لا يخفى
شيعه لفكرة خاصة وان كان الأول لا يجهر بهذا التشيع كما يجهر به
الثاني على أنه مع ذلك شيئاً أيضاً ولكن شيئته لا تعدو كونها
أسلوباً من أساليب الأدب . والكاتب اليونانيون شيثيون من
هذه الوجهة يقصون القصة من غير أن يعلقوا بأنفسهم عليها ، ترى
ذلك في شعرهم القصصى ورواياتهم التمثيلية حيث يكون هذا أمراً
طبيعياً وتراه أيضاً في توار يخهم وفي غيرها من كتاباتهم فاذا نظرت
الى ثوسيديديس مثلاً وهو يتلو عليك تاريخ حرب كبرى رأيت
تعليقاته عليها قليلة وهى مع ذلك مذكورة بالطريقة الروائية الشيئية
على شكل خطب يلقيها كبار الرجال في ذلك العصر . على أن
اليونانيين شيئية أهم من هذه كثيراً ذلك بأن شيثيتهم ليست حيلة
أدبية بل سجية عقلية ففى مقدور كتابهم أن يبعدوا أشخاصهم البعد
كله عن المسائل التى تهتمهم شخصياً وينظروا اليها عن كسب نظر
المشاهد التزيه باهتمام كبير ولكن من غير تحيز فى ذلك مثل عرافة
دلفى فى نبوءاتها حين تبنى شخصيتها وتصبح لسان حال الاله الذى
ينطقها وكذلك الكاتب اليونانى يترك الحقائق تفصح عن نفسها
ويجعل نفسه لسان حال لها ويبعد كل البعد شخصيته عن أن تؤثر
فى كتاباته فاذا وصفنا كتاب اليونان بأنهم شيثيون وجب أن نفهم
من شيثيتهم كل هذه المعانى السالفة الذكر .

وفى استطاعتنا أن نفهم صدق الأدب اليونانى حق الفهم اذا
تركنا العبارات الفلسفية جانبا ونسينا المعانى الحديثة ثم ذكرنا قول
انكساجوراس اذ سئل مرة "لم ولدت ؟" فأجاب "لكى أتفكر
فى ملكوت السموات والأرض" ذلك بأن الرغبة فى فهم الأشياء

على حقيقتها فهما خاليا من الغرض تلك الرغبة التي كانت تجمع حول سقراط طوائف الباحثين ليناقشوه في معنى العدل والصدقة وهل الخير من المعارف التي يمكن تعلمها ، نقول ان تلك الرغبة يوجد ما يماثلها في عالم الأدب . ان اليونانيين قد فتنهم رؤية الانسان والعالم ولا ترى هذا الافتتان باديا في فلسفتهم المجردة فحسب ، بل في أدبهم أيضا ولا نكون مخطئين اذا قلنا ان شعراءهم أيضا قد ولدوا ليروا الدنيا والحياة البشرية لا ليستخلصوا منها دروسا خلقية أو يمعنوا في عواطفهم أو بيانهم أو تصوفهم بل ليروها كما هي . هؤلاء ينطبق عليهم ما وصف به كيتس المزاج الشعري حين قال : "ليس له نفس هو كل شيء ولا شيء . . . يتمتع بالضوء والظلام . . . الشاعر أقل شعرية من أي شيء في الوجود يستمد وحيه من غيرد وحياته منصرفة لغيره وتتقمص روحه جسم غيره " فاذا كان للناس هذا المزاج كتبوا أدبا اذا وصف بالصدق كان هذا الوصف منطبقا عليه كل الانطباق . يتجنبون الارشاد في أدبهم فلا يقلبون الحقائق لتوافق ميولهم الشخصية . بعيدون عن المحسنات اللفظية فلا يضحون بالحقائق في سبيل جمال اللفظ بعيدون عن العواطف والخيال لا يحددون عن الحقائق في سبيل ارضاء عواطفهم أو عواطف سامعيهم يتجنبون التصوف فلا يتنكبون طريق الحقائق الى عالم الشعور همهم أن يروا الأشياء وتسهرهم مجرد الرؤية يرددون في أنفسهم قول كيتس " اذا رأيت عصفورا أمام نافذة حجرتي كنت جزءا من ذلك العصفور أنقر معه الحصى كلما نقر " (١) لا يصفونه كما يصف شلي القنبرة أو كما

(١) هذه المقترحات من شعر كيتس مأخوذة عن محاضرة عن الشعر في كسفورد

يصف كيتس ووردسورث البلبل وهذا سر من أسرار الشعر اليوناني فان لشعراء اليونان قدرة لا يدانيهم فيها غيرهم من الشعراء على اىصال ما يصفونه الى النفوس بطريقة سهلة بسيطة من غير حاجة الى آلاف الحيل التي تستلزمها النكات الشعرية والبيان والعواطف والخيال والغموض والوجدانيات ويمكن تسمية هذا السر بالصراحة وهي عادة النظر الى الأشياء نظرا ثاقبا ثابتا ووصفها كما هي ومن ثم فهى على نقىض التعليق الارشادى والاطناب البيانى المثير للشعور فالكاتب الصريح كل الصراحة يبعد نفسه ومشاعره عما يصف ولا يسمح لشخصيته بأن تحول بينه وبين موضوعه .

وسنورد هنا أمثلة قليلة توضح معنى هذه الصراحة أكثر مما توضحه كثرة التعاريف . ان النكتة الشعرية التي سبق ذكرها توضح لنا كيف يترك الكاتب اليوناني موضوعه يفصح عن نفسه بدل أن يعبر عن شعوره هو نحو هذا الموضوع ومثلها في الدلالة ما خطه أب على ضريح ابنه اذ قال : ” هنا أودع الوالد فلپ ابنه ومنتهى أمله نيكوتيلس البالغ من العمر اثني عشر عاما ليستريح “ أنظر كيف ان الوالد الثا كل لا يذ كر كلمة واحدة عن حزنه ولوعته ولا عن فدح الخطب الذى ألم به بل يكتفى بذكر اسم ابنه وسنه وقوله انه ” منتهى أمل والده “ وهو اذا ذكر هذا فقد ذكر كل شيء ، كذلك لا يعبر سيمونيدس عما يشعر به نحو بطولة موتى الاسبارطين لأنه يعلم أن قبورهم تنطق بهذه البطولة لكل من يمر بها وليست هذه الطريقة مجرد أسلوب أدبي أو طريقة كتابية ياجأ اليها الكاتب فيذكر الحقائق ويتركها تؤثر في القارئ بما فيها من قوة من غير تعليق عليها أو تفسير لها ولو قارنا نكتة بن جنسن

بعنوان القبر اليونانى السالف الذكر لعرفنا أن الصراحة اليونانية تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف، نعم ان الخيال الذى ينتم به بن جنسن نكته جميل ولكنه غير صحيح ولا يتفق فى الحقيقة مع شدة التأثر أما الصراحة اليونانية فلا تفتأ تنظر الى الطفل الميت ولا ترى الا ذلك الطفل وحن والده .

والقطعة الآتية وان كانت فى موضع آخر تفسر معنى تلك الصراحة تفسيرا جليا أيضا وقد وقعت حراذها فى المستعمرة الأثينية أمفيبوليس على نهر أستروما وأشخاصها هم القائد الاسبارطى براسيداس الزاحف على هذه المستعمرة والقائد الأثينى توسيديديس الذى كان فى ذلك الوقت فى تاسوس على مسيرة يوم فى البحر من أمفيبوليس واليك هذه القطعة: "ولما سمع توسيديديس بأخبار براسيداس أبحر لساعته الى أمفيبوليس . . . ليحميها بجنده اذا استطاع قبل أن تسلم للعدو واذا لم يستطع فلا أقل من أن يحتل أيون ثغرها وفى أثناء ذلك بذل براسيداس كل ما فى وسعه ليستولى على المدينة قبل وصول توسيديديس لأنه كان يخشى وصول الأسطول الأثينى من تاسوس ويخشى أيضا توسيديديس نفسه الذى سمع عنه أنه . . . كان من أعظم رجال الدولة . . . لذلك عرض على المدينة شروطا معتدلة . . . فقبلتها وسلمت اليه . . . وفى مساء اليوم الذى سلمت فيه أبحر توسيديديس بسفنه الى أيون ولكنه لم يصلها الا بعد أن استولى براسيداس على أمفيبوليس ولو طال دفاعها ليلة واحدة لاستولى توسيديديس على أيون" (١)

ملخص القصة التى تحتويها هذه القطعة واضح جلى : استولى

(١) توسيديديس الجزء الرابع صحائف ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ (من ترجمة

جوت فى الغالب) .

القائد الاسبارطى براسيداس على مدينة أمفيبوليس المهمة ووصل
توسيديديس بعد فوات الفرصة فلم يتمكن من انقاذها ولكن هل
يتصور انسان أن القائد الأثينى توسيديديس هو نفسه المؤرخ
توسيديديس الذى يؤرخ هذه الواقعة وأن هذه الحادثة التى يصفها
هنا بهذا الحياء والتجرد كانت السبب فى نفيه من بلده العزيز عليه
وفى اهدار دمه اذا عاد اليه . لقد اكتفى توسيديديس بذكر
الحقائق وحدها مجردة من كل شئ عداها كأن هذه الحادثة تتعلق
بشخص آخر غيره . ذكرها من غير تعليق ولا احتجاج ولا كلمة
اعتذار ولا تفسير ولا أسف على المصيبة التى حلت به فى آخر أيام
حياته واذا ذكر نفسه ذكرها بضمير الغائب . ليست هذه هى
الطريقة التى يصف بها قواد هذا العصر ما يصيبهم من فشل
ولكنها هى الطريقة اليونانية لقد نسى توسيديديس نفسه وشعوره
ولم يفكر الا فى ذلك اليوم المشؤوم يوم سار بسفنه فى نهر استروما
ووجد أبواب أمفيبوليس موصدة دونه وقد بلغ من انكاره نفسه
أنه لا يسمى هذه الحادثة مشؤومة مع أنها كانت غاية فى الشؤم
عليه وعلى بلده وبنفس هذا التجرد يكتب توسيديديس عن استعباد
ميلوس ومأساة سيراقوزه مع أنه يرى ويجعلنا نشعر معه أن أولى
الحادثتين كانت أكبر جرم اقترفه بلده وأن الثانية أكبر مصيبة حلت
بذلك البلد ولكنه يذكر الحقائق محررة ويترك القارئ يستنتج منها
نتائجه ولو لم نكن نعرف أنه أثينى لما عرفنا من كتابته هل يميل
الى جانب أثينا أو الى جانب اسبارطة فى تلك الحرب ذلك بأنه
فى كتابته يبعد نفسه وشعوره كل البعد عن موضوعه هذا الى أنه
كان وطنيا صميا يصف الحرب التى قضت على مجد دولته وسلطانها .
فهو يظن انسان أن مؤرخا يكتب تاريخ الحرب الكبرى حرب

١٩١٤-١٩١٨ بهذه الطريقة سواء كان في صف الحلفاء أو في صف الألمان .

كذلك شعر هوميروس يمتاز بميزة التجرد فان هوميروس وان كان يونانيا يصف حربا دامت عشر سنين بين اليونانيين والأسويين فان معظم قراته يعطفون على هكتور أكثر من عطفهم على آشيل . أما هوفانه لم يفضل أحدهما على الآخر بل نظر الى الرجلين نظرة واحدة وشعر بشعور واحد نحو البطل الذي يحارب عن طرودة حربا خاسرة وذلك الذي قتل صديقه فأذهله الحزن فلم يعد يرى أو يشعر إلا بشيء واحد هو رغبته الشديدة في الانتقام . لقد يخيل إلينا أن من الصعب أن يكتب انسان ختام الكتاب الثانى والعشرين من الإلياذة الذى يتقابل فيه البطالان من غير أن يميل بطبيعته الى أحدهما فأما نحن فنميل الى جانب هكتور وأما هوميروس فانه يتعدى في كتابته عن هذا النزاع كل البعد يرى الرجلين ويحس ما يحسانه ولكن عمله الوحيد أن يحصى على كل منهما أعماله ولا يحكم له أو عليه ولا يستطيع القارئ أن يعرف أفكار هوميروس أو أفكار توسيديديس إلا من قبيل الحدس والتخمين فان هذين الكاتبين يذكران الحقائق من غير تعليق عليها بل يتركانها تفسر نفسها بنفسها وتثير في نفس القارئ ما يجب أن تثيره من الشعور وتوضح له سبيل الحكم عليها بنورها الوهاج .

وان قليلا من الفكر ليدلنا على أن المزاج الصريح المتجرد الشئى هو أصل العلم والفلسفة اللذين ينشآن عن الرغبة في رؤية الأشياء على حقيقتها لا كما يحب الناظر إليها أن يراها وفي استطاعتنا أن ندرك أثر هذا المزاج في الشعر اذا ذكرنا بعض مظاهر الأدب

الانجليزية التي لا نرى لها مثيلا في الأدب اليوناني ومن هذا البحث نعرف أيضا ما يمكن أن يستفيدة كتاب العصر الحاضر من الأدب اليوناني وهل هم في حاجة الى الاستفادة منه .

وأهم مميزات الصراحة حصر الذهن في الموضوع وهذه العادة تقلل بل تمنع اتباع قاعدة مرسومة في الأدب وتقضي على الشعور الرقيق المتصنع والخيال البعيد مما يمنع الكاتب من أن يرى الحياة ويصفها على حقيقتها ، هذه العيوب كلها موجودة في الأدب الانجليزي وقد سبق أن مثلت لذلك بنكتة بن جنسن وبحث المسألة في غير هذا المكان ^(١) ولذلك سأنتقل الى بحث العيوب الأخرى التي هي أحدث من ذلك في الأدب والتي لا تتفق أيضا والصراحة في التعبير فنقول :

ان غنى اللغة الانجليزية هو في نفسه خطر كبير عليها ذلك بأن طبيعة هذه اللغة تساعد كثيرا على اللغو والهترة شأنها في ذلك شأن اللغة اللاتينية وقد عرف هذا كتاب عصر اليصابات ولما كان كتاب العصر الحاضر أميل الى الافراط في التأنق من كتاب ذلك العصر فقد استغلوا ما في اللغة الانجليزية من موسيقية كما يتبين الانسان ذلك من مجموعة من الشعر ككتاب أكسفورد في الشعر الفكتوري الذي يمثل شعر ذلك العصر أصدق تمثيل . يحتوى هذا الكتاب على بعض الشعر الرقيق ولكن معظمه " لغو في وصف أشياء عديمة القيمة " كما يقول هوراس : كذلك كان شعر معظم مقلدي تنيسن غثا وقالما يوجد فيه شيء قيم وخير علاج لهذه السفاسف البيانية والموسيقية قراءة الأدب اليوناني لأنه خلو من

(١) في العبقريّة اليونانية ومعناها ص ٧٤ وما بعدها .

البيان وأن ما كان فيه من ألفاظ موسيقية خالية من المعنى قد سخر منه الكتاب في ذلك العصر ففضحوا أمره حتى لم يبق منه الا القليل وعلى الجملة فان صراحة الأدب اليونانى قد حالت بينه وبين هذا العيب الأخير كما أن كثرة المحسنات اللفظية في شعر لو كان ويرون وغلبة اللفظ على المعنى في بعض من شعر شلى وفي معظم شعر سوينبرن سببه أن أولئك الشعراء قد أغفلوا عالم الحقائق وتأهوا في نغمت الألفاظ، وأما اليونانيون فقد بدءوا بالحقائق لا بالألفاظ ولا بشعورهم نحو الحقائق ولذلك لم يكن من السهل أن يخضعوا لسلطان اللفظ لأنه لم يكن لديهم ما يغريهم على ذلك الخضوع وإذا وجد هذا الاغراء فأوقعهم في ذلك الخطأ فسرعان ما كان يفتضح خطؤهم ولهذا كان اليونانيون من هذه الوجهة مثلاً طيباً يحتذيه الأدباء لا سيما أولئك الشعراء الذين اذا كتبوا نسوا الأرض وما عليها وسموا الى جنان من المشاعر المبهمة غير عالمين أن أحسن الشعر شعر الحقائق لا شعر الألفاظ وان الشعر مهما سما وبعد عن عالم الدنيا فان أسلمه وآمنه ما بدأ بالعالم الأرضى وكان على اتصال دائم به .

وفي الصراحة أيضاً منجاة من الأدب الأنانى وهو العيب الذى يقع فيه الشعر النفسى اذا أفرط فيه . ان عادة ادخال الكاتب نفسه فيما يكتب لا عيب فيها اذا انحصرت في دائرة ضيقة ولكنها اذا أفرط فيها أصبحت عيباً كبيراً كما ترى في الأدب الانجليزى ، ان أحداً لا يشكو من أن ملتن ووردسورث مثلاً أقل تجرداً في شعرهما من شاكسبير وسفكليز ولكن الأمر غير ذلك في شعر بيرون وكارليل النفسى فان شعرهما تغشاه دائماً سخابة من نفسيهما تخفى معناه اخفاء جزئياً أو كلياً فتشيلد هارولد يرى نفسه في كل

ما ينظر اليه ويرز شخصيته في بلجيكا وأثينا وروما فيغشى سماءها الزرقاء غمامة من مزاجه الصفراوى ويكاد ينطبق هذا أيضا على تلاميذ كارليل مثل رسكن وفرود وعلى طائفة من صغار الشعراء والقصاصين الحاليين الذين لا يعرضون على الجمهور الا ما فى قلوبهم من غم وغل . ان الأنانية عيب فى التفكير والأسلوب كما هى نقص فى الأخلاق لها أثر خاص بها ويلاقى صاحبها ما يستحقه من الجزاء ، فأما أثرها فانها تشغل الانسان عن عظام الأمور بصغارها تلهيه عن العالم الواسع وتشغله بالنفس الصغيرة . أما جزاؤها فهى أنها بما تبعته من الملل والسامة فى نفس القارئ تجعل الجليل الذى يعقب صاحبها ان لم يكن معاصروه أنفسهم يسأمون ادخاله فى كتابته عنصرا لا يهمهم قط ومن ثم كان النسيان جزاء الكاتب الأنانى وان كان هذا الجزاء ظالما فى كثير من الأحيان لهذا ترى الجليل الحاضر على اهتمامه بالأشخاص لا يتسع وقته لقراءة يرون أو كارليل لأن أشخاص معاصريه تشغله عن الاهتمام بأشخاص من سبقوه ولكنك لا تجد كتبا يونانيا نسيه الناس من أجل هذا العيب . فهما كان فى الكتاب اليونانيين من عيوب فليس منها الأنانية الأدبية ذلك بأن صراحتهم حولت كل أنظارهم الى العالم الخارجى وعودتهم أن ينظروا حتى لأنفسهم من خارجها .

على أن الأنانية ليست أكبر عيوب الأدب الانجليزى بل أن بعض الناس يعدونها من فضائله . أما العيب الذى هو أشد خطرا والذى يشترك فيه الأدب الانجليزى مع غيره من الأدب الحديث فهو ضيق وجهة نظره واقتصاره على جانب واحد ولقد ظهر أثر ذلك فى التدافع المتكرر بين المذاهب الأدبية فلقد تقلب الأدب الانجليزى بين الوجدانيات المبالغ فيها وبين الأدب الواقعى المحض

السائد في الوقت الحاضر وهذان المذهبان من مذاهب الأدب هما افراط في مزاجين مختلفين: الأول افراط في الكرم والعطف، والثاني افراط في الصدق ويمثلهما من كتابنا العبقرين (دكنز) و(هاردي) أحسن تمثيل وأنصار المذهب الأول يرون في قصصهم أن يحزى الطيبون دائما خيرا والمسيئون شرا كما يودون أن تكون الحياة ويغمرون باحسانهم أولئك الأشخاص أو يصبون عليهم جام غضبهم من غير أن يكون لما يقع في العالم الخارجى أثر في حكمهم، لذلك تجد مكوبر ومستر مل ينجحان في أستراليا مع أن شخصيتهما لا تترك مجالا للشك في أنهما انما ولدا ليلاقيا الخيبة والخسران، كذلك تجد العقاب يحل في قصص دكنز أسرع مما يحل في عالم الحقائق يأتى بعد هذا الافراط الكاتب الصدوق فيغضبه ما يرى في الأدب من استهزاء بالحياة تضلل القارئ وتسخر من الحقائق فيندفع بكليته الى الطرف الثانى فيجسم الخيال ويعنى كل العناية بحجب نور الحقيقة عن الأنظار لذلك نرى أنه بينما سكوت ودكنز يمثلان العالم تمثيلا غايتها أن تلقى الرذيلة الآثار وتجزى الفضيلة أحسن الجزاء ترى توماس هاردي في قصتيه چودالمجهول وتس صاحب دو برثيل^(١) يحتج على المذهب السالف الذكر ويملاء الفراغ الذى أغفله سابقوه ولكن في هذه الحالة أيضا يعتدى على الصدق أعظم أنصاره لأن العالم الذى يمثله هاردي ليس هو العالم الحقيقى فدكنز عند ما يرسم شخصية مستر مكوبر حاكم مقاطعة بورت مدلباى لا يمثل الحياة ولكنه يمثل ما يريد هو وقراء قصته أن يعتقدوه لتنشر صدورهم متى أتموا قراءة القصة.

(١) في هاتين القصتين وفي قصة الحاكم يسمح هاردي لأرائه الشخصية أن ترجح احدى الكفتين وأما في قصصه القليلة الأهمية فقد استطاع أن يلزم الحياد ولا بد أن يذكر القارئ هذا الفرق بين قصصه في كل ما أورده هنا من الانتقاد على كتاباته.

يغضب لذلك توماس هاردى فى الجيل الذى يليه فيكتب قصته ويصف سوء عاقبة تس ثم يشفع ذلك بتلك العبارة ، وبذلك ختم إلى الآلهة عبثه بتس “ فدل بهذه العبارة على أنه ليس أصدق تمثيلاً للحياة من دكتور وعلى أنه يضع نفسه موضع الحكم فى هذا العالم القاسى فى نظره .

على أننا لا نستطيع أن نصف دكتور وهاردى بعدم الصدق لأن كلا الرجلين يصف الحياة وصفا صادقا إلى حد ما وخطأ هاردى على الخصوص ينشأ من حذف الحقائق أكثر مما ينشأ من تسويهها فهو يرى جانبا واحدا من الحياة ويغض الطرف عن الجانب الآخر فلا يستطيع أن يوفى كل جانب حقه من الاهتمام وينقصه العطف على العالم بوجه عام وكلا الشاعرين غير كامل فى كتابته فليس يصدق عليهما ما يصدق بكليته على معظم الشعراء اليونانيين وما يصدق بعض الصدق عليهم جميعا من أنهم ينظرون إلى الحياة نظرة مطمئنة شاملة لا كنظرة دكتور وهاردى ومن جاء بعدهما ممن قلدوهما فى عيوبهما وتمادوا فيها شأن جميع التلاميذ والمريدين فأخذوا يترددون بين العواطف الكاذبة والحقائق المجردة القاسية التى سادت الأدب الانجليزى فى العشرين سنة الأخيرة والأدب الفرنسى منذ أبعد من هذا الزمن فليس بين هؤلاء الكتاب حتى بين أحسنهم من هو صريح فى كتابته بل كلهم يشبهون دكتور فى اطاعة ما تمليه عليهم عواطفهم الكريمة أو يسألون أنفسهم وهم يكتبون “ هل يمكننا أن نصدق من غير أن نغضب الجمهور “ وذلك أسوأ الشرين ومنهم من يسترون غرضهم الارشادى وراء ستار الواقعية ويصبون جام غضبهم الشخصى الشديد على قسوة العالم فهم فى كلتا الحالتين ضيقو النظر ينظرون إلى العالم خلال منظار من مزاجهم .

ولتوضيح هذه النقطة نأخذ قطعة شهيرة من شعر هوميروس ونسأل أنفسنا كيف كان يكتب هذه القطعة كاتب خيالي وآخر واقعي . تصور كيف كان يصف دكتور أو هاردي موت هكتور فأما أولهما فالأرجح لدينا أنه ما كان يسمح بأن يموت هكتور وإذا سمح به فلا أقل من أن ينعت أشيل بأقبح الأوصاف ثم يمعن في وصف مأساة موت هكتور حتى يمل القارئ من شدة العطف والحنان عليه فاذا واجه دكتور مثل هذه المأساة أطلق لجزعه وحرزه العنان وأما هاردي فلسنا نظن أنه كان يتأثر بحزن الموقف تأثره بوحشية أشيل وفساد نظام العالم الذي يحيز وقوع مثل هذا الحادث ولا يستطيع هاردي أن يترك تلك المسألة الخلقية تمر على القارئ دون أن يلفت إليها نظره بإشاراتة الدقيقة وبتأكيده بعض النقط المناسبة كل ذلك ليجعل مأساة الموت أشد أسي ووحشية أشيل أكثر فظاعة كما فعل في موت چود وهكذا يجعل دكتور هاردي كل بطريقته الخاصة شخصيتهما هي الناطقة لا الحقائق نفسها فهما برؤيتهما جانبا من القصة دون الجانب الآخر يجعلانها أقل تعقيدا من الحياة الحقة وأقل منها كمالا . أما في الاليزا فليست ترى شيئا من شخصية هوميروس ولا تسمع فيها الا صوت الحقائق المجردة ترى القصة تفصح عن نفسها دون حاجة الى الحيلة والصناعة اذ كل ما يفعله الشاعر أن يضع الشخصين أما القارئ هكتور أمل طروادة الأخير تنتظر عودته وزوجه وولده وأشيل وقد جن لموت صديقه — ولا نرى بعد ذلك حكما أو تعليقا بل نرى المنظر لا أقل ولا أكثر .

وجوابنا لمن يقول ان دكتور أو هاردي يمثل العالم تمثيلا صادقا أولا — ان العالم الذي يصفه ايس هو العالم الذي يصفه شاكسبير أو

مرديت وكثير من الناس يكفيهم هذا برهانا على أنه ليس العالم الحقيقي . ثانيا - ان تاريخ الأدب الانجليزى والفرنسى كان فى المائة وخمسين سنة الأخيرة عبارة عن رد فعل متكرر فقد حل الأدب الوجدانى محل الأدب العقلى ثم جاء على أثرهما الأدب الواقعى وكل مذهب من هذه المذاهب عبارة عن احتجاج على سابقه ورد فعل له ولا بد لهذه التقابلات من سبب اذ لا يوجد رد فعل فى الأدب الا اذا كان ثمة افراط يثيره لأن رد الفعل فى الحقيقة هو أعراض مرض لم تكن لتظهر لولا هذا المرض الكمين ويحتمل كثيرا أن رد الفعل يفرط فيه أيضا ذلك بأنه اذا اختل التوازن مرة سواء فى عالم الأدب أو فى عالم المادة صعبت اعادته كما كان هذا شأن الأدب الانجليزى والفرنسى ، أما الأدب اليونانى فلم يتم فى دور من أدواره كما نما الأدب الانجليزى والأدب الفرنسى بطريقة رد الفعل فقد تلا الشعراء الحماسيين الغنائيون ثم جاء من بعدهم شعراء المأسى ثم أعقبت المأسى الملاحى الحديثة ثم تلاها كلها شعر الاسكندرية العلمى الفنى . أما فى النثر فقد تلا أسلوب هرودوت الخالد أسلوب توسيديديس وأوجد أفلاطون وغيره من الخطباء أساليب فى الكتابة مختلفة ولكن ليس بين هذه الأساليب ما يصح أن يوصف بأنه رد فعل لما قبله نعم قد نجد بعض التدافع بين نظرة سفوكليس الهومرية ونظرة يوربديس ولكن هذا لا يعد تدافعا بين مذهبين أدبيين بل بين كاتبين فرديين ولا يوجد وجه شبه بينه وبين العلاقة الكائنة بين الأدب الوجدانى والأدب القلبي أو بينه وبين الأدب الواقعى ، والفرق بينهما أقل وضوحا مما هو بين فولتير وفكتور هوجو مثلا أو بين هذا وبين فلوير ، والخلاصة أنه ليس فى الأدب اليونانى تدافع بين مذاهب مختلفة لأنه ليس

فيها افراط في أحدها حتى يدفع بمذهب آخر والسبب في عدم وجود هذا الافراط أن الكتاب اليونانيين صادقون شيئون كأنهم مرآة تنعكس عليها الحياة كما هي لا عدسات تشوه الحياة فتظهرها على غير حقيقتها بحسب ما فيها من العيوب والنقائص .

ويشبه الأدب اليوناني في هذا الأدب الا ليصا باتى نعم ان الثانى شخصى أكثر من الأول وأوفر منه مادة وأكثر شذوذا وخيالا ولكنه يختلف عن الأدب الانجليزى فى أى عصر من العصور التالية لأنه فى الجملة أبعد عن الهوى وأخلى من الارشاد وأكثر ميلا الى التفكير فى الحياة من أجل الحياة نفسها ذير أنه بعد عصر المتحرجين فى النصرانية تكرر ذلهور النزعة الارشادية فى أسلوب الكتاب الانجليز وكثر حدوث الاحتجاجات والانقلابات الأدبية وهذه الانقلابات مهما أعجبنا بها فى الأخلاق كثيرة الضرر فى عالم الأدب لأنها تنتهى بكل ما تنتهى بها كل الانقلابات عادة أى بالافراط فى احدى النواحي افراطا يفسد اعتدال المزاج الذى لا بد منه لوجود أحسن الأدب وأعظمه ولم تبلغ شدة هذا المزاج الارشادى الذى يسترأحيانا بستر الواقعية ما بلغه فى عصرنا هذا والسبب فى ذلك أن كثيرا ممن يجب أن يشغلوا وظائف دينية قد ولوا وجوههم شطراً أعمال أخرى فاتخذوا الأدب وسيلة ليلقوا بها على العالم المواعظ التى كانت تلقى فى الماضى من فوق منبر الكنيسة ونكتفى من بين هؤلاء بذكر ولزوشى وجولزورذى وكلهم قس ضالون قد خلقوا لالقاء العظات الدينية لا لكتابة القصص والروايات وان شئت فسمهم أشخاصا مزدوجة قسسا وكتابا مدشئين قد أفسد خلقهم الدينى مزاجهم الشعرى فنشأ عن ذلك أن رغبتهم الشديدة فى الارشاد والوعظ تلك الرغبة التى كانت

تسكن نائرتها منذ قرن من الزمان بكتابة رسالة دينية أخذت تظهر اليوم على شكل قصة أو رواية تمثيلية لا تختلفان عن الرسالة في معناهما وشكلهما أما مزاجهما ومقصدتهما فهما كمزاج الرواية التمثيلية وقصدتها سواء بسواء .

على أنه من الكنود أن ننكر فضل هذه النزعة الارشادية والتهذيبية التي تبعث الحياة في طائفة كبيرة من الأمة الانجليزية والتي يرجع اليها الفضل في كثير من أعمالها المجيدة ولكن موضع هذه النزعة عالم الأعمال المادية لا عالم الآداب وليست هي التي تنتج أفضل الآداب وأعظم الأفكار ولو كان لدى اليونانيين قسط أكبر منها لأفادتهم كثيرا ، أما نحن فما أحوجنا الى الاستفادة من نزاهة اليونانيين العقلية تلك النزاهة التي اذا وجدت في المناقشات السياسية والاجتماعية أعانت على فهم الآراء المتناقضة وجعلت محجة الصواب سهلة واضحة ، ولو وجدت في الأدب لأنتجتنا من الافراط الذي يتبعه رد فعل يعقبه افراط في جانب آخر ، واذا امتزجت بالحياة القومية حفظتها من المادية التي تسود عادة في العصور الصناعية والتجارية . ليست هذه النزاهة مقصورة على اليونانيين ولكن المثل الأعلى للصدق لم يظهر بأوضح وأعم مما ظهر به لدى تلك الأمة التي أوجدته في عالم لم يكن يعنى به ثم بنت على أساسه آدابها وفنونها وعلمها وفلسفتها .

وآخر صفات الأدب اليوناني التي أريد أن أبحث فيها هنا صفة لا يتوقع الانسان وجودها مجتمعة مع صفة الصدق وهي من غير شك نادرة الوجود لدى كتاب العصر الحاضر الوانجبين تلك هي غريزة الجمال التي لا ينكر وجودها لدى اليونانيين انسان يشهد بذلك ونكلمان انذى كشف هذه الصفة من جديد مع أنه كان

يعيش في عالم قد نسي اليونانيون ويشهد بها أيضا كيتس الذي لم يتعلم الأدب اليوناني تعلما يبعث فيه البلادة وقلة الاهتمام به بل عرفه عند ما بلغ سنا تمكنه من الحكم عليه حكما صادقا وقد عرف كيتس وونكلمان بأن في الأدب اليوناني جمالا ظريفا عديم النظر ومن الأدلة على ذلك الجمال "أساطير اليونان الدينية الجميلة" (١) التي ابتدعتها خيال جمهور ساذج غير مثقف والتي لا تدانيها في جمالها أساطير أقوام الشمال . ان لهذه الأساطير قوة سحرية تبينها في قصص اطلنطا و (الرجس) ، بجمليون ، أورفيوس ، يوريديس ، فيتون ، مدوزا حتى ولو قرأتها متفرقة في القاموس .

والقطعة الآتية المأخوذة من أنشودة ديمتر توضح ذلك الجمال وان لم تكن من خير القطع في الأدب اليوناني ومع أن كاتبها غير معروف وهي قطعة "الأرض وابنتها برسفون" واليك هي :

"يا من اختطفها ايدينوس برضاء زيوس ذى النظر الثاقب وإله الرعد القاصف وهي تلهو مع بنات اقيانوس الكواعب وتجمع الأزهار من أرض كستها الحشائش الفضية والورد والزعفران والبنفسج الجميل والسوسن والخزامى والرجس ذو الجمال الباهر الذي أخرجته الأرض لتقتنص به الفتاة الزهراء اجابة لرغبة ايدينوس لقد أعجب بالرجس كل من رآه سواء في ذلك الآلهة الخالدة والحلائق الفانون ولقد نمت من جذوره مائة زهرة وانتشر شذاها فضحكت لرؤيتها الأرض وأمواج البحار فأعجبت الفتاة بما رأت ومدت يديها لتقتطف تلك اللعبة الجميلة وعند ذلك انشقت الأرض ذات الفجاج في سهل نيزيا وخرج منها ملك أمة الموتى العظيمة بنحيوله الخالدة" .

(١) ليتس في مقدمة اندميون .

أنظر بعد ذلك الى قصيدة انجليزية شبيهة بهذه كقصيدة أونون أو تيتونس تجدد بينهما فرقا كبيرا اذ مهما بلغ شعر تيتونس من الجمال فان خيرا منه جمال الشعر اليونانى لأنه ليس جمال اللفظ أو الاستعارات أو الصناعة ، بل هو جمال أبسط من ذلك ، جمال طبيعى غريزى اذا رأيته حسبت أن الطبيعة نفسها لا الانسان قد نطقت به ، ولقد شهد بذلك الجمال الفذ كاتبان من أقدر الكتاب على الحكم فى هذا الموضوع لأنهما من أكبر شعراء العالم ومن أكثرهم إلماما بأداب اللغات المختلفة التى لم يصفافها بما وصفا به الأدب اليونانى . هذان الكاتبان هما جوته وكيثس وقد قال أولهما فى ذلك قولاً قاطعاً صريحاً: "يشعر العقل وهو ينظر الى جمال الأدب القديم كأن الطبيعة من حوله قد بلغت منتهى الجمال ولا تزال للأناشيد الهومرية حتى وقتنا هذا ما كان لها من المقدرة على أن تزيل عنا ولو الى حين ذلك العبء الثقيل ، عبء التقاليد القديمة التى ظلت تنقض ظهرنا مئات السنين" ويشير جوتا بهذا الى ما فى الأدب اليونانى من جمال ساذج طبيعى يختلف كل الاختلاف عن ذلك الجمال الغريب المتكاف الذى ساد الفنون والآداب فى القرون الوسطى وفى العصر الحاضر ، وكذلك كان يفكر كيثس فى تلك القدرة التى امتاز بها الجمال اليونانى وهو يكتب قصيدته عن "الوعاء اليونانى" ويقول: "أيها الجسم الصامت الذى يبعد بنا عن الأفكار والظنون كما تبعدنا عنها الأبدية . أيها الراعى الذى فقد جذوة الحياة انك بعد أن تفتى الأيام هذا الجيل الحاضر ستبقى على الرغم مما يحيط بك من حزن وألم غير حزننا وألمنا صديقا للناس تناديهم ان الجمال هو الصدق والصدق هو الجمال ، ان ذلك هو كل ما يهيك معرفته عن هذه الدنيا واست بحاجة الى أن

تعرف غيره“ ويشير كيتس بهذه العبارة الى ميزة أخرى من ميزات الجمال اليونانى لا بد أن يشعر بها كل من رأى التماثيل اليونانية . تلك هى أن ذلك الجمال لا يشير جدالاً كما أنه لا يحرك رغبة لأنه لا يخالطه من العناصر ما يحرك فى الانسان هذه المشاعر ، بل ، هو جمال خالص نقي يبتغيه الانسان لنفسه .

وليس الجمال اليونانى مختلفاً فى نوعه عن جمال أدبنا فحسب بل هو أيضاً أغنى منه كما يحكم بذلك كل ناقد نزيه وازن بين هوميروس والشعراء الغنائيين وكتاب المأسى وأفلاطون وتيوكريتس وكتاب النكات الشعرية من جهة وبين من يماثلهم فى الأدب الحديث من جهة أخرى . لقد نظر اليونانيون الى العالم من جهة أخرى غير التى نظر اليه منها كتاب الوقت الحاضر وكانوا أكثر منا ادراكاً لجماله كما أن بعض الناس يفوقون البعض الآخر فى رؤية الألوان وسماع الأصوات والشعور بالعواقب الخلقية والعقلية ويتضح ذلك بجلاء من طريقة معالجة اليونانيين للموضوعات المحزنة فهو ميروس والروائيون مثلاً لا ينقصهم الأسى والحزن فى كتاباتهم ، وربما كان نظرهم الى الحياة أسوأ من نظارنا نحن اليها ، وقد أثر عنهم تشاؤمهم الذى جعلهم يواجهون الحقائق ويعترفون بها مهما كانت مررة ولاكن تلك السحب المكفهرة فى سماء أدبهم تتخللها دائماً بوارق من الجمال فترى هوميروس وهو يصف فراق هكتور وأندروماكى المحزن يخفف من وقعه بذكر قصة الطفل والريش المنكسة ولكنه لم يتخذ من هذه الحادثة وسيلة يزيد بها المأساة حزناً وأسى كما كان يفعل غيره من الكتاب فى مثل هذا النازف ، والحق أن تلك الحادثة لا تزيد من حزن المأساة ولا تنقصه وإنما هى ساعة حبور اختياري عرضي وطبيعي فى الأطفال تشبه أوقات السرور التى تستبدل

بأشد الساعات حزنا في الحياة وإن خلت منها القصص الواقعية
كذلك يمهّد اسكيليس إلى مذبحه سلاميس بذكر خيول الفجر البيضاء
وصدى الأصوات المترددة خلال الصخور وزبد البحر الأبيض
الذي يرى من تحت المجازيف ولا ينسى وهو يصف الجزيرة التي
قتل فيها الفارسيون الرقص الذي كان يتمتع به (بان) في العهد القديم .
وإن شئت مثلا ثالثا فهناك أغنية تأتي في أثر أشد اللحظات حزنا
في هيبوليتس "ليتني أستطيع أن أخفى عن الأنظار في كهف فوق
ذروة التلال لا تشرق عليه الشمس بنورها الوهاج أو أعيش فوق
هامة السحاب كطير من أسراب الطيور التي خلقها الله أو ليتني
أقضى نحبي بين خير ماء البحر الأدر ياوى العميق على ذلك الشاطئ
الذي ترى فيه مياه أريدانس رائقة صافية وحيث تجلس أخوات
فيتون الحزانى بجوار قبره ، يسكن في النهر عبراتهن فتتلا لأ كل
دمعة خلال الأمواج تلاء الكهرمان" (١) .

قد يكون اجتماع الجمال والأدب من المتناقضات ولكنه رغم
تناقضه يكسب الأدب قوة لا ينكرها قارئ . إن قصة موت
هكتور وحدها كما يرويها هوميروس لشديدة التأثير حتى ولو قرأها
الإنسان مترجمة بلغة غير لغتها الأصلية ، أما إذا قرأها بتلك اللغة
نفسها فإن سحر بيانها وبحر شعرها يضاعفان هذا الأثر . ولا حاجة
إلى القول بأن اجتماع الأدب والجمال الذي هو من مميزات الأدب
اليوناني ، على ما فيه من تناقض ظاهري ليس قاصرا على الأدب
اليوناني مثال ذلك : وصف موت أوفاليا في رواية هاملت . ولكلك
لا تجد رواية تمثيلية غير الروايات اليونانية مترج فيها الأدب والغناء البديع
امتزاجا منتظما يرجع إليه الفضل فيما للأدب اليوناني من قوة التأثير .

(١) الإلياذة صفحة ٧٣٢ (ترجمة مراي) .

على أن كلمة التأثير كلمة خاطئة في هذا المقام ، لأنه ليس في الأدب اليوناني أثر للصناعة ولكنها الحياة تامة جليلة بطبيعتها تشعر بذلك الجمال الذي لا تقضى عليه الشرور وترى ما للأبى نفسه من جمال وتذكر أنه مهما طال الأيام السود فإن العين يسرها أن ترى خلالها ضوء الشمس . وهذه الفلاسفة التي يتضمنها الأدب اليوناني جميعه تحببه الى كثير من الناس لأن من لا تعجبه فلسفته أعجب بما فيه من جمال . ان الروح اليونانية من القوي الكثيرة الاختفاء والظهور التي اذا ما وصلت من جديد الى يد الانسان أثارت قواه الكامنة بقوتها السحرية كما تثيرها التمام والطاسم وكل من قرأ أدب ذلك العصر الذي أحيى فيه الأدب اليوناني رأى أن أكبر آثاره أنه يبعث في الناس شعورا بالبسطة والحرية ، فان اليونان في عصر إحياء العلوم ، وفي القرن الثامن عشر قد وجدت العالم مقيدا بأغلال يقال فطمت تلك الأغلال ودمرت جدران السجون ، نعم ان هذه الأغلال لم تكن متشابهة في هذين العصرين ولكن الحرية التي تمتع بها الناس وقتئذ كان من أسبابها الكثيرة في أول هذين العصرين وكان سببها الوحيد في ثانيهما ما بهرت به اليونان العالم من جمال وأن العصر الذي نعيش فيه الكثير القيود أيضا ، وأن الانسان يشعر كل الشعور بذلك العبء الثقيل الذي وصفه جوته لقد سرى القبح فيه بخطا أسرع من خطا الجمال ولا يستطيع كتابه أن ينقذوه من هذه السقطة مهما بلغت كتابتهم من الكثرة واللذة ومهما أوتوا من القدرة على التفكير ولكنهم قد يجدون في الأدب اليوناني ما وجدته في الكتاب في سائر العصور من قوة تصلحه وتطلقه من عقاله .

ان لأدب الانجليزى لا يفضلُه أدب آخر ولكن عيوبه من النوع الذى يخلو منه الأدب اليونانى ، ذلك بأن بساطة الأدب اليونانى تجعل قارئه يوجه كل اهتمامه الى عواطف القلب البشرى وصدقة يمكن القارئ من رؤية العالم على حقيقته ويدعوه الى النغور من الألفاظ الموسيقية الخوفاء ومن البلاغة والمشاعر الكاذبة ومن ضيق نظر الكتاب الذين لا ينظرون الى الحياة فى مجموعها بل يقصرون نظرهم على جانب واحد منها ويهملون الجانب الآخر حسب ما تمليه عليهم أهوائهم وأمزجتهم . أما جمال الأدب اليونانى فهو رمز لجمال العالم الذى عميت عنه بصائر الناس أجيالا عدة وأما لفظه فهو درس فى الأسلوب عظيم الفائدة يبين ما له من مكانة فى الأدب .

وليس فى دراسة الأدب اليونانى من خطر على عبقرينا القومية ذلك بأن دراسة الآداب الأجنبية قد تعرقل رقى أدب الأمة فى منشئه وقد تفسده أحيانا ولكنها لا تمسه بسوء مطلقا اذا كان هذا الأدب قد نما وترعرع لأن صبغته القومية تكون عندئذ قد ثبتت وتمكنت أصولها فلا يقوى الأدب الأجنبى على افساده فاذا وجد الى جانبه مستوى آخر من الآداب لموازنته به وكشف عيوبه ثم اصلاحها كان وجود الأدب الأجنبى خيرا محضا ويؤيد هذا رأى الأدب الانجليزى نفسه فان أثر الأدب اليونانى فيه كان كبيرا ولكنه لم يفسده أو يشوهه ، انظر الى الشعراء الذين كان للأدب اليونانى عليهم أكبر فضل أمثال ملتون ، وجرى ، وشلى ، وكيكس ، ولاندر وتيسن ، وماتيو آرنلد ، وسونبرن ، وبردجس ، أولئك يصعب على أى ناقد أن يجد أية خاصة مشتركة بينهم أو أية صفة جامعة فى شعرهم يرجع أصلها الى الشعر اليونانى ، اللهم الا رصانة اللفظ

والأسلوب على أن هذه الرصانة ليست من الرذائل الخطرة المعيبة الشائعة بين الكتاب الانجليز وحتى هذه الصفة العامة لا يظهر لها أثر إذا أضفنا الى الشعراء السالفى الذكر الشعراء المعروفين باسم برونج الذين كانوا يفهمون اللغة اليونانية والروح اليونانية ويقدرونها تقديرا لا يقل عن تقدير الشعراء الأولين .

ولقد يعجب الانسان لأول نظرة من اختلاف الأسلوب والمادة في شعر شلى ، وكيثس وفي شعر آرنلد ، وسونبرن الذين كانوا من أشد الناس إعجابا ببلاد اليونان والذين كانوا يستمدون منها وحيهم الشعرى ولكن السر فى هذا يسهل ادراكه اذا عرفنا أن لبعض الآداب أثرا استبداديا يفرض نفسه على قارئه فيسيطر عليه ويستعبده ولكن هناك نوعا من التأثير خيرا من هذا وأندر منه وجودا وكل ما يفعله أنه ينبه الشاعر ويلهمه ثم يتركه ينمى عبقريته بعد أن يوسع دائرة نظره ويقوى احساسه وقد كان أثر الأدب اليونانى فى الكتاب الانجليز من هذا النوع الأخير وربما كان سبب ذلك خلو الأدب اليونانى دون غيره من الآداب من التحايل والتصنع الصالحين لأغراض السخرية والاستهزاء فكان ذلك الشعر هو لغة الطبيعة بنغماتها المختلفة ما

ر . و . لفنجستون

التاريخ

الفصل الأول

العلاقة بين مدينة الاغريق القديمة ومدينة غرب أوربة الحديثة

انقضت الحياة الاجتماعية الاغريقية في القرن السابع الميلادي ، ويرجع بعض المؤرخين انقضاءها الى ما قبل ذلك بكثير ، الا أن كثيرا من المؤرخين مجمعون على أنه وإن كانت لا تزال بقية من الحياة عالقة بالجسم الى ذلك التاريخ فإن الجهود العقلية والجهمانية له كانت قد انقضت منذ عهد بعيد وأن الانتقال من غشية الموت الى وقوعه لم يكد يحس به ، لذلك اذا أمعنا في الحساب فإن زهاء ثلاثة عشر قرنا تقف بين نهاية تاريخ الاغريق وبين العصور الحديثة ، وإن العصر الزاهر في تاريخهم أيام أن كانوا في أوج عظمتهم وكانوا يملون تاريخهم على العالم ويغيرون من تاريخ الأمم المجاورة ليفصله عن وقتنا الحاضر نيف وألفا سنة ، وحق أن نتساءل أي تراث تدلى لنا على سلم الدهر في غضون تلك العصور العظيمة من بدء الحياة الاجتماعية الاغريقية الى عصرنا الحاضر؟ وقبل أن نحتال للإجابة عن تلك المسئلة الهامة يجدر بنا أن ننظر الى أخرى أقل خطرا وهي أثر تاريخ الاغريق القديم في عصرنا الحاضر . إن فريقا من أهل العصر الحاضر في غرب أوربة وأمريكا يكرّون جماعة خاصة يطلق عليها اسم مدينة "الغرب" وتلك الجماعة تمت بعلاقة الى الاغريق ولا نجد تلك العلاقة قائمة بين غرب أوربة وفريق أخرى حاضرة مثل المسلمين وأهل الهند والصين ، ويمكن القول إن غرب أوربة وليد الاغريق ، على أن وصف العلاقة بين

الآغريق والعالم الغربى الحديث ليتعدى المجاز الى الحقيقة فان الجماعات كالأفراد كائنات حية وهى تسلك سبيل الأفراد ، فلتتخذ المجاز لتبيان الحقائق . وأول ما يجب أن يلاحظ أن تاريخ كل من الجماعتين جماعة الآغريق وجماعة العالم الغربى الحديث متدخل بعضه فى بعض ، هذا ويمكن أن نرجع بتاريخ الحياة الاجتماعية فى غرب أوربة الحديثة الى ما قبل الميلاد بقرن أو قرنين حين اختلط قبائل الغرب بشرق البحر الأبيض المتوسط حيث بلغت الحياة الاجتماعية الآغريقية كاملة نموها واذا فأرومة الحياة الاجتماعية فى الغرب الحديث تكوّنت فى جسم الحياة الاجتماعية الآغريقية كما تتكوّن الأجنة فى البطون ، فكانت الامبراطورية الرومانية من ذلك المجاز مدّة الحمل وفى غضون تلك المدّة كملت الحياة الحديدية وتغذت بالروح القديمة . وكان "العصر المظلم" شدة المخاض . وفيه بان الجنين عن أمه وأصبح مخلوقا الا أنه كان عاريا ضيق الحيلة ، وكانت العصور الوسطى عهد الطفولة وفيه عاش الطفل واستقام على ما كان عليه من وهن ، وكان القرنان الرابع عشر والخامس عشر من ذلك المخلوق زمن البلوغ ، وهما يمتازان بكثير من معالم التغير والانتعاش ، أما القرون المتوالية منذ بداية القرن السادس عشر الى اليوم فهى التى فيها اكتمل الطفل وبلغ غايته ، وهذا المجاز يوضح ما كنا نتمسّد اليه وهو ما خلفه الآغريق لغرب أوربة الحديثة .

يرث الأبناء عن آبائهم من نواح عدّة فتنقل الملامح والغرائز من جيل لآخر ، وقد يقلد الولد فى طفولته الأولى كلام والده وإشاراته التى قد لا تدل عليها القرابة وتصدر عن الولد من غير أن يكون لاختياره وإرادته نصيب موفور فيها ، وقد يكون التقليد

ناشئا عن العمد والاختيار وذلك في سن متأخرة في حياة الولد اذ يستطيع أن يدرك ما عليه أبوه من خلق، وكل ما يورثه الأب ابنه يختلف باختلاف مبلغ ما يقف عليه اختيار الولد واراادته لقبول ما يرثه والمران عليه، ومما يجدر ذكره أن الغرائز التي تكون أقل احتمالا أن تنتقل تكون بعينها أعظم شأنا من غيرها اذا حدث الانتقال، وآية ذلك أن التقليد الاختياري في سن متأخرة يؤثر في حياة الطفل وأخلاقه أكثر مما يؤثر ما يرثه الطفل عن أبيه وليس للاختيار نصيب فيه كلون الشعر أو العين أو شكل الذقن أو مسحة من الخلق، وبيننا نجد أن وراثة تلك الملامح الأخيرة وغيرها مما يكون في الآباء لا بد من وجوده في الأبناء، نجد من ناحية أخرى أن ما يورث بطريق الارادة والاختيار قد لا يوجد في الأبناء مطلقا، وأن الولد لا يتشبه بوالده الا اذا عرفه وأعجب به أو كان لأبيه في نفسه وقار واحترام، واذا اعتبط الوالد أو حيل بينه وبين ولده أو زال ما بينهما من عطف فان ذلك جميعا يقف دون التشبه، وفي هذه الحالة لا يكون للوراثة الاختيارية أى أثر على مكاتنها من التأثير في حياة الولد.

تلك الاعتبارات تقرب لنا فهم ما انحدر لنا من أرومة حياتنا ونعنى به مدنية الاغريق القدماء، فهل خلف لنا الاغريق ما يقارن بما ينتقل من والد لولده من ملامح خلقية ووجوه شبه خلقية؟ غير يسير أن نجيب على سؤال كهذا كما يصعب على أفراد الأسرة الواحدة أن يميزوا دقيق التمييز ما بينهم من ملمح أسرى، ولذلك يستطيع المسلم أو الهندي أو الصيني على بعده من الاغريق ومنا أن يكون في حكمه على تراث الاغريق أقرب الى الصواب وأمس للحقيقة، الا أنه من المحقق أن تشابه الأحوال الجوية بين موطن

الاغريق وغرب أوربة الحديثة وما بين العنصرين من أسرة
الجنسية يجعلانها أقرب لحمة بعضهما لبعض من أيهما لأى
عنصر آخر؛ فإن الشعر والفلسفة والحياة الاجتماعية والنظم السياسية
عند قدماء الاغريق وعند الغرب الحديث لتظهر متشابهة اذا هي
قورنت بمشكلاتها فى مدنيات أخرى .

فالأوربي أو الأمريكى يعلى قدر هوميروس أكثر من التوراة
وفى نفسه من الأثرلسقراط أكثر مما فيها لبوذا أو كنفوشيوس ،
وكثيرا ما يقارن المؤرخون بين اختلاط قدماء الاغريق بالشرق القديم
واختلاط الغرب الحديث بالشرق الحديث ، على أن تلك المقارنة
قد تقوم على صلة حقة بين المدينتين وبين نظيرتيهما الشرقيتين
الا أن هذا غير مقطوع به ولا يساعدنا كثيرا فى البحث ، وربما
نجد للعلاقة بعض أثرها الواضح اذا نظرنا الى ما يرثه الولد عن
أبيه عن غير عمد واختيار ، فان ما خلفته الحياة الاجتماعية
الاغريقية واضح فى العصور الوسطى وهى العصور التى تقوم مقام
عهد الطفولة لمدينة الغرب الحاضرة ، وتلك العصور كما قدمنا
أعقبت العصر المظلم عصر المخاض ، ولقد كان من أولى حاجات
الحياة الاجتماعية الغربية للنهوض فى حداتها أن يكون لوحدها
رمز ، وهذا يقابل ما يحصل عليه الابن بطريق الاختيار عن
أبيه ، لذلك أخذ الغرب الآراء الاجتماعية عن العالم الاغريق
القديم ، هذا وقد كان للدولة الرومانية المقدسة فى العصور الوسطى
من الأثر فى مدينة الغرب الحديثة ما يخالف أثر الامبراطورية
الرومانية فى العهد الأخير من عصر الاغريق القديمة ، على أن
المدينة الحديثة لم تخلق نفسها نظاما يقوم بحاجاتها بل انها فى طريق

نموها وجدت عن غير اختيار أنها أحييت عادات كانت لقدماء
الاغريق ، فالمفكرون السياسيون في عصر شرلمان لم يتصوروا
وحدة عالمية تخالف الوحدة الاغريقية .

أضف الى ذلك أنه بعد مضي نحو قرن بزت بعض جهات
الغرب مثل شمال وأواسط ايطاليا والأراضي الوطيفة كل أوربة
في الرقي الاقتصادي وبذلك احتاجت الى نظم للحكم الذاتي تعين
على حياتهم الاقتصادية فتطلعوا الى النظم الاغريقية القديمة
وأحيوا نظام الولايات ثم بعد ذلك تقدمت المدنية الغربية الحديثة
ونهضت سريعاً فاضطرت الى الاتساع وجدت فيه فكان مجال
اتساعها شواطئ البحر الأبيض المتوسط كما كانت الحال في عهد
الاغريق ، وحركة الاتساع في العصور الوسطى التي تعرف
بالحروب الصليبية والتي بدأ تأثيرها في أسبانيا وصقلية وبحر ايجه
والأرض المقدسة تشابه تماماً اتساع الولايات الاغريقية وامتداد
نفوذها حول نفس الشواطئ بين (٧٥٠ و٦٠٠ قبل الميلاد) ، واذا
عدنا الى البحر الأبيض المتوسط وجدنا أن الأمم الغربية في
العصور الوسطى كانت تجد في البحث عن أراض تفتحها ولكنها
بدل أن تنزوي غيرها وقعت تلك الأمم تحت تأثير ما خلفه الاغريق .

والقول المجمل أن ما خلفه الاغريق يظهر في العصور الوسطى
في ثلاثة أحوال : في الدولة الرومانية المقدسة وفي الولايات
(الفلمنكية) الوطيفة والايطالية وفي الحروب الصليبية ، ومظهر
الوراثة كان في العودة من غير تعمد واختيار الى الحياة الاجتماعية
الاغريقية ، وحق أن نتساءل هل ما ورثته العصور الوسطى
عن الاغريق يكون ركناً من أركان تاريخنا الحديث ؟ ألم تكن
كل تلك المظاهر جوفاء أسفرت عن قاييل ان كانت أسفرت

عن شيء مطلقاً؟ فما كانت الدولة الرومانية المقدسة سوى سراب وان معنى الوحدة في العالم الغربي الحديث لا يرجع الى النظام الاغريق بل الى أصل قائم بنفسه هو نظام الكنيسة البابوية ويصعب أن نتبع أى أثر للاغريق فيه ، فولايات أوربة الحديثة وأمريكا لا ترجع في أصلها الى «غنت» أو «بروج» أو «فلورنس» أو «البندقية» في عصورها الوسطى بل الى مصدر أحدث عهداً وأقل نظاماً وهو الولايات الاقطاعية الانجليزية والفرنسية في عصورهما الوسطى ، كذلك لم يتبع غرب أوربة الحديثة نظام الصليبيين في مد نفوذه وبسط سلطانه ، فطريق البحر الأبيض المتوسط عدل عنه بعد تجربة دامت ثلاثة قرون ، واتساع مدينة الغرب الحديثة كان في أقاليم لم يطأها الاغريق وهذه كانت شمال جرمانيا واسكندناوة والجزائر البريطانية وبحر الشمال والبحر البلطى والمحيط الأطلنطى وقارة أمريكا ، وكذلك ما ورثناه عن الاغريق عن غير تعمد واختيار كان من قبيل الاتفاق التاريخي أكثر منه صلة حقة بين المدينتين ، أما ما ورثناه عن الاغريق حقيقة وعن عمد واختيار فهو ما ظهر في مدينتنا منذ بداية القرن السادس عشر الى اليوم أى من عهد أن اكتملت مدينتنا الحديثة نموها .

ذلك الارث الذى تلقيناه من قدماء الاغريق يعرف عادة في التاريخ باسم « النهضة الأوربية » لقد نهضت حياتنا الاجتماعية وخطت خطوات واسعة وذلك بدراسة كل ما خلفه أسلافنا من الوجهتين الأدبية والفنية ، ثم كان لنا أن نختار تلك الدراسة أو أن نمر عليها فلا ندرسها ، وقد كنا مجدودين في درس ما خلفه الاغريق وكان ذلك من أكبر سعودنا ، هذا وان دراسة مختلف ما تركه الاغريق قد ألمعنا اليه في فصول ذلك الكتاب الفارطة وهنا يجدر

أن نذكر أن النهضة الأوروبية لم تقتصر على درس آداب الاغريق وفنونهم بل تناولت فن العمارة والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والعلوم السياسية وكل مظاهر الحياة الاجتماعية الراقية ، وان استيعابنا تلك الحياة الكبيرة ليعمل الحركة العظيمة التي ظهرت في مدينة الغرب في غضون الأربعة القرون الأخيرة .

وهل لنا أن نتساءل عن انقضاء تلك النهضة ونفاد أثرها ؟ وهل ما خلفه الاغريق قد أتت عليه واستنفدته تلك القرون الأخيرة ؟ وهل خلقت المدنية الغربية الحديثة من وحي الاغريق وتعاليمهم من الآداب والفنون والعمارة والعلوم الطبيعية والرياضيات والفلسفة والعلوم السياسية ما يضارع أو يبرز مثيلاتها من القديم ؟ وهل ساعد الحديث القديم أو أعاقه ؟ تلك هي المسئلة الهامة التي أثارها الجدل اليوم في إنجلترا عن دراسة الحياة الاغريقية القديمة .

واذا رجعنا الكرة الى عبارتنا المجازية الأولى وجدنا جوابا شافيا في انفراد المرء بشخصيه مميزة ، لوعدنا الى علاقة الولد بأبيه أو أية علاقة بين شخصين لوجدنا أن الفرد لا يستنفد ما يستطيع أن يفيد من شخصية آخر ، فقد يستطيع أحد شخصين أن يكون له من القوة والعقل والخلق ما للآخر ، الا أن أحدهما قد ينفرد بشخصية تبقى أبدا موضع الدرس ويستنير بها الباحث وغيره من بنى الانسان ، واذا كان هذا يصدق على أى فردين فانه أولى أن يكون كذلك بين اثنين على درجة واحدة من الخلق والعبقرية ، نترك المجاز الى الحقيقة ونترك فردا يدرس آخرونعدو الى جماعة تدرس أخرى وكلاهما على شئء من الحضارة والمدنية ، فللبحث في مدنية من المدنات العظيمة قيمة لا تقتصر فائدتها على

مدينة أخرى تقف منها موقوف الولد من أبيه بل تعم فائدتها كل باحث عن العلم تكون له مدينة قائمة بذاتها وعلى ذلك نجد أن قيم ما خلفه الاغريق ينتفع به المسلمون والهنود والصينيون كما ينتفع به الغربيون ، ويجب أن يتوافر فيمن يتلقى ذلك الارث صفتان أن يكون ذا عقل راجح وقلب واع حفيظ .

٢ — مدينة الاغريق القديمة قطعة من الفن

المدنات هي أرق وأندر ما تبأغه الجامعة الانسانية ، ولقد ظهر في الوجود جماعات عدة ثم اختفت في طي المئات والأوف من السنين ولم تترك احداها مدينة مذكورة ، فالمدنات التي ظهرت لا تعدو الأصابع عدا ولا نجد سوى ثلاث مدنات في أوربة — المدينة المينوية في جزائر بحر ايجه من (٤٠٠٠ قبل الميلاد الى ١١٠٠ قبل الميلاد) والمدينة الاغريقية أو الاغريقية الرومانية في شواطئ البحر الأبيض المتوسط وقد ظهرت بين القرنين الحادى عشر قبل الميلاد والسادس الميلادى ثم مدنيتنا الغربية الحديثة على شواطئ المحيط الاطلنطى وقد بدأت في الظهور في القرن الثامن الميلادى ولا تزال قائمة حتى اليوم ، كذلك قد قامت مدنات قديمة في مصر وسهل الجزيرة الأدنى وقد تأثرت بالمدينة الاغريقية القديمة ثم اندمجت في مدينة واحدة في الشرق الأدنى وهى مدينة الاسلام ، كذلك قامت مدنيتان في الهند والصين ، واذا أضفنا الى مدنات العالم ما كانت عليه المكسيك وبيرو قبل الفتح الأسبانى وجدنا أن عدد المدنات المستقلة التي ظهرت يتضاءل جدا أمام الجماعات الانسانية الكثيرة ، ذلك لأنه ليس من السهل مطلقا أن يسجل التاريخ مدينة لجماعة من الجماعات ، هذا وفى الحياة الاجتماعية

عاملان دائبان هما روح الفرد والبيئة ، والحياة الاجتماعية عبارة عن العلاقة القائمة بين الاثنين : فتصل الحياة الى ذروة المدنية اذا كان للروح النصيب الأوفر في تلك العلاقة ، وليس اذا أثرت البيئة في الانسان فصاغت حياته كما هي الحال في الغابات الاستوائية بأواسط أفريقية والبرازيل ، وليس اذا تعادل التأثيران فكان أثر الانسان في البيئة يعادل أثرها فيه كما هي الحال في سهوب أواسط آسية وبلاد العرب بين القبائل الرحل ، وانما تكون المدنية اذا استخدم الانسان البيئة في أغراضه وظهر للعالم أثره واضحا فيها ، هذا ولا يختلف درس مدنية من المدنيات عن درس الآداب في لغة من اللغات ، فكلاهما من عمل الانسان وكلاهما مستمد من روحه وكلاهما فن من الفنون .

المدنية فن من الفنون ، ونقصد بذلك حقيقة اللفظ دون مجازه ، حق ان الفن يقوم به الأفراد والمدنية تقوم بها الجماعات ، ولكن أى عمل فنى يقوم به فنى لا يكون مدينا لغيره فيه ؟ فالمدنية وهى عمل الأفراد والأجيال التى لا تقع تحت حصر لا تختلف في النوع عن قصيد أو تمثال بل اختلافها في القدر .

والمدنية عمل فنى تقوم به الجماعات كما تقوم بالشعائر الدينية أو الروايات التمثيلية وأصدق ما يقال في المدنية أنها مأساة لها محور والتاريخ هو المحور لمأساة المدنية .

وقد اتفق كتاب الروايات التمثيلية من عهد ارسطاطاليس على أن المأساة الكبيرة على كثرتها في الأدب تعرض لنا قليلا من الحوادث اذا حللها الانسان تحليلا دقيقا ويحتمل أن تكون مأسى التاريخ وهى المدنيات العظيمة التى أوجدها الانسان تقوم كلها حول

محور واحد اذا نحن بالغنا في تمحيصها ، فكل مدينة كمدينة أوربة في القرون الوسطى أو مدينة أوربة الحديثة أو مدينة الاغريق القديمة مظاهر شتى لفكرة واحدة ، وان درس محور مدينة في أكبر مظاهرها كالمظهر الاغريق أو مظهر مدينة الغرب هو الغرض الحقيقي للتربية الاجتماعية ، على أن الانسان ليتساءل لم يدرس مدينة الاغريق القديمة ويترك مدنتنا ؟ ان درس مدينة من المدن ينطوى على صعاب لأن الدرس يتطلب درسا أصليا وفرعا من الوجهة اللغوية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية حتى أنه ليستوعب كل جهود الانسان ، ولذلك نجد أن عظماء المؤرخين قصروا بحثهم في الدرس على مدينة واحدة ، وان عظماء المؤرخين من الاغريق أمثال هيرودوت ، وتيوسيديد ، وبوليبيوس وجهوا كل عنايتهم الى درس مدنتهم ولم يعرضوا لغيرها الا اذا دعت حاجة اختلاط مدنتهم بمدنيت أخرى ، لذلك كان حقا على من يريد أن يدرس التاريخ استعدادا للحياة أن يتخير لنفسه ، فيقتصر على دراسة مدينة من المدن اذا هو أراد أن يجنى ثمار درسه ، وفي هذه الحال نعود لسؤالنا الأول لم نقدم درس تاريخ الاغريق على درس تاريخنا ؟ وهناك حجتان تدعمان درس تاريخنا فهو أقرب مساسا بنا وهو أجزل نفعا ، على أنه بعيد عن الصواب أن تترك هاتين الحجنتين دون أن نعلق عليهما ، فمساسه بنا لا يفيد سهواته وجزالة نفعه لا تفيد أن درسه يقرب من منهج بلمان وقد علق الآن بأذهان الناس فكرة مهوشة عن التربية ، ويظهر أن ذلك أثر من الآثار السيئة للحرب الماضية وستزول تلك الفكرة كما ستزول غيرها من آثار الحرب ، وهذه الفكرة ترمى الى قصر التربية على الكيمياء العملية مثلا أو الهندسة العمالية ، ويظن الناس أن الذين يدرسون

أمثال تلك العزم سيكونون أقدر من ذيرهم على منافسة الأجانب في صناعة الصباغة أو في اعداد الذخيرة في الحرب المقبلة ، وعلى هذا القياس تكون المبالغة في درس تاريخنا الحديث بظن أنه يمد الطالب بدراية في المحال التجارية أو يؤهله للعضوية في البرلمان ؛ هذه الفكرة على ذيوعتها الآن غاية في السخف ، والمغالطة فيها هي عدم التفريق بين معرفة النظريات العامة لعلم من العلوم وبين الالمام الفنى والتجربة الشخصية للذين لا بد من تحويلهما الى وجهة عملية في الحياة ، وقد تتفق آراء رجال الأدب والعلوم في تلك الفكرة ، وانما يقع الخلاف بين من لا يقدرون قيمة العلم لذاته ومن يقدرونه لذاته ، وهؤلاء يدركون معنى التربية الحققة ، وطلاب العلم لذاته وطلاب التربية الحققة متفقون سواء أكان موضوع درسهم الانسان أو البيئة التي يعيش فيها ؛ واذا أهمانا مذهب النفعيين على ما به من بعد عن جادة العلم الصحيح وعمما يجب أن يكون عليه الانسان فان هناك حجة بالغة في ترجيح درس التاريخ الحديث على درس القديم من الوجهتين العلمية والبشرية ، فقد يقال ان علمنا المباشر بمدنيتنا يمكننا من بحث أعمق ولذلك يكون هذا البحث أقرب من الوجهتين العلمية والبشرية عمما اذا عمدنا الى درس مدنية الاغريق القديمة ، وقد يقال أيضا من الوجهة البشرية وحدها ان درس مدنيتنا وتعرف أصلها يكون له من الأثر في رقيها أكثر مما لمدنية غيرها ، وهذا القول الأخير ينطبق على الجليل الذي شهد الحرب الكبرى التي هي احدى أزمات مدنيتنا والتي هي كالنار العظيمة الهائلة تضيء الماضى الغامض وتبرزه مرئيا للعين والتي نستطيع معها أن نسلم بدرس تاريخنا اذ لا بد لنا أن نتعقب أسباب تلك الكارثة

العظمى ، واذا فعلنا ذلك أخذنا في البحث عن تطور المدنية الغربية منذ العصر المظلم ، وان ما نكب به العالم في الحروب البلونية دفع (ثيوسيديد) الى تصدير كتابه عن تلك الحرب بمقدمة حل فيها أصل المدنية الاغريقية تحليلا دقيقا موجزا لم يسبق اليه وذلك التحليل استوعب فصول المقدمة من كتابه الأول ؛ فهل لا يدفعنا ذلك ويحدو بنا الى قصر الدرس على تاريخنا ؟ هذه مسألة جدية بالاعتبار وليس ذلك لأهميتها من الوجهتين العلمية والبشرية ، بل ولما تجر من نفع ، أما الاجابة عنها فتفتقر الى تدليل وهناك وجهة في درس مدنية الاغريق القديمة يمكن تلخيصها في أربع نقط :

أولا — ان مدنية الاغريق واضحة النهج الى غايتها فنستطيع لذلك أن نتبين الرواية كلها ومفرق حوادثها ونتكهن بالنتائج المحتومة ونحكم على النتائج المتظرة في الأحوال التي يجري فيها أحد ممثلي الرواية في غير دوره ، ونحن نستطيع أن ندرك مبنى المأساة ونقسمها فصولا ولكنا في تاريخنا نشبه الممثلين في الرواية ” لا كالذي يستطيع أن يحكم عليها وهو بعيد عنها “ وبيننا نحن نتبين الفصل الثالث أو الرابع أو ندرك الفصل الأخير أو ما قبله ، لا نستطيع أن نتكهن بشيء فيكون درس تاريخنا بحث شيء مبثور لم يتم بعد ، ولذلك لا نتبينه وحدة قائمة بذاته من الوجهة الفنية مهما كان ادراكنا مستوعبا لمقطعاته وأجزائه ومواقفه ، ولذلك كان من أولى الحجج في ترجيح درس تاريخ الاغريق أنه يبدو لنا تاما واضحاً .

ثانياً — الأمر الثاني ، أن موضوع تاريخ الاغريق أكثر وضوحا من موضوع تاريخنا فهو يناول الفن الاغريقي وأدب اللغة ، اذ من الخطأ أن يكون موضوع التاريخ مقصورا على أنه سجل حوادث ،

ولشعراء الاغريق حظ موفور كما لفلاسفتهم ومؤرخيهم في مساعدتنا على تفهم تاريخ العقلية الاغريقية وهو جزء متم في درس أى تاريخ وتاريخ العقلية الاغريقية يتضح من آدابهم أكثر مما يتضح تاريخ أوربة الحديثة من آداب أممها ، ومن غير أن نعمد الى موازنة بين الأدب القديم والحديث في ذاتهما نذكر ونحن على شئ من الثقة أن فرائد الأدب الاغريقى الخالدة تعين على تفهم التاريخ الاغريقى والعواطف والأبحاث التى قامت على أثر تطورات الحياة الاغريقية والتى أسفرت عن أكبر الذخائر ، أكثر مما يعين الأدب الحديث على تفهم التاريخ الحديث .

ثالثا — الأمر الثالث ، يتضح من العبارة التى ختم بها ارسطاطاليس تعريفه للأساسة (المقطعات الشعرية — الجزء السادس) « أنها صورة جدية تامة ذات قدر معين لأمر من أمور الحياة ومظهر تلك الصورة الشفقة والخوف وغرض المأساة تخليص هاتين العاطفتين من كل الشوائب » (ترجمة Butcher) والكلمة التى معناها تخليص أو تطهير أو تنقية كانت مثارا لجدل عنيف غير محدود بين جمهور الطلبة ، ولكنها تصبح جلية واضحة المعنى لمن شهد الحرب الكبرى وكان ذا المسام بالأدب الاغريقى ، ولقد وجد كاتب هذه السطور فى أخرج أوقات الحرب بعض السلوى والراحة العقلية فى قراءة منتخبات من أدب الاغريق بين مقتطفات (أسكيلس) أولوكر يتس أو (فرجيل) وبين معانى (ثيوسيديدس) وبين ما ينطوى عليه حوار أفلان من مرارة وجد ، وهؤلاء قد قطعوا شوطا بعيدا فى طريق نحن أفلاطون لم نخط فيها خطوة واحدة ، وهم قد بلغوا غايتها ، فالبسوا حكمة تجارب أطول من تجاربنا ومرارة آلام أشد من آلامنا طلى الألفاظ وعذبها وقد كنت أنشد الراحة أجدها كلها فى أدب الاغريق

الذى هو أبين مظاهر حضارتهم (مدنيتهم) وأدب الاغريق واسطة الاتصال بمدنية مخالفة لمدينتنا وبأمة حلبت شطرى الدهر وهى الآن تتمتع بالراحة والخلود فى غير متناول الدهر وحدثانه ، وتمحيص الأمور هو ما يشعر به الانسان فى تقدير مدنية غير مدنية قومه وهو لا يتيسر للإنسان اذا درس مدنية قومه .

رابعا - الأمر الرابع ان طريقة الدرس بالمقارنة لها قيمة فى نفس الانسان ، ولتلك القيمة كفاية عقلية يحصل الانسان عليها بدرس أحوال غيره المماثلة لأحواله غير المطابقة لها ، ولا يحصل الانسان عليها بدرس الأحوال الخاصة به ويتضح ذلك اذا ألمعنا الى درس اللغات ، فدرس اللغة الاغريقية القديمة له من الفائدة العلمية للطالب الانجليزى ما ليس لدرس اللغة الفرنسية الحديثة أو الألمانية ذلك لأن اللغتين الاغريقية والانجليزية يحويان القواعد الأصلية للغة الانسان بعبارات غير مأخوذة عن لغات أخرى ، بينما نجد اللغتين الفرنسية والانجليزية فضلا عما بهما من الأصول المشتركة فى كل اللغات يشتركان فيما اختصت به التوراة واللغتان الاغريقية واللاتينية وقد ذودتهما بطائفة مشتركة من الألفاظ وصور عديدة من الخيال ، كل ذلك ينطبق على درس المدينات ، فالباحث يستفيد بدرس المعتقدات الدينية الاغريقية ومقارنتها بالمسيحية أكثر مما يستفيد بدرس المسيحية وهو بعيد البعد كله عن غير المسيحية من الديانات ، وكذلك يستفيد باحث النظم الحكومية من درس الولايات الاغريقية وموازنتها بالولايات الحديثة أكثر مما يستفيد اذا قصر بحثه على تطورات النظم فى أوربة الحديثة ، واذا نحن قصدنا الوجهة العقلية وليست العملية كما يقصد رجال الآداب والعلوم نقول وليس فى قولنا تناقض أو غموض ان درس مدنية الاغريق قيم لأن المدنية الاغريقية تخالف مدينتنا .

تلك أمور أربعة تجبذ درس تاريخ الاغريق ، فأمامنا المأساة
غير منقوصة ومغزاها واضح جلي ولها قيمتها الوجدانية وقيمتها العقلية
وكل أولئك لا يفيد الباحث في مأساة يقوم هو بدور من أدوارها .

لذلك أرى ضروريا أن أقسم أدوار تاريخ الاغريق ، وقد
يكون لكل وجهته في التقسيم ، واني بادئ بذكر ما ارتأيت من
التقسيم حتى أستحث القارئ على عمل تقسيمه ، ثم أعقب بشرح
النقطة الثانية التي تبحث في جمال المبنى باقتباس عدة مختارات من
المؤلفين القدماء ، أما النقطتان الأخريان الخاصتان بالتمحيص وقيمة
تاريخ الاغريق النسبية فأتركهما لخبرة القارئ الشخصية ، واني
لعل يقين من أن القارئ سيدركهما اذا جئت في الدرس ونظر نظرة
عامة .

٣ - محور مدنية الاغريق القديمة

ترجع مدنية الاغريق على التحقيق الى ما بعد القرن الثاني عشر
قبل الميلاد حين كانت سلفها وهي المدنية المينوية في التدهور
والاضمحلال وتنتهى المدنية الاغريقية القديمة على التحقيق قبل
القرن الثامن الميلادى حين بدأت خلفها وهي المدنية الغربية
الحديثة ، وبين هذين الحدين لا نستطيع أن نقطع ببدايتها ونهايتها
ولكننا نستطيع القول أنها استمرت ردحا من الزمن بين سبعة عشر
وثمانية عشر قرنا .

ومن الميسور أن نقسم المأساة التاريخية فصولا فنستطيع ادراك
دورين هامين في الرواية وهما بدء الحروب البلوبونية وتأسيس
الامبراطورية الرومانية ، وزيادة في الايضاح نذكر أن الدورين

بدأ (سنة ٤٣١ قبل الميلاد وسنة ٣١ قبل الميلاد) ونرتب الحوادث على أن تكون قبل الدور الأول وبين الدورين وبعد الدور الثاني حسب البيان الآتي :

الفصل الأول — (من القرن الحادى عشر قبل الميلاد الى ٤٣١ قبل الميلاد) :

(١) التكوين • تكوين الولايات الاغريقية وهى نواة الحياة الاجتماعية الاغريقية (من القرن الحادى عشر قبل الميلاد الى ٧٥٠ قبل الميلاد) •

(٢) الاستعمار أو انتشار الولايات فى البحر الأبيض المتوسط (من ٧٥٠ قبل الميلاد الى ٦٠٠ قبل الميلاد) •

(٣) التطور الاقتصادى أو التحول من الانتشار والانتساع الى التقدم الداخلى (من ٦٠٠ قبل الميلاد الى ٥٠٠ قبل الميلاد) •

(٤) الاتحاد • طرح فكرة الامبراطورية العامة والعمل على اتحاد الولايات واتحاد ديلوس (من ٥٠٠ قبل الميلاد الى ٤٣١ قبل الميلاد) •

الفصل الثانى — (من ٤٣١ قبل الميلاد الى ٣١ قبل الميلاد) :

(١) الحروب الاغريقية ، انفراط عقد الاتحاد • (من ٤٣١ قبل الميلاد الى ٣٥٥ قبل الميلاد) •

(٢) الحروب فى الشرق (الغازى ، غزو الشرق ، القتال للغنائم ، غارة البرابرة (من ٣٥٥ قبل الميلاد الى ٢٧٢ قبل الميلاد) •

(٣) التنظيم الأول (تغيير النظام القائم وتجارب جديدة ترمى الى اتحاد آخر (من ٢٧٢ قبل الميلاد الى ٢١٨ قبل الميلاد) •

(٤) الحروب الرومانية اضمحلال أربع قوى أمام قوة واحدة ،
تخريب أمم البحر الأبيض المتوسط (من ٢١٨ قبل الميلاد الى ١٤٦
قبل الميلاد) .

(٥) حروب الطبقات (الرأسمالية ، البلشفية ، النظام
النازيوني) (من ١٤٦ قبل الميلاد الى ٣١ قبل الميلاد) .

الفصل الثالث — (٣١ قبل الميلاد الى القرن السابع الميلادي) :

(١) التنظيم الثاني (التجربة النهائية للاتحاد ، التوفيق بين
الولايات المستقلة والرأسمالية المركزية (٣١ قبل الميلاد ١٨٠
ميلادية) .

(٢) الاضمحلال الأول (غارة القبائل الرحالة على الحدود ،
دخول المسيحية (١٨٠ — ٢٨٤ ميلادية) .

(٣) التنظيم النهائي ، (قسطنطين غارة القبائل على البلاد وتقليد
القسيسين المناصب (٢٨٤ — ٣٧٨ ميلادية) .

(٤) الاضمحلال النهائي (انحلال الروح الاغريقية من
٣٧٨ — القرن السابع الميلادي) .

ويرى عما فرط أن هذا التحليل لا بد أن يكون خاصاً بي ،
ولكل أن يعتمد الى تقسيمه الخاص كما أن لكل انسان أن يفهم
الفن على أى شكل يراه ، الا أنه مهما حاول المؤرخ تحليل الأدوار
وتبويبها وتفصيلها فانه لا بد له أن يضع نصب عينيه أن الأدوار
متتابعة وأن ظهور الولايات الاغريقية في بحر إيجه في البدء
والآثار الأخيرة لحكم المدائن المستقلة في الامبراطورية الرومانية
في النهاية هما مظهران لتاريخ مدنية واحدة ، ولقد يبدو متناقضاً
أن تكون تلك المدنية وحدة قائمة بذاتها ، ولكن درس الآداب

الآغريقية واللاتينية لا يترك مجالاً للشك أن الفرق اللغوي أقل أهمية من الاتفاق في تراكيب اللغتين ، وأن الدارس إنما يدرس أدب لغة واحدة وهو الأدب الآغريقي الذي ذاع كثيراً في اللغة اللاتينية ، كما حدث ذلك إلى حد صغير في اللغة العبرية وبعدها في اللغة السريانية واللغة العربية ، فقد تبدو الوحدة جلية ظاهرة إذا تركنا البحث اللغوي وعمدنا إلى درس المدنيات ، إذ نجد أنه غير ميسور أن نفرق بين تاريخ الآغريق وتاريخ الرومان وأكثر ما نستطيعه أن نقول أن التاريخ الآغريقي في وقت من الأوقات قد بلغ مرحلة يحسن أن ينسب فيها إلى رومه ، وإذا بحثنا في الإمبراطورية الرومانية يعجب القارئ أنها تتشعب مع الفصل الثالث في مأساة تاريخ الآغريق ونجد أنها في أصلها نظام آغريقي وما هي من أساسها إلا اتحاد الولايات وأنها حل للمشكلة السياسية التي عاناها الآغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، أضف إلى ذلك أن النظام البوروقراطي المركزي في حكومة أغسطس والذي عهد إليه الإمبراطور فنشر خيوطه الدقيقة حتى عمت الاتحاد الذي كونه من نظام حكومته المحلي لم يكن إلا ثمرة من تجارب الآغريق في نظمهم الحكومية ، وتدل الآثار البردية الخاصة بنظم الحكم في عهد البطالسة وهم خلفاء الإسكندر الذي سبق قيصرية الروم إلى حكم مصر على أن نظم الإمبراطورية التي تعد أبعد الأشياء عن النظم الآغريقية إنما جاءت إلى الرومان عن طريق آغريقية ، يضاف إلى ذلك أن التشريع الإمبراطوري استطاع أن يحول قانون البلديات الروماني إلى قانون عام للمدنية الرومانية بإدخال مبادئ الفلسفة الخلقية الآغريقية ، وقد كانت اللغة الآغريقية وليست اللاتينية هي اللغة التي كتبت بها أمهات كتب الأدب في العهد الإمبراطوري ، ولسنا في حاجة إلى التذليل على ذلك بأكثر

من ذكر المؤلفات الذائعة والتي كان لها الأثر في مدينتنا مثل (تراجم) بلوتارخ و (نظرات) ماركس أوريليوس والعهد الجديد في الكتاب المقدس ، وكل هذه كتبت بالاغريقية ولا يستطيع أحد أن ينكر أن العصر الذي كتبت فيه لا يعدو التاريخ الاغريقى أو أن الحالة الاجتماعية التي أبرزت تلك الأسفار لم تكن الافصلا في مأساة التاريخ الاغريقى ، هذا ويدل الاحصاء على أن الامبراطورية الرومانية كانت اغريقية النزعة لأن السواد الأعظم من أهلها كانوا يتكلمون الاغريقية كلغة عامة ان لم تكن كلغة قومية ، وكانت المراكز الصناعية والتجارية العظيمة في الأقاليم الاغريقية أو في الأقاليم ذات الصبغة الاغريقية ، ويرجح أن دهماء رومة نفسها ظلوا طوال القرنين الأولين من الامبراطورية يتكلمون الاغريقية أكثر من اللاتينية ، ولهذا كله نجد أن العنصر الاغريقى فى الامبراطورية الرومانية كان له ما لغرب أوروبا الآن فى العالم الحديث ، وأن الأقاليم ذات الصبغة اللاتينية المحضة كانت متأخرة ولم تصب حظا موفورا من الحضارة ، فاسبانيا وأفريقية اللاتينيتان فى العالم الاغريقى القديم يقابلان الآن أمريكا الجنوبية كما أن غالة بريطانيا القديمة اللاتينيتان تقابلان وروسيا الحديثة .

ولذلك يمكن القول ان الصبغة الاغريقية كانت القلب من الامبراطورية الرومانية وكان القلب يرسل النبض فى جميع الأعضاء وكان أشد الأقاليم تأثرا أقربها من القلب وأضعفها أبعدا منه .

تعبير الأدب عن الرواية

الآن وقد اقترحنا للرواية تأويلا ، قد حان الوقت أن تترك الممثلين يتكلمون عن أنفسهم . ولا يتسع المجال لاقتباس أكثر من بضع قطع إلا أن هذه انتخبت لتوضيح أدوار ومواقف الانتقال

في الرواية كما رسمناها . وربما أقنعت القارئ بأن للتأويل الحالى ما يبرره .

وسوف لا نطيل القول عن العصر الذى سميناه الفصل الأول أعنى العصر السابق (عام ٤٣١ قبل الميلاد) . على أنى أعود فأوضح للقارئ ألا يحمل شعراء الاغريق جانبا عند مطالعة مؤرخى الاغريق . إذ أن هوميروس يوضح من الفصول الافتتاحية أكثر مما يوضح هيرودوت . ومثل ذلك السمو الروحى الذى ولده صد الفرس ، والذى ظهر من وجهة النظم السياسية فى حلف ديلوس لا يكاد الانسان يشعر عاطفته به دون قراءة شعر أسكليس وكذلك لاغنى عن الفلاسفة ورجال العلم فان مؤلف الأستاذ برنت ، الفلاسفة اليونانية القديمة ، أو مؤلفه الفلاسفة اليونانية من طاليس الى أفلاطون يضىء التاريخ ولا يقتصر نبراسه على نظرية اليونان العلمية . ويحذر بالقارئ أن يتعرف المؤلف الصغير على الأجواء والأمواء والبقاع ، الذى انبعث من المدرسة الايقراطية الطبية ، وهذا المؤلف يزيد على ثلاثين صفحة فى نسخة تينير (مؤلفات ابيقراط . المجلد الأول) ولكنه يوضح وجهة النظر العلمية فى القرن الخامس أكثر مما يوضحها هيرودوت . واليك قطعة منه — كانت جديدة أن تكتب فى انجلترا فى عصر الملكة فكتوريا — يصف كاتبها مرضا غريبا انتشر بين البدو فى جنوب روسيا فيقول : ” ان الأهالى يعتقدون أن هذا المرض جاء من عند الله ، فهم يحلون ويعبدون ضحايا خشية أن يصيبهم هم أنفسهم . وأنا مستعد أن أعترف أن مثل هذه الظواهر من عند الله ، ولكنى أنظر الى جميع الظواهر بمثل هذا النظر وأعتقد أنه لا توجد ظاهرة أكثر أو أقل قداسة فى أصلها من أية ظاهرة أخرى ، بل كلها على نسق واحد ، وربما كانت

كلها مقدسة . غير أن كل ظاهرة تخضع لقانون والقانون الطبيعي لا يعرف استثناء” .

وانه لمن الصعب أن تترك هذا الفصل من تلك المأساة — فصل انتصار الشباب . وان العبارة التي يلخص بها هيرودوت تاريخ اسبارطة القديم حيث يقول : ”انهم قصدوا العلى وأفلحوا“ لتنتطق عن الروح السائد في حضارة اليونان الأولى على أن هناك عبارة أخرى في هيرودوت تشعر بالفصل الثانى عبارة مشئومة كانت تأتى له عفوا الى حد أن الانسان يلاحظ بضعة عشر مثالا منها فى تاريخه وهى ”قدر أن يقع الشر بكذا وكذا ولهذا“ ويلى ذلك حكاية كارثة فى كل حال . والفكرة المستترة خلف هذه العبارة تشرحها كلمات صولون الى كريسوس (هيرودوت الكتاب الأول . الفصل ٣٢) ونصها : ”انى أعلم يا كريسوس أن الاله دائم الحسد والتشتيت ، وأنت تسألنى عن مصير الانسان“ عليك أن تلاحظ اللفظ الذى ترجمناه ”بالتشتيت“ فاننا سنقابله ثانية ، وما هو إلا العبارة المترة التى يلفظها رجل استمر على قيد الحياة فى عصر العظيمة حتى أدرك الحرب ، الا أنها لم تبلغ من المرارة ما بلغته الحقيقة التى لم يستطع الكاتب أن يقنع نفسه اقناعا تاما بكشف اللثام عنها ، اذ الواقع كما يعترف به العلم اليونانى المعاصر ”أن ليست ظاهرة أكثر أو أقل قداسة من غيرها“ وأن القوى الحاسدة المشتتة ، التى حطمت حضارة اليونان لم تكن قوة خارجية بل هى نفس روح الانسان الذى خلق تلك الحضارة . وفى شعر هوميروس سطر معمى عبره مرة أو مرتين عن معالم فى منظر طبعى كنهر مثلا وهو ”الآلهة تسميه زنتوس والبشر يسمونه سكامندروس“ .

وبمثل هذا نستطيع أن نتكلم عن سقوط اليونان ، فلقد نسب اليونان ذلك السقوط الى حقد الالهة واجابت كهنة الالهة جوابا مخالفا . لما اذا انفرط عقد حلف ديلوس وأضاعت اليونان شبابها في حرب مبيرة ؟ انما سبب ذلك وجود الشر في قلوب الرجال ذلك الحقد الذي أثارته عظمة أثينا سياسيا وتجاريا بين الطبقات الحاكمة في اسبارطة وكورنته وبسبب الطمع الذي ثار في الآثينيين وأغرى سواسهم أن يتسفلوا برياسة حلف حرا الى سيطرة أثينا على اليونان ، وأغرى عامة الآثينيين وعامة الدول المتحالفة أن يسيثوا استعمال الديمقراطية باتخاذها ذريعة بها ينهب الفقراء أملاك الأغنياء ، فان الحسد والطمع يلدان الجور ، والجور يلد الخيانة . وفي أثناء تنافس دول المدن على السيادة أو مقاومتها سيطرة دولة على أخرى نسيت ولاءها لمصلحة اليونان عامة ، وحارب بعضها بعضا ابتغاء السلطان أو الحرية ونسى الأغنياء العريقون من المواطنين ولاءهم للمدينة ابان شحنةاء مملوءة عمى وغيظا مع العامة الذين كانوا يجردونهم من ممتلكاتهم ونفوذهم ، نخانوا بلادهم لمصلحة الأعداء الأجانب .

”عجبا كيف يلوم الناس الالهة ويقولون ان الشر من صنع أيدينا في حين أن الحقيقة أنهم انما يحرون الولايات على أنفسهم ، وبخرقهم يدفعون يد القدر الى التدخل . وانظر الآن كيف دفعها آجنوس بأخذه حليمة اتريدس الشرعية وذبح زوجها عند عودته رغم أنه لم يكن أمام عينيه إلا الهلكة الصريحة اذ أننا أنفسنا حذرناه ألا يقتل الملك وألا يتزوج من امرأته والا نزل به الانتقام بيد ارستيز بن اتريدس حينما يبلغ سن الرجولة ويحن الى وطنه . كذلك تكلم رسولنا لكنه بكل حكمته لم يتمكن من ترقيق قلب اجستوس . وها هو الآن قد جوزى الجزاء الأوفى (Odyssey a 32—43)

هذه الأسطر من القصيدة الأولى من الأودسى تخيلها خيال جيل كان لا يزال فى حل من أن يخطئ (من غير أن يضربه الخطأ) . أما حين اقتربت اليونان من ساعة القضاء فقد وضع وحى نبوءتها فكان شعراء القرن السادس يختلجهم — أكثر مما كان يختلج هوميروس احتمال الثبور الذى هو طبيعى فى كل صنوف الفلاح من نجاح شخصى ونصر حربى وانتصار اجتماعى للحضارة . وكانوا يعززون الضرر الى غرور الروح الانسانى تحت تأثير صدمة رقى بخائى غير منتظر . وكانوا يعلمون حق العلم أن عظام الأعمال المتراكمة من أجيال ، والآمال المستقبلية التى هى أعظم منها قد تضعيع نهائيا بسبب اخفاق فى هذه اللحظة الحاسمة ” ان التخمة تولد الخطيئة حين يزور الفلاح عقولا مختلة التوازن “ ويتكرر المثل بألفاظ مبينة قليلا فى مجموعتى الأشعار المنسوبة إحداهما الى ثوجنيز والأخرى الى صولون .

وقد أبى ضارب المثل أن يضيف اليه ما كان قائما بذهنه وذهن سامعيه ألا وهو أن الخطيئة متى نشأت تولد منها الثبور، ذلك الهلاك التام المحقق الذى يتغلغل فيه الخاطئ بعينين لا تبصران . الا أن كل اللغز الخلقى ورد بنتيجته القاسية مرارا وتكرارا فى كلمات حارة لاسكليس الذى اطرح عن قصد القضاء السحرى القديم الذى عبثا حاول فيما بعد هيرودوت أن يجد فيه تنفيسا لكربه .

واليك كلمات اسكليس :

” ولكن الخطيئة القديمة أولعت أن تلد كلمات الساعة خطيئة جديدة تضحك ملء شديقها بين دموع بنى الانسان . أجل وزميلها (الباطل) الذى لا يسمح لأحد أن يتوسل اليه أو أن

يناهضه، والذي يجازف دائماً غير حاسب حساباً بالخوف أو لشيء مقدس. فأذا بهما نارا ظلمة في بيت ولدا جديرين بمنبعهما القديم".
(Agamemnon V 763---71—Murray's translation)
وكان شاعر النصر المؤزر على الفرس مفعماً بالخوف كما كان مفعماً بالجلد بسبب احتمالات الخير والشر التي كانت بيد جيله المنتصر وما اذا كان أهله معدنا نقيا أو زائفا حسب ما ستظهره الأيام، على أنه لم يكن يشك في القانون الذي لا مناص منه .

لا دولة ولا ذهب يبق من الألم قلب من طرده مذيح العدل القديم الى
الظلام الأبدى - Agamemnon V. 381--4 Murray's translation
وقد كتب أجا ممنون حين كانت أتيندنا في سمر. عظمتا وقوتها وقبل أن يتبع أبناؤها هوى قلوبهم كولد يقتفى طائراً فيضعوا عقبة كأداء في طريق مدنيتهم أو يلطخوها بوصمة لا تطاق . اذ أن جيل مرثون كان ينذر بحرب البلوبونيز . على أن الصدمة لما حدثت جاءت من وراء قوة خيالهم بينما أثرها في فكر اليونان عبر عنه لأول مرة الجليل الذي قصمت الحرب ظهره وهو في ريعان الشباب واليك كيف أحس به ثيوسيديدس اذ يقول "كذلك أخذت حرب الطبقات تزداد وحشية وتركت أثرا عميقا لأنها كانت أول انفجار لحركة سرت على مدى الأيام في كل المجتمع اليوناني تقريبا ، فقام تشاحن الطبقات في كل دولة ونال قواد الأتزاب المختلفة تدخل الآثينيين أو اللاسيديمونييين في جانبهم . ولم تكن لتتاح لهم الفرصة أو الميل لاستدعاء الأجنبي في زمن السلم . أما الآن فكانت الحرب قائمة وكان من الممهل على أي حزب من الأحزاب الفاتكة أن يتوصل الى تحطيم منافسيه والقبض على أزمة الأمور بالتحالف مع أحد المتحاربين . وقد جرت حرب الطبقات هذه على دول اليونان

نكبة اثر نكبة من مثل النكبات التي حدثت والتي لن تنفك تحدث — بالرغم من أن تغير الظروف والأحوال قد يعدلها أو يخففها أحيانا — ما دامت الطبيعة البشرية على ما نعهد . إذ أنه في أحوال السلم الحسنة لا يستطيع منطق الحوادث أن يزج بالمجتمعات أو بالأفراد كرها . ولهذا يمكنهم أن يشرئبوا الى مستوى أرقى . أما الحرب فتستل من الحياة العادية كل وسعة ، وبتعليمها البهيى تذلل الخلق للظروف . كذلك مزقت حرب الطبقات الدول وكان الشعور الذى تحدته كل حرب يترك أثرا سيئا فى التى تليها . وبالجملة وجد شبه مسابقة فى اتقان ذلك الفن الجميل فن الدسائس والفظائع كذلك غمرت حرب الطبقات المجتمع اليونانى فى كل أنواع الفساد الخلقى ، وسخر الناس من الأمانة — وهى أهم سلم للسمو الى المثل الأعلى — فاختلفت من جو العداء والتهم السائد اذ ذاك ، ولم يعد لجة من القوة أو لعهد من القداسة ما يوفق بين المتخاصمين . بل كانت اللجة الوحيدة التى يقبلها الحزب صاحب السلطة مؤقتا هى عدم احتمال بقائها بيدهم طويلا ، ونتيجة ذلك أن ليس من الحكمة الهوادة مع أعدائهم .

وعلى قدر نصيب كل فريق من المتحاربين من الغباوة يكون حظهم من البقاء ، لأنهم يفرقون من نقصهم ويخافون أن يبرزهم أعداؤهم بالذكاء والحيلة فيغامرون فى عملهم غير مبالين . بينما من هم أعلى منه ذكاء — ممن وذلوا حماية أنفسهم الى فكرهم واحتقروا الحيلة العملية — كثيرا ما أخذوا على غرة وسيقوا الى الهلاك .

ذلك كان أثر الحرب اليونانية الكبرى فى الجيل الأول وكان ثيوسيديدس بطبيعة الحال ذا مزاج حساس سريع التأثر فتراه دائما يسوس نفسه ويكبح جماحها ولكن الانسان يدهش

لانفجار نفس الشعور في رجل أصغر سنا ألا وهو زينوفن الذي كان عادة على نسق أهل عصره والذي يحتمل أنه كان قليل التخيل وراضيا عن نفسه من طبعه. وكانت الحرب فرصة مناسبة لزينوفن بكندى وكاتب فلم يكن ميالا للشكوى من القوى "الحاسدة المشتتة" التي أودت بالحضارة اليونانية. الا أنه في الفقرة الأخيرة من "تاريخ عصره" ينسى نفسه على أثر فراغه من وصف واقعة منتينيا (٣٦٢ قبل الميلاد) التي فقد ابنه فيها فيكتب :

"لقد خيبت نتيجة الحرب آمال كل انسان ، لأن اليونان كلها تقريبا حشدت جنودها في جانب أحد الفريقين أو في الآخر وكان من المسلم به أن المتصرين سيعملون ما يشاءون وأن المنهزمين سيكونون تحت رحمتهم ، ولكن المقادير رتبت الأشياء بحيث ادعى الانتصار كلا الفريقين في حين أن أحد الطرفين لم يكسب قيد شبر من الأرض أو مدينة واحدة أو ذرة من القوة عدا ما كان له قبل الحرب . بل على العكس زاد الاضطراب والهرج باليونان أكثر مما كان عليه قبل الحرب . على أنى لا أريد أن أستم في قصتي بل أترك البقية لأي مؤرخ آخر يهتم تدوينها" (Hellenica, Vii 5 fin)

ويحول حجم الكتاب دون الاقتباس من أفلاطون ولكني أنصح للقارئ أثناء دراسته ، ما وراء الطبيعة ، لفهم فلسفته أن يلاحظ خواطره وشعوره لما يلقيان من النور على تاريخ عصره . فان حياة أفلاطون الطويلة — ٤٢٧ — ٣٤٦ قبل الميلاد — تكاد تنطبق تمام الانطباق على الدور الأول من الفصل الثاني من المأساة أي سلسلة الحروب التي بدأت عام ٤٣١ قبل الميلاد — والتي حطت بدول المدن اليونانية الى التفرق والاعياء التامين عام ٣٥٥ وكان أفلاطون من الطبقة الحاكمة المهذبة التي أصابتها هذه

الولايات الأولى بأكبر ضربة فانه في التاسعة والعشرين من عمره بعد أن شهد سقوط أثينا لم يجد مناصا من مشاهدة قتل سقراط بأمر القضاء . وسقراط أكبر رجل من الجيل القديم كان أفلاطون وأصدقائه يقدرونه ويحبونه . هذا الى أن أنبع تلاميذ أفلاطون والذي كان أفلاطون قد عينه خلفا له من بعده قتل في موقعة بسبب عودة الحرب عودة لا غرض لها . ومن السهل فهم اقلاع أفلاطون عن غروره السياسى وفهم عناده ؛ الا أنه من الغريب الممتع أن نلاحظ التضارب بين مرارته السياسية وصفائه الفكرى ففى دائرة الفكر والفن — ككاتب وموسيقى ولاهوتى — كان يحس أنه يقف فى سمت تاريخ اليونان ، ولكنه كلما التفت الى السياسة كان يشعر أن فصل الربيع سقط من عداد فصول السنة حتى دعت غريزته أن يقدم تاريخ وضع محاوراته بقاء أكثر الأشخاص من جيل سقراط الذين أدركوا الرجولة قبل الحرب والذين كان ذكركم يترج ذكريات العظامة التى محتها الحرب . ولتلاحظ أيضا اشتغاله بالعالم الآخر ، لأنه ظاهرة تدخل الحضارة اليونانية مع أفلاطون وتسرى فيها تدريجا فاذا بأفلاطون يلتفت من العلم الى الفقه ومن عالم الزمن والتغير الى عالم النماذج الأصلية والأفكار ، ومن دين المدنية الاجتماعى الى دين شخصى يتخذ له رموزا من الأساطير القديمة وبالجملة يلتفت من السياسة الى المثل العليا على أن أفلاطون لم ير فى حياته الا الدور الأول من الكارثة . أما اذا استعرضنا بقية ذلك الفصل الأول — تلك القرون الأربعة المريعة التى تلت عام ٤٣١ قبل الميلاد) فانا نسمع أخبارا نازلة بعد نازلة كرسالات الخطب الواردة فى سفر يعقوب وبينما الدنيا تنهار يميل الناس شيئا فشيئا الى وضع كنوزهم فى جهات أخرى .

ففى "القوانين" لا يضع أفلاطون مكان مثله الأعلى أبعد من اقريطش وبعد ذلك بقرنين يعان أتباع أرسطونيكوس "الشيوعى" الذين نفتهم مدن اليونان أنهم من مواطنى "مدينة الشمس" وبعد ذلك بقرنين آخرين ييأس أتباع يسوع الناصرى من هذه الدنيا ويدعون عليها أن تحرق بالنار لتفسح مكانا لملكوت السماء .

ان حالة أفلاطون الفكرية تصور لنا جو الدور الأول بعد الكارثة أما عن الدور الثانى وهو فتح الشرق والصراع على الغنائم فانا نحيل القارئ على ماجاء بكتاب المستر ادوين بيفان الموسوم "محاضرات على الزينونيين والدهريين" كما نحيله على ما قاله الأستاذ جلبرت مورى فى محاضرة تذكرك كنواى تحت عنوان "الفلسفة الزينونية" فان هذه سترية مذهبا فلسفيا لم يعد مجرد نتيجة تفكير ، بل هو فى أساسه وقاية أدبية شيدت على عجل لصد عواصف الحياة .

وأما الدور الثالث — وهو انتعاش الحضارة فى وسط القرن الثالث قبل الميلاد — فهو مصور فى حياة ملكى اسبارطة آجس وكليومينس تأليف بلوتارك وكل من يقرأهما يحس بشهامة هذا الانتعاش وبالحزن لاخفاقه . ثم يأتى الدور الرابع — حرب الرومان ضد بقية الدول العظمى فى البحر الأبيض المتوسط — فان حرب هانيبال فى ايطاليا هى على الراجح أفظع حرب حدثت بدون أن نستثنى الحرب الأخيرة فى أوربا اذ كانت فظائع تلك الحرب تزغ الأجيال التالية ، واذا كان مجرد ذكرها يصور الفناء خلاصا محببا من حياة لا تطاق . واليك قطعة من لوكريتس (Lucretius, iii—830—842) تأتى عقب محاورة متقنة يراد بها البرهنة على أن الموت يعدم الشخصية وعلى أن الروح ليست خالدة وهالك محاولة ترجمتها :

”ولهذا ليس الموت بشيء عندنا ولا يهمننا في شيء اذ قد برهنا على أن الروح ليست بخالدة. وكما أننا لم نشعر بألم في الزمن الماضي حين كان الفينيقيون ينهملون للقتال على كل جبهة ، وحين زلزلت الأرض برجة الحرب وضجيجها وارتعدت من مركزها الى قبة السماء ، وحين لم يكن مناص من وقوع الجنس البشري كله تحت سلطان المنتصر في حين كان النصر غير مضمون — كذلك شأننا اذا انقطع وجودنا عند ما يفترق الروح والجسم اللذان من اتحادهما يتكوّن وجودنا — عند ذلك لا يمكن أن يمسننا شيء اذ لا وجود لنا. ولن يستطيع شيء أن يجعلنا نشعر حتى ولو اختلط اليابس بالماء والماء بالسماء“ هذا ما كتبه لوكريس بعد أن أخلى هانيبال ايطاليا بمائة وخمسين سنة والهلح لم يزل جليا في فكره بل لا يزال هذا الشعر يثير الهلع في أفكارنا حين نسمعه. ولن ينسى المؤلف كيف كانت هذه الأبيات تحور في رأسه في ربيع سنة ١٩١٨

على أن المنتصرين أصيبوا مع المهزمين بفناء الحضارة المشترك فان عالم البحر الأبيض المتوسط كله لاسيما الأقاليم المخربة من ايطاليا زلزلتها الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التي جرّتها الحرب الرومانية في أثرها ، وبلغ الظلم الواقع على العامة حدا انعدمت معه رابطة المجتمع نهائيا . وبعد أن هدّدت الحضارة اليونانية بالمحو القاسى حركات شيوعية — كحروب الأرقاء في صقلية وثورات ارستونيكوس ومذابح مترداتس في الأناضول وانفجارات سبارتكس وكاتيلينا في ايطاليا — حات محلها في النهاية حضارة منافسة لها من جانب العامة ألا وهى الكنيسة المسيحية .

وان الدور الأخير الثورى من الفصل الثانى ، وهو الفصل الأخير قبل تأسيس الامبراطورية خلف التعبير عنه فى صيغة "ابن الانسان" "لأن للعالم أوجرة ولطيور السماء أوكارا وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه". (١) وكانت هذه العبارة احدى التعابير التى لا يعلم لها واضع والتى تجرى على ألسنة جميع الناس لأنها تشرح ما فى قلوب كل الناس . ولقد استعملها تبيير يوس جراكوس فى خطاباتة العامة فى رومة وظهرت بعد قرنين فى أحاديث يسوع الناصرى "وكذلك رأت فليبي الجيوش الرومانية يسدد بعضها سيوفه ضد البعض الآخر فى الحرب للمرة الثانية ولم يحزن الآلهة أن تروى أماثيا وسهول هيمس بدمائنا مرتين . فيا أرباب آبائنا وأرباب وطننا ويارب مدينتنا وياربة بيوتنا التى ترعى تبير التسكانى وپلاتين الرومانى لا تمنعوا هذا المخلص الأخير أن يساعد جيلنا الكبير فقد سال دمنا أطول مما تنبغى وكفرنا تكفيرا تاما عن خطايا آبائنا فى نقض عهد طراودة القديمة " .

لقد انحلت الروابط بين المدن المتجاورة فهى تتلاقى شاكية السلاح والحرب تتلظى فى أنحاء الدنيا ومركباتها التى دخلت المضمار تزيد سرعة كلما سارت وعبثا يجذب السائق الأعنة فتجمع به جياده ولا تبالى بالجم (Georgics 1. 489 sepp) تلك صلاة لرفع اللعنة وفى هذه المرة أصاغت القوى الحاسدة المشتتة ، فاستعاد السائق سلطته وها نحن نحن نحمل الى الفصل الثالث من الرواية المحزنة حيث يوجد جزء غير صغير من جمالها وخطر كبير جدا من مغزاها فان السلم الامبراطورى لم يستطع انفاذ جسم الحضارة الرومانية — لأن حرب أربعة قرون أحدثت جروحا قاتلة ولكنه ربما أنقذ

الروح لأن أغسطس وإن لم يحز مهارة قيصر كان يحس بأحزان العالم ويأسى لها . وقد نجح في التعبير عن الأسى والندم والاشفاق واجلال الماضي ذلك الشعور الذى كان يدور فى أنفـس جيله . ولكن أى تعبير يصلح لوصف الامبراطورية ؟ يتبادر للذهن كلمتا التدهور والسقوط ولكن كيف ينبغى تطبيقهما ؟ لقد اعتبر جبون القرن الثانى وهو عصر الانتونين العصر الذهبى فى العالم القديم وتتبع تدهور الامبراطورية وسقوطها من موت ماركس اريلـيوس . غير أنه من جهة أخرى اذا كان التأويل الحالى للرواية تاويلـا صحيحا تكون الكارثة المميتة حدثت قبل ذلك بستة قرون (سنة ٤٣١ قبل الميلاد)م وتكون الامبراطورية نفسها تدهورا الحضارة الاغريقية وسقوطها .

ولكن هل كانت ذلك فحسب ؟ يميل الانسان الى هذا الرأى حين يقرأ يومية ماركس اريلـيوس ويتخيله فى معسكره فى كارتـم يجاهد على جبهتين جهادا جميلا ولكنه مقطوع الرجاء يجاهد المتبررين على الطونة ويجاهد الحزن الذى فى نفسه .

”والحياة الانسانية! مداها وقى ومادتها فى سيولة دائمة وحواسها معتمة ويكأنها البدنى هالك وادراكها دوامة ومستقبلها مظلم وشهرتها غير محققة والواقع أن العنصر المادى نهر جار والعنصر الروحى أحلام وبخار والحياة حرب ومقام فى بلاد سحيقة والشهرة نسيان أى رفيق يوصلنا ؟ شئ واحد وشئ واحد فقط وهو الفلسفة ومعنى ذلك حفظ الروح التى فىنا من التلف والدنس وعدم الانصياع للسرور أو الألم وألا نعمل دون تفكير أو بخداع أو عدم اخلاص وألا نتكل على مساعدة خلقية من غيرنا . ومعناها أيضا . مقابلة الواقع بالرضا باعتباره جزءا من العملية التى

نحن مدينون لها بوجودنا . وفوق كل شيء معناها مواجهة الموت بهدوء ، والنظر اليه كمجرد انحلال للذرات التي يتركب منها كل كائن حي . واذا كان التغير الدائم لا يضر الذرات فماذا يهم الانسان أن يتغير الكائن كله أو أن ينحل ؟ ان هذا قانون من قوانين الطبيعة والقانون الطبيعي لا يمكن أن يخطئ” (Markos—318 11 fin) الا أنه بعد الاقتباس عن ماركس اريلوس المواطن الأول في الامبراطورية يلزم أن نضيف اقتباسا من بولص الطرسوسى وهو مواطن يحق له أن يسمع كأي مواطن غيره .

”كيف يبعث الموتى ؟ بأي جسم يأتون ؟ أيها الغبي ان الذى تزرعه لن يعيش الا بعد أن يموت انه مزروع فى الفساد ويبعث فيما لا يطرأ الفساد عليه انه مزروع فى الخسة ويبعث فى العظمة انه مزروع فى الضعف ويبعث فى القوة “ .

انه ليزعجنا أن نذكر بأن هذين الممثلين ظهرا على المسرح فى الفصل نفسه من الرواية وأن بولص لعب دوره بالفعل قبل ماركس بقرن من الزمان وأن صوت بولص ينبئ لا عن جيل أصغر فحسب بل عن رواية مخالفة تماما وأن فكره الذى عبر عنه فى الأسطر التى اقتبسناها الهام من سلف عده ماركس واحدا من كثير من أنبياء العامة .

ان حبة القمح ما لم تسقط الى الأرض وتمت تبق وحدها أما اذا ماتت فانها تنبت ثمرة كثيرة وهذا القول من خليط الأحاديث المنسوبة الى يسوع الناصرى والتى تناقلتها أفواه الجماهير الأميين والتى لم تشرع فى اثارة حب الاستطلاع بين الطبقات المهذبة فى عهد ماركس . وما عسى أن يفهم البحاثة من

مجموعة من تلك الأحاديث لو أنها وقعت تحت نظره مخطوطة على ورق ردىء بالاغريقية الشنيعة ؟ قليل جدا لأنه كان لا بدمفتقدا ما تستند اليه كل عاطفته وفكره والذي ليس أقل مما تستند اليه الحضارة اليونانية . وأن الكلمة الموجزة التي سبق اقتباسها من يومية ماركس لتكتظ بالذكريات الأدبية — إبيكتاتوس ولوكريتيوس والباكية (التي اختارها أتباع زينو) وأفلاطون وسقراط وديمكراتوس ومدرسة إبيقراط الطبية التي أخذنا منها أول اقتباس فضلا عن عقول أكثر بساطة وفنانين أقدم عهدا وجدوا في الأجيال المظلمة التي خلف أولئك حتى تنتهي الرواية التي كنا ننظر اليها وأن يبنى الرجلين لعوالم شاسعة على الرغم من أنه متى جردنا نظريتهما وجدناهما متشابهتين كثيرا .

الكائن يتغير ويتحall ، ان ما تزرعه لن تدب فيه الحياة الا بعد أن يموت ، فكلاهما يعتبر الموت دورا من أدوار عملية الطبيعة ولكنا لا نتصور الفرق في وجهة النظر والعاطفة الا بعد أن ندرك تشابه أفكارهما .

ولقد كان تحت سطح الامبراطورية الأملس هوة واسعة تفصل الطبقة الوسطى من دول المدن عن نسل الأرقاء الذين جلبوا أثناء الحروب الرومانية ، الا أن الامبراطورية بتحسينها تدريجا حال العامة المادية غيرت وجهة نظرهم دون أن يشعروا وان نمو دينهم — وهو الملك الوحيد الذي لا يمكن انتزاعه والذي حمله الأرقاء من أوطانهم المشرقية — لدليل التغير النفساني حتى أنه في الدور الأخير من الفصل الثاني كان الحرس الأحمر في صقلية والأناضول يقوده أنبياء ووعاظ من قبل آلهتهم الشرقية لأن دينهم أخذ صيغة حال فكرهم النائرة . أما في عهد الامبراطورية حين

نجح سلالة رقيق المزارع في شراء حريتهم وتكوين طبقة جديدة من أصحاب الحوانيت والكتاب فان دينهم صور رقيهم في الحياة بالمثل . اذ أنهم مع بقائهم بعيدين عن الفكرة الامبراطورية اليونانية - ان لم نقل معادين لها بدءوا يشربون الى مملكة خاصة بهم في هذه الدنيا وفي الآخرة كذلك لأن القوة التي انطلقت في صنع العجائب الخرافية على بديونس المنسوب الى أنا Enna والتي أوحى اذ ذاك الى بولص الطرسوسى الولى بحب الحياة الأخرى ، ما لبثت أن نقلت الى جدران الكائس واستمر الشعب المحلى من قاصدى الكائس المسيحية يرتبطون الى تحالف منظم تنظيميا قويا ألزم تحالف دول المدن الامبراطورية في آخر الأمر أن يختار بين الاشتراك معه أو اخلاء السبيل له . ومن أجل هذا كانت الامبراطورية التي من مواطنيها ماركس وبولص أكثر من الفصل الثالث في رواية اليونان القديمة . فبينما أخرجت الانحلال المحتوم لاحدى الحضارتين حملت بخلفه ولما أخفقت السياسة الامبراطورية بعد موت ماركس وتهشم في نهاية الأمر الكائن القديم الذى طالما حافظت عليه بمهارتها لم يمح الزلزال الجديد والقديم معا ، بل تمخص عن الحياة الجديدة وما أتى القرن السابع بعد الميلاد وهو القرن الذى يمكن أن يقال ان الحضارة اليونانية القديمة تلاشت فيه نهائيا حتى كانت حضارتنا متأهبة أن تنبسط وتفلق وتعيد على الجنس البشرى الرواية المحزنة .

وأحسن طريقة يستطيع المؤلف أن يعبرها عن شعوره الشخصى نحو الامبراطورية هى ضرب ذلك المثل وهو أنها كانت كالبحر الذى انتظمت حول شواطئه شبكة من دول مدنها . وان البحر الأبيض المتوسط ليظهر لأول وهلة عوضا ضئيلا من

الأنهار التي وهبت أمواها لتكوّنه ، اذ أن تلك كانت أمواها حية سواء جرت كدرة أو صافية بينما يظهر البحر ملحا را كدا ميتا ، الا أننا متى ندرس البحر نجد هنالك أيضا حركة وحياة .

وهناك تيارات هادئة تدور أبدا من جزء الى آخر والماء السطحي الذي يظهر أنه فقد بالبحر ليس مفقودا حقيقة بل سينزل وقد تصفى من مرارته في أماكن وأزمان بعيدة مطرا يحيي الأرض بعد موتها و بينما ترفع هذه المياه السطحية الى السحاب يحل محلها طبقات أسفل منها لا تفتأ ترتفع من الأعماق . فالبحر نفسه في حركة خلق وحياة دائمة ولكن أثر ذلك الجسم المائى العظيم يمتد بعيدا خلف شواطئه فاذا بالانسان يجده يلطف تطرف الحرارة ويحيي النبات وينعش حياة الحيوان والانسان في قلب القارات السحيق وبين أناس لم يسمعوا باسمه أبدا ما

ارنلد تويني

الأفكار السياسية

قد يبدو لأول نظرة أننا عند بحثنا ما خلفته اليونان القديمة لحضارتنا الحديثة ومسائلها يمكن الاغضاء عن تراث اليونان السياسى . ان الفن اليونانى والآداب اليونانية والفلسفة اليونانية من مقتنيات العالم الخالد لأن الرغبات والمباحث البشرية التى أنتجتها والحاجات البشرية التى تسدها ستبقى ما بقيت الحياة البشرية ذاتها ، ولكن أفكار اليونان السياسية شديدة الارتباط بأحوال اليونان الخارجية فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد وهى ظروف خاصة زائلة وتدور كلها حول المسائل الخاصة بأتينا حاضرتها الفكرية حتى لقد يبدو أن الاهتمام بأمرها قد ذهب بذهاب النظم السياسية التى خلفتها أن اجمعن وانتيجون وما فيها من تعاليم القدر والواجب وهرمس أولمبيا ونقوش برثينون وما تحتويه من سحر الفتوة ذى القوة الخالدة التى لا تقاوم والفايدو وبحثها فى الخلود ونظريات أرسطو فيما وراء الطبيعة بما تحتويه من الآراء الكثيرة الدقة والتعقيد والتى اشتق منها كثير من تعاليم النصرانية والدفاع عنها : كل هذه لا تحتاج الى كبير دفاع أمام الهمجى فى العصر الحاضر اذا أمكن حمله فقط على أن يتأمل فريسته المقصودة قبل أن يهوى عليها . ولكن ما شأننا نحن وتوسيديدس ووصفه المسهب للحرب بين القبائل أو المدن وما يزينه به من خطب مزيفة لم تلق قط ، وأفلاطون ومجتمعه الخيالى المكون من نصف بلدة يونانية صغيرة أو نصف هيئة اشتراكية مستحيلة الوجود مرتبطة بروابط لاثبات لها ذلك المجتمع المبنى على مقارنة بديعة خاطئة بين صفات الروح البشرى

وخلافات الطوائف التي كانت تسود المجتمع اليوناني في ذلك الحين ، وأرسطو ومباحثه الشاقة في أمراض الحكومات البلدية في عصره ووصفه المسهب للعلاج المؤدى الى ترقية أبناء مقاطعته وتهذيب نظمهم ، نقول : ما شأننا نحن بذلك كله في عصر ذى مسائل ومنازعات عالمية ، عصر لا تقتصر آراؤه ومشروعات تنظيمه على قارة واحدة بل تشمل العالم بأسره ؟ ان أول واجب على من يحاول أن يحمل القارئ في الوقت الحاضر على الاهتمام بالمباحث اليونانية السياسية هو أن يكون تام الصراحة والبيان في ذكر نقائصها وليس له أن يخشى أنه اذا ما استبعد هذه الأشياء الناقصة من برنامجه لم يبق له من نقيسها الا النذر اليسير .

ويمكن اجمال هذا النقص في نوعين رئيسيين فهو ينشأ أولا عن خلاف في مدى هذه الأفكار وثانيا عن خلاف في وجهة النظر بين الأفكار السياسية القديمة والحديثة ، أما الخلاف في مداها فيبدو لأول نظرة وان كانت نتائجه ليست كلها بهذا الوضوح . ذلك بأن اليونان القديمة كانت من حيث الأغراض السياسية مجموعة ولايات صغيرة ذات سيادة تجتمع عادة حول حاضرة إقليم ريفي أصغر مساحة من مقاطعة انجليزية متوسطة لذلك كان مصدر الأفكار السياسية في اليونان من وجهة نظرنا الحديثة صغيرا بل ضئيلا جدا ، وخير طريقة لادراك ذلك أن نتدبر عدد المراحل التي توجد في الوقت الحاضر بين حكومة مدينة أو مقاطعة بحجم أتيننا في القرن الخامس وبين حكومة دولتنا ذات السيادة أى حكومة الامبراطورية البريطانية . لقد كانت أتيننا أصغر كثيرا من ليدز أو جوهانسبرج أو شيكاغو ، ومع ذلك فان رئيس حكومة احدى هذه المدن لا يشغل مركزا ذا مسؤولية كبيرة بالمعنى الذى

تفهم به المسؤولية السياسية في عالم اليوم الشاسع الأطراف. ذلك بأن الولاية الأمريكية في الحالة الأخيرة وحكومة ولاية أفريقية الجنوبية هي وحكومة اتحاد جنوب أفريقية في الحالة الثانية تقف بين البلدية الكبيرة والبرلمان ذي السيادة، وأن المسائل التي كانت تصادف رجالا مثل بركليز بل الاسكندر نفسه لا تبدو الا كعبث الأطفال لرئيس وزارة بريطانية ينتقل من بحث مشكلة اغتصاب فحم يؤثر في تجارة العالم بأسره الى مؤتمر امبراطوري يشغل بوضع سياسة موحدة لمسألة المحيط الهادى .

ولنر ما هي النتائج التي تترتب على اختلاف المدى . أول هذه النتائج أن الأفكار السياسية اليونانية لم تتجج قط في أن تجرد نفسها من بعض عناصر الفردية المحلية أو القومية وان كانت ترمى (كما سنرى) الى أن تكون عامة شاملة أى الى الوصول الى قوانين أو نتائج محددة بشأن المسائل السياسية. لذلك ترى أن أفلاطون وتوسيديدس حينما يفكران في "الدولة" ويكتبان عنها يفكران أيضا في المدينة والواقع أن كلمة (polis) تعنى كليهما وليس في المدينة اطلاقا أى في حكومة بلدية ما بل في مدينة معينة ، وفي الأفكار السياسية اليونانية عناصر يستحيل تعميمها لا شئ آخر سوى أنها قد استمدت وحيها من أتيننا . وكما أن رسالة في التربية تمزج فيها القواعد النفسية العامة بقواعد مبنية على التجربة في مدرسة انجليزية ذات تقاليد فذة خاصة بها ، يجب أن تفحص جيدا وأن يحتاط في تطبيقها على شؤون المراهقة في اليابان أو نيجيريا ، كذلك لا تكون الأفكار السياسية اليونانية سياسية حقا ما دامت هذه الأفكار أثنية أو قومية اذا استعملنا هذا اللفظ الأخير المتنازع فيه بمعناه الصحيح في اعتقادنا .

ان الفارق الذى أحاول وصفه صعب ولا يمكن فهمه دون أن نعطف قليلا على طبيعة درس السياسة :

السياسة هى دراسة الحكومات وأعمالها هى ادارة شؤون الناس العامة أو المشتركة ونحن فى حاجة الى "السياسة" الى رجال يتفرغون لادارة شؤوننا المشتركة ، ونحن لا نحتاج اليهم لأننا انجليز أو أيرلنديون أو أمريكيون ، بل لأننا بشر نعيش معا فى المجتمع ولأن علاقاتنا وجهودنا المشتركة تحتاج الى الارشاد والمراقبة . إما ان السياسى طاغية فى الشعب أو خادم له فليس مما نعنى به هنا أن ما نعنى به هو أنه مدير لما يسميه الرومان "المصالح العامة" وهو التعبير اللاتينى الذى يقابل الكلمة الانجليزية القديمة (Commonwealth) .

فالسياسة اذا تعنى بادئ بدء بالمسائل العملية التى تنشأ عن كون عدد من البشر مختلفين يعيشون معا وكلما عظم الفرق بينهم وصغرت ما بينهم من الصفات المشتركة أصبحت تلك المسائل سياسية حقا وأول أعمال السياسى أو الحاكم هو كما قال أرسطو: أن يعمل على أن يعيش الناس "أى أن" يعنى بالمسألتين الشقيقتين مسألتى التموين والدفاع" وثانيها هو أن يعمل على جعلهم يعيشون عيشة راضية (وتجئ فى مقدمة ذلك المسائل الخاصة بصحتهم ونمائهم وهنائهم الجسمى) والسياسة الخالصة اذا استقصينا حقيقتها تعنى على الأخص بالادارة ادارة الشؤون المشتركة للناس جميعا فى مصلحتهم جميعا وقد يكشف ذلك أحفاد أحفادنا اذا ما صارت الدولة العالمية حقيقة واقعة يوما ما .

كانت السياسة اليونانية تعنى كثيرا بالبحث فى شؤون ليست مشتركة بين الناس جميعا ولا تكون مادة للسياسة بمعناها الصحيح

تعنى بمسائل لا تنشأ عن حاجة الناس جميعا الى قانون عام ولكنها تنشأ عن الخلافات الداخلية النهائية الراسخة بين الأمم المختلفة وغيرها من الجماعات البشرية ولا تزال السياسة الحديثة تعنى أكثر من اللازم بهذه الأشياء والمثل الآتى يوضح ما نقول : اذا كانت عصبية الأمم أو مجلس مدينة دبلن تبحث فى مسألة انتشار مرض الجدري أو تحسين بعض الأحواض والأرصفة أو تحسين مدارس الأمهات أو فى مسألة استخدام الأحداث فان بحثهما هذا يكون فى المصالح المشتركة التى يتأثر بها البشر باعتبارهم بشرا وهما بذلك يتناولان صميم السياسة ولكن اذا سار مجلس مدينة دبلن وراء الحركة الديموقراطية الأوروبية فى القرن التاسع عشر وعرض اقتراحا ليرضى به عواطف من يقولون إن ارلندة يجب أن تكون دولة حرة ذات سيادة لأنها وطن أمة واذا طلب الى عصبية الأمم أن تعالج الموقف السياسى الناشئ عن اصطدام القوميات المتنازعة فى الجزائر البريطانية أو فى غيرها ، واذا فعلت الهيئتان ذلك فانهما كهيئتين حاكمتين تخرجان عن وظيفتهما اذ تواجهان مهمة مستحيلة فهما قد أنشئنا لتعنى بالسياسة الخالصة ، أى بالمصالح المشتركة بين الناس من حيث هم أناس ، واذا فلا بد أن تتخطا تحبطا شديدا اذا استدرجتا الى الخوض فى مسائل معقدة دقيقة خلافة هى مسائل الشخصية الفردية والقومية تلك المسائل التى كلما أمعنت فى بحثها ألفت المصالح المرتبطة بها أقل اشتراكا بين الناس وأقل تجانسا وانطباقا على قاعدة عامة أو قبولا لهذا الانطباق وأقل احتمالا للتسوية بل للفهم من جانب سياسى ساذج سريع الاقدام اعتاد أن يعالج المسائل جملة وأن يقدر النتائج بالكم وأن يصوغها فى لغة الاحصاء الجامدة الشاملة .

وعلى ذلك فيجب علينا متى قرأنا ما كتبه الساسة اليونانيون أن نغنى بتمييز العنصر العام منها من العنصر المحلى السريع الفناء ولا ريب في أن العنصر الأخير جثم اللذة والقيمة ، بيد أننا قد نغفل العناصر الثمينة الخالدة في أفكارهم إذا لم نجهد أنفسنا في أن نفرق بين ثوسيديدس الوطني الأتيني عديم الأوهام وثوسيديدس المؤرخ العلمى والعالم النفسى ، بين أفلاطون الأرستقراطى الذى ولد فى غير عصره وأفلاطون الباحث الفذ فى الطبيعة البشرية وفى الحاجات الدائمة للمجتمع البشرى .

ولقد أدى عدم ملاحظة هذا الفارق الى كثير من سوء الفهم وضعف التفكير فى محاولة تطبيق الأفكار والأمثال اليونانية على الحياة الحاضرة تطبيقا حرفيا ، وكثيرا ما نسمع الانجليز الذين لا تزيد معرفتهم بالسياسة والتاريخ خارج دائرة الصحف على بعض ذكريات متقطعة من دراستهم للآداب اليونانية واللاتينية فى المدرسة والكلية دراسة غير مستفيضة نسمعهم ينبثون وهم واثقون بخيبة الديموقراطية مستندين فى ذلك على كلمة عرضية قالها ثوسيديدس أو أفلاطون ويقررون مصير الدولة البريطانية بعبارات يقتبسونها من بعض أحكام لسالوست أو تاسيتس عن الامبراطورية الرومانية قدوتها الأصلية التى تخالفها أيما خلاف وأن ثروة كهذه أو ادعاء كهذا مصدر حملات رجال مثل كوبدن أو هربرت سبنسر أو هـ. ج. ولز ومصدر ارتياب الرجل العمل فى قيمة دراسة الآداب اليونانية واللاتينية . أن مثل من يسترشد بأفلاطون أو ميكا قليل فى هذه المسألة بصفة خاصة فى تفهم معضلة سياسية كمثل من يسترشد بتقارير السوق فى العام المنصرم لاجراء صفقة حاضرة .

وإذا كانت دراسة الآداب القديمة التي يراد بها في إنجلترا ترقية الخلق لا العقل "وهو تفريق خاطئ لا يترك مجالاً لصفة كصفة الإصلاح العقلي لا تترك وراءها سوى قدر ضئيل من العلم والرأى فان أقل ما يجب على خريجي المدارس العامة بالأمس ورجال نوادي لندن اليوم أن يتبينوا ضيق دائرة دروسهم وأن يتجنبوا التعميم السياسى الموثوق بصحته . إن نائب العمال الذى صرح لكاتب هذه السطور ذات مرة بمناسبة مناقشة حدثت فى الشؤون الهندية أنه قد ظل فى مجلس النواب مدة كافية لأن يعرف أن كل ما عرفه عن الهند هو أنه لم يعرف عنها شيئاً ، قد تربى فى مدرسة ان لم تكن أرقى من المدارس السالفة الذكر فلا أول من أن تكون أكثر دهاء ، وخير تعليم لمن يدرس السياسة والتاريخ ، بل لمن يدرس أى موضوع جدى هو أن يعرف كل ما يمكن معرفته عن شىء ما ، سواء أكان هذا الشىء الترتيب التاريخى لمخاضات أفلاطون أو مسألة الرطوبة وأثرها فى معامل النسيج أو تخطيط حقل أو حماية هدف "فى لعب الكرة" وهذا هو السبب فى أن دوق ولنجتون الذى كان يعرف بلده إنجلترا ويعرف علومه الحربية ، وإن كان قد فاتته ذكاء فوش ، قد فضل ساحات اللعب على فصول ايتون حيث تدرس الآداب القديمة واتخذ هذه الساحات مثوى له وميداناً للتعلم وتنمية تلك الملكات العقلية والروحية التزيهة المركزة التى تمكن بها جيشه من الظفر خلال الكفاح الذى دام أعواماً طويلة ، وإن من الخير أن يزداد الأخصائيون منا فى دراسة الآداب القديمة استمساكاً بالتواضع والجد رغم ما يواجههم من ضروب النقد والمنافسة من أنحاء عدة .

أول ما نحذره القارئ هو أن الأفكار السياسية اليونانية قومية وعامة معا ، وأنه يجب علينا أن نتعلم كيف نميز ما يتعلق منها بالقومية وما يتعلق بالحكومة .

وهناك نتيجة ثانية تترتب على ضيق مدى السياسة اليونانية هي أننا لا نجد في أية ناحية من نواحيها بحثا شافيا في مسألة العلاقات الخارجية . إن السياسة الخارجية هي إحدى نقط الضعف في الديموقراطية الحديثة وربما كانت أحوج عناصر فنوننا السياسية إلى تهذيب شامل ، فلا زال من واجبنا أن نحمل الفرد في الوقت الحاضر على أن يعنى عناية مستمرة بالتأثير التي قد تعصف في أية لحظة بنظم حياته اليومية كلها رغم ما قد يبدو عليها من البعد عن شؤونه . ثم يجب علينا بعد ذلك أن نحمله على أن يعالج هذه المشكلات العالمية لا بروح المنافسة في التوسع ولكن بفكرة البحث عن خير سياسة تؤدي لصالح العالم بأسره . وما دامت الشعوب مشغلة بشؤونها الخاصة فسوف تستمر الحكومات على تسير علاقاتها المتبادلة على قاعدة المصلحة الشخصية الفردية وسوف تبقى اجتماعات عصبة الأمم على حالتها الحاضرة أى أنها ليست اجتماعات ساسة يسعون جميعا كل من وجهة نظره وطبقا لنشأته وراء صالح الانسانية ، بل مساومات ساسة قدموا كلهم الا قليلا منهم الى السرق ليعقدوا خير صفقة ممكنة لعمالئهم . هذا وليس في توسيديس ولا أفلاطون شيء يساعدنا على اصلاح حال عصبة الأمم وقد كانت عبارة "صالح العالم بأسره" لا تعنى في نظرهما شيئا من الوجهة السياسية . ذلك بأنهما لم يفكرا في الانسانية مجتمعة ، بل فكرا فيها باعتبار أنها تنقسم الى طائفتين متباينتين هما اليونان والبربر ، ونظروا الى العالم اليونانى كأنه واحدة صغيرة من الذكاء.

والثقافة تحيط بها صحراء من الهمجية شاسعة لانهاية لها نعم اننا نحن أيضا نقسم الشعوب الى متقدمة ومتأخرة ولكن الشعوب المتأخرة ليست في نظرنا كما كانت في نظر اليونان كتلة قوية مركبة من قبائل تتلوها قبائل وتكون كلها قوة عسكرية تمتد حتى حدود العالم المعروفة أو الخيالية ، بل الى ما وراءهما ، ولكننا نعد تلك الشعوب كأنها أطفال تحت حراستنا فنغني بها ونسيطر عليها ، لقد كشفنا وعرفنا العالم كله وفرضنا ولا نزال نفرض وصايتنا أينما وجدنا ضعفا أو انحطاطا ، أما في نظر اليونانيين الذين كانوا دائما على حذر من غزوات البربر من الشمال والجنوب والشرق والغرب من اللوبيين والفرس والقرطاجينيين . فقد كان نص الانتداب الذي ورد في الميثاق ”ميثاق عصبة الأمم“ يبدو غير مرغوب فيه من الوجهة النظرية ومستحيلا من الوجهة العملية . ولم يحلم كاتب يوناني قط بنظام تعاون دولي بين حكومات العالم المعروف يومئذ ، بل كانوا جميعا يفكرون في المنافسة والنضال المستمر وخير ما فكروا فيه من هذه الوجهة توازن القوى المزعزع حتى لقد كان لمجتمع أفلاطون الخيالي نفسه طائفته الجندية وكانت هذه الطائفة جندا بالمعنى الصحيح لا جماعة من الشرطة فحسب ، وعلى هذا الاعتبار فان ألمانيا المغلوبة وقد أعفى شعبها كله من الواجبات العسكرية وأصبح مستعدا للأعمال المنتجة تفوق كثيرا أسمى نظم تصورتها اليونان القديمة .

وهناك نقطة أخرى تجب ملاحظتها في هذا الصدد وهي أنه اذا كانت الأفكار اليونانية لا تفيدنا في السياسة الخارجية فهي لا تساعدنا — إلا من طريق بعيدة جدا — في ميدان صعب آخر ، هو ميدان السياسة الصناعية . إن مسألة السياسة الصناعية أو

ما يسمى أحيانا على سبيل التساهل بمسألة العمل قد يمكن تلخيصها فيما يأتي "كيف تحصل أو تحفظ للعالم المتعدين" أو لقسمنا الخاص منه، ما يلزمه من البضائع والخدمات وأن تكفل في الوقت نفسه العدل والحرية لأولئك الذين يقومون بانتاج هذه البضائع أو أداء هذه الخدمات ، أو بعبارة أخرى كيف توفق بين حياة ناعمة للمستهلك ومثلها للنتج . تلك مسألة من أهم أسس الديمقراطية فان العالم لم يعرف حتى الآن عصرا لم تؤد فيه زيادة الثروة وما يترتب عليها من زيادة التمتع والحضارة في الطبقة العليا من المجتمع الى انحطاط الطبقة الدنيا وظلمها وفي هذا الموضوع أيضا لا يستطيع اليونانيون مساعدتنا انهم لم يواجهوا هذه المشكلة ويخفقوا في حلها كما حدث للرومان ، بل كان تمدنهم المادى من السذاجة بحيث لم تنشأ لديهم هذه المسألة اللهم إلا في حالات خاصة كمسألة الأرقاء الذين يعملون في المناجم ، بيد أن اقرارهم لنظم الرقيق دون وازع من الضمير أو بادرة أسف يبين لنا كيف كانوا يعالجونها لو أنها نشأت ، فاذا واجهت أفلاطون بمسألة مشا كل الصناعة الحاضرة وأثبت له كما يستطيع أن يثبت محاضر في وقتنا هذا أن الحياة لا تستمر دون تدهور وانحطاط بالنسبة لرجل الشمال على الأقل ، الا اذا كان أساسها نظم الصناعة الشاسعة وما أعددها وأصبح مألوف لدينا من سكك حديدية وسفن تجارية وتليفونات وما اليها ، إذا واجهته بهذا فلا نكون مخطئين اذ قلنا إنه كان يعجز عن أن يجيب عليها الجواب الذى ينتظره منه المصلح الحديث فبدلا من اعتناق أحد المذاهب الاشتراكية المتعددة المعروفة التى تنتسب اليه خطأ كان إما أن يقبل حجج محدثه ويخبره أن يبنى حضارته الشمالية النفيسة على أسس من الرق ، وإما أن يرفضها

وينصحه كما نصح صمويل بتلر ، أن يحتفل بحرق الآلات الصناعية ، وثاني الأمرين هو في الواقع أكثرهما احتمالاً فهو الذي تتجه نحوه صفوة المفكرين البعيدي النظر (ونستطيع أن نزيد الأكثر يونانية) من قادتنا المحدثين وإذا كان رجلاً شديداً التباين كتاجور الحكيم الهندي وراتناو كبير النقابة الصناعية الألمانية يقول كل منهما إن الداء الذي نعاني شره إنما هو داء (الآلات ونظامها) وإننا في حاجة ماسة إلى البساطة فلا نكون مخطئين على ما يظهر إذا تنبأنا بأن أفلاطون ما كان ليرفض التسليم بإمكان تحقيق "الحياة الطيبة" للفرد الحديث في عالم يتجرد من معظم الحلي الصافية الرنانة التي يفخر القرن التاسع عشر باختراعها .

ولنعطف بعد ذلك على النقص الثاني الذي ينشأ لا عن خلاف في المدى بل عن خلاف في وجهة النظر بين النظريات اليونانية والنظريات الحديثة . نستطيع أن نلخص ذلك النقص أحسن تلخيص في قولنا : إن الأفكار السياسية الحديثة كالأفكار الحديثة بوجه عام — تعمل من الداخل إلى الخارج من الفرد إلى الدولة والمجتمع في حين أن المفكرين القدماء كانوا يسيرون عادة على عكس هذا الطريق أي يقدمون مصلحة المجتمع أو الدولة على مصلحة الفرد . وهذا ما عناه فوستل دي كولانج بقوله إن الرجل القديم لم تكن لديه فكرة ما عن معنى الحرية . لا ريب في أن الحرية تعبير غامض مر بك بعض الشيء ومن الصعب أن نفصلها عن قرينها السياسيين الاستقلال القومي والحكومة الذاتية الديموقراطية وإذا فقد نستطيع أن نهذب تعبير الكاتب الفرنسي (فوستل دي كولانج) بقولنا إن مفكرى اليونان السياسيين لا يعترفون بحقوق الفرد ومسئوليته أو أنهم لا يقدرونها تقديراً صحيحاً .

وقد أخفقوا في التمييز بين الضمير والواجب العام كما أخفقوا في التمييز بين القومية والحكومة . نعم إن سقراط وقد هلك طاعة للضمير والقانون قد لاحظت له تلك الحقيقة العليا ولكن تلاميذه لم يعنوا بذلك الجانب من رسالته أو لم يصلوها بنظرياتهم السياسية وإن عنوا بها في دروسهم للأخلاق الفردية . وإنما لخص تلك المسألة وصاغها بصراحته الفذة وتهكمه البديع ، من هو أعظم من سقراط حين قال : « أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ولو قيل ذلك أمام توسيديس أذكى رجل عملى بحث في الأفكار اليونانية السياسية لما استطاع أن يفهم من معناه شيئا فهو يرى أن قيصر والله — أو مدينة أثينا والآلهة أثينا هما لفظان غير متناقضين بل يكادان يكونان لفظا واحدا لذلك كان الأثيني كما يصفه توسيديس إذا ضحى بجسمه في خدمة المدينة كان هذا الجسم مجرد آلة خارجية وعد عقله ما كاله حقا حين يعمل لمصالحها وإذا فعل ذلك كان حسب الاعتقاد اليوناني العام يخدم إلهه وجاره معا ، يخدم مصالحه الشخصية ، وأشرف قضايا العالم . كانت حياته وحدة غير منفصلة . لأنه لم يكن قد عرف بعد كيف يفرق بين روحه وروح المدينة أو الجماعة ، أو يفرق بين إلهه وإله إسرائيل أو أثينا ، وسترى أن المفكرين اليونانيين كانوا يحاولون مخلصين أن يفرقوا بين الوطني الطيب والانسان الطيب ، وأن يقيموا الدولة على أساس الروح ، ولكن الذي أفسد عليهم عملهم عجزهم عن تقدير ضرورة مطالب الروح الفردية ومدى هذه المطالب . يجب أن يكون الناس أحرارا من الوجهة الروحية قبل أن يستطيعوا التعاون السياسي بأرقى شروطه . ويمكننا في آخر الأمر أن نرجع ضعف الأفكار السياسية اليونانية

الى ضعف الدين اليونانى ، لقد عاج أفلاطون نفسه موضوع الوثنية الصحيحة ، وجعل لأبلون دلفى مكانا اسميا فى مجتمعه الخيالى فأثبت بذلك جنبه عن مساس المعتقدات اليونانية بكهن المفكرين الانجليز اليوم عن المساس بالملكية وهذا الرياء فى أساس البحث هو الذى يبدو من خلال الأبحاث المبنية على هذا الأساس ، لذلك كانت الأفكار السياسية اليونانية تشتمل حتى فى هذا العهد القديم على جرائم ذلك الداء الذى حمل الناس بعد ذلك بقرون — الدهماء منهم أولاثم الخاصة — على أن ينبذوا تلك الرموز البالية التى كانت تمثل اتحاد الكنيسة والدولة وأن يتأسوا عنها بدين قد شاد دولة الروح على أسس متينة ثابتة وإن كان قد قوض دعائم آخر الدول القديمة وأعظمها ثم أودى بحياتها فى آخر الأمر . إن كتاب جوليان Vicisti Galilae هو الحد الذى انتهى عنده ذلك النمط أو التقليد الخاص من الأفكار السياسية القديمة التى نشأت من العبادات المحلية فى دول المدائن وظلت تزداد قوة مع الزمن حتى أصبح الناس فى كل العالم المعروف يركعون أمام هيكل قيصر الاله الأمبراطور ، ولم يك ثمة سبيل للخروج من ذلك سوى الثورة وقد كفرت الانسانية فى حلك القرون المظلمة عن خطيئات التراخى والتلون التى ارتكبت خلال قرون طويلة من قرون النور والعرفان .

والآن وقد انتهينا من سرد ما عليهم بصراحة فلتكلم فيما لهم .
إن أول فضل عظيم أسداه اليونانيون للأفكار السياسية هو أنهم ابتكروها ابتكارا وليس من المبالغة أن نقول إن السياسة لم توجد قبل وجود اليونان فى القرن الخامس . نعم قد وجدت قوى وإمارات وحكومات ورعايا ولكن السياسة لم توجد فيها

كما أن الكيمياء لم توجد في عصر الكيمياء الكاذبة . إن تقليد فكرة — كما علمنا أفلاطون — ليس كالفكرة ذاتها ، كما أن تقليد علم ليس كالعلم نفسه ، لقد حكم رمسيس وبختنصر وقارون الليدي ولورث الفارسي دولا عظيمة ، ولكن السياسة لم توجد في أقطارهم لأن الشؤون العامة لم توجد فيها وإنما وجد شيء واحد هو الشؤون الخاصة للملك وطبقته الحاكمة ، أما الحكومة وكل من الخدمة العسكرية والضرائب وامداد « الحرم » الملكي بالنساء فلم تكن كلها إلا مظهرها لقوة الحاكم وإرادته ، وأما الخطوة الكبيرة التي خطتها اليونان فهي أنها عرفت وجود المصالح العامة أو المشتركة وأنها أعدت العدة لإدارتها ولدرسها ثانيا ، وبعبارة أخرى كان اليونانيون أول من أنقذ الجماعة السياسية من الدجالين وعهد بها إلى الأطباء .

وخير ما نقدر به عظمة هذا العمل هو أن نتأمل الفراغ الشاسع الذي يشغله درس السياسة الحقيقي ، وتشغله الاصطلاحات والأفكار التي نشأت عنه في حياة الرجل الحديث ، ولا سيما في حياة الرجل الانجليزي الحديث إن العدالة والحرية والقانون والديموقراطية والبرلمان والرأي العام — هذه كلها وكثير غيرها يعود الفضل فيها إلى فلاحى الجمهوريات اليونانية الصغيرة وصناعها الذين شعروا بالحاجة إلى طريقة حسنة لإدارة شؤونهم الضئيلة فعملوا على إيجادها بنفس ذلك الابتكار وباعداد الوسائل المطابقة للغايات ، فتمكنوا في فن المعمار من اختراع المعبد القديم وفي الفنون الجميلة من اختراع التمثيل فاذا كان من المبالغة أن نقول أن كل سياسى حديث مدين إلى اليونانيين بمجموعة أفكاره العامة ، فلا ريب في أنه قلما يوجد منهم من لا يستجد من اليونانيين مبادئه الأساسية .

وليس هنا مقام الافاضة في أهم صفات النظام السياسي اليوناني أو الكلام عن العناصر المختلفة في السياسة اليونانية النظرية والعملية التي ثبتت فائدتها الدائمة ولكننا سنحاول فقط أن نلم بها إلماما عاما في إيجاز على أنه يمكن استخلاص بعض النقاط ذات الأهمية الخاصة للذنى الحاضر . وأول هذه النقاط أن اليونانيين لم يأتينوا وجود الشؤون العامة أو المشتركة عكفوا على درسها بجد وعزيمة .

واذ كانوا يؤمنون بالفعل إيمانا راسخا فانهم لم يقفوا فيما وقع فيه الانجليز من الخطأ اذ اعتقدوا بأن النظم لا « تخلق » ولكنها « تنمو » أو أن الصعاب التي لا يقوى على معالجتها الجبناء تدلل نفسها اذا تركت وشأنها ، بل شعروا بأن المسائل السياسية يخلقها الناس ، ويخلقها تفاعل الارادات والرغبات البشرية ، وأن في وسع الانسان بل عليه أن يحلها باستخدام الذكاء البشرى استخداما مقصودا مدبرا ولم يروا من اللائق أن يسلموا الشؤون العامة الى القضاء والقدر رغم اعتقادهم في القوى الخفية التي تسيطر على مصائر الأفراد والأمم ، كذلك لم يحولوا أنظارهم عنها باعتبارها أمورا دنيوية محضة لا يسوغ لذوى الأفهام السقيمة مباشرتها فتركوها الى رحمة زعيم جماعة أو رجل نظريات جاهل خرب الذمة . على أن شؤونهم العامة لم تكن أكثر لذة من شؤوننا بل كانت أقل منها كثيرا اللهم الا اذا حاولنا أن نثبت أن انتخاب القواد لقيادة جيش أصغر كثيرا من الجيش السويسرى أهم في نتائجه من اختيار حكومة تبسط سلطانها على أربعائة مليون من الأنفس يسكنون القارات الخمس أو أن مسألة السلم أو الحرب بين أقاليمين صغيرين جبليين متجاورين تفوق في الأهمية مسألة العلاقات بين الجنسين الأبيض والأصفر . واذا لم تكن الشؤون

السياسية اليونانية شيقة في ذاتها فقد كانت أيضا أقل أهمية اذا قورنت بأمور أخرى كانت تستلفت نظر المدني اليوناني . ان الناخب الحديث الذي يقصر في اعطاء صوته ، ينفق ما هو مدين به للانسانية من وقت وعناء في العمل أو اللهو ، في السيارة أو في نادى الموسيقى ، ولكن الأثيني حينما كان ينفق يوما حارا منها (اذا لم نظن أن أعصابهم كانت أقل احتمالا للقيظ من أعصابنا) في الأصغاء الى مناقشة برلمانية أو نزاع قضائي وهو يجلس في العراء فوق مقعد حجري خشن ، نقول إنه حينما كان يفعل ذلك كان يرجئ الى الغد أو الى الفراغ الذي يسمح له به زرعه وأشجاره المناقشة في قصة تمثيلية فائقة أو ابتكار جديد للفكر البشرى أبرزته الى الخلود قبل ذلك ببضعة أيام أو أشهر قريحة أحد مواطنيه . واذا كان من الصعب على المدني النيويوركي أن يجد وقتا لخلع نير « تاماني » ^(١) ، أو على الناحيين في بريطانيا العظمى أن يسحقوا جمعية شبيهة بها وان كانت في ظاهرها أدعى الى الاحترام منها في هذا الجانب من المحيط الاطلانطي ، مع أن حياته وصحفه ملأى بالملاهي السافلة السريعة الزوال ، اذا كان ذلك صعبا عليه فلشد ما كان من الصعب على معجب بيورو بيديس أو تلميذ لسقراط أو بروثا جوراس أن يقطع البيداء مدى أيام ليعقد صفقة مع زعيم تراقى أو يقضى لفرد مسكين بتعويض لا يتجاوز عددا من الدراخمت ! إن علينا أن نحمدهم لا أن نرثي لهم أو نحتقرهم لأنهم رأوا من الصواب أن يفعلوا ذلك .

(١) جمعية ديمقراطية في نيويورك كبيرة معروفة بتدخلها في الشؤون السياسية

ولأنهم على الرغم من تدهور الشؤون العامة وعدم لذتها ورغم خلوها من التهذيب والدقة اللذين هما من مميزات شؤون الانسان الضرورية . تعمدوا أن يبعثوا فيها تلك اللذة الناشئة من تحرك الأذهان الشريفة المخلصة القادرة لدرسها ، وكما أن هكسلي قد استطاع أن يجعل محور بحثه في مر العصور الجيولوجية قطعة من الطباشير ، وكما أن السير رتشارد أوين قد استطاع أن يعيد تركيب هيكل الرجل الأول من عظام ابهامه ، فكذلك استطاع الأثيني — كما تصوره لنا صحف توسيديس أن يعالج المشكلات السياسية الدائمة وأن يجعلها تحيا من بعده ألفى سنة بمناقشات ظاهرها العناية بشؤون محلية تافهة ، وإذا كانت هذه هي صفة الحق الذي وجد حينئذ فليس غريبا أن يعير البعيدون عنه ويوصفوا بالسخف .

لنعطف لحظة على ذلك المزاج العقلي الذي كان المدنى الأثيني يعالج به المسائل السياسية . كان الأثيني محافظا ومتطرفا معا ، أو بعبارة أصح كان يجمع في السياسة بين خير ما في مذهب المحافظين ومذهب المتطرفين . كان محافظا لأنه كان يحترم التقاليد ويسلم بسلطان العادة وقيمتها . وليس من بين كتابنا المحافظين المحدثين والمدافعين عن النظم القائمة بما فيهم بيرك نفسه أو بسمارك أو شاتوبريان ، من هو أكثر من الأثيني تأثرا بهاته الشرائع غير المسطورة التي تجل من يعتدى عليها بالعار الذي لا ينكره انسان . كانت أثينا ديموقراطية محافظة . والحقيقة أن سواد الديموقراطيات محافظ رغم دعاوى ساستها ذلك لأن الفرد العادى الذى يمثلون نظامه محافظ بنفس طبيعة حياته وعمله ، ولا ينقذ عقول سواد الناس من قيود العادة الا الفراغ والأسفار أو تربيتهم تربية أوسع مدى مما أسبغته الى الآن أية ديموقراطية على شبيبته . بيد أن

أثينا كانت أكثر محافظة من أية ديمقراطية حديثة نعرفها ، فحينما يعرب الشعب البريطاني عن استيائه من كاتب أحرق بالائتجار على مقاطعة مؤلفاته ليشل بذلك قلمه اذا لم تكن له موارد خاصة ، وحينما تذهب الولايات المتحدة الى أبعد من ذلك فتحرم امتيازات البريد على مؤلفاته ، كانت أثينا لا تحجم عن دس السم له ، وكانت الديمقراطية تهتف هتاف الاستحسان اذا غضب أحد من صفوة القوم أو حزن . لم تبد الولايات المتحدة قط في أشد أطوار الأرهاب الأحمر الحديث بهذا الغلو في المحافظة ، ويجب أن يعيننا ذلك على تقدير متانة أسس التقاليد والعادات والتقاليد الأبوى والرسوم الدينية التي أقيمت عليها نظم الديمقراطية الأثينية في القرن الخامس اذا رأينا تقلباتها الظاهرية .

كان للذنى أن يحيل فكره بما شاء من الحرية فى المادة التى تقدم اليه لبحث فيها ، ولمكن كانت هنالك نقطة عندها تهيب به الدولة وتهيب به غرائزه أيضا إن (قف) فيذعن الى هذا النداء الا فى أحوال نادرة ، ومن العدل أن نزيد أن أشد الآراء الحديثة ثقافة يؤيد كل التأييد معارضة الرأى الأثينى للمجادلة فى القوانين غير المسطورة أمام البرلمان . والفرق بين الديمقراطية الأثينى المحافظ وبين الحر الحديث فى مثل هذه المسائل ليس هو أن أحدهما يأبى المجادلة فى حرمان الحياة أمام البرلمان والمحاكم والآخريطلبها ، بل هو أن أحدهما يستند الى العادة ويستند الآخر الى الضمير فى ضمان احترام العرف ذاته ، فسواء أكان الأمر متعلقا بالآلهة أم بالانسان ، بقانون البيت أم قانون الضمير فان كليهما يتفق على أن ما هو خاص ومقدس لا محل له فى ساحة المناقشات العامة .

على أن المدنى اليونانى كان متطرفا فى دائرة هذه الحدود المعترف بها بمعنى أنه كان دائم الأهبة لأن يحيل عقله فى الشؤون العامة دون خوف أو تحامل ، لقد كان مولعا بالتفكير الصريح الصادق وكان يبذل جهده فى معالجة الموقف الحقيقى الذى يواجهه دون أن تعميه أو تضله موانع أو نتائج عرضية . وكـم فى خطب توسيديس من درس فى الأمانة العامة يجب على ساستنا وعامتنا أن يتعلموه ، لقد اعتاد النقدة القليلو العلم أن يطلقوا عليهم لفظ الكليبيين وهى صفة يولع الانجليز — المهرة فى خديعة النفس — بنسبتها الى الأمم التى هى أشد اخلاصا منهم فى معرفة أنفسهم . ونحن اذا أبينا رسميا أن نناقش مسألة يجرى العمل بها يوميا لأنها مسألة حزبية ولأن حكومة إئتلافية تترجع فى كرسى الحكم واذا تركنا لرحمة الأقدار مسألة يعتبر عدم التعرض لها سياسة ، واذا تعمدنا أن نخترع دعاوى حزبية أو نداءات انتخابية يقصد بها تضليل عقل الناخب وإبعاده عن الغاية الحقيقية ، واذا كان ساستنا قد أصبحوا أساتذة فى الفن الذى وصفه توسيديس بأن فن استعمال عبارات خلافة لتحقيق غايات جنائية ، ووصفه رئيس وزارة بريطانيا بوصف ملطف هو « الخديعة السياسية » اذا كنا كذلك نخير لنا أن نجلس لنقرأ ونلاحظ ونمى وننسى ونطبق على مواقفنا الحديثة الخطب أو الفصول الخالدة التى يفصح توسيديس لنا فيها عن حقيقة الحياة السياسية لعصره وأن نجعل منها مطهرا لبعض نظم حياتنا المعسولة . إن حلاوة الصديق المشوبة بالمرارة ليست شائعة دائما فوق منابر الانتخاب ولكنها غذاء طيب للمدنى الصادق قديما كان أو حديثا .

يفضى بنا هذا الى فكرة أخرى . كان اليونانيون في تفكيرهم السياسى طلاب حقائق لا طلاب مثل عليا وهذا الوصف يصدق على كل الكتاب اليونانيين حتى على من كان منهم مثل أفلاطون قد بدأ في سوق أتينا ثم سما بنا الى مجتمع خيالى في السحب . كانوا جميعا طلاب حقائق في كونهم قد بنوا مباحثهم السياسية على العالم كما هو ، وعلى الطبيعة البشرية كما هى ، لا على فهم شخصى أو خيالى لما يجب أن يكونه الانسان والعالم ، وبعبارة أخرى كانوا طلاب حقائق لأنهم كانوا علماء نفس ولأنهم طبقوا الطريقة النفسية على المسائل السياسية . أما أنهم كانوا أول من فعل ذلك فلا حاجة الى ذكره لأنه لم يطبق أحد قباهم أية طريقة ما ، اللهم الا على أبسط الأساليب وأكثرها سذاجة . أما هم فقد طبقوها بأحكام ليس فوقه احكام ، وببساطة فنية رائعة تامة حملت من سار على منهاجهم على قبول استنتاجاتهم أو نقدها دون أن يلاحظوا أساس درسهم البشرى الذى بنيت عليه . فلم تقرن السياسة وعلم النفس من جديد الا فى الأعوام القريية جدا بفضل عمل بعض الباحثين الصابرين الذين قاموا فى كلا الميدانين بأبحاث منظمة كما فعل جراهام والاس .

قد يستغرب قراء هذا العصر اذا علموا أن "تيوسيديدس" و "أفلاطون" وأرسطو قد ساروا من هذه الوجهة الهامة على خطة أقوم من التى اتبعها كل المفكرين السياسيين ورجال السياسة الى وقتنا هذا . ومن كان فى ريب من هذا فاليرجع الى ما حوته كتبهم يحد أن هؤلاء الذين سميتهم أجهدوا أنفسهم فى دراسة الطبيعة البشرية قبل أن يخطروا حرفا مما كتبوه . فكتاب الجمهورية مصدر بعدة أجزاء فى التحليل النفسى "البسيكولوجى"

وهو وإن كان يتخلله بعض الخيال البعيد فيما فيه من التبويب السابق لأوانه فهو مملوء بالحياة والحقائق ، وليست هذه الحقائق خاصة باليونانيين بل هي حقائق بشرية عامة . وقد كان اليوناني في أبحاثه يستطيع أن يكون كالباحث الألماني والأمريكي في وقتنا هذا "فأرسطو" قد قدم على كتابه السياسة الذي جمع فيه نتائج بحثه ودراسته لكل ما عرف في أيامه من المعلومات السياسية والنظم الدستورية كتابا في الأخلاق ما زال يعد بحق علما من أعلام الكتب التي يعتمد عليها طلاب العلم في وقتنا هذا . أما "ثيوسيديدس" فعرفته بالناس ، وهي ثمرة خبرة طويلة زادها رسوخا خيبة آماله ، ظاهرة في كل سطر من سطور كتابه كما يراها الانسان في خلفه الصميم "فتزيلوس" .

ولنرجع البصر الى الكتاب الحديثين فهل نجد من (هبس) و (بنتام) و (برك) و (روسو) والفرديين والاشتراكيين والهيغلين والقوضوين من حاول محاولة واسعة خالية من التعصب أن يرى الانسان كما هو ، اللهم الا في الأيام الأخيرة ، وطالما طرقت آذاننا كثير من الحكم والأمثال المبنية على تقدير وقتي نصفى عن تأثير الانسان بالحوادث والأنظمة المحيطة به .

ويتجادل الناس وتتضارب آراؤهم فيما إذا كانت " الطبيعة البشرية قابلة للتغيير " وفيما إذا كان الانسان غير مسير إلا بمنفعته الشخصية أو أنه لا ينتظر إلا ريثما يتخلص من همومه ومشاغله حتى يكون رائده في العمل حبه لاخوانه . وكذلك يتجادلون فيما إذا كان الخوف أو الأمل أو العادة أو حب المخاطرة هو أكبر دافع طبيعي يضطر الانسان إلى العمل . ونشأ من ذلك أن أسدل ستارا كثيفا من العقائد والثروة على حقيقة الانسان بهذه المناظرة الكبرى

كما هو الحال في كتاب الخطرات لبرك وكتاب رأس المال لماركس وفي كتب مين ومل ومازيني وكذلك في كتب صغار الكتاب الذي ينشرون نتائج أبحاث هؤلاء الكتاب بين عامة الناس في الكتب المدرسية والنشرات الانتخابية . فنحن في حاجة إلى بساطة اليونان أو كليتهم لكي ترجع بنا إلى الحقائق مرة أخرى .

والآن فلتصور لحظة موقف "ثيوسيديدس" تجاه معضلات عالمنا هذا بعد الحرب الكبرى . ليس علينا إلا أن نقرأ تحليله الخالد لحالة اليونان النفسية والحربية وما كان يصحبها من المظاهر العصبية والحسية ليتبين لنا أن أول ما كان يحاوله هو أن يوضح لنا حقيقة أنفسنا ، وما كان يسمع لنا أن نوافق من غير بحث على اعتقادنا الغامض بصواب أعمالنا ، ولا أن نستسلم إلى نفورنا من الأجانب أو إلى سوء الظن بمبادئ ولسن المثالية .

كان "ثيوسيديدس" يرجع بضجرتنا وتزمرنا إلى أسبابه الحقيقية دون أن تأخذه في ذلك هواده أو شفقة ويعرض أمام أعيننا حالتنا وهي مزيج غريب من حزن وتعب ، وقلق وفشل ، وأمل وعجز ، هي علة مانحن فيه الآن . ارجع إلى قوله في كتابه « إن الحالة النفسية الحربية قد جاءت معها أعراض كثيرة فظيعة حدثت وستظل تحدث طالما بقيت طبيعة الإنسان كما هي ولو أنها تختلف في الشدة والاعتدال حسب اختلاف الأحوال الخاصة . كان "ثيوسيديدس" يراقب تلك الحالة في كل أطوارها سواء أكانت معتدلة أم شديدة ، بسيطة أم مركبة . ندعو إلى العطف أم إلى النفور .

كان يظهر لنا الطبقتين الانجليزيتين العليا والوسطى وقد حرمتا أسباب الراحة والسرور والسلامة بسبب الحرب وما فيها من الأحران وهما يواجهان مستقبلا مفعما بأفكار وقوى مفزعة ، مجهولة العاقبة يضرب جاني الضرائب هدوءهما وسكينتهما الضربة القاضية ، وكذلك يكشف لنا عن طبقة العمال وقد دعيت لتحارب من أجل قضية لم تحسن ادراك كنهها أملا في عالم جديد يأتي به النصر ، ويحثها زعماء الأمة على أن يكون إقدامها في سياستها الداخلية كأقدامها في خنادق القتال ، ثم بعد ذلك تلاقى عالما كسدت فيه الأسواق ، وافتقر العملاء وسادت فيه قوانين العرض والطلب بشدتها التي لا تعرف الرحمة ، والتي اعتادت طبقة العمال أن تعتقد أن في امكانها تجاهلها لأنها طالما تمت زوالها ، فيدفعها هذا الاعتقاد تارة الى الاستلام ، وطورا الى ثورة العجز ، وأحيانا يدفعها الى نظام نقابات العمال العتيق ، وآونة الى أحدث أنواع التطرف ، وذلك حسب السن والمزاج والخبرة : ثم يصور حالة فرنسا وقد خرجت من الحرب منهوكة القوى ، بعد هجمات دامت خمسين سنة ، وكابوس استمر خمس سنوات وهي تكاد تموت من الحزن والانتظار ولكنها عند انتصارها ، قد أخذت العزة من نفسها مأخذا أصبحت معه لا تعترف بضعفها ، وهي تنظر الى حلفائها وقد ظهر عليها شيء من الازدراء بالخطوب وشيء من القلق عليها تجد من بينهم من يدرك حاجتها البادية عليها رغم صمتها وهي تتوق بكل قواها الى أن تستأنف في اطمئنان وهدوء بال أعمالها العادية وفنونها التي جعلتها في الماضي وستجعلها في المستقبل أتيننا العالم الحديث وكان يصور ألمانيا التي لا تقل عن جارتها الغربية ضعفا واضطرابا وإن كانت هي من معدن أصلب من معدنها

فهى بلاد أهلها قطع من الغنم بلا راع يندفع من جهة الى أخرى منقبا وباحثا عن مرشد ، ولذلك تجد قدرتها المدهشة فى الكد وحصر الذهن ، وكذلك شعورها القوى الجأش ، يذهبان هباء لعدم وجود من يحسن ارشادها : ويصور بلجيكا وهى واثقة بنفسها نشطة تجددت قواها : وايطاليا وقد تم اتحادها أخيرا ، وأصبحت تختبر قوتها فى معالجة معضلات عهد من تاريخها جديد ووراء ذلك كله عالم الصقالية الحديد المضطرب من براغ ذات الحماس المنظم وعلى رأسها رئيسها الفيلسوف الى الروسية الجديدة وهى تعاني آلام المخاض فى قبضة أطباء الكرملين الجفأة المستبدين — كل هذا كان يحاول أن يظهره لنا "ثيوسيديس" جديد دون أن ينسى ما فى الأجيال القديمة من قوات محافظة وآلهة من تقاليد كاثوليكية وبروتستنتية وإسلامية واشتراكية ودون أن ينسى سلطة أصحاب المصارف والتجار والجامعات والصحافة وغير هؤلاء من أجناس البشر الذين أوجدتهم وميزهم عن غيرهم جدهم وعملهم ، فاذا فرغ من اظهارنا على حقيقة أنفسنا ، كل منا فى مشكلاته الخاصة ، وكلنا معا فى ركننا الصغير من هيكل الانسانية الهائل بعد أن يرينا ضآلتنا وتمسكنا بعقائدها القديمة ويجمعنا كلنا عالم الزمان والمكان .

إذا فرغ من ذلك كله قطع ذلك السكوت وأجاز لنفسه أن يصف لنا العلاج وعندئذ تكون الرسالة الأولى وربما كانت الرسالة الوحيدة التى يقدمها ذلك المؤرخ العلمى الحكيم فى عصرنا المضطرب .
هى قوله "اعرف نفسك"

ربما سأل سائل وقال بأى حق نتكلم عن ثيوسيديس كمؤرخ علمى فى عصر الانتاج العلمى المنظم عصر معاهد الأبحاث العلمية

وعصر التخصص ، فليس هو الا رجلا لا يحمل درجة علمية قط ولم يحضر العلم في جامعة مطلقا هو رجل بعد أن خدم في الجيش خدمة قصيرة لم يتعلم من أجلها شيئا في جامعة (كما تستبين ذلك من قيادته) قد جلس ليكتب تاريخ الحرب التي اشترك فيها معتمدا في قصته على خبرته وعلى أقوال من استطاع أن يصل اليهم من شهود العيان . إن في قدرة أى مدرس تاريخ مبتدئ في إحدى الكليات أو الجامعات الحديثة أن يتنبأ بالنتيجة . ليست هذه النتيجة الا مجلدا من المجلدات الضخمة المشحونة بتفاصيل وذكريات وفيها يحاول رجال ممن تقدموا في السن أن يبرروا وجودهم في العالم ويستزلوا اللعنات على وزارة الحربية أمام جمهور غير مكترث . كيف يرجح خير من ذلك من جندى بسيط ورجل عمل غير مثقف لم يتعود فنون البحث ولا جمع الحقائق على قطع من الورق ثم يرتبها مرات متوالية حتى يستنتج منها شيئا ولم يتعود الرجوع الى كتب المراجع في دور الكتب ثم ترتيبها ترتيبا واعضا حسب الحروف الهجائية رجل يجهل تمام الجهل المباحث الثانوية الشاقة التي يبني على أساسها التاريخ العلمى الصحيح بل يجهل اللغات الأجنبية نفسها ولم يقرأ شيئا في علم الاجتماع ، بل لم يتنبه حتى الى وجوده ولا تتعدى معلوماته الجغرافية ما علمه من سياحته وما سمعه من أصدقائه ، وبلغ من وقاحته أن صار يدمج في قصته خطبا مختلفة وبذلك يهدم أى ادعاء للصفة العلمية في رسالته بل يظهرها في شكلها الحقيقى أى أنها مجرد عمل فنى أو خيالى . ومما يشك فيه أن أمين مكتبه عضرى مدرب يعمل حسب التبويات التي وضعها " مؤتمر المكتبات في واشنطن " يسمح لنفسه اذا لفت نظره الى هذا الكتاب القبيح بأن يضعه بين كتب التاريخ ، وربما

قال : ان خير مكان له هو أن يوضع مع الشعر النثرى أو مع التاريخ
الخرافي الذى يليه مباشرة . ومع هذا فانك اذ تصفحت الأبواب
الأولى من كتاب "ثيوسيديدس" تجد أغلب العلوم التى كتبت
فيها الكتب المطولة الحديثة ، ولكك تجد أكثر من ذلك ، تجدها
كلها ممزوجة موحدة .

فدع هؤلاء الذين ينكرون على "ثيوسيدرس" أنه كان عالماً
من علماء الاجتماع ولا يزالون يدعون أن هربرت سبنسر مخترع
تلك الكلمة المروعة هو أيضاً موجد "لعلم الاجتماع" دعهم
يقرءون ثانيا ما كتبه "ثيوسيديدس" عن تطوّر المجتمع اليونانى
"لأنه رآه ووصفه من حيث هو" من أقدم العصور إلى أيامه هو .
دع هؤلاء الذين ينادون بعلم تركيب جسد الانسان ووظائفه
يفحصون معالجته بالأساطير والعادات وقدرته على استعمالها
كبراهين اجتماعية ولو أنه لم يتعلم فى مدرسة أو معهد . ودع
الجغرافيين الذين قد ينسون فى بعض الأحيان أن الانسان ليس
ابن بيئته فحسب ينعمشون عقولهم بما أدلى به من الآراء الجغرافية
التي فسر بها بعض مظاهر المستعمرات اليونانية الأولى وبناء
المدن اليونانية . ليس ذلك تاريخاً صحيحاً فحسب من نوع تاريخ
مدرسة رانك التي كان "ثيوسيديدس" موجدتها والموحى بها — بل
لا توجد حركة واحدة من الحركات الكثيرة التي سعت فى توسيع دراسة
التاريخ فى السنين الأخيرة ابتداء من بكل وليلاي وفندال دى لا بلاس
إلى علماء اليوم والغد الذين يحللون النفس . أقول لا توجد حركة من
هذه الحركات إلا وجد القائمون بها لثيوسيديدس بعض آراء ساطعة
سابقة آراءهم تتمشى مع أفكارهم .

وهنا نذكر ما يمكن أن يعد أكبر ميزة لعلماء السياسة اليونانيين كما أنها أكبر ميزة لما خلفته اليونان في الجملة . فانهم رأوا كل العضلات ولكنهم رأوا كلامها في موضعه بجزء من كل . فهم كما قال ماتيوارنلد "قد نظروا إلى الحياة بامعان ورأوها من كل وجوها" وإن كان هذا التعبير قد بليت جدته من كثرة الاستعمال ولكنه تعبير لا يمكن أن يوجد خير منه . وإذا أردنا أن نعبر عن الفكرة نفسها بعبارة أخرى نقول إن اليونان كانوا بطبيعتهم كاثوليكاً طبيعيين بينما نحن في العصر الحاضر وعلى الأخص في ميدان السياسة مندفعون دائماً إلى البروتستنتية وإني لا أقصد بالكاثوليكية شيئاً نظرياً أو دينياً ولكن مجرد تعود العقل على النظر إلى كلية الشيء قبل جزئياته وإلى مراعاة المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة ، وإلى التلطيف والتوفيق بين الأشياء المتناقضة المتنافرة التي لا بد منها في الحياة وذلك بتذكر المصالح الكبرى العامة على الدوام . فالكاثوليكي هو كما وصفه نيومان وهو نفسه من أعظم أفراد هذه الطائفة رغم نزعة الدينية ، هو من لا يستطيع ذهنه أن يكون محابياً ولا مغالماً دون الحديد ولا غضوباً ولا مرتبكاً ، وهو لا يستطيع إلا أن يكون صبوراً هادئ البال ، ساكناً في وقار وجلال ، لأنه يرى النهاية في كل بداية ، والأصل في كل نهاية ، والقاعدة في كل شاذ ، والحد في كل تأخير .

لأنه دائماً يعرف الحد الذي يقف عنده ويعرف الطريق الذي يسلكه من نقطة إلى أخرى .

أما البروتستنتية فهي موقف الاحتجاج والعصيان والسخط فهي الروح التي لا تشعر إلا بما هو ضدها وقد أخذ الجهل والغضب منها مأخذاً عظيماً فمنعها من أن تنظر نظرة شاملة إلى كل العضلات التي تندمج في احتجاجها ، أو أن تفكر لنفسها في خطة أخرى

وإذا لم يكن اليونانيون قد استطاعوا أن يؤدوا لنا خدمة أخرى وسط ما نحن فيه من تدمير ، فلا أقل من أنهم يستطيعون بما نأخذ عنهم من النظر الى الأمور بطريقة شاملة وبلا وجل — أن يخلصونا من ثورتنا البروتستنتية ، ومن اتهام بعضنا بعضا ، وأن يثبتوا في نفوسنا طريقة التفكير الكاثوليكي المطرد .

واليك بعض أمثلة مأخوذة عن أفلاطون لما نسميه الروح الكاثوليكية ربما كانت أكثر مسائلنا أشكالا وتعقيدا ، علاقة الرجال بالنساء في مجتمع قد منح أو على وشك أن يمنح النساء حق المساواة التامة مع الرجال في حقوقهم وفرصهم قبل أن يحدث ما يقابل ذلك من التطور الداخلى في الأفكار والعواطف . وبعبارة أخرى لا يقبل الرجال المرأة المتعلمة في صفوفهم رغم المهن الكثيرة التي يحترفون بها . هذه مشكلة خطيرة في غاية من التعقيد بحثها أفلاطون منذ نيف وألفى سنة ولكنه بحثها بروح يختلف كل الاختلاف عن روح أغلب النسائيين في الوقت الحالى ، ولسنا نغنى أنه كان أقل رقيا في أفكاره ومباحثه فانه كان مستعدا لأن يواجه كل معضلة تستحق البحث ويبدى في سياسته آراء أبعد مما يعد لائقا لأن يطبع في مجلة انجائزية أو أمريكية ، ولكن روحه كانت دائما مشبعة بالرزانة ، ومنظمة وعلمية بخير ما يفهم من هذه اللفظة فكان يصل باستنتاجاته الى غايتها القصوى دون أن يظهر عليه أى أثر للتأنق أو التواضع المصطنع ، فأين تجد في مجاداتنا العصرية عن استخدام النساء وعن مساواة أجورهم اذا تساوت أعمالهم الى غير ذلك من الموضوعات . نقول أين نجد الفكرة الأساسية المذكورة بغاية البساطة والوضوح كما هي مذكورة في الجملة الآتية :

إذا وجدنا أن أحد الجنسين الرجال والنساء تفوق على الآخر في فن أو عمل ما ، قلنا ان هذه المهنة يجب أن تحفظ لمن تفوق فيها دون سواه ولكن إذا كان الاختلاف مقصورا على أن المرأة تحمل وأن الرجل يلقح فلسنا نتخذ ذلك دليلا على أن المرأة تختلف عن الرجل فيما يختص بالمسألة التي نحن بصدددها ولا نزال نعتقد أن أوصياءنا ونساءهم يجب أن يحترفوا حرفة واحدة .

ولو كانت كل مناقشاتنا في الوقت الحاضر بنفس هذا الوضوح والصرامة لكنا الآن قد تقدمنا تقدما عظيما في هذا الموضوع وإن كمال العقل اليوناني وصفاء تفكيره ووضوح تعبيره لم يعقه ارث عائق مفسد كذلك الأرث الذي إذا وصفناه بأنه بيوريتاني فقد أسأنا الى هذا الحركة العظيمة أيما اساءة .

واليك مثلا آخر وهو أثر المهنة في الأخلاق وهذا له مساس عظيم بأصل كثير من معضلاتنا الاجتماعية لأننا إذا لم ندرس تأثير الأعمال المختلفة على أجسامنا وعقولنا ولم نتقن طرق اختيار الحرف نكون قد تركنا مجالا واسعا للشقاء والتعاسة . ولكن الباحث العصري يجد تلميحا مفيدا الى هذه الفكرة في كتاب الجمهورية وإذا وجد الباحث أن علاج أفلاطون لهذه الحالة كما هو في مسألة العلاقة بين الرجال والنساء علاج شديد مستأصل ، ومال الى عدم موافقة أفلاطون على تحريم التمثيل (الألعاب البهلوانية) فليفكر هذا الباحث في الحد الذي وصل اليه تنعم المستملك على حساب المنتج في الأزمة الحديثة ، وإذا ما حضر حفلة موسيقية ليرتاح بعد مجهود يومه أو عند ما يخاطب انسانا بواسطة المسرة ، أو عند ما يتابع تذكرة سفر من إحدى المحطات فليسأل نفسه كم مرة فكر في هذه الحياة التي قد تأمر مع غيره على القضاء

على من يقومون بحاجاته ورغباته . كان أفلاطون يؤمن بفضل الجمال إيماناً راسخاً لا كإيمان عشاق الجمال الحديثين ، ولقد عرف وأدرك ما للتوافق والانسجام واللفظ والحرية من الأهمية العظمى في الحياة الخارجية وفي الروح نفسها ، ولو وجد نفسه قد زج في وسط إحدى مراكز المدينة الحالية لكان لديه بعض الأسئلة يسألها بقصد البحث والتنقيب ، ومما قاله في ذلك أن انعدام اللطف والرقّة والتوافق والانسجام كل هذه تقترب بالألفاظ الرديئة والطبع الخبيث . ونحن لا نرغب في أن نربى أولياء أمورنا وسط الرذائل فيكونوا كمن تربى في مرعى خبيث ، فيزداد تأثرهم بما حولهم شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم حتى تتجمع في نفوسهم في آخر الأمر أنواع الخبائث وهم لا يعلمون “ . فهل يمكن تشخيص أشد أمراضنا انتشاراً تشخيصاً أحسن من ذلك ، ألا يتضاءل شأن أطباء أمراضنا الاجتماعية والرأسمالية وعلاجهم المادى المحض أمام تلك العبارة البسيطة المقنعة ؟

قد تكلمنا عن بعض المسائل الخاصة التي يمكن أن يساعدنا فيها ”ثيوسيديدس“ وأفلاطون وستكلم الآن باختصار عن ثالث الثلاثة الأعظم . ان أرسطو هو بالطبع أكثر الثلاثة تفكيراً منظماً ومن أجل هذا السبب عينه نجد فيه العاملين اللذين لاحظناهما في الأفكار السياسية اليونانية ، وهما العامل الوقتي المحلي ثم العامل العام ، قد امتزجا امتزاجاً يجعل انفصالهما من الصعوبة بمكان .

ومع أنه كان أستاذ الاسكندر المقدوني فان عقلاه كان لا يستطيع تخطي حدود المدينة المستقلة . لذلك كان كتابه في الأخلاق عبارة عن رسالة عن الطبع البشرى من جهة وكان من جهة أخرى كتاباً في الأخلاق يقرب من نوع كتاب «نيوفراستس» عن سلوك

الفرد اليونانى . فلا غرابة فى أن أجيالا متتابعة من الطلبة فى الجامعات الانجليزية قد أخفقت فى إدراك معنى الكمال البشرى أو السحر الاجتماعى فى بطله أو النموذج المثالى الذى وصفه بأنه الرجل ذو الروح العالية أو الرجل العظيم . كذلك يحتاج قارئ كتاب السياسة الى خبرة والى معرفة سابقة بالحياة اليونانية حتى يميز بين المسائل العامة والخاصة ثم يستنتج استنتاجاته الحديثة . واذا قرأت بهذا الروح الكتاب الأول من السياسة وميزت ما يقال عن الدولة عن كل ما هو خاص بالمدينة فقط وقدرت ما فى القواعد العامة البولوجية والبسيكولوجية والاجتماعية من المخاطرة كقوله (الانسان حيوان سياسى أكثر من النحل وغيره من الحيوان الذى يعيش جماعات) ، (من كان بطبيعته ليس لنفسه بل لغيره وليس بانسان فهو بطبيعته رقيق) ، (الدولة بطبيعتها قبل الأسرة والفرد لأن الكل بالضرورة مقدم على الجزء) تلك المخاطرة التى أساسها كما يظهر من الأمثلة المذكورة أن العلوم إذ ذاك كانت فى دور تكوينها — لو فعلت ذلك كله لبقى عندك شئ كثير من الحكمة العلمية الكثيرة الفائدة فى الحاضر والمستقبل .

دعنا ننظر لحظة الى عنصر واحد من عناصر هذه التركة لأنه أصبح منذ عهد قليل موضع جدل عظيم ، ذلك هو رأى أرسطو فى الدولة وعلاقتها بغيرها من الطوائف الاجتماعية والسياسية . لقد بينا أن الآراء السياسية اليونانية يعاب عليها أنها لا تهتم بالفرد الاهتمام الكافى ، أما أرسطو فأقل تعرضا لهذا العيب من زميله العظيمين لأنه يسمح لبعض الأفراد الممتازين أن تكون لهم حياة داخلية أو « نظرية » كما يسميها ، بعيدة عن مشاغل المدينة المستقلة ، وتكاد هذه تذكرنا بآراء أديرة القرون الوسطى

لولا ما فيها من العقلية الراجحة . وهذه الحياة وإن كانت خاصة بعدد قليل فإن في ذكرها اعترافا بأن وراء الشخص المتحضر يوجد الانسان الذى يمكن فى بعض الأحيان أن تكون له حقوق ، وإن علم السياسة كما يقول أرسطو لا يكون الرجال كما ظن ثيوسيديدس أن أثينا هى التى كونت الأثينيين ، بل يتسلمهم من الطبيعة ويستخدمهم .

وقد وضع بجلاء حق سيطرة الدولة على الطبيعة البشرية وخضوع الانسان لكل أو جزء من طبيعته ، هذا الحق هو أن الانسان اذا كل (أى أشرفت عليه الحكومة وعلمته) كان أفضل حيوان ، ولكنه اذا انفصل عن القانون والعدالة فهو أخطأ ، أو بعبارة أخرى كتبها فى مكان آخر ، إن الانسان الذى ليس له نصيب فى حياة الدولة أو المدينة ، إما أن يكون وحشا أو إلها ، والفرض الأول أكثر احتمالا (كما يفهم من ترتيب الألفاظ) . وبعبارة أخرى (إن القانون والعدالة هما أساس السياسة وسبب تهيئتها) وليس ذلك الأساس هو كما يعتقد ثيوسيديدس سمو الروح الى أعلى سلطتها ، وليس كما يبشر أفلاطون وجود اشتراك عضوى بين الحياة الداخلية للنفس ونظام المجتمع الخارجى . يقول (أرسطو) إن العدالة (مستعملا هذه الكلمة بمعناها الضيق لا بالمعنى الأفلاطونى أو النظرى) هى الرابطة التى تربط الناس بعضهم ببعض فى الدول وأن ادارة القضاء وتقرير ما العدل هو أساس النظام فى المجتمع السياسى .

الآن وقد وضع هذا المبدأ وعرفنا أن أرسطو قد اعترف اعترافا جزئيا أو ضمنيا على الأقل بحق الفرد قد أصبح من السهل أن نفهم موقف أرسطو المتطرف تجاه مطالب الجماعات الخارجة عن

الحكومة ، وهذه نقطة دار حولها أخيرا جدل شديد . وقد بدأ كتابه في السياسة بقوله كل حكومة هي جمعية من نوع ما ، وقد أسست كل جمعية لغرض المنفعة من أى نوع كانت ... ولكن لما كانت كل الجمعيات ترمى الى فائدة ما فالحكومة أى الجمعية السياسية التى هى أرقاها جميعا والتى تشمل سائر الجمعيات ترمى بدرجة أعظم من غيرها الى أكبر فائدة وبعبارة أخرى اذا حدث تعارض بين الولاء للدولة أى الجمعية السياسية والولاء لأية جمعية أخرى سواء أكانت الكنيسة أم النقابة أم رابطة المهنة أم جمعية انسانية وجب أن تقدم مطالب الدولة .

وكثيرا ما انتقد هذا المبدأ انتقادا شديدا لأنه يمنح الدولة سلطة مطلقة لا يمكن الدفاع عنها ، وينكر على الجمعيات الصغرى شخصيتها ، وينفى حق الولاء لما هو أصغر من الدولة . وقد ذكر المستر بفخس في هذا الموضوع فى عدة رسائل جيدة وان كانت غير مقنعة نظريات اليسوعيين وغيرهم من الأقليات المعادية للحكومة الساخطة عليها ، وقد دعمها بنظريات المعتزلين عن الكنيسة الملكية ونظريات نقابات العمال أو اتجاه ميول عصرنا هذا ، وقد تشجع عدد كبير من الشبان الأذكياء دعاة «التقدم» فاتبعوه غير أن الهجوم على سيادة الدولة قد وقف أمام ضغط الحقائق وقوتها ، ومن الغريب أن فى عصر التعصب المذهبي ، وعصر النظريات الثائرة قد أظهر النزاع هذه الحقيقة ، وهى أن معظم الجنس البشرى الآن كما كان فى أيام اليونان القديمة يلبي نداء الوطنية عند الحاجة وأنه متى جاءت الحرب ونودى الناس كلهم فرادى وجماعات الى ميدان القتال لا يحتفى الناس بحماية هذه الجماعة أو تلك ، بل بأنظمة الدول التى تمثلهم خير تمثيل والتى هى

أكبر الأنظمة ، وأن الأحزاب والجمعيات السرية التي تضرم نار الحماسة وتوجد النشاط في أوقات الفراغ ، لا يمكنها أن تحافظ على دعوتها متى كان يكان المجتمع كله في خط ، وإذا استثنينا الذين رفضوا نداء الحكومة ارضاء لضائرتهم حقيقة وتلك البقية المحتقرة التي أدعت مثل هذا الاعتقاد ، فإن عدد الانجليز الذين قدموا ولاءهم لجمعية سياسية أو اجتماعية على ولائهم للدولة قليل جدا ، فلم يتأثر الولاء الأساسى ولا ما يمليه الشعور العام الفطرى غير المحلل بالنظريات والحجج المنمقة الخلابه في هذا البلد .

ولكن الآراء التي نسميها آراء نظرية غير محللة يمكن تحليلها ويجب أن تحلل . وهناك سبب عملى هام قد عرفه « أرسطو » يجعل الناس يفضلون الدولة على الجمعيات التي هي أصغر منها ، وذلك بأن الدولة تترك لهم من الحرية أكثر مما يتركه سواها . فهؤلاء الذين يذكرون استبداد الدولة يتجاهلون تلك الحقيقة البسيطة ، وهي أنه لا يوجد استبداد كاستبداد الحيران الأقربين فكما صغرت الجماعة اشتدت وطأة يدها الخانقة على حياة الانسان ونشاطه . نعم إن من المرغوب فيه بل ومن الضرورى جدا وجود الجماعات الصغيرة والاخلاص لها في مجتمعنا العظيم في الوقت الحاضر ، ولكن هذه الجمعيات توقع الناس وبخاصة ضعيفى الارادة ناقصى التفكير منهم في أخطار أكثر مما يعرضهم لها ولاؤهم الأكبر للدولة . إن ولاء الرجل لمهته أو عمله أو غيرهما قد يبلغ من الشدة مبلغ موقف الاعتراف بالنسبة للرأة في أسوأ حالاته . ففى العالم الحديث كثيرون ممن باعوا إخلاصهم لأنفسهم ليحافظوا على وحدة حزبهم أو تقاليد نظمهم أو مصالح حركتهم أو بقاء تجارتهم ، ولو أمكن كشف أسرار القلوب كلها لوجد كثير من

كبار رجال الكنيسة وزعماء الأحزاب ونقابات العمال واتحادات أصحاب المصانع وهم يفكرون بل ويقولون في السر ما يحرم عليهم اخلاصهم لجماعاتهم قوله علانية لأخوانهم . نعم قد ترتكب الدولة في ميدانها الواسع بمض الخطأ الفظيع ، بل بعض الجنايات ، ولكنها على الأقل في هذه الأيام ذات الحكومات الكبيرة لا تعرض أبناءها الى ما يحدث كل يوم من الكذب والنفاق والى ما يعوق تقدمهم بسبب الاعتبار الشخصية التافهة الدنيئة ، والأباطيل التي يظهر أنها تلازم حياة الجماعات الصغيرة من رجال ونساء . ولو نظرنا الى الدولة من هذه الوجهة لما ألفيناها الحارسة على العدالة فحسب بل على الحرية أيضا ، حرية النفس والروح التي لا تتفق مع عقلية رجال النقابات والمهن ، بل تناقضها تناقضا بينا لا ينقص منه عدم الجهر به .

واذا لم يكن كل هذا قد اتضح لأرسطو عند ما كتب الفقرة الأولى الخالدة من كتاب السياسة فيجدر بنا على الأقل أن نسجل له فضل وضع مبدأ سيادة الدولة على أساس متين لم ترعزعه مناقشات نيف وعشرين قرنا ابتداء من الرواقيين والفلاسفة الكليبيين ثم أوغسطس ودانتى الى روسو ولنين فالدولة ذات الأراضي لم تزل حافظة مكانها في كل العالم المتمدين رغم الكنيسة والسوفيت والحكام والنسك والفوضويين ، وليست عصبة الأمم وهي أحدث نظام مثالى وإن كان قد أسىء تسميتها الا اتحاد دول أكبر حجما في المتوسط ولكنها من حيث النوع والتركيب تشبه تلك التي وصفها فلاسفة اليونان بأنها هي الغرض الحقيقي من دراسة السياسة ، وأنها أكبر وسيلة دائمة تضمن للانسان المتمدين حياة طيبة .

ما هي أهم الآراء التي يتركها لنا اتصالنا بمفكرى اليونان السياسيين وأبقاها ؟ هي في الحقيقة نوعان الأول يتعلق بمادة السياسة والثاني برجال اليوم ونسائه الذين يسمون « الوطنيين » . وإنا نشعر أن الاشتغال بالشؤون العامة ليس متعبة شاغلة وليس عملا دينيا ، بل هي مصالح الشعب الدائمة ، وإذا لم تكن تلك الأعمال أتفه وأحق من أن يتناولها كبار رجال الفن مثل ثيوسيديدس وأفلاطون فلا خوف من أن تكون تافهة أو محقرة بالنسبة لنا ، وإذا هي لم تكن غر جديرة بدراستنا فيجب ألا نهملها لأنها محاطة بسحب من البلاغة أو في أثواب من العواطف . يجب أن نأخذ عن الأغريق أن مصالح الانسان العامة هي أمور يحذر أن نفكر فيها ونشعر بها . ولا يمتاز من نسميه بالسياسى الكفاء ، والوطنى ذى الروح العامة ، عن زميله الذى هو أقل منه سياسة بشدة شعوره . ذلك لأنه يوجد بين رجال السياسة المستخرين من هم أبناء مخلصون وأزواج محبوبون كما يوجد أولئك بين صفوة رجالها ، ولكن الذى يميزهم هو أنهم بحسن استعمالهم قوة ذكائهم ومخيلتهم المرتبطتين ، أمكنهم أن يرفعوا شعورهم الى مستوى أرقى ، ويواجهوا نتائج عظيمة الخطر ، بذهن مشحوذ لا لبحث المسائل المنزلية والعائلية ، بل لبحث مصالح الانسانية التى هي أرقى وأصعب . إن علماء علم النفس يعلموننا كيف نرفع من شأن مشاعرنا فى حياتنا الفردية ، اذا لم تسمح لها الحياة بخرج يتفق مع مستوى رغباتنا ، وذلك بأن نسمو بها الى مستوى أرفع وأرقى شعورا وعملا فكما أنه يمكننا أن نرفع من شأن حبنا للأفراد ، كذلك يمكننا أن نرفع من شأن حبنا للوطن دون أن نطفئ جذوة وطنيتنا أو ننكرها ، وإنما يكون ذلك بتقسيمها ، وتقسيتها عن قصد وارادة .

ويجب أن نتعلم كيف نحافظ من أجل دمنا ووطننا على ذلك الجزء الثمين مما وهبناه من القدرة على الخدمة ، وذلك الجزء الذى لا يمكن منحه مباشرة للانسانية لأنه خاص بالأسرة ، ولكن يجب أن نتلقى أيضا ذلك الدرس الأكثر صعوبة وهو أن ننقل الى المسرح الدولى — حيث يقوم الرجال لمجرد كونهم رجالا بالواجبات المشتركة ويبحثون عن أوسع ميدان للتعاون المشترك — كل المصالح وأنواع الرلاء التى تحف بذلك المسرح بحق وبلا خوف من ضرر. هذا ما يدعو اليه قيصر اليوم سواء أبقيت عواصمه منفصلة كما هو الحال الآن فى لندن وباريس وواشنطن وغيرها من عواصم الدول ذات السيادة أو استطاع بنو الانسان أن يسمو شأنهم فيندمجوا فى دولة واحدة وإن لم يكن فى أيامنا هذه إننا اذا أهملنا هذه الدعوة عرضنا أنفسنا لخطر عظيم لأننا اذا لم نعط ما لقيصر لقيصر واذا لم نطرح جانبا تلك القوميات المفرقة العديدة التبصر فان عواطفنا الشريفة ان نجدنا نفعا اذا ما دارت رحى الحرب الأهلية بين الملائكة الأخيار بين وطنية ووطنية وعاد الى المال والشیطان سلطانهما القوى — ففى هذه الأيام ذات النظم واسعة النطاق والنقابات الهائلة يحتاج الى (قيصر) (أى حكومة) أم متعددة لتوقف شركات الاحتكار الكبيرة عند حدها ، ولو كانت أرض واشنطن ولنكن قد قسمت الى حكومات مستقلة بدل اجتماعها وتأليفها ولايات متحدة لتغلب المصالح الشخصية وهزمت كل حكومة على حدة شر هزيمة ، ولاختفت الحرية من تلك البلاد ، اللهم إلا إذا تدخلت الملائكة الخيرون وفازت فى حرب قامت بين شيطان وشيطان ، أو بعبارة أخرى بين شركات المصارف والطرق الحديدية وبين شركات الزيوت والأخشاب . وهذا

يصدق أيضا على الحكومات الصغيرة في القارات الأخرى في هذا العصر . وما الوطنية المحلية أمام القوى التجارية الهائلة الا كطفل أمام مارء عظيم ، وسيزداد اندفاع الناس إن لم يكن ذلك بتفكيرهم فباستقلالهم وآلامهم — الى تعلم الدرس الذى ما زال يفهم خطأ بأنه حب الاستعمار حتى يجدوا أنفسهم صارخين مع رسول الخوارج غير اليهود الذى حارب ضد القومية قائلا « أنا نلجأ الى قيصر » .

غير أن لدى اليونانيين رسالة لاتهمنا من حيث مادة سياستنا فحسب بل تهمنا أيضا من حيث شخصياتنا . ماذا نستطيع أن نعمل لتقدم الانسانية فى مسائلها العامة . لقد انتهى عصر الأحلام الخيالية وعرفنا الآن أن العاوم العصرية قد جعلت العالم كله مكانا واحدا وأن خلاص المجتمع لا يتحقق ، كما تصور الاشتراكيون السابقون ، بالمهاجرة من الجهات المأهولة بالانسان وتأسيس مدينة كنموذج فى الخلاء .

لذلك يجب أن تقوم بقسط من المساعدة ويكون ذلك الآن وهنا فى هذه الدنيا المظلمة حيث قادتنا الأقدار ، فاذا كنا لانستطيع أن نأمل فى جعلها كما نشتهى فدعنا على الأقل نجعلها تشبه ما نشتهى بقدر الامكان ، هذا ما يوحى اليناه أفلاطون حتى فى أكثر كتبه خيالا وأكثرها نزعة الى المثل الأعلى ، لذلك يجدر بنا أن نورد هنا الفقرة الشهيرة التالية بالتفصيل « اذا هل تنقص قيمة حججنا فى نظرك لأننا لانستطيع أن نبرهن على أنه من الممكن تأسيس دولة من النوع الذى وصفناه ؟ » فقال : « بالتأكيد لا » .

« اذا لا تجبرنى على أن أبين لك أن كل ما قررناه فى بحثنا يمكن تطبيقه عمليا من جميع الوجوه . فاذا أمكننا أن نعرف كيف يمكن تنظيم دولة قريبة الشبه مما وصفنا فيجب أن نعرف بأننا اهتدينا الى تحقيق أوامرنا . ألا تكتفى بذلك ؟ أما أنا فلو كنت فى مكانك لا كنت » فقال : « نعم سأكتفى » .

«إذا فالظاهر أن الواجب هو أن تحاول أن تعرف . . . ما هو أقل تغيير يمكن به أن تصل الدولة الى هذا النوع من التكوين» .
فقال : « بالتأكيد » .

فقلت : « حسن ، فهناك تغيير واحد في اعتقادي يمكننا أن نبرهن على أنه ينتج هذا الانقلاب وهو بالتأكيد ليس بالتغيير الضئيل ولا بالسهل ولكنه ممكن » .
فقال : « وما هو »

فقلت : «الآن أراني في نفس الموضوع الذي شبنناه بأكبر الأمواج ، ومع ذلك فلا بد من أن أنطق به وإن أغرقني ذلك في طوفان من الضحك والاستهزاء . . . تدبر اذا فيما سأقول » فقال : « قل » .
فقلت : اذا لم يقبض عشاق الحكمة على زمام السلطة العلي في الدول أو يصبح من يقال لهم الآن ملوكا وحكاما عشاقا للحكمة قادرين مخلصين فيجتمع حب الحكمة والحكومة معا ، واذا لم تمنع بالقوة تلك الطبائع التي تطلب الآن إما الحكمة وإما الحكومة — الواحدة دون الأخرى — عن عملها هذا ، فان تنجو من المفسدات والشرور الحكومات ولا الانسانية عامة على ما أظن يا عزيزي جلوكن بل ولن يتحقق هذا الدستور الذي وصفناه في بحثنا والذي يمكن تحقيقه أو يرى ضوء النهار ، وان هذا هو الذي جعلني أتردد في النطق به مدة طويلة .

اذا رأيت كيف يظهر هذا الكلام متناقضا ، ذلك بأنه لا يدرك الا قليل من الناس أنه لا يوجد دستور آخر يمكنه أن يحقق السعادة للدول والأفراد » .

هذا قول فيلسوف الزمن الغابر . وقد فسرت كلماته في بعض الأحيان كأنه يدعو فيلسوفا عبقريا لينتزع ادارة الحكومة من قبضتنا الضعيفة جدا . ولكن ليس ذلك ما يدعوننا اليه فقد ذهب العصر الذى يمكن أن يتولى فيه أمبراطور فيلسوف ولن يعود أبدا . وفى نظرنا أن أقول إن أفلاطون إنما يدعوننا بها لأن يكون كل منا فى دائرته الخاصة محبا للحكمة بقدر ما تسمح به قدرته ، فاذا أردنا أن نصلح العالم المحيط بنا — وهو فى أشد الحاجة الى الاصلاح — فأول واجب علينا هو أن نجتنب الضلال ونتبع الحق فى حياتنا وأفكارنا وأعمالنا ، فالتطور والانقلاب لا ينقل من الخارج الى نفوسنا بل بالعكس ينتقل من نفوسنا الى الخارج ، وفى الغالب عندما يكون العالم الخارجى فى أشد المرض والحزن وعندما يكون حب النفس وعدم تقدير المسؤولية متسلطين على حكومات العالم ، عند ذلك تكون قوة الحق أكثر نشاطا فى زوايا النفس الساكنة تقويها حتى تخرج مرة أخرى وتظهر رغبة الانسان التى لا تقهر فى النظام والعدالة والحرية وأثرها فى مشا كل الانسان العامة المعقدة. فى هذا العالم الصغير .

مصباح الفن اليونانى

مما يدخل على نفوسنا السرور وسط ما يكتنفنا فى هذه الحياة من سفاسف ومنازعات أن نرجع قليلا الى ما يجرى على لسان ماتيوارنولد من الحكم العذبة ، وهاءنذا أبدأ بكلمة اقتبسها من كتابه الأدب والعقيدة ” مثل الرجل الذى يميل الى فن النحت ثم يتغنى لهذا الميل غذاء فى غير مخلفات الفن الاغريقى والذى يميل الى الشعر من غير أن يستعين فى تنمية هذا الميل بهومر ، وشيكسبير كمثل من يلتمس التهذيب والخلق القويم فى غير تعاليم الكتاب المقدس“.

ففى نظر أرنولد تتألف من الكتاب المقدس ومن هومر وشيكسبير ومن الفن اليونانى مجموعة تلك المخلفات القديمة العظيمة الخالدة التى ستظل أبدا باعنا قويا ومثالا حيا لأجل الأعمال الانسانية . ولقد انصرف الناس من غير شك فى بحر الخمسين سنة التى جاءت بعد أن كتب أرنولد تلك الكلمة المشهورة عن طريقته الأولى فى التشبث بتلك المخلفات القديمة انصرافا بينا حتى أن الرجوع الى شىء منها يعتبر اليوم رجوعا الى روح الأرستقراطية . لقد أصبحنا نعتقد أننا أفضل من السلف وأنه يجب علينا أن نخرج من ولايتهم . واهل ذلك يرجع لحد ما الى ما أحدثته الحرب العظمى من قلق واضطراب أعصاب . ولكن هذه الحالة لم تنجم عن توتر الأعصاب وحده وانما هى نزعة خاصة نزع اليها المجتمع ينبغى أن يدرس مميزات كل من يحس أنه اهل لأن يضرب بسهم فى الحركة العالمية اذ لا يصح لنا أن نغفل أمر من يحيدون عن الطريقة المألوفة والا كنا نحن عرضة لأن نهمل ونغفل .

ولقد عهد الى أن أعالج الأسباب التي من أجلها لا يزال الفن الأغريق جديرا بعنايتنا . فأما نحن رجال الانجليز فان تقديرنا للفن لم يبلغ يوما ما تقديرنا للشعر والفلسفة ، وما هو ببالغه . غير أنه يمكن اقامة الدليل فيما أرى على أن للأغريق علينا من الفضل في الفن أكثر مما لهم علينا في ميدان الشعر والفلسفة . والواقع أن لنا في الشعر والفلسفة نبوغا قوميا وقد أنتجنا فيهما آثارا عرف قدرها في أوروبا جميعها . أما في الفن فقد كانت جهودنا وسطا . ولعل روح الفن أضعف في بلادنا الآن منها في أى بلد متمدن آخر غير أمريكا .

وهاءنا أبدا حديثي بقضية جريئة أرجو أن أوفق الى التدليل عليها بما سوف أعرض من البيان . فانى أرى أنه لولا قدماء الأغريق ولولا ما للفن الأغريق من التأثير المتواصل لما ارتفع الفن كثيرا في أوروبا عن مستوى الفن الهندي على ما فيه من سخافة وانحطاط وبلحنح الفن في أوروبا الى الغلو والفوضى .

ففى القرن السابق على حروب الفرس التي وقعت بين (سنتي ٤٨٠ و ٥٠٠ قبل الميلاد) كانت بلاد الأغريق بقسميها الأيونى والدورى كشجرة أنبتت أغصانا ناضرة انبعثت فى نواحيها المختلفة محترقة لحاء الأوضاع القديمة فأنتجت مقياسا جديدا للتمييز فى الشعر والفلسفة والتاريخ والفن فكانت تراها تصول ذات اليمين وذات الشمال فى كل ميدان من أخلاقيات وعقليات وخيال . فما حل القرن التالى لتلك الحروب حتى كان هذا الغرس الطيب قد جاء بأطيب الثمرات وأخرجت لنا اليونان تلك الآيات التي بقيت حتى اليوم مرجعا لكل الأجيال تقرأ فيه مدى ما تصل اليه طبيعة الانسان .

ويزعم كثيرون أن المنتجات الفنية انحط نوعها بفاة بعد عام (٤٠٠ قبل الميلاد) ولكنه زعم فاسد فان القرون التالية أخرجت فى الفن أمثلة لا تكاد تسبق . إذ من ذا الذى ينكر أن فاسفة أرسطو وشعر تيوكريت وتمثالى أفروديتى (ميلوس) والنصر لسا موثرىش لا تزال فى سماء الفن نجوما يهتدى بها الناس فى كل حين ولكن أعمال الكهولة قل أن تجد بها ذلك السحر الذى تمتاز به أعمال الشباب المفعمة بشرا وأملا .

صنف رسكن كتابا عن مصابيح فن البناء السبعة وهو كتاب على ما فيه من غلو فى مواضع يفيض إيجاء والهاما .

ومن الغريب أن تروج بين الناس آراء رسكن فى الاقتصاد التى يغلب عليها الكرم وإن كانت لا ترجع الى مقياس يستند على أساس من الحقائق بلنا لا يعنون هذه العناية بآرائه فى الفن حيث يتجلى نبوغه . ومهما يكن من الأمر فانى بحكم تأثرى بتلك المصنفات سأحاول أن أسمع قرائى صدى ضعيفا لواحد منها بأن أتابع الحديث عن مصابيح الفن اليونانى التى ترسل علينا نورها فتهدينا به السبيل .

انى أجد أن للفن اليونانى ثمانى ميزات :

- (١) الانسانية ؛
- (٢) البساطة ؛
- (٣) التوازن ؛
- (٤) محاكاة الطبيعة ؛
- (٥) الطموح الى الكمال ؛
- (٦) الثانى ؛
- (٧) البشر ؛
- (٨) الزمالة .

ولما كان المجال الذى سمح لى به ضيقا محدودا فلن أستطيع أن أبحث بحثا مستفيضا يتناول جميع نواحي الفن اليونانى وما يتعلق به وأجدنى على ذلك ملزما بأن أقيد بحثى فأقصره على فن النحت اذ هو أوضح أبواب الفن وهو الفرع الوحيد الذى تعيننا كثرة مخلفاته على تكوين رأى صحيح وأرانى ملزما بعد ذلك أن أكتفى من فن النحت بما يمثل الصورة الانسانية . فان اليونان المتأخرين قد أخرجوا من تماثيل بعض الحيوان كالخيل مثلا نماذج عجيبة ولكن قد نافسهم فى تصوير الحيوان أمم غيرهم . أما فى تصوير الناس من رجال ونساء فهم المتفردون الأفذاذ .

الفصل الأول

الانسانية

انكشفت لبصيرة الانسان ثلاثة أمور خطيرة منذ بدأ ينظر فيما حوله ويفكر فيه : فكان أولها الاهتداء الى الله ، وقد قام بأوفى نصيب من هذا أبناء بني اسرائيل وان كانت اليونان ولا شك قد أمدت هذا الكشف بشيء غير قليل من الوجهة العقلية ثم جاءت المسيحية مهذبة لكلتا الديانتين ديانة يهوذا وديانة اليونان .

أما ثانيها فكان معرفة الانسان نفسه وهذا في أساسه العمل بالليل الذي قام به مفكرو اليونان وكتابهم .

أما الثالث فكان الوقوف على أسرار الطبيعة وكشف قوانينها وقد بدأ في اليونان قديما ثم تقدم في العصر الحاضر تقدما عظيما . وأرى أننا لو فكرنا قليلا لوجدنا أن الأخير أقل الثلاثة خطرا فانه وان كان قد غير كثيرا في عادات الانسان وما يحيط به وخطا به في سبيل التقدم خطا واسعة لم يغير شيئا يذكر من طبيعته ولم يزد كثيرا في سعادته .

نحن نعرف كيف قضت لذات التفكير والفن والشعر والموسيقى على الوحشية وأتت للناس بمعنى جديد من التلذذ بالحياة .

ولكن آثار التقدم العلمي لم تبلغ بعد بالانسان ما كنا نرجو له منها فانه ما من استكشاف خطير في العلوم الطبيعية الا سخر أولا فيما يقضى على الانسان ويفنيه لا فيما ينفعه ويفنيه . فهذه الجوارى في المحيط تتقفاها الغواصات وتلك الطيارات تسخر في القاء القنابل

على المدائن اننى لا تملك عن نفسها دفاعا . وأن من المستحدثات الكيميائية الغازات السامة . ونحن نرجو أن تكون هذه سخابة عارضة عن قريب تقشع ثم يعقبها الصفو والنور .

ولكنى أجزأ على القول بأننا لن نهتدى الى طريق التقدم الحقيقى الا اذا احتفظنا بوجهات النظر عند اليهود واليونان ، فيجب أن لا ننسى ما بين العلم وبين الدين والأخلاق من صلة وأن لا نكتفى باتخاذ العلم وسيلة لاستغلال العالم المادى . فانا بدلا من أن نأخذ بنظام قوى الطبيعة ونسيرها نحو غاية انسانية نحو السعادة ، ألقينا حباها على غاربها وتركناها تقع فى يد من يملك زمامها بالحيلة أو بالغلبة ليدفع بها الى حيث يشاء فى طريق الخير أو طريق الشر وبذلك جردنا العالم من انسانيته وجعلناه يظأ الحياة الانسانية بحافر خشن .

فاستكشاف الانسان ومواهبه من أكبر ما قدمته اليونان للعالم لقد كان قبل الإلياذة قصص شعرية ولكنها لم تكن تفيض روعة ولا أسى ولم تكن تجرى عبرة أو تشق ابتسامة كما تفعل الإلياذة وكان قبل سقراط فلاسفة ولكنهم كانوا دائبين فى البحث عن مادة هذا الكون فقام سقراط واتخذ شعاره حكمة (رلفى) "أن أعرف نفسك" فأصبح رائد الباحثين فى كنه الواجب والسعادة .

وكذلك كان فى العالم فن كثير قبل نهضة اليونان فكان فى مصر وفيما بين النهرين وفى جزيرة كريد ولكنه كان فنا بعيدا عن الانسانية فكان همه تصوير عبادة الآلهة وتصوير الحروب والحصارات والحياة الريفية أما الصور الانسانية فلم تكن تأتى فى هذه المناظر الا رموزا متواضعا عليها وليس فيها ما يثير الشعور

الرقيق للانسان وما يبعث فيه حب الجمال ولا ما يعليه فوق المستوى العادى للحياة اليومية ولقد كان اليونان يعرفون آثار الفن الاولى ، ولكنهم أبوا أن يستهويهم ما استهوى الفينيقيين والأتراسكانيين الذين اقتصروا على تقليدها ومحاكاتها . ذلك أن الاغريق قامت فى نفوسهم عقيدة هى فى طبيعتها اقرب الى الوجدان منها الى العقل وهى استحداث فن انسانى جديد . وأنهم أوتوا من الكفاية ما يجعلهم أهلا للقيام بهذا الواجب . فبدءوا عملا ارتقى بسرعة مذهشة وليس ما يقف به عند حد الا أن تعود الوحشية فتكتسح هذا العالم المضنى وهو ما يبدو غير مستحيل فى هذه الأيام . "الانسان مقياس الأشياء جميعها" ذلك هو المذهب الذى يعزى لپروتاغوراس الأبدى الذى أثار سخط الناس فى أثينا وحمل عليه أفلاطون بطريقته الانشائية . وأنه لمذهب قابل أن يساء استعماله بل أن يتخذ هزؤ . على أن نسبته الى تعاليم سقراط ليست أقل من نسبته الى پروتاغوراس ولقد ظل متماسكا محتفظا بكيانه من عهده حتى عهد النفعيين والبرغماتيين . وأنتك لتجده فى أساس نظر اليونان الى هذه الحياة حيث يقف الانسان فى الجبهة بارزا واضحا بمشاعره ومواهبه وجهوده بينما يقع كل ما عداه من خلفه فى غير جلاء . فكان من الطبيعى ما دام مفكرو اليونان يفسرون كل الحوادث بنسبتها الى قوى الانسان ومواهبه أن يتخذ فنانون اليونان من جسم الانسان أداة للافصاح عما كانوا يحسون به من معانى الطبيعة . ولهذا ترى أنه بينما كان توحيد المتأخرين من بنى اسرائيل يحرم عليهم تمثيل أى كائن حى فى فنونهم لا سيما الانسان كان فنانون اليونان قد وقفوا أنفسهم على هذا التمثيل . وكان الأثر العظيم لتغلب روح الانسانية على الفن اليونانى تصوير الآلهة فى صورة

الانسان ولا يزال سائدا بيننا بقية من كراهة اليهود لتمثيل كل ما هو مقدس في هذا الوجود بالنحت . فاننا لنكرر من يوم الى يوم تلك الوصية الاسرائيلية "لا تتخذ لنفسك تمثالا منحوتا". ولست الآن بسبيل للناعى على فكرة تحطيم الأصنام وهى احدى الأصول التى قامت عليها ديانة اليهود . فانى لا أشك فى أن ازدراء اليهود لأوثان الأمم المجاورة لهم ومقتهم اياها كان عظيم الأثر لهذا الشعب فى تقدم ديانته . فكانت تلك الحرب المتجددة التى دفع بها اليهود غارات الوثنية لازمة لنشر تلك الديانة النبوية الخالصة التى كان تبليغها ونشر دعوتها فى العالم أهم ما قام به الشعب اليهودى . ولا أنا بحامل على آثار تلك الفكرة فى العالم الحديث ، فالمسلمون يرونها كما كان يراها اليهود الأولون من قبلهم من مستلزمات ادراك الذات الأقدس ادراكا روحيا ساميا ولسنا نستطيع الا أن نعطف على أسلافنا البيورتان عند ما نقرأ شيئا عن أنباء اتلاف الصور الدينية فلقد كانت كراهية الأصنام من مميزات الايمان القوى الخالص فى تلك الديانة الروحانية التى قام المصلحون العظام باحيائها ونشرها فى أوروبا .

على أن تقديرنا لهذه الناحية من الدين لا يصدنا عن النظر الى نواحيه الأخرى فاننا لم نرث ديننا عن يهوذا وحدها بل ورثناه كذلك عن اليونان . ففي أساس عقيدتنا ما كان يملأ قلوب اليهود من حب تقوى الله وطاعته . على أن هذه العقيدة هى أخت التعصب وضيق الفكر وضعف الانسان . وأما ما لحقها من التعديل والتهديب بما أدخل فيها من روح الانسانية والاحساس بمشابهة الانسان لله فى طبيعته وتعشقه ما أودعه الله فى المخلوقات من جمال ، والاغتراب بكل ما هو حلو وكل ما هو لطيف ظريف فمرجعه الى اليونان .

ذلك أن اليونانى كان يتأثر بجمال الله وجلاله تأثر اليهودى بعزة الله وتعاليه الذى لا ينال فبدا لأهل الفن من اليونانيين أن يستعينوا بالرخام والبرونز على تمثيل ما فى بعض نواحي الطبيعة المقدسة من معانى الرقة والانسانية . وما أعذب حكمة مكسيماس الطيراوى حيث يقول : "من عادة اليونانيين أن يمثلوا الآلهة بأجمل ما على ظهر الأرض من مادة خالصة و صورة الانسان و براعة الفن وأن فكرة أولئك الذين يصيغون الصور الالهية فى قالب آدمى لفكرة جد صائبة فان روح الانسان هى أقرب الأشياء الى الله وأشبهها" .

ولقد كان الروح السائد على فن النحت عند اليونان فى حياته كلها من أول نهضته فى القرن السادس حتى عهد انحطاطه فى القرن الثالث هو هذه الرغبة فى تمثيل الآلهة بأجمل ما على الأرض .

نعم ان الفن عند الأمم الشرقية العظمى ومصر وآشور حافل بتمائيل الآلهة ومناظر العبادة لكن هذه التماثيل لا تدل على شيء أسمى من الانسان . فكانت صور الآلهة صوراً اصطلاحية لا تخرج عن حد كونها صور رجال ونساء عاديين ولتمييزهم عن المخلوقات الفانية كان الفنانون فى الشرق يلجئون الى الرمز فكانوا يضيفون الى الصور البشرية زوائد يقصد بها أن تدل على الصفات فكانوا يزيدون الأجنحة ان أرادوا تمثيل سرعة الاله ولم يكن يقصد بالأجنحة الطيران فعلاً ولكن لتكون رمزا للحركة السريعة . وكانوا يصورونهم وقد صرعوا الوحوش الضواري لأنهم كانوا يرمزون بالوحوش للقوى الخبيثة التى تدأب على مناوأة الآلهة . ولقد انحدر اليونان الى محاكاة هذه الطريقة فى بعض أعمالهم الفنية العتيقة فكانوا يمثلون أبولو وعلى جانبيه جارحان مدحوران وكانوا يجعلون لأرتميس جناحين وفى يديها أسدين وقعا فى أسارها . غير أن ذوقهم الفنى مالبث ان ثار على هذه

الطرق العقيمة . وأخذوا يحاولون تمثيل الطبيعة القدسية لألهتهم لا برموز خارجية يتواضع عليها بل بتعديل الصور الانسانية نحو الكمال على أننا نجد أحيانا آثار تلك الطريقة الأولى الرمزية في أمثلة الفن المتأخرة التي كانت تعتمد الى الرمز في تمثيل الصفات الالهية فنرى أن هرميس لا يزال له جناحان ولكنهما عند رأسه أو عند قدميه . وقد نرى أن زيوس يحمل الصواعق وهي رمز سلطانه على العواصف ونرى ابولو ينبعث من جسمه النور فيجتمع فيه الصورة الانسانية مع الأشعة التي تبعثها الشمس الوهاجة .

غير أن هذه ليست الا بقايا العهد القديم ولم تؤثر في عملية الارتقاء التي كان يتناولها فنانون بعد فنانون ومدرسة بعد مدرسة . فقد كانوا في تمثيلهم الآلهة يزدادون اقتباسا من أكل الصفات الانسانية فكان "زيوس" وهو أبو الآلهة والناس جميعا يمثل في صورة المثل الأعلى للآباء الآدميين جامعا بين الهيئته والانصاف والطيبة والحنان وكانت تنجسم في الآلهة أتيينا معانى العقل والحكمة السماوية ولعلها أقرب صور الآلهة الى المثل الأعلى فان هذه العذراء المسلحة الظافرة (وقد عقدت الحكمة على جبينها) لا تشترك الا قليلا مع نساء بلديتها أتيينا اللاتي تحين وألزم من البيوت أما (اپولو) فانه لم تكن له عضلات المصارع الدرب ولكن ملامحه النبيلة وذلك التناسق الذى امتاز به شكله جعله مثلا أعلى لما يمكن أن يصل اليه الشاب بقوة ارادته وطموحه ويلى ذلك فى المرتبة (هيراكليس) فى صورة مصارع وهو يمتاز بتناسب جسمه تناسباً بديعاً ولكنه فى قوته يفوق أقوى المصارعين .

وهناك أيضا (هرميس) وهو مثال العداة وكأنما كل عضلة من عضلاته قد هيئت للسرعة وخفة الحركات .

فترى فى صورة الآلهة التى أحدثها الفن اليونانى وهو فى بسطة سلطنة طائفة من الانسان الراقى رجالا ونساء وهم يمثلون أسمى وأجل ما يطمع انسان فى بلوغه وهى نماذج تمثل غاية الكمال فى الجسم والعقل . وكان تأثير هذه الصور يساير الزمن من قرن الى قرن ، وما كانت أشد العصور ظلاما لتمحو آيته كل المحو بل ظل على الأيام حارسا يحفظ الطبيعة البشرية أن تزل قدمها الى مهاوى الدنس والانحطاط كما كانت تلك الصور فى جميع أدوار تاريخ الفن عاملا قويا فى سبيل الرقى والتهديب ولم يهبط مستوى تلك الأنماط الا بعد انحطاط الديانة الأولمبية فى القرن الرابع . على أن الاحساس بالجمال عند الفنانين ظل حادا قويا كما كان ، بل أن صنعة الفن تقدمت وارتقت . ولكن مذهب "الانسانية" مازجته نزعات جديدة أقل منه نبلا فتزلت به واتخذت الآلهة صورة ما عليه الانسان بالفعل فى هذه الحياة لا صورة ما قد يصل اليه من الكمال .

ولم يكن يتناول التصوير والحفر صورة الآلهة ومدها بل تاريخ ظهورها على الأرض واشتباكها مع الانسان فى المعاملات وكلنا يعلم كيف كان يرى أفلاطون أن تلك الخرافات التى كانت تروى عن الآلهة غير لائقة من الوجهة الأخلاقية ولكنا نخطئ التقدير فى أمر تلك الخرافات اذا زعمنا أن الغابرين كانوا يعتقدون صحتها أو أنها كان لها شأن فى تنظيم سلوك الانسان . فان أهم ما عملته كان توسيع دائرة المسرات والبهجة فى هذه الحياة ، ولما ضعف أثرها فى التربية والتثقيف ظل حبا قويا فى الشعر وكان له أثر عظيم فى تلطيف جفاف الحياة العادية .

ويجب أن لا ننسى أن من بين القصص اليهودية التي كانت منبع لذة وتسلية لأجدادنا ما ليس من السهل تبريره من الوجهة الأخلاقية المحضة ، ومع ذلك فإنها كانت ذات أثر مهذب فعال إذ من ذا الذي يرى أن يحرم على الكائنات ذكر آدم وحواء ويوسف وداود استنادا على الطهارة الأخلاقية . ان حياة الكثيرين ليس فيها ما يجعلها حتى تفكر في تجريدتها من هذه العناصر السارة .

وكما كانت صور الآلهة تتخذ صورا جميلة غير أنها صور بشرية من كل وجه ، كانت الظواهر الطبيعية العظيمة من أنهار وجبال وماء وسماء وشمس وقمر ورياح سافية وزواج دافئة كل أولئك كانت تمثل في صور آدمية . فان جماعة أولمبيوس "الآلهة جميعا" وهي القوى التي تتجلى في الطبيعة كان يصوغها النحات في صورة مجتمع بشري ولكنها تفوق البشر في جمالها وعظمتها وتمثيل الآلهة بهذه الصور الانسانية يؤدي كما سيتبين لك فيما يلي الى تمثيل الانسان نفسه في أكرم صورة وأحسن تقويم .

فكما كانت الآلهة تهبط الى مشابهة الانسان ، كذلك كان الانسان يسمو الى مراتب الآلهة ومن هنا نشأت خاصة التسامي الى المثل الأعلى التي اختص بها فن المنحوت عند اليونان ، وهو ما سأعود الى البحث فيه قريبا .

وقليل من بين أعمال الفن ما يتجلى فيه ميل الفن اليوناني الى تمثيل المعاني بالصور الانسانية بدقة وروعة كما يتجلى في أثناء في المتحف البريطاني يمثل شروق الشمس . فانه صورة لتنفس الصبح وقد تمثلت كل ظاهرة من ظواهره الطبيعية في صورة بشرية فعن اليمين اله الشمس في عربة تجرى بها خيل أربعة ذات أجنحة يخرج من جوف البحر وأمامه فتية تغوص في الماء وهؤلاء يمثلون



(شكل ١)
آنية تمثل شروق الشمس

النجوم . وترى عن الشمال الهة القمر تغيب وهى على ظهر فرسها وراء الجبال وقد وقف على واحد منها إله من آلهة الجبال وقفة الاندهاش وقد ركضت أمام الشمس ايوس ذات الأجنحة رمزا للفجر وهى كما يزعم القصصى الخرافى الجرىء تجدف أثر كيفالوس الصياد الذى كانت تهيم به حبا فاذا رأيت ثم رأيت مناظر طلوع النهار ولكنها لا تمثل على أنها حقائق طبيعية بل من حيث تأثيرها فى الآلهة والناس .

ولقد سبق لى أن أثبت هذه الصورة فى كتاب (مبادئ الفن الاغريق) فأنا لا أثبتها هنا ولكنى رأيت أن أضع بدلا منها صورة أخرى لا تقل عنها جمالا وهى مأخوذة عن غطاء إناء من آنية الزينة الموجودة بمجموعة سايبوروف فى برلين . وفيها نفس الصور الثلاث : صورة اله الشمس وآلهة القمر والفجر وذى الأجنحة وقد ظهر الأخير فى هذه الصورة سائقا عربية . وهذه المجموعة كلها وفى وسطها ذلك القرص المشع تمثل القبة الزرقاء أروع تمثيل .

خذ مثلا آخر قوى الدلالة كسابقه على هذا المثل فى الفن وهو كرياتيد الاركتيوم الذى قام رمزا لما فى العمود من قوة داعمة وهو عبارة عن جوار موقوفة على خدمة الآلهة (أثينا) يحملن وهن راضيات ما يحلى معبدها من الزخارف الثقيلة . وقد لا تكون تلك الفكرة مقبولة فى ذاتها تماما ولكن ان قبلت فهل ترى تطبيقا أسلم من هذا التمثيل ذوقا وأجمل أثرا . انك لترى تلك النسوة بقوامهن المكتنز المليء وتنظر الى شعرهن الغزير فيكسب أعناقهن قوة ، وإلى وقفتهن التى لا تكلف فيها فتحس أنها لاتنوء حملا بما ألقى على عاتقها ولا تضيق به ذرعا .

وليسمح لى أن أضع صورة حديثة من صنع رودين الى جانب تلك (الكرياتيد) اليونانية . وانى لشديد الاعجاب بقوة هذا المثال وحسن صنعه . ولكك لا تكاد تستعرض أعماله فى جانب ما عملته اليونان حتى تحس أنها أقل من صاحبها شأنًا فى عظمتها وفى بساطتها وفى كمالها .



(شکل ۳)
کریا تیل من صنع رودین



(شکل ۲)
کریا تیل من صنع رودین

الفصل الثانى

أما المصباح الثانى من مصابيح الفن فهو البساطة ، اذ كان الفنان يتصور ما يريد نحته تصورا واضحا ثم يأخذ فى عمله بثبات وبلا تردد ولا ارتباك فى عمله قاصدا الى الصميم . والواقع أن المجتمع كلما كان أقرب الى الفطرة وأبعد عن تكلف الحياة المدنية كانت البساطة أسهل على الفنان وأقرب اليه . أما فى المجتمع المعقد فإنه يخشى على الطريقة السهلة والنهج الأهم أن يختلطا بما هو مبتذل بل بما هو سخيف . فان بساطة ورد سورث وتينسون كانت تهبط بهم أحيانا الى ما تحت الحد المقبول . ولكن اليونانيين يمتازون بأنهم جاءوا سابقين لغيرهم من الأمم المثقفة فلم يكن أمامهم متبذل يتجنبونه . فكان فى استطاعتهم أن يكونوا بسطاء بساطة ورد البرية وهل بعد بساطة الألياذة من بساطة . وكذلك كان فن النحت عندهم . فان الناظر اليه لا يحتاج لاجهاد فكره كي يفهم معناه . فكل صورة من صورهِ لا يعترىها غموض ولا لبس كما لا يوجد ما هو أدل على الفطرة اللطيفة من أن يكون الانسان بعيدا عن الشعور بنفسه شعورا يربكه .

فكذلك ليس أدل على العظمة فى الفن من البساطة ولم يكن اليونانيون يجهدون أنفسهم لكي يكونوا من أهل الابتكار أولئك يبهروا الأبصار أو لياتوا بالعجيب . فلقد كان من أكثر ما ألفوا فى النحت اليونانى صررة قتال بين رجال محاربين ونساء محاربات (الأمازونات) واث لئلى صور هذه البقائع تزين جدران كثير من المعابد والكنائس ترى فرقا بيننا فى الأسلوب تمتاز به كل واحدة عن

أختها . فلست تخلط بين مجموعة من تلك الصور في معبد فيجاليا وبين أخرى من الموصوليوم ولست تجد بين اثنتين منهما اتفاقاً لأن لكل مجموعة منها ميزة خاصة أو طابعاً خاصاً بها يجعلها وحدة مخالفة للنوع المعتاد فيدأ ترى فارسة تسقط عن جوادها اذ ترى الأخرى تطلب الأمان وترى ثلاثة تقفوا أثر عدو يولى الأدبار . ولكن ليس بين هذه المجموعات ما يحتم على الناظر أن يحدق فيه . اذ المقصود من تلك النقوش أن تكون زينة للمعبد . فان كان في ابداعها ما يصرف أنظار الناس عن المعبد ذاته أو ما يلهمهم عن المعبود انذى استوى على عرشه فيه حق لنا أن ننعتة بالتطفل وتجاوز الحد المحمود . ولقد بذل المثال قصارى جهده في عمله ولكنه كان شديد الحرص على أن لا يعمل شيئاً يتنافر والبيئة التى تحيط به ولهذا أخفى شخصه في طى عمله حتى أنه كان اذا عاج عملاً أكبر من أمثال هذه الصور شأننا كان يجعل أكبر همه أن يبعد عن كل ما لا يليق ولا يناسب وكان رائده في عمله أن يوجه الأنظار الى الشخص الذى يصوره أو الشيء الذى يمثله لا الى صفة الصنعة فكانت الفكرة التى يحاول ابرازها مجسمة في الرخام أو البرونز هى ما يتصوره الناس فعلاً عن الشيء الذى يصوره وليس رأيه حو فى ذلك الشيء .

ويدلك على أن قصد الفن لم يكن سوى هذا القصد الوحيد ما يروى عن بروتوجينز المصور فانه رسم صورة ساتير (حيوان خرافى له نصف انسان ونصف حيوان) ثم جعل الى جانبه صورة ليست ذات بال وهى رسم قطعة ولكنه لما رأى الزائرين يعجبون بما فى صورة القطاة من شبه الحياة اعجاباً كان من شأنه أن يصرف أنظارهم عن الصورة الكبرى محاً تلك القطاة من الرسم .



(شكل ٥)
آرتميس من جانب



(شكل ٤)
سائق عربّة دلفي

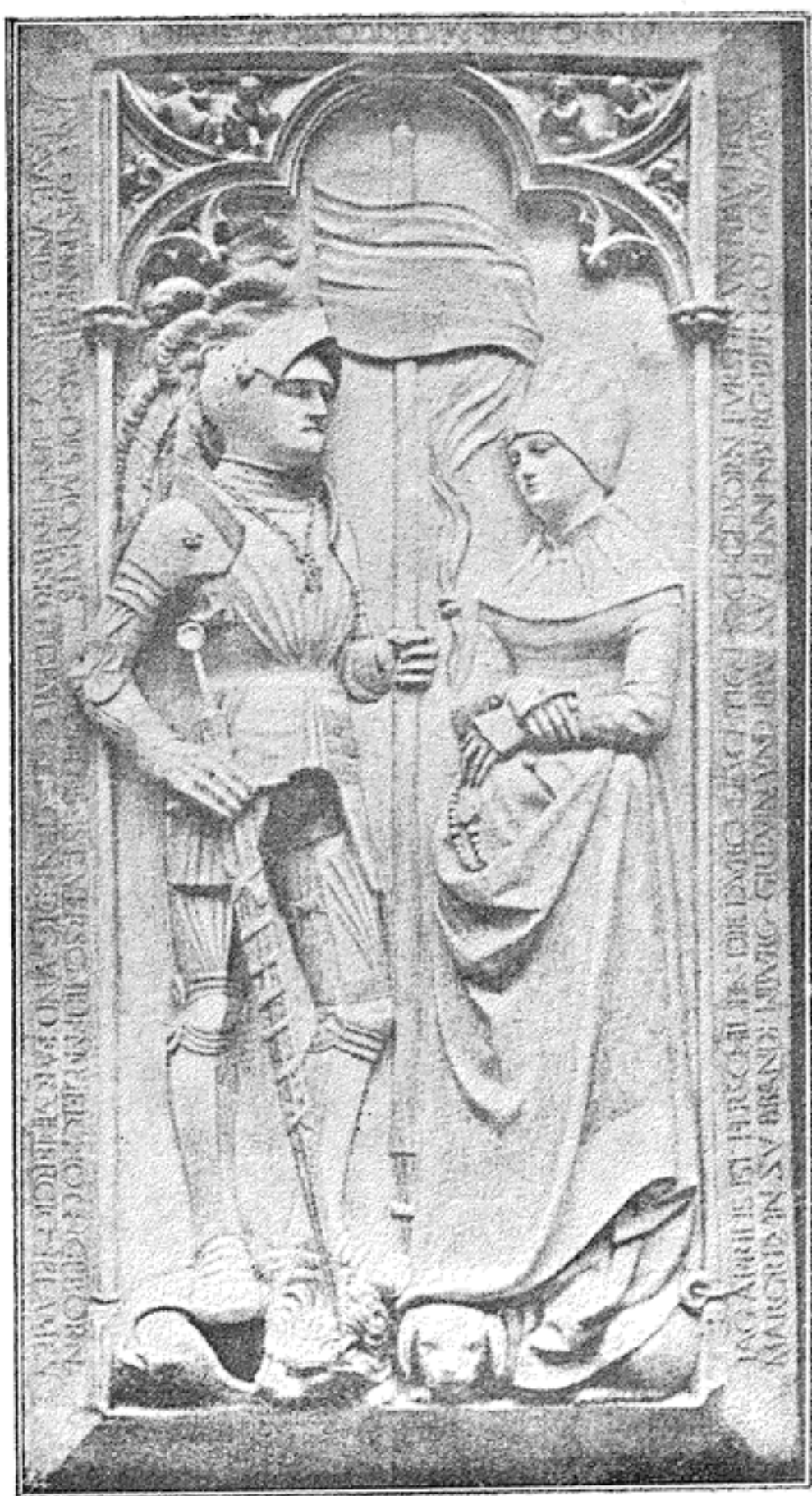
والبساطة ولا شك تستدعى القصور فلم يكن من السهل فى عصر من العصور أن يبلغ الانسان قصارى الاحسان بغير أن يضحي فى سبيل ذلك بشيء من البساطة وان أعلى ما تسمو اليه الحياة الفكرية والروحية فى الانسان من مذاهب الأسرار الروحانية والنورية الرمزية لا يمكن تمثيلها فى أى صورة من صور الفن بالبساطة التامة . فلسنا ننكر أن نظرة الأغريق الى الحياة كانت محدودة غير متعمقة . وانهم لم يحاولوا أن يمثلوا فى الفن أسمى ما تطمح اليه الروح ولقد كان جهدا ضائعا أن يذهب بعض الناس فى الحيل السابق الى تأويل التصاوير التى كانوا يحدونها على الآنية الأغريقية زاعمين أنها رموز لمعان روحية غامضة بل أن محاولة اليونانيين تمثيل آلهة الأسرار لا تكاد تعد من أعمال الفن ، فان أمثال سايزيوس وايسيس وميتراس لم تظهر فى الفن القديم الا عند ما أخذ فى الانحطاط . فلست أقول أن العالم الحديث بمافيه من مشاعر لاحد لاختلافها ولا أن المطامح السامية التى ترمى اليها أمثال الديانة المسيحية والبوذية است أقول أن هذه تكتفى بمثل ما سلكه النحات اليونانى من الوسائل البسيطة التى توافق فطرته وذكاه أكثر مما توافق عواطفه العميقة . على انى أرى أن تلك المعانى الوجدانية لا تجد ما يمثلها تمثيلا صحيحا فى الفنون التى اتحدث عنها أعنى فى الرسم والنحت حقا قد وجدت هذه المعانى فى الشعر فى جميع العصور لسان صدق لها . ولعلها فى هذه الأيام الحديثة قد وجدت أداة أبلغ وأفصح فى الموسيقى التى كانت قبل المسيحية ساذجة بادية . أما التصوير فانه ضعيف فى الدلالة على مثل تلك المعانى المهمة وأقل من التصوير صلاحية لهذا الأداء فن النحت فانه أكثر الفنون تقليدا للشئ المصور وتقيدا به .

ويظهر لي أن كل المحاولات التي قام بها حديثا بعض النحاتين ليستخدموافهم في الرمز عن المعاني الخفية إنما هي محاولات مقضى عليها بالفشل بحكم طبيعة فن النحت . ولا يمكن للعقل الغربي أن ينظر بعين الرضا لذلك الفن الهندي الذي لم يسلك في الغالب غير طريق الرمز فأقصاه ذلك عن السعى في سبيل الجمال وبذلك تتكب الوجهة الفنية الصحيحة . وليس الحسن وحده بكاف أن يكون مثلاً أعلى ولكن هناك جمالا أسمى وذلك هو الجمال الذي يتفق مع العالم المحيط بنا والنفس التي بين جنوبنا .

ولا بد للبساطة من أن تكملها صفتان أخريان لترتفع بهما الى أسمى مراتب الإعجاب وهما الاغراق في حب الجمال والصبر الطويل على العمل . فمن جهة لا ينبغي أن تقف بنا البساطة عند حد محاكاة الطبيعة من غيرافتنان ومن ناحية أخرى ينبغي ألا تدفعنا الى التعجل والتقصير في العمل .

وانك لترى في صورة (كرياتيد الارىكتيوم) التي سبق ذكرها مثلاً تتجلى فيه البساطة التامة ولزيادة إيضاح هذه الخاصة تخيرت مثلاً برونزياً سائق عربية حربية من دلفى وتمثال ارتيمس من جاني وهي الآن باللوفر . أما الأول (شكل ٤) فشاب من أسرة نبيلة عليه ذلك الثوب الطويل الذي بقى من يسوق العربية من أن تلفحه الريح . وأما الثانى (شكل ٥) وهو من ثمار مدرسة براكسيتيلزفانه يمثل أنسة تعقد ثوبها على كتفها .

وكلا التمثالين أبعد ما يكون عن محاولة الابتكار أو الابتداع . ولكن لن يتردد ذو ذوق لحظة واحدة في أن يعجب بجمالهما . ولقد كان غاية الفنان أن يكون عمله من الاتقان في الدرجة العليا فكان يتجه نحو هذه الناية من غير انحراف ولا تمقيد ، ومن غير أن يبالى البتة بأن مثل هذا العمل صدر عن آخرين فيمكن ينبغي له أن يدكر شيئاً جديداً .



(شکل ۶) فارس و سیده من صنع بطرس فیشر

والى جانب الصورتين اللتين أثبتتهما فى هذا المقام أضع مجموعة أحدث (شكل ٦) وهى كذلك من صنع عبقرى عظيم وهو بطرس فيشر وهى تشترك مع منتجات اليونان فى بساطتها ودقة صنعها . ولكنها أقل منها حظا فى جمالها ولا يسع الانسان الا أن يأسف على أن مثل هذا الفنان العظيم بذل قواه فى تصوير أمور تافهة كدسر الدرع وصفاحه ، كما أن السيدة وإن كانت على شىء من الحسن اذا قورنت بغادة برا كستيليز ذات النضارة الرائعة ظهر ما فيها من تصنع وتكلف .

الفصل الثالث

أما المصباح الثالث من مصابيح الفن اليونانى فهو التوازن والضبط أعنى مراعاة الحدود والقانون وأكثر ما يتجلى ذلك فى فن البناء ولا سيما بناء المعابد ودور آدم منتجات هذا الفن فان شكل المعبد منذ استقر ظل ثابتا على ما هو عليه فى جميع أزمانه دون أن يتطرق اليه التغير الا فى حدود خاصة . ولقد تناول أحد الكتاب النابيين وهو م . بومى هذا الموضوع فأوضح بكل جلاء كيف أن جميع الأجزاء التى يتألف منها المعبد يرتبط بعضها ببعض . وأن هذه الأجزاء جميعها تتبع طريقة واحدة ويؤلف بينها نظام متناسق وان لكل جزء فيه عملا خاصا يؤديه فى أبسط صورة وأوضحها . فالأعمدة انما نصبت لتكون مسندا فكانت هيئتها وزينتها الخفيفة تتفق مع هذا الغرض أما شكلها فكان يضمن أقصى حد من الرسو . وتلك القنوات التى توشى سطح العمود تستدرج العين الى قمته حيث تنتفخ لتستند اليها الطنف الكرنيش المستقيم الثقيل . ومن فوق الطنف بفوات تكون أخاديدها امتدادا لقنوات الأعمدة الى السقف . أما حوائط المعبد فلم يقصد بها أولا حمل ما فوقها ولكن لتحيط بالحجرة المقدسة . وليس بها من زينة الا ما يحل أعلاها كما قد ترى فى الستارذى الجانب المزرکش . فالبناء كله يقصد منه أن يكون بيتا لآمال المعبود الذى يحويه وليس لجزء منه أن يتزين الا زينة تتبع هذه الغاية العامة فمثله فى ذلك مثل الصدفة أو خلية النحل تمثل فيهما فكرة وغاية . ولكنها فى البناء غاية نتيجة الشعور والتفكير لا بنت الفطرة ووحى الغريزة .

وكذلك الترين بالنحت وهو أظهر صفة في المعابد كان يتبع بدقة الفكرة في بناء المعبد والغاية منه فلم يكن ينحرف من البناء ما من شأنه أن يحمل ثقلا الا في حالة أو حالتين وقعتا في العصور الأولى وفشلت فيهما التجربة . فالعمد والعوارض التي ترتكز عليها القباب ليس لها عمل الا حمل الأثقال فاذا زينت فان ذلك يبعدها عن المعنى الذي أقيمت من أجله . أما في الأجزاء التي ليست بذات خطر من حيث تركيب البناء كأعلى المدخل ووجهة بناء فكان فن النحت يحد مجالا واسعا . على أنه كان اذ ذاك ملزما أن يعمل وفق طبيعة المعبود الذي في داخل الهيكل والمراسيم التي كانت تقام له فلم يكن يسمح لأية غاية أخرى أن تعترض تلك الغاية ولا لأية فكرة خارجة أن تفسد هذا الغرض .

وان ما يمتاز به المعبد من صلابة الشكل وسيطرة العقل فيه هو نفس ما كانت تمتاز به المأساة في أتيننا . وقد يكون من الممكن ايجاد موازنة دقيقة بين هذين النوعين من الفن اليونانى . ولكن ينبغي لنا أن نعود الى موضوعنا — فن النحت — فنقول ان خاصتى التوازن والضبط تتجلى في نحت المعابد . ففى (أعلى المدخل) نرى تحت رأس الشكل نقطة متوسطة توضع فيها أعظم أشكال المنظر وعلى كل من جانبي هذا الشكل الأوسط صور ترى لكل واحدة منها نظيرا في الجانب الآخر . فاذا بلغت الأركان رأيت فيها أشكالا مائلة من محارين يموتون ، أو آلهة الأنهار أو طائفة من النظارة يشهدون . أما فى (الوجهة) فان رقعتها المربعة يشغلها شكلان أو ثلاثة متقابلة الوضع على أبعاد متساوية من خط المركز وتلك فكرة مستقلة متناسقة كأنما هى شكل هندسى تبلغ البساطة فيه أقصى حدودها .

فالتناسق والتوازن والتماثل هى فى اظهار روح النظام وضبط النفس فى النحت ما تعلمه الأغريق من الشدائد فلقد أشرقت مدينة الأيونانيين فى آسيا . وذلك الروح فيض ما غمرهم من نعيم الحياة ولذة الجمال واستخدام جميع المواهب التى كانت سائدة حينما ما فى بلاد اليونان نفسها . وكان الفن عندهم طليقا مفعما بالسرور . فدخل فنانون يونانيا مدينة أثينا فى القرن السادس وزاروا بلاط بيزاستراتوس المترف وبلغ تأثيرهم (بلونيزيا كما أظهرت بجلاء أعمال الحفر التى قامت بها المدرسة الانجليزية فى أثينا . ولكن هؤلاء الأيونانيين وطأتهم اقدام الفرس الثقيلة وكان ما هم عليه من التفانى فى الحرية الواسعة والتفكك وقلة النظام سببا فى هلاكهم . وكان فى عزم ملك فارس العظيم أن يدوس بلاد الأغريق الأصلية كما فعل هؤلاء وقد كاد ينجح فى هذا لولا اخلاص الدوريين وحبهم للنظام . وكان انقاذ بلاد الأغريق من الاستعباد يرجع الفضل فيه الى أهل أسبارطة ومعاونة ملتيا دس وشمستكيز لهم بما أوتوا من المواهب الحربية السامية . فلقد كانوا طائفة حربية خلقت للقتال كالتميلين والهسبتالين الذين عاشوا فى القرون الوسطى بأوربا . وكان هؤلاء الأسبار العمود الفقري للجنس الأغريق فمزقوا الجموع الآسيوية بنفس السهولة التى شتمهم بها رجال الاسكندر الأكبر من بعدهم بقرن ونصف قرن .

ولقد أدرك الأتينيون بفطنتهم المتقدمة السرفى خلاصهم فقامت فى أوائل القرن الخامس حركة المناهضة للروح الأيونانية فسادت الآداب الدورية والملابس الدورية والفن الدورى من تساليا الى لاكونيا . ولقد كانت عقائد الدوريين فى النظام والضبط وحكم النفس هى نفسها التى دخلت على الفن اليونانى فجعلته سلسلة

كريمة من تقدم مطرد بدل أن يكون مجرد ومضة ساطعة .
 وكان أفلاطون على بصيرة بتلك الأخطار التي أحاطت بأهل اتينا
 من جراء عظيم مقدرتهم على أنواع كثيرة من العمل وقلة خضوعهم
 ورأى أن هذه الخصال التي كانت تزين مدنيته لا بد أن تهدمها
 في النهاية . وقد كان هذا الرأي واضحاً في ذهنه وضوحاً أدى
 الى أنه كان يميل الى تفضيل الفن المصرى مع جموده وتشابهه
 على الفن اليونانى الخلاب الذى كان فى عهده . وقد كان فى ذلك
 من غير شك مغالاة منه فى التحفظ على الأخلاق مغالاة نفسه
 التعصب وخروجاً على قواعد الاعتدال التي كانت تملأ نفسه على
 أنه لم يغفل هذا الغلو الا فى آخر حياته .

ومن الميسور ملاحظة دقة هذا التوازن وذلك التناسب فيما على
 الأوانى الاغريقية من الرسوم وقد سبق أن أشرنا الى ذلك فى عدة
 مواطن . فهناك ترى الصورة ذاتها محكمة متوازنة وهى فوق ذلك
 متناسبة فى شكل الآنية نفسها . فالصورة التي تليق أن تكون
 نقشا على الأمفورا اثناء للشراب بمقبضين كان يستعمله اليونان
 والرومان لا يصح أن تكون على قدح الشراب كما أن قدح
 الشرب نفسه يستدعى ظاهره من النقش غير ما يستدعى باطنه .
 ولم يكن أساس التصوير أن تطلق يد الفنان فيما يصور فحسب .
 بل أن تجتمع فى الصورة من المناسبة والملابسة والتوافق ما يستدعيه
 المقام . وترى فى الشكل الأول ما يوضح ذلك خيراً ايضاح .

بل أنك لترى حب اليونانيين للتناسق فى نحت الدمى المفردة
 وهى الصور والمجموعات التي تنصب فى الأسواق أو توجد على
 الأبواب وهو ما كانوا يعبرون عنه (بالتناسق والتماثل) . وكان
 قدماء النقاد يسهبون فى بيان هذه الظواهر فيما كانوا يكتبون عن

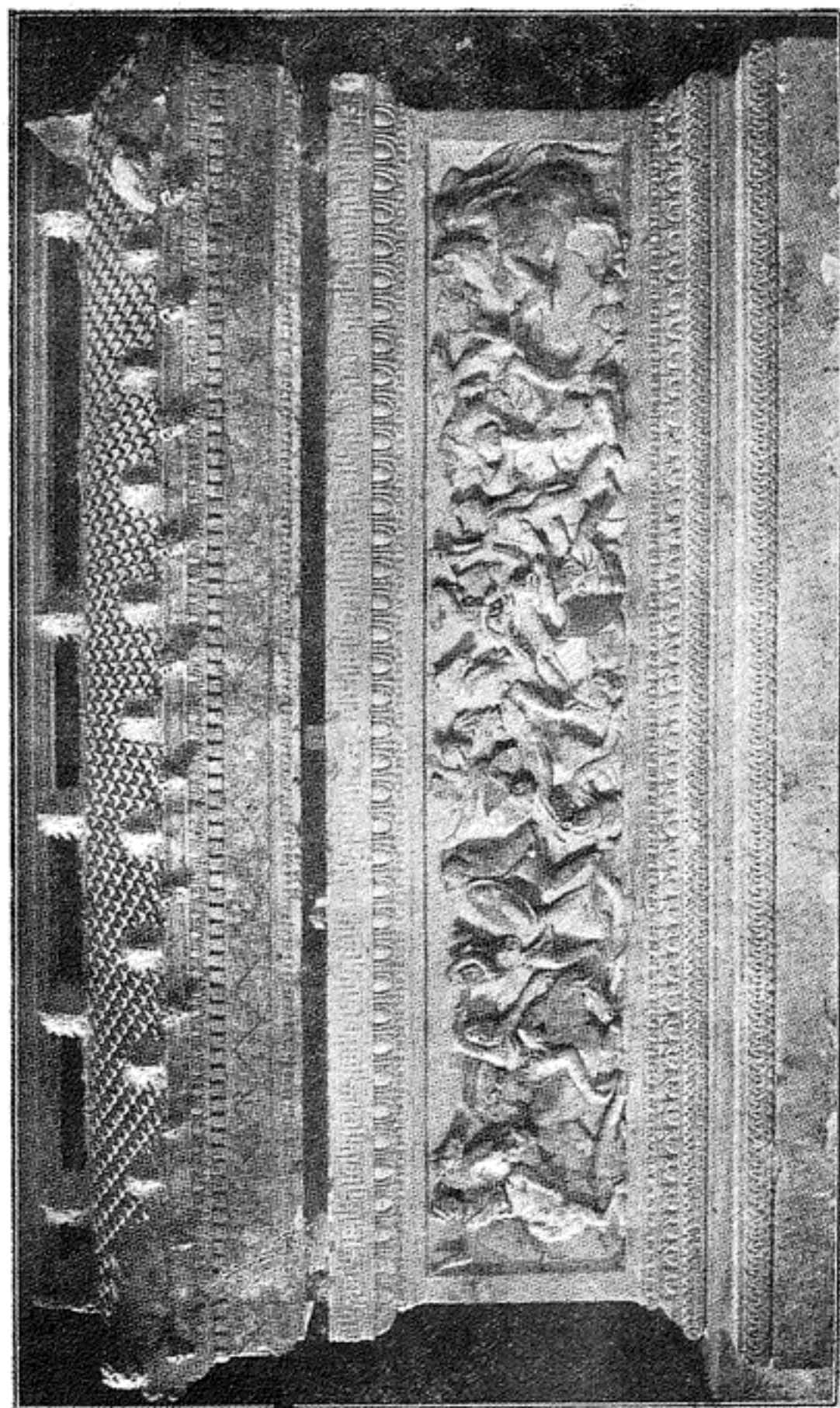
النحت عن اليونانيين . وقد وصل الينا بعض ما كتبوا في تصانيف بليني وكونتليان . فهؤلاء النقاد يبينون أن الفن كان في أول بداوته لا يظهر فيه غير التوازن السطحي الأولى على حين أنه في القرن الخامس قد أصبح حب النظام والضبط من أصوله . ولقد فاق في اظهار هذا التناسق والتماثل (فيثاغوراس الريجيامي ولكن أعماله لسوء الحظ لم تصل الى أيدينا أما معاصراه (ميرون وبوليكلتياس وهما اللذان بلغ على يديهما فن تمثيل الأجسام المروضة في بلاد البلوبونيز أقصى غاياته فقد اشتهر أولهما بما أدخله على صناعة من روح التناسق في الحركة وقد اشتهر ثانيهما بالتوازن الدقيق الذي كان يصوغ فيه صور مصارعية . وبذلك التناسب الذي كان يظهره في شكل أجسامهم على أن (فيدياس) كان في جوهر أعماله أقرب تمثيلا للمعاني من هذين كما سترى الآن ولكنه أظهر في البارثينون وبعض أعماله الأخرى من الاحتفاظ بروح الضبط والملاءمة ما يدل على منتهى الحذق والمهارة .

وان الفرق لعظيم بين التوازن والتماثل ، وبين القيود التقليدية . فان النظام هو أول قوانين الوجود وان الخلق العظيم لا يكون اكتسابه باتباع الأهواء كيفما ثارت ولكنه يكون بتحكيم العقل والواجب فيها وتهذيبها وترويضها كما تهذب الخيل الوحشية وتراض على خدمة الانسان . وقد يتجاوز ترويض الخيل حدوده فتقتل القسوة في نفوسها كل ما بها من روح وبذلك قد يتجاوز الأمر حدوده مع الناس فتجمد أهواؤهم من طول حبسها وحرمانها فتتكش نفوسهم وتموت وذلك هو شأن أهل اسبارطة فقد زاد بهم النظام على حده وكانت ميولهم الطبيعية تحت ضغط مستمر فأصبحوا مجرد أدوات ولم يمض عليهم زمن طويل حتى كانوا في الهالكين .

أما القيود المعقولة التي توضع على الميول الطبيعية القوية فانها تحدث نتائج طيبة في جميع دوائر العمل .

وكل هذا صحيح بالنسبة للفن . فان التقيد بالضبط والنظام لا يسهل انتاج الأعمال الفنية إذ من الطبيعي في هذه الحالة أن يكون النظام في البداية قيذا ثقيلا ويبدو كالعقبة تعترض سير العمل غير أنه لا بد من النظام والتقيد بالقواعد والأصول لكي يكون العمل الفني جيدا خالدا . خذ مثلا أسهل الفنون وهو الشعر . فان كتابة الشعر المرسل أسهل من كتابة الموشحات الشعرية ولكن كتابة الموشحات الجيدة أسهل بكثير من كتابة الشعر المرسل الجيد . وذلك أن تلك القيود الشكالية المستمرة تحفز الفكر وتثير القريحة وتنشط في الانسان قوة الاختراع وتمنعه أن يندفع مع العجلة وتمرن مقدراته على الاحسان . وكذلك كان تقيد الفنان اليوناني بأصول تركيب (أعلى المدخل والوجهة) و(الافريز) يحفزه الى التفكير في انشاء الصور التي تلائم هذه الأشكال .

وليس يمكن أن تجد مثلا لبيان التوازن والنظام في الصور البارزة خيرا من التابوت الحجري الفخم الذي وجد في صيدا (شكل ٧) وترى على جانب منه صورة تمثل أحد انتصارات اسكندر الأكبر على أنك قد تحسبها لأول نظرة صورة اختلط حابلها بنابلها . فاذا أنعمت فيها النظر انجلت هذه الفوضى السطحية عن نظام دقيق إذ ترى الاسكندر في هجومه من اليسار يقابله بارمانيو وهو يهجم من اليمين . وترى الفارس توسط بين الزعيمين تحسبه خارجا من الناحية القصوى وعلى كلا جانبيه جماعة يقتتلون . فترى عن شماله أحد المشاة المقدونيين يقاتل فارسا راجلا وعن يمينه



(شکل ۷ - التابوت الصیداوی)

ترى يونانيا خفيف السلاح يدفع عن نفسه خيالا فارسيا ثم هناك جنديان من رماة الفرس يوازن كل منهما صاحبه وجملة الجنود في الصورة خمسة من اليونانيين يقابلهم ثمانية من الفرس اشارة الى تفوق هؤلاء في العدد . ولو أننا كنا أوفر علما بهذه المعركة لكان من المحتمل أن نجد في الصورة رمزا يشير لأكبر مميزات . فتلک الصورة البارزة تدانا على أكثر مما كانت تدانا عليه صورة طبيعية تمثل جهة خاصة من جهات ميدان القتال . والفنان اليوناني لم يكن يستطيع أن يعمل من غير أن يستخدم عقله وروح النظام التي أودعت فيه كما كان يستخدم يده البارة الماهرة .

الفصل الرابع

أما الرابعة من أظهر خواص الفن اليونانى فهى محاكاة الطبيعة . ونظرا الى كون التصوير بالألوان والنحت من الفنون التمثيلية أو التى تقلد الأشياء فإن أثرها يتوقف على دقة الملاحظة والاقبال على درس الطبيعة ولعل هذه الظاهرة فى أعمال النحت عند الاغريق ليست أوضح ما تراه عين الناظر الحديث . ومما لا شك فيه أن عادة دقة الملاحظة التى اكتسبناها بفضل الدراسة الحديثة لمظاهر الطبيعة واستخدامنا لما يزيد فى حدة أبصارنا من المجاهر والعدسات المكبرة واستعمالنا التصوير الشمسى فى كافة أعمالنا . كل ذلك جعل معظمنا أكثر علما بظواهر هذا العالم المحيط بنا مما كان عليه الاغريق . ولكننا اذا قارنا أعمال الاغريق بأعمال العصور التى سبقتهم تبيننا أن محاكاة النحت اليونانى للطبيعة كانت لا بد تدهش من رآها . بل أن أعمال العهد القديم (مثل أعلى مداخل ايجينا) تدل على علم بالجسم البشرى يفوق بكثير فى دقته كل ما تحلت به قصور آشور أو معابد مصر . وانك قد تجد دائما كثيرا من الفرق فى كل مذهب من المذاهب التى لا تنفأ تظهر معلنة أنها تفك عن نفسها قيود الوضع والتقاليد وترجع الى الطبيعة نفسها . فانه لمن المستحيل أن يصل الانسان الى الطبيعة عن غير طريق الحواس البشرية ، ومن غير الادراك الانسانى . وان الفنان الذى يعمل على أن يورد لنا الطبيعة فى تلك الصور التى نراها على لوحات الصور الشمسية وأشباهاها من المحدثات الميكانيكية انما تضيع جهوده سدى ويحدث أثرا لا يمكن أن يكون موضع اهتمام أى انسان . ولقد ورد عن بليني ان ليسيباس

كان يقول انه لم يكن ليتخذ غير الطبيعة وحدها معلما له .
والحقيقة أن أعمال إيسيباس التي وصلت الى أيدينا أو التي نقدر
أن نعرف لها أثرا . تلك الأعمال مشربة بروح خاصة محددة .
فالفنان ينبغي أن ينظر الى الطبيعة بعينه هو ، وهاتان العينان
تلقيان على ما يقع تحتها ظلا يستمد من شخصية صاحبهما .
فكل ما يراه الفنان يتلون بلون نفسه التي لا يستطيع الفكك
من قيودها على أن جميع أدوار تاريخ فن النحت عند
الأغريق مشبعة بدراسة الطبيعة . وكلما تقدمت هذه الأدوار
شاهدنا بها آثار الملاحظة الدقيقة أكثر وضوحا وكانت الفرص
ميسورة للفنان كي يدرس الأجسام البشرية — وهي في نظره جماع
الظواهر الطبيعية الهامة — دراسة لا يطمع الفنان الحديث
في الاحاطة بها ففى المستحاث وفي أماكن الألعاب الرياضية حيث
كان جميع الشبان الأحرار يقضون بعض سويعات الصباح في الجرى
والوثب والمصارعة والسباحة كان الفنان يشهد كل يوم أجسام
المصارعين الجميلة في مختلف المواقف والحركات . فكان يعرفهم
كما يعرف مدرب الخيل خيوله أو غاوى الكلاب كلابه . ولم
يكن بحاجة الى نموذج خاص ولكنه كان يقف كل يوم على تفاصيل
عضلية جديدة ويهتدى الى مواقف جديدة بالعناية . كان يدخلها في
ذهنه على سابق ما أدركه عن الصور البشرية . غير أن محاكاة الطبيعة
لم تكن أوضح خواص الفن في عصوره العظمى بل كانت تغلب
عليه دائماً الأفكار السامية والأساليب الفخمة . وانك لتنظر الى فن
النحت فتري في تطوره نزوعا مستمرا الى القرب من الطبيعة
ولكنك لا ترى تلك الفوضى التي ترى في مظاهر الطبيعة جميعها
على السواء موضوعا للفن . فان الفنانين الذين قاموا بعمل ايحينا



(شکل ۹) ابراهام لنکولن
(صنع بارنارد)



(شکل ۸) دیموستنیس
(صنع پولیوکتوس)

لم يكونوا يحملون أنفسهم على اخفاء جمال أجسام المحاررين بأمثال تلك الدروع الضافية التي تراها في مجموعة (فيشر) وهذا هو السر فيما ترى من التناقض حين ترى معركة بها رجال مسلحون وليس عليهم دروع فان أقصى الجهود كانت تبذل في تصوير الأطراف العارية ففي ذلك التمثال النحاسي العجيب الذي وجد في دلفي تمثال سائق العربة الحربية (شكل ٤) الذي يرجع تاريخه الى عام (٧٠٠ قبل الميلاد) تقريبا تجدد ذلك الجلباب اللازم لوقاية الرجل من هبوب الهواء في غاية البساطة . وأما الذراعان والقدمان وهي ما لا يستره الجلباب فانها صورة صادقة للطبيعة وفيها من الدقة ما يدهش الألباب . فكأن الفنان أحب أن يعوض نفسه عن البساطة العظيمة في صناعة الثوب بالأمعان في درس الطبيعة بغاية الدقة حيث يتسنى له ذلك . ثم ان الرأس لم يقصد به أن يكون رأس شخص بعينه ولكنه رأس يمثل الجنس . والواقع أن الصور الخاصة تكاد تكون غير ميسورة في ذلك الوقت . ولعل هذا هو موضع التحدث عن الصور الشخصية عند اليونان اذا سمح المجال ولن أزيد على الإشارة الى الخطأ الشائع بين الناس وهو أن الصور الشخصية عند اليونان كانت محاطة بالقيود الوضعية وليس فيها ما يسترعى الأبصار . وأن الرومان هم أول من أدخل الشخصية في التصوير وأنه لعجيب أن ينتشر مثل هذا الانتشار رأى يقع من الخطأ في صميمه . نعم أن الصور الشخصية الأغريقية في القرن الخامس بل والرابع أيضا كانت يغلب عليها تمثيل الجنس وأن الملاحم الشخصية كانت تشكل بما يتفق مع روح ذلك العصر روح الاندفاع وراء المثل الأعلى والتشبه به . ولكنا نجد منذ القرنين الثالث والثاني عددا عظيما من الصور التي بلغت الغاية

القصوى في تصويرها للأشخاص ومميزاتهم مجموعة عجيبة من صور رجال الفلسفة والشعر والسياسة لا يمكن أن تفوقها صور أخرى في دقة شبهها بالصور الحية . على أن أبدع الصور الشخصية للرومانين كانت جميعها من صنع فنانين من اليونان . ولست أقدم غير مثل واحد للصور الشخصية الأغريقية البالغة أقصى الجمال وهو تمثال ديمستينس يرجع الى القرن الثالث قبل الميلاد (شكل ٨) فهذه صورة شخصية بمعنى الكلمة فالوقوفه والذراعان الطويلان الهزيلان يدلان على الشخص بعينه وما امتاز به من الخواص كما يدل الوجه وما ارتسم عليه من علائم الحزن وما عليه من أسارير عميقة تنم عما في القلب من شجون . فالرجل مائل أمامنا من قمة رأسه الى أنحاص قدمه لا كما هي العادة في التماثيل الحديثة حيث توضع صورة الرأس على حسم جامد ذي صورة وضعية .

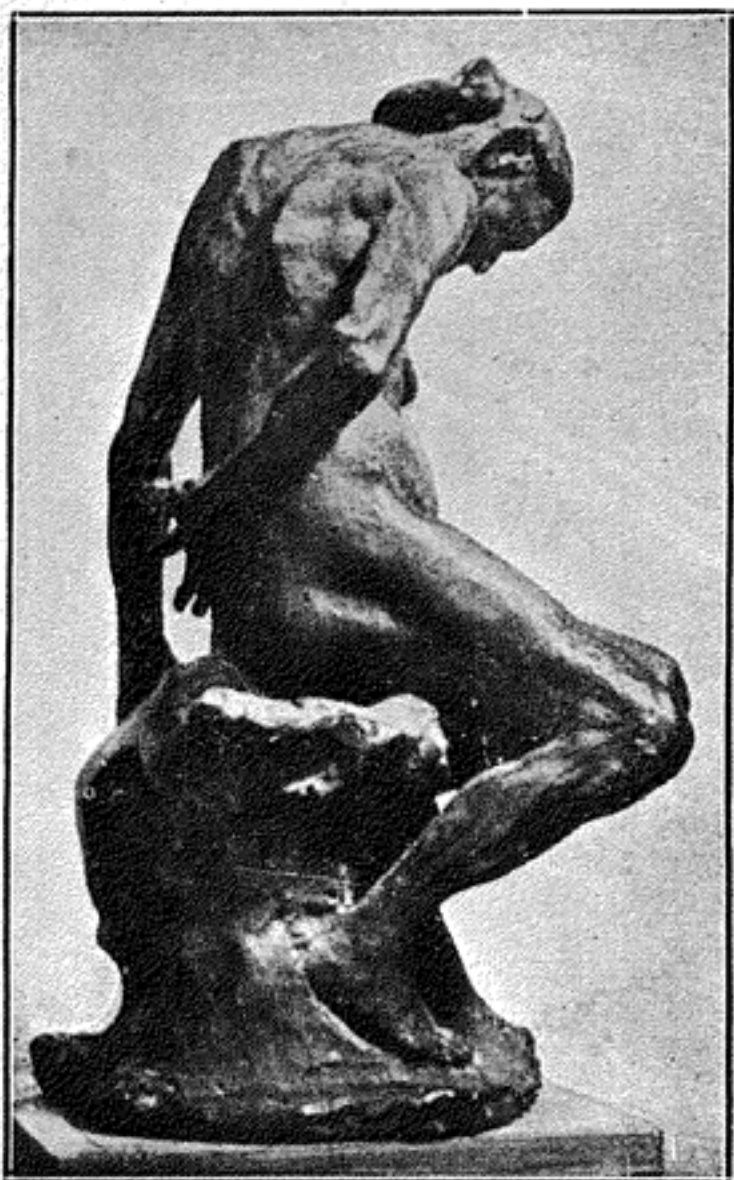
ولقد جئت بصورة تمثال لكبير من كبار رجال السياسة الحديثين وهو أبراهام لنكولن من صنع برنارد (شكل ٩) للقرنة بينه وبين ديمستينس وليس ذلك التمثال خير تمثال له . ولكنه تمثال يستحسنه الكثيرون . أما غايته فكانت صدق التمثيل الا أنه لم يبلغ بالتمثال غير حد السخرية (الكاريكاتور) وذلك بالمبالغة في تصوير خشونة لنكولن وحدة ملامحه وحجم كفيه وقدميه والقلق البادى على وجهه . ولقد ثبتت هذه المبالغة بمراجعة عدة صور شمسية وهي جميعها تدل على أنه كان أنيق الملبس لا ينقصه شيء من الهيبة بحال من الأحوال فتمثال ديموستينس آية في صدق التمثيل وهو يزيد على الحقيقة مسحة من العطف في حين أن تمثال لنكولن قد بعد عن الصدق وذلك راجع الى المبالغة في تمثيل أبغض ملامحه الظاهرة .

وإذا نحن أردنا أن نبين مقدار قرب فن النحت الأغريق من الحقيقة في تصويره يجب علينا أن نحول أنظارنا عن عصر الكمال الفني العظيم إلى العصر الهلنستي . جعل ليزيستراتوس اخوليسيپاس يتخذ من الجص نماذج لوجوه الأفراد وفي مدرسة الطب الكبيرة التي كانت بالاسكندرية كان تشریح الجسم الانساني من الأمور العادية بعد أن كانت تأباه الأجيال السابقة مدفوعة بعامل الورع والدين . فلقد كان بعض الجراحين أمثال هيروفيلوس وايرازستراتوس مشهورين بتمكنهم في علم التشریح . وانك لترى في المنتجات الفنية في القرن الثالث قبل الميلاد ما كان نتيجة لازمة لتلك الدراسة وهذا هو زيادة الدقة في تمثيل العضلات والجلد تمثيلا قائما على أساس من العلم صحيح .

ولم يتردد بعد ذلك الفنانون في تصوير أجسام أضناها التعب والتعرض للجو أو ضمرها الصيام . وفي متاحفنا كثير من أمثال هذه التماثيل وكلها آيات ناطقة على تلك الدقة العجيبة التي كان يعالج بها الفنانون صور الفلاحين أو المسنات من النساء أو صغار الأطفال . وهأنا أورد واحدة من تلك الصور وهي محفوظة برومة في متحف كنسرفاتوري الكابتلول وهي صورة راعية غنم عجوز على ذراعها حمل (شكل ١٠) ولكن مما يلاحظ أن الصورة ليس فيها ما تنفر منه النفوس على شدة محاسنها لما في الحياة العادية من الحقائق . وهي إلى حد ما أقرب إلى تمثيل الجنس منها إلى تمثيل فرد من الأفراد أو هي قصيدة من شعر الطبيعة أكثر منها صورة لشخص من الأشخاص وأنها لشبهة بقصائد (ريفيات) تيوكريتاس ، وهي تخالف أشد المخالفة تلك الصور الكريهة التي يصيبنا بها بلاء بعض المثالين الحديثين الذين يغالون في شغفهم بتمثيل الحقيقة المجردة وإن كانت

منفرة كما ترى في هولمير المعجوز التي صورتها رودين (شكل ١١) .
وهي صورة مومس مسنة بادية البلى .

وانى لأعرف أن بعض النقاد يدافعون عن هذه الصورة
مستندين الى ما فيها من عبرة خلقية اذ تقوم دمايتها دليلا على قبح
مصير الجمال الى البلى اذا سار في طريق الشهوات . ولكنى أقول
بملء فى أنى أشك فى صلاحية فن النحت لنشر مثل هذه الدروس
الخلقىة فانه جعل للتمثيل لا للشرح والايضاح .



(شكل ١١) هولمبير العجوز
(صنع رودين)



(شكل ١٠) الراعية العجوز
(صنع اسكندري)

الفصل الخامس

والآن نأخذ في الكلام عن المصباح الخامس من مصابيح الفن اليوناني وهو الطموح الى الكمال والتسامي الى المشل الأعلى فان اليونانيين في تصويرهم للعاني في جسم الانسان وتصويره قد سبقوا أمم الأرض جميعا وتركوا وراءهم آثارا خالدة : وما تاريخ الفن اليوناني الا تاريخ البحث عن الجمال والشعر والتنقيب عن كل ما يطرب ويسر .

ولقد كان لانج الدانمركي أول من فطن الى أن أقدم أعمال النحت عند اليونان لم تكن صوراً تحاكي الأشياء كما تبدو في عالم الوجود بل إن هي الا نتائج ما وعته ذاكرة المثال من صور العالم وهو يصوغها معا يضم بعضها الى بعض ويبرزها كما تهوى نفسه وتريد لا كما تحتمه طبيعة الأشياء ذاتها . وهذا عين ما يفعله النجباء من الأطفال اذا رسموا شيئا في كراستهم فتراهم يخرقون كل قاعدة من قواعد الرسم المنظور اذ يجمعون في الصورة الواحدة للشئ الواحد ما علق بأذهانهم من صور أوضاع مختلفة لهذا الشئ فتخرج الصورة من أيديهم متنافرة الأجزاء غير متناسقة فهم لا يغفلون اثبات خاصية في شخص يرسمون صورته اذا كانت تلك الخاصة قد استرعت انتباههم ولقنت نظرهم ولو كانت تلك الخاصة غير ظاهرة في الوضع الذي يرسمون الشخص فيه فهم يمثلون صورة الشخص موليا وجهه شطرهم ومع ذلك يمثلون رجله تسيران بجانبه لهم . وعندهم أن لكل وجه عيني ولكل جسم ذراعين سواء أظهر ذلك لهم في الواقع أم لم يظهر : وكذلك كان

من المؤلف أن يرى الناظر الى الصور التي حفرها اليونانيون بارزة على الأحجار في بدء عهدهم بالفن أن نصف الصورة من الرأس الى الحقو يبدو مواجهها له بينما يكون النصف الأسفل مجانباً بغير وجود قسم متوسط بين النصفين . ومن أحسن الأمثلة على ذلك وجهات سليناس المشهورة بصقلية على ان هذا الطريق في الفن سلكته جميع الأمم في أول عهدها به ولكن اليونان يمتازون عن غيرهم بأنهم بعد أن أصلحوا تلك الأخطاء الأولى احتفظوا بتغلب الفكر والتصور في فنهم على الأشياء المادية وجعل المكان الأول للانسان دون الطبيعة أو بعبارة قصيرة جعلوا المعاني أكبر شيء في الفن فلم ينظروا الى جسم الانسان كما ينظر اليه الماديون الذين يرون أن الجسم هو الانسان نفسه بل كانوا يرون انه غلاف خارجي هو نتيجة فعل الروح الكامنة فيه . فاذا نظروا اليه فبعين الخيال والتصور كما ينظرون اليه بالعين المبصرة . ولذا كانوا لا يقنعون بما هو كائن في الظاهر مجسدا بل يشربون الى معرفة ما استسر وراء تلك الظواهر . ولقد كان من رأيهم أن الطبيعة لا تبلغ غاية النجاح في تكوين الانسان وتصويره بل تقف دون غايتها وتقصر عن ابراز فكرتها . والفنان قد يدفعه حب تلك القوة الخالقة الى أن يقدم على اصلاح ما صنعت وان يعمل على تنفيذ أغراضها والسعى لانخراج فكرتها على الوجه الأتم الأكمل . وقد كان حب الفنان عندهم لجسم الانسان واجلاله له يغريانه دائماً بمحاولة السمو به الى درجة أعلى ومكانة أقرب الى الكمال في فن الرياضة البدنية عندهم إذ كان اليونانيون في ممارسة رياضة البدن لا ينظرون نظرة رياضي هذه الأيام فيقتصرون نظرهم على عدد ما يستطيع أن يقفزه الرياضي من الاقدام أو قدر ما يستغرقه من الزمن في قطع

مسافة ما . بل كانوا ينظرون أيضا الى جسمه وتكوينه وقوامه والى اتساق حركاته وانتظامها فاذا برز لهم رياضى قبيح الهيئة هتفوا بسقوطه كما كانوا يفعلون بالمثل اذا أظهر عجزا : وكانت معظم تمريناتهم الرياضية يقومون بها على نغمات الناي ولسنا نجد فيما خلفوه لنا من تماثيل الرياضيين تماثلا واحدا يظهر فيه عدم التناسب فى تكوين الجسم فلا ترى فى أحدها صدرا قويا مع ساقين ضعيفتين أو ساقين عضليتين مع ذراعين سقيمتين . ولعل صور بعض الرياضيين الذين امتازوا بجمال هيئاتهم وحازوا أعظم الإعجاب قد أثرت فى فئهم حتى أوجدت نموذجا خاصا نرى شيئا منه فى كل تماثيل من تماثيل الرياضيين كما أثرت صورة الاسكندر الأكبر فى تماثيل كافة قواده وأتباعه . ولا ريب فى أن كل من له دراية بنماذج اليونانيين وأشكال أجسام الرياضيين فى عصرنا هذا يرى فرقا بين هذه وتلك فان اعتدال الجوف وهدوء الشبان فى بلاد اليونان كان لهما أثرهما فى إبراز الجسم أكثر امتلاء باللحم وأكثر استدارة مما نراه فى بلاد الشمال فليس فى أجسام الرياضيين فى بلاد الشمال من التناسق مثل ما لليونانيين بل ان عضلاتهم أكثر بروزا وأجسامهم أكثر وعورة وأدق عودا .

ولقد أنشأ المدرب ^(١) الممثل الدكتور تيت ما كترى نماذج للقوة والجمال تختلف عما أبرزه اليونانيون ولكنها لا تقل عن ذلك جمالا فى بابها . ولقد عمل فى إبرازها على طريقة الممثلين اليونانيين اذ جعل قاعدة عمله متوسط الأقيسة التى أخذها عن جماعة من الشبان ومن خير الأمثلة لما أخرجه اليونانيون من هذا النوع ،

(١) ترجمة كلمة trainer وهو من يدرّب الرياضيين على الأعمال الرياضية .

تلك التماثيل الجميلة للملاكمين في القرن الخامس التي ألان حواشيها حب الكمال ولكنها بقيت بعد ذلك مثالا بديعا للتناسق والقوة ثم تمثال ابوكسيومنيوس (شكل ١٢) وهو تمثال رجل يحك جسمه بحجر كما كانت العادة عند الاستحمام وهذا من أعمال القرن الثالث بعد أن أدخل المثاليون في فنههم ما تعلموه من التشريح وكانت لذلك آثار حسنة وأخرى سيئة . وإلى جانب هذا التمثال يمكننا أن نضع تمثال الدكتور تيت ما كترى وقد أخرجه بعد موازنة دقيقة بين الأقيسة التي أخذها عن مئات من الشبان الرياضيين في جامعتي هارفارد وفيلاديفيا (شكل ١٣) . وهذا عمل من نتائج الطموح إلى الكمال في هذا العصر وقد أخرج على طريقة اليونانيين وهي التي كان لها الفضل في عظمة فن النحت الرياضى عندهم .

ولقد أتت نماذج الجمال النسوى في فن النحت عند اليونان متأخرة عن نماذج جمال الرجال ، ففي أعمال النحت الأولى عند أهل اطيقة وايونيا تظهر النساء متدثرات بالثياب ولم يجسرفدياس ولا معاصروه على اظهار المرأة مجردة عارية بل لقد أبرزوا جمال المرأة مستعينين على ذلك بالثياب وليس بعد تجريدها منها ولقد بقى لعصر براكسيتيليز وسكوباس أن يخرج آلهة الحب في صورة امرأة عارية ولقد أراد براكسيتيليز أن يعتذر عن تلك البدعة يجعله الاستحمام تفسير الضرورة لعرض المرأة عارية وتخفيفا من وزر ذلك . وانك لا تجد في تمثال الافروديت الذى صنعه براكسيتيليز أى أثر للدلال ومحاولة الفتنة واثارة الشهوات فهى تقف متماسكة في عظمة ونبيل فلا ترى فيها الا نموذجا ومثالا للجمال لا صورة شخص على أن المثاليين الذين جاءوا بعد ذلك قد خرجوا عن السنة سنة التناسق البسيط وحاولوا أن يجعلوا تماثيلهم أكثر استهواء للرجل العادى



(شکل ۱۳)



(شکل ۱۲)

ولكنهم لم يسرفوا في ذلك الى حد الضعف ولم يتبذلوا . ولقد كانت تماثيل الافروديت التي صنعت في القرن الرابع مقياسا للجمال النسوى وقد بقي ثابتا تتلقاه طبقة بعد طبقة من الفنانين حتى عصرنا هذا . ولعل خير هذه التماثيل جميعا اظهارا لذلك المعنى هو تمثال افروديت المجلوب من « ميلوس » والمعروض في اللوفر وهو من مخلفات العهد الهيلينسي (Hellenistic Age) وقد اجتمعت فيه عظمة تقاليد القرن الرابع مع ما اتصفت به العصور التالية من كمال الدقة في ابراز جميع أجزاء الجسم واكساب التمثال دلائل الحياة وأكثر المعروفين بحسن الذوق يستملحون هذا التمثال ولكني لا أحسب أن ذلك منهم عن علم واحساس صحيح بما في التمثال من جمال وكيف يكون ذلك وليس أبعد من الخلاف بين تركيب جسم آلهة ميلوس وبين أجسام النساء المشهود لهن بالجمال في هذا العصر . ولقد قام بخاطري أن أضع صورة تلك المعبودة الى جانب صور الأجسام التي تنقش على صحافنا المزخرفة فان هذه الصحاف لا تمثل المرأة كما هي بل كما تحب أن تكون . فهي لا تصور الواقع وانما تصور المثل الأعلى عند أهل هذا الجيل ويا له من مثل أعلى !

ولعل بعض القراء سيعجب من أني أتكلم بلهجة الجدد عن تلك الصور العرضية قصيرة الأعمار . ولكن من كان ملما بأصول علم النفس لا يمكنه أن يستهين بأمر هذه الصور فان عرض نماذج نسائية خاصة أمام الناشئة على أنها مثل للجمال ينبغي أن يحتذى مثاها يجعلها تترك أثرا في الجيل القادم فيبحث الشبان غدا عن نساء لهن هذا الجمال ليجعلوهن موضع إعجابهم ويسعون للتزوج بهن . أما الفتيات فيتمسكن السبل ليصلن الى مثل هذا الجمال وهكذا تكون

تلك الغلطة الشنيعة في فن الجمال عاملا من عوامل الانحطاط يهبط
بالناشئين رويدا رويدا من نور السماء وهوائها هاويا الى كهوف
الأرواح الخبيثة .

وليس يوجد في بلاد اليونان الا قليل من التماثيل تصور جمال
المرأة اليونانية الشابة بأبهى مما يتجلى في تمثال ارتميس الحابى الذى
سبقته الاشارة اليه (شكل ٥) على أنه لا يسعنا الا أن نقر بأن
مسحة الجمال السماوى لا تتجلى فيه واضحة ولكن فيه بعد ذلك بساطة
وظرفا وجمالا ومحاكاة للطبيعة قل أن يوجد مثالا في غيره .

وكما ان لاختلاف الجواء والشعوب أثرا في أشكال الرجال كذلك
لا شك في أن هذا هو حال النساء أيضا فان الأجسام المليئة الملتفة
تقل في الشمال وتكثر في الجنوب من أوروبا فالشعب الانجليزى
مثلا أطول قامة وأضعف تكوينا وأنحف هيكلًا من الشعب
اليونانى القديم وفي الشعب الانجليزى تحل الأوتار الصلبة القوية
محل العضلات الضخمة . ثم إن مزاولة الألعاب الرياضية لاشك
تجعل بناء أجسام النساء قريبة من بناء أجسام الرجال من بعض
الوجوه . ومن المعلوم أن مزاولة الألعاب الرياضية باعتدال قد
تحسن الصحة وتزيد القوة من غير أن تحرم الأعضاء الحيوية من
غذائها ولكن المرأة التى تسرف فى الألعاب الرياضية تكون أبعد
عن حياة الصحة الطبيعية من الرجل الذى يسرف فيها . وسواء
أكان الاجتهاد للجسم أم للعقل فان أثر ذلك هو حرمان المرأة من
انوثتها الحقيقية وانه لما يؤسف له انه لم يتح للعالم شخص يصور
لنا المثل الأعلى لجمال النساء كما فعل تيت ما كترى بجمال الرجال
أهل الرياضة . وبطبيعة الحال ليست الطريقة واحدة في الحالين
فليس فينا من يرغب أن يرى جمال المرأة ممثلا في صورة امرأة من

المنصرفات الى الألعاب الرياضية الا أن نكون قد أردنا أن يعود الى هذا العالم عهد جماعة الأمازون . ولكننا في أشد الحاجة الى أن تعرض أمام أنظارنا نماذج تجتمع فيها كل عناصر المثل الأعلى لجسم المرأة الصالحة القوية . أما الآن فانا نرى العاريات في الفن لا تزال صورتهم مأخوذة على الأكثر نقلا عن اليونان على حين نرى تماثيل الكلاسيات تصاغ في قالب من تراهن في الشوارع من النساء على صور مختلفة حسب ما يقتضيه تقاليد الأزياء التي لا رابط لها . ولذلك تجد التباين بين الصنفين عظيما ولقد كان اليونانيون اذا رسموا صورة امرأة على آنية رسموا أولا خطوط جسمها ثم أضافوا اليه الملابس بعد ذلك . أما اليوم فان من يحاول أن يرسم ماتحت ثياب المرأة من خطوط جسمها على آنية مزخرفة فانه يقف مشدوها أمام الشكل الذي رسمه ولقد حكى شيشرون حكاية قيمة عن الرسام زيولسيس الذي عاش حوالي (عام ٥٠٠ قبل الميلاد) اذ كلف بأن يخرج لأهالي كروتون صورة لهيلانه الطروادية فكان أول ما بدأ به عمله أن سأل عمن اشتهر بجمال جسمه بين فتيان تلك المدينة المعروفة بكثرة الألعاب الرياضية فيها ويظهر أن مثل هذا السؤال كان في طوق العامة أن تجيب عنه . ثم طلب أن يسمح له بفحص أجسام أخوات هؤلاء الشبان اذ رأى أن الأخوات لا بد أن يشاركن الأخوة في الجمال حتى اذا ما تم له ذلك اختار من أولئك خمس فتيات جعلهن موضع بحثه بعد ذلك وعلى هذا الوجه أخرج الصورة المطلوبة منه . ولا يستطيع أحد أن يقول ان هذا الرجل كان من الجهل بحيث يأخذ عفوا شيئا من جمال هذه وشيئا من جمال تلك من فتيات الخمس ويصوغ من هذه المجموعة صورته المطلوبة فانه لو فعل

ذلك لما زاد على أن يخرج الناس صورة تمثل أبشع ما وصل إليه الخلط وعدم التناسب ولكن اشتغاله وسط هذه النماذج الجميلة شغذ ملكة ادراك الجمال في نفسه الى أقصى حد يستطيع ادراكه .

ففي هذه الحكاية مواضع كثيرة جدرة بالملاحظة فمنها نعرف أولا أن ما اصطلح عليه عند اليونان أن يكون مثالا للجمال كان أتم وصفا وأكثر تحديدا في الرجال منه في النساء . وثانيا أن الفنان اليوناني كان دائم اليقظة لا تفوته لحظة من لمحات الجمال حتى يزيد بها تالد الفن وراثته . ولقد قال الأستاذ بروك في كتابه القيم عن جمال الجسم الانساني : ان التأمل في أبدع تماثيل اليونان يرى ملامح قل أن يجدها في عالم الوجود بين النساء أو الرجال ولكن لا جدال في قوة سحرها وجمالها فقد ظل محصول ما في أذهان الفنانين من صور الجمال يزيد عصرا بعد عصر وطبقة بعد طبقة فكان كل نموذج جديد للجمال يفحصه فنان يضيف شيئا الى ما كان الأستاذ بروك يسميه : خزانة المحاسن التي كانت تحت يدي الفنانين .

الفصل السادس

أما المصباح السادس للفن اليونانى فهو الاجتهاد فى بلوغ الكمال فان الناظر الى أعمال الحفر الدقيقة لدى اليونان يرى من دلائل عدم الضن بالوقت والجهد ما يذكر الانسان بعمل الطبيعة نفسها . تلك الطبيعة التى لا ترى أبدا وهى تعمل فى عجلة ولا تقنع بتخطيط سريع بل تعمل فى أناة وتؤدة غير مبالية بفوات الوقت . ولقد أتانا حديث پروتوجينيس أنه قضى سبع سنوات كاملة فى رسم صورة واحدة وانى على يقين أنه كان يقضى سبعا غيرها عن طيب نفس لو علم أنه بذلك يستطيع أن يحسن هذه الصورة وأن أول ما يلفت النظر فى تمثال سائق العربى الحربىة الذى وجد فى (دلفى) أو تمثال هرميس الذى صنعه براكسيتيلز هو تلك العناية الفائقة التى بذلت فى اخراج جميع التفاصيل الى العمل الدقيق المتواصل جيلا بعد جيل يرجع الفضل كله فى علو شأن فن النحت حتى صارت له تلك القدرة على تمثيل العضلات كما تبدو فى تمثال المحارب المعروض فى اللوفر وتلك الدقة فى تصوير الثياب كما تبدو فى صورتى (انتصارات الشرفه بأثينا) أو (انتصارات ساموتريس) . ولكن أكثر ما تبدو دقة اليونانيين فى نفس الصور البارزة على قطع النقود والجواهر . ولم يكن الغرض الأول من النقود أن تكون جميلة الشكل تسر العين ولكن كان القصد منها أن تصلح للتداول فى أسواق السمك ومع ذلك فان كثيرا منها قد بلغ من الاتقان ما لا يباين اذا كبرت معه صورها مرات لم يذهب من جمالها شيء يذكر ولن تظهر منها عين الناقد بعيب أو نقيصه . وكانت فصوص الجواهر

تستعمل نختم الوثائق اذ كان الخاتم في ذلك الوقت يقوم مقام التوقيع اليوم . ولكن ما نقش على تلك الأختام يبدو في احكام صنعته كأحسن ما نحت المثالون . بل ان الأختام في غالب الأحيان اذا كبرت صورها لم ينقص جمالها بل يبدو أكثر منه وهي صغيرة . ومع ذلك فانا نعلم أنها قد صنعت من غير استعانة بالمجاهر .

وموضوع تلك الصور ليس محدودا ولا مخصصا ففنها صور الآلهة ومناظر أقاليم اليونان وصور الناس وأشكال من الحيوان . وكذلك ترى أنها هي وقطع النقود قد أدخلت في الحياة المعتادة الفاترة عناصر من الشعر والخيال .

الفصل السابع

أما الخاصة السابعة فهي المرح أو التنعم بالحياة وهي والخاصة الخامسة أعنى الطموح الى الكمال صنوان متوافقان توافق الخاصتين السادسة أعنى العناية والصبر ، والرابعة وهي محاكاة الطبيعة .

ولقد وصف الشاعر كيتس في بيت واحد خالد روح الفن كما كان يفهمه اليونانيون حين قال : (انما الشيء الجميل معين سرور لا ينضب) . وأنت فانك ترى البشر الفياض الذى هو أساس الخلق وأصل التطور ممثلا خالدا فيما صنع اليونانيون من تماثيل وصور بل هو الذى ألهمهم فى كل ما صنعوا . وأن ذلك البشر الذى لا حد له وهو الذى منح الزهور زاهى ألوانها والفاكهة حلو مذاقها والطيور جميل تغريدها والذى حرك فى البشر شعورهم الجهنسى قد بلغ تصويره فى الفن اليونانى غاية الغايات بيد أن حياة اليونانيين لم تكن خالصة السعادة غير مشربة بالأكدار ، فكثيرا ما نشبت الحرب بين المدن اليونانية وكان جزاء المدن المدحورة أحيانا أن تدك أسوارها ويقتل رجالها وتسبى نساؤها وكثير ما اجتأح المرض أرضهم بل فتكت الأوبئة بهم وهم لا يجحدون من فنى الطب والجراحة اذ ذاك ما يستعينون به على صد غائلتها ويركنون اليه فى تخفيف ويلاتها كما نفعل نحن اليوم وكان السواد الأعظم من أهل الريف الذين يأوون الى أكواخه الحقيرة أو من أهل المدن الذين يترغون فى حماها القذرة وبخاصة من كان يعمل منهم فى المناجم . كان كل هؤلاء يعانون من شظف العيش وبؤس الحياة ما لا يعرفه أهل هذا العصر فى حياتهم العادية . ويزيد على ذلك

أنه لم يكن لديهم من الآمال في حياة أخرى هنيئة مباركة ما يهون غصتهم وينفّس كربتهم ويخفف عليهم شقاوتهم كما كان شأن الناس في القرون الوسطى . ومع هذا فقد عاشوا تحت هذه السحب المعتمة القائمة بقلوب ملؤها الأمل ونفوس مستبشرة طامحة . وكانت فنونهم تمثل أبدا جانب الحياة اللامع المضيء ولا شك قد كانوا في ذلك منهم عن حكمة . فلم تكن الفنون لتثير فينا التشاؤم بل لتوحى إلينا التفاؤل ولم تكن الفنون لتعرض علينا من الطبيعة جانبها الكريه المنفر بل لتكشف لنا عما فيها من جمال باطن وحسن مستور ، فأنما الحياة غايتنا وليس الموت ونحن انما نسعى الى حياة أطول وعيش أحفل وأرغد .

على ان الفن اليونانى كان في بعض صورهِ جاها عبوسا شديد الحساسية بما في هذا العالم من ألم وشر فقد اخترع اليونانيون المأساة وما هي الا نظرة الشاعر الى قسوة القدر وتفكيره في جوره وعسفه . وأنت هل تجد في هذا العصر جماعة من النظارة تستطيع أن تحملهم على أن يبقوا يوما كاملا من أيام الصيف يستمعون فيه قول شاعرين مثل اسكيليس وسوفوكليس في وصف قوة نمسيس أو في وصف زوال السعادة وقلة ثبوتها أو في بيان المصائب التي تصوّر حياة كل من أثار على نفسه الآلهة . كلا وألف مرة كلا ! وانك لا تجد وصف الأحران في المأساة اليونانية وحدها بل انك واجد ذلك في المراثى وما يكتب على قبور الموتى حيث تتعكس عناصر صادقة لنفوسنا تمثلها ساعة اكتئابها . ولكن اليونانيين رأوا أن النحت والتصوير لا يصلحان أداة لتصوير خواطر الحزن واليأس التي لا يجوز عرضها في الأسواق والمعابد اذ هي ليست من المآلات النفسية الثابتة ، بل إنها تقوم بنفس الشخص آونة ثم تحوّل —

وكانت الطرق الى بعض المدن كثيرا ما تقوم على جوانبها قبور أثرية لتخليد ذكر بعض الناس فلو أن شيئا نقش على حوائط هذه القبور يدل على حزن أهل الميت وأسفهم اذا لدخل المدينة من يداخلها وفي نفسه من تلك الكلمات أسي وعلى وجهه اكتئاب وتجهم ولكن الفنانين من صناع ونقاشي القبور تجنبوا كل ما يثير في النفس أحزانها . وذلك أمر يعرفه كل من زار متاحف الآثار الآثينية . فتراهم يمثلون في المتوفى خير حالاته وأبهجها فيصوّرونه وقد خرج منصورا من حرب ويمثلونه في محفل رياضي أو جالسا وسط حلقة سعيدة من آله وعشيرته . أجل انه ما كان في مقدورهم أن يحولوا دون أن يكون في المنظر ما يبعث في النفس شيئا من الشجوا الهادئ ولكن لم يكن في عملهم شيء مما يصدّم الشعور ويدخل الكتابة على النفوس وكانوا في تمثيلهم للمتوفى يصوّرونه كأنما يشارك الأحياء في مسرات الحياة وأعمالها لا كمن حجب عن سعادة الدنيا حجابا وحيل بينه وبينها .

وقد وصف ملتن في بعض كلامه الباهر شعور السرور العميق الذي فاضت به قلوب الناس في عهد النهضة العلمية عند ما استنقذوا الانجيل وأصبحت لهم الحرية التامة في مطالعته والنظر فيه بعد أن كانت الكنيسة تستأثر به دون الناس . وكذلك كان فرح العلماء والفنانين بل لقد كان فرحهم آنق وأزهى بأحياء الآداب والفنون الأغريقية التي قضت على روح التشاؤم ومحت فكرة الزهد في الحياة وهما اللذان سادا في القرون الوسطى وأوجدا جماعة الرهبان الكرميليين والقسيسين المتسولين فكأنما عاد الى الدنيا شبابها بعد هرم وأورق عودها بعد جفاف . على أن هذه الوثبة الفجائية قد أدت الى الاسراف المشين ولكنها بقيت مع ذلك أثرا قائما يمثل خطوة من أعظم خطوات الانسانية في سبيل التقدم والرقى .

الفصل الثامن

أما المصباح الثامن فهو المزاملة . ولعلك لا تجد من صفات الفن اليوناني صفة هي أكثر افادة لأهل هذا العصر من هذه الصفة فقد امتاز عصرنا بروح الفردية التي جعلت من حق كل فنان بل من واجبه أن يظهر شخصية في عمله فلا يخرج للناس الا ما كان صورة أصلية لما يقوم في نفسه من صفات وما تنفرد به من خصائص . وليس من شك في أنه ما من فنان عظيم يستطيع أن يفعل غير ذلك الى حد ما لأنه عند ما يعمل لا يستطيع أن يكون غير نفسه وهو لا محالة ناظر الى العالم بمنظار هيأه له خلقه ومواهبه ، ولما كان الانسان صورة مصغرة للعالم البشرى أجمع كان من الطبيعي أن يوجد في هذا العالم من يعجب بما امتاز به المصور من عناصر الجودة وقوة الابتكار . وأن يفهم ذلك منه فريق من الناس ممن نشأوا نشأة خاصة أو عاشوا في طبقة خاصة من الناس أو كانوا أهل بلاد خاصة . غير ان البحث فيما اذا كان يحدد في الفنان أن يعتمد اظهار شخصيته وابرازها . وفيما اذا كان يرتفع قدره بأن يخرج للناس صورة تنعكس فيها نفسه لا شأن له بما نحن فيه من الحديث . فنحن نجد أن أعظم ما يستوقف نظر من يدرس الفن اليوناني هو سيره في سبيل من غير انقطاع ولا توقف فهو من يوم ان بدأ لم ينكص خطوة واحدة بل سار في طريقه الى الأمام يذلل عقبة بعد عقبة ويصعد طبقة بعد طبقة حتى اذا ما كان القرن الخامس تشعب فروعاً وانقسم مذاهب وسار بعد ذلك كل واحد منها وقد ارتقت وسائله ومهارته العملية ولكنها جميعاً انحطت روحها

وخبت نار الهامها . وهذا منهج من النشوء والتطور في الفن . لا يختلف في ثبات سيره عنه في الحيوان والنبات . وهو يدل على أن الفن لم يعتمد في نموه وارتقائه على ظهور عدد من الرجال ذوي الكفايات والعبقرية واحدا بعد الآخر لا هم لكل منهم الا أن يكشف للناس عن شخصيته ولكنه اعتمد في ذلك على ظهور عدة مذاهب أثرت فيه أثرها ولم تكن كل منها تترسم خطوات مؤسس لها أو أساذ لا تخرج عما رسمه ولا تحيد بل كانت تمثل وجهها من أوجه ارتقاء الحياة عند الشعب اليوناني وكانت المذاهب ما بين ايونانية ودورانية أو أطيقية وأرجيفية وهو تقسيم يتوافق مع حضارة الأقوام التي يتألف منها الشعب اليوناني . فالفن الايونياني تمشي مع روح المرح وروح المسرات اللذين اشتهر بهما الساحل الأسوي والفن الدوراني كان صورة ممثلة للاعتدال والتوازن وضبط النفس وهي الصفات التي عرف بها أهل بلوبونيسس . أما الفن الاطيني فقد كان متناسبا مع الذوق الراقى المصنفي الذي اشتهر به أهل أتيننا ثم بعد ذلك جاء وفق النزعة العلمية التي تملك عقول أهل تلك المدينة التي لم يخلق قبلها ولا بعدها في البلاد ما هو أشد كلفا منها بالعلوم وشغفا بالمعارف . ومن المحقق أن هذه المذاهب لم يقيم كل واحد منها ويزدهر ويبنه وبين الآخر حجاب حاجز وفارق فاصل فقد أثرت كل مدينة في غيرها من المدائن كما أثر كل فنان في زملائه من الفنانين ولكن ذلك التأثير كان أقل بكثير مما هو الحال في هذه الأيام .

فالمذهب الواحد كان عبارة عن نوع قائم بذاته وكان كل فرد من أتباع المذهب أشبه بزملائه منه بمعاصريه من أتباع المذاهب الأخرى . ولذلك كان من السهل علينا اذا نحن فحصنا عملا من

أعمال النحت عند اليونان قبل أن تنشأ المذاهب الاكلكتية^(١) أن نعين زمنه نعيننا قريبا من الصواب وأن ننسبه الى مذهب خاص بغير أن يخالفنا شك في تقديرنا وذلك مع نقص علمنا بتاريخ الفن اليوناني ولكن قلما نستطيع أن نقول ان عملا من الأعمال هو من صنع فنان معين اللهم الا اذا قام التمثال على قاعدة عليها اسم الصانع أو أن يكون قدماء النقاد والمؤرخين قد خلفوا لنا وصفا مفصلا لأثر باق من الآثار الفنية . هذا وان ما أقوله انما أقصد به الأعمال التي ابتكرها اليونانيون ، أما ما قد نقله المثالون اليونانيون المتأخرون في عهد الرومان عن آثار سلفهم ليزينوا به المتاحف الرومانية فان فيه من اخلاط الأساليب وقلة العناية في العمل ما يجر الى الخطأ حتى ولو كانت من التماثيل التي بقيت على حالها ولم تمسها يد المثالي الايطالي الحديث باصلاح ما .

وان السلسلة المتصلة العظيمة من التماثيل والصور البارزة التي تكون في مجموعها زينة المعابد أمثال معبد (زيوس) (بأولبيا) و (الپارتنون) أو (الموصلوليوم) لى عمل مشترك قام به عدد من المثالين وكانوا ولا شك تحت اشراف مهندس معمارى أو بناء رئيس ولكن أغلب الظن ان الاشراف عليهم كان جد قليل . وانك لتجد في تلك الأعمال طرقا شتى يربط بينها تشابه عام وقد بلغ من شدة ذلك التشابه ان المشاهد الغير المدقق لا يرى بينها فرقا ولعل رأى السائد في انجلترا هو أن فيدياس قد صنع كل أعلى المداخل وأفاريز (الپارتنون) على أنك قد ترى بين الصور المتجاورة فرقا واضحا وسط ذلك التشابه العام وهذا ما يدل على أنه قد قام بصناعته

(١) مذاهب في النحت كانت في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد في بلاد اليونان .

أيد مختلفة وفي (الأركتيوم) بأثينا لا يزال توجد الى الآن جريدة طويلة بأجور عدد من الصناع قاموا بصنع التماثيل المختلفة في الأفريز ولم يكن هناك (مقاول) عام ولا صانع مهيمن قام بنفسه على تأجير البنائين مياومة بل أن كل صانع أتم صنع صورة من الصور البارزة كان يأخذ نظير ذلك ستين درهما ولم يكن لصعوبة الصورة أو بساطتها دخل في الأجرة وانه لمن السهل أن تأتي بجماعة من البنائين المهرة ليقوموا قياما تاما متقنا بانفاذ خطة قد رسم لهم تفصيلها ولم يبق عليهم الا أن ينقلوها نقلا صحيحا — ولا شك لقد كان سهلا على جماعة من المثاليين المصريين الذين كانوا ينقلون أشكالهم عن نموذج ثابت مصطلح عليه قد كان سهلا عليهم أن يأتوا بنتيجة متجانسة متشابهة. ولكن لقد كان أكثر من هذا شدة وأعظم صعوبة أن يقوم عدد من الصناع المهرة لهم حرية واسعة في تفاصيل العمل بصناعة شكل متجانس متشابه. فاذا نحن رأينا الصناع اليونانيين قد أتوا بمثل هذه النتيجة عادة أمكننا أن نعرف مقدار تأثير المذهب الفني فيهم — ولم يكونوا في عملهم ينقلون به الطبيعة وحدها فقد كانت أعمالهم من نوع به أثر الطموح الى الكمال ويرمى الى ابراز الفكرة في شكل مجسم — ومن الواضح انهم كانوا يستعملون آلات واحدة ويتبعون طريقة متشابهة في صنعهم وفوق ذلك كانوا يقصدون الى غرض واحد وفكرة واحدة ولا بد أن يكونوا قد ألفوا من مجموعهم ما يصح تسميته بشخصية الجماعة وأن أغلب الزان أن المثاليين الشهيرين الكلامنيس واجورا كريتس كانا من بين المثاليين الذين ازدان بفهم البارثينون ومن المحقق أن براكييس أحد تلاميذ كلامبس ولعله قريب براكتيلز قد عمل في البارثينون أيضا وبهذه المناسبة نقول

إن الفرق الذي نراه اليوم بين المثال والبناء لم يكن معروفا في بلاد اليونان فكل بناء من ذوى المواهب والكفايات كان يصبح مثالا معروفا كما أن المثال ما كان يصنع نماذج من الشمع وعجينة الجبس بل كان ينحت تمثاله في الحجر بنفسه كما كان يفعل ميكلائجلو أو يصبه في البرنز كما كان يصنع بنفينوتوسيليني وقد وجدت روح المزاملة في كل عصر من العصور التي زها فيها الفن وأينع وانا لنرى في فن النحت بوجه خاص أن الصلة بين وضع فكرة التمثال ونحت التمثال نفسه هي من الشدة بحيث يعتبر من فساد الرأي اسناد هذين العاملين الى رجلين مختلفين بل الى رجلين من مهتين مختلفتين ولقد اشتهرت اليونان بأنها بلاد النقابات وأن فيها اسرا امتازت بوفرة فنانيتها وأن بها طوائف من العمال تعمل بقلب واحد وروح واحدة ولذلك تخرج أعمالهم على نمط خاص وطرارز واحد وانا لنجد لمدرسة النحت اليونانية نظيرا قريبا الشبه بها في تلك الجماعة من الفنانين السابقين على روفائيل الذين عاشوا في منتصف القرن الغابر وكان قوامها موريس و برن جونس وروزتي وميليه وكلتز وأصحابهم فقد جعل أفراد هذه الجماعة من الكشلكة الانجليزية التي نشأت في اكسفورد في ذلك الوقت فاتحة دينية لحياتهم الفنية وكانت لهم في الفن مبادئ مشتركة كانت تتضمنها أعمالهم .

ولذلك كانت صورهم — قبل أن تتشعب بهم طرق الفن ومسالكه — تكون نوعا خاصا قائما بذاته ولها من الأهمية في نظر المؤرخ الذي يدرس الحضارات فوق ما لأية مدرسة من مدارس الفن في انكلترا .

الفصل التاسع

إذا أردنا أن نعرف الى أى حد أثر الفن اليونانى فى الحضارة الأوربية يجب علينا أن نتبع تاريخ عودته الى الظهور فى العصور المختلفة فقد كانت رومه أول من دان له من البلاد اذ جلب اليها المنتصرون من قوادها أمثال مرسلس وسيديو وفلامينوس وماموس وغيرهم شيئا كثيرا من التماثيل والصور اليونانية ليمجدوا نصرهم بعد أن سلبوها من المعابد والمدن فى بلاد اليونان وصقلية وآسيا الصغرى وقد حذا الأباطرة الأولون حذو هؤلاء القواد وبرز الجميع فى ذلك الأمر براطور نيرون ولذلك كانت المحال العامة فى زمن بلبنى العالم الطبيعى المشهور مكتظة بما حشد اليها من تماثيل اليونان المصنوعة من البرونز والرخام وما جلب اليها من بدائع ما رسم الفنانون منهم ، ولقد رغب السراة بعد ذلك أمثال هورتنسيوس وشيشرون فى اقتناء هذه التحف يماثون بها بيوتهم الريفية ولما لج الناس فى طلبها وتهافتوا عليها وتعسر عليهم أن يحدوا منها ما يكفى لقضاء بغيتهم استقدموا الى رومة كثيرا من الفنانين اليونانيين وأنشأ هؤلاء مصانع لهم كان لا يزال يتدفق منها على اليونانيين فيض من المصنوعات الفنية وهى التى تملأ اليوم متاحفنا ويمكن أن يقال عنها بوجه الاجمال أنها ليست بذات قيمة فنية عظيمة فهى منقولة عن أعمال الأجيال السابقة نقلا تتفاوت فيه درجات الاتقان والاحسان وذلك لأن سراة الرومانيين لم يكن ذوقهم الفنى بالخالص السليم فان أحدهم كان اذا رأى أن مجموعة فنية قد اكتسبت شهرة عظيمة حرص على أن يجعل فى داره الريفية صورة منها وبخاصة اذا علم أن

أحد الملوك أو إحدى المدن قد بذل في سبيل اقتنائها ثمنًا غاليا وكان الفنانون الذين يقدمون على هذا العمل لا يخرجون عن كونهم عمالا بالأجر مقلدين قانعين بذلك راضين لا مطمع لهم في الفن ولا غاية . على أنه عند ما دعى بعضهم إلى إنشاء قوس طيطوس وعمود تراجان ووجدوا في ذلك نوعًا جديدًا من العمل لم يألوه كان هذا باعثًا لهم على أن يحاولوا أن يأتوا بشيء لم يسبقوا إليه كما أنه كان يحدث أحيانًا أن تتقد جذوة الفن المطعمورة في نفوس هؤلاء الصناع فيظهر أثرها في عمل فني يفوق في دقته وجماله سائر أعمالهم . وقد زها الفن في عهد الامبراطور هدر يان نصير الفنون ولكن ما أخرجه الفنانون في عهده كان فيه من الرقة والرشاقة والجمال أكثر مما فيه من الأهمية وقوة الابتكار ولم يكن الشعب الروماني يقدر ما في الفن من قوة ساحرة ولم يحفل بحسن التمثال أو قيمته إلا القليلون من أهل الثقافة على أن تقدير هؤلاء للحسن منها والقبیح لم يكن يخلو من خطأ يدعو إلى التجل .

ثم إنه في القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح تغلغت المسيحية في الدولة الرومانية حتى شملتها ولقد نشأت المسيحية بين اليهود وهم قوم يمتقون كل المقت تمثيل الكائنات الحية وتصويرها ، ودرجت تحت ظل التصوف الشرقي اليوناني الذي لا صلة له بفني الحفر والتصوير على أنها عندما أخذت بطرف من هذين الفنين سلكت سبيل الرمز وهو ما كان يعمل الفن اليوناني على محاربة ومعارضته . فليس لنا بعد ذلك أن نتظر تقدما جديدا في الفن في عهد المسيحية الأولى بل على النقيض من ذلك يجب أن نتوقع اساءتها إلى الفن وزرايتها به . وإذا نحن تناولنا بالفحص آثار الفن المسيحي في القرون الأولى فيما نقش على التوابيت وصور

على الجدران وجدناه صورا منقولة عن آثار الفن الوثني في ذلك العصر لا تمتاز عنها بشيء سوى اختلاف الموضوع وما أدخل عليها من التحوير على الطريقة الرمزية التي كانت تمثل بها بعض المناظر العادية .

ولما جاءت المسيحية كادت تقضى على فكرة تمثيل الآلهة في صورة بشرية كما كان يفعل اليونانيون الذين اقترنت عندهم هذه الفكرة بمذهب تعدد الآلهة وعبادة البطولة . فلقد كان الرسل والقديسون المسيحيون — وهم الذين حلوا مكان آلهة اليونان — بشرا مثل الناس يدقون التاريخ أعمادهم ولا شأن للتولوجيا بهم ، ولو أن الحد الفاصل بين التاريخ والتولوجيا لم يكن اذ ذاك بينا واضحا — ولم يبق من آثار تمثيل القوى الطبيعية في صور بشرية غير الشيء القليل من الصور التي رسمت على القبور الرومانية تمثل آلهة الأنهار . وكذلك كنت ترى على هذه القبور من النصور ذات الأجنحة شيئا كثيرا ولكحك لا تستطيع أن تجزم ان كانت من آلهة الحب المعروفة باسم كوبيد أو من الملائكة ذوات الأجنحة المعروفة باسم شيرويم ولم يكن المجال واسعا ليمرح فيه المثال الفني فيملا الدنيا صورا تمثل الرومان ذكرا أو أنثى — أما الملائكة فقد تسامح هذا العصر في تصويرها . ولكنها كانت صورا مأخوذة عن وصف الملائكة عند اليهود . ولم يكن عندهم تقاليد فنية لتمثيلها ولم تتجدد صورة ميخائيل ورفائيل وجبرائيل إلا بعد ذلك . وكانت الظاهرة الثانية من ظواهر الفن اليوناني أعنى التوازن والتناسب قد اندثرت معالمها في الفن الوثني في العهد الانتونتي فكان ما نقش على جدران أقواس النصر وجوانب التوايت عبارة عن مجموعة من الأشكال يزحم بعضها بعضا من

غير قاعدة ولا ترتيب بل إن ما صور على جدران مدينة بومبي لم ينسق تبعا للنظام المتبع وكان خلوا من كل ترتيب ذلك لأن القانون والنظام كانا قد انزويا وأفسحا الطريق للخيال الحر والآراء الفردية إلا في الحالات التي تتبع فيها الطرق القديمة وباختفاء التنسيق الفني اختفى أيضا كل ما كان يبذل من جهد نحو السمو إلى المثل الأعلى بل لم يكن الفنانون يحاولون أن يضعوا صورا أوتماثيل تفوق الأشكال العادية جمالا ونبلا وكانت صورة اتثنوس آخر صورة حاول فيها صاحبها أن يخرج لنا شكلا بلغ في جماله حد الكمال حتى أنك لترى صورة العذراء وابنها قد رسمت دون أن يبذل في صنعها أقل مجهود في إلقاء مسحة من الجمال على من فيها وقد غابت أيضا ظاهرة أخرى من ظواهر الفن أعنى محاكاة الطبيعة فلم يكن الجسم نفسه موضع العناية عند التصوير إذ كانت الأجسام ترسم كاسية بالثياب وكانت هذه الثياب تصور على الوجه الذي جرت به عادة العصر ولم يعر الفنانون أقل عناية بادخال المناظر الطبيعية في الصور بل هم في ذلك أكثر اغراقا في الإهمال من فناني العصر الهيلنسي والحقيقة أن الانسان يحس أن الفنان لم يكن يستشعر أى لذة في عمله فهو إنما كان يعتمد الى تصوير بعض المناظر المأخوذة من العهد القديم والعهد الجديد ولم يزد عمله هذا على أن يكون ضربا من ضروب استعمال الصور لأداء الآراء أو الحوادث المختلفة فان صورته كانت مجرد محاكاة لبعض المجموعات القديمة ولم يكن يقصد بالصورة الا ما تؤديه من المعانى إذ كانت الفكرة الدينية الأخلاقية تغطى على فكرة التصوير لذاته .

وساد المذهب التعليمي وغطى على حب الجمال وفهم الطبيعة وادراك النسب من الأشياء وظلت هذه السيادة يتسع مداها

كلما توغلت أوروبا فى طريقها الى العصور المظلمة وتضاءلت مصابيح الفن اليونانى وأخذ يكسف نورها شيئا فشيئا ولكنها لم تطفأ جملة لأنه لم يخل جيل من طائفة من الفنانين كانوا يرون فى تلك المصابيح نور الحياة وضياءها ولا تزال تعثر فيما خلفته القرون الوسطى من أعمال الحفر على صور تمثل الانسان ولكن معظمها فى أشكال غريبة هزلية . وليس يغرب عن بالنا أنه كان لا يزال قائما بين الناس بعض بدائع الفن اليونانى مثل عامود تراجان وقوس بنقتوم وانها وان غفل العامة عن تقديرها فلم يكن يخلو الحال من فنان يستمد منها حبه للجمال وحسن تقديره له .

وما وافى القرن الثالث حتى بدأت العظام البالية تتقارب ويتألف منها جسم الفن استعدادا للبعث وتأهباً للذشور . وهب على أوروبا — أوعلى الأقل بعض الأجزاء منها كشمال إيطاليا وجنوب ألمانيا وشرق فرنسا — نسيم من الحياة جديد أنعش النفوس وجادها نحيث أحيا الموات وقامت الكاتدرائيات الفخمة وأهابت بالمصور والمثال أن يشحذا عزمهما لتزيينها وتزويقها ونشأ فن المسيحية عظيم وأورقت غصونه وأزهرت أفنانه فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر وكان هذا الفن ولا شك ينطوى على كثير من صفات الفن الصحيح فكانت تتجلى فيه خاصة المزاملة ولم تكن أعمال النحت من عمل الأفراد بل من عمل جماعات يدفعهم الى العمل باعث واحد ويعملون لغاية واحدة بأسلوب واحد وقد بلغ هذا الفن غاية عظمى من حيث رتبة المباني وتنسيق صور النبات والأزهار واعدادها للقيام بهذا الغرض ولكن أعظم ما يكون النقص فى هذا الفن ظاهرا هو فى تمثيل الأجسام البشرية عارية أو كاسية إذ لم يتح للفنان من وسائل الدراسة والتعلم فى هذا المقام ما أتىح للفنان اليونانى .

ثم أتى عهد النهضة العلمية بعد تشّتت علماء القسطنطينية في أنحاء أوروبا فتجدد اهتمام الناس بالفلسفة والآداب اليونانية وعاد نفوذ الفن اليوناني فسيطر على عقولهم وقد استكشف في ذلك العهد بعض أعمال الحفر القديمة أمثال اللاوكون والرجل الغالى الذى يموت واپولو بلقيدير .

وتقدم جماعة من الأغنياء يؤلفون مجموعات من الجواهر والمسكوكات القديمة — وان المطلع على تاريخ بنفونوتوسليني يستطيع أن يعرف الى أى مدى بعيد بلغ أثر هذه الاستكشافات فى الفن .

فلقد أحس الايطاليون فى القرن الخامس عشر والسادس عشر كأنما خرجوا من الظلمة الى النور وكانت تنتهى غاية الفنان منهم أن يبلغ من الفن ما بلغ اليونان وهذان دوناتلو وميشيل أنجلو قد اتخذوا من بقايا البدائع اليونانية نماذج يحتذيان على مثالها ويقيسان قدرتهما بقدر ما يتاح لهما من النجاح فى تقليدها فعادت الى الفن اليوناني بعض خواصه وخاصة التوازن وخاصة التسامى الى المثل الأعلى وخاصة محاكاة الطبيعة وجعل الفنانون يزاحم بعضهم بعضا الى سبيل الأخذ بها والاهتداء بهديها .

هذا وتاريخ احياء فن الحفر اليوناني يمكن تقسيمه الى أربعة عصور : الأول عصر النهضة الايطالية وقد سبق الكلام عليه والثاني بدأ بزيارة ونكلمان لاطاليا سنة ١٧٥٥ عند ما اتخذ جوت ولسنج من تعاليمه مقاييس يعرفان بها قيمة ما أخرج به الفن فى عصرهما وقد كان هذا سببا فى سمو الذوق الفنى فى أوروبا وخلوه من كثير من الشوائب . فان الآمال الطيبة التى فتحها النهضة فى وجه الفن جاءها برزنى ومعاصروه فقضوا عليها بأسرافهم وجمود

أسلوبهم بقاء وتكلمان فدعا الناس الى البساطة والاعتدال والطموح الى المثل الأعلى ولكن لم يمض غير قليل حتى نسي الناس تعاليمه وحادوا عن سنته فوقع فى الخطأ مثالون مثل ثور والدن وكانوا أوقعهم فيه تقليدهم لبعض الآثار اليونانية الحقيمة التى يستطيع وتكلمان الحصول على غيرها دون أن يفطنوا الى ما فيها من العيوب فكان عملهم ضائعا فى تقليد أعمى لكل قديم غث ولكل نخم زائف ثم جاء العصر الثالث عندما جلبت الى لندن آثار بارثنون ورأى النقاد تفوقها العظيم على تلك التماثيل التى لم تكن إلا صورا نقلت عن أصول يونانية فى عهد الرومان أو اقتبس موضوعها منها فى العهد الهيلنسى وعند ما رأى المصور هيدون آثار البارثنون لأول مرة أخذته روعتها وامتلأت عينه بجمالها . ولم يكن كمال هذه الآثار وسموها اللذين أصبحت تضرب بهما الأمثال أعظم ما استوقف نظره وانما الذى راعه منها خلوها من شائبة التكلف خلوا يدعو الى العجب ويشير الدهشة اذا قيست بتلك التقاليد التى جرى عليها معاصروه لا يخرجون عنها ولا يحيدون .

ثم أقبل العصر الرابع عند ما نشط الباحثون عن الآثار فى أرض اليونان ونجاحهم فى أتين وأولبيا ودلفى فرأى الناس اتساع أفق الفن عند قدماء المثالين اليونانيين وتنوع أعمالهم ووفرة أساليبهم ودقة صنعهم ولكن هذه المعلومات الجديدة التى عرفناها عن الآثار اليونانية لم يكن لها من الأثر فى الفن العصرى مثل ما كان لتعاليم ونكلمان وتماثيل البارثنون فى فنون تلك العصور فلم يكن يوجد حتى العام الماضى كتاب يفيض على الناس تاريخ البحث عن الآثار فى دلفى وليس يوجد حتى اليوم كتاب من هذا القبيل

عن آثار أولمبيا والمثالون اليوم مجهلون الكثير من تاريخ فنهم ولذلك يفوتهم أن يروا منه مناهل جديدة ولكن لا شك أن تلك الآثار الجديدة سيصل اليهم أثرها رويدا رويدا فان ما استكشف حديثا من التماثيل أمثال حوزى دلقى وهرميز "ضع براكستيلس" والرأس البرنزى "من بنقتوم" المعروفة في اللوفر وديمتر كنيدوس قد أثرت بروعتها الفائقة الفن والفنانين .

هذا وان السواد الأعظم من جمهور المثالين يعجب بالفن اليونانى وبخاصة رودين الذى يصف البدائع اليونانية بأحسن الصفات وان لم يكن هو فى عمله من أنصار القديم "الكلاسيك" ولكن لا ريب أن الميل الى اظهار الشخصية الفردية والاغراق فى السعى لاستحداث أشياء جديدة قد غلبت فى الفنانين على إعجابهم بالفن القديم .

الفصل العاشر

في الوقت الحاضر تقف الديانة والتهذيب في وجه طوفان الوحشية الذي يريد أن يغشى العالم من جديد وايس من شأني هنا أن أحدثك عن القوى التي تجدد في القضاء على الديانة بيننا ولكن يصح لي أن أختم هذه الفصول بأن أستعرض بعض تلك النزعات التي لا يمكن أن يقينا شرها مثل تذرعنا بالثقافة الاغريقية واذا كنت نجحت في عرض مبادئ الأدب الاغريقي والفن الاغريقي في الصفحات السابقة فان أثرها في الظروف الراهنة سوف يبدو جليا .

ولا بد لي من الالتجاء الى قياس أراه طبيعيا جدا وان كان يرى بعض القراء فيه شيئا من المجازفة . فلقد قام في الماضي مقياسان عظيمان اضبط عواطف الناس حتى لا يجمع بها التعصب وحتى يظل سيرهم في حدود العقل والفطرة السليمة . فأما الدين فمقياسه " العهد الجديد " وأما الفن فمقياسه الأغريق . وكما أن الناس في أوروبا كانوا يرجعون في عصر احياء العلوم الى آداب اليونان وفنونهم يستمدوا منها وحيهم وليتخذوا منها نماذج لأعمالهم فكذلك كانوا كلهم أو على الأقل القبائل اليونانية منهم يرجعون في عصر الاصلاح الديني الى الأسانيد الأولى للديانة المسيحية ليستعينوا بها على فوضى الكنيسة صاحبة السلطة وابتدأ من منذ ذلك العهد صدى كان من حين الى حين يتردد لتلك النزعة الى الماضي الكلاسيكي سواء أكان ذلك في الدين أو في التهذيب

فأمثال جون وجورج فوسكس من القديسين كانوا يرجعون الى العهد الجديد وكانوا يستعينون بروحانية عهد الحواريين وبساطته على أوضاع الكنيسة ودنيويتها .

وكذلك كان جيته وليسنج يصرفان أذهان الناس عما يتنافر مع العقل والذوق السليم فيما يحيط بهم الى الجمال الاغريقى والبساطة الاغريقية ومهما يكن من أن بعض شيعة وزلى وفوكس قد اندفعوا في تعصبهم الى حد بعيد فلا يزال لهؤلاء القديسين الحديثين في كل ناحية من نواحي المسيحية أثر في تجديدها وتهذيبها . كما أن مدارس النقد التي جاءت بعد حين كان لها أثر بالغ في سبيل تنويرنا واسعادنا .

ولقد كانت ديانة العهد الجديد تسير جنباً الى جنب مع اليونانية واللاتينية القديمتين في مدارسنا وكنياتنا منذ زمن قريب جداً فكانت الأولى تدفع ماقد يلحق بديننا من الخرافات والمساديات وكانت الثانية في حرب عوان مع ماورثناه من الوحشية والهمجية عن أسلافنا الذين لم يقدم العهد كثيراً بيننا وبينهم . وأن روح الفوضى في الدين قد تجعلنا نظن أنه لا يوجد للخير ضابط سماوى ولا يوجد للشر طابع أزلى وأن أمر الأخلاق متروك الى ما يتواضع الناس عليه فلكل بيئة ولكل أمة الحق في عكسها وقلبها اذا وجدت أن ذلك يتفق مع صالحها . وكذلك روح الفوضى اذا تطرقت الى الفن جعلتنا نقول : ان كل ما صنعت يد الطبيعة يتساوى في الجمال أو القبح وأنه ما من شيء في الوجود لا يصلح أن يكون له . مثل في معارضنا ومحالنا العمومية وأنه مادامت الصورة أو التمثال يثير فينا عاطفة من العواطف فليس يهم أن تكون تلك العاطفة عاطفة

بهجة وطموح أو عاطفة نفور وفزع . على أن الفن اذا خلا من فكرة الجمال وهى الغاية التى يرمى اليها فانه لا يلبث أن يكون جثة هامدة طارت عنها روحها . ومن الناس من يرى التسامح فى أن يركب الفن طريقا شاذا غير مألوف مهما تنافر ذلك مع الطبيعة وتنافر على مبادئ الانسانية وبعد عن آداب اللياقة والاحتشام وما أسهل أن يضيع ماورثناه من الفن منذ خرج الانسان من همجته الأولى اذا كنا نشق ثقة غير محدودة بقدرة عقلنا ومبلغ حكمتنا .

على أنه يحزننى أن أقف عند هذا الحد من القول فقد يترتب على ذلك أن يظن القراء أننى أحبذ تقليد أعمال الاغريق تقليدا أعمى وهذا ليس من مذهبي فى شئ . فقد قام فى القرن الماضى بعض المثاليين ممن غلب عليهم حب القديم فصنعوا تماثيل ساروا فيها على نهج النماذج القديمة كتمثال ” الأمل “ و” هيب نور والدين “ وبعض تماثيل ” دوش “ و” شادو “ و” قينوس الملونة “ التى صنعها جبسون ولكن أمثال هذه التماثيل قضى عليها أن تولد وهى ميتة اذ لا يتردد فى واحد منها نفس من أنفاس عصر جديد وليس فيها أدنى محاولة لادخال التعديل التى يجعلها تتفق مع روح التطور الحديث أما تقليد ميكل انجلو للقديم فكان على غير هذا النحو . فانه كان شديد الإعجاب بما وصل الى علمه من أعمال اليونان ولكنه لم يستعن بها على اخراج صور لها سقيمة عقيمة فان ما أخرجه من التماثيل كان فى الدرجة العليا من الابتكار السامى والجمال السامى . ذلك بأنه أشرب روح الفن اليونانى ولم يكن تأثره بمظاهره وسطحياته وحدها ولهذا فانه فاق غيره من الفنانين بأنه كان ينفخ هذه الروح فى بعض الموضوعات المستمدة من الديانة المسيحية .

على أنه من الممكن التوسع في القياس الذى سبق لى توضيحه
فلقد حاول كثير من الزعماء الدينيين فى عصرنا هذا مثل تولستوى
وطائفة الكويكرز أن يعودوا الى النص الذى دونه كتاب العهد الجديد
فانهم رجعوا الى خطبة الجبل وحاولوا أن يتمسكوا بما نصت عليه
من نواه وأوامر غير أن الناس جميعا الا من أعماه التعصب
منهم يرون فى مثل هذا العمل قضاء على الحكومات المدنية
والحضارة الحالية لأن روح الحياة مستمدة من روح تعاليم السيد
المسيح لا من نصوصها وحروفها وعلى هذا القياس نرى أن دراسة
سطحيات الفن اليونانى لا يمكن أن تعود علينا بفائدة ما فى حين
أن احياء روحه بين الفنانين فى هذا العصر مما يجعل نفوسهم
عامرة بوحيه والهامه . وان فى مصابيح الفن اليونانى لنورا يضىء
فى كل العصور فان ما امتاز به من التسامى الى الكمال
وما دعا اليه من مراعاة التوازن والتناسب . وحب كل ما هو
طبيعى صالح . وما اتصف به من البساطة والاعتدال . كل
أوائك يقع من الفن فى صميمه فى كل العصور . نعم : نحن
لا نستطيع أن نعيد نفس الظروف التى فيها الفن الا بقدر ما نستطيع
أن نستورد الى انجلترا ذلك الهواء الصافى وتلك الشمس المتوهجة
وهاتيك الظلال الحادة التى تمتاز بها بلاد اليونان . ولكننا لا يزال
فى استطاعتنا أن ننظر الى فلسفة اليونان وشعرها وفنها باعتبارها
نماذج قديمة أو أمثلة صالحة لبيان أمتع ما فى الطبيعة البشرية من
الخواص وابقاها على ممر الأزمان . فاذا نحن طرحناها جانبا
ولم نرب أبنائنا عليها فاننا نكون قد قضينا على منبع السرور الخالص
ومعين الشعور الصافى الذى كان يستقى منه معظم أهل الثقافة
منذ زمن النهضة . ونكون قد أحدثنا فراغا عظيما لن يملأه

الرخاء المادى واحاطة علمنا بأسرار الطبيعة بل ولا ما يتيسر لنا
 اختراعه من وسائل اللهو والتسلية . واذا نحن اكتفينا بأن نستمد
 الوحى فى آدابنا وفنوننا الحديثة من الروح اليونانية فاننا نرتكب
 من الخطأ ما ارتكبه الكنيسة الرومانية فى عصورها المظلمة حيث
 أغلقت فى وجوه الناس سبل الرجوع الى أسانيد الديانة الأولى
 وحملتهم على الاكتفاء بتلك التفسيرات التى رأى من بيدهم الحكم
 فى أمر دينهم أن المصلحة فيها . فينبغى لنا أن نحفظ بحقنا
 فى العودة الى نماذج الكلاسيكية سواء أكان ذلك فى الدين أم
 فى الفن . ولقد صدق أرنولد الانجيل وهومر وشكسبير والفن
 اليونانى هى النجوم التى نهتدى بها اذا اعتكرت من حولنا جوانب
 الليل .

فن البناء

جمال فن المعمار اليونانى لم ينكره قط أحد وإنا لنعترف بأن وصف البارثون بأنه "أسمى مجهود للعبقريّة فى سبيل الوصول الى الجمال" كان وصفا صادقا ولكن الرجل العادى لا بد أن يسأل نفسه فى بعض الأحيان عن ماهية ذلك الفن من أين أتى ؟ وإلى أين ذهب ؟ وما الذى جعل الناس يعتقدون فيه الجمال ؟ وكيف تسنى لهذه الأمة الحقيرة اذا قيسست بغيرها فى القوة والبطش والمساحة وعدد السكان ، نقول كيف تسنى لها أن تصل الى هذا التفوق المدهش فى الفن ؟ هذه أسئلة لا تسهل الاجابة عليها لا سيما أن الأدلة والمستندات فى هذا الصدد قليلة مبثرة وليست فى أغلب الأحيان بالقاطعة فهى عبارة عن أطلال بقيت من قليل من المعابد والمباني ورسالة فنية لكاتب ثرثار غير قديمة فى الدرجة الثالثة بين كتاب القرن الأول قبل الميلاد ^(١) وقصص رواها بعد هذا التاريخ بقليل جامع لا يمل ^(٢) ومذكرات أحد سياح القرن الثانى ^(٣) والمواد التى جمعها طلاب العلم وعلماء الآثار أثناء بحثهم بأناة وصبر. كل هذه الأدلة جمعت ورصت بعضها بجانب البعض حسب فروض علمية جادت بها القرائح النابهة والواقع أن جزءا كبيرا مما كتب عن فن المعمار عند اليونان ان هو إلا فروض .

(١) فيتروفيوس (Vitruvius)

(٢) بليني الأكبر (Pliny the Eldr) " التاريخ الطبيعى (٣٦) "

(٣) بوسانياس (Pousanias) Ἑλλάδος Περιήγησις

وهذا للفن المعماري (وأقصد به فن القرنين السادس والخامس قبل الميلاد) لم يتداول منه القدر الكثير ولكنه بالرغم من ذلك لا يزال إحدى الحقائق العظيمة البارزة في تاريخ فن المعماري في العالم الغربي ولا يزال فن عصر بركليز بمثابة ينبوع يرد عليه الفنانون .

أما منشأ ذلك الفن وكيفية نموه فأغلبه موضع الحدس والتخمين . ان لدينا أساطير تروى عن مدنيات اندثرت معالمها إذ طغى عليها طوفان هائل لم يخلف وراءه من آثارها شيئاً وهناك ظنون تشير بغير وضوح الى أن الجنس البشري قد نشأ في آسيا وكل ما نعرفه عن يقين هو أن أقدم المدنيات التي تقوم عليها الى الآن أدلة تاريخية حقيقية هما مدينتا مصر وكلدنيا وأن الفن في هذين القطرين بلغ غاية عظيمة من الاتقان قبل أن يظهر أقدم أثر لأي نوع من أنواع الفن في اليونان بزمن طويل ولا شك في أنه قد تسرب شيء من الفن بهذين القطرين الى الفن اليوناني بدرجات مختلفة ولكن ليس هذا كل ما في الأمر فان عنصراً آخر لعب دوره فكون من هذا الفن اليوناني ما يقرب من خلق جديد يختلف في مظهره ومثله الأعلى عن كل فن تقدمه وعليه طابع من عبقرية جنس شمالي ذي بأس شديد وصفات مميزة مقصورة عليه والواقع أن الفن الشرقي ونظيره الغربي لم يندمجا اندماجاً حقيقياً في أي عصر من العصور فهناك تباين في النوع بين الحيوية البهيجة السائدة في الفن اليوناني الخالص وبين الصورة الأسوية المظلمة وما يبدو عليها من تعطش الى الضخامة والفضاعة وما تنم عنه من خيال مظلم وما تفتقر اليه من دلائل الانسانية وما تنطوي عليه من عدم اكتراث بالفرد .

غير أن هذا النوع من التفريق لم يظهر إلا بعد مرور الأيام وتقدم التاريخ . فالفن اليونانى نسبيا هو تقدم أتى متأخرا وقد شيد هرم الجيزة الأكبر قبل أن يوضع حجر واحد فى البناء المسمى بنحو ألفى سنة وربما كان بهو الأعمدة بالكرك الذى يبلغ ارتفاع أعمدته ستين قدما معاصرا لخزانة أترويس وبعبارة أخرى أنه فى الوقت الذى كان فيه الفن اليونانى لا يكاد يتخطى مرحلة الوحشية كان على الشاطئ الآخر للبحر الأبيض المتوسط فن آخر عجيب قد قام هناك منذ زمن بعيد فمصر وكالديا بلغتا درجة رفيعة فى المدنية قبل أن نسمع شىء عن الدور بين زمن طويل . وفى عصر من العصور الغابرة تغلغل النفوذ المصرى الى كريت وقبرص وجزائر الأرخبيل وأراضى اليونان وكان واسطة العقد وحلقة الاتصال هم الفينيقيون ذلك الجنس الوثاب المؤلف من تجار مغامرين والذى استوطن الشام ولكن أساطيله كانت تعبر البحر الأبيض باستمرار من الشرق الى الغرب . لم يكن الفينيقيون بالفنانين ولكنهم كانوا تجارا ولما نزلوا بمصر اتصلوا بفن عظيم الرقى ، معالمة أومميزاته الأساسية فوق أفهامهم ولكنه يحتوى على تفاصيل يستطيعون ادراكها بما أوتوا من ذكاء تجارى سريع .

كانوا أينما حلوا فى أسفارهم سواء أكان ذلك فى قبرص أو كريت أو الجزائر الجنوبية لبحر الأرخبيل أو بلاد اليونان نفسها أو جنوب إيطاليا أو صقلية أو قرطاجنة أو جزائر البليار أو فى أقصى غرب أسبانيا فى كل هذه الرحلات يحتمل أنهم كانوا يحملون معهم للتجارة بعض الحاجيات الصغيرة من المصنوعات المصرية التى قد تكون مدت سكان تلك الأماكن بارشادات فنية ولو من طرف خفى .

وكانوا اذا حلوا بمكان واتخذوه موطناً لهم بدأوا يقلدون بقدر ما تسمح به ذاكرتهم طرق الفن المعماري المصري مستعنين بما كانوا عليه من علم بالأساليب الفنية وهو وان كان علماً قائماً على التقليد فحسب كان متفوقاً على كل ما عرفه سكان تلك البلاد التي حلوا فيها . فقد وجد على رؤوس الأعمدة الفينيقية ما يعد بمثابة مقدمات أولية للولب الأيوني منشؤها ما بقى في مخيلة التجار الفينيقين من ذكريات غير واضحة لما شاهدوه بمصر وغيرها وزيادة على ذلك فالفينيقيون الذين كانت لهم مهارة البحارة في استخدام الحبال والبكرات لم يصادفوا صعوبة تذكر في استخدام الحجارة الكبيرة يتناولونها بالقطع والرص في خطوط تكاد تكون منتظمة من غير ملاط . وتلك كانت مميزات البناء الكريتي والميسيني . ولا يصح أن يتعجل الانسان فيدخل هذا العمل في فن المعمار وهناك مجال كبير للشك فيما اذا كان للفينيقين ميل طبيعي للفنون فالدور الذي لعبوه لم يتعد دور الوسطاء فحسب .

ومع أن الدور الذي لعبه الفينيقيون في وضع أسس الفن في اليونان والجزائر كان غامضاً فأشدد منه غموضاً ذلك الطريق الآخر الذي تسرب فيه النفوذ الشرقى فأثرفى نمو هذا الفن الذي نحن بصددده . كان يقطن في شمال الشام وغرب كلديا جنس لم يعرف عنه الا القليل يسمى بالحيثيين كانت عاصمته قارقيش في أعالي نهر الفرات في الشمال الشرقى من انطاكية ويظهر أن نفوذ الحيثيين وسلطانهم امتد غرباً فاخترق آسيا الصغرى الى شواطئ بحر الأرخييل فيقول الدكتور سايس " في القرن الثالث عشر قبل الميلاد : امتد هذا النفوذ من شواطئ الفرات الى سواحل بحر الأرخييل فضم بين جوانحه في وقت واحد الساميين المثقفين في بلاد الشام

وسكان البحار اليونانية الهمج المتوحشين“ بل يقول سايس أيضا :
 ”ان الحثيين حملوا مدنية الشرق للقبائل المتوحشة في أقصى الغرب“
 على أن ما تبقى من آثار الفن عند الحثيين لا يكاد يشهد بذلك
 وفي الوقت الذي كان فيه الفن عند هؤلاء الحثيين في عنفوانه وأرفع
 درجات كان الفن المينوى قد سبقه الى كريت وبلغ غاية رقيه
 ثم تخطى عهد الفتوة وبدأ يطأطئ رأسه للفن المسينى والترينى الذى
 حل محله بالتدريج كما رواه المؤرخون الثقاة المعروفون والقليل الباقي
 من آثار الفن الحثى يخصص فى رسوم أشخاص وحيوانات منحوتة
 غائرة فى الصخور التى تصادفها على طول طرق القوافل الطبيعية
 التى تجتاز آسيا الصغرى من الشرق الى الغرب واذا أضفنا الى هذه
 الأختام والأحجار النفيسة المنقوشة بالحفر تتبين لنا منها جميعا أن
 الفن الحثى اشتق أولا من الفن الكلدانى ثم بعد ذلك من الفن
 المصرى ولا شك فى أن هذا الفن الحثى كان له بعض الأثر فى فن
 اليونانيين الأولين الذين استوطنوا الشواطئ الشرقية للبحر اليونانى
 وطبع هذا الفن بالطابع الاسيوى الذى لم يفارقه قط مع ما توالى
 عليه من نمو وتطور والواقع أن يونان آسيا الصغرى لم يفهموا فى أى
 وقت من الأوقات الصفة الموحشة التى كانت المثل الأعلى للفن
 الدورى فبالرغم من أن الفن الأيونى اتخذ سبيله غربا الى اليونان
 فالفن الدورى لم يتجه سيره الى الشرق قط فقد كان فن جنس شمالى
 قوى ولذا لم يتهيا له مكان بين سكان آسيا الصغرى الناعمين .

الآن يصح أن نتناول بالبحث المبادئ الأولية للفن اليونانى
 وقد برهنت استكشافات الأربعين سنة الأخيرة على أنه
 يوجد فى أقريطس وقبرص وجنوب اليونان وجزائر الأرخبيل فن
 عتيق غامض الأصل ولكنه على جانب عظيم من الأهمية وقد بلغ

في بعض مناحيه درجة مدهشة من التقدم قبل أن تظهر أقدم المبادئ لما نسميه عادة فن المعمار اليوناني وذلك الفن العتيق ضعيف الأهمية بالنسبة الى فن المعمار نفسه فالأثر الذي له في تقدم هذا الفن بعد ذلك — ان كان له حقيقة أثر ما — أثر لا شك صغير . ومع أن المستكشفين المتحمسين يدعون بأنهم يرون فيه بوادر تم عن دقائق العمارة المتزلية الحديثة فالأدلة التي يوردونها لاثبات ذلك غير مقنعة . إن الحركات العظيمة في الفنون تكون مدينة دائماً للفترات التي سبقتها ولكن الفن المينوي والميسيني لم يكن من ناحية فن المعمار على الأقل البشير الأول الذي أعلن قدوم الفن اليوناني العظيم في القرنين السادس والخامس بل كأن الكلمة الأخيرة في مدنية تقوضت . نحن لا يزال بحثنا في العصور السالفة المتناهية في القدم من حيث الفن اليوناني وهي العصور التي بين الألفين والألف سنة قبل الميلاد أو الى أبعد من هذا ^(١) في العصر المينوي بأقريطش وما كان فيه من فن المعمار الأول ومن تفوق نسبي عظيم في الحرف وفي عصر ميسيني وتيرانو ذلك العصر الذي أخرج للناس ” باب الأسد “ في ميسيني وكذلك خزانة أتريس ذلك البناء العجيب الذي أصفه بالنصف المتوحش ان سمح لي باستعمال هذا اللفظ . ومن المفيد أن نقف فننظر الى هذه المباني العتيقة لا لندل على أية

(١) قام السير آرثر إيفانز بعمل حساب تاريخي يدل على عبقرية للعصر المينوي القديم (٢٨٠٠ — ٢٢٠٠ ق.م) والمينوي المتوسط (٢٢٠٠ — ١٧٠٠ ق.م) والمينوي المتأخر (١٧٠٠ — ١٢٠٠ ق.م) وكانت كل أسانيده تقريباً مأخوذة من نخار (نخرف) اكتشف في تلك الناحية . أما المسألة العامة وهي مسألة علاقة الفن المينوي بالفن الميسيني وعلاقة هذا الفن الميسيني العتيق بفن المدينيات القديمة التي سبقته مدينيتي مصر وكالديا فهي مسألة غامضة بعيدة عن التحقيق .



(شکل ۱) باب الاسد بمسین

علاقة بينها وبين ما شيد بعدها (فمثل هذه العلاقة لا وجود لها)
واكثر. انطلقت النظر الى أن البنائين المينويين والمسيديين كانوا يسرون
دون أن يشعروا بذلك في طريق لم يكن ليؤدي بهم في أية حال من
الأحوال الى العمارة التي أساسها "القائم والعتب" أى عمارة القرنين .
السابع والسادس قبل الميلاد فلربما كانت تقودهم الى نوع من
انشاءات القباب ولكنها ما كانت لتصل بهم الى معابد صقلية
الدورية وليس هناك دليل على عبقرية هؤلاء الفاتحين الدوريين
أقوى من أنهم استطاعوا في بحر ثلاثة قرون أو أربعة أن يخلقوا
الفن اليونانى مع أنه لم يكن لديهم سوى ذلك الفن الأول الذى
لم يكن يبشر بنتائج كهذه نفى تصميم بوابة الأسود مجموعة غربية
من مرام غير متناسقة وهى مركبة فى حائط حجارته كبيرة أركانها
مربعة فى غير دقة متراصة بغير ملاط صدغان كل منهما حجر واحد
يحملان عتبا ضخما مقوسا عند وسطه كالكمرات الرابطة المستعملة
فى أسقفها المنشأة فى القرن السادس عشر وعلى ذلك العتب تتراس
الصفوف (أو المداميك) متطرفة بعضها فوق بعض حتى تتكوّن
بين أوجهها السفلى المائلة وبين سطح العتب بخوة مثلثة كبيرة
يبلغ انحدار الجانبيين بها (نحو ٦٠°) أدخات فيها صفيحة مقصودة
منقوشة على حجر واحد تمثل أسدين واقفين على جانبي عمود أثرى
يحمل جزءا صغيرا من رفرف أولى^(١) وأن منظر الأسود فى تلك
الوقففة الناطقة ودقة الصنع فى نحتها التى تذكر الانسان كثيرا
بالنقوش الأشورية البارزة وما فيها من تمثيل جليل لشكل
العضلات ونشاطها كل ذلك متقدم كثيرا على فن المعمار الذى

(١) تصوير الأسود على هذه الصورة الناطقة يرجع الى أصل مشرق وكان عند

اليونان اعتقاد ورأى بأن رؤساء القبائل فى مسينا أتوا من ليديا .

ما زال همجيا بل لا يكاد يكون من الفن في شيء وليس هنا ما يلفت النظر الى الطريقة الدورية عند پستم وسليناس بل هناك أشياء كثيرة تعيد الى الذاكرة مباني الشام المنشأة بالحجارة الكبيرة والنحت في الشرق الأقصى .

وأعجب من هذا كله خزانة أتريس لا بما تتفوق به من مهارة في البناء فحسب بل لأن تصميمها موضوع وفق أغراض في البناء كان قد رغب عنها وتركها خلفاء البنائين المسيئين . استكشفت هذه الخزانة (أو قبر أغا ميمون) في تل من التلال وهي مؤلفة من ممر طويل يبلغ طوله نحو ١٢٠ قدما وعرضه نحو ٢١ قدما له على الجانبين حيطان سائدة مبنية من حجارة كبيرة أحادية الكتل وينتهي الممر بمدخل عظيم يوصل الى باب . وهذا المدخل يحف به من الجانبين أعمدة متدققة بحيث يكون أسفلها رفيعا ومزينة بكتل (أو مرائن) بكيفية تشبه ما كان عليه الصنع النرمانى في القرن الحادى عشر وظاهر أنه لم يقصد بها الا الزينة ^(١) . وهذا المدخل يصل الى غرفة مستديرة القباء قطرها ٤٨ قدما و ٦ بوصات وارتفاعها ٤٥ قدما و ٤ بوصات ومن هذه الغرفة يصل الانسان الى حجرة أخرى أصغر منها ومقطع القبة مبنى على منحني قطع مكافئ مكون من صفوف (أو مداميك) أفقية يبرز كل منها عن سابقه وهي غير مرتبة ترتيبا شعاعيا بالنسبة لمنحني القبة وبعبارة أخرى فهي ليست بالقبة أو العقد الحقيقي وانما هي سلسلة كوابيل متتابعة . أما الوجه الداخلى للقبة فمبطن وكان يغطيه نوع من أنواع الزخرف لا يعرفه أحد فقد

(١) في المنحرف البربطانى الآن أجزاء من هذه الأعمدة

يكون معدنيا أو يكون خزفا مطليا (أوقيشنيا) وربما كان كله من المعدن الذى يحتمل أن يكون الذهب المسينى الشهير . كانت كل هذه الحجرة مغطاة بكوم من التراب طبقا للعادة القديمة التى تقضى باخفاء قبر رئيس القبيلة ومن المحال أن يعثر فى هذا الأثر الممتع أو فى غرفة أوركينوس ذات القبة فى بيوتيا على أى أثر لما طرأ على فن المعمار اليونانى بعد ذلك العهد من نمو وتقدم فهو يكاد يكون بعيدا عن الفن الدورى بعد الهرم نفسه عنه سواء فى غايته أو فيما يشف عنه من معان نفسية والواقع أن فن المعمار كان عندئذ لا يزداد فى مرحلته الابتدائية وقد قام البرهان مرارا عدة على أن هذا الفن لا يظهر فى سلسلة تتابع الفنون الا متأخرا ففقدرة الناس على الرسم سمت قبل قدرتهم على التصميم بزمان طويل فقد كان مثلا بين رجال الكهوف رسامون يثيرون الإعجاب ولكنهم اضطروا لعمل رسومهم على جوانب الكهوف وزهريات الكنوس والكؤوس الذهبية التى عثر عليها فى قافيو قريبا من سبارطة تدلنا على أنه كان فى عصور المينويين والمسينيين صناع مهرة فى الفخار والمعادن وكذلك قام البرهان على أنهم بنوا منازل للسكنى وزخرفوها على خير ما تسمح لهم به مقدرتهم كما يظهر مثلا فى قصر تيرنز ولكن لم يبق الدليل بعد على أن بنائهم كانوا مهرة فى التصميم الى الحد الذى عنده يصبح البناء من فن المعمار فهذا الفن لم يكن قد تأسس بعد فى اليونان .

تم جاءت غارات الدوريين بعد ذلك وعندها اختفى الفن الأقریطى والمسينى وقد يكون ما يروى من الأساطير عن ذلك العهد صحيحا فهى تنبئ بأن أهالى الأراضى الرئيسية لما غلبوا على أمرهم وقهرت بلادهم حملوا هذا الفن معهم الى آسيا ومهما كان

من الأمر فalcرون الثلاثة أو الأربعة التي أعقبت الفتح الدورى لا تزال مجهولة لنا تنتظر البحث فعمسى أن يملأ لنا الباحثون صحائفها فى المستقبل وكأن هذه الفترة كانت بالنسبة للفن فترة ركود قضاها الجنس الحديد فى ترتيب أموره والاستثناس بفتوحاته ووضع أساس نظاماته وهضم شىء من المدنات القديمة. وان فى الابقاء على مبان نخرانة اتريس لدليلا على أن الدور بين لم يكونوا مجرد قوم متوحشين يخربون ما وقعت عليه أيديهم بل إن سبارطة نفسها فى أيامها الأولى لم تكن مجرد آلة حربية فالاستكشافات التي عثر عليها بين سنة ١٩٠٦ وم سنة ١٩٠٩ تشير الى أنها كان لها من القرن التاسع الى السابع قبل الميلاد فن خاص بها تظهر فى أوايز الفخارية آثار النفوذ الاسيوى . وبعد هذا العهد بقليل أمضت سبارطة معاهدة مع كروسوس ملك ليديا وكان باثيكليس فنان مجنيزيا عند ذهابه الى أسبرطة موضع تكريم ومجيد فى سبارطة . ولم يكن الدورىون بالقوم المحاربين فقط بل يظهر أنه كان لهم نوع من المدنية وفيهم مقدرة فنية طبيعية قدر أن تظهر بعد تجارب قرنين أو ثلاثة بمظهرها الفخم الذى ينم عن اتجاهات فنية مبتكرة وفى غاية الوضوح وقد حقق تاريخهم بعد ذلك خرافة رجوع هرقليدى . وما كان يتسنى للجنس مقلد فحسب أن يخرج للناس المعابد الدورىة العظيمة على كمالها هذا مأخوذة من شتات قليل من الفن المصرى والشرقى ومن المباني الأولية الأقرطية والمسينية .

فن المعمار هو من وجهة دراستنا هنا دورى وعناصره بسيطة فانه نشأ وترقى مع تصميم معابدهم واذا استثنينا المسارح كانت هذه المعابد تشمل الفن الدورى وتجمعه كله ومن الوقت الذى بدى فيه تشييد فن المعمار اليونانى الى الوقت الذى بلغ فيه أشدة أو بعبارة

أخرى من القرن السابع قبل الميلاد إلى اتمام البارثنون في القرن الخامس قبل الميلاد في كل هذه الفترة كان الدين ومراعاته يسيطران على حياة اليوناني كلها ويكيفانها ولم تكن ديانتهم كالطلمس المصري الخبيث بل كانت بوجه عام ديانة اعتقادات في آلهة كثيرة ديانة صريحة حافلة بالبشر تعترف بحياة وجمال العالم المرئي الذي يعيش فيه هذا اليوناني وكان هذا الأخير يقنع بالسكنى في منزل حقير مادام له سوق للتجارة وممرح للاحتفالات ومعابد نخمة للآلهة . وزيادة على هذا فهما سفلت الدركات التي هوى إليها اليونانيون في زمن الفديس بولص فانهم اشتهروا في زمن بركليس أيام البطولة بعدم التحول عن قصدهم وبالاستمسك بغاياتهم فاحتفظوا بطرقهم العتيقة ولم يخطر ببالهم قط أن يطوحوا بتقاليد آبائهم بل جعلوا همهم أن يصلوا بها إلى الكمال وكانت نتيجة ذلك أن سارفن المعمار عندهم في طريق صيره الاستعمال الطويل مقدسا ويتلخص الاصطلاح الفني عندهم في تاريخ الطريقتين الدورية والأيونية ^(١) .

فالطريقة بنوعها وطبيعتها وأبعادها وترتيبها وهي وحيطان الصومعة التي في داخل مجموعة الأعمدة تجمع عناصر فن المعمار اليوناني وحروف هجائه إن جاز استخدام تعبير كهذا . وهنا نصل من بادئ الأمر إلى صفة غربية في العبقرية اليونانية صفة تفرق بينها وبين العبقرية الرومانية . من الواضح أن خواص الخشب تختلف عن

(١) يمكن أن أفسر الطريقة للبندى بأنها الترتيب الكامل للعمود الرفرف موضوع فوق التاج مباشرة ثم الأفريز والكرنيس وهي الوضع النهائي لفكرة القنم والعنب البسيط . ويتكى ذلك العتب على رؤوس عمودين أو أكثر وليس هناك من الشك إلا قدر قليل في أن الأصل الحقيقي لهذه الطريقة هو كونها ترجمة بحرية لتفاصيل موجودة في منشأة خشبية أولية .

خواص الحجر من حيث كونهما أدوات للمعمار فبعض الأشياء يمكن صنعها من أحدهما ويستحيل من الآخر . ولكن اليونانيين إما أنهم كانوا على جهل بهذه الحقيقة وإما أنهم تجاهلوا ولم يتعبوا عقولهم بحثها . وجدوا أن "القائم والعتب" طريقة بسيطة للبناء فاختروها لتكون طريقتهم الدائمة للانشاءات وعند ما تكون الفتحة عريضة جدا زادوا في سمك القوائم (فأعمدة يستم بلغ قطرها ٧ أقدام) وزادوا في متانة العتب (أو الرُفْرُف) وهذا هو السر في عظم جمودة الطريقة الدورية في معبدى صقلية ومجنا جريشيا فالإوناني لم يكن يهتم بالانشاء من حيث الانشاء نفسه لأنه وجد في "القائم والعتب" طريقة كافية جدا لتحقيق غايته وهى الجمال العالى الذى لا يتغير وقنع بذلك . أما الرومانيون الذين قنعوا بهذه الطرق البسيطة ردحا من الزمن فقد ضاق صدرهم بالتقييدات الانشائية التى يفرضها عليهم "القائم والعتب" ورغبوا فى أن يبنوا شقوقا متسعة عظيمة ويتركوا أرضها خالية من المعترضات وحصروا تفكيرهم فى ذلك فابتكروا العقد والقنطرة والقبة وبذلك صاروا أعظم بنائى العالم فبدت لهم الطرق المعمارية مجرد زينات يرثها الأبناء ولم يقدروها حق قدرها فى أى وقت من الأوقات بل أخطأوا الغرض منها واستخدموا أسوأ عناصرها وكثيرا ما أساءوا استعمالها بفضاعة . ولكن اليونان اتخذوا سبيلا آخر فأنهم تخيروا "القائم والعتب" من بادئ الأمر والتزموه واعتبروه الطريقة الوحيدة للانشاءات وركزوا مجهوداتهم فى التحسين المستمر لهذا النوع يحدفون ما لا تدعوله الضرورة ويتوصلون بتوالى الاختيار الى أكمل تعبير لما يقصدون اليه من غايات ولم يكن هذا الغرض نفس الغرض الذى رعى اليه الرومان والمعماريون الحديثون وهو الغرض المادى النفعى

بل كان اليونانيون يرمون الى إثارة الاحساس بالجمال فقط ومناشدة العواطف بواسطة جمال الخطوط والشكل وأحيانا الى حد أقل من السابق بواسطة الألوان . "فنسيج الفن اليونانى يتمزق كل ممزق اذا احتكت به أمة مادية نفعية صرفة مثل روما" (١) .

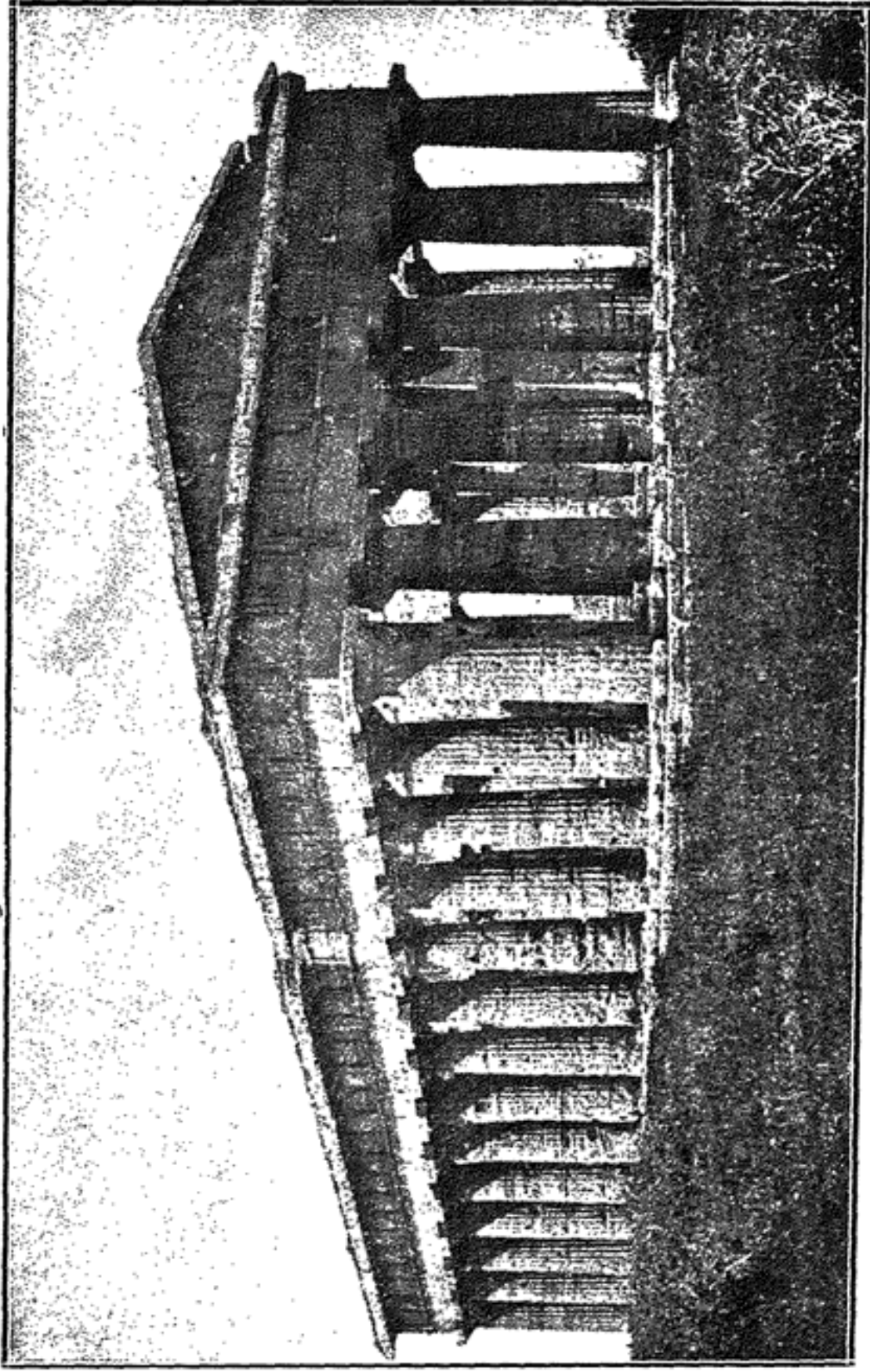
ومن الطريقتين الدورية والايونية يلوح لى أن الأولى هى أنقى تجسيم للروح اليونانية الحقيقية سواء فى شكلها الذى لا عيب فيه أو فى صرامة ضبط النفس واطراح ما ليس بالضرورى وكانت هى أيضا الطريقة المتفوقة فى معابد الأراضى الرئيسية باليونان. كان الاركتيام هو المعبد الأيونى الوحيد الذى كانت له أهمية من الدرجة الأولى فى اليونان وكان استعمال الطريقة الأيونية هناك مقصورا على الأمكنة الداخلية والأبنية الصغيرة وأما الطريقة الكورنتينية التى كانت أحب الطرق الى الرومان فلم يعد يعبأ بها اليونانيون الذين استخدموا الطريقة الدورية فى جميع معابدهم العظيمة فى اليونان وصقلية وماجنا جراسيا .

نحن لا ندرى بحق كيف توصل الى هذه الطريقة وقد أورد بعضهم تخمينات نابعة عن أصلها فى المنشآت الخشبية وبالرغم من أن بعضا من هذه الظنون أقرب الى الحقيقة من غيرها فانا نخرج منها جميعا كما كنا تجاه الخطوات التى وصلت بها الى صورتها الأخيرة قال بعضهم : أن أصل العمود الدورى القائم الخشبي الذى يظهر فى أقدم المعابد كالتى قيل بوجودها فى هورين عند أولمبيا فيكون القائم المربع قد شطفت زواياه فأضحى ممثنا وينتج تدريجيا من متابعة

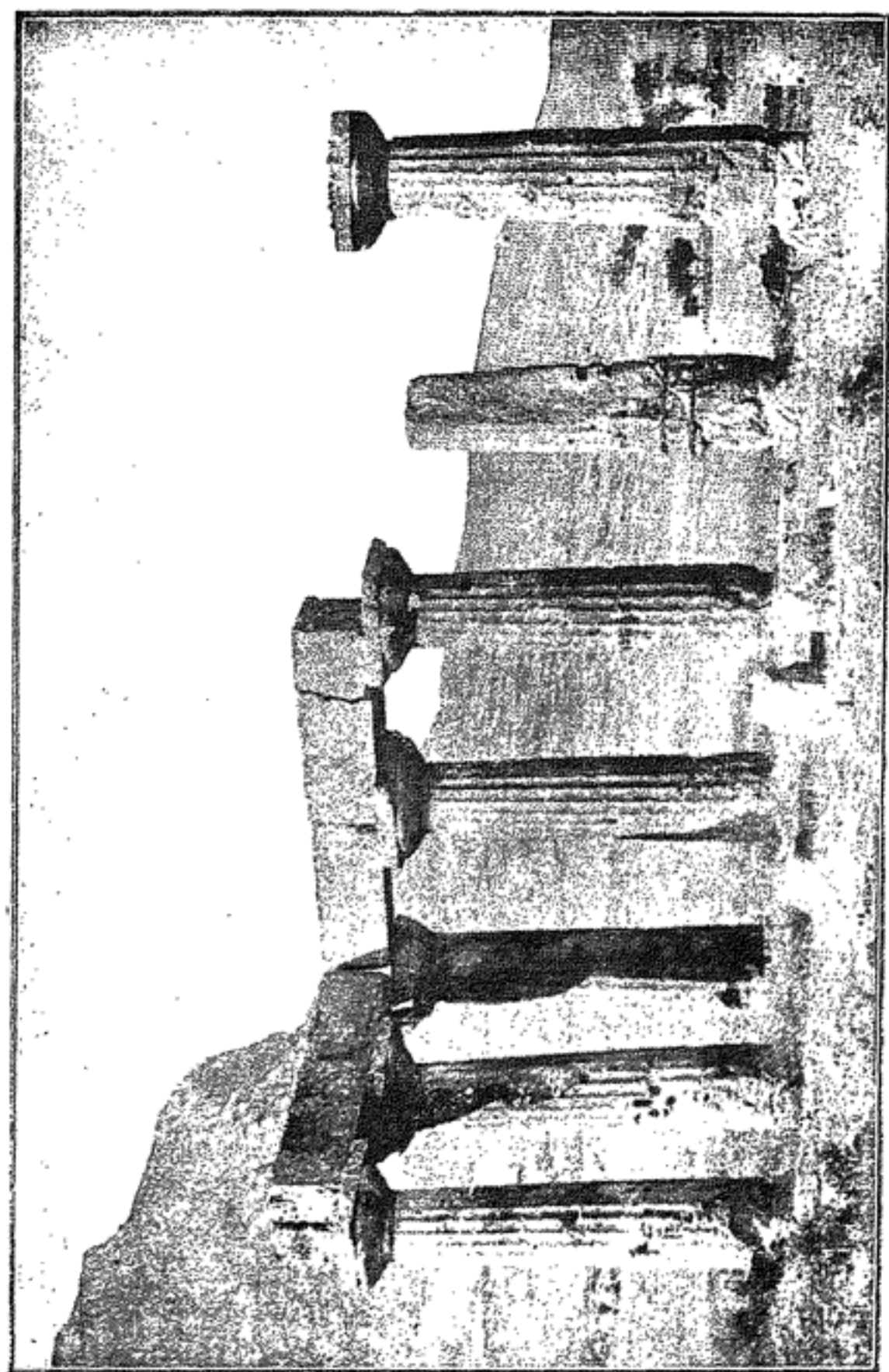
(١) "البحث الهلنسى" لجاى دكرز ص ٨٥ هذا المؤلف الذى كان يكتب

بنظر الفنى الناقب ويعلم البعثة الدقيق مات من جروحه فى الصوم سنة ١٩١٦

شطف الزوايا شكل مسقطه الأفقى شبه دائرة ما زالت تبدو فيه رؤوس الزوايا المشطوفة ولا يبعد أن مثل هذه العملية تكون باعثا لقوم فنيين لهم دقة الاحساس الذى لليونانيين على أن يزدوا فى تدقيق تلك الزوايا واظهارها بوضوح باحداث تجويف طفيف بين رؤوسها ومن هذا تتكوّن تجاويف العمود الدورى وأما كون هذه الأعمدة مأخوذة من الأعمدة المينوية والمسينية فبعيد الاحتمال جدا . وللعמוד الدورى جزءان أساسيان هما البدن والتاج (ولم يستخدم اليونانيون لهذه الأعمدة قاعدة ما) وتتطرف الأعمدة المينوية فتدق نحو أسفلها بدلا من أعلاها وهى طريقة ليست على شئ البتة من قواعد البناء وبالرغم من أن فى سراى نوسس وفى تيرانس يظهر أن أعمدة بهذا الشكل استخدمت لحمل أعتاب فان الأعمدة الحجرية التى تحف من الجانبين بمدخل خزان أيريس فى مسينا أقيمت للزينة وليست لأغراض انشائية. ومن جهة أخرى فان أعمدة جسيمة متطرفة الى أعلى استخدمت بمصر منذ زمن أبعد من ذلك بكثير فمن المحتمل أن فكرة بدن العمود الدورى جاءت من مصر بالرغم من وجود أدلة تنافى ذلك وإن أول عهدنا بها فى اليونان كان فى القرن السابع قبل الميلاد فى العصر الذى فتح فيه إيسامتيك الأول أبواب مصر (٦٧١-٦١٧ قبل الميلاد) لليونانيين للتجارة وللاقامة وقد أسس الميليسيون مستعمرة نقراش اليونانية على الجانب الغربى من دلتا النيل (عام ٦٥٠ قبل الميلاد). وفى أواسط القرن السادس قبل الميلاد أيضا تأسست علاقات تجارية محددة بين نقراش والأراضى الرئيسية اليونانية ويلوح أن إقامة اليونان بدافنه على الشاطئ الشرقى من النيل حدثت فى نفس الوقت الذى تأسست فيه نقراش تقريبا وكان ذلك فى كلتا الحالتين بتصریح



(شکل ۲) معبد بختون فی بختون



(شكل ٣) المعبد الدورى بكنوزة

ملك مصر وتشجيعه . ويرجع تاريخ أقدم المعابد الدورية في اليونان وصقلية وماجنا جراثيا الى أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس وفي تقارب التاريخ ما يرجح أن بدن العمود الدورى أصله من العمود المصرى رآه يونانى فطن وهو يتجرى فى مصر . وعند الكلام على تاج العمود تظهر هذه الأدوار معكوسة اذ أننا لا نجد شيئا فى فن المعمار المصرى يشير الى حلية التاج الموجودة أسفل الصفحة المربعة للعمود الدورى بينما العمود المسينى له تاج أولى ربما صح أن ترجع له فكرة التاج الدورى ولكن الشئ الجدير بالملاحظة فيه هو أننا عند ما تقع على التاج الدورى فى صقلية واليونان نجده أبعد بمراحل عن أى شئ آخر تقدمه فى اليونان كما نجده مختلفا تمام الاختلاف عن الأعمدة المصرية . وفى معبد كورنثة الدورى (٦٥٠ - ٦٠٠ قبل الميلاد) كانت الأعمدة قد أخذت الشكل النهائى فى البدن المتطرف بتقويسه المحذب قليلا فى شكله وفى المتانة الناشئة عن كبر الحجم (نسبة القطر الى الارتفاع فيه كنسبة ١ الى ١ ١/٤) وفى منحنى قطع المكافئ العارى الأضخم للحاية التى تحت صفحة التاج وقد كان العمود الدورى على شكله هذا (فكرة حديثة) فى فن المعمار . وتدل أعمدة كورنثة وان كانت عتيقة على أن اليونانيين كانوا سائرين على الدرب الموصل الى تلك التحسينات فى الشكل وتلك التصحيحات والتعويضات الضوئية التى تميز فن المعمار اليونانى عن فن أية أمة أخرى فتلاشت المبالغة فى التقويس فى الأعمدة العتيقة وتقص التطرف فيها وتزايد الارتفاع ونقل بروز التيجان الى أن وصلنا الى الشكل النهائى الذى لا يحاكى فى التيزيون (٤٦٥ قبل الميلاد) والبرثنون (٤٥٠ - ٤٣٨ قبل الميلاد) فارتفاع العمود الذى لم يكن فى بيستم ليزيد كثيرا على أربعة أمثال قطره

الحقيقى أصبح الآن أكثر من خمسة أمثال القطر والتيجان العظيمة البروز نقصت الآن الى مقاسات معقولة وقل ارتفاع الخارجة ومال محور العمود قليلا الى الداخل ليشر بالثبات والتقويس البسيط (asis) فى الأبدان زاد ظهوره بقدر يكفى ليمنع ظهور الخط المحدد للعمود كأنه مائل الى الداخل وحددت القاعدة الممتدة المقام عليها الأعمدة وارتفعت الخارجة التى تحملها هذه الأعمدة قليلا تجاه الوسط لتصحيح ظهور الخطوط كأنها منخفضة عنده وزيد فى سمك أعمدة الزوايا لئلا ترى وهى قائمة وحدها ومحاطة بالنور من كل جانب أقل ضخامة من الأعمدة القائمة أمام البناء يحبس النور من خلفها. ولم يترك شئ للصدف فكل وجهة للبناء وعلاقة كل جزء منه بالمجموع والمجموع بأجزائه كلها درست بتعمق حتى لا يتطرق الفشل الى كمال الموازنة فيه ولم يصنع شئ يشبه هذا من قبل إلا فى فن المعارى المصرى والشبه فى هذه الحالة كان لحد بسيط. كان ما صنعه اليونانيون بمثابة وضع قواعد لفن متناسق لكل جزء منه علاقة بالمجموع محدودة ومقدرة فالناظر الى هذه المعابد الدورية حتى وهى مخربة لا يملك إلا أن يستشعر الفكرة الجلية التى فيها والقصة المعمارية العظيمة التى فيها كل صغيرة مهما جمعت بذاتها خاضعة لوحدة الفكرة الكاملة التى تصورها الصانع وهذه الصفة المعنوية هى التى رفعت الطريقة الدورية اليونانية درجات فوق الفن فى كل العصور التالية مهما بلغ مقدار ما فيه من طموح بل رفعتها فوق كل ما صنع فى جميع عصور فن المعارى اللهم إلا شواذ ممتازة بالبهاء. حاول الكثيرون استكشاف سر ذلك الكمال المدهش فى التناسب ويظهر أنه من المؤكد أن اليونانيين كان لهم نظام خاص بهم وأنهم كانوا يشتغلون وفق نسب محدودة فى المقاس والعدد وأنهم

استخدموا طرق الرسم البياني لاستخراج ذلك التناسب كاستعمال المثلثات وما شابه ذلك لايجاد حدود تصميماتهم غير أنه لا يوجد بيان لأحد المعاصرين لهم يصف فيه نظماً كهذه وكل التفسيرات التي وردت كانت بطريق الاستنتاج جاء بها النظريون وهم يحللون المباني المستكشفة أثناء دراستهم لها وليس من بنات أفكار المعماريين تواردت لهم أثناء تصميمهم لمبان جديدة . بعد ذلك الزمن بمدة تتراوح بين أربعائة عام وخمسةائة جمع فثروفيوس رسالة في فن المعمار بـسط فيها نظرية يونانية للنسب على قاعدة جسم الانسان متبعا في ذلك تعاليم (الحركة الفكرية بالاسكندرية) . كان فثروفيوس مبهما كأن الأمر كان ملتبسا عليه لا يدري عن يقين اذا كان الواجب أن تكون نسب الأجزاء في تصميم ما مرتبطة بالمجموع ارتباطا يناظر ارتباط أعضاء الجسم البشري بالجسم كله كمجموعة واحدة أو أن الواجب يقضى أن تؤخذ نسب الطريقة من النسب الحقيقية الموجودة في جسم الانسان . وهو يدخل التعقيد الى موقفنا بالإشارة الى "الأعداد الكاملة" عند اليونانيين ولكنه لم يكن هنا أيضا على يقين فيما اذا كان العدد الكامل هو العشرة أو الستة . وبعد ذلك نصب نخا عن غير قصد لطلاب عهد النهضة وفنانيه بإشارته الى جسم الانسان باعتباره قانون النسب . بعد ذلك كان يمسك عن الكلام في هذا الموضوع ويستطرد الى تقسيم عام للعابد حسب قواعد دقيقة لمكان وضع الأعمدة ولمقاساتها .

تلك المسائل التي كونت أس الرسائل التي ألفت في فن المعمار القديم منذ ذلك الحين . ويجب أن نذكر مجهودات فثروفيوس بالحمد لأن رسالته كانت مع ما يوجه اليها من نقد هي للرسالة الفنية

الوحيدة التي تركها لنا القدماء في هذا الموضوع ولكنه طبق على المعابد اليونانية البحتة نظاما لم يخلقه النقاد والنظريون الا بعدها بقرون . كان أغلب تفكير قتروقيوس في روايات الرومان عن فن المعمار اليونانى وكان اهتمامه بالقواعد والتعاليم الفنية التي تكتب ليستعملها المهندسون المعمار يون أكثر من اهتمامه بالجمال المطلق الذي كان وحده موضع عناية اليونانيين واهتمامهم وما من تقسيم مهما بذل في وضعه من جهد بموصل الى أسرار فن المعمار اليونانى الخفية بجماله أخفى وأعمق من أن يصاغ في قواعد .

ظلت الطريقة الدورية في ذروة السيطرة طول الفترة العظيمة من القرن السادس الى آخر الخامس قبل الميلاد وسقطت بسقوط الغايات السامية الأثينية ثم ظهرت قوى أخرى لم تتأثر بها هذه الطريقة ثم بدأ نقاد اليونان بعد ذلك أويتلمسون فيها العيوب لوجود بعض موازنات غير متناسبة ^(١) ولكن تلك الطريقة وهى الرمزا الحقيقي لسلالة هرقل كانت من أعظم الاضافات الى فن المعمار وأكبرها أثرا وظلت مفتاحا الفن اليونانى فى أبهى عصوره . أتى بعد ذلك حين اغتصبت فيه الطريقة الأيونية هذا المكان من الطريقة الدورية ولما دار الفلك وتغلبت روما وظهر نفوذها فى العالم الغربى هوت هذه الطريقة الأيونية من سماء كبرياتها وطأطأت

(١) قتروقيوس الجزء الثالث . كانت الصعوبة فى أن حلية الافريز الطولية لو وضعت فى زاوية البناء (كما كان يفعل اليونان) ووضعت الحلية التى تليها على محور العمود فالزئرف الذى بين هاتين الحليتين الأوليين يكون أكبر من الذى بين الحليات التى على محاور الأعمدة الأخرى . وقد حل اليونان هذه الصعوبة بتقليل اتساع المسافة التى بين كل عمود والذى يليه ولكن النقاد بعدهم لم يرتاحوا لهذه الطريقة وحلوا المسألة بنقل الحلية الأخيرة من الزاوية ووضعها فوق محور العمود الأخير .

رأسها الى الطريقة الكرنثنية الفتية المترفة التي تم عن قليل من الانحطاط الخلقى والتي كانت فى الحقيقة سجلا للانخفاض الذى أعقب سقوط أثينا فى مستوى حاسة الجمال ووحدة مقياسه .

وفى هذه الآونة كانت الطريقة الأيونية فى الناحية الأخرى من شاطئ الأرخيل آخذة فى الوصول الى شكلها الكامل بتأثير عملية تفكير منتظم متشابه لتلك تجرى على نظام مستمر .

كانت المستعمرات اليونانية فى آسيا الصغرى قديمة جدا وتعزى الأساطير أصل نشوء يونانييها الى سكان اليونان قبلهم الذين طردهم الدوريون . وفى القرن السادس قبل الميلاد كانت هذه المستعمرات قد استقر بها المقام على شواطئ آسيا الصغرى الغربية والجنوبية الغربية وأنشأ أهلها مصطلحاتهم المعمارية الخاصة بالطريقة الأيونية بعمودها الأدق من الأعمدة الدورية وقاعدته المصبوبة فى قالب وتاجه الخاص الغريب وعدم ملاءمته للحجارة أو الرخام من الوجهة الانشائية لكنه بالرغم من ذلك من حيث التخطيط والتمثيل أميل الى الجمال الرائع الذى يتجلى فى أعمدة ارختيون بأثينا وهناك أمران يتصلان بمنشأ هذا التاج يترجح الجزم بهما الأول أنه مأخوذ من الرؤوس الخشبية الأفقية المثبتة على القوائم لتقلل من حمل الأعتاب الخشبية الأصلية والثانى أن أول منبه لأذهان اليونانيين الأيونيين الى اللولب جاء من الشرق .

ففى أعمال الفينيقيين ما يشير الى اللولب ولو أنه ليس بالدقيق أو المتمعن ويظهر مثل ذلك فى رسم بارز حيثى فى بوغاز كوى فى وسط آسيا الصغرى فالأصل فى كلتا الحالتين شرق وهنا يظهر الباعث الآخر فى فن العمارة اليونانى وهو شرقى أو على كل حال

أجنبي وإذا قورن بالدورى ظهر غربيا عن العبقريّة اليونانية الصحيحة ولكن هؤلاء القوم المدهشين أكسبوه شكلا بعيدا عن أصله الهمجى بعد تيجان الأعمدة الدورية للبارثون عن تيجان الأعمدة المسيذية ولما اقترب اليونان من جانبي بحر الأرخبيل على أثر انهزام الفرس عبرت الطريقة الأيونية البحر وتبوّأت في معابد اليونان مكانا رفيعا ولو أنها لم تزل (إلا في أحوال نادرة استثنائية) خاضعة للطريقة الدورية . وفي مستعمرات آسيا الصغرى كان تفوق الطريقة الأيونية معترفا به من زمن بعيد والمعبّد الأيونى الحثي في صامس الذى يبلغ طوله ٣٦٨ قدم وعرضه ١٧٨ معتبرا أنه مبنى في أواخر القرن السادس أو أوائل الخامس قبل الميلاد وكان هو أسبق المعابد دلالة على معابد القرن الرابع العظيمة الأيونية التى بنيت في الوقت الذى تغيرت فيه اتجاهات فن المعمار وبدأ الفن الحثي حياته التى كانت مملوءة بالمغامرة .

جعل اليونان هاتين الطريقتين بمثابة الألفاظ والمصطلحات للتعبير وبهما شيدوا فن المعمار الذى في معابدهم وكانت خططهم أبسط ما يمكن فالنوع الأولى كان عبارة عن حجرة بسيطة أو خلوه بمدخل مكشوف معرض للهواء إلا حيث أقيم عمودان بين نهايتي الحائطين الجانبيين اللذين بآخريهما كتفان يعرفان (بالانتيا) (١) . وكانت الخطوة الثانية تقديم مجموعة الأعمدة الى الأمام (٢) . وفي الثالثة تكرر وضع العمود في الطرف الخلفى من البناء (٣) وفي الرابعة امتدت مجموعة الأعمدة على الجانبيين (٤) . وفي الخامسة

(١) فرفيوس يسمى هذا (ايدس في أنتس) .

(٢) بروستيل (مجموعة الأعمدة الأمامية) .

(٣) مفيروستيل (» » في الطرفين) .

(٤) بريترال (» » الفردية حول البناء كله) .

تضاعفت المجموعة على الأوجه الأربعة^(١). وفي الخطوة السادسة استبقيت صفوف الأعمدة الخارجية وحذفت الصفوف الداخلية في الجوانب فتكون بذلك ممر فسيح يحيط بالبناء الأصلي في كل ناحية^(٢). وقد أضاف فثروفيوس فرقا أخرى حسب توزيع الأعمدة تجدها في جميع الكتب المتداولة في فن المعمار القديم. وقد بقيت هذه الأنواع ثابتة في معابد اليونان والرومان مع اختلافات طفيفة في التفاصيل وأهم التغيرات حدثت في توسيع المعبد نفسه بالاقطاع مما أحاط به من مجموعة الأعمدة وفي المعابد العتيقة كالتي بيلينوس في صقلية (في القرن السادس قبل الميلاد) تشغل مساحة المدخل ومجموعة الأعمدة نحو ثلاثة أرباع المكان كله. وفي معبد هيغسيوس (ثيريون) بأثينا (في القرن الخامس قبل الميلاد) كانت تشغل الصومعة أكثر بقليل من نصف المساحة الكلية وفي معبد البرشون الذي بنى بعد ذلك بعشرين عام زاد اتساع الصومعة عن ذي قبل وكانت معظم هذه المعابد مغطاة وقد ذكر فثروفيوس معابد هبيرا التي كانت صوامعها مكشوفة للسماء ومن المحتمل أن بعضا — من الكبير منها على الأقل — كان مكشوفاً للسماء لحد ما ولكن كيفية ترتيب الفتحات أمر يكاد يكون تخميناً بحتاً. والسقف الذي استعمل كان ذا ميل طفيف فهو بنسبة جزء واحد في الارتفاع إلى أربعة أمثاله في القاعدة وبعد ذلك كانت أكثر انسطاحاً وهذا أملي عليهم مقدار ميل المثلث العلوى وكان هذا السقف يغطي جميع البناء أى الصومعة ومجموعة الأعمدة على جانبيها ولما كان

(١) ديتزال (مجموعة الأعمدة مزدوجة حول البناء كله).

(٢) بسودوديتزال) » » الصف الداخلى من الأعمدة محذوف).

اليونانيون يجهلون قواعد الجملون المثلثي المؤلف من كمات في حالتى الضغط والشد حاروا في معرفة الطريقة التى بها يحملون أسقفهم من غير أن يدفعوا بحيطانهم الى الخارج ومن هنا نشأت هذه الصلابة العظيمة لمبانيهم وطريقتهم القبيحة نوعا ما التى اتبعوها في وضع مجموعة أعمدة داخل المعابد وكأنها كانت تظهر الطريقة الوحيدة التى خطرت ببالهم لحمل السقف ويجب ألا يغيب عن بال من يفكر في المعمار اليونانى أن اليونانيين لم يكونوا منشئين بالمعنى الذى كان عليه الرومان فانهم كانوا يحسنون البناء وتتم أفضل مبانيهم عن مهارة تفوق الوصف وما كانوا يستطيعوا أن يعملوا المنحنيات الدقيقة في الأعمدة وفي الأجزاء الأخرى لمبانيهم ان لم يكونوا على جانب غير عادى من المهارة في قطع الأحجار وصفها . ولكن الانشاء بمعنى ابتكار طرق جديدة تتماشى مع ما يجد من حالات صعبة لم يصادف هوى في نفوسهم ولا مفر من أن يظن الانسان أنهم كانوا أكثر نجاحا في صنع الجزء الخارجى لمبانيهم منهم في صنع الجزء الداخلى لها وكأنه من الواضح أنهم قصرُوا معظم اهتمامهم على الواجهات الخارجية . ولم يعرف بحق كيف كانوا يضيئون معابدهم وان يكن بالطبع قد عرضت آراء كثيرة متنوعة عن اضاءتها بالمناور العلوية ومن المحتمل أنها كانت في بعض الأحوال تنار من المدخل العمومى فقط ومن المؤكد أن اليونانى لم يكن في حاجة الى فيض من النور داخل معبده كالذى نحسس نحن بضرورته في أجواء بلادنا الشمالية فانه من جهة كان يتمتع بنور على جانب عظيم من السطوع والنفاذ حتى أن الضوء المنعكس داخل مجموعة الأعمدة على أعمدته الخارجية كان كافيا لأن يريه الأفاريز والحليات الأخرى ولم يتردد في استعمال ألوان بسيطة زاهية

ليعظم أثرها وتزيد هذا الأثر وضوحا وتفسيرا أنى وجد لذلك ضرورة ومن جهة أخرى نشأت اعتبارات داخل المعبد نفسه فقد كان المرغوب فيه جوا مضيئا الى حد ما وليس نورا ساطعا وربما كانت الظلال العميقة لمجموعة الأعمدة الداخلية تساعد على احداث ذلك الأثر المطلوب فتزيد في التعمية الرهيبة التى تحيط بتمثال الاله .

وهذا أيضا قد يكون تفسير ما يتراءى بلا شك للمهندس المعماري كأنه شذوذ في التصميم وهو ما اعتاده اليونان من وضع تماثيل عظيمة الحجم داخل معابدهم فالإيوناني كان رجلا متدينا على مذهبه الخاص فكان يبذل قصارى جهده في تمثيل عظمة إلهه في معبده الى حد أنه كان مستعدا في سبيل تحقيق هذا الغرض اذا استدعى الحال للتضحية بقواعد الفن ولعدم الاكتراث بالنسب داخل المعبد وبالتوافق النظمي التناسقي في تصميمه كل ذلك بادخاله مثل هذه التماثيل الهائلة في المعابد. العين تحكم على الأمور بمقارنتها بما تعرف وأسهل طريقة للحصول على فكرة عامة عن حجم أحد المباني أو الآثار تكون بمقارنته بالحجم الطبيعي لجسم الانسان وقد أشار قروقيوس بطريقته المشوشة الى أن جسم الانسان هو قانون التصميم المعماري وأساس مقاييسه ولكن انى للانسان أن يعرف مقياس الرسم في بناء يحوى تماثالا لا يقل حجمه عن ستة أمثال حجم الرجل العادى يمتد من أرض البناء الى سقفه . فتمثال زيوس في ألبيا الذى صنعه فيداس من الذهب والعاج مفروض أنه كان على ارتفاع ٣٥ قدما وانه كان يصل الى السقف متخطيا صنى الأعمدة والرواق فوق طريقى الصومعة وزيادة على ذلك فانه كان يمثل هذه الآلة جالسا على عرشه فلم يعد فى الامكان أن يكون

متناسبا مع مقياس رسم البناء من الوجهة الفنية المعمارية بل أن معبد زيوس الهائل بما فيه من أعمدة خارجية بلغ ارتفاعها ٦١ قدما و ٩ بوصات وتسع القناة من قنواتها من فرط عظمها رجلا يقف داخلها. هذا المعبد نفسه لم يكن ليتحمل تماثيل مبنية بمقاييس كبيرة كهذه . وهذه المفارقات الشديدة في المقاييس خرقت قاعدة التوازن أو التماثل التي تضمنت العلاقة بين الجزء والكل بدقة والتي حافظ عليهما الفنانون اليونانيون في المواطن الأخرى بعناية ودقة لا مزيد عليهما ولا يمكن أن يكون الفنانون اليونانيون أخطأوا في مسألة كهذه مع ما وهب لهم الله من حاسة كاملة لتقدير النسب والنتيجة التي يستنتجها الانسان من هذا التصرف هو أن ديانتهم كانت مقدسة يخضع لها كل شيء في كل ما له مساس بها وحقا ان الانسان ليستطيع أن يتصور الأثر الهائل الذي يحدثه التمثال في النفس في حين تقع العين عليه فتراه معتما لقلّة الضوء في الصومعة وتحس أنه يملأ المعبد كله بحضرته ومثل هذا الشذوذ في المقاييس حدث في الأكرópolis بأثينا حيث انقص تمثال أثيني بروماخس الهائل من جمال كرياتيدس الاركتيوم الى حد العدم .

ويحاول المسيو شوازي محاولة تم عن شهامة أن يبرهن على أن هذا الافتقار الى التناسب في المقاييس وفي تجديد أمكنة المعابد كان عمدا مقدرا والحقيقة أن القاعدة العامة التي يظهر أنها روعيت في زمن بركليس هي أن المعابد الجديدة يجب أن تبنى دائما على أنقاض المعابد القديمة ^(١) ولكن خطوط المحاور أهملت حتى أن

(١) يستثنى من ذلك معبد الاركتيام .

الكتل المختلفة للبروپيل لم تكن مترنة بعضها مع بعض مع أنه كان بلا شك بناء جميلا ولم تكن الأكروبوليس إلا مجموعة مبان. غير متناسقة وكانت الآثار المختلفة في تمنوس العظيم بدلمى مبعثرة حيثما اتفق (١) أما الطريق المقدس فكان متعرجا . كحرف الهجاء الغربى S . ولم يلاحظ في سيره الا شئ واحد وهو إزالة الكنوز والمقامات المقدسة التى كانت مبعثرة على ما يظهر داخل الفناء بغيراكثر من بعضهم ببعض بكيفية لا تختلف عن الوحشية الا قليلا وهى بمثابة رمز قريب من الحقيقة لما كان عليه التنافس المهلك بين الولايات اليونانية الصغيرة .

وكان فى دلفى أيضا تمثال هائل لابلون تالكاس قيل أن ارتفاعه بلغ ١٧ مترا فلا بد أنه كان بعيدا عن التناسب بعدا شديدا والحقيقة أن المماريين اليونانيين فى القرن الخامس لم يكونوا قد وصلوا بعد الى تصور فكرة المدينة بوجه عام نعم كانت لهم عين تستدعى الإعجاب فى انتخاب البقع نفسها كما كان البارثون نفسه ومعبد الهيرا لاتيانيا فى أجريجنتم الذى وضعوه فى مكان أعلى من سطح البحر بكثير ولكنه ليس من التاريخ فى شئ أن ينسب اليهم حتى الى الذين بنوا البارثينون والبروپيل منهم معرفة ومرام فنية لم يفكر البشر فيها الا بعد ذلك بمائة سنة بل ان المماريين اليونانيين والنحاتين فى القرن الخامس قبل الميلاد لم يكونوا محيطين بكل شئ ولكن إذا تقدناهم فى حدودهم دذبه حكمنا بأن هؤلاء الفنانين

(١) أنظر دلفى للدكتور فردريك بونسن ص ٥٢ (يرى بعضهم أن الطريق المعوج كان موجودا قبل أن يبنى ذلك المذبح ومن سبب تعريجه اختلاف انحدار جوانب التل . ومع ذلك لم تظهر أية محاولة بقصد منها تصحيح هذا أو بحثه كعنصر من عناصر التصميم) .

في عصر بركليز كانوا لا يجارون في تمام المامهم بما نصبوا أنفسهم للقيام به وأن عدمهم كان العصر الذهبي لفن المعمار فهم حددوا في جميع الأوقات عناصر أساسية للفن وأقاموا مستوى للتحصيل في شكل واضح نقي لم يستطع الوصول إليه أى فن معمارى بعدهم .

طويت بسقوط أثينا صحائف هذا الفصل الباهر ولكن هذا لم يكن بأى حال من الأحوال آخر فن المعمار اليونانى والعصر الفضى الذى تبع ذلك بما فيه من فن هلينستى كان ممتعا لدرجة عظيمة وبنهوض المملكة المقدونية انتقلت المرحلة التاريخية من الاراضى الرئيسية الى المستعمرات الايونية على شاطئ آسيا الصغرى وأضحت المدن التى مثل إفسس وملتس على جانب عظيم من الرخاء والسعادة فموسولس هاليكارناسوس واتاليد البرجامون كان لها من الثروة مالم يكن ليحلم بها يونانيو مراثون .

فحكومة المدينة التى كانت تحارب باستيئاس في سبيل وجودها مدفوعة بدافع الغايات السامية الوطنية والدينية أصبحت أثرا بعد عين فهؤلاء اليونان الأيونيون قنعوا أتم القناعة بالاستمتاع بالنعيم والرخاء الذى يصحب المدنية المتوطنة دون أن يضطروا للمحاربة من أجلها ولا بد أن الجوالذى وجدوا فيه كان مخالفا لجوالحياة المجهدة عند يوناني القرن الخامس وزيادة على ذلك فاليونانى الايرنى تأثروا دون أن يشعر بالروح الأسبوية فكان بطبيعة مزاجه عاجزا عن الاحتفاظ بالمستوى الفكرى لفن العمارة اليونانى بالأراضى الرئيسية ومن ثم يظهر الفرق في جميع اتجاهات الفن ولعله أبين في النحت منه في المعمار .

أما تاريخ فن المعمار الهلنستى فلا يزال ينتظر التدوين وقد وصفه البعض بالانحطاط ولا شك في أنه مسئول عن اخراج بعض أشياء

فنية في منتهى الحقارة ولكن لا ننسى أنه اخرج لنا بجانب هذه الفكتورى في ساموتريس وهى من أبهى ماصنع في فن النحت كما أنه استحدث في فن المعمار بعض المدهشات ولا يجمل أن يقاس بمقاييس الفن التى سبقته وقد فك اليونانى الايونى بعض القيود وأفلت من العادات المتوارثة في الأراضى الرئيسية تلك العادات التى كانت دائما غريبة عن غرائزه الطبيعية فان اهتمامه بالامور الدينية البعيدة عن الشخصيات كان أقل من اهتمامه باظهار شخصيته فلم يفقه الوطنييه العالية والغايات السامية للجمال المطلق التى نفخت في روح بركليس وفنانيه في اكروبوليس والواقع أن في كثير من أعمال هذا اليونانى ما يسبب شعورا حديثا غريبا نما واشتد ظهره شيئا فشيئا بازدياد نفوذ روما عليه فروح الشخصية وروح الحقيقة وروح التجديد والروح التجارية التى تميز الفن الحديث كل هذه بدأت في الظهور في أعمال الفنين الهلنستيين في أيونيا ورودس والاسكندرية وأتينا نفسها في العصر الرومانى وقد ظهر في الفن الهلنستى آثارا مائلا على المدنية من تعقد فمع أنه كان أبهج وأزهى من الفن الدورى في القرن الرابع كان أيضا أملا بالمهارة في معالجة مسائل التخطيط والتصميم المعقدة . لم يحفل أحد بالبساطة القديمة في الوقت الذى فاضت فيه ثروة آسيا في خزائن الولايات الأيونية ويظهر الدليل على هذا الرخاء المالى في معابدهم الفخمة مثل معبد ارتيمس الثالث في أفسس وفيه يبلغ طول مجموعة الأعمدة ٣٤٢ قدما و ٦ بوصات وعرضها ١٦٣ قدما و ٩ بوصات أو معبد أبولود ريديمياوس الفسيح في ملتس ١٦٥ × ٣٦٠ قدما من مبدأ مجموعة الأعمدة الى نهايتها . أو الأثر المدهش وهو موسولس كاريافى هلكار ناسس أو مذبح برجمون العظيم والقطع الباقية لأعمدة معبد ارتيمس

الموجودة في المتحف الانجليزي الآن تدل على حجمه كما أنها تعطي المفكر أول اشارة الى السقوط الذي حل بالفن والمدنيه بعد ذلك بقرون فيونان العصور العظيمة ابتعدوا عن الزخرفة في انشاء مبانيهم وما كان ليخطر ببالهم قط أن يتناولوا خطوط أعمدتهم بطريقة تتعارض مع الغرض منها ولكن المعمارين اليونانيين الأفيسيين لم يقصروا على وضع أعمدتهم على قواعد عالية (تجعل منظرها أقل بكثير في الأثران والثبات) ولكنهم زينوا الجزء السفلي من أعمدتهم بتماثيل كانت على دقة صنعها العجيب غير ملائمة للمكان الذي وضعت فيه ولا يستطيع الانسان أن يتصور أن فيدياس يقع في مثل هذه الغلطة فالتحت اهلنستي على ما كان عليه في الغالب من نخامة في الصنع لم يتبوأ هذه المكانة الا بتضحية فن المعمار ومن العبث أن يبحث الانسان في أعمالهم عن حسن الاختيار وضبط النفس اللذين أعطيا لأعمال أسلافهم ذلك الامتياز الذي لا يفنى .

أدرك يونانيو القرن الخامس أن المعمار فن له غرض محدود وليس مجرد أداة للحفر وأنه يستفز حاسة الجمال عند الناس بتأثير صفاته الخاصة التي تلازمه وهي التناسق والتناسب وتوزيع المسافات والكتل والخطوط المحددة .

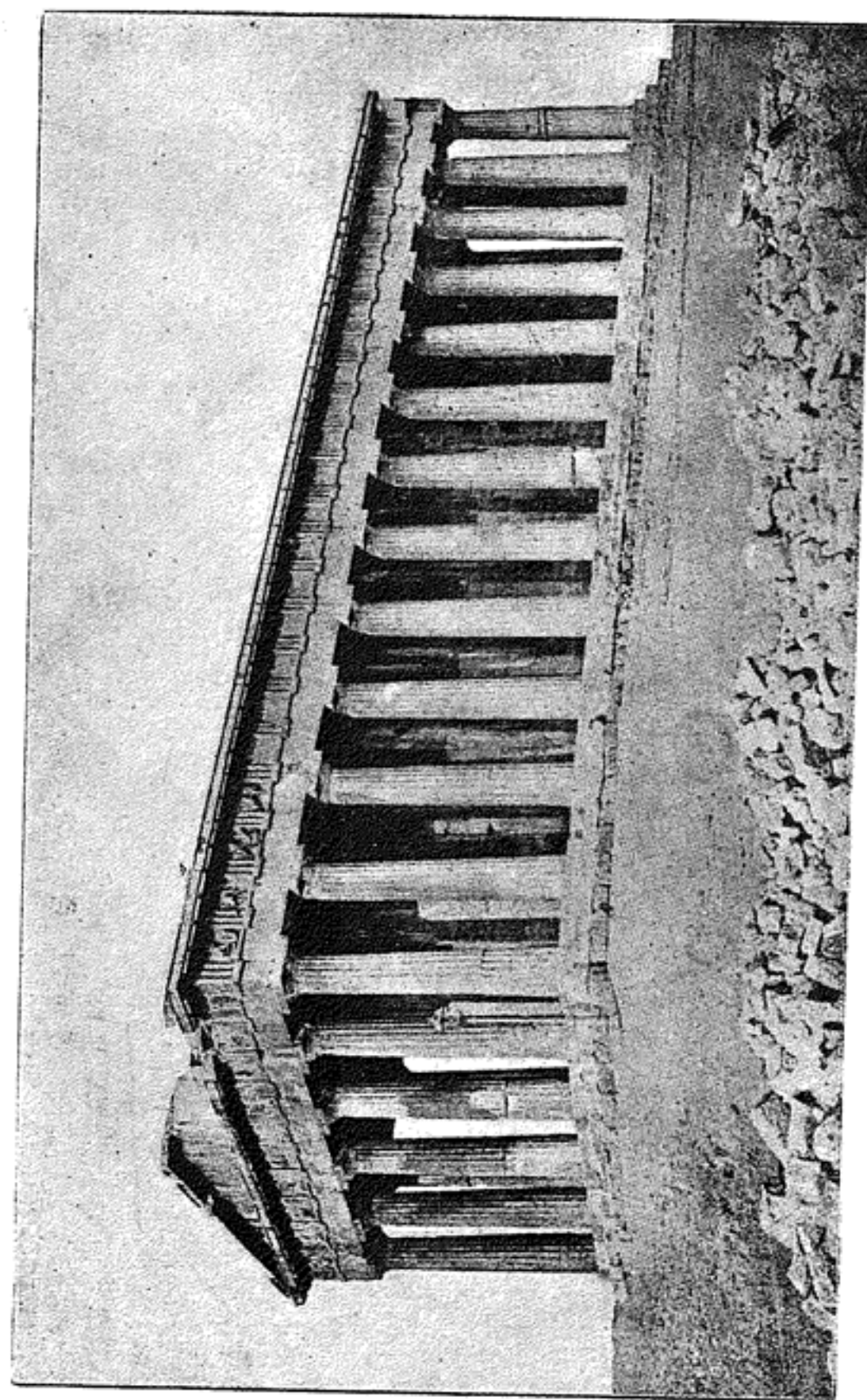
ومع أنهم كانوا يستخدمون النحت والتلوين ليعظموا أثر فن المعمار فانهم أدركوا بغاية الوضوح وظائف الفنون بعضها بالنسبة لبعض ولم يخرجوا النحت والتلوين عن حدود علاقتهما الدقيقة بالغرض التجميلي لفن المعمار ومما يستوجب الأسف أن المعمارين المتأخرين ضلوا في هذه النقطة فكثير من الأعمال الأولى في عصر التجديد إن هي الا زخرف للبناء بل ان فن المعمار انعدم وجوده في الأبنية التي مثل كرتوزا في باثيا . ويرجع معظم ما ظهر في الخمسين

سنة الأخيرة من فن ردىء الى المغالطة الموجبة للأسف وهى
عدّ الزخرفة من فن المعمار فأعمدة افسس والنحت الموجود فى مذبح
يرجا من على ما فيها من بهاء وكمال فنى كانت النذير الأول بالانحطاط
لذائ قدر له أن يقتلع الفن من أساسه وعندها هوى فن المعمار من
العرش الذى سيطر فيه على القوى الفكرية واتجه بالتدرج
فى الاتجاه الذى يصيره مسألة اصطلاحية اجتماعية وراثية ومن ثم
سهل انتقاله من غزارة الفن الهلينستى ومغالاته الى الانحطاط
الوضيع الظاهر جليا فى فن المعمار الزخرى الرومانى .

لم يكن هنا مفر من أن تتمحى البساطة الظرفية للفن
البركليزى بانحاء غاياته ويعوض علينا ذلك الى حد ما ازدياد المجال
والمرمى فى فن المعمار ازديادا نحن مدينون به للمعماريين الهلينستيين
فى القرن الرابع قبل الميلاد والقرون التى أعقبته فأما من حيث كمال
الشكل فمن المحال أنه كان فى استطاعة أحد أن يقدم الفن خطوة
وراء المكانة الرفيعة التى أوصله اليها به إكتنوس وكالكراتوس
ولكن بقى شئ آخر فى غاية الأهمية كان لابد من عمله وهو التخطيط
المحورى ومراعاة علاقة كل بناء بالآخر فقد كان على ما يظهر بعيدا
عن ادراك يوناني القرن الخامس فكانوا ينظرون لكل بناء كوحدة
مستقلة لا صلة له بما حوله ولكن المضايقة التى نشأت عن ذلك
والفرص التى ضاعت والحاجة الى النظام والقواعد لا بد أن تكون
قد تجلت وازدادت وضوحا لهم بازدياد ما يصحب المدنية من
تعقيدات وتكاليف مرهقة ولم ينته القرن الرابع قبل الميلاد الا
وقد استتبّت التقاليد الفنية فى المعمار واستطاع المعماريون أن يحولوا
عنايتهم الى الاهتمام بمسائل التخطيطات الكبيرة فعالجوها على
ما يظهر بمهارة خارقة للعادة فقد كان ماتم فى هذا السبيل الى ذلك

الوقت راجعا الى أثروحي ديني كما هو الحال في طرق لمواكب التي تصل الى المعابد المصرية أو في شارع التماثيل في برانشيدى .
والذى عمله الهلنستيون هو أنهم فكروا في خطط متتابعة لتخطيط المدن كان الباعث الترتيبي المسيطر عليها فكانوا قد تعلموا النظر الى معابدهم ومبانيهم العامة والميادين المكشوفة والطرق الموصلة اليها كعناصر تتركب منها مجموعة متوافقة استخدمت فيها المزايا الطبيعية للمكان خير استخدام فليل مثلا أنه كان في إفيسس خطة متتابعة أكبر من أى خطة مناظرة اليها قام بها الفرنسيون في القرن الثامن عشر ولو أننا يجب أن نذكر أن الأدلة على ذلك أكثرها تخميني وهذه الخطة كما بسطها الواقفون منها المتحمسون لها كانت خطة نخمة بعد ذلك تأتي الميناء وأمامها في أحد جوانبها الترسانة وهى بناء منتظم يصل منه الانسان الى فناء محاط بمجموعة أعمدة ومنه يصل الى المكان (أو الميدان) العظيم وهو منحصر مربع الأركان يمتد نحو ٨٥ قدما من الشمال الى الجنوب ونحو ٦٥ قدما من الشرق الى الغرب ^(١) يحاط بمجموعة أعمدة من الأربع الجهات به دخلات مضلعة أو نصف دائرية وفي وسط هذا الميدان (فسقية) متطاولة نحو ٣٠٠ × ٢٠٠ قدما وفي الجانب البعيد تجاه مباني الترسانة مجلس السناتو ومبان عمومية أخرى ووراء هذه المباني وعن يمينها وشمالها المسرح وميدان الألعاب محفورة لحد ما في مونت كروسس وهذه الترسانة والميدان العظيم والفسقية والمباني العامة كلها مصممة على خط محورى وعلى مسقط أفقى منتظم ومتطاول .

(١) ميدان فندوم طوله ٤٥٠ قدما وعرضه ٤٢٠ قدما وميدان حروفز نحو ٦٥٠ × ٥٣٠ ولنكن أن فيلدر نحو ٨٠٠ × ٦٣٠ إذا قيست من حائط لحائط في المباني المحيطة .



(شکل ۶) معبد تزئینات بائینا

خطة كهذه (اذا كان من الممكن أن تتقبل تجديدا تخمينيا) فكر فيها تفكيرا دقيقا من جميع نواحيها دلت عن تقدم حقيقى فى مضمار فن المعمار . ومن العيب أن نبحث عن الجمال الخالى من العيوب فى القرن الخامس ، ولكن مهارة المعمارين الهليستين وقدرتهم الابتكارية أكسبت الفن معنى جديدا بل نكون محقين اذا قلنا أنهم وضعوا أساس الخطوة الأولى فى تنمية طرقه العملية الحديثة ومن هؤلاء المعمارين الهلينيين تعلم الرومانيون التخطيط الأثرى لمدينتهم ومرت قرون كان أغلب المعمارين المستخدمين فيها للأعمال الفنية من يوناني آسيا الصغرى وفى ذلك الحين اندمج فن المعمار الهلينستى فى الفن الرومانى وفقد مميزاته الخاصة ثم تسرب خلال الفن الرومانى فانتقل الى العمارة الحديثة وهكذا تمت السلسلة الى حد ما ولكن هناك خليجا عظيما محدودا يفصل هذا الفن الحديث من الفن اليونانى الصميم ولا تنحصر الفروق فى الفنيات فحسب بل تتناول كذلك المرمى والغاية والمزاج وسيظل الفن الدورى العظيم الذى يتجلى فى البستوم والسليوس والسجستا والتيزيون والبارثون دائما يعبر عن الروح اليونانية القديمة .

ومن تهكمات التاريخ أنه لما تنبه طلاب العلم والفنون فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الى أنه كان فى الزمن الماضى فن معمارى عظيم لم يقدر لهم أن يعرفوا من هذا الفن القديم سوى صورته الرومانية ما أبهر التقدم الذى ربما كان يطرأ على الفن لو أن تلك الأرواح النقية البهية التى ظهرت فى عهد النهضة أمثال ألبرتى وبرامانتى أو بيروزي أسست نظرياتها الفنية المعمارية على ما كان فى معابد صقلية وماجنا جريشيا عوضا عن الأمثلة المنحطة التى وجدتتها فى روما الملكية كانوا عندئذ يفوزون على

الأقل بلمحة من الجمال المعنوي للشكل والتوافق الكامل الذى لم ينكشف سره على ما يظهر الا لليونانيين وحدهم من بين سائر شعوب الدنيا ولم يكن ذلك الا فى فترة وجيزة من تاريخهم ومما يؤسف له أنه عند ما استكشف فن المعمار اليونانى فى الشطر الثانى من القرن الثامن عشر أصبح سرا مكتوما بين مهرة الفنانين واندثرت التقاليد الوطنية فى كل من فرنسا وانجلترا وأصبح الفن المعمارى اليونانى سائدا وأصر المتقربون الأدعياء والغواة بدافع تمسهم الضال على النقل الحرفى الذى أتم اطفاء شعلة فن المعمار كفن أهلى واعتاض عنه بسلسلة من احياء للقديم ظلت منكوبة بها طول المائة وخمسين سنة الأخيرة . وهكذا أدى ذلك التلاعب وهذه الفوضى فى الفن عن شعور بها وتعمد لها الى ابادته .

لا يمكننا مطلقا أن نعلل النفس بالأمل فى أحياء فن المعمار اليونانى من جديد ويجب ألا نحاول تحقيق ذلك . لقد قرر مرة معمارى استكلندى شهير أن العمود والعتب كانا الوسيلة الوحيدة المعتمدة فى الانشاء وبهذا التقييد وبتفصيلات يونانية أساء اختيارها أخرج بعض مبان خيالية قبيحة . وقد جرى على مثل هذه الخطة فى التفكير أحد مشاهير الفنانين فى القرن الماضى فندد بطرق فى الانشاء لا يديحها الانجيل القديم وكلاهما كان بعيدا عن الغرض المقصود لأن فوق التفاصيل الفنية المعمارية تقوم الروح التى بها ينغمس المعمارى فى عمله والنظرة الفكرية التى يلقها الفنان على فنه تتجلى هذه فى أبواب متنوعة الأشكال مختلفتها . كانت تلك النظرة فى الفن المعمارى اليونانى ابان العصر الذهبى محدودة وواضحة وكانت نظرة تنطوى على درس نحن فى شدة الحاجة اليه فى هذه الأيام فقد كان قصد اليونانى وغايته هو جمال الشكل . وهذا الجمال الذى كان ينشده فى أول

في أول أمره كرمز للتعبير عن ديانته أصبح في النهاية هو نفسه ديناً تقريباً . وقد أوقف اليوناني على تحقيق تلك الغاية كل قواه بألوجهدا في تهذيب عمله حتى يصل الى النهاية العظمى من الكمال الممكن وقد غمس نفسه في هذا العمل من غير أن يفكر في التعبير عما تكنه نفسه من تصور للجمال الالهي الصامت ولم يخطر بباله أن مشاعره جدية بأن يحتفظ بها وفي الحفر في العصر العظيم كانت ملامح الوجه عادة تدل على (هدوء لا يشوبه اضطراب) ومع أن العواطف الدينية كانت أصل العمل ومهبط الوحي به فقد كان عمله هذا بعيدا عن الشخصيات وقد كان بعيدا عن الشغف الشديد بالاعلان عن النفس مما جعل كثيرا من الفن الحديث ممتعا من وجهة علم وظائف الأعضاء وفيما عدا ذلك محتقرا كما أنه لم يكن لديه شيء من المهارة الفنية فلم يكن المصطلح الفني عنده موضع عناية في ذاته . نعم ان هذا المصطلح صار غاية في الفن الهلينستي وليس في العصر الذهبي وفي الحقيقة قد كان أحيانا مهملا تقريبا التمثيل الحقيقي كما أنه لم يتبع في فن المعمار الطريقة التي تعتبر مجرد اظهار للعلم .

وكان في بحثه عن الشكل الجميل يقف على قارعة الطرق القديمة ثم يسير بثبات متجلدا هادئا نحو غرضه المعين . هكذا سارت العبقرية اليونانية تعني بما هو أحدث وتسعى له أقل من سعيها وراء ما هو أحسن ويبذل اليوناني في تنسيق الصور والأشكال الجهد الذي يبذله غيره في ابتكارات يغلب عليها العقم حتى يصل في نهاية الأمر بالمجهود المناسب ^(١) الى أكبر اتقان ممكن .

(١) شوازي في تاريخ فن المعمار المجلد الأول ص ٢٩٨

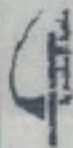
لم تأت الا فترات نادرة منذ ذلك الحين كان الفن المعماري فيها يتقدم بنفس الغرض الهادئ الثابت في غير تردد . ومثال تلك الفترات الفن المعماري الجوتيكى في خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وفي فرنسا وانجلترا في فترات معينة من القرن الثامن عشر عند ما كانت التقاليد لا تزال عاملة حية والفنيون قانعين بأن يتركوا الحسن آخذاً مجراه ولا يعكرون عليه صفوه .

يظهر أن الظروف الحديثة على طرفي نقيض مع الوجهة اليونانية في الفن فالفنون الآن تظهر في وعاء الكيمياء ولفحصها فمستوى التحصيل عند القدماء يداس بالأقدام والأنبياء يخطئون في نبوءاتهم وقد طلب الينا من عهد غير بعيد أن نتلمس الوحي من (شياطين) الساحل الذهبي واذا كان غرض الفن أن يتفوق على اخوانه في الوحشية فنعمت النصيحة هذه وقد بررنا قد حديث مهازل بعض الفنانين بما كانوا في حاجة اليه من الاعلان عن أنفسهم . وذلك بلا ريب أقرب وسيلة لا حراز النجاح العاجل ولكن المسألة التي يحتملها الناقد ليست إعلاء شأن الفن نفسه بل تقدير قيمة عمله وهذا يدعو للتساؤل عما اذا كان تطلع المرء الى أن يصيح بصوت أعلى من صوت جاره قد أمدّه في أية فترة من فترات تاريخ الفن بوحى يعينه على الاتيان بعمل فنى جليل . ومما لا مشاحة فيه أن وجهة نظر اليوناني كانت على تمام النقيض من ذلك فإنه لم يسع الى الاعلان والشهرة بالسعادة عنده كانت في تصويره النفساني للجمال وقد انكب على تحقيق ذلك في نفسه ولم تكن عنده أدنى رغبة في أن يصدّم أو يزعج أى مخلوق . نعم إن هناك مواقف يضطر الانسان فيها الى القيام بمناورات الصدم و (الازعاج) ولكن هذه ليست ضرورية في كل يوم من أيام الأسبوع كما انه لا حاجة بالانسان الى اباداة كل مظاهر الماضى قبل أن يشرع في العمل متزويّا في ركنه الضيق من الفن .

والذى نحتاج اليه فى الفن الحديث هو الشعور بهذه الروح اليونانية القديمة وادراك قيمتها بعض الادراك . فالليونانيون فى عصر بيريكليس لم يرغبوا فى التجديد ولا فى الثورة فساروا الى الأمام على سنن القدماء بغير تعجل أو تلهف وقد استطاعوا أن يفعلوا ذلك لأن الفن كان ممتزجا بحياتهم اليومية الى حد أنهم فى الفنون التشكيلية لم يكونوا يستطيعون أن يغيروا أساليبهم فى التغييرات الفنية أكثر من استطاعتهم تغيير لهجاتهم فى الكلام . وقد قضى على وجهة نظرهم العالية فى الحياة هذه ومن الصعب استعادتها بين النظم الحديثة للحياة الاجتماعية والحكومة السياسية الحالية وربما لم يكن فى الامكان تحقيقها الا تحت ظل الديمقراطية الحقة التى سادت فى دولة المدينة اليونانية الصغرى حيث كان كل فرد يأخذ قسطه من الحياة المنظمة فى المجتمع ومع ذلك فان المثل الأعلى اليونانى لا يزال باقيا ففى تمسنا التشنجى للأغراض الشريفة ونحن فى ثورة عزيمتنا الصادقة وأحكامنا الطائشة ومجهودنا السامى ونظريتنا التجارية العارية لا يزال الفن اليونانى فن قدياس وأكتيناس الأم الرؤوم التى اليها يجب أن نرجع وأن الدرس الذى نتلقاه عن البرثون لهو درس للصورة الثابتة للجمال التى نجلها فوق مجهود الأفراد وزلاتهم متجلية فى شكل بسيط شائق رصين وليس فى تفاصيل معقدة التركيب ولا فى شذوذ مقدر . فهى تعلمنا أن ليس فى الفن طرق مختصرة وأن الفوضى بمعنى القضاء على كل ما فزنا به فى الماضى ليست من التقدم فى شىء بل هى الطريق الأكيد الى دوة الهمجية التى لا قرار لها وأن اليونانى بدلا من أن ينبذ عمل أجداده قد واصله الى حد الكمال وبني صرح فنه على أساس وطيد لأنه لم يحول نظره يمينا ولا شمالا بل ظل متوجها بثبات نحو النور والهدى .

(الخطبة "المهجرة" ٤٠٢٤ من ١٩٢٧-١٠٠٠)

Bibliotheca Alexandrina



0432155